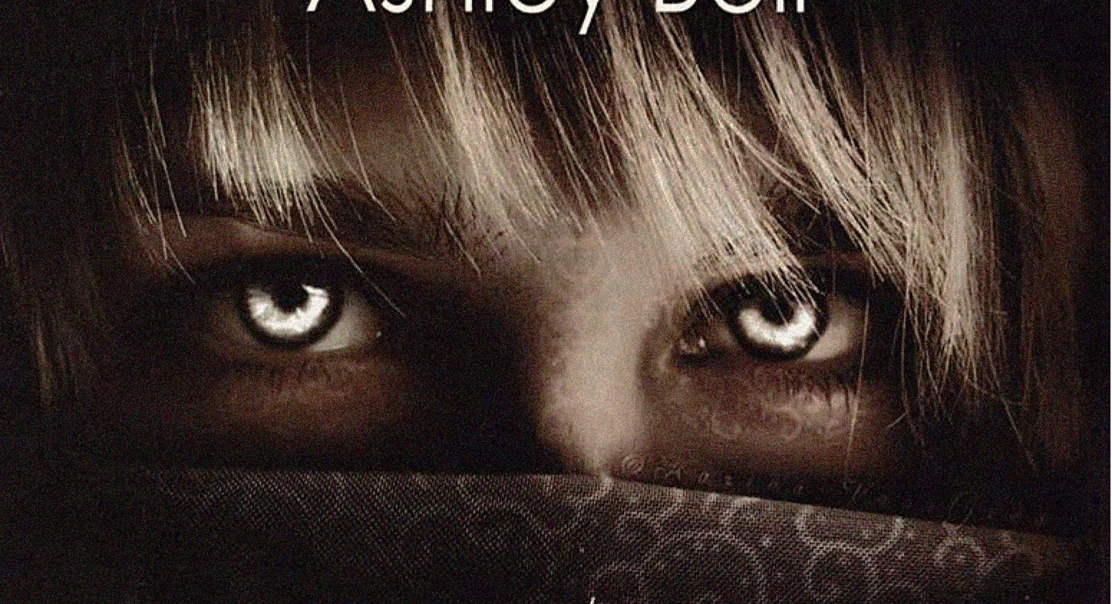
أكثر الكتب مبيعاً على لائحة «نيويورك تايمز»

دين كونتز

DEAN KOONTZ

اَشلي بيل

Ashley Bell



رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

آشلي بيل

Ashley Bell

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

ASHLEY BELL

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Bantam Books, an imprint of Random House a
division of Penguin Random House LLC, New York

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2018 م - 1439 هـ

ردمك 978-614-01-2466-0

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

دين كونتز

DEAN KOONTZ

آشلي بيل

Ashley Bell

ترجمة

عبد الرحمن النجار

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بكثير من الحب، أهدي هذا الكتاب إلى سوزان
(أليسون) كاثرس، أختي غير الشقيقة. شكرًا
لكِ على ثلاثين عامًا من الود والتميز.

إنّها تسمع الأغنية في بيض الطيور

جيمس ديكي، النوم في عيد الفصح

-1-

آشلي بيل

-1-

الفتاة التي لم يتوقّف عقلها عن التفكير قط

في العام الذي بلغت فيه بيبي بلير العاشرة من العمر – وكان ذلك قبل اثني عشر عامًا من زيارة الموت لها – تلبدت السماء بغيوم الحزن يوميًا في الفترة ما بين يناير/ كانون الثاني ومنتصف مارس/ أذار، وانهمرت دموع الملائكة بشدّة على جنوب كاليفورنيا. هكذا وصفت الأمر في مذكراتها؛ سماء حزينة وأيام وليالٍ تغتسل بحزن الملائكة، بيد أنّها لم تخمّن سبب هذا الحزن.

في ذلك الوقت، كانت تكتب قصصًا قصيرة إلى جانب الاحتفاظ بمذكرة شخصية. في ذلك الشتاء الممطر، تناولت قصصها البسيطة حكاية كلبٍ يدعى جاسبر هجره صاحبه ذو القلب المتحجّر على شاطئ في جنوبي فرانسسكو أثناء هبوب عاصفة شديدة. وفي كلّ من تلك القصص الخيالية القصيرة، كان جاسبر – الكلب الهجين ذو اللونين الرمادي والأسود – يعثر على منزل جديد. ولكن في نهاية كل قصة، كان يكتشف أنّ منزله ليس دائمًا لسبب أو لآخر. ولأنه كان عازمًا على الاحتفاظ بمعنويات مرتفعة، فقد سافر جاسبر الطيّب جنوبًا – لمئات الأميال – في رحلة بحث عن منزله الأبديّ.

بيبي فتاة سعيدة لم تعرف الحزن؛ لذا، بدا غريبًا لها في ذلك الوقت – ولسنوات عديدة بعد ذلك – أنّ اتجهت إلى كتابة عدّة قصص حزينة عن كلب هجين وحيد يبحث عن حب لم يعرفه إلا قليلاً. لكنها لم تدرك معنى ذلك إلا بعد عيد ميلادها الثاني والعشرين.

كل الناس يشبهون غراب العقعق بشكل ما. وكانت بيبي مثلهم، لكنها لم تدرك ذلك وقتئذٍ. وقد مرّ وقت طويل قبل أن تدرك بعض الحقائق التي

كانت قد أخفتها في قلب غراب العقعق خاصتها.

كان غراب العقعق – وهو طائر له ريش مبرقش زاهٍ وذيل طويل – عادة ما يختزن الأشياء التي يهاجمها بسرعة البرق؛ مثل الأزرار وقطع الخيط، ولفائف الأشرطة، وحبات الخرز الملونة، وشظايا الزجاج المكسور. وبعد أن يخفي هذه الكنوز عن العالم، كان الغراب يبني عشًا جديدًا في العام التالي وينسى مكان كنزه؛ وهكذا – وبعد أن أخفى المجموعة حتى عن نفسه – يبدأ الطائر رحلة جديدة.

يخفي الناس أسرارهم عن أنفسهم. وهذا الخداع للذات هو آلية للتعامل مع النفس. ولسبب أو لآخر، معظم الناس يبدأون في خداع أنفسهم وهم أطفال.

في ذلك الشتاء الممطر – عندما كانت في العاشرة من العمر – عاشت بيبي مع والديها في منزل صغير من طابق واحد في كورونا ديل مار، وهو حيّ جميل في مدينة نيوبورت بيتش. وعلى الرغم من أنّهم كانوا يسكنون على بُعد ثلاثة أحياء فقط من المحيط الهادئ، فلم يكن لديهم إطلالة عليه. في أول سبت من أبريل/ نيسان، كانت تجلس بمفردها على كرسيّ هزّاز في الشرفة الأمامية من المنزل ذي السقف الخشبي العتيق، في حين كانت الأمطار الدافئة تنهمر على النخيل وأشجار التين، وتصدر أزيزًا على الأسفلت مثل صوت غليان زيت حارّ في مقلاة.

لم تكن بيبي طفلة كسولة. فقد ظلّ عقلها دومًا مشغولاً ويفكر. كان لديها كرّاسة صفراء ومجموعة من أقلام الرصاص الخشبية التي كانت تنسج بها فصلاً آخر من ملحمة جاسبر الوحيد، وذلك حين لمحت حركة بطرف عينها، فنظرت إلى الأعلى لترى كلبًا مبللاً ومتعبًا يصعد الرصيف من البحر البعيد.

في سن العاشرة، لم يكن إحساس الدهشة قد انطفأ لديها؛ وقد شعرت أنّ تغيرًا مفاجئًا في الأحداث على وشك أن يحدث. وفي غمرة حماسها الزائد، وضعت الكرّاسة والقلم، ونهضت عن الكرسيّ، وذهبت إلى السلالم عند مقدمة الشرفة.

لـم يبـدُ الكلـب مثـل الكلـب الهجين فـي قصصها على الإطـلاق. وقد وقـف كلـب الصيـد الضعيف ذهبـيّ اللون عند التقاء الممـر الخاصّ بالمنزل بالرصيـف العـام. نظرت الفتـاة والوحش إلى بعضهما البعض، ثمّ نادت عليه قائلة «هنا يا فتى، هنا». تطلّب الأمر ملاطفته قليلاً، لكنه اقترب من الشرفة في نهاية المطاف وصعد السلالم. انحنت بيبي إلى الأسفل حتى تنظر في عينيه، فوجدتهـا ذهبيـة مثـل لونه. قالت «رائحتك نتنة». فتثاءب الكلب وكأنّ رائحته النتنة ليست شيئًا جديدًا بالنسبة إليه.

كان يضـع طوقًـا جلديًـا باليًـا وقـذرًا، ولـم يتدلّ منه أي شـيء يدل على هويته، أو يعلّق عليه أيّ قصاصات ورق عليها اسم ورقم هاتف صاحبه، وهو ما يتوجّب على مالكه أن يفعله.

أنزلـت بيبـي الكلـب عـن الشـرفة، وسـارت به تحت المطـر، ثمّ دخلت إلـى فنـاء ممهّـد بالطوب تبلغ مسـاحته ثلاثين مترًا مربعًـا ومحاطًا بجدار من الجصّ لضمان الخصوصية من الجهتين الشرقية والغربية للمنزل. وفي الجهة الجنوبية، استقرّت سيارتان في مرآب مفتوح على زقاق. وكانت هناك سلالم خارجية تؤدّي إلى شرفة صغيرة وشقّة تقعان أعلى المرآب. وقد تحاشت بيبي النظر إلى الأعلى صوب تلك النوافذ.

طلبت من الكلب أن ينتظرها عند الشرفة الخلفية، بينما دلفت إلى المنزل. وقد تفاجأت من أنّه ظل في مكانه عندما عادت وهي تحمل منشفتين وشامبو ومجفف للشعر ومشط. وقد جرى برفقتها عبر الفناء، وخرجا من تحت المطر ودخلا إلى المرآب.

بعـد أن أشـعلت مصابيـح المـرآب – ونزعـت الطوق المبلل والمتسـخ عن عنقه – رأت شـيئًا لم تلاحظه من قبل. فكّرت في رمي الطوق في قمامة المـرآب، ودفنـه تحـت النفايـات، لكنها عرفت أنّ هـذا خطأ. لذا، فقد فتحت درجًا في الكابينة المجاورة لطاولة العمل الخاصّة بوالدها، وأخرجت قماشًا مصنوعًا من جلد الشمواة من بين أغراضه، ولفّت الطوق به.

صدر صوت من الشقّة العليا؛ صوت جلبة عالية قصيرة. نظرت بيبي إلى سقف المرآب في هلع، حيث كانت عوارض السقف المفتوحة التي تبلغ مساحتها أربعة وعشرين مترًا مربعًا تزينها خيوط العنكبوت.

ظنّت بيبي أنّها قد سمعت صوت صراخ منخفض أيضًا. وبعد أن أرهفت السمع للحظات، قالت في نفسها لا بد أنها تتخيّل.

بين اثنين من العوارض - المضاءة بمصباح مغطى بالغبار مثبت في تجويف من السيراميك الأبيض - تراقص عنكبوت ضخم من خيط إلى خيط، ليعزف على القيثارة الحريرية موسيقى لا يمكن للبشر سماعها.

فكرت بيبي في العنكبوت تشارلوت، التي أنقذت الخنزير ويلبور، في كتاب إي.بي. وايت شبكة تشارلوت. ولبضع لحظات، لم تكن بيبي مدركة لصورة المرآب الخيالية التي كبُرت في عقلها وأضحت أكثر واقعية من الحقيقة:

المئات من العناكب الصغيرة اليافعة - وهي من ذرية تشارلوت الحديثة التي خرجت من كيس البيض الخاص بها بعد أسابيع عديدة من وفاتها الحزينة - تقف على رؤوسها وتشير بمغازلها نحو السماء، لتنثر سحبًا صغيرة من الحرير الناعم. شكّلت السحب بالونات صغيرة، وأصبحت العناكب الصغيرة تطير. وقد سيطر الذهول والفرح على الخنزير ويلبور - ولكن مع قليل من الحزن - بينما كان يشاهد الأسطول الجوي يبحر إلى أماكن بعيدة، وقد تمنى الخير لهم، لكنه كان حزينًا أيضًا لأنّه سيُحرم من آخر صلة له بصديقته الفقيدة تشارلوت...

بأنين ضعيف ونباح ناعم، أعاد الكلب بيبي إلى واقع المرآب.

وفي وقت لاحق - بعد أن اغتسل الكلب وجرى تجفيف وتسريح شعره - وبعد توقف المطر لبعض الوقت، اصطحبته بيبي إلى داخل المنزل. وعندما أرته حجرتها الصغيرة، قالت «إذا لم يغضب أبي وأمي بشدة عندما يريانك، فستنام معي هنا».

راقبها الكلب باهتمام وهي تخرج صندوقًا من الخزانة. وقد احتوى الصندوق على كتب لا مكان لها على الأرفف المحيطة بفراشها. أعادت ترتيب مواضع الكتب بحيث أوجدت مساحة وضعت فيها الطوق الملفوف بالشمواه، ثمّ أعادت الصندوق إلى داخل الخزينة.

قالت للكلب «اسمك أولاف»، وقد ردّ على هذا التعميد بأرجحة ذيله. ثم قالت «أولاف. يومًا ما سأخبرك بسبب اختيار الاسم».

مع مرور الوقت، نسيت بيبي أمر الطوق لأنّها أرادت ذلك. وقد مرّت تسع سنوات قبل أن تكتشفه داخل صندوق الكتب. وعندما عثرت عليه، لفّت الشمواه حوله مجددًا وبحثت عن مكان جديد لتخفيه فيه.

-2-

بعد اثني عشر عامًا،

يوم مثاليّ آخر في الجنة.

يمثّل الثلاثاء الثاني من شـهر مارس/ أذار – مع أحداثه الفظيعة وتهديد الموت المفاجئ – بداية النهاية لبعض الناس، لكن بيبي بلير – التي تبلغ الثانية والعشرين من العمر الآن – ستصفه باليوم الأول في نهاية المطاف.

استيقظت فجرًا ووقفت بجوار نافذة حجرة النوم، وكانت تتثاءب وتراقب الشـمس وهي ما تزال تشـرق لتعلن عن وصولها بلافتات من الضوء الوردي المرجانـي، إلـى أن ظهـرت في السـماء وأبحرت غربًا. كانت مغرمة بشـروق الشـمس، أو البدايات. وكان كل يومٍ يبدأ واعدًا، فقد يحدث أي شـيء جيد. بالنسبة إلى بيبي، كانت كلمتا خيبة الأمل محفوظة للأمسيات، وذلك إذا كان اليـوم سـيئًا بحـق. كانـت شـخصية متفائلة. وقـد قالت أمها ذات مـرّة إنّها إذا أعطيت الليمون، فلن تصنع بيبي منه عصير الليمون، وإنّما ستحيله إلى خمر إيطالي بنكهة الليمون.

بـدت الجبـال البعيـدة – المختبئة في زرقة الصباح – مثل متاريس تحمي المملكـة السـاحرة لمقاطعة أورانج من القبـح والاضطراب الذين لوثا الكثير من أنحاء العالم هذه الأيام. وعبر سـهول كاليفورنيا، بشّـرت شـبكات الطرق التـي تزينهـا الأشـجار، والمتنزهـات العديدة في المجتمعات السـكنية الراقية الكائنة في المقاطعة الجنوبية بحياة سلسة حافلة بأحداث ساحرة لا نهاية لها.

كانت بيبي في حاجة إلى أكثر من مجرد وعد. كانت لديها أحلام كبرى وهـي فـي عمـر الثانية والعشـرين، مع أنها لم تسـمّها أحلامًـا؛ إذ أنّ الأحلام

أمنيـات خياليـة نـادرًا مـا تتحقـق. ونتيجة لذلك، فقد أسـمتها توقعات. كانت لديها توقعات كبرى، وكانت ترى الوسائل التي بلا ريب ستحققها.

كان بوسـعها في بعض الأحيان أن تتخيل مسـتقبلها بوضوح شـديد إلى الحد الذي يكاد يجعلها تشعر وكأنّها قد عاشته سلفًا وباتت تستحضره كذكرى الآن. حتـى يحقـق المـرء أهدافـه، فإنّ المخيلة لها نفس أهمية السـعي الجاد. فليس بمقدورك الظفر بجائزة ما لم تتخيل ما هي وأين يمكنك العثور عليها.

بينمـا كانـت تحـدّق في الجبال، فكّرت بيبي في الرجل الذي سـتتزوجه، وحب حياتها الذي يعيش الآن في أقاصي الأرض في مكان يغرق في الدماء والخيانة. رفضت أن تشعر بالخوف الشديد عليه، فهو قادر على الاعتناء بنفسه تحت أي ظروف. لم يكن أحد أبطال الحكايات الخيالية، بل كان بطلاً حقيقيًا، والمرأة التي سـتكون زوجته عليها أن تكون صلبة العود مثله حيال المخاطر التي يواجهها.

«أحبـك يـا باكسـتون» تمتمـت مع نفسـها مثلمـا تفعل عـادة، وكأنّ هذا الإعلان تعويذة سـحرية سـتحميه بصرف النظر عن آلاف الأميال التي فرّقت بينهما.

بعد أن اغتسلت وارتدت ملابسها – وبعد أن التقطت الصحيفة من أمام عتبـة البـاب – دلفـت إلـى المطبخ عندما كانت آلـة إعداد القهوة تخرج كوب القهـوة السـادس فـي وعـاء بايركس. كان الخليط الـذي تفضّله ذا رائحة قوية وغنيًـا بالكافييـن للغايـة لدرجة أنّ البخار الصادر عن القهوة قادر بمفرده على تبديد النعاس.

كانت كراسي حجرة الطعام العتيقة تتميز بأرجل حديدية مطلية بالكروم ومقاعد جرى تنجيدها بالفينيل الأسـود، فكانت على طراز خمسـينيات القرن الماضـي، وهـي الفتـرة التـي أحبتها، حيث كان العالم ما يزال لـم يفقد رشـده بعد. جلسـت على الطاولة المطلية بالكروم والمغطاة بغطاء بلاسـتيكي أحمر اللون، وبينما كانت تقلب صفحات الجريدة، شربت أول كوب قهوة لها في

هذا اليوم، وكانت تسميه «أيقظني أيها الكوب».

ومـن أجـل المنافسـة في عالم تنقل فيه وسـائل الإعـلام الرقمية الأخبار أسـرع بكثيـر مـن المطبوعات، اختار ناشـر هـذه الصحيفة أن يخصص القليل من الصفحات فقط للأحداث العالمية والوطنية، بغية حفظ مساحة للقصص الإنسانية الطويلة الخاصة بسكان المقاطعة. وبوصفها روائية، فقد وافقت بيبي علـى ذلـك. وكحـال كتب الخيال القيّمة، فإنّ أفضـل كتب التاريخ كانت أقل اهتمامًـا بالأحـداث الكبرى، واهتمت أكثر بالأشـخاص الذين تأثرت حياتهم بقـوى لا يمكنهـم التحكـم فيهـا. بيد أنّ في مقابـل كل قصة عن زوجة تكافح الموظفين الحكوميين البيروقراطيين الكسولين للحصول على الرعاية المناسبة لزوجها الذي بات عاجزًا بسـبب الحرب، كان هناك قصة أخرى عن شـخصٍ مـا جمـع مجموعـة هائلـة من القبّعـات الغريبة أو كان يكافح حتى يُسـمح له بالزواج من ببغائه المدلّل.

مثل الكوب الأول، كان الكوب الثاني ممتلئًا بالقهوة السوداء، وقد شربته بيبـي وهـي تأكل كرواسـون بالشـيكولاتة. وعلى الرغم مـن كل الدعاية حول الأمر، فلم تصدّق أنّ الإفراط في شـرب القهوة أو اتباع حمية غذائية بالزبدة والبيـض هـي تصرفـات غيـر صحية. لم يكن لديها سـوى حيـاة واحدة، وقد عزمت على عيشها بشتى السبل، وستتناول اللحم المقدد وكل ما تشتهيه.

أكلـت شـطيرة كرواسـون ثانيـة، وقد قضمت قطعة منها بـدا مذاقها مثل الحليب الفاسد. فبصقتها في الطبق ومسحت لسانها بمنديل.

كان المخبز الذي تتردد عليه موثوقًا على الدوام. ولم تتمكن من ملاحظة عيب ما في الحشو الحلو الذي بصقته. تفقدت رائحة الكرواسون، فلم يكن ثمة شيء غريب. ولم يكن بوسعها رؤية أي مادة غريبة تلوثها.

أخذت قضمة أخرى بتردد، فكان مذاقها عاديًا. أم أنّ ثمة شيء ما؟ ربما هناك قدر ضئيل جدًا...من شيء ما. وضعت الكرواسون في الطبق؛ إذ كانت قد فقدت شهيتها.

كانت الصحيفة في هذا اليوم تعجّ بقصص عن جامعي القبعات الغريبة وأمثالها. وضعتها جانبًا، وحملت كوب القهوة الثالث، وذهبت إلى مكتبها في الجانب الأوسع من الشقة ذات حجرتي النوم.

جلست أمام الكمبيوتر، وعندما فتحت ملف القصة القصيرة التي لم تنجزها بعد، والتي ما انفكت تكتب وتتوقف عن الكتابة لبضعة أسابيع، حدّقت لبعض الوقت في اسم الكاتبة: بيبي بلير.

كان والداها قد منحاها اسم بيبي ليس لأنّهما كانا قاسيين أو غير مباليين بمتاعب طفلة محملة باسم غير عادي، ولكن لأنّهما كانا مرحين أكثر من اللازم. يُنطق اسم بيبي *Beebee*، وهو اسم مشتقّ من الكلمة الفرنسية القديمة *beubelot*، وتعني الدمية. لكنها لم تكن دمية لدى أيّ أحد؛ لا في السابق، ولن تكون كذلك في المستقبل.

كان هناك اسم آخر مشتقّ من كلمة *beubelot* وهو فقاعات. وهذا اسم أسوأ. كان سيتعين عليها تغيير هذا الاسم إلى شيء أقلّ إثارة سخرية وإلاّ فلتمتهن رقص التعرّي.

عندما بلغت سن السادسة عشر، كانت قد اعتادت على اسمها. وبحلول سن العشرين، كانت تعتقد أنّ اسم بيبي بلير مميّز للغاية. ومع ذلك، تساءلت أحيانًا عمّا إذا كان الناس سيأخذونها على محمل الجدّ – بوصفها كاتبة – باسم كهذا.

أنزلت الصفحة إلى أسفل وتوقّفت عند الفقرة الثانية من النص، حيث رأت جملة في حاجة إلى المراجعة. وعندما بدأت تكتب، ساعدتها يدها اليمنى بشكل جيّد للغاية، لكن اليد اليسرى كانت تخطئ النقر على أزرار لوحة المفاتيح، فنثرت حروفًا عشوائية عبر الشاشة.

تحول اندهاشها إلى توتر حينما أدركت أنّها لا تشعر بالأزرار تحت أصابع يدها المتشنّجة. كان إحساس اللمس قد اختفى منها.

رفعت يدها الخائنة في هلع، وثنت أصابعها، فرأتها تتحرّك، لكنها

عجزت عن الشعور بها.

ومع أنّ القهوة كانت قد بدّدت بشكل كامل المذاق الزنخ الذي أفسد عليها متعتها سابقًا أثناء تناول قطعة الكرواسون الثانية، إلا أنّ نفس المذاق السيء ملأ فمها ثانية. تجهّمت من الاشمئزاز، ومدّت يدها اليمنى صوب القهوة. اصطدمت حافة الكوب بأسنانها محدثة صوتًا، لكن الشراب أزال الطعم السيء عن لسانها مجددًا.

سقطت يدها اليسرى عن لوحة المفاتيح، واستقرّت في حجرها. لم تقوَ على تحريكها للحظات، ففكّرت في فزع؛ هذا شلل.

بدأ الخدر يسيطر على يدها فجأة، ثمّ الذراع بأكمله. لم يكن ذلك الخدر الذي يحدث عندما يتلقى المرء ضربة حادّة على المرفق، لكن كان شعورًا يزحف ببطء، وكأنّ النمل كان يلتهم اللحم والعظم. وفي الوقت الذي أزاحت فيه الكرسيّ بعيدًا حتى تنهض على قدميها، انتشر الخدر في كامل الشقّ الأيسر من جسدها؛ من أعلى الرأس وحتى أخمص القدم.

وعلى الرغم من أنّ بيبي كانت تجهل ما يحدث لها، لكنها أحسّت أنّها محاطة بخطر مميت. قالت «لكنني ما زلتُ في الثانية والعشرين».

-3-

الصالون

كانت نانسي بلير تحجز دومًا أبكر موعدٍ في صالون هيذر جورغنسون ذي الستة مقاعد الواقع في نيوبورت بيتش لاعتقادها أنّ حتى أفضل مصفّفات الشعر - مثل هيذر - ينخفض أداؤهنّ مع مرور ساعات اليوم. وبعد أن تنتهي نانسي من قصّ شعرها في فترة بعد الظهر ستقوم بعملية شدّ للوجه بعد وجبة العشاء.

لم تكن تحتاج إلى إجراء جراحة تجميلية. ففي عمر الثامنة والأربعين، بدت وكأنّها في الثامنة والثلاثين، أو في التاسعة والثلاثين على أقصى تقدير. وقد قال زوجها ميرفي - المعروف لدى الناس بميرف - إنّها حتى لو سمحت لجرّاح تجميل بالعبث في وجهها، فسيظلّ يحبها، لكنه سيناديها بكرويلا دي فيل، تيمنًا بالمرأة الشريرة في فيلم مئة مرقش ومرقش.

كان شعرها رائعًا أيضًا؛ إذ كان كثيفًا وداكنًا، وخاليًا من الشعر الأبيض. كانت تقوم بقصّه كل ثلاثة أسابيع لأنّها كانت تحب الحفاظ على مظهر متألّق.

كانت ابنتها بيبي تمتلك نفس الشعر البني الداكن الجميل القريب من الأسود، لكن شعر بيبي كان أطول. وكانت الفتاة اللطيفة تضغط على أمّها برفق حتى تغير قصّة شعرها القصير والأشعث. لكن نانسي كانت كثيرة الحركة والعمل، ودائمًا تنتقل من مكان إلى آخر، ولم تكن لتتحمل المجهود الكبير للحصول على تسريحة شعر جميلة.

بعد أن رطّبت شعر نانسي بزجاجة الرشّ، قالت هيذر «أنا أقرأ رواية بيبي نعجة الرجل الأعمى. وقد أعجبتني حقًا».

«يـا عزيزتـي، إنّ ابنتـي لديهـا موهبـة فـي الكتابة أكثر مـن معظم الكتّاب الآخرين». قالتها بفخر شديد، لكنها أدركت أنّ ما قالته لم يكن ملائمًا للغاية، إن لم يكن سخيفًا بعض الشيء. وأيًا كان مصدر موهبة بيبي في الكتابة، فلم ترث ذلك من والدتها.

قالـت هيـذر «كان مـن المفتـرض أن تدخـل الرواية قائمـة الكتب الأكثر مبيعًا».

فقالت نانسي «ستصل إلى هذه المرحلة، إن كان هذا ما تريده. لا أدري إن كانت كذلك أم لا. أعني، إنّها تبوح لي بكل شيء، لكنها متحفظة بشأن ما تكتبه، وما تحلم به. إنّها فتاة غامضة بشكلٍ ما، حتى عندما كانت طفلة. كانت في الثامنة تقريبًا عندما اختلقت هذه الحكايات بشـأن مجتمع الفئران الذكية التي عاشـت في أنفاق أسـفل منزلنا الصغير. كانت حكايات مثيرة للسـخرية، ولكن كان بوسعها حملكِ على تصديقها. في الواقع، لقد حسبنا لبعض الوقت أنّهـا تؤمـن بوجـود تلك الفئـران اللعينة. وكدنا نذهب بهـا إلى الطبيب. لكننا أدركنا أنّ هذا ديدن بيبي، فقد وُلدت لتؤلف الحكايات».

بوصفها قارئة نهمة للمجلات التي تحكي مغامرات المشاهير بالكثير من الصور وأقلّ قدر من التعليقات، فلعلّ هيذر لم تسمع نانسي من بعد الجملة الثالثة من ثرثرتها الطويلة.

قالـت هيـذر «ولكـن هذا عجيب، فلماذا لا تريـد أن تدخل قائمة الكتب الأكثر مبيعًا وتغدو مشهورة؟»

«لعلّها تريد ذلك. لكن هذا ليس السّبب في اتجاهها نحو الكتابة؛ إذ أنّها تكتب لأنّها مضطرّة لذلك. تقول إنّ مخيلتها تشـبه سـخّان المياه الذي يزداد الضغط بشدة بداخله طوال الوقت. وإن لم تنفّس القليل من البخار كل يوم، سينفجر ويفجر رأسها معه».

«عجيب!» بدا وجه هيذر في المرآة – فوق وجه نانسـي – مثل سـنجاب واسـع العينين. كانت فتاة جميلة. وكان من الممكن أن تكون أجمل لولا أنّ

قواطع الفك العلوي ليست في موازاة دعامات الأسنان.

«لا تعني بيبي هذا حرفيًا بالطبع. فلن ينفجر رأسها أكثر من تخيله وجود فئران ذكيّة أسفل منزلنا في الماضي».

منحت أسنان هيذر الأمامية مسحة جمالية لتعبير الاهتمام البادي عليها. كانت فتاة جذابة.

قال ميرف ذات مرة لو كانت الفتاة جميلة بما يكفي، فبعض الرجال سيجدون تشوه الأسنان مثيرًا. ومنذ ذلك الحين، كانت نانسي تشعر بالقلق من أي امرأة جذابة في حياة زوجها وتحتاج إلى تقويم للأسنان. لم يلتقِ ميرف بهيذر قط. وإذا كان لدى نانسي ما تقوله حيال ذلك، فقد التزم هو الصمت. ليس لأنّه كان يخونها، فلم يخنها وما كان ليخونها. لعلّه لم يصدّق أنّ زوجته ستخصيه بآلة حادة – مثلما أقسمت أن تفعل – لكنه امتلك الذكاء الكافي لإدراك أنّ عواقب الخيانة كارثية.

قالت هيذر «أغمضي عيناكِ» فأغمضتهما نانسي، وانطلق صوت رذاذ زجاجة الماء، ثمّ تبعه موس حلاقة صغير له رائحة عطرة. بعد ذلك، جفّفت الشعر مرة أخيرة وسرّحته بالمشط.

عندما اكتمل قصّ شعرها، كان رائعًا كالمعتاد. كانت هيذر حلاّقة موهوبة. لم تكن تشير إلى نفسها كإخصّائية تجميل أو مصفّفة شعر. فقد حملت بطاقتها لقب كوافيرة، وهو نوع من الغرور، وقد كان ذلك مبررًا في مكان مثل نيوبورت بيتش.

سددت نانسي أجرها وأعطتها بقشيشًا. وأكدت للكوافيرة أنّها ستنقل إعجابها بكتاب نعجة الرجل الأعمى إلى المؤلفة عندما قاطعها رنين هاتفها، الذي كان عبارة عن موسيقى من أغنية بوبي ماكفرين القديمة «لا تقلقي، وكوني سعيدة».

وكأنّ صوتها كان آتيًا من وراء حاجز ضخم وبعيد، قالت بيبي «أمّي، ثمّة خطب بي».

-4-
البحث عن الأمل

كانت بيبي تجلس على كرسـيّ بذراعين في حجرة المعيشـة وهي تضع حقيبتها على حجرها، وكانت تحاول قتل شعور الخدر المفزع الذي تملكها من رأسها وحتى أخمص قدمها اليسرى بالتفكير الإيجابي عندما اندفعت أمها إلى داخل الشقّة وكأنّها كانت تقود قوة خاصّة من الشرطة تعتزم إلقاء القبض على أشخاص يرتدون زيًا موحدًا بشعًا. بدت نانسي شديدة التألّق في معطف رياضـيّ رجالـي مصنـوع من الجلد المرن أسـود اللون من سـانت كرويكس، وقبّعة بيج مزخرفة تحمل شعار لويس فيتون، وسروال من الجينز أسود اللون من مافي صُنع من قماش فاخر، ونعال رياضية باللونين الأسود والأحمر من مصمّم لم تستطع بيبي تذكره.

لم تشـارك والدتها هواية حب الأزياء، وذلك مثلما يشـهد عليها سـروال الجينز ذو العلامة التجارية المجهولة والقميص ذو الكمين الطويلين.

أثناء عبور نانسي الغرفة تجاه الكرسي ذي الذراعين، تدفق من فمها سيل من الكلمات. «أنتِ شاحبة، وتبدين مكتئبة. رباه، مظهركِ مريع».

«لسـتُ كذلك يا أمي. أبدو طبيعية، وهو ما يجعلني شـبحًا أكثر ممّا إذا كان لوني رماديًا وعيناي داميتين. كيف أبدو طبيعية مع أعراض كهذه؟»

«سأتّصل بالإسعاف».

«كلاّ، لن تفعلي» قالت بيبي بحزم. وأضافت «لن أجعل من نفسي فرجة». وباسـتخدام يمينها السـليمة، نهضت عن الكرسيّ. قالت «خذيني فحسب إلى قسم الطوارئ في المستشفى».

نظرت نانسي إلى ابنتها وكأنّها ترى مخلوقًا مثيرًا للشفقة صدمته شاحنة يتمددّ بلا حراك على قارعة الطريق. وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

«إيّـاكِ يـا أمي. لا تبكي عليّ». أشـارت بيبـي صوب حقيبة صغيرة برباط بجـوار الكرسـيّ. قالـت «هـل يمكنـكِ جلـب هـذه مـن أجلـي؟ إنّ بداخلها بيجامات وفرشاة أسنان وأغراض للنوم تحسبًا إذا ما اضطررت للمبيت حتى الغد. يسـتحيل أن أرتدي أحد أردية المستشـفى التي تُربط من الخلف وأترك مؤخّرتي عارية».

قالت نانسي بصوت يهتزّ مثل الهلام «أحبكِ كثيرًا».

فقالـت بيبـي بعـد أن بدأت بالسـير نحو الباب «وأنـا أحبكِ أيضًا يا أمي. هيا الآن. أنا لست خائفة بشدّة. لطالما قلتيها (لا مفرّ مما هو مقدّر). قوليها، وتفكري فيها. هيا بنا».

قالـت الأم «ولكـن إن كنـتِ مصابة بجلطة، فعلينا أن نتصل بالإسـعاف. فكلّ دقيقة لها ثمنها».

«لم أُصب بجلطة».

قالت نانسي – بعد أن سبقت ابنتها وفتحت الباب ولكن حجبت المخرج – «قلتِ لي على الهاتف إنّ شقّكِ الأيسر مشلول...»

«ليس مشلولاً، وإنّما خدرًا. وكأنّ خمسين هاتفًا محمولاً مكتومة الصوت جرى ربطها بجسدي، وجميعها تهتزّ في نفس الوقت. ويدي اليسرى ضعيفة قليلاً. هذا كلّ شيء».

«يبدو الأمر كجلطة. كيف تعرفين أنّه ليس كذلك؟»

«ليسـت جلطة، فلم يتأثّر نطقي، وبصري بخير، ولا أعاني من صداع أو ارتباك. وما زلتُ في الثانية والعشرين بحقّ الله».

خفت تعبير القلق الشديد البادي على نانسي إلى الحزن نوعاً ما، بعد أن أدركت أنّها كانت تخيف ابنتها بدلاً من مسـاعدتها. «حسـنًا. أجل، أنتِ على حق. سأقلّكِ إلى المستشفى».

أطلّت شقق الطابق الثالث على شرفة مغطاة، وقد أبقت بيبي يدها اليمنى على الدرابزين وهما تتجهان شمالاً. كان اليوم لطيفًا وتملأه زقزقة الطيور. وفي الفناء، أحدث النخيل وأشجار السرخس حفيفًا خافتًا في النسيم المعتدل. وسبحت أسماك الزينة الفضية ذهابًا وإيابًا عبر الماء في حوض السباحة تحت ضوء الشمس، وكان المشهد البسيط جميلاً وكأنّها لم تراه من قبلُ قط.

عندما وصلا إلى نهاية الشرفة، قالت نانسي «هل أنتِ واثقة من قدرتكِ على نزول السلالم يا عزيزتي؟»

كانت السلالم الحديدية المفتوحة مرصوفة بالحصى والخرسانة. وكان تناظر الدرجات – وشكلها الجمالي وهي تصل إلى الفناء في الأسفل – يؤهلها كي تكون تمثالاً. لم ترَ بيبي الدرجات بهذا الجمال من قبل؛ ولعلّ احتمالية عدم رؤيتها مجددًا قط منح السلالم هذا البُعد الجديد.

طمأنت بيبي والدتها وقد نفد صبرها «أجل، يمكنني نزول السلالم. ولكن يصعب عليّ الرقص إلى الأسفل».

نزلت درجة تلو الأخرى دون متاعب كبيرة، عدا أنّ قدمها اليسرى عجزت عن الحركة كما يجب ثلاث مرّات، فاضطُرت إلى جرّها من درجة إلى التي تليها.

في موقف السيارات – وعندما وصلا إلى سيارة من طراز بي إم دبليو تحمل لوحة أرقام فاخرة كُتب عليها عميل هام – فتحت نانسي باب الركاب المجاور للسائق – وقد تذكرت فجأة أنّ التدليل ليس مطلوبًا الآن – ثمّ هرعت صوب جهة السائق من السيارة.

شعرت بيبي بالراحة بعد أن اكتشفت أنّ ركوب السيارة ليس أصعب من صعود الكرسيّ الهزّاز في دوامة الملاهي.

قالت نانسي بعد أن شغّلت المحرك «اربطي حزام الأمان يا حبيبتي».

«فعلت ذلك مسبقًا يا أمي». وعندما سمعت ما قالته، شعرت أنّها مراهقة – مستقلة وقليلة الشكوى – وقد كرهت ذلك. قالت «أنا أضع حزام الأمان».

«أنتِ كذلك. أجل، بالطبع».

خرجت نانسي من موقف السيارات على عجل، وانعطفت مباشرة نحو الشارع، وأسرعت حتى تمرّ من تقاطع طرق قريب قبل أن يتغير لون إشارة المرور.

قالت بيبي «سيكون أمرًا مثيرًا للسخرية إذا تسببتِ في مقتلنا وأنتِ تحاولين الوصول إلى المستشفى».

«لم يقع لي حادث من قبل قط يا عزيزتي. فقط مخالفة واحدة، وكان هذا عبر رادار كشف مخالفات السرعة أُخفي بشكل خبيث. ظهر الشرطي كالفأر، مثل شخص مغفّل لا يقوى على التفرقة بين الموجة الهادئة والعاتية».

هذه هي اللغة الخاصّة بالمتزلّجين على المياه. فالمقصود بـsmog monster الشخص الذي يخاف البحر، أما kak فتعني المغفل. وكلمة Glassout تُطلق على أمواج المحيط الهادئة، التي تكون مثالية للتزلج، أما mushburgers فهي نوع الأمواج الذي يجعل المتزلجين يفكرون في ترك التزلج على الأمواج والتزلج على اليابسة.

كان من الصعب على بيبي في بعض الأحيان أن تتذكّر أنّ والدتها كانت فتاة تزلّج بارعة قبل سنين طويلة خلت، فكانت تجيد ركوب الأمواج، وتفوّقت على أفضل المتزلّجين. وما تزال نانسي تعشق الرمال الحارقة والتزلّج على المياه. وكانت تذهب إلى الشاطئ وتركب بعض الأمواج بين فينة وأخرى. ولكن من بين كافة الكلمات التي تصفها الآن، لم تكن كلمة متزلّجة على رأس القائمة مثلما كانت ذات يوم. في هذه الأيام – بخلاف عندما تكون عند الشاطئ – لا يتسلل الحديث عن التزلّج إلى نقاشاتها إلا إذا كانت لديها شكوى ما عن شخصية ذات نفوذ أو أخرى.

صبّت تركيزها على المرور، ولم تعد هناك دموع في عينيها، والتزمت الصمت. وكان جبينها مقطبًا، وما انفكت تنظر في مرآة الرؤية الخلفية والمرآتين الجانبيتين، وظلّت تتنقّل بين الممرّات أكثر من المعتاد، فكانت

منهمكة للغاية في القيادة، مثلما كانت تفعل فقط عندما كانت ترغب في اللحاق بأحد سماسرة العقارات أو تظنّ أنّ تخفيضًا على إحدى الشقق على وشك الإغلاق.

«آه، اللعنة». انتزعت بيبي بضعة مناديل من صندوق لوحة المراقبة وبصقت فيها مرتين بدون نتيجة.

«ما الأمر، ماذا تفعلين؟»

«هذا المذاق المقزّز».

«أي مذاق؟»

«مثل الحليب الفاسد، أو الزبدة المتعفنة. يظهر المذاق ثمّ يختفي».

«منذ متى تشعرين به؟»

«منذ...أن بدأ هذا».

«قلتِ إنّ الأعراض الوحيدة هي ضعف اليد والخدر».

«لا أعتقد أنّ هذا عرَض».

فقالت أمها «بلى، هو عرَض».

على مسافة بعيدة، برزت المستشفى من بين بنايات أخرى. ولدى رؤيتها إياها، اعترفت بيبي لنفسها أنّها خائفة أكثر ممّا تقرّ به. كان شكلها عاديًا وكئيبًا، وكلّما اقتربا منها، ازدادت بشاعة.

طمأنت بيبي نفسها وقالت «هناك دومًا بصيص أمل».

شككت أمها في ذلك وقالت بقلق «حقًا؟»

«بالنسبة إلى روائية، هناك دومًا بصيص أمل. كل شيء ماديّ. ونحن نحتاج إلى مادة جديدة لرواياتنا».

مرّت نانسي بسرعة من الإشارة الصّفراء وانعطفت إلى داخل الشارع المؤدي إلى المجمع الطبي. قالت بصوت خافت «لا مفرّ مما هو مقدّر»، وكأنّها كلمات سحرية، وكل منها تعويذة ستقضي على الشرّ.

ناشدتها بيبي بحدّة غير مقصودة «لا تقولي لي هذا مجددًا رجاءً، أبدًا

ومطلقًا. ما تنفكين تذكرين هذه الجملة، وأنا لا أودّ سماعها ثانية».

تتبع الاثنان لوحة تشير إلى مكان قسم الطوارئ الواقع على الجهة اليسرى من البهو الرئيسي، ثمّ قالت نانسي بعد أن نظرت إلى ابنتها «حسنًا. كما تشائين يا عزيزتي».

شعرت بيبي فجأة بالندم على غضبها من والدتها. قالت «آسفة. أنا آسفة للغاية» خرجت الكلمتان الأوليان بوضوح، لكن والدتها لاحظت التغير في نطق الكلمتين الأخيرتين، فقد بدت وكأنها تقول show sharry.

عندما وصلا إلى مدخل قسم الطوارئ، أقرّت بيبي في أعماقها بسبب عدم رغبتها في الاتصال بالنجدة؛ إذ كانت تمتلك قدرة الروائيين على الفهم العميق للخطوط العريضة لأي قصّة. ولعلّه منذ أن فشلت يدها اليسرى في النقر على لوحة المفاتيح بشكل صحيح - وبالطبع منذ اللحظة التي بدأت فيها تشعر بالخدر - كانت ترى أنّ الأمور تسير - ولا مفرّ من ذلك - نحو مكان مظلم. في نهاية المطاف، كل حياة ما هي إلا قصّة أو مجموعة من القصص، وليس مقدرًا أن تؤول جميعها إلى نهاية سعيدة. لطالما افترضت أنّ حياتها ستكون حكاية عن السعادة، وأنّها ستسردها هكذا، ولكن في ظل ما يتملكها من أعراض، تردّدت في اعتبار افتراضها تفكيرًا ساذجًا.

-5-

متجر بيت ذا كات

على الرغم من أنّ الربيع لم يكن قد استقرّ بعد على الساحل الجنوبي لكاليفورنيا، فقد ذهب ميرفي بلير إلى العمل صبيحة ذلك اليوم مرتديًا صندلاً، وسروال تزلّج على المياه، وقميصًا قصير الكمين أسود اللون، وقميصًا خارجيًا منقوشًا من ماركة بندلتون باللونين الأزرق والأسود مرفوع الكمين. كان لون شعره ملفتًا للأنظار؛ إذ كان بني اللون مثل الرمال وتزينه بعض الشعيرات الذهبية، مع بشرة لوّحتها الشمس بدون استخدام أي مستحضرات كيميائية، فحتى في الأيام التي تنخفض فيها درجات الحرارة، لم يكن يتعرّض للشمس إلاّ لساعات قليلة، لأنّ هلعه الشديد من فكرة إصابته بسرطان الجلد جعله حريصًا على أن تلفح الشمس بشرته على فترات متباعدة طوال العام.

كان متجره – بيت ذا كات Pet the Cat – يقع في شبه جزيرة بالبوا – وهي كتلة اليابسة التي حمت ميناء نيوبورت من المحيط – في محيط أول رصيف للميناء. وكان اسم المتجر يشير إلى الحركة التي يقوم بها المتزلّجون على الماء حين كانوا يجثون على ألواح التزلّج، ثم يحركون أيديهم في الهواء أو داخل الماء وكأنّهم كانوا يشقّون طريقًا لأنفسهم.

كانت نافذة العرض ممتلئة بألواح التزلّج وقمصان رائعة مثل قمصان ماوكلي وويلين وبيلابونغ وألوها ورين سبونر. وكان ميرف يبيع كل شيء بدءًا من نظارات غطس من طراز أوتيس ذات عدسات زجاجية معدنية، وحتى نعال التزلّج، ومن ملابس الغوص إلى جوارب ستانس التي تقدم نماذج مقتبسة إبداعات بطل التزلّج على المياه جون جون فلورنس.

في عمر الخمسين، انكبّ ميرف على العمل، فكان يعمل ليلهو ويلهو ليعيش. وعندما وصل إلى المتجر، كان الباب مفتوحًا والمصابيح مضاءة، وكان بوغو يقف خلف المنضدة، وقد انهمك في قراءة كتيّب الإرشادات لسيرش، وهي ساعة تزلّج تستخدم تقنية تحديد المواقع من طراز ريب كيرل.

قال بوغو وهو ينظر إلى رئيسه «سأقتني واحدة من هذه ولا ريب».

قبل ثلاث سنوات، ترك بوغو المدرسة الثانوية على الرغم من حصوله على معدل تراكميّ مثالي، وقاوم محاولات والديه لإجباره على الالتحاق بالجامعة. وقد عاش حياة بسيطة برفقة فأري تزلّج آخرين – هما مايك ونايت – في شقة استوديو تقع أعلى متجر للبضائع المستعملة في كوستا ميسا القريبة، وكان يقود سيارة رمادية من طراز هوندا عمرها ثلاثون سنة، وقد بدت ملائمة فقط لأن يجري دهسها من قبل شاحنة كبيرة في سباق ديربي الهدم.

أحيانًا كان يلجأ شخص فاشل إلى ممارسة التزلّج ويبقى بعيدًا عن الدخول في علاقات مع النساء إلى يوم مماته وهو ما يزال لم يصرف آخر شيكٍ للضمان الاجتماعي. لكن بوغو لم يعاني من هذه المشكلة لسببين؛ أولهما، أنّه كان بارعًا في ركوب الأمواج، وكان ذا قلب ميت ويتمتع بالرشاقة على لوح التزلّج، وكان تواقًا لإتقان التزلج على أضخم الأمواج التي سببها الإعصار ماري، فحظي بإعجاب الآخرين بسبب أسلوبه وشجاعته. ولعلّه كان سيصبح بطلاً لو أنّه امتلك الطموح للمشاركة في المنافسات. ثانيهما، أنّه كان شديد الوسامة لدرجة أنّه عندما كان يمرّ، كانت النساء تتبعنه وكأنّ رؤوسهنّ ملتصقة بأعناقهنّ بمفصّلات حاملة الكرات.

«ستمنحني التخفيض المعتاد على هذه؟» سأله بوغو في إشارة إلى ساعة التزلّج.

فقال ميرف «بالطبع، لا بأس».

«سأسدد ثمنها على مدى اثني عشر أسبوعًا وبلا فوائد؟»

«ماذا تراني؟ جمعية خيرية؟ إنّها ليست باهظة الثمن».

«ثمانية أسابيع؟»

تنهد ميرف وقال «حسنًا، ولمَ لا؟» ثمّ أشار إلى شاشة التلفاز الكبيرة والمسطحة المعلقة على الجدار خلف المنضدة، التي كان من المفترض أن تعرض مقاطع مصورة لمنتجات شركة بيلابونغ لمستلزمات السباحة حتى تتماشى مع أجواء المتجر. «لا تقل لي إنّه لا يعمل».

«ليس كذلك. لقد نسيت تشغيله فقط. آسف يا أخي».

«أخيك؟ هل تحبني مثل أخيك يا بوغو؟»

«بكل تأكيد يا أخي. أخي الحقيقي – كلايد – سمسار أسهم مجنون، ولعلّه قد هبط من المرّيخ أيضًا».

«اسمه براندون. لماذا تسميه كلايد؟»

غمز بوغو بعينه وقال «ستكتشف بنفسك»

أخد ميرف نفسًا عميقًا ثمّ قال «هل تودّ لهذا المتجر أن يزدهر؟»

قال بوغو – بعد أن شغل المقاطع المصورة على التلفاز – «أجل بكل تأكيد. أودّ أن نسيطر على المشهد يا أخي».

«من ثمّ، ستكون قد ساعدتني كثيرًا إذا ذهبت إلى العمل لدى متجر منافس».

ابتسم بوغو وقال «كنتُ سأنهار لو اعتقدتُ أنّك تعني ذلك حقًا. ولكن أترى؟ أنا أجعلك تلقي النكات. يجدر بك إقامة عروض ساخرة».

«أجل، فأنا فوضويّ»

«كلا، حقًا. بوني تحسبك شخصًا رائعًا هي الأخرى»

«بوني، شقيقتك الكادحة التي تعمل ليل نهار حتى تحافظ على ذلك المطعم؟ أرى ذلك. بوني وكلايد. على أي حال، هي مجنونة أيضًا. فهل تقصد أنك وهي تشتركان في خفّة الظل؟»

تنهد بوغو وقال «عندما أقول إنّها مجنونة، فلا أستخدم الكلمة على سبيل الازدراء. لدي الكثير من القواسم المشتركة مع شقيقيّ التوأم»

«ازدراء؟ أحيانًا تبالغ في تقدير نفسك يا بوغو». حينئذٍ، رن هاتف ميرف المحمول، فتحقّق من هوية المتصل؛ إنّها نانسي. قال «كيف الحال يا حلوتي؟»

سرت في جسده رعشة طالت قلبه حين سمع زوجته تقول «أنا خائفة يا عزيزي. أخشى أنّ بيبي قد أُصيبت بجلطة».

-6-

سرعة الفحص المفزعة

في صبيحة يوم الثلاثاء، لم يكن قسم الطوارئ مزدحمًا مثلما يكون عادة بين السابعة مساءً والثالثة فجرًا. كان المساء يشهد مجيء أولئك السائقين السكارى المصابين، وضحايا اللصوص، والزوجات اللاتي تعرضن للضرب، وكل أنواع المدمنين العدوانيين والمهلوسين الذين يعانون من آثار جرعة زائدة. وعندما وصلت بيبي برفقة والدتها، كان هناك خمسة أشخاص فقط في حجرة الانتظار، ولم يكن أي منهم يعاني نزفًا شديدًا.

كان ممرض الطوارئ في الواقع فني رعاية طارئة يسمى مانويل ريفيرا، وهو رجل قصير وسمين يرتدي ملابس المستشفى زرقاء اللون. تحقّق من نبضها وقاس ضغط الدم واستمع إلى روايتها عن الأعراض.

نطقت بيبي القليل من الكلمات بشكل غير واضح، لكن القسم الأكبر من كلامها كان واضحًا. تحسنت مشاعرها وشعرت بالأمان – بكونها في مستشفى – إلى أن تجهم وجه مانويل الجميل – الشبيه بوجه بوذا – من القلق وأخذها نحو كرسيّ متحرك. وفي عجالة واضحة، عبر بها زوجًا من الأبواب الآلية إلى داخل قسم الطوارئ قبل الأشخاص الآخرين الذين كانوا ينتظرون العلاج.

كان قسم الطوارئ مكعب البناء مع أرضيات مغطاة بالفينيل الرمادي وثلاثة جدران باللون الأزرق الباهت وجدار زجاجي وحيد يقع قبالة الردهة. وعند رأس الفراش، كان هناك جهاز لمراقبة القلب ومعدات أخرى في انتظار الاستخدام.

جلست نانسي على أحد الكرسيين المخصصين للزائرين، وهي تحمل حقيبتها وحقائب بيبي، وكانت يدها متشبثة بها وكأنّها تتوقع محاولة للسرقة، لكن لم يكن ما تخشاه هو لص الحقائب.

أنزل مانويل الفراش الكهربائي وساعد بيبي على الجلوس على طرفه. «لا تتمددي الآن ما لم تشعري بالدوار» قال لها.

أخذ الكرسي المتحرك إلى الردهة، حيث التقى برجل طويل القامة ذي بنية رياضية ويرتدي زي العمليات، وكان على ما يبدو هو الطبيب. دفع الطبيب أمامه جهاز حاسوب نقال مخصص للاستخدام أثناء وقوف الطبيب، حيث يقوم بإدخال تفاصيل التشخيص المبدئي والعلاج لكل مريض.

سألتها نانسي «هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟»

«أجل يا أمي. أنا بخير. وسأكون على ما يرام»

«هل تحتاجين إلى أي شيء؟ الماء؟ هل تحتاجين إلى الماء؟»

استمرّ اللعاب يتدفق في فم بيبي، وكأنّها كانت على وشك أن تتقيأ، لكنها ابتلعته واحتفظت بإفطارها في معدتها. كان آخر ما ترغب فيه هو الماء.

في الردهة – وبعد أن تحدث مانويل مع الرجل الطويل للحظات – دلف الأخير إلى الحجرة وعرّف عن نفسه بالدكتور أرماند بارساميان. كان سلوكه الهادئ وتصرفاته الواثقة لتجعل بيبي تطمئن لو كانت الظروف مختلفة.

بينما كان يفحص عينيها بمنظار، طرح عليها بضعة أسئلة – عن اسمها وتاريخ ميلادها ورقم الضمان الاجتماعي الخاص بها – وقد لاحظت أنّه أراد أن يتبين إذا ما كانت ذاكرتها قد تأثرت أم لا بفعل أيًا كان ما يحدث لها.

قال الدكتور بارسامنيان «نحتاج إلى إجراء أشعة مقطعية على المخ. إذا كانت هناك جلطة، فكلما أسرعنا في تحديد سببها – تخثر في الدم أو نزيف – وحددنا العلاج، زادت احتمالية تعافيكِ بشكل كامل».

أقبل مساعد الممرّض عند المدخل ومعه سرير متحرّك. وقد ساعد الطبيب بيبي على التمدد عليه.

وعندما غادروا بها، وقفت والدتها في الردهة وقد بدت تائهة، وكأنّها تشعر أنّها لن ترى ابنتها ثانية قط. انعطف مساعد الممرّض عند أحد الأركان، ولم تعد بيبي ترى والدتها.

في الطابق الثاني، بدت أجواء الغرفة التي تضم جهاز الأشعة المقطعية باردة. لم تطلب بطانية. وإنّما وعلى سبيل الخرافة، اعتقدت أنّه كلما أظهرت الشجاعة، كانت نتيجة الاختبار أفضل.

انتقلت من السرير المتحرك إلى طاولة جهاز الأشعة.

خرج مساعد الممرّض من الغرفة، بينما أقبلت ممرضة تحمل وعاءً وُضع فيه أنبوب أوردة مطاطي، وحزمة من ورق القصدير تحتوي على ملابس للاستخدام لمرة واحدة معقمة بمحلول مضاد للبكتيريا، وإبرة تستخدم تحت الجلد تحتوي على وسط متباين يجعل الأوعية الدموية وتشوهات الدماغ تظهر بشكل أوضح.

«هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟»

«أجل شكرًا لكِ. أنا بخير».

بعد أن غادرت الممرضة، تحدثت فنيّة جهاز الأشعة إلى بيبي عبر جهاز اتصال داخلي من غرفة مجاورة، فشرحت لها كيف سيسير الإجراء. كان للمرأة صوت طفولي رقيق مع أثر ضئيل للكنة يابانية، لذا فعندما أغمضت بيبي عينيها، تجلّى مشهد أكثر وضوحًا من غرفة الأشعة المقطعية حولها...

حجر لوحي يقود إلى بوابة قمر أحمر تتشابك مع أزهار أقحوان بيضاء مدهشة. وخلفها يقبع مقهى تحفه أشجار الكرز المزهرة، ونثرات من بتلاتها الشاحبة تزخرف الحجر الداكن في الأسفل. وفي الداخل، تتمايل راقصات الغيشا اليابانيات في ملابس الكيمونو الحريرية المنضفاضة، وترفعن شعورهن إلى أعلى في تسريحة معقّدة مثبّتة بدبابيس من العاج منحوتة على شكل حشرة اليعسوب.

نقل سرير متحرك على الطاولة بيبي إلى الخلف – حيث دلف رأسها أولاً

- داخل فتحة جهاز الأشعة، فاستردّ وعيها من المقهى الذي كانت تتخيله. اكتمل الإجراء سريعًا للغاية لدرجة أنّها تساءلت عمّا إذا كان قد أنجز بشكل صحيح، على الرغم من إدراكها أنّ كفاءة طاقم المستشفى هي أقلّ مخاوفها.

شعرت بالهلع من السرعة التي تعاملوا بها مع حالتها منذ أن دخلت إلى حجرة الانتظار في قسم الطوارئ. ولم يكن سيهدأ لها بال حتى يحددوا تشخيصًا لحالتها. ومع ذلك، فكلما أسرعوا في العمل، شعرت أكثر أنّها تنزلق على منحدر - بشكل سريع - نحو الهاوية.

-7-

قبل اثني عشر عامًا، قوة البسكويت

كان قد مضى على وجود أولاف – كلب الصيد الذهبي الضال الذي كان يهيم على وجهه في العاصفة الممطرة – مع عائلة بلير أقلّ من أسبوع عندما اعتاد على صعود السلالم المؤدية إلى الشقة التي تقع أعلى المرآب. وكان يستمتع بالاسترخاء في الشرفة الصغيرة التي احتوت على كرسيين هزّازين. كان يسند ذقنه على القضيب السفلي للدرابزين المطلي باللون الأبيض، ويسترق النظر من بين الدرابزينات نحو الفناء الواقع خلف المنزل الصغير، وكأنّه أمير يتفقّد أحوال الرعية.

وكلّما اكتشفت وجوده في الأعلى، كانت الصغيرة بيبي تستدعيه إلى الأسفل همسًا بادئ الأمر ليقينها من قدرته على سماعها، لأنّ حاسة السمع لدى الكلاب أفضل من نظيرتها لدى البشر. وعلى الرغم من أنّه كان يراقبها من الأعلى، إلا أنّ أولاف تظاهر بالصمم إزاء مناشداتها. وعندما كانت ترفع صوتها قليلاً فوق الهمس، كان ما يزال لا يبرح مكانه، على الرغم من أنّ نقر ذيله اللطيف على أرضية الشرفة أثبت أنّه يعي ما تأمره به.

لم تكن بيبي تجرؤ على صعود السلالم لأخذ طوق الكلب ومرافقته إلى الأسفل. فما إن تصعد إلى الشرفة، ستكون على مسافة خطوات قليلة من الباب الأمامي للشقة. وهي مسافة قريبة للغاية.

عبرت بيبي الفناء وهي غاضبة، ونظرت مرارًا إلى الأعلى صوب أولاف، ولكنها تحاشت النظر إلى النوافذ الثلاثة. كانت الشمس تجعل من تلك المرايات ألواحًا زجاجية، لذا فلم يكن بوسعها رؤية أي شخص حتى إذا

كان يراقبها من الداخل.

دخلت إلى المنزل و – من علبة صفيحية في حجرة المؤن – أخذت قطعتي بسكويت بالخروب لم يستطع كلب الصيد مقاومتها. وفي الفناء مجددًا، أمسكت بواحدة في كل يد، وذراعاها مرفوعان فوق رأسها، مما سمح لأولاف بشم رائحة جائزة الطاعة اللذيذة. وقد أدركت أنّ الرائحة وصلت إليه، إذ أنّه وحتى من الفناء، كان بوسعها رؤية أنفه المبلل الأسود وهو ينتفض بين الدرابزينات.

لطالما أفلحت حيلة البسكويت، ولكن ليس هذه المرة. وبعد مرور بضعة دقائق، عادت بيبي إلى الشرفة الخلفية من المنزل وجلست على أريكة مصنوعة من خشب الخيزران مع وسائد منجدة على هيئة ورق النخيل.

أحب أولاف التمدد هناك بجوارها ورأسه مستقر في حجرها، بينما كانت هي تداعب وجهه، وتحك صدره، وتدلك بطنه. كان سقف الشرفة يحجب رؤيتها لنوافذ الشقة، ولكن كان ما يزال بوسعها رؤية الجزء السفلي من درابزين الشرفة والكلب الذي يبرز أنفه بين عمودي درابزين. كان يراقبها إذن؟ لا بأس.

قرّبت بيبي إحدى الجائزتين من أنفها وشمت رائحتها، قررت أنّ مذاقها لا يمثل إهانة للسان البشري. قضمت البسكويت إلى نصفين ومضغته. لم يكن سيئًا، لكنه لم يكن رائع المذاق أيضًا. كان من المفترض أن يحمل الخروب نكهة أشبه بالشوكولاتة – التي لم يقوَ الكلاب على أكلها – لكنه لم يكن أفضل من منتجات شركة هيرشي.

شاهد أولاف – من حيثما كان يجثم في شرفة الشقة – نصف جائزته يؤكل بوقاحة. وقد رفع ذقنه عن القضيب السفلي للدرابزين، فبرز أنفه بين عمودي درابزين على بُعد قدمٍ من القضيب العلوي، مما يعني أنّه وقف على أقدامه.

لوّحت بيبي بالنصف المتبقي من البسكويت يمينًا يسارًا أمام أنفها،

وقد فعلت هذا مرارًا وتكرارًا ورفعت صوتها للتعبير عن إعجابها بمذاقه «اممممم».

نزل أولاف على السلالم قادمًا من الشرفة، ثمّ عبر الفناء المبني من الطوب ودلف إلى الشرفة الخلفية. قفز على الأريكة، فنزل عليها بعنف جعل الخيزران يصدر أنينًا على سبيل الاحتجاج.

قالت بيبي «ولد مطيع»

أخذ نصف حبة البسكويت من بين أصابعها بفمه الناعم. وقد أطعمته حبة البسكويت الأخرى كاملة، وبينما كان يمضغها بصوت عالٍ في تلذّذ، قالت «لا تصعد إلى الأعلى مجددًا. ابتعد عن الشقة. إنها مكان سيء ومريع ويسكنه الشر».

بعد أن انتهى من لعق شفتيه، نظر الكلب إليها بما اعتبرته هي تفكيرًا جادًا، إذ كانت عيناه متسعتان في ظلال الشرفة، وبدت قزحيتا عينيه الذهبيتين وكأنهما تشعان ضوءًا من داخلهما.

-8-
محطمة ومسحوقة

أخبرت نانسي نفسها بأن تهدأ وتتجلّد، وبأن تمرّ بسرعة من هذه اللحظة، وأن تركب الموجة، وأن تجلس فحسب على أحد كراسي الزائرين وتنتظر عودة بيبي من إجراء فحص الأشعة المقطعية. ولكن حتى عندما كانت مراهقة يافعة تتعلم التزلّج على الماء، لم تكن وديعة مثل دمية الباربي. فعندما كانت تقف على لوح التزلّج، أرادت دومًا أن تقتحم الأمواج وتمزّقها، وعندما كانت الأمواج تهيج وتغدو اليابسة جذابة أكثر من المحيط، كانت تمضي بقية اليوم بنشاطها المعتاد.

لذا، عندما انعطف ميرف من الرواق الأول إلى الثاني في قسم الطوارئ، كانت نانسي تتنقل ذهابًا وعودة خارج الجناح الذي أخرجت بيبي منه على سرير متحرك. لم تلحظ وجوده على الفور، لكنها خمنت وصوله من طريقة نظر ممرّضتين إلى بعضهما البعض وهما تبتسمان وتتهامسان. فحتى في سن الخمسين، بدا ميرفي مثل دون جونسون حين قام ببطولة مسلسل ميامي فايس أيام شبابه، ولو أنّه اشتهى نساءً أخريات، لكنّ تشبثن به مثل الريمورا – وهي تلك الأسماك ذات الأسنان القوية التي تتعلق في أسماك القرش.

كان ميرف ما يزال يرتدي قميصًا أسود اللون، وقميصًا خارجيًا مرفوع الكمين، وسروال سباحة. ولكن احترامًا للمستشفى، بدل صندله بزوج من أحذية التزلج السوداء برباطين أزرقين، وقد ارتداه دون جوربين. كانت نيوبورت بيتش أحد الأماكن القليلة في البلاد التي إذا ارتدى فيها شخص ما مثلما يرتدي ميرف، لما بدا غريبًا، سواءً كان ذلك في مستشفى أو حتى في كنيسة.

أحاط نانسي بذراعيه، فبادلته العناق، وظلا صامتين للحظات. لم يكونا في حاجة إلى الكلام، وإنّما احتاجا فقط التعلق ببعضهما البعض.

عندما أفلتا بعضهما وبقيت أيديهما متشابكة، قال ميرف «أين هي؟»

«أخذوها لإجراء أشعة مقطعية. حسبتُ أنّهم سيكونون قد أعادوها بحلول الآن. لا أدري لماذا لم يفعلوا. يفترض ألا يستغرق الأمر طويلاً، أليس كذلك؟»

«هل أنتِ بخير؟»

قالت بلغة المتزلّجين على المياه «أشعر أنني محطمة ومسحوقة تمامًا».

سألها «كيف حال بيبي؟»

«أنت تعرفها، ستتعامل مع الموقف. وأيًا كان ما يحدث لها، فإنّها تفكر بالفعل فيما ستفعل عندما تتجاوز المحنة، فلعلها تكون مادة جيدة لقصة».

بينما كان يدفع حاسوبه المحمول أمامه، اقترب منهما الدكتور بارساميان – كبير أطباء قسم الطوارئ خلال الوردية الحالية – وأخبرهما أنه قد جرى إدخال بيبي في المستشفى بعد إجراء الأشعة المقطعية. قال «إنّها في الغرفة 456».

كانت عينا الطبيب سوداء مثل زيتون الكالاماتا. وإذا كان يخفي حقيقة ما عن حالة بيبي، فلم يكن بوسع نانسي معرفتها من عينيه.

قال بارساميان «يبدو أن نتيجة الأشعة المقطعة ليست حاسمة. يرغبون في إجراء المزيد من الاختبارات».

في المصعد – في الطريق من الطابق الأول إلى الرابع – عانت نانسي من الارتباك لبضع لحظات مزعجة. وعلى الرغم من أن مصباح تحديد الموقع المثبت على الدليل فوق الأبواب انتقل من واحد إلى اثنان ثم إلى ثلاثة، كان بوسعها أن تقسم أنّ المصعد لا يبرح مكانه، بل كان يهبط إلى أيًا كان ما يوجد في الطابقين الواقعين تحت الأرض في البناية، وأنهم ينحدرون إلى الأسفل داخل مكان مظلم لا عودة منه.

عندما انتقل المصباح إلى الرقم أربعة على الدليل وفُتحت أبواب المصعد، لم يذهب عنها القلق. كانت الغرفة 456 تقع في الجهة اليمنى. وعندما وصلت هي وميرف إليها، كان الباب مفتوحًا. احتوت الغرفة على فراشين شاغرين، وكانت الملاءات جديدة ومرتبة ومطوية.

استقرّت حقيبة بيبي على المنضدة المجاورة للفراش القريب من النافذة. وعندما نظرت نانسي داخلها، رأت فرشاة ومعجون أسنان وأغراض أخرى، ولكن لم تجد البيجامات.

كان لكل فراش دولاب صغير خاصّ به. وكان أحدهما فارغًا. وفي الآخر، جرى تعليق سروال بيبي الجينز وقميص بكمين طويلين. وقد وُضع حذاؤها على أرضية الدولاب، ووضع الجوربان داخله.

على وقع صوت طقطقة نعال مصنوعة من المطاط ورائحة صابون، دلفت امرأة شقراء شابة ترتدي زي المستشفى الأزرق إلى الحجرة. بدت الممرضة يافعة جدًا على أن تمنح ترخيصًا لمزاولة المهنة، وكأنّها تبلغ الخامسة عشر من العمر فقط وتلعب لعبة المستشفى.

قال ميرف «قالوا لنا إنّ ابنتنا ستكون هنا».

«لا بدّ أنكما السيد والسيدة بلير. لقد أخذوا بيبي لإجراء بعض الاختبارات».

سألتها نانسي «أي اختبارات؟»

«تصوير بالرنين المغناطيسي، وتحليل دم. الاختبارات المعتادة»

«لا شيء من هذا معتاد بالنسبة إلينا» قالت نانسي وهي تحاول التحدث بنبرة هادئة لكنها فشلت.

«ستكون على ما يرام، فلا شيء من هذا خطير. إنّها تبلي بشكل جيد».

بدت تطمينات الممرضة اليافعة جوفاء مثل وعود السياسيين.

«ستغيب لبعض الوقت. ربما ترغبان في الذهاب إلى الكافتيريا في الأسفل لتناول الغداء. لديكما متسع من الوقت».

بعد مغادرة الممرضة، وقف كل من نانســي وميرف في حيرة للحظات، وقد نظرا في أنحاء الغرفة وكأنّهما قد ظهرا فيها بفعل تعويذة سحرية ما.

سألها «هل نذهب إلى الكافتيريا؟»

هزّت نانسي رأسها وقالت «لستُ جائعة».

فقال «كنتُ أفكر في القهوة»

«لا بدّ أن ثمة حانات في المستشفيات»

«إنّكِ لا تشربين قبل الخامسة والنصف مساءً»

«أشعر برغبة في الشرب».

استدارت نحو النافذة ثم – وبشكل فجائي – ابتعدت عنها. قالت «علينا أن نبلغ باكستون».

هزّ ميرف رأسه وقال «لا يمكننا ذلك. ليس الآن. ألا تتذكرين؟ إنّ فرقته في مهمة سرية. وما من سبيل للوصول إليه».

احتجّت نانسي قائلة «لا بدّ أنّ هناك سبيل ما!»

«إذا حاولنا فعل ذلك واكتشفت بيبي الأمر، سترغب في قتلنا. حتى على الرغم من أنّهما غير متزوجين بعد، فقد بدأت تشبهه أكثر فأكثر كل يوم؛ فهي عنيدة وملتزمة بحياة الجنود»

أدركت نانسي أنه على حق. «من كان ليظنّ أنّنا سنقلق عليها بدلاً منه؟»

شـغلت التلفاز، ولكن لم يكن أي مما يُعرض مسـليًا. بدت كل البرامج تافهة بشكل لا يطاق، بينما أشاعت نشرات الأخبار اليأس.

بعد ذلك، نزلا إلى الكافتيريا لتناول القهوة.

-9-

داخل نفق القدر

لاحقًا، قيل لبيبي إنّ الأشعة المقطعية لم تكن حاسمة ولكن أعطت إشارات عن حالتها، وقد فضل الأطباء وجود جلطة عن شيء غير مألوف. وبعد استبعاد احتمالية وجود انسداد في الأوعية الدموية أو نزيف، انتقلوا إلى احتمال مثير للقلق تحاشوا الكشف عنه لها. كانت ابتساماتهم مجرد أقنعة، ليس لأنهم أرادوا خداعها، ولكن لأن الأطباء - وليس أقل من المرضى - يتشبثون بالأمل.

لاحقًا أيضًا، أُبلغت أنّه إذا جرى استبعاد وجود انسداد في الأوعية الدموية أو نزيف، فإنّ أفضل فرصة لشفائها بشكل كامل هي تشخيص وجود خراج في الدماغ، وهو تجويف يملأه الصديد محاط بأنسجة ملتهبة. ويمكن علاج هذه الحالة الخطيرة بالمضادات الحيوية والستيرويدات القشرية. وغالبًا ما لا تكون هناك حاجة إلى التدخل الجراحي.

قاموا بأخذ عينة دم منها لتحليلها، وأخذوا أشعة مقطعية للصدر. وثبتوها لإجراء مخطط لكهربية الدماغ استغرق ساعة تقريبًا، وذلك لدراسة النشاط الكهربي للدماغ.

بحلول الوقت الذي جرى نقلها فيه إلى غرفة لإجراء تصوير بالرنين المغناطيسي، شعرت بيبي أنّها دخلت سباق ماراثون لصعود عدد لا نهائي من السلالم. لم تكن متعبة فحسب وإنما مستنزفة. ومثل هذا التعب لا يمكن أن يكون نتيجة للنشاط البدني الضئيل الذي انطوى عليه اليوم. وقد افترضت أنّ إرهاقها المتزايد هو عرَض آخر لمرضها، حاله حال الخدر الذي يسيطر

على شقّها الأيسر من رأسها وحتى أخمص قدمها، والمذاق العفن الذي يظهر ويختفي، والوهن الذي يتملك يدها اليسرى.

لم تكن لديها شهية نحو الأكل، ولم يقدموا لها سوى الماء. لربما كان الصوم ضروريًا لإجراء بعض الاختبارات. أو لعلهم كانوا متعجلين لجمع كافة المعلومات المطلوبة لإجراء فحص عاجل.

ولأنّ جهاز التصوير بالرنين المغناطيسي عبارة عن نفق مغلق لا يتسع عن جسم الإنسان إلا قليلاً، سألتها إحدى الممرضات «هل تعانين من رهاب الأماكن المغلقة؟»

«كلا» قالت بيبي، ورفضت تناول مهدئ خفيف وهي تتمدد على الطاولة التي ستحملها إلى داخل الإسطوانة المشؤومة.

رفضت أن تقرّ حتى باحتمالية ضعف كهذا. لم تكن واهنة، ولن تكون قط. كانت معجبة بخصال رباطة الجأش والشجاعة والتصميم.

لكنها قبلت وضع سماعات في الأذن سمحت لها بالاستماع إلى الموسيقى وأمسكت بجهاز في يدها يمكنها عبره إرسال إشارة إلى مشغل الجهاز إذا ما أصبحت مجهدة.

قضت وقتًا طويلاً في الجهاز؛ إذ تتيح أجهزة التصوير بالرنين المغناطيسي الحديثة إجراء فحوصات لأغراض محددة للغاية، حيث يقيس التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي نشاط الخلايا العصبية في المخ، في حين أن تصوير الأوعية بالرنين المغناطيسي يقيم عمل القلب وتدفق الأوعية الدموية عبر جسم الإنسان. أما التصوير الطيفي بالرنين المغناطيسي، فيقدم تحليلاً مفصلاً للتغيرات الكيميائية في المخ التي تسببها مجموعة متنوعة من الآلام.

تبين أنّ الموسيقى غير مصحوبة بكلمات، بل كانت أغاني أوركسترا عجزت عن التعرف عليها. ومن وقت إلى آخر، كان الجهاز يصدر صوت ضجيج يمكن سماعه عبر الموسيقى، وكأنّ الفني احتاج إلى تحفيز الضجيج الصادر عن الجهاز باستخدام مطرقة. شعرت بيبي بسرعة في نبضات القلب،

وبدأ جهاز إرسال الإشارة ينزلق في يدها المبللة بالعرق.

أغمضت عينيها وحاولت تشتيت نفسها بأفكار عن باكستون ثورب. كان رجلاً جميلاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ وجهه وجسده، وعيناه وقلبه وعقله. كانت قد التقت به قبل أكثر من عامين. وقبل خمسة أشهر، قبِلت طلبه بالزواج منها. ومثلما كان لاسمها معنى، كان لاسمه معنى هو الآخر؛ فاسم باكستون يعني بلدة السلام، وهي مفارقة مثيرة للسخرية، بالنظر إلى أنّه عنصر في القوات الخاصة. كان باكس حاليًا في مهمة سرية تمامًا مع فرقته، إذ ذهبوا إلى مكان ما لتأديب بعض الأشرار الذين بلا شك استحقوا حتى أسوأ ممّا سيحل عليهم. وستعمل الفرقة في الخفاء لنحو أسبوع أو عشرة أيام. لا يُسمح لهم باستخدام الهواتف أو الإنترنت، لذا يستحيل إخباره بما حدث لخطيبته.

كانت تفتقده بشدة. قال يومًا إنها المعيار الذي سيقيس به – في نهاية حياته – ما إذا كان رجلاً صالحًا أم لا، ذهب أصلي أم مزيف. كانت تعرف الإجابة بالفعل؛ ذهب أصلي. كان الصخرة التي تستند عليها، وهي في حاجته الآن، لكنها كانت متمسكة بقانون الشجاعة العسكري، ورفضت البكاء حزنًا على غيابه. في الواقع، كانت تظنّ أحيانًا أنّها قد تزوجت من جندي في حياة سابقة، إذ أنّها تتمتع بعقلية زوجات الجنود بشكل فطري تمامًا.

بينما كان الجهاز يطن ويطقطق، ملأ اللعاب فجأة فم بيبي. ومثلما حدث من قبل، لم يصاحب هذا الشعور الوشيك بالقيء أي غثيان، ومرّ الأمر بسلام.

سمعت صوت والدتها في رأسها يقول لا مفرّ مما هو مقدّر. كانت تلك الكلمات بمنزلة تعويذة كل من نانسي وميرفي، وصك استسلام لمشيئة الطبيعة والقدر. لقد أحبتهما بيبي مثلما يحب أي طفل والديه، لكن فهمهما للطبيعة الحقيقية للعالم لم يتطابق مع فهمها، إذ ما كانت لتستلم للقدر أبدًا.

-10-

نوع الفتاة الذي تمثله

بحلـول الرابعـة عصـرًا مـن ذلك اليوم، بات الدكتور سـانجاي تشـاندرا الطبيب الرئيسي المسؤول عن حالة بيبي.

أعُجبت به نانسـي بمجرد أن رأته، ولكن لأغرب سـبب يمكن للمرء أن يتخيله. في صباها، كانت مغرمة بكتاب عن حبة بسكويت بالزنجبيل دبّت فيها الحياة. لم تظهر حبة البسـكويت - التي كان اسـمها كوكي - في الرسـومات التوضيحيـة فـي الكتـاب داكنة مثل الزنجبيـل، وإنما بدت ذات ظل دافئ مثل القرفـة، مـع وجـه دائـري جميل وعينين من الشـوكولاتة. ولـو لم يكن تاريخ الكتـاب يعـود إلـى أربعيـن سـنة على الأقـل - تقريبًا في مثل عمـر الطبيب - لظنّت أنّ الفنان الذي رسم الكتاب كان يعرف الطبيب وأنّه استلهم شكل بطل الكتاب من شكله. امتلك الدكتور تشاندرا وجهًا جميلاً وصوتًا عذبًا، مما قد يجعلك تعتقد أنّه حبة بسكويت دبّت فيها الروح، وكان دمث الخلق أيضًا.

عادت بيبي إلى حجرتها في المستشفى وهي في حالة إعياء بعد أن أجرت مجموعة من الاختبارات. وعلى الرغم من شعورها بالقلق حيال حالتها، فقد رغبت في النوم فقط قبل تناول العشاء. وقد غطت في النوم وكأنّها قد حُقنت بجرعة مخدر.

أبـى الدكتـور تشـاندرا أن يزعجها، وقد فضّـل الانتظار حتى اليوم التالي للجلوس معها ومناقشة ما كشفت عنه الاختبارات، بعد أن يتاح له المزيد من الوقت لمراجعة النتائج. وعلى الرغم من أنّ بيبي كانت في الثانية والعشرين من العمر - مما يعني أنّها بلغت السن القانونية - فقد أمل الطبيب في التحدث

إلى والديها أولاً، والتحديد بشكل قاطع - مثلما وصف الأمر - «نوع الفتاة الذي تمثله».

جلس كل من نانسي وميرف معه على طاولة في غرفة الاستراحة، التي تقع عند الطرف الشمالي من الطابق الرابع، وكانت الغرفة فارغة وقتئذٍ. كانت آلة البيع تهمهم برفق، وكأنّها كانت منهمكة في التفكير في قرار مصيري، ولم يمنح الوهج الشديد لمصابيح الفلورسنت الهدوء المطلوب.

قال الدكتور تشاندرا «قلت لبيبي إنّني في حاجة إلى بعض الوقت لمراجعة نتائج الاختبارات كافة، وذلك للوصول إلى تشخيص دقيق ووضع خطة العلاج. سأقابلها في العاشرة من صباح الغد. يهمني دومًا أن أقدّم تشخيصي وتخميني إلى المريض بأبسط قدر ممكن. وقد اكتشفت أنّ التعرف بشكل مسبق على الحالة النفسية للشخص وخصاله تساعد في ذلك».

لم يُرق لنانسي ما سمعته، فالأنباء السارة لا تحتاج اختيارًا متأنيًا للألفاظ التي ستُنقل بها. لعلّها كانت ستتحدث بنفس الأسلوب، عدا أنّها باتت تشعر بعدم القدرة على التحدث فجأة.

«إنّ بيبي فتاة استثنائية» قال ميرف. ربما لم يكن أحد غير نانسي سيلحظ التوتر الذي تملك صوته. لم يُشح بناظريه عن الطبيب، وكأنّ كان سيهلك إذا نظر في عيني زوجته. وأضاف «إنّها ذكية، بل وأكثر ذكاءً مني. كان بوسعها تبيّن أقل قدر من التزييف في أي حقيقة. كان ذلك يغضبها. فقد أرادت سماع الحقيقة بصدق ووضوح دون تجميل. إنّها صلبة العود أكثر مما تبدو».

بدأ ميرف في إخبار الطبيب بشأن موت أولاف - كلب الصيد الذهبي - الذي كان قد توفي قبل ست سنوات، بعد أشهر قليلة من عيد ميلاد بيبي السادس عشر. وقد اندهشت نانسي في البداية من أنّ زوجها يعتقد أنّ لهذه القصة صلة بما يجري حاليًا. بيد أنّها أدركت أنّ هذه القصة ستجيب بشكل مثالي على سؤال الدكتور تشاندرا بشأن نوع شخصية بيبي.

ظلّ الطبيب صامتًا، واكتفى بالإيماء بضع مرات، وكأنّه لم يكن لديه

مريض غير بيبي حتى يستعد له.

وعندما انتهى ميرف من إخبار الطبيب بقصة موت أولاف، تجرأت نانسي على طرح سؤال، وقد فعلت ذلك بصوت مضطرب. «دكتور تشاندرا...أي نوع من الأطباء أنت؟ أقصد...ما تخصصك؟»

نظر في عينيها مباشرة، مفترضًا أنها تتشارك مع ابنتها رباطة الجأش والطبيعة البطولية. قال «أنا طبيب أورام يا سيدة بلير، مع تخصص إضافي في جراحة الأورام».

«السرطان» قالت نانسي، وقد خرجت الكلمة من فمها بنبرة فزع وكأنّها مرادف للموت.

كان لون عينيه مثل الشوكولاتة الداكنة، وكانت دافئة وحنونة، وقد رأت فيهما ما بدا أنّه أسى. قال الدكتور «على الرغم من أنّني في حاجة لمراجعة نتائج الاختبارات بتعمق أكبر، إلا أنّني أشعر بشكل يقيني أننا نتعامل مع ورم في المخ. إنّه ينبع من الخلايا الضامة في المخ وينتشر سريعًا وبتجذر في الأنسجة المحيطة».

سأله ميرف «ما الذي يسببه؟»

«لا ندري بعد. لم تسنح فرصة كافية أمام العلماء لدراسة هذا المرض. إنّه نادر للغاية، فنحن لا نشهد أكثر من مائة حالة في الولايات المتحدة بأسرها»

لاحظت نانسي أنّها تحركت إلى الأمام على كرسيّها وأنّها تمسك حافة الطاولة بيديها، وكأنّها تثبّت نفسها في مواجهة عاصفة شديدة قادمة.

«ستزيلون الورم» قال ميرف، وقد بدت الكلمات كتصريح متفائل أكثر من كونها استفسارًا.

قال طبيب الأورام بعد تردد «إنّ هذا الورم لا يتمركز في مكان بعينه مثل الأنواع الأخرى من السرطان. إنّ له نمطًا شبيه بشبكة العنكبوت؛ إذ تمتد خيوطه الرقيقة عبر أكثر من فصّ جبهي واحد. وقد يكون من الصعب اكتشافه. إنّ حدود الورم الخبيث يصعب تحديدها. وفي حالات بعينها – في الأطفال

بشكل رئيسي – تكون الجراحة بديلاً مطروحًا، ولكن نادرًا ما يكون جيدًا».

قال ميرف – وقد شعر بالمواساة والأمل لحقيقة أنّ الورم يصعب اكتشافه – «فكيف ستعالجها إذن...بالعلاج الكيميائي والإشعاعي؟»

«في العادة، أجل. ولهذا أرغب في دراسة نتائج اختبارات بيبي بتعمق أكبر قبل أن أقرّر ما الذي بمقدورنا أن نفعله لتمديد عمرها»

على الرغم من أنّها قبضت على الطاولة بشدة، شعرت نانسي وكأنها تُسحب بعيدًا بأمواج من الأسى تبدو حقيقية مثل أمواج البحر العاتية. سألته «تمديد حياتها؟»

كان هناك عمق لامع في عيني الطبيب، وقد انطوى ذلك العمق على معرفة شعرت فجأة بعدم الرغبة في الاطلاع عليها.

نظر الدكتور تشاندرا إلى الطاولة، وإلى ميرف، ثمّ إلى نانسي مرة أخرى، وقال بنبرة أقرب إلى الهمس «يؤلمني أن أخبركما أنّه لا علاج لهذا الورم. وأنّ متوسط فترة البقاء على قيد الحياة منذ تشخيص المرض لا يزيد على السنة».

لم تقوَ نانسي على التنفس، أو لعلّها لم ترغب في التنفس.

سأله ميرف «ولكن مع العلاج الكيميائي والإشعاعي؟ ماذا بعد؟»

كان التعاطف باديًا للغاية على الطبيب، وكان تعاطفه رقيقًا للغاية. وعلى الرغم من أنّ نانسي أرادت أن تكرهه بشدة بسبب ما كشف عنه، إلا أنها عجزت حتى عن إظهار الغضب. قال سانجاي تشاندرا «سنة واحدة مع العلاج الكيميائي والإشعاعي. وحالة ابنتكما متأخرة للغاية بالفعل».

-11-

حين كانت تؤمن بالسحر

بعد أن استيقظت من غفوتها، أنعشت بيبي نفسها في المرحاض. وقد تفاجأت من شكل وجهها في المرآة؛ إذ كانت عيناها تلمعان، وكان خداها وشفتاها ملونين دون أي قدر من المكياج. بدت أفضل ممّا اعتقدت إلى الحد الذي جعلها تشعر أنّها لا تنظر في مرآة، وإنما إلى كون موازٍ حيث تعيش بيبي بلير أخرى في صحة جيدة ودون منغّصات حقيقية.

وبعدما شعرت بشهية نحو الأكل، عادت إلى فراشها انتظارًا لعودة والديها وإحضار وجبة العشاء. كانت حدّة الخدر الذي لازم شقّها الأيسر قد انحسرت، وكذلك الضعف الذي اعترى يدها اليسرى، ولم تقم ولو لمرة واحدة بجرّ ساقها اليسرى. وخلال الساعات القليلة الماضية، لم تعاني من ظهور المذاق السيء ثانية.

لم تكن لتنخدع بفكرة أنّ انحسار أعراضها يعني أنّ محنتها – أيًا كان سببها – مؤقتة. فعلى الرغم من عجائبه التي لا تحصى وجماله الخلاب، فإنّ هذا العالم مكان صعب؛ وكل ما يقدمه من مُتع ووسائل للراحة، وكل اللحظات العظيمة، كان يُقابلها أيام من القلق الشديد والمعاناة والعذاب. إنّ هذا هو العالم الذي صنعته البشرية لنفسها. ولكن طوال حياتها وحتى الآن، استمتعت بيبي بالسعادة أكثر من الحزن، وبالنجاح أكثر من الفشل، وقد أدركت لبعض الوقت أنّها في نهاية المطاف – مثل سائر البشر – ستخوض في نوع أو آخر من النيران. وطالما تمكنت من العبور منها بسلام، فستعفي الآخرين من شكاواها، ولن تهدر طاقتها في تمني وجود حل سحري لمحنتها الراهنة.

آمنت بيبي لبعض الوقت في صغرها بقوة السحر. وكانت مفتونة بسلسلة شهيرة من الروايات تحكي عن ساحرات شابات، مع أنّ كتبًا بعينها أخرى كان لها تأثير أعظم عليها. كما أنّ القليل من الأحداث في حياتها أوحت لها بوجود عوالم أخرى؛ عوالم يغمرها النور وأخرى مظلمة. كانت قد شعرت أنّ الكلب أولاف قد أتى إليها بفعل سحر ما عندما كانت في أمسّ الحاجة إليه. وقبل وبعد وصول الكلب الذهبي على حد سواء، كانت تقع حوادث في الشقة الواقعة أعلى المرآب بدت ذات طبيعة خارقة.

ظل أثر تلك الحوادث قائمًا لفترة طويلة، وقد عمل الدهر على حجب بريق أي شيء فُتنت به في صباها. وعندما تذكرت تلك الحوادث، بات الغموض المثير الذي كان يحيط بها يومًا باهتًا الآن، وأمسى من الجائز افتراض وجود تفسيرات منطقية لما حدث آنذاك.

عندما وصلت صينية العشاء في الخامسة والربع مساءً، اكتشفت أن الوجبة تختلف تمامًا عن الصورة التقليدية لوجبات الطعام في المستشفى ممّا كاد يجدد إيمانها بالسحر. شريحة سميكة من لحم البقر، وبطاطس مهروسة دسمة، وترموس صغير للاستخدام لمرة واحدة مملوء بحساء الخضروات الساخن، وقد بدا طازجًا. علقت المنديل الورقي على ياقة البيجاما وأكلت بحماس مثل حطاب كادح.

كانت تلتهم فطيرة الكرز والقهوة الساخنة عندما عاد والداها أخيرًا. كانا أشبه بمحتالين ذكيين خرجا من وعاء بذور قادم من الفضاء الخارجي، ويشبهان نانسي وميرفي الحقيقيين في كل التفاصيل الجسدية، ولكنهما عاجزان عن تقليد سلوكياتهما وتصرفاتهما بشكل صحيح. كانا يبتسمان كثيرًا، ولم تبدُ أي من ابتساماتهما صادقة. طوال حياة بيبي، كان والداها يتمتعان بروح مرحة. أما الآن فيبدوان كمن يحمل قنبلة موقوتة.

تساءلت إن كانا يخفيان شيئًا عنها. على الأرجح لا، لكن إدخالها المستشفى وأعراضها المزعجة كانت كافية حتى يتملك القلق كلاً من نانسي

وميرفي مثلما هما الآن. لطالما أثبتت فلسفة السير مع التيار نجاعة إلى أن يلقي بك التيار في مواجهة أزمة كبيرة للغاية مما يؤدي إلى سد مجرى النهر. كانا الآن مثل غزالين عالقين وينجرفان.

على أي حال، إذا كانا يعرفان أمرًا سيئًا، فلم ترغب بيبي في سماعه منهما. كانا سيفشيان الأمر بتأثر كبير، وسيتعين عليها تعزيتهما. وعندما قابلت الدكتور تشاندرا صباحًا، أرادت أن تكون الأجواء هادئة وذهنها صافيًا. فأيًا كان ما ألمّ بها، فستحتاج إلى التفكير وفهم البدائل المتاحة أمامها. وسيتعين عليها العثور على المخرج الصحيح من هذه البقعة المظلمة وإلا – إذا كانت حالتها أسوأ مما تعرف – ستنزلق عبر ثقب إبرة الموت وتنجرف بعيدًا قبل أن يضعها في كفنها.

وعندما تردد والداها في المغادرة عند نهاية ساعات الزيارة، تظاهرت بيبي بالنوم على الرغم من أنّ الفراش ثبتها على وضعية الجلوس. لكنهما استعدا للمغادرة بفيض من القبلات والعناق والتطمينات.

اشتاقت بيبي إليهما بعد أن غادرا الغرفة مباشرة، لكنها لم تعاود الاتصال بهما. وعندما غدت بمفردها، أخذت الحقيبة من فوق المنضدة، وأخرجت منها مفكرة صغيرة وقلمًا. لم تكن في مزاج لقراءة الكتاب الذي كانت قد أحضرته، ولم يكن التلفاز جذابًا بالنسبة إليها. بدلاً من ذلك – بلغة منمقة – دوّنت أحداث اليوم، فركزت على كل ما أحست وفكرت فيه مع كل تطور مثير للقلق. وكان أكثر ما أثار دهشتها – لأسباب لم تتبينها بوضوح – هو عودة ذاكرتها غير مرة إلى تلك السنين التي قضتها في كورونا ديل مار، عندما كانت تؤمن بالسحر وهي طفلة.

-12-

قبل اثنا عشر عامًا: آثار أقدام رجل مجهول

في وقت باكر من صباح أحد أيام الأحد من شهر فبراير/ شباط في ذلك الشتاء الممطر - قبل ستة أسابيع من ظهور الكلب المبلل المجهول على الرصيف القادم من جهة البحر - أخذت بيبي أحد المفاتيح الإضافية الخاصة بالشقة العلوية من على حاملة المفاتيح الكائنة في حجرة المؤن، وغادرت المطبخ في هدوء، وأغلقت الباب برفق بعد أن دخلت إلى الشرفة الخلفية من المنزل.

كان والداها معتادان على النوم في ساعة متأخرة في أول يوم من كل أسبوع. لم يكن لدى نانسي بيوت مفتوحة حتى تشرف عليها، مثلما فعلت في بعض أيام الأحد. وفي موسم الإجازات الحالي، كان متجر بيت ذا كات يستقبل الزائرين فقط من الإثنين وحتى السبت. كانا يظلان خارج المنزل حتى بعد منتصف الليل برفقة الأصدقاء، تاركين بيبي في عهدة تشاستيتي بريكل - ومعنى اسمها بريكل البسيطة - جليسة أطفال معتدة بنفسها للغاية وتبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، والتي فشلت أكثر من مرة أن تكون اسمًا على مسمى. كانتا لا تتحملان بعضهما البعض لبضع ساعات حتى.

تساقطت الأمطار قبل الفجر. وقد بدت السحب الرمادية المنخفضة أشبه بالرماد أكثر من قطع القماش المبللة التي تستخدمها عاملات النظافة. لم تكترث بيبي لحمل مظلة، وإنما شقت طريقها سريعًا بين البِرك التي ملأت الفناء الممهد بالطوب نحو المرآب الواقع في مؤخرة المنزل.

على قمة السلالم المفتوحة - وبينما كانت تقف في الشرفة - نظرت

خلفهـا وإلـى الأسـفل صـوب المنزل، وهي تخشـى أن يُمسـك بهـا. لم يكن والداها على دراية بأنّها تقضي بعض الوقت في الشقة، وعلى الرغم من عدم وجود ما يُخجل فيما تفعله، إلا أنّها فضلت ألا يعرفا أبدًا بشأن تلك الزيارات.

أطـلّ البـاب الأمامـي للشـقة علـى مطبـخ صغيـر. كان بداخـل المطبخ طاولات مصنوعة من بلاستيك الفورمايكا الأزرق، وفُرشت أرضيته بالمشمع المرقـط باللونيـن الأسـود والرمـادي، فضلاً عـن وجود طاولـة طعام صغيرة وكرسـيين. وقد ظهرت صفحة شـهر نوفمبر/ تشـرين الثاني على تقويم السـنة الماضيـة المعلـق علـى الجـدار. وعلى الرغم من أنّ السـاعة الرقمية الخاصة بفـرن الميكرويـف كانـت تعرض التوقيـت الصحيح، إلا أنّ الثلاجة لم تصدر صوتًـا، فقـد جـرى إطفاؤها قبل أسـابيع. كان الهواء مـا يزال باردًا وتفوح منه قليلاً رائحة عفن.

لم تشعل بيبي المصابيح قط خشية أن تكشف عن وجودها حتى نهارًا، وهـو مـا كان سـيحدث في هذا الصبـاح المظلم. وعلى الرغم من عدم وجود سـتائر، فقـد أتاحـت النافذتان فـي المطبخ دخول ضوء رمادي ضعيف أشـبه بضوء القمر المغطى بالغيوم.

في وسـط الطاولة، اسـتقرّت مزهرية مسـتديرة بيضاء ضيقة العنق، التي امتلأت عادة بالقليل من الورود أو القرنفل. كانت المزهرية فارغة، وقد لمع سـطحها الأملس قليلاً في الظلام، مما جعلها تبدو مثل بلورة سـحرية بيضاء وُضعت هناك من أجل جلسة تحضير أرواح مرتقبة.

وقفـت تحـدق فـي الأرضيـة المجاورة للكرسـي الأول، حيث عُثر على الجثة. كان قد جرى تنظيف آثار الدماء تمامًا قبل زمن طويل، لكن بيبي ظنّت – أو تخيلت – أنّ قدرًا ضئيلاً للغاية منه ظلّ عالقًا في الهواء، وكانت رائحته مقززة. فحجبت أنفها في اشمئزاز.

لـم يعـد هذا المكان سـاحرًا مثلما كان. وبعـد هذه الزيارات المتواصلة، شـعرت بالحـزن وعـدم الارتياح. أحيانًا كانـت تراودها الكوابيس، بيد أنّها ما

انفكت تعود إليه. لم تفهم بشكل كامل ما الذي يجذبها إلى هناك، فهي لن تعثر قط على أي شيء يفسر ما حدث. ما حدث قد حدث، هكذا قال والداها، وبالطبع كانا على حق.

إلى جانب المطبخ، احتوت الشقة على حجرة للمعيشة وأخرى للنوم، وكانت كلتاهما مفروشتان، فضلاً عن وجود مرحاض وخزانة للملابس. اعتادت على التجول في المكان بأسره وهي في حالة من القلق والانتباه، وكأنّها لم تكن في كامل وعيها، ولا تعرف ما الذي تبحث عنه. لكنها في هذه المرة – بينما كانت تعبر المطبخ صوب مدخل حجرة المعيشة الذي كان مواربًا – توقفت على وقع سماعها صوت خطوات أقدام في مكان أخر في الشقة.

كانت كل من حجرتي النوم والمعيشة مجهزتان بأرضيات خشبية، وكان جانب منهما مغطى بالسجاجيد. وقد بدا أنّ وقع الأقدام يعود إلى رجل ضخم البنية، وقد أصدرت بعض الألواح الأرضية صوت طقطقة أسفل أقدامه – ليس مع كل خطوة يخطوها – ولكنها كافية لتأكيد أنّها خطوات أقدام في الشقة وليست ضجة قادمة من الخارج.

وعلى الرغم من حقيقة أنّها هي التي عثرت على الجثة، فلم تشعر بيبي بالفزع بادئ الأمر، وإنما شعرت بالإثارة. حينها فقط، أدركت أنّها كانت تأتي إلى هنا على أمل مواجهة شيء ما. أما عن طبيعة ذلك الشيء، فلم يكن بوسعها تبينها حتى الآن، لكنها كانت تترقبه، وها قد وصل.

علا صوت وقع الأقدام رويدًا رويدًا. وقد بات من المؤكد الآن أنّه قادم من حجرة المعيشة، ويقترب ببطء من الباب المؤدي إلى المطبخ.

تملك الخوف بيبي حينئذٍ. خوف، ولكن ليس هلع مميت أو فزع. تراجعت إلى خلف الطاولة صوب الشرفة التي دلفت منها.

توقفت خطوات أقدام الرجل غير المرئي الثقيلة عند عتبة حجرة المعيشة. وقد ساد صمت مطبق أشبه بالصمت المزعج الذي يظهر في الكوابيس؛

تلك الهمهمات التي تسيطر على المشهد وكأن الستارة – بعد توقف وجيز – ستنسدل وسيستيقظ النائم، مع أنّه في الحقيقة أثبت أنه الهدوء الذي يسبق الصدمة الأخيرة التي توقظ النائم وهو يلهث.

ارتفع صوت أزيز مفاصل الباب المتيبسة المثبتة بمسامير لولبية بسبب حاجتها للتزييت، وانفتح الباب ببطء شديد إلى داخل المطبخ نحو بيبي. وقد منع ذلك رؤيتها لأيًا كان من يقف عند الباب.

عندما تذكرت الدماء والعينين المخيفتين للجثة التي كانت قد اكتشفتها في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، تراجعت إلى الوراء. لكنها لم تكن تلاحظ أنّها تهرب حتى وجدت نفسها تسقط عن السلالم المؤدية إلى الفناء.

نظرت إلى أعلى صوب السلالم، فلم ترَ أحدًا هناك. كان باب الشقة مقفولاً. لا بدّ أنّها أغلقته بعنف أثناء مغادرتها.

لبعض الوقت – وبعد أن تلبدت السماء الصافية مجددًا بغيوم آتية من جهة المحيط – ظلت بيبي تراقب نافذتي المطبخ. لم يظهر أي وجه عبرهما، ولم تحدث أي حركة في الظلام الشديد في الداخل.

أخيرًا، أفلت عائدة إلى الأريكة الخشبية في الشرفة الخلفية من المنزل، حيث تركت كتابًا والمفكرة التي دوّنت فيها قصص جاسبر، ذاك الكلب الوحيد.

ظهر والدها لاحقًا، إذ كان يستعد لإجراء التفتيش الأسبوعي للشقة الكائنة أعلى المرآب، ولفحص شقوق السطح ومشكلات أخرى.

«أبي». عندما استدار للنظر صوبها بعد نزوله عن السلالم المؤدية إلى الشرفة، قالت «احترس».

قطب جبينه في استغراب وسألها «أحترس من ماذا؟»

«لا أدري. خلتُ أنني قد سمعت شخصًا ما في الأعلى».

قال مازحًا مثلما فعل دومًا «لعل ذلك الراكون قد نزل عبر العلية مجددًا. لسوف يدفع الإجبار مكرهًا هذه المرة».

عندمـا عـاد بعـد عشـرة دقائـق، لم يكن قد عثر علـى الراكون أو أي زائر غير مرغوب فيه.

وبعدما أوشكت السماء أن تمطر، عادت الصغيرة بيبي إلى حجرتها كي تكتب قصة عن جاسبر. وقد مرّ أسبوعان قبل أن تجرؤ على العودة إلى الشقة.

-13-
شابة حزينة مجددًا

فـي طريـق عودتهمـا من المستشـفى في تلك الليلة العجيبة، تشـارك كل من ميرف ونانسي صمتًا مميتًا مزعجًا. وقد بات هذا الصمت المتبادل خانقًا ومزعجًا بشـدة إلى الحد الذي دفع كلاً منهما إلى محاولة كسـره بالكلمات أكثـر مـن مـرة، إلا أنّ كلاً منهمـا كان منهارًا ومضطربًا عاطفيًا بفعل الخسـارة التي تلوح في مستقبلهما؛ خسارة لا يمكن تصورها.

بعد أن حققا نجاحًا كبيرًا في تجارة التجزئة والعقارات، انتقلوا قبل ثلاث سنوات من المنزل الصغير إلى منزل من طابقين مزين بالجبس الأصفر الباهت ذي تصميـم حديـث أنيـق. وقـد ظلوا قاطنين في ذلـك الجزء من كورونا ديل مار المعروف باسـم القرية، وباتوا يسـكنون على مسـافة حي ونصف فقط عن مياه المحيط. ومن فوق سطح المنزل وغرفة في الطابق العلوي وحتى الشرفة الأماميـة فـي الطابـق الأرضـي، كانـت لديهـم زاوية رؤية مائلـة على المحيط امتدت إلى أبعد من نهاية الشارع المؤدي شرقًا وغربًا.

كان ميرف فخورًا بأنّه ما يزال بوسع فأري تزلج على الأمواج - إذ كان ما يزال يعتبر نفسـه ونانسـي محترفي تزلـج - البقاء على تواصل مع الشـاطئ والاسـتمتاع بجـزء كبيـر من حلـم كاليفورنيا. إلا أنه لم يكن للمنزل أي معنى بالنسبة إليه ليلتئذٍ، فقد بدا في الواقع باردًا وغريبًا، وكأنّهما قد دخلا عن طريق الخطأ في مسكن يملكه أشخاص غرباء.

لطالما توافق هو ونانسي ودعما بعضهما البعض، وكانا منسجمين للغاية في كافة الظروف. افترض أنهما سيجلسـان سـوية عند طاولة المطبخ، تحت

أضواء خافتة – أو ربما أوقدا شموعًا – ويساندان بعضهما في تجاوز أهوال وآلام ما حط فوق رؤوسهما.

بيد أنه قد اتضح أنّ كلاً منهما غير مستعد لذلك. وكأنّ الصدمة – التي تشتد مع مرور الوقت – لم تجرفهما بعيدًا عن المراسي، بل وعادت بالزمن إلى الوراء أيضًا، حيث اختار كلاهما العودة إلى أساليب التعامل مع المصائب التي اتبعاها في شبابهما. سوف يجتمعان معًا بلا شك، ولكن ليس الآن.

دلفت نانسي إلى المرحاض الصغير في الطابق الأرضي، وأخذت علبة مناديل كلينكس من فوق الطاولة، وأسقطت غطاء مقعد المرحاض بعنف، وجلست وهي تصدر أصواتًا حزينة لم يسمعها ميرفي من أي أحد قط. وعندما تحدث إليها وحاول دخول المرحاض، قالت «لا، ليس الآن، لا!» وأغلقت الباب في وجهه.

وقف ميرف – وهو يشعر أنه شخص عاجز وعديم الفائدة – يصغي إلى نحيبها الشديد؛ إلى صوت بكاء الحيوان الهائج الصادر من بين أنفاسها المتقطعة. بدت مثل طفل يعذبه الخوف والبؤس. وقد زاد حزنها من شدة كربه إلى الحد الذي جعله لا يقوى على الإصغاء إليها أكثر من ذلك.

وإذا كانت نانسي قد بدت مثل الأطفال وهي تنتحب، فإنّ ميرفي قد تملكه الغضب مثل المراهقين. أخذ ستة علب من البيرة المثلجة من الثلاجة وحملها إلى السطح. شعر برغبة في لكم شخص ما – أي شخص – مرارًا وتكرارًا حتى يصيبه الإعياء وتتورم مفاصله. كان يرغب في أن يدفع أحدهم – ويقاسي ويتعذب – ثمن الظلم المتمثل في إصابة بيبي بالسرطان. ولكن لم يكن أحد مسؤولاً عن ذلك، ولم يكن هناك أحد ليواسيه؛ ليس في عالم الأقدار فيه نافذة لا محالة. ولكن بدلاً من ذلك، جلس على كرسي للاستلقاء مصنوع من الخشب، وفتح علبة البيرة الأولى، وتجرعها وهو ينظر إلى سطح جيرانه، وإلى المصابيح القليلة المثبتة على الجهة الأخرى من السطح، وإلى البحر الشاسع ذي اللون الأسود في ظلمة الليل تحت سماء بلا قمر؛ تعلوه

سـماء مظلمة مرصعة بنجوم جليدية، ولا يشـعر المرء بوجوده إلا عبر أنغام اصطدام الأمواج بصخور الشـاطئ. بدأ في البكاء بعد أن شـرب نصف علبة البيرة الثانية، ولـم يزده البكاء إلا غضبًا. وكلما ازداد غضبه، بكى بحرقة أكبر.

تمنى لو كان لديهم كلب آخر بعد موت أولاف. فالكلاب لا تحتاج إلى الكلمـات حتـى تواسـيك، لأنها أبرع الممارسـين لعـلاج اللمس. لقد عرفت الكلاب وقبلت حقائق الحياة القاسـية التي لا يعترف البشـر بها، حتى يجري وصـف تلـك الحقائق الجلية بكلمـات حزينة، وحتى عندما يفعلون، فعادة ما يكون الاعتراف على مضض وليس تقبلاً بصدر رحب.

شعر ميرفي – الذي بات بلا كلب وربما بلا ابنة قريبًا – بالضياع بعد أن أنهـى علبـة البيـرة الثانية. وإذا حاول النزول إلى الأسـفل ليطمئن على زوجته الآن، فلن يتفاجأ إذا اكتشف أنه غير قادر على معرفة كيفية النزول عن السطح.

فتحت حلقة السحب علبة البيرة الثالثة، محدثة صوت طقطقة.

-14-

ها قد جلست معتدلة على الفراش

كان الحلم الذي راود بيبي في ليلتها الأولى في المستشفى قد زارها كثيرًا خلال السنوات الاثني عشر السابقة؛ من قبل أن يعثر الكلب أولاف عليها:

كانت في العاشرة من العمر، ونائمة في حجرتها الواقعة في مؤخرة المنزل الصغير في كورونا ديل مار. لم تتقلب في الفراش أو تئن، ولكن ارتسمت على وجهها اليافع المضيء تعبيرات معاناة.

نهضت جالسة على الفراش فجأة، مع أنّ هذا الاستيقاظ هو جزء من الحلم الذي ما تزال فيه. وردًا على ثلاث صرخات لطائر ليلي، قذفت بالأغطية بعيدًا ونهضت صوب النافذة.

في الفناء - المضاء فقط بهلال ضاحك - كان هناك شخصان يرتديان ملابس غريبة ويضعان غطاءً للرأس، وكانا طويلي القامة ويمشيان بصعوبة، وهما يحملان سجادة ملفوفة ويتجهان نحو الشقة الواقعة فوق المرآب. كانت الرؤية غير واضحة، لكن بيبي استشعرت وجود تشوهات في أطرافهما وظهرهما.

وحين لاحظت أنّ السجادة ما هي إلا جثة ملفوفة في كفن، عرفت أنّه لا بدّ أنهما يعيدان الرجل الميت إلى مكان وفاته. أدار أحد حاملي الجثة رأسه - وكأنّه كان يشعر بنظراتها الدقيقة - كي ينظر إلى بيبي حيثما كانت تقف عند النافذة. توقعت أن ترى بصعوبة جمجمة أسفل غطاء الرأس - الشكل التقليدي للموت - لكن مفاجأة أسوأ كانت في انتظارها. أضيئت ظلمة الليل بشكل ما، وكأنّ وهجًا شمسيًا شديدًا قد انبعث من الجانب الأقصى من الكوكب، وانعكس بشدة عبر سطح الهلال. وقد أخفى غطاء الرأس أكثر مما

كشـفه الضوء السـاطع. ولكن قبل أن يشـيح الدخيل بوجهه عنها، رأت شـيئًا لم تتحمله؛ إذ رأت نظرة مفزعة للغاية لم - ولا يمكنها - ولن تحملها معها إلى عالم اليقظة، وإنما ستبقيها في عالم النوم منسية أو مكبوتة على الأقل.

للمـرة الثانيـة فـي الحلـم، جلسـت الصغيـرة بيبـي على الفـراش. كانت عاجزة عن التنفس، وترتعد، وتشعر ببرودة شديدة. وعندما أشعلت المصباح، اكتشفت الجثة المكفنة التي كان يحملها المخلوقان المتخفيان وقد استقرت على كرسي في جانب الحجرة وهي هامدة. بعد ذلك، تلوت الجثة في الكفن محكم الإغلاق...وبدأت تتكلم.

في المرة الثالثة التي جلست فيها بيبي على الفراش، كانت مستيقظة ولم تعـد طفلـة. كان الحلـم قـد فقـد الكثير من حدته التي كان عليها قبل سـنوات بسبب التكرار، فلم تعد تستيقظ وهي تصرخ أو ترتعد. لكن جلدها تجعد عند مؤخرة عنقها، وبلل القليل من العرق جبينها.

ومثلما حدث في المرات السابقة، تبع صوت خشن بيبي قادم من الحلم، فنطق بكلمات خارج السياق: «...هذا كل شيء».

كان الصوت هو نفسـه دومًا، لكنه لم يكرر نفس الكلمات في كل مرة. كان يقول أحيانًا «السيد الأعلى» أو «يسعى بيأس» أو «الكلمة هي» أو همهمات أكثر غموضًا حتى.

ظل فراش المستشفى الآخر شاغرًا. كانت بمفردها.

أضفـى لمعـان المبانـي المحيطة طيفًا أصفر علـى النافذة. كان المصباح المعلـق فـوق الفـراش - الـذي دونت أحداث اليوم تحت نـوره - خافتًا، فلم يكن يسمح إلا بالرعاية المناسبة التي تقدمها الممرضة للمريض.

راودها الحلم - الذي ظهر مرارًا عندما كانت بيبي في العاشرة - مرات أقل في العقد الماضي، فكانت تراه مرة أو مرتين في العام الآن.

في السابق، كانت تظن أنّه يمكن التنبؤ به. لكنه كان خيالاً مظلمًا لا يمكن أن يظهر في العالم الحقيقي قط.

وعندما بلغت مرحلة المراهقة، كانت أحيانًا تستغرق في التفكير بشأن المعنى الرمزي المحتمل للحلم. ولأنه كان يراودها كثيرًا حينها، تساءلت أيضًا عما إذا كانت تعاني اضطرابات وغير متزنة نفسيًا، وهل كانت على وشك أن تجن. ولكن كلا، كان هذا أسوأ نوع من تخاريف روايات المراهقين؛ فتاة شابة بائسة تخفي معاناتها من اضطراب نفسي ثلاثي القطبية – وحقيقة أنها مستذئبة – عن العالم وعن نفسها إلى أن انهارت قبل يوم من اختيارها كأشهر فتاة في الصف التاسع، حيث كانت ستحظى بقبلة من أوسم فتى شقي ومتمرد في المدرسة. وحتى في تلك السن اليافعة، كانت رابطة الجأش وتثق بشدة في حقها في الوجود في العالم وقدرتها على شق طريقها في الحياة وفقًا لشروطها.

أما الآن، فقد كرِهت الحلم بسبب حقيقته الجلية؛ إذ هو دليل على أن عثورها على الجثة بجوار طاولة الأكل قد سبب صدمة لها. غطت الدماء المكان، وكانت عينا الرجل جاحظتين بلا حراك، وفمه فاغرًا في صياح صامت.

أشارت الساعة المجاورة للفراش إلى 3:49 بعد منتصف الليل. وبعد نحو ست ساعات من الآن، ستتسلم تشخيصًا من طبيبها. لم يكن لديها سبب كي تخشى الدكتور سانجاي تشاندرا، مثلما لم يكن لديها سبب كي تخشى حاملي الجثة في الحلم. لم يكن هناك بعبع. ستكون على ما يرام، وستتحسن الأمور كافة.

تمددت مجددًا، ووضعت رأسها على الوسادة وأغمضت عينيها. أخبرت نفسها أين ستكون بعد يوم من الآن، وبعد أسبوع، وبعد سنة. وسرعان ما غفت ثانية، ولكن لم يفسد الكابوس غفوتها هذه المرة.

هاجمت النوبة بيبي، فتشنج جسدها على الفراش، وأطلقت حنجرتها همهمات بلا كلمات. كانت النوبة عنيفة وسريعة، لكنها لم توقظها من غفوتها.

-15-

لحظة حقيقية واحدة من بين لحظات عديدة

احتوت الحجرة رقم 456 على ثلاثة كراسي للزائرين. كانت الكراسي رخيصة وبالكاد مريحة بالقدر الكافي.

لم يشأ الدكتور سانجاي تشاندرا أن يضايق بيبي وهي متمددة على الفراش، ويبلغها بحالتها الصحية وهو يجلس على كرسي أعلى منها. وضع كرسيين بجوار النافذة، وجلسا قبالة بعضهما البعض، فكانت السماء الزرقاء والسحب البيضاء المتناثرة على يمين بيبي، وكأنها كانت تستقبل هذه الأنباء في ردهة السماء.

ومع أنه كان يرتدي معطفًا أبيض فوق بنطال بذلة رمادي اللون، وقميصًا أزرق باهتًا، وربطة عنق زرقاء، ومع أنه قد أتى حاملاً جهاز كمبيوتر محمول نحيف للغاية استخدمه على ما يبدو للوصول إلى نتائج اختبارات بيبي، فلم يكن حضور الدكتور تشاندرا يثير القلق مثلما كانت هذه طبيعة بعض الأطباء، أو مثلما يفعل بعضهم الآخر. كان يتحدث بلطف وبراحة نفسية تشي بأنه قد تصالح مع هذا العالم المليء بالمصائب، وقد بدا مثل مستشار اجتماعي أكثر من كونه طبيبًا.

استعدادًا لهذا الاجتماع، اغتسلت بيبي، ومشطت شعرها الطويل الداكن، ووضعت الماكياج، وارتدت رداءً حريريًا لونه أزرق مثل الياقوت فوق البيجاما. إذا كان الطبيب سينقل لها أخبارًا سيئة، فقد اعتزمت تلقيها وهي متألقة، ولا تبدو في حاجة إلى الشفقة أو منهزمة على الأقل.

كانت نتائج التشخيص سيئة في الواقع، وكانت توقعات سير المرض

أسوأ. بقي أمامها عام واحد فقط؛ عام من الانحدار والمعاناة.

أدركت الآن لماذا أراد الدكتور تشاندرا التحدث معها على انفراد. فلم يكن لدى والديها الثبات العاطفي لرؤيتها وهي تتلقى نبأ كهذا. ورد فعلها – مهما كان شجاعًا – سيصيبهم بالانهيار، وستقلق بيبي حيالهما ولن تتمكن من التركيز على البدائل المطروحة أمامها مثلما يتعين عليها.

بسلوك ودود ومتعاطف لقسيس صالح يحضر تنفيذ حكم الإعدام في رجل مدان، أوضح الدكتور تشاندرا لماذا ليست هناك بدائل جيدة متاحة لبيبي. كانت حالتها متأخرة للغاية. وحتى إذا كان قد جرى اكتشافه باكرًا، فإن الورم متجذر بشدة في دماغها ولن تكون الجراحة حلاً دائمًا. في المرحلة الراهنة، سيشتري كل من العلاج الكيماوي والإشعاعي بعض الوقت لها، إذا كان هذا ممكنًا أصلاً. «أخشى أنّ الأعراض الجانبية ستجعل الأيام المقبلة شديدة الصعوبة يا بيبي»

قالت «مع فائق الاحترام، ماذا عن رأي طبيب آخر؟»

«لقد استشرت الدكتورة بيريل تشيمرانسكي. إنّها أخصائية جراحة أورام مرموقة في مستشفى آخر، ولا تربطني بها أي علاقة. وقد اتفقت مع ما خلُصت إليه. تمنيتُ لو أنّها لم تفعل. ومع ذلك، يمكنك البدء في العلاج الكيماوي والإشعاعي. القرار بيدكِ وحدكِ».

نظرت في عينيه طويلاً، ولم يُشح هو بناظريه، ثم قالت أخيرًا «أحسب أنهم يسمون هذه لحظة الحقيقة»

«أؤمن بالحقيقة يا بيبي. وأعرف أنكِ كذلك أيضًا»

نظرت إلى أسفل نحو يديها، ثم قبضتهما. لم تنقبض اليد اليسرى بإحكام, قالت «سأقاتل، بالعلاج الكيماوي أو خلافه. أمامي عام واحد، صحيح؟ عام واحد فقط؟ سنرى».

-16-

ذكرى بلا تفسير في هذه الظروف

بعد مغادرة الدكتور سانجاي تشاندرا، وقبل وصول نانسي برفقة ميرفي، جلست بيبي على كرسي مجاور لنافذة حجرة المستشفى وهي تمسك بالمفكرة وقلمًا، وذلك لتدوين أفكارها ومشاعرها أولاً بأول. كانت تشعر بالقلق، ولكن ليس من النوع المميت؛ ليس بعد. كانت الأنباء السيئة ضربة كبرى، لكنها لم تعتبرها بمنزلة فاجعة، وإنما دعوة للتحرك. لطالما وفرت مفكرتها ملجأ لها من العالم، وبدت معها أنها خارج الزمن، إلى داخل مكان تنعم فيه بالتفكير في انطباعاتها ومشاعرها قبل التصرف حيالها. وقد أنقذها هذا الوقت المستقطع مرارًا من قول أو فعل أشياء قد تندم عليها لاحقًا.

بينما كانت جالسة على الكرسي، انصرف انتباهها نحو شيء خارج النافذة، نحو سرب من طيور النورس الكبيرة. كانت المستشفى تقع على بعد شوارع قليلة من المحيط. ارتفعت الطيور ثم هوت ثم ارتفعت مجددًا؛ كل له نواياه الخاصة، فرحين بنعمة الطيران، وتبدو عليهم بجلاء علامات السعادة مثل الرسائل الإعلانية التي ترسمها الطائرات في السماء للمصطافين على الشاطئ في الصيف.

تذكرت رؤيتها لسرب من النوارس في صباح يوم في شهر ديسمبر/ كانون الأول من أحد الأعوام حين كانت في الثامنة عشر. كانت تعبر حرم الجامعة لزيارة الدكتورة سولانج سانت كرويكس، التي كانت قد دعتها عبر البريد الإلكتروني إلى مؤتمر يجمع التلاميد بالأساتذة. كانت النوارس سعيدة حينئذٍ أيضًا، وقد ظنت أنها فأل ينذر بلقاء مثمر مع البرفيسورة، لكن أمل بيبي

خاب سريعًا، فغادرت وهي تشعر بالارتباك والإحراج.

على الرغم من المنافسة الشرسة، ظفرت بيبي بأحد الأماكن القليلة في برنامج الكتابة الإبداعية الحصري والمرموق الذي تنظمه الجامعة. كان بعض من خريجيه قد أضحوا عبر السنوات من الروائيين المتصدرين لقوائم الكتب الأكثر مبيعًا وباتوا نجومًا في سماء الأدب. وعلى مدى ثلاثة أشهر، عملت بجد لصقل موهبتها، إلى أن شدّت انتباه الدكتورة سانت كرويكس، التي يسميها البعض بالأم المقدسة لبرنامج الكتابة.

وضع ديكور مكتب البروفيسورة معايير جديدة للبساطة. فقد احتوى على مكتب واحد مصنوع من الصلب باستثناء قمته المصنوعة من الجرانيت الأسود، وكرسيين. وكانت مقعدة كل كرسي نحيفة للغاية مما يجعل الزائر يشعر بالإنزعاج خلال ربع الساعة. وعلى يسار النافذة الطويلة، استقر دولاب للمكتب يضم ثمانية أرفف كان نصفها خاليًا، مما يوحي بأنه من بين كل مؤلفات تاريخ الأدب، فإنّ القليل من المجلدات فقط تستحق أن توضع ضمن هذه التجميعة. ولم يكن على المكتب سوى كمبيوتر محمول – مطفأ حاليًا – وبجواره كتيب مطبوع يحمل اسم بيبي على غلافه.

سرّحت الدكتور سانت كروكس – طويلة القامة والنحيفة والجذابة – شعرها الأشيب على هيئة كعكة، وارتدت ملابس قاتمة مثل أرملة حزينة. كان معروفًا عنها أنها هادئة وودودة وكاتبة بارعة. وكان بمقدورها التحلي باللطف وخفة الظل، لكنها أفرطت في توزيع الابتسامات، كاشفة عن حس فكاهة غير متوقع، مما منحها تألقًا أكبر. لكن عيناها كانتا تلمعان الآن مثل مادة كيميائية هلامية وُضعت في الثلج، ولم تكن تبتسم.

قالت سانت كرويكس «آنسة بلير، نما إلى علمي أنكِ قد عبرت لطلبة آخرين عن شكوكك حول قيمة التواجد هنا».

فقالت بيبي – بعد أن فزعت لسماع البرفيسورة تعلق على ملحوظاتها الساذجة بمثل هذه الكلمات – «كلا، على الإطلاق. لقد تعلمت الكثير هنا».

«أنتِ قلقة من أن نظام الإلهام الذي يقوم عليه هذا البرنامج ليس إلا مجموعة من القواعد المقيدة، إلى الحد الذي يجعلها تشجع أصواتًا متفاوتة كي تبدو متماثلة».

«لقد بالغ أحدهم في نقل ما قلته يا دكتورة سانت كرويكس. إن ما يقلقني أمر بسيط. من الطبيعي أن يتملك المرء القليل من الشكوك».

«إنّ نظام الإلهام الذي نطبقه ليس مجموعة من القواعد يا آنسة بلير»

«كلا، بالطبع هو ليس كذلك».

«نحن لا نفرض على طلابنا طريقة تفكير بعينها أو مجموعة من القيم الفاسدة»

شككت بيبي في حقيقة ذلك، لكنها التزمت الصمت.

«قالت سولانج سانت كرويكس «إذا كنتِ تعتقدين أن هذا ما نفعله في الواقع، فمن ثمّ لديكِ عذر وجيه لعدم استكمال البرنامج، ولعله عذر قد يتقبله الآباء بوصفه منطقيًا وأخلاقيًا»

ظنّت بيبي أنها أخطأت في سماع ما قيل، فسألتها «عدم استكمال البرنامج؟»

بازدراء واضح، أشارت البروفيسورة إلى البحث المكون من أربع صفحات، وقالت «كم كان تهورًا منكِ أن تكتبي عني».

كان الواجب الأخير هو أن تختار شخصًا تعرفه من برنامج الكتابة – سواءً كان طالبًا أو محاضرًا – لم تزر مسكنه – سواءً كان يسكن في حجرة مشتركة أو شقة أو منزلاً – قط، ومن ثمّ خلق بيئة حية قدر الإمكان نابعة مما لاحظته عن حياة ذلك الشخص.

«لكنكِ سمحتِ لنا بالكتابة عنكِ يا دكتورة»

«وأنتِ تدركين تمامًا أنّ ما خطته يدكِ ليس ما أغضبني، بل ما فعلتيه»

أجفلت بيبي حين رأت أن ادعاءها الحيرة قد أغضب الدكتورة سانت كرويكس بشدة. بدا وكأن المرأة ترى أن من حقها الغضب، وهو شيء أسوأ

من الغيظ وأخف من السخط جعل وجهها خاليًا من أي تعبيرات.

«ما تحسبينه ذكاءً يا آنسة بلير ليس سوى مكر تافه. لا أملك صبرًا لمن هم أمثالك. ولن أعطي قيمة لسلوكك بمناقشته». احمرّ وجهها، وبدت محرجة وغاضبة بنفس القدر. وأضافت «إذا لم ترحلي بإرادتكِ، سأعمل على طردكِ، وهو ما سيعقّد أي مستقبل أكاديمي لكِ وسيلطخ سمعتكِ ككاتبة؛ هذا إن كان لديكِ مستقبل بالأساس».

حتى في تلك الفترة، لم يهاجم الناس بيبي دون عواقب. فقد دافعت عن نفسها متى ما كان الحق حليفها. كانت ميالة إلى مواجهة المشكلات، لكنها تمتعت بالحكمة أيضًا، فأدركت أنها ستنهزم في هذه المواجهة التي لا تعرف لها سببًا. إذا بقيت، ستعاني الأمرّين مع عدو لدود هو مؤسس برنامج الكتابة. وعلى الرغم من حقيقة أنها قد تعلمت الكثير خلال الأشهر الماضية، إلا أنها كانت تستمتع في الواقع بالنقاشات الجادة حول البرنامج.

عندما مدت بيبي يدها لأخذ الملف، سحبته سولانج سانت كرويكس بعيدًا وقالت «هذا دليلي. ارحلي الآن».

خارج نافذة المستشفى، أبحرت النوارس غربًا في شكل متناغم وبعيدًا عن الأعين.

لم تعرف بيبي السبب الذي جعل الطيور تذكرها بالدكتورة سانت كرويكس بدلاً من تذكر مئات من التجارب القيمة التي مرت بها عند التزلج على الأمواج وعند الشاطئ، حيث تواجدت النوارس على الدوام. ولكن لعل تفاؤلها هو ما ربط بين الماضي والحاضر. فقد اتضح أن تركها برنامج الكتابة أمر جيد؛ إذ أدى ذلك إلى أن تصبح مؤلفة أسرع بكثير مما إذا كانت قد استمرت في البرنامج. لذا، فلربما الموت من سرطان المخ ليس حتميًا أكثر من دمار مستقبلها المهني.

بدا هذا منطقيًا إلى حد ما، لكنها أيقنت في أعماقها أن هذا ليس التفسير الصائب لما حدث.

لم تعرف قط السبب الذي جعل البروفيسورة تغضب بشدة. وهي تتساءل الآن عما إذا كان الهجوم الذي تعرضت له بسبب تهمة لم تقترفها مرتبط بشكل غامض ما بالموت عبر السرطان الذي يهددها الآن.

-17-
في الساعات التي سبقت الأزمة

كانت بيبي تجلس على حافة الفراش وهي تدوّن قائمة في مفكرتها عندما وصل والداها وهما يعتزمان الرفع من معنوياتها قدر استطاعتهما، ومع ذلك فلم يوفقا في ذلك. ففي اللحظة التي دخلا فيها من الباب، لم تنجح ابتساماتهما في إخفاء نظرات الصدمة التي تبدت في أعينهما.

لم يخذلاها على الإطلاق؛ إذ لم يكن أحد سواها قادرًا على الرفع من معنوياتها. على أي حال، لم تكن مكتئبة ولا يائسة بكل تأكيد، فلم يكن لديها الوقت أو الرغبة في ذلك. وعلى الرغم من القتامة التي بدا عليها التشخيص، فإنّ تطور مرضها يمثل تحديًا، والسبيل المنطقي الوحيد للتعامل مع تحدٍ ما هو أن يكون المرء على مستوى هذا التحدي.

كانت ما تزال الفتاة التي لا يتوقف عقلها عن التفكير قط، وقد بدأت الآن تكلف والدتها بمهام كانت قد أضافتها إلى القائمة في المفكرة. قالت «سيبقون عليّ هنا حتى الغد، وربما إلى ما بعد الغد. يحتاج الدكتور تشاندرا إلى إجراء مزيد من الفحوصات لوضع خطة للعلاجين الكيماوي والإشعاعي. القرار بيدي، وسوف أقاوم. أحتاج منكِ الذهاب إلى شقتي، وإحضار حاسوبي المحمول. سأقتل الأمر بحثًا. وأحتاج ملابس داخلية أخرى وبعض الجوارب لأنني أشعر بالبرد في قدماي. وأريد بعضًا من منشفاتي الناعمة، فالموجودة هنا خشنة. وأحتاج إلى كل علب الفيتامينات خاصتي، وجهاز الأيبود مع سماعات الرأس. سأضطر إلى استخدام سماعات للرأس هنا». ولأنها كانت تحتفظ بصندوق للبريد، فقد كانت تحتاج إلى من يجمع الرسائل ويجلبها

إليها. وقد وصفت بعض المهام الأخرى وهي تضيفها إلى القائمة، ثم انتزعت صفحتين من المفكرة وناولتهما إلى والدتها.

قال ميرفي وهو يشعر بالامتنان لوجود شيء يفعله بدلاً من التفكير في حالة ابنته «سنقسّم العمل بيننا يا نانسي. تولي أنتِ جلب أغراضها من الشقة، وسأتكفل أنا بالمشتريات».

قالت بيبي «كلا يا أبي. دع أمي تتكفل بكل شيء. وعُد أنت إلى تجارتك».

بدا حائرًا وكأنه قد نسي كل شيء باستثناء أنه والدها، قال «أي تجارة؟»

«متجرك لأغراض التزلج على المياه الذي بات على وشك الإفلاس الآن».

هزّ رأسه وقال «ولكن لا يمكنني...»

«بلى يمكنك، ويلزم عليك ذلك. إذا كنتُ سأكرس كل وقتي لهذه المعركة، فلن أتمكن من الكتابة، ولن يكون لدي مصدر للدخل. وعلى الأرجح ستتبدد عمولات أمي في هذه المعركة. سيتعين عليك أن تدعمني وكأنني في العاشرة من العمر مجددًا. لا بد أن تفعل ذلك يا أبي»

عناق وقبلات، وتعبير عن المحبة، ووعود هشة بمواجهة المستقبل معًا بإصرار للانتصار، على الرغم من الاحتمالات المفزعة. بعد ذلك غادر والداها.

بعد أن استخدمت المرحاض - وبينما كانت تغسل يديها في الحوض - نظرت بيبي بتمعن في صورتها المنعكسة في المرآة إلى أن باتت الرؤية غير واضحة وأصبح لديها وجهان مشوهان. كانت مشكلات الرؤية إحدى أعراض ورم المخ. قبضت على الحوض بكلتا اليدين، وأخذت نفسًا عميقًا ببطء، وتساءلت عما إذا كانت ستصاب بالعمى. ليس بعد، فقد رأت بشكل واضح مجددًا.

-18-

شيء سيء وشيء أسوأ

تناولـت بيبـي وجبـة الغداء بجوار النافذة، ولم تترك منها شـيئًا. باسـتثناء التدخل الجراحي، عادة ما كانت علاجات السرطان تسبب موجات طويلة من الغثيان وفقدان الشـهية. تعين عليها نسـيان قوامها الممشـوق واكتساب بعض الأرطال لخوض المعركة المرتقبة. وقد افترضت أنها ستلجأ في نهاية المطاف إلى حلق رأسها بدلاً من سقوط شعرها وكأنها مصابة بالجرب. فكلما سيطرت على مظهرها، كان أفضل.

سيعود المسكين باكستون إلى الوطن قادمًا من الحرب ليجد خطيبته قد تحولت إلى مصارع سومو أصلع. على كلٍ، قال إنه سيظل يحبها دومًا – في الضراء كما في السراء – وقد صدقته. لكنها إذا كانت قد أساءت فهمه – وهو مـا لـم يحـدث – لـكان مـن الأفضل أن تعـرف الحقيقة عاجـلاً وليس آجلاً. لعـل الفائـدة الوحيـدة من الإصابة بسـرطان الدماغ هـي أن ذلك يمثل اختبارًا حقيقيًا لنوايا حبيبكِ. وإذا ما مُنحت الفرصة للاختيار بين إصابتها بالسـرطان أو خوض باكستون لاختبار كشف الكذب، فستختار البديل الثاني، بيد أنه لم يعد بيدها الاختيار.

أقبلـت فتاة شـقراء جميلة ترتدي زي الممرضـات المتطوعات الوردي، وتفوح منها رائحة عطر منعشة، لأخذ صينية الغداء. وقد طلبت بيبي من الفتاة الذهـاب إلـى الكافتيريا وشـراء عدد مـن حلوى الطاقة بنكهات متنوعة. قالت «أريد أن أبدو مثل جون غودمان بحلول الأسبوع القادم».

«من يكون جون غودمان؟»

«ممثل ضخم البنية. قام بدور زوج روزين بار على التلفاز»
«أجل، لقد ظهر في الكثير من الأفلام. إنه وسيم».

وصلت ممرضة أخرى لأخذ عينة بول من بيبي. وجرى سحب خمس عينات من الدم عبر حقنة وريدية. وكان بحوزة امرأة من الإدارة القانونية في المستشفى أوراق بحاجة إلى التوقيع.

تحدثت بيبي بشكل مقتضب معهما، مع أنها كانت في معظم حياتها منبعًا للكلمات. كل شيء في هذا العالم أُعجب وفُتن بها - بدءًا من زهرة الزنبق الجميلة وحتى الأساليب الغامضة للميكانيكا الكمية - وعادة ما كانت تشارك العالم عجائبها وغضبها. وقد شجعها كون اسمها بيبي على الثرثرة لأنها - حتى عندما كانت طفلة - كانت مصممة على إقناع الجميع - بصرف النظر عن اسمها - بأنها ليست دمية ولا طائشة، وإنما مراقبة شغوفة للعالم، وباتت فيلسوفة عندما نهضت عن كرسي الرضع. لم يحدث أن عجزت عن الكلام من قبلُ قط، إلى أن تلقت تشخيصًا بورم في المخ.

عادت والدتها في الخامسة مساءً وهي تحمل كل ما طلبته بيبي، وقد اتصل بها والدها بعد دقائق قائلاً إنه يتعين على ثلاثتهم تناول العشاء معًا في حجرتها، ولكن ليس طعام المستشفى وإنما أي مطعم مأكولات سريعة تحبه يبيع وجبات غنية بالدهون والسعرات الحرارية. شرائح الهامبورغر مع الجبن ومخفوق الحليب، أو طبق البوريتو المكسيكي، أو بيتزا بأربع نكهات جبنة مختلفة. أيًا ما تشتهيه.

«كلا يا أبي. أمي مجهدة». بدأت نانسي في الاحتجاج، لكن بيبي رفعت إحدى يديها لإسكاتها. وأضافت «كلاكما مجهد. اليومان الماضيان كانا صعبين علينا جميعًا. اذهب أنت وأمي لتناول العشاء بمفردكما، مع زجاجة جعة فاخرة. أنا بخير، ولن أبرح محلي. أريد فحسب أن أبحث قليلاً على الحاسوب وأنا أتناول الطعام، ثم أخلد باكرًا إلى النوم. بالكاد نمتُ ليلة الأمس. سأطلب الحصول على مهدئ. فأنا أود أن أحلم عن فرد قوات خاصة

بعينه بحلول السابعة كحد أقصى»

حتى تجبر نانسي على الخروج من الحجرة والذهاب لتناول العشاء، اضُطرت بيبي لمرافقتها في الرواق المؤدي إلى المصاعد. وبسبب قلقها من احتمالية تشنج قدمها اليسرى، وعزمها على ألا تبدو مثل كواسيمودو – أحدب نوتردام – فقد مشت وكتفاها إلى الخلف ورأسها مرفوع إلى الأعلى.

سألتها والدتها «ماذا عن الخدر؟ تلك الهواتف الخمسين الهزازة المربوطة بجسدك؟»

«باتت أهدأ الآن، ولم أشعر بذلك الطعم المقزز طوال اليوم».

«يمكنني رؤية أن يدكِ اليسرى ما تزال ضعيفة يا عزيزتي»

«لذا سأستخدم الأخرى في حك مؤخرتي»

في منطقة المصاعد، انفتح باب أحدها. لم تدخله نانسي ولكن قالت «هذا غير صائب البتة. لا يمكنني المغادرة فحسب»

عندما بدأ باب المصعد في الانغلاق، أوقفته بيبي وقالت «علينا أن نتصرف بشكل طبيعي قدر المستطاع يا أمي. لا يمكن لثلاثتنا أن نتعانق طوال الوقت. سنذوب إن فعلنا ذلك»

عندما حاولت نانسي التحدث، لم تتمكن من ذلك. فقد تلعثم لسانها.

قبّلت بيبي وجنة والدتها «أنتِ إنسانة جميلة. اذهبي الآن وأفرطي في الأكل والشرب. فلتحيي حياتك يا أمي، فأنا أعتزم ذلك»

عندما عادت إلى حجرتها ثانية، جلست لدى الطاولة الصغيرة بجانب النافذة واستخدمت حاسوبها في البحث عن الأدوية السامة للخلايا والمضادة للسرطان، وعقاقير العامل المؤلكل ومركبات النتروزيوريا ومضادات المستقلبات ومثبطات التفتل. على الأقل زاد مرضها من حصيلتها اللغوية.

في أحد أيام شهر مارس/ آذار – مع تحول سماء فترة ما بعد الظهر إلى اللون القرمزي إيذانًا بقرب حلول المساء – جلبت إحدى مساعدات التمريض صينية عليها وجبة العشاء. لم تجمع بيبي بين قراءة مقال عن الأعراض الجانبية

للعلاج الكيماوي ووجبة العشاء هذه المرة، وإنما استمتعت بمشاهدة مقاطع فيديو لكلاب لطيفة على موقع اليوتيوب وهي تأكل.

وعندما حاولت النهوض عن الكرسي كي تغسل يديها، وقع خطب سيء؛ فقد باغتها صداع نصفي شديد.

كادت أن تسقط على ركبتيها. وقد ترنحت وهي تسير نحو الفراش، ثم ضغطت زر استدعاء الممرضة.

تعتبر نوبات الصداع المفاجئة إحدى أعراض سرطان الدماغ، وهي إحدى تبعات الضغط على المخ؛ إلا أنها عادة ما تحدث صباحًا. ولم تكشف الفحوصات التي كانت قد خضعت لها في اليوم السابق عن وجود زيادة في السائل النخاعيّ. قال الطبيب «لا وجود لاستسقاء دماغي». ولكن لعل جديدًا قد طرأ.

بعد أن رفعت النصف العلوي من الفراش، جلست وهي تقبض بكلتا يديها على رأسها وخُيل إليها أنها تشعر بتشقق عظام الجمجمة مع كل نبضة. وصلت الممرضة، وطرحت عليها بعض الأسئلة، ثم عادت وهي تحمل الأسبرين وحبة دواء آخر. لم تسألها بيبي عن الدواء الثاني، وإنما ابتلعته مع شربة ماء كبيرة.

وعدتها الممرضة بالقول «سأتفقدكِ بين حين وآخر. ارتاحي الآن».

عندما غادرت المرأة، حاولت بيبي التمدد مرتين، لكنها أصيبت بالفزع في كلتا المحاولتين حين طغى عليها إحساس شديد بالسقوط. لم يكن مجرد شعور، بل كان قناعة كاملة بأنها ستسقط على ظهرها في فراغ لا قاع له، وكأنها تجلس على حافة الهاوية. وقد أدى ميلها إلى الخلف ولو لبوصة واحدة إلى اشتداد الصداع. وحتى مع إدراكها أن الجلوس على الفراش سيشعرها بنفس الإحساس الذي تملكها عند محاولة التمدد، فلم تجري محاولة ثالثة، بل جلست إلى الأمام ورأسها متدلٍ وعيناها مغمضتان، ولفت ذراعيها على جذعها وكأنها تتشبث.

تفاجأت من أن الألم بدأ يتلاشى خلال خمسة دقائق أو أقل. لكن الأسبرين

لا يُحدث مفعولاً بهذه السرعة. فأرجعت الفضل في ذلك إلى الدواء الثاني.

عندما فتحت عينيها، رأت كل شيء باللون الأحمر، فظنت في البداية أنها تعاني من مشاكل في الرؤية مجددًا. لكنها أدركت أن مصابيح الغرفة مطفأة وأن الغرفة – بعد أن كانت مضاءة سابقًا بضوء الشمس – مضاءة الآن بضوء شمس الغروب، التي حولت السماء إلى نهر ملتهب من الزجاج المصهور يتدفق بعيدًا ببطء نحو الغرب.

مدّت يدها نحو زر المصباح المثبت على حافة الفراش. بدا إحساس زر المصباح البيضاوي غريبًا في أصابعها؛ إذ بدا ناعمًا ومتعرجًا، وكأنها قد أمسكت برأس تمساح حي، وقد تلوى السلك النحيف احتجاجًا. أسقطت الزر وراقبت في ذهول اليد التي تيبست أصابعها فجأة وهي تتدلى في الهواء مثل نقار خشب ينقر جذع شجرة حتى يتغذى على الحشرات الزاحفة، وظلت يدها تتأرجح وتتأرجح ولم تتمكن من السيطرة عليها.

إنها النوبة، قالت في أعماقها، وحتى تؤكد تشخيصها لما يحدث، فقد زمجرت وأنّت، وأصدرت صوت سعال جاف من أسفل حنجرتها.

انتشر التيبس من يدها إلى أعلى ذراعها، ثم عبر جسدها، وسقطت إلى الخلف على الفراش المائل، الذي أوقفها، لكنها لم تشعر أن شيئًا قد أوقفها. كانت الحافة التي فزعت منها قبل حين في انتظارها، وقد سيطر عليها إحساس بالسقوط في فراغ سحيق للغاية، وكأنها تنهار، مع أن الحجرة المضاءة بضوء قرمزي لم تختفي، وهو ما كان سيحدث لو أنها كانت تسقط حقًا في جحر أرنب مثل أليس.

ظهرت العديد من البقع المظلمة أمام عينيها، وهي تعوم مثل قطرات من الزيت الأسود في الضوء الأحمر. كانت بضع عشرات في البداية، ثم زاد عددها وأضحت بالمئات. ومع اختفاء الضوء تمامًا وطغيان الظلام عليها، حاولت عبثًا الصراخ لاستدعاء النجدة، ولكن مثل كل الفتيات اللاتي غرقن قبلها، لم يصدر عنها صوت.

-19-
قبل اثنا عشر عامًا - ليتني كنتُ شبحًا

بعد أسبوعين من هروبها من الشقة الواقعة أعلى المرآب - وقبل أربعة أسابيع من ظهور أولاف في حياتها - وفي إحدى العطلات الأسبوعية التي ينام فيها والداها حتى الضحى، نهضت بيبي وارتدت ملابسها بينما كانت آخر دفاعات الليل تنهار أمام زحف الفجر. وقد وضعت قالبين من الحلوى في جيب سترتها المبطنة من الصوف و - بينما كان الصباح يفرد أجنحته الملونة عبر الشرق - مشت مسافة شارعين ونصف صوب الحديقة الواقعة قبالة جادة أوشن.

جلست على كرسي في لحظة إلهام لمشاهدة الأمواج ومياه البحر الداكنة المرقطة بالأخضر والأخضر الداكن مثل قشر البطيخ. ومن حيثما جلست، تخيلت نفسها أحيانًا أحد القراصنة الذين يبحرون في قلب موجات عاتية، أو مثل حوت ضخم للغاية لا يهاب شيئًا في عالمها المائي المظلم. وفي هذا الصباح، تخيلت الحياة بعد الممات، ليس مثلما قد تبدو في الجنة، ولكن وكأنها موجودة هنا الآن في هذا العالم، لو كانت الخرافات مثل الأشباح حقيقية.

بعد أن أكلت قالب الحلوى الأول وقررت البقاء قدرما تحتاج من الوقت لأكل القالب الثاني، عادت بيبي إلى المنزل. وبما أنها فتاة مشاكسة وذات عزيمة صلبة - مثل الفتيات اللاتي أُعجبت بهن في الكتب التي استمتعت كثيرًا بقراءتها - فلم تعد قادرة على الابتعاد عن بيت الأحاجي الذي شد انتباهها.

دخلت إلى الفناء الكائن بين المرآب والمنزل الصغير عبر مدخل الممر الخاص، ثم صعدت السلالم ومشت بتردد في الشرفة.

قبل نحو أسبوعين، كان اليوم الممطر الملبد بالغيوم مناسبًا لجلسات تحضير الأرواح والمواجهات المفزعة مع الأرواح المضطربة. أما اليوم تحت هذه السماء اللامعة والمنعشة، فقد غردت طيور قبرة المروج بصوت عالٍ احتفالاً بقرب بزوغ الفجر، فالشعور بالسعادة أسهل من الحزن.

ومع ذلك، وقفت بيبي عند الباب وهي تحدق عبر الألواح الزجاجية الأربعة المثبتة في نصفه العلوي لتتفقد المطبخ قبل أن تجرؤ على الدخول. لم تكن هناك جثة لا على الأرض ولا شخص يقف متجهمًا بعينين جاحظتين في انتظارها. لذا، فقد دلفت إلى الداخل.

بدا المطبخ مكانًا لطيفًا – إن لم يكن دافئًا للغاية – في هذا الصباح المشرق، إلى أن لاحظت بيبي تغيرًا واحدًا منذ زيارتها الأخيرة. فقد احتوت المزهرية المستديرة البيضاء – التي ظلت فارغة لشهور – المستقرة على الطاولة على ثلاثة ورود ذابلة. وقد تحول لون أوراق كأس الورود الأخضر إلى البني، وكذا كان حال البتلات، مع القليل من بقايا اللون الأحمر. كانت بعض البتلات قد سقطت على الطاولة، وتمددت مثل الصدفات المتعرجة والمتيبسة للخنافس الميتة.

بدا أن الورود الذابلة لم تمضي هنا أكثر من أسبوعين؛ إذ كانت تخلو من السوائل تمامًا مما قد يجعل تاريخها يعود إلى نوفمبر/ تشرين الثاني.

كان يتعين عليها أن تغادر الشقة، لكنها لم تفعل. فعلى عكس العديد من الفتيات اللاتي يبلغن العاشرة من العمر، لم تحلم بأن تصبح أميرة أو مطربة مشهورة، وإنما أرادت أن تكون مقدامة وشجاعة ورابطة الجأش. لم تفتنها شخصيات مثل ستولوارت وفاليانت، أو سوبرمان وسوبرغيرل على الإطلاق، فقد كانت كل الأمور سهلة بالنسبة إليهم وإلى غيرهم من الأبطال الخارقين، ولا يتعرضون إلى خطر حقيقي. أدركت بيبي أن هذه ليست حقيقة الحياة قط. فجميع المتزلجين على الماء تحدوا أسماك القرش وخاطروا بالسباحة عكس التيار. الموت حقيقة لا شك فيها، وعليك أن تواجه هذه الحقيقة إذا

كنت تعتزم النضوج.

لم ترغب في ارتداء زي بغطاء للرأس وكاشف لثدييها. لكنها ستفخر بارتداء سترة مزينة بحرف ش صغير – اختصارًا لكلمة شجاعة – فقط عندما تستحق ذلك.

وهكذا – بدلاً من الابتعاد عن لغز الورود – تجاوزت بيبي الطاولة صوب باب حجرة المعيشة الذي كان مفتوحًا مثلما كان قبل أسبوعين. كان شخص ما – أو شيء ما – قد دفعه إلى الداخل قبل أن تفر هاربة. ومثلما حدث يومئذٍ، حجب الباب عنها رؤية العتبة، حيث كان يقف ذلك الشخص.

كانت واثقة من أنه لن يتواجد أحد هناك.

عندما اقتربت من الباب، سمعت صوت خطوات أقدام على أرضية خشبية محطمة، مثلما كانت قد سمعتها في زيارتها السابقة. وقفت تصغي دون حراك، لكنها لاحظت أن خطوات الأقدام تبتعد عنها.

نادرًا ما تراجعت الفتيات الشجاعات عند تعرضهن إلى الخطر، ولم يولين هاربات إلا لسبب قهري. لذا، عندما تجاوزت الباب ووصلت إلى العتبة – وهي ترتجف أكثر مما تتمنى – لم يكن أحد في انتظارها هناك.

رأت بابًا ينغلق عند الناحية الأبعد من حجرة المعيشة. وقد انغلق بعنف محدثًا صوت جلجلة شديد.

كانت كل قطع الأثاث في مكانها. فبعدما حدث هنا، لم يرغب كل من نانسي وميرفي في تأجير الشقة مجددًا. وبعد حين، سيتخلصان من كل الأثاث إما عبر بيعه أو التبرع به.

وبدلاً من التقدم نحو حجرة النوم، فكرت بيبي في الجلوس على حافة كرسي بذراعين انتظارًا لحدوث جديد. أحيانًا يكون انتظار رؤية ما سيحدث تاليًا أكثر حكمة من المساعدة في حدوثه، وقد كان ذلك أحد الفروق الجوهرية بين الفتيات الذكيات بحق اللاتي ظهرن في الكتب القيمة والحمقاوات اللاتي ملأن الكتب التافهة.

بعد فترة من التردد – ومع تسلل الضعف إلى ساقيها وجفاف فمها مثل ورود المطبخ – شعرت بالخزي وهي تجلس في حجرة المعيشة، فإما أن تكون مقدامة وشجاعة أو لا تكون، فضلاً عن أن من يتحلى بالشجاعة لا يختلق الأعذار وقت وقوع الأحداث، فإما أن يصمد أو لا.

توقفت لدى باب حجرة النوم. وبينما كانت تحاول جاهدة تجاهل صوت تسارع نبضات قلبها، أصغت إلى الأصوات التي قد تأتي من الحجرة المجاورة. نظرت عن يمينها وشمالها، وعندما انخفض نظرها إلى الأسفل، رأت الدماء على مقبض الباب. كانت دماء حمراء ولامعة ورطبة. وقد تدحرجت قطرة واحدة من فوق مقبض الباب وسقطت على الألواح الأرضية فيما بدا حركة بطيئة كالأفلام.

إن الفتيات المقدامات أكثر من مجرد شجاعات وذوات عزيمة لا تلين. فقد كنّ أيضًا حذرات ونبيهات وحصيفات. وكنّ يعرفن بيقين تام متى يكون من الحكمة التصرف بناءً على تلك الخصال. لم تولّي هاربة، لكنها ابتعدت ببطء عن حجرة النوم، ثم استدارت وعبرت حجرة المعيشة، ثم سارت بهدوء عبر المطبخ إلى خارج الشقة. وبعد أن وضعت القفل على الباب، احتاجت إلى الاستناد على الدرابزين وهي تنزل صوب الفناء.

عند الشرفة الخلفية من المنزل – وبينما كانت تجلس على الأريكة الخشبية – راجعت بيبي ما حدث، فتزاحمت في عقلها الصغير خيوط الآلاف من الأفكار لتنسج قماشًا غريب الشكل. ما كانت لتجرؤ على إخبار والديها بما جرى، فلن يعثرا على ورود أو آثار دماء في الشقة، بالضبط مثلما لم يعثر والدها على أي دخيل قبل أسبوعين. إلى جانب ذلك، شعرت بيبي أنها تخفي عن نفسها حقيقة مؤلمة تدركها؛ وإذا ما وضعت يدها على هذه الحقيقة، فسيبدو كل شيء منطقيًا.

اعتدل طقس الصباح، لكن بيبي ظلت تشعر ببرد شديد.

-20-

حالة من البساطة الكاملة

أدركت بيبي أنها مستيقظة حين سمعت الممرضة تتحدث إلى مساعدة التمريض. كانت عاجزت عن فتح عينيها أو الكلام، ولم يكن بوسعها سوى الاستماع. قالت إحداهما «إنها مجهدة، يا لها من مسكينة». بينما قامت الأخرى بقياس ضغطها، وبدا أنها تشعر بالرضا، فأفلتت رسغ بيبي. لاحظت بيبي أنها تتنفس بصعوبة، فكانت تصدر صوتًا يشبه الشخير قليلاً. لا بدّ أنهما تظنان أنها نائمة. ولم يشعر أحد بالنوبة العنيفة التي باغتتها قبل حين. قامتا بسحب الملاءة والبطانية إلى أعلى نحو عنقها. وقد حاولت أن تخبرهما أن صمتها ليس بسبب النوم، وإنما شيء أسوأ. تشكلت الكلمات في عقلها، ولكن عجز لسانها عن نطقها. وقد سمعتهما وهما تغادران، ثم ساد صمت القبور.

كانت مستلقية على الفراش في صمت وبلا قدرة على الرؤية أو الحركة، ولم تعلم يقينًا إذا كانت مستلقية على ظهرها أم بطنها أم جنبها. ولم تستجب أي عضلة في جسدها لأوامرها. تذكرت جزءًا من بيت شعر لم تتذكر مؤلفه: حالة من البساطة الكاملة. في الواقع لقد كانت في حالة بساطة كاملة، ومع أنه يتعين عليها أن تشعر بالفزع، إلا أنها لم تكن كذلك. ستتحلى بالشجاعة - مثلما كانت منذ أمد بعيد - والإقدام ورباطة الجأش والعزيمة.

حالة من البساطة الكاملة / (تكلف الإنسان كل شيء)...

تذكرت المصدر من الشق الثاني من بيت الشعر: ليتل غيدينغ تأليف تي.إس.إليوت.

شـعرت بالارتياح، فعلى الرغم من حقيقة انفصال روحها عن جسـدها، إلا أن عقلها ظل حاضرًا وجزءًا من مملكتها. وقد تذكرت شذرات من أبيات شعر أخرى لإليوت:

هنا الآن وعلى عجل...عند لحظة السـكون...ليس من الداخل ولا من الخارج...حيث يجتمع الماضي والمستقبل...

غرقت بيبي في الفراغ مجددًا، وقد بدا مهيبًا أكثر من النوم.

اسـتعادت وعيهـا لاحقًـا فـي نوبة فـزع، وهي على دراية تامـة بالتدهور الشـديد الذي أصابها. شـلل، وفقدان كامل للرؤية، وتيبس في اللسـان أعاقها عن الاسـتمتاع بنعمة النطق. شـعرت أنها تنزلق نحو مكان سـحيق أسـرع من جيل بعد أن دهست الأحمق جاك في فيلم جاك وجيل. فجأة، أصبح السؤال الأبـرز هـو مـا إذا كان العلاجـان الكيماوي والإشـعاعي مفيـدان لحالتها، أم إذا كان العـلاج الأفضـل – والأكثـر إنسـانية – هـو إعطاؤها علبة من أقراص المورفين وتركها تشق طريقها إلى خارج هذا العالم بطريقة مهيبة على أيدي راهبـات صالحـات. وبصـرف النظر عما إذا كانـت مقدامة أم لا، فقد أرادت البكاء على حالها، ولكنها إذا بكت، فلن تشعر بحرارة الدموع وهي تتدحرج على خديها.

اسـتيقظت مجـددًا فـي المسـاء، لكنها تمكنت هذه المـرة من فتح عينيها والإبصار عبر ضوء المصباح الخافت المثبت فوق فراشها. وقد باتت مدركة بوضـوح لاتجـاه جسـدها؛ إذ كانـت تتمـدد على جانبها الأيمـن، وهي تواجه الفـراش الآخـر الـذي مـا زال شـاغرًا، بينما كان الباب يقـع عند الجهة الأبعد من الحجرة.

فُتـح البـاب ودخـل رجل ما، وقد انعكـس الضوء القادم من الردهة على ظهره وهو يقترب. وحتى عندما انغلق الباب برفق وراءه – مما حجب الضوء – ظل مجهولاً بالنسبة إليها. رأت بيبي رباط الكلب عندما وقف بين الفراشين. كان أحدهم قد أنزل حافة الفراش سابقًا. وقف الكلب على ساقيه الخلفيتين،

واضعًا مخالبه الأمامية على الفراش، ومفضلاً بيبي بابتسامة رائعة كشفت عن نوعه؛ كلب صيد ذهبي. ربما بخلاف أي نوع آخر، كانت الكلاب الذهبية تتمتع بوجه فريد، وعلى الرغم من أنها ظنت للحظة أن هذا أولاف، إلا أنه لم يكن كذلك.

كان هذا مجرد شخص صالح مع كلب يساعد في العلاج يسمى براندي أو أوسكار أو أيًا يكن. في هذه الأيام، تعد المستشفيات بمنزلة متنزهات للكلاب، حيث يتقاطر الأشخاص الطيبون على المستشفيات في محاولة منهم لمساعدة المرضى والمكتئبين على رفع معنوياتهم. كانت قد رأت آخرين مثل هذان منذ أن جرى إدخالها إلى المستشفى بسبب ورم خبيث، وكانوا جميعًا ودودين - الناس والكلاب على حد سواء - ومع ذلك فقد رفضت محاولاتهم المستميتة لمساعدتها على رؤية الجانب الجيد من سرطان المخ.

كانت يدها اليسرى مستقرة على الفراش، وكان بمقدورها رؤيتها لكنها عجزت عن تحريكها.

بدأ الكلب في لعق يدها، ولم تشعر في البداية بوخز أنيابه. لكن الإحساس باللمس عاد إليها سريعًا، فملأها اللسان المبلل الدافئ وهو يداعب أصابعها بأمل كبير. فجأة، كسرت حالة الشلل وحركت يدها وداعبت مرارًا رأس كلب الصيد النبيل.

بينما كانت تربت على الكلب، التقت أعينهما. كانت تدرك أن عينيها داكنتين وغامضتين، لكن عيني الكلب كانت ذهبية بشدة ولامعة وعميقة لدرجة أن نظراته حركت شيئًا في أعماقها. أيقظت تلك النظرات اللامعة الطفلة النائمة التي كانت عليها بيبي ذات يوم؛ تلك الفتاة التي يسهل إثارة دهشتها والتي - إدراكًا منها باقتراب مرحلة المراهقة التي لا يمكن تجنبها - اقتطعت صفحة من كتاب الدببة ودخلت في مرحلة سبات عبر شتاء طويل.

عندما نزل الكلب عن الفراش، قالت بيبي «كلا، أرجوك»، لكن الزائرين ابتعدا.

ولدى الباب – عندما فتحه بما يكفي ليتسلل إلى الردهة – استدار الرجل للنظر وراءه، وهو ما يزال لا يظهر منه شيء سوى هيئة رجل، وقال «اسعي لعيش حياتك...»

كانت بيبي قد سمعت تلك الكلمات قبلاً، مع أنها في وضعها الراهن لم تتبين متى سمعتها.

بعدما بقيت وحدها في الظلام، لم تستطع أن تحدد إذا كان قد حدث شيء خارق للعادة أم أنها تعاني من هلوسات.

حركت يدها اليسرى، التي كانت ما تزال رطبة من لعاب الكلب. كانت تشعر بكل شبر في جسدها. وقامت بتحريك أصابع قدميها. وعندما حاولت النوم على ظهرها، لم تواجه أي صعوبة في ذلك.

ومع انحسار الإجهاد بشكل كبير، تساءلت إن كانت مستيقظة أم تحلم. وفي غياب الكلب اللطيف – سواءً كان ذلك حقيقة أم لا – باغتها شعور مفزع بالعزلة والوحدة والضياع. وقد خذلها صوتها بسبب الضعف الذي بدا عليه. لم تبُح الفتيات الشجاعات علنًا بما يعتمل في قلوبهن من ألم، لكن كل شيء انكشف حين نطقت باسمه – «باكستون، باكس، أين أنت؟» – ثم جرفتها موجة من الظلام نحو النوم أو ما شابه ذلك.

-21-

على الجانب الآخر من الكوكب

أطلق عليها كبار القادة العسكريين اسم عملية السير فوق النار Firewalk. كان يُطلق عدد لا نهائي من الأسماء على مهمات العمليات الخاصة، وكان بعضها أدبيًا وهو ما أثبت تلقيهم تعليمًا راقيًا في أكاديمية أنابوليس. بيد أنه لن يكون هناك سير فوق النار، ولا إخراج يمامات من الأوشحة، ولا قطع امرأة إلى نصفين، ولا أي من ألاعيب السحرة التي صفق لها الناس، وإنما مداهمة ستكون - بالنسبة إلى الأشرار - مثل زلزال غير متوقع.

كان باكستون ثورب وثلاثة من رفاقه قد نزلوا من فوق التلال الباردة مساءً - مما استغرقهم يومين للوصول إلى نقطة الاقتحام - حيث أقلتهم المروحية إلى ضواحي البلدة. ولو أن المروحية أسقطتهم في مكان أقرب، لكانت الضجة التي ستحدثها بمنزلة إعلان لا يقل وضوحًا عما إذا كانت فرقة عزف لموسيقى البلوغراس قد سبقتهم على ظهر شاحنة مسطحة تحمل الجعة الحمراء ورايات زرقاء. لم يكن بمقدورهم عبور الأرض المفتوحة ودخول تلك الشوارع دون أن يُقضى عليهم.

كانت الحقول المحيطة بالبلدة مزروعة ذات يوم، لكنها باتت أرضًا بور الآن. لم يجري حرث آخر محصول. وقد أفسدت شهور من الحر الشديد والبرد القارس والرياح العاتية المحاصيل وتسببت في ذبول ما تبقى من سيقان النباتات وتحولها إلى قش مفروم وغبار، وكانت كل المحاصيل ناعمة جدًا مما جعلها بالكاد تصدر صوتًا عند المشي عليها. وأينما وقف، التقط باكس رائحة عفنة ذكرته بصناديق الحبوب ومخزن القش في المزرعة التي نشأ فيها في تكساس.

ظهر القمر في ضوء النهار واختفى خلف الجبال قبل منتصف الليل. وتحت الضوء اللامع لنجوم يبلغ عمرها ملايين السنين، اعتمد الرجال الأربعة على نظارات الرؤية الليلية في تحركهم.

بقدرما يهتم العالم، كان المكان الذي يعتزمون اقتحامه بمنزلة بلدة للأشباح. فإذا كنت من المؤمنين بوجود الأرواح، سترغب حتمًا في المرور من هنا، لأن الأرواح التي تطارد الناس – لو كانت موجودة أصلاً – ستكون مذهلة بلا ريب. كانت البلدة مشيدة فوق طبقة مياه جوفية نادرة في أرض قاحلة، وقد نقّب السكان المحليون عن المياه المخزنة على مسافة عميقة لتحويل الحقول المحيطة إلى أرض صالحة للزراعة. وعلى مدى عدد قليل من الأجيال، عاش الناس بسلام هنا في الريف، ولم يحظوا بأي تعليم وغالبًا ما كانوا سعداء بجهلهم. ثم أتى الهمجيون على متن أسطول من العربات العسكرية المسروقة، حاملين قذائف صاروخية وأسلحة خفيفة. ربما يكون قد لقي ستمائة من سكان البلدة – أي نصفهم – مصرعهم أثناء اجتياحها، وقد رفرفت راية الغزاة – التي كان لونها أسود وفي منتصفها بقعة حمراء – فوق كل شارع بحلول اليوم التالي. وبعد أن تحملت النساء الجميلات الاغتصاب الجماعي وتقطيع الأوصال، جرى إعدام ما تبقى من سكان البلدة – رجالاً ونساءً وأطفالاً – في الأيام الثلاثة التالية. كان يجري تكديس مئات الجثث في محارق مروعة؛ إذ كان يجري رشها بالبنزين، ثم تُضرم النيران فيها. وبحلول اليوم السادس من الاجتياح، لملم المجرمون راياتهم وغادروا. فلم يرغبوا في أي شيء في هذه البلدة، اللهم إلا التدمير.

وعلى الرغم من وحشيتهم، إلا أنهم قد صوروا وقائع المذبحة وأعدوا تسجيلاً دعائيًا تحدثوا فيه إلى المتشددين الذين يشبهونهم في أفكارهم أينما كانوا. وقد لاقى التسجيل جمهورًا متعطشًا على الإنترنت.

بعد انقضاء سبعة عشر شهرًا منذ وقوع المذبحة، كان قائد ضباط الصف باكستون ثورب وثلاثة محاربين – وأصدقاء – من أفضل الرجال الذين عرفهم

على الإطلاق - داني وغيب وبيري - في مطاردة كبرى حيثما - وقبل نحو أسبوع - لم يصدق أحد بوجود أهداف هناك. أطلق البعض في وسائل الإعلام الأمريكية على الهدف الرئيسي اسم الشبح، مما منحه جوًا من السحر، سواءً كان هذا عن قصد أم لا. أما باكس ورجاله فقد أسموا طريدتهم الأحمق الملتهب Flaming Asshole، وأشاروا إليه اختصارًا بـFA.

كان المدعو FA هو قائد الهجوم على القرية، لكنها لم تكن جريمته الوحيدة التي يجري مطاردته بسببها. بدا من غير المرجح أن يعود إلى مكان مذبحة كهذه، بعيدًا عن رفاهية المدن التي يعتقد قادة الإرهاب أنها حق أصيل لهم، وبعيدًا عن معظم أتباعه. لكن القادة العسكريين كانوا قد تلقوا معلومات استخبارية وجدوها مقنعة، وغالبًا ما تتسم قراراتهم بالدقة.

كانوا في دولة لا تستحق أن توصف بدولة، لكنها على الأقل لم تكن تدعم الإرهابيين حاليًا أو تتآمر مع أي جهة ضد الولايات المتحدة. ولم يكن اقتصادها المنهار ليتحمل عبء تمويل جهد عسكري مناسب لبسط الأمن على كامل أراضيها. وكان باكس ورجاله قد دخلوا إلى البلدة دون أن يواجهوا أحدًا، ولكن ربما يتأزم الموقف الآن.

احتوت البلدة على أكثر من مائتي بناية، معظمها من طابق واحد أو طابقين، ولا يزيد أعلاها عن ثلاثة طوابق، وكان بعضها مشيدًا من الحجر، وبعضها الآخر مشيد من طوب طيني مغطى بالجبس بشكل غير احترافي، وكأنه لا يوجد مهندس في هذا البلد حظي بتعليم حديث. وكان ثلث البنايات قد تحول إلى ركام بسبب الهجوم، والبقية أصابها الضرر بشكل أو بآخر. وإذا كان المدعو FA وستة من أكثر من يثق بهم من رجاله يختبئون هنا، فعلى الأرجح سيخفون أنفسهم في بناية في قلب البلدة، لأنه وبصرف النظر عن الجهة التي ستأتي منها قوة معادية، سيكون أمامهم متسع من الوقت لإدراك أن ثمة عملية تمشيط تجري في البلدة.

أشارت المعلومات الاستخبارية إلى أن هناك بناية من ثلاثة طوابق تقع

في الركن الشمالي الغربي من البلدة توفر موقع مراقبة مثالي. وقد تعين على الفريق تركيز انتباههم على الجهتين الشرقية والجنوبية لالتقاط أي صوت أو إشارة على وجود سكان هناك. كان السطح يضم حاجزًا يمكنهم الاختباء خلفه، وتنفيذ عمليات مراقبة باستخدام كاميرتين مزودتين بمنظارين.

بعد أن خرج كل من باكستون وداني وغيب وبيري بهدوء من الحقول متجهين صوب مؤخرة البناية، مرّوا على هياكل عظمية لها قرون لما قد يكون ثلاثة شياه، وقد نظرت إليهم بمِقل جوفاء بدت مثل كهوف عميقة. كان الهمجيون الذين قتلوا أهل البلدة قد أردوا أيضًا الحيوانات، تاركين إياها تتعفن حيثما قُتلت.

كان الباب الخلفي للبناية مكسورًا منذ زمن طويل. وقد فتشوا الغرف وكأنهم يتوقعون مقاومة ما، لكنهم لم يعثروا على أحد. كانت الجدران ممتلئة بالثقوب بسبب الرصاص، وامتلأت أرضية المكان بالفوارغ، وكان هناك أيضًا قطع متناثرة من الجص والأواني المكسورة وما بدا مثل عظام جمجمة بشرية تعلق فيها بعض الشعيرات. قادت السلالم التي تتناثر عليها الأنقاض إلى السطح، وبدا الحاجز الذي يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام مثلما وُصف لهم.

تحت جنح الظلام في الليلة الموحشة، جرؤوا على الوقوف ومراقبة الجهتين الجنوبية والشرقية من بلدة الأشباح، وبحثوا عن أقل قدر من الضوء – سواءً كان عاديًا أو خارقًا – لكن لم يعثروا على شيء.

بعد أن وصلوا بسلام، قسموا أنفسهم إلى مجموعتين، اثنان سيناماه، واثنان سيظلان مستيقظين يراقبان. كان أي صوت سيصدر سينتقل عبر سكون البلدة الميتة، لذا فقد تحاشوا التحدث إلى بعضهم البعض. كانوا قد أمضوا أوقاتًا طويلة للغاية معًا، فلم يعد أي منهم في حاجة إلى مخاطبة الآخرين لمعرفة فيمَ يفكرون.

ظلوا على سطح البناية حتى بعد شروق الشمس، عندما انحسرت برودة الليل إلى النصف فقط، ومع ذلك فقد ظلوا مختبئين خلف الحاجز. كانوا يتحاشون تنفيذ عملية تمشيط حتى يمنحوا طريدتهم ورجاله مدة يوم كامل

لارتكاب خطأ والكشف عن موقعهم. وكانت أسلحتهم هي الكاميرات ذات المنظار وآذانهم وصبرهم.

لم يطرأ جديد حتى الساعة الرابعة عصرًا، حين انقض باكس على وجباته الجاهزة لالتهام اللحم المقدد، وخليط المكرونة والدجاج، وقالب حلوى. أكل وهو يجلس على السطح وظهره مستند على الحاجز. وقد ارتدى سترة واقية، لكن نظام الاتصال بالإنترنت الذي كان على هيئة بذلة MOLLE العسكرية مع كامل المعدات كان منفصلاً بذاته ويمكن خلعه ووضعه جانبًا. وكان سلاحه مستقرًا على السطح على بعد سنتيمترات قليلة منه: كان مسدسًا من طراز Sig Sauer P220 ويستخدم طلقات عيار 0.45 بوصة.

فجأة، تذكر بيبي بوضوح لدرجة أنه كاد أن يعضّ لسانه وهو يأكل قالب الحلوى. كان عادة ما يفكر في حبيبته يوميًا، لكن هذه الصورة المباغتة لوجهها الجميل قد لمعت بشدة في رأسه مثلما لم تفعل أي ذكرى من قبل. وقد تذكر اللحظة؛ كان هو وبيبي يتسابقان على لوحي تزلج جنبًا إلى جنب في ميناء نيوبورت في يوم أحد مشمس. كانت قد قالت طرفة ما، وعندما سبقها أصيبت بنوبة ضحك هستيري فكادت أن تسقط من على متن اللوح.

ارتفعت معنوياته لدى تذكره وجهها الجميل الضاحك، فحاول التشبث بتلك الذكرى، ويوقف شريط الذكريات بكل تفاصيله المذهلة والمحركة للمشاعر. لكن الذاكرة تنحسر مثلما تتمدد، وقد تبددت وما عاد ممكنًا استعادتها إلا كحلم غير واضح.

نظر باكستون في ساعته من طراز G–Shock، فكانت تشير إلى الـ4:14 عصرًا بالتوقيت المحلي، وهو ما يعني أن الساعة تشير إلى الـ4:14 فجرًا حيث تعيش بيبي على الجانب الآخر من الكوكب. ستكون نائمة في فراشها في المنزل. شق القلق طريقه في أعماقه. لم يكن ذلك القلق العادي الذي ساوره أحيانًا وهو يفكر في بيبي، لكن الشعور بقلق بالغ عليها ليس عاديًا في لحظة كهذه. وقد تساءل إن كان قد خرج في مهمة سرية في أسوأ توقيت ممكن.

-22-

ما الذي حدث للتو بحق الله؟

في هذه المرة، وبينما كانا يتنقلان في صمت، حمل الرجلان المتخفيان الجثة على طول الرواق داخل المستشفى حيث اختفى سطح المبنى وسقف الغرفة مما سمح لضوء القمر بأن يغمر المشهد. دخلا غرفة بيبي - وكان وجه أحدهما صادمًا ومفزعًا للغاية مثلما كان دومًا - فقاومت التفكير فيهما ونهضت جالسة في الفراش؛ لم تستيقظ من الحلم، وإنما انتقلت من مشهد في الحلم إلى التالي. اختفى رسولا الموت، أو أيًا تكن هويتهما. وعلى أحد الكراسي المجاورة للنافذة - وتحت أشعة شمس الغروب الحمراء - استقرت الجثة وهي ملفوفة بعناية في كفن أبيض يلمع مع انعكاس ضوء السماء المشتعلة. تمدد القماش الذي يخفي وجه الجثة، وتجلى تجويف فارغ بعد أن فتح فمه. وقد صدر عنه صوت تعرفه جيدًا: «الأشكال...الأشكال... وأشياء مجهولة». بعد أن خشيت من سماع المزيد، جلست مجددًا، ولكن هذه المرة ليس في مشهد آخر من الحلم...وإنما في حجرة المستشفى الحقيقية.

حل الصباح محملاً بشيء مختلف.

كان الخدر الذي سيطر على شقها الأيسر قد اختفى تمامًا من رأسها وحتى أخمص قدمها. لم يعد هناك اهتزاز أو رعشة أو تيبس في موصلاتها العصبية.

بعد جلوسها في الفراش، حركت يدها اليسرى، التي بدت أحيانًا جزءًا من بيبي أخرى غيرها؛ شخصية أخرى تمنت استخدام يدها لأغراضها الخاصة والمختلفة. باتت الآن تتحكم فيها بشكل كامل مجددًا وبلا ضعف. قبضت

يدها اليسرى، وعلى الرغم من أن قبضتها كانت صغيرة، فقد أعجبها شكلها.

لا صداع ولا دوار ولا مذاق سيء.

قالت بسرعة مدهشة «التقط بيتر بيبر علبة فلفل مخلل. إنها تبيع أصداف البحر بجانب الشاطئ». خرجت كل كلمة بوضوح تام، وبدون أي تعثر في النطق.

أنزلت أحد حواف الفراش وجلست على حافته، وترددت للحظات، وحذرت نفسها من أن انحسار الأعراض لا يعني أنها قد تعافت بشكل ما. وإذا ما جرؤت على الصياح اندهاشًا واحتفالاً، فقد يؤدي صوتها إلى انهيارها فجأة ودخولها في الحالة السابقة. ولكن لا. كانت هذه خرافة نقية وحمقاء. فلم يكن هناك ثلاثة آلهة للقدر مثلما اعتقد اليونانيون القدماء، ولا أخوات يطفن ويقسن ويقطعن شريان كل حياة قد يشعرن بالإهانة منها بسبب فرحتها بالفرار من قبضة السرطان. نهضت من الفراش وهي ترتدي نعالها، ومشت في الغرفة ثم أدت رقصة سخيفة سريعة، ومع كل حركة، أدت قدمها اليسرى – بالضبط مثل قدمها اليمنى – مثلما أرادت بدون أي تيبس أو تعثر.

دلفت ممرضة عبر الباب – وتدعى بترونيلا – وكان شعرها مشدودًا ومضفرًا إلى الوراء. كانت متواجدة في العمل في الأمس وأثبتت أنها امرأة تتمتع بالكفاءة والثقة، وبدا أنها قد شهدت كل شيء يمكن لأي شخص في مجال عملها أن يتوقع رؤيته، ولا يبدو أنها شعرت بالارتباك قط أو وقفت حائرة أمام أي شيء. لكن وجهها البني مثل الشوكولاتة اندهش، وبدت متعجبة حين توقفت داخل عتبة الباب وقالت «ماذا حل بكِ صباح اليوم يا فتاة؟»

«يمكنني الرقص» قالت بيبي وهي تؤدي رقصة إيقاعية بسيطة.

فقالت الممرضة «ربما يكون بوسعكِ ذلك، لكنني سأنتظر حتى أرى الدليل». ضحكت بيبي وصفقت بيديها ثلاث مرات سريعًا. «لا قدم يسرى طائشة، ولا خدر من الرأس وحتى أصابع القدم، لا شيء على الإطلاق.

التقـط بيتـر بيبـر علبـة فلفـل مخلل...نطقتُهـا بوضوح تام يـا بترونيلا. لم أعد مريضة بعد الآن».

تجمـدت ابتسـامة الممرضـة في البداية ثم اختفت. قالت والشـفقة بادية في عينيها وفي صوتها نبرة تعاطف «الأشياء تأتي وتذهب، ثم تأتي مجددًا يا فتاة. من الأفضل إدراك هذه الحقيقة».

هزّت بيبي رأسها وقالت «هذا صحيح وحقيقي. لا أدري ما الذي حدث للتو بحق الله، لكن من المؤكد أن شيئًا ما قد حدث. يمكنني الإحساس به وهو يتغلغل داخلي. شيء نقي وصحي. أحتاج إلى التحدث إلى الدكتور تشاندرا. لا بد أن يراني. لا بد أن نلقي نظرة أخرى على هذا».

-23-

قبل اثنا عشر عامًا - لا يمكنها تجاهل الأمر فحسب

بعد مقاومة لهوى النفس دامت أسبوعين آخرين؛ وفي صباح هادئ من يوم أحد بارد غابت فيه الشمس بسبب الضباب الكثيف، ومع وجود المفتاح في القفل، وصوت صرير مفصلات باب الشقة، والمزهرية البيضاء على الطاولة التي كانت بدون ورود هذه المرة، والباب الداخلي المفتوح، وعتبة حجرة المعيشة، بل وحجرة المعيشة نفسها، وباب حجرة النوم المغلق. إذا كانت آثار الدماء التي اكتشفتها على مقبض الباب في زيارتها السابقة حقيقية، فلا شك أن أحدهم قد نظفها الآن.

لم تفهم بيبي نفسها أحيانًا. لم تكن فتاة غبية، ومع ذلك فقد عادت إلى الشقة. أدركت أنها ليست جبانة، وأنها لا تحتاج إلى أن تختبر شجاعتها، ولكن ها هي ذا. ظلت مقتنعة بأن الميت لم يعد إلى الحياة، ومع ذلك ساورها الشك. وأسوأ ما في الأمر أنها كانت تدرك أنه سيكون وبالاً إن تمكن أحد من الموتى من العودة إلى عالم الأحياء؛ ومع ذلك، تمنى جزء منها أن يواجه شيئًا كهذا، على افتراض أنه سيتضح أنه مجرد سحر في أفضل الأحوال.

كانت تخشى من احتمالية أنها تملك دوافع سيئة، التي قرأت عنها في الروايات. فقد قرأت للصف العاشر - وهو ما يفوق مستواها الدراسي بخمسة مراحل - مما قادها إلى الاعتقاد أنه يتعين عليها أن تكون مثقفة بشأن الوساوس القهرية والعُقد والهوس والجنون والدوافع المرضية. هذه الدوافع السيئة من الممكن أن تنبع من العقل أو القلب. كانت متيقنة من أنها لم تُجن

بعـد، لـذا فقـد أملت أن تكون دوافعها السـيئة – أيًـا كانت – نابعة من القلب، وبالتالي ألا تكون خطرة.

عـادة مـا لجـأت الفتيات المقدامات إلى القيـام بأفعال بطولية وإلا فقدن فرصة التفوق على أقرانهن. لذا، فهن يصبحن سيدات مترددات حزينات، مثل الأزهار البالية، أو الأشخاص الكادحين المحكوم عليهم بعيش حياة كئيبة في حجرات رمادية. كانت بيبي تمارس رياضة التزلج جلوسًـا على الأمواج منذ سـن السـابعة، وتمارسـها مثل المحترفين منذ عام تقريبًا الآن، ولا تعتزم أن تفشل سواءً الآن أو بعد خمسين سنة.

يتعين على المتزلج النزول عن قمة الموجة، واقتحامها وتمزيقها بلا رحمة وبلا خوف. كان ذلك هو الفرق الحقيقي بين فأر التزلج المحترف والمتزلج الهاوي المتعجرف الأخرق، وهو ما لا ينطبق على الفتيات المقدامات.

أدارت المقبض وفتحت باب حجرة النوم.

ظلّ كل شـيء مثلما كان عليه في السـابق حين كانت الشـقة مسـكونة. كان الفراش بلا غطاء أو بطانية أو ملاءات، ووُضعت الوسـائد في خزانة من الكتان. وفيما عدا ذلك، بقي كل شيء على حاله.

ضغـط الضبـاب الكثيـف علـى النافذتيـن مثل شـبح البحـر أو مثل المد المرتفع بشدة منذ ملايين السنين، ولم يدخل إلى الحجرة إلا القليل من الضوء الخافت. ولأن حجرة النوم تقع في مؤخرة الشقة، لم يكن من الممكن رؤية المصابيح التي أنارتها بيبي من المنزل الصغير حتى في عدم وجود الضباب.

كان بـاب المرحـاض مفتوحًـا، لكـن بـاب خزانـة الملابـس كان مغلقًا. فاجأت نفسها وطرقت عليه.

لم تتلقَ أي رد.

حدثت نفسها قائلة، انزلي عن القمة واهجمي ولا تفزعي.

فتحت باب الخزانة وأنارت المصباح. لم تكن الفتيات الشجاعات يؤمنّ بوجود البعبع، ولم يكن أحدهم في انتظارها.

تدلى حبل سحب الباب العلوي من السقف. كانت تعرف أنها لو سحبت الحبل، سينفتح الباب على وقع صوت مفصلات وزنبرك صدئة، وسيتدلى سلم من ورائه.

للمرة الأولى في هذه الزيارة، سمعت ضجيجًا لم تكن هي السبب فيه، وإنما أتى من العلية.

سحبت الحبل ولكن لسوء حظها لم تتمكن من فتح الباب من المحاولة الأولى.

لا بد أن أحدهم قد أغلق الباب بإحكام من الأعلى؛ إذ أنه عندما انفتح أصدرت المفصلات صوتًا يشبه صوت قطة منزعجة. وقد نزل السلم على أرضية الخزانة.

قالت بيبي وهي تنظر إلى الظلام في الأعلى «أيها القبطان، هل أنت هناك في الأعلى؟»

-24-

كم سيكون هذا رائعًا إذا كان هذا حقيقيًا

لم يبدُ جهاز أشعة الرنين المغناطيسي موحشًا وملعونًا هذه المرة، وإنما بدا كمعبر نحو الحياة. ولم تكن بيبي في حاجة إلى سماعات الأذن التي طلبتها سابقًا، فلم ترغب في الاستماع إلى الموسيقى، لأن أفكارها المتسارعة كانت موسيقى من نوع أفضل؛ موسيقى تشبه الإيقاع السريع لموسيقى الجاز المفعمة بالبهجة والحيوية. كانت الأفكار مصحوبة بالسعادة والاندهاش والتعجب، بلا أدنى قدر من الفزع. لقد حدث المستحيل، وكانت متيقنة من ذلك تمامًا، ولم تكن في حاجة لانتظار نتيجة الفحوصات. شعرت بسكينة حقيقية في أعماقها، وفي كل جزء من جسدها المفعم بالصحة. قالوا إنّ ورم المخ لا يمر بفترة من السكون؛ على الأقل حتى الآن. دعهم يعيدون كل الفحوصات: الرنين المغناطيسي الوظيفي، والرنين المغناطيسي الطيفي، وتصوير الأوعية بالرنين المغناطيسي. ولن يعثروا على شيء، ولا حتى تجمعًا واحدًا لخلايا السرطان. وقد عادت أفكارها البهيجة والمتسارعة مرارًا إلى اللغز العجيب الواقع في قلب هذه الفرصة الجديدة للحياة، وإلى السبب المجهول لعودتها؛ كان ذلك لغزًا تحدى هويتها ككاتبة لفهم القصة الخفية.

بعد الانتهاء من الرنين المغناطيسي، أرادوا إعادة إجراء فحوصات أخرى بعينها. كان بوسعها أن تقرأ من تعبيراتهم أنهم في حالة صدمة شديدة من النتائج التي توصلوا إليها حتى الآن. ولم يملك أحدهم الجرأة الكافية حتى يخبرها أن المستحيل قد حدث. ليس بعد؛ ليس قبل أن يتأكدوا بشكل كامل، لكن بيبي كانت متيقنة تمامًا من حدوث المستحيل.

كانت ميرا هيرنانديز صغيرة على أن تترأس قسم التمريض في مستشفى كبير كهذا. فقد بدا أنها لا تزيد على الأربعين من العمر، وكانت امرأة جميلة ذات شعر أسود ناعم وعينين سوداوين واسعتين مثل فرو قط الهالوين، وشفاه عريضة، وما انفكت تعض شفتها السفلى بينما كانت تصغي إلى بيبي وهي ترد على أسئلتها.

جلست الممرضة هيرنانديز على الكرسي المجاور للنافذة، وهو ذات الكرسي الذي جلس عليه الدكتور سانجاي تشاندرا في اليوم السابق، عندما نقل لها الأنباء الصادمة. وقد جلست بيبي قبالة الممرضة على ما باتت تعتبره الآن كرسي حظها. في الواقع، بدا كل شيء في هذه الحجرة جالبًا للحظ بشكل ما؛ مثل طاولة الحظ التي تتوسطهما، وفراش الحظ، وتلفاز الحظ الذي لم تشغله قط، ورداء الحظ الحريري الذي ارتدته، ونعالها الجالبة للحظ.

قالت الممرضة «أحتاج منكِ مساعدتي على الفهم. تظنين أن كلب الصيد الذهبي هو من شفاكِ؟»

فقالت بيبي «كلا. ربما. اللعنة إن كنت أعرف. لقد كان للكلب علاقة بما حدث. لا بد أنه كذلك. اسمعي، لا أقول إنه كلب سحري. فما الذي سيعنيه ذلك على أي حال؟ يبدو هذا سخيفًا. لكن الكلب وصاحبه، لا بد أنهما يعرفان شيئًا. ألا تظنين ذلك؟ أنا أظن ذلك. ربما الرجل يعرف شيئًا، ولكن ليس بالضرورة أن يعرف الكلب هذا الشيء. من يدري ما الذي يعرفه الكلب؟ وحتى لو عرف الكلب شيئًا، فلن يكون بمقدوره إطلاعنا عليه، لأن الكلاب لا يمكنها الكلام. لذا علينا أن نتحدث إلى الرجل».

نظرت الممرضة هيرنانديز إلى بيبي في صمت للحظات، ثم قالت «تبدين هائجة».

«كلا، لستُ هائجة. أشعر بنشاط جيد. و معنوياتي مرتفعة. أما كنتِ لتكوني مثلي أيضًا إذا ما شُخص لديكِ سرطان الدماغ في يوم ما، ثم شفيتِ منه في اليوم التالي؟»

لـم ترغـب الممرضـة فـي منحهـا آمالاً زائفـة وقالت «دعينا لا نسـتبق ما سيدلي به الأطباء يا بيبي».

«تعلميـن؟ الأمـر ومـا فيه أنني أُصبت بنوبة شـديدة الليلـة الماضية حين كنت بمفردي هنا. خلتُ أنني أموت، لكن أغشـي عليّ. وقد اسـتفقت لاحقًا حين أتت الممرضة للاطمئنان عليّ. اعتقدت أنني نائمة، لكني كنت مشلولة، وعجزت عن الكلام، وقد كان الأمر مريعًا. أدركتُ أنني على وشك الموت، وكأن الروح كادت أن تخرج مني وسأتحلل. وعندما استفقت في المرة التالية، رأيت الكلب. وبعد الكلب، لم أعد مشـلولة، وبات بوسـعي الكلام. وصباح اليوم، عندما اسـتيقظتُ على هذا النحو» - قبضت يدها اليسـرى التي كانت ضعيفة ولوحت بها في الهواء - ثم أضافت «أيقنتُ أن شيئًا جيدًا ما قد وقع، بل وأفضل شيء جيد ممكن».

علـى الرغـم مـن أنهـا تبدو شـخصية لطيفة وصبـورة، بـدا أن الممرضة هيرنانديز تود أن تقول، ولكن هذا بيت القصيد؛ الأمر مسـتحيل. ولكن بدلاً من ذلك - وبعد أن دونت ملاحظة على حاسوبها المحمول - قالت «تعلمين؟ المشكلة هي أننا لا نسمح بدخول الكلاب إلى المستشفى بعد ساعات الزيارة. ولم يتواجد أي منها ليلة أمس».

أصرّت بيبي في ابتهاج «بلى كان هنالك واحد. كلب ذهبي جميل».

«»هـل أنـتِ متأكـدة مـن أنـه لـم يكن حلمًا أو أن هـلاوس من نوع ما قد راودتكِ؟»

«كانت يدي دافئة ولزجة من لعاب الكلب»

«حسنًا، ماذا عن صاحب الكلب، كيف كان شكله؟»

«لقد انعكس النور على ظهره، وقد بدا مجرد خيال، ثم اختفى في الظلام»

«ماذا كان اسم الكلب؟ هل تتذكرين؟»

«لا أعرف. لم يخبرني صاحبه باسمه»

«إن أول شيء يفعلونه في العادة هو تقديم الكلب»

«ربما في العادة، لكن ليس في هذه المرة»

بعد أن كتبت الممرضة على الحاسوب مجددًا، نظرت إلى الأعلى وابتسمت، ولكن كان هناك نظرة شك في عينيها حين قالت «آسفة. لا أقصد أن يبدو الأمر مثل استجوابات الشرطة يا بيبي. فأنا حقًا أود أن أفهم ما حدث إذا...»

«إذا اتضح أنني قد شُفيت؟ لا بأس، يمكنك قولها دون أن تخشي من أنك تمنحين أملاً زائفًا. لقد شفيت. تعتقدين أنني نشيطة الآن؟ انتظري فقط حتى يخبرني الدكتور تشاندرا أنه لا وجود للسرطان. سأكون في قمة الحماس والنشاط. هذا هو حال الطفلة التي في داخلي. معظم الناس يتطلعون إلى تجاوز مرحلة الطفولة، لكنني أحتفظ بهذه الطفلة في قلبي، تعلمين؟ وهي تظهر بين حين وآخر. إنه أمر يخص الكتّاب. فالماضي مادة لا ترغبين في نسيان كيف كانت».

أصغت الممرضة هيرنانديز باهتمام، وكأنها لم تعتقد أن بيبي تهذي. وعندما أتيحت لها فرصة للتحدث، قالت «ماذا قال لكِ الرجل صاحب الكلب الذهبي؟»

«لا شيء، حتى بدأ يهمّ بالخروج برفقة الكلب. حينئذٍ نظر وراءه وقال «اسعي لعيش حياتكِ»

قالت الممرضة في تجهم «ماذا قصد بذلك؟ يبدو لي...لا أدري. يبدو الأمر غريبًا، أو رسميًا نوعًا ما. ألا تعتقدين ذلك؟»

هزت بيبي كتفها «لعله قصد فقط أن عليّ المضي في حياتي». كانت قد سمعت هذه الكلمات من قبل لكنها نسيت متى وأين. وتساءلت عن السبب الذي جعلها لا تخبر الممرضة بذلك.

فجأة، باغتتها فكرة بوليسية أبهجتها «ماذا عن كاميرات الأمن؟ عادة ما يحتفظون بأشرطة المراقبة لمدة شهر كامل. إذا راجعتِ تسجيل ليلة أمس ورأيتِ الرجل وكلبه، فستتأكدين أنني لم أكن أحلم».

-25-

قبل اثنا عشر عامًا - أيها القائد، هل أنت هناك في الأعلى؟

عندما نزل السلّم من السقف إلى أرضية خزانة الملابس، أدركت بيبي أنَها قد تلقت دعوة للصعود، لكنها ترددت في قبولها. وعلى الرغم من الهيئة البالية التي بدا عليها السلّم، إلا أن شيئًا ما في طريقة تعرّجه إلى الأسفل إلى أجزاء ذكرتها بهيئة الثعبان.

بينما كانت تنظر إلى داخل العلية، تراجعت حدة الظلام في الأعلى كثيرًا، حين أضاءت مجموعة من المصابيح الجانب العلوي من الجدار.

فشلت هذه الدعوة الثانية في تشجيعها على الصعود والبحث عن القائد.

كانت تلقّبه بالقائد لأنه ذات يوم كان قائدًا في فيلق مشاة البحرية الأمريكي. وكان قد خاض شتى أنواع المغامرات في زمني الحرب والسلام، وقد استمتعت بيبي بحكاياته مهما كررها عليها. كان قد عمل في وظائف مختلفة بعد انتهاء خدمته في الفيلق، وقد ظل المستأجر للشقة الكائنة أعلى المرآب لمدة خمس سنوات، إلى أن عثرت عليه ميتًا في المطبخ، حيث كان متمددًا فوق بركة من الدماء جعلته يبدو وكأنه يعوم.

كان القائد رجلاً يتحلى بالشجاعة والنزاهة والشرف. وكانت في أمان دومًا حين تكون في رفقته؛ إذ ما كان ليؤذيها قط، وكان ليضحي بحياته من أجلها.

إذا كان القائد في العلية - وقد عاد من مكان يذهب إليه الأبطال الموتى للخلود - فبكل تأكيد ليس لديها سبب لتخشاه. لم تكن الفتيات المقدامات

لتثبطن – أو تهزمن – أنفسهن بتجاهل المنطق والانغماس في الخرافات بكل ما ينطوي عليه ذلك من خوف.

سألت مجددًا «أيها القائد؟ هل أنت هناك في الأعلى أيها القائد؟»

أتى الرد في صورة صوت قرع أجراس لطيف. لكنه في الواقع كان صوت قرع جرس واحد خاص بدا كأنه ثلاثة أجراس. كان القائد قد جلبه من فيتنام قبل سنين طويلة ليكون بمنزلة تذكار على أيامه في الحرب المنهكة والخاطئة.

كان الجرس الجميل مصنوعًا من الفضة وفي حجم كأس الخمر، وكانت آلية عمله مبتكرة. جرى تثبيت مقارع الجرس الثلاثة بحيث تعمل في نفس الوقت دون أن تتداخل أقواسها مع بعضها البعض؛ إذ صدم المقراع الأول منتصف الجرس، فأصدر الثاني صوتًا من نتوء الفضة ذات الشكل الكلاسيكي، تلاه الثالث من الحافة. كانت الأصوات الثلاث مختلفة ولكن متناغمة، وقد أنتجت معًا أجمل الأصوات الموسيقية.

كانت فيتنام قبل الحرب – وقبل أن تغمرها الشيوعية المقيتة – بلدًا ساحرًا ذا أساطير فريدة وعادات عجيبة. وقد عكس الجرس بموسيقاه الجذابة الطبيعة الساحرة لتاريخ البلاد. أقنع الشكل الأنيق ولمعان الهيكل الفضي، والنغمات المنسجمة – التي تعتبر كل منها مجموعة موسيقية مستقلة بذاتها – والإعجاب بالرجل صاحب الجرس، بيبي أخيرًا بصعود السلّم.

عند موته، لم يكن لدى القائد أشقاء أو أبناء في أماكن بعيدة ممن يتعين جمع تذكاراته الصغيرة الساحرة وإرسالها إليهم. قالت نانسي إن كافة هذه الأغراض ملك لبيبي إذا ما أرادت الاحتفاظ بها، وقد كانت ترغب فيها بشدة. بيد أن رؤية كنزه المتواضع قد عمق من أحزانها. في نوفمبر/ تشرين الثاني – قبل أقل من ثلاثة أشهر – ساعدتها أمها على جمعها وتخزينها إلى حين اليوم الذي ستتبدد فيها صدمة موت القائد بمرور الأيام.

ومع أنها شعرت بنفس القدر من الحزن الذي تملكها يوم عثورها على جثته، فقد دلفت إلى العلية ببهجة وفضول كبيرين. كانت الأرضية عبارة عن

ألواح مصنوعة من الخشب المضغوط، وقد ارتفعت المساحة الداخلية بما يكفي لوقوف شخص بالغ منتصبًا في أي مكان داخل العلية باستثناء الحواف. وقد توقف قرع الجرس عند وصول بيبي.

لفتت انتباهها حركة في نطاق رؤيتها. لذا، نظرت إلى الأعلى لترى ما بدا للحظات تصاعدًا للقليل من الدخان، مما يدل على وجود نار مشتعلة. لكن ذلك اللهب لم يكن سوى خيوط الضباب التي تتسلل عبر الحواجز التي غطت فتحات التهوية، وكأن عاصفة الضباب في الخارج قد تملكها الفضول بشأن محتويات البيوت التي تغطيها.

لم يكن سوى القليل من محتويات الحجرة ملكًا للقائد؛ فمعظمها يعود إلى كل من نانسي وميرفي. وقد نسيت أين جرى إخفاء الجرس وأغراض أخرى في كومة الصناديق المخزنة.

وفي غياب صوت الجرس – ووسط زفرات الضباب الضعيفة – ساد صمت رهيب لدرجة أن بيبي شعرت أنها في زنزانة وليس علية. ولعلها كانت ستعتقد أنها قد تخيلت صوت قرع الجرس الفضي لو أن السلّم والمصابيح لم تكن دليلاً على وجود شخص آخر.

ولأن الأرضية الخشبية – التي يبلغ سمكها بوصة واحدة – جرى تثبيتها في العوارض – عوضًا عن دقها بالمسامير – فلم تعثر على أي شقوق وهي تسير على طول خط المنتصف في العلية، لتنظر يمينًا ويسارًا نحو الأرفف والبضائع المخزنة. كان القائد قد قام بنفسه باستبدال الأرضية الخشبية البالية القديمة، وهي إحدى المهام الصغيرة التي أداها بلا مقابل، حتى يثبت قيمته كمستأجر، مع أنه لم يطلب أحد منه إثبات ذلك. كان ذلك هو ديدن القائد فحسب؛ إذ أراد دومًا أن يكون ذا نفع للآخرين.

عندما وصلت إلى الرواق قبل الأخير الواقع عند الجهة الشرقية من العلية، اكتشفت بيبي وجود أحدهم، ولعله كان الشخص الذي كانت تطارده بحماس وريبة منذ أسابيع. وقف الرجل – أو أحدهم – عند آخر الرواق على

بعد عشرة أقدام منها، في الظلال الواقعة خلف الضوء.

انتعش الخوف – الذي كانت قد تغلبت عليه من قبل وشعرت أنه لا يليق بها – بداخلها مجددًا؛ ذلك الخوف المظلم الذي اختبر صورتها أمام نفسها. هل هي فتاة مقدامة بحق؟ أم مجرد فتاة مرتابة وحائرة أخرى تتظاهر بالنضج والشجاعة، ومخدوعة في نفسها بالتزييف الذي تمارسه على الجميع؟

قالت بلطف «أيها القائد؟»

تحرك الشبح نحوها تحت الضوء.

أدركت حينئذٍ أن الجنون والتعقل عالمان لا يفصلهما عن بعضهما سوى خطوة واحدة.

-26-
الأشخاص ذوو النوايا الخبيثة

عندما عادت الممرضة هيرنانديز إلى حجرة بيبي، جلبت معها مدير الأمن في المستشفى، الذي عرّفت عنه باسم تشاب كوي. وسواءً كان هذا هو اسمه الحقيقي أو مجرد كنية، فقد كان يليق به. كان ممتلئًا بعض الشيء لكنه لم يكن سمينًا، فكان يتنقل برشاقة ومرونة الراقصين، وهو ما كان غريبًا لمن يحملون بعض الشحم. كان اسمه الأخير أقل ملاءمة من اسمه الأول، لأنه لم يكن شخصًا جريئًا ولا خجولاً.

رفعت ميرا هيرنانديز الفراش الشاغر إلى أقصى ارتفاع، ففتح السيد كوي حاسوبه المحمول عليه. وقفت بيبي برفقتهما بينما كان السيد كوي يتصفح ملفات المقاطع المصورة الخاصة بالليلة السابقة.

قال «لا وجود لأي كاميرات في حجرات المرضى أو في المناطق الأخرى التي يجب حماية خصوصيتهم فيها. إن الدعاوى القضائية التافهة تفوق التكاليف الطبية. وستبلغ التكاليف عنان السماء لو حصل كل مريض على مليون دولار في المحكمة لأنه أهين بتصويره وهو يتبول».

قالت الممرضة هيرنانديز بنبرة توبيخية «في الواقع، إن الحفاظ على خصوصية المريض مهم لأسباب أكثر وجاهة من مواجهة الدعاوى القضائية».

لم يظهر السيد كوي أي إشارة تدل على إدراكه أنه قد تعرض للعتاب ضمنيًا على صراحته. قال «السلالم كلها تخضع للمراقبة، فضلاً عن المصاعد العامة. ولكن ليست المصاعد التي يستخدمها العاملون في نقل المرضى في أنحاء المستشفى. ونحن نراقب كافة الأروقة. وإذا خرج مريض من حجرته

وهو لا يربط رداء المرضى من الخلف، ثم يرغب في الحصول على عشرة ملايين دولار لأن الأمن اضطروا لرؤية مؤخرته البائسة، سيتعين علينا الذهاب إلى المحاكم وتمني أن يكون بعض أفراد هيئة المحلفين يتسمون بالتعقل. لكنني لا أعول على ذلك».

نظرت الممرضة هيرنانديز إلى بيبي وهي تبتسم، فردت بيبي الابتسامة بشكل ودي.

قال السيد كوي «هذا هو الرواق الرئيسي المؤدي شرقًا وغربًا في الطابق الرابع، الواقع خارج حجرتكِ بالضبط. والتوقيت ظاهر في الأسفل».

أشارت الساعة الرقمية على الشاعة إلى الرابعة ودقيقة واحدة فجرًا. ومع تحولها إلى الرابعة ودقيقتين، ظهر كلب صيد ذهبي بجوار رجل يرتدي سترة ذات غطاء للرأس. وقد أبقى الرجل رأسه منخفضًا وكأنه كان يتحاشى أن تصور الكاميرا وجهه. دفع الباب الواقع على الجهة اليسرى وسار في أثر الكلب إلى الداخل.

«لقد دخل السيد شبح إلى غرفتك» قال تشاب كوي، ثم قام بتسريع عرض الفيديو وأضاف «ثم يخرج من الحجرة بعدها بثلاثة دقائق، عند الرابعة وخمسة دقائق. ها هو. يغادر هو والكلب بنفس الكيفية التي أتيا بها؛ عبر المصعد».

قالت بيبي لميرا هيرنانديز «مثلما أخبرتكِ بالضبط».

هزّت الممرضة رأسها وقالت «لا تتعجلي»

بعد أن ابتعد عن الحاسوب ووقف وجهًا لوجه أمام بيبي، قال السيد كوي «إليكِ المشكلة. في ذلك الوقت من الليل، نحن نقفل كافة المداخل باستثناء مدخل البهو الرئيسي والمدخل المؤدي إلى الطوارئ. ولا يوجد تسجيل لهذا الرجل أو كلبه وهما يعبران أحدهما، سواءً دخولاً أو خروجًا».

قالت بيبي «لا بد أن بابًا آخر من المفترض إقفاله قد ظل مفتوحًا».

«هذا مستحيل، فنحن نجري تفتيشًا دقيقًا. إليكِ أمر آخر، تصادف

أن الكاميـرا المثبتـة فـي المصعـد الذي اسـتقله قد تعطلت عند السـاعة الثالثة وخمسين دقيقة – قبل عشرة دقائق من ظهوره في المشهد – لذا فليس هناك فيديو له ولكلبه في المصعد، سـواءً دخولاً أو خروجًا. والكاميرا المثبتة عند المصعـد الواقـع فـي الطابـق الأرضي تعمل بلا مشـاكل، بيد أنها لا تظهر قط السيد شبح سواءً وهو يستقل المصعد أو وهو يغادره لاحقًا».

نظرت بيبي إلى شاشـة الحاسـوب، حيث أظهر مقطع مسـجل من الليلة السابقة الرواق بعد مغادرة الزائر المجهول. قالت «لا أفهم».

فقال تشاب كوي «ولا أنا. إن من الحمق التفكير أنه والكلب قد استقلا المصعد الكائن في الطابق الأوسط، وخرجا من الفتحة الموجودة في سقف المصعد. هذا مستحيل تمامًا. هل تعرفتِ على الرجل؟»

نظـرت بيبـي فـي عيني مدير الأمن، فظهرتا رماديتين مع بقع زرقاء، وهو ما لا يتماشـى مع وجهه المسـتدير. قالت «أتعرّف عليه من الفيديو؟ لكنه لم يظهر وجهه»

«من هيئته أو مشيته أو كلبه؟»

«كلا. لم أتعرف عليه»

فقال تشاب كوي «أيًا كان دافعه، فهو ليس جيدًا»

«لا أدري، لكنني تعافيتُ بشكل ما»

«هل أكد الأطباء ذلك؟»

«سألتقي الدكتور تشاندرا بعد ظهر اليوم»

«آمل بحق أن تكون قد حدثت لك معجزة ما» قال كوي، مع أنه كان من الواضح أنه يشك في ذلك. وأضاف «لكن أوتعلمين؟ لقد كنتُ شرطيًا حقيقيًا في السـابق. وقد عرفت حفنة من الأشـرار ممن يتصرفون مثل السـيد شبح... وأراهن بحياتي أن جميعهم أصحاب نوايا خبيثة».

-27-

قبل اثنا عشر عامًا – ما كانت تفعله عندما لا تفقد صوابها

لا تتذكر بيبي أنها قد ولّت هاربة من الشخص المتواجد في العلية، لكن ما تتذكره بعد ذلك هو نزولها على السلّم إلى أرضية الخزانة. وعندما نظرت إلى الأعلى وهي في الأسفل، رأت أن المصابيح قد أُطفئت.

لم يتملكها الفزع، وإنما سيطر عليها شيء آخر – ربما الصدمة – مما أصاب كافة حواسها بالشلل. توقف عقلها عن العمل الآن؛ إذ تداخلت كافة الأفكار والأحاسيس مع بعضها البعض وكأن هناك كماشة داخل رأسها تحاول عبثًا إعادة تدفق أفكارها إلى وضعه المعتاد.

وقفت في تردد عند أسفل السلّم وأنفاسها محبوسة، وتتوقع أن يظهر شخصًا ما في الأعلى، لينعكس عليه ضوء الخزانة. ولكن عندما لم يظهر أحد، دفعت الجزء الأسفل من السلّم بقوة حتى يبدأ في الانغلاق مجددًا داخل السقف. وقد سحب السلّم باب السقف وراءه، وتأرجح حبل السحب يمينًا ويسارًا مثل بندول الساعة.

لم تتذكر تجاوز حجرتي النوم أو الجلوس، لكنها أصبحت مدركة بوجودها في المطبخ وهي تقف عند طاولة الأكل، وتحدق في المزهرية البيضاء، التي كانت فارغة عندما دخلت الشقة، لكنها احتوت على ثلاثة ورود حمراء الآن.

بعدما نزلت عن سلالم الشرفة، تبعها ضباب كثيف وتصاعد حولها وكأنه ذيل فستان أبيض مدهش. وفي الفناء، كان بوسعها بالكاد رؤية الطوب الذي

تمشي عليه، وبدا أن المنزل يختفي مثل سفينة أشباح في بحر مغطى بالضباب، حيث يمكن رؤية هيكلها وكأنه سراب.

كان والداها ما يزالان نائمين عندما دلفت إلى المنزل. وقد عادت بيبي إلى حجرتها وخلعت نعليها، ثم تسللت تحت الأغطية بدون أن تبدل ملابسها.

كان ما حدث في العلية شيء يفوق قدرتها على الإدراك. وقد تحاشت التفكير فيما رأته، لأنه كان مخيفًا للغاية ويصعب تحمل مظهره الكئيب، وهذا عبء لا يمكن لفتاة في العاشرة - وربما في أي سن - تحمله لساعة واحدة، ناهيك عن العمر بأسره. لذا، فمن الأفضل وضع ذلك العبء وتركه للزمن.

غطت في النوم دون أن تشعر بالراحة؛ إذ كان الغرض من النوم هو الإنكار والنسيان.

أيقظتها أمها قائلة «انهضي أيتها الكسولة. سنذهب إلى الكنيسة ثم إلى السينما»

قالت بيبي وقد سحبت الأغطية إلى ذقنها «لا أرغب في ذلك. لقد ظللت مستيقظة طوال الليل أقرأ». كانت هذه كذبة، ولكن ليست قاتلة. وأضافت «اذهبا بدوني. ثمة بقايا دجاج في الثلاجة. سأعد شطيرة كبيرة».

بعد أن التقطت كتابًا من الدرج المجاور للفراش - حيث بقيت رواية على الأقل دومًا بالقرب من بيبي - قرأت نانسي العنوان «الحرب السرية في الحديقة. مثيرة للغاية، صحيح؟»

وافقتها بيبي بالقول «أجل»

كان الوالدان يشجعان ابنتهما على الاستقلال بذاتها وتحديد هدف لنفسها في الحياة، فلطالما اعتقد الأطفال أنفسهم أرواحًا حرة. لم تكن تخضع للعقاب إذا بقيت مستيقظة طوال الليل، سواءً كان ذلك بغرض القراءة أو مشاهد برنامج تافه ما على التلفاز.

قالت نانسي «يفترض أن يكون الفيلم مضحكًا بشدة. إنه فيلم آدم ساندلر الجديد».

أصرت بيبي على التظاهر بالتعب بإبقاء عينيها مغمضتين ووجهها خاليًا من التعابير، وقد تحدثت بغضب خافت قائلة «إنه ليس ظريفًا»

«أصبحت كبيرة جدًا على آدم ساندلر، صحيح؟»

«بعقود طويلة»

«هـذه ابنتـي، الفتـاة المعقدة في الصف الخامس. حسـنًا، لا بأس. ولكن لا تذهبي للتزلج بمفردكِ»

«لا أفعل ذلك أبدًا. والطقس بارد للغاية على كل حال»

ظلت في الفراش لمدة ربع الساعة بعد مغادرة والديها، حتى تكون متيقنة من رحيلهما.

بعد ذلك بفترة قصيرة – وبينما كانت جالسة عند طاولة المطبخ وتنتهي من إفطارها الذي احتوى على الحليب بالشـوكولاتة وفطائر إيغو المحشـوة بزبدة الفول السـوداني – بدأت ترتعش ثم تهتز بعنف، وكأن مفاصل عظامها كافة قد تفككت دفعة واحدة. لم تسأل نفسها عن السبب، فلم تكن ترغب في معرفته. ولم يكن للأمر علاقة بشبح ما، سواءً كان حقيقيًا أم في مخيلتها. لم يكن بوسع الأشباح أن تؤذيها. وحتى لو كان الشبح القابع في العلية حقيقيًا، فعلـى الأرجـح لـن تـرى غيـره، إذ ما كانت الأشـباح تظهر كل يـوم – في أي مكان – مثل العصافير أو النوارس. ولو كان قد حدث أمر مختلف في العلية – فكرت للحظة – فليس له أهمية تذكر لدرجة أنه قد اختفى من ذاكرتها عندما نامت، وقبل أن توقظها والدتها. أصرّت على أنها تشعر بالبرد فقط، وهذا كل ما في الأمر. كان هذا كافيًا لتفسير الاهتزازات.

بعـد أن تركـت القليـل مـن الطعـام في طبقها، دخلت حجرة المعيشـة – حيث وفرت المدفأة العاملة بالغاز خاصية الإشـعال الإلكتروني – فأشـعلتها بجهـاز تحكـم عـن بعـد. وبينما كانت تضع يديها في جيبي سـروالها، وقفت أمام المدفأة وهي تسـتمتع بالحرارة وتحدق في النيران ذات اللونين الأزرق والأصفـر التـي تراقصـت حول الحطب المصنوع من السـيراميك. كان يروق

لهـا أحيانًـا البحـث عـن حيوانـات ووجوه في السـحب التي تتشـكل في أحد أيام الصيف. كانت النيران سـريعة جدًا مما يجعل من المسـتحيل على العين ملاحظة وجود أي شيء آخر، وهذا شيء جيد.

عندما اختفت الرعشات، قررت أن تمشي إلى المتنزه الواقع على طول جادة أوشـن والجلوس على الكرسـي الواقع عند نقطة الإلهام، حتى إذا كان الضبـاب مـا يـزال يحجب المحيط. لطالما سـبب لها البحـر الهدوء، حتى لو كان ذلـك عبـر رائحتـه فقط وصوت الأمواج وهـي تصطدم بالصخور وتتناثر على الرمال. ولكن عندما خرجت إلى الشرفة الأمامية – وقبل أن تغلق الباب حتـى – تدفـق نهـر مـن الدموع غير متوقع من عينيهـا. لـم تكن فتاة تبكي أمام الآخرين، لذا فقد عادت إلى داخل المنزل.

لـم ترغب في فهم سبب هذه المشاعر المريرة مثلما لـم ترغب في معرفة السبب في رعشتها. أرادت فحسب الكف عن البكاء، وأن تقمع نهر الدموع قبل أن تنجرف نحو البحث عن سبب لهذا الحزن – إذا كان حزنًا – أو الفزع – إذا كان فزعًا. وعندما أدركت أن الدموع قد تصرّ على البقاء مثل الرعشات، هرعت للحصول على الدواء الوحيد الذي عالج بفعالية أي موجة من المشاعر الحزينة؛ الكتاب.

وعلى الرغم من أن والدتها اعتقدت أنها ظلت مستيقظة طوال الليل وهي تقـرأ روايـة الحرب السـرية فـي الحديقة – وهي ثالث رواية خاصة بالشـباب البالغيـن مـن ضمـن سلسـلة مـن الروايات الخيالية الرائعـة – لم تكن بيبي قد بدأت في قراءتها بعد. التقطت الكتاب الآن من فوق الدرج المجاور للفراش، وأسـرعت به إلى حجرة المعيشـة، وأشـعلت مصباحًا أرضيًا، ثم رمت بنفسها على كرسـي بذراعين، وسـعت إلى ملجأ في الرواية: أتت الشـائعات الأولى عـن الحـرب مـن حقـل الفئران، التي تنقلت يوميًا بيـن الحديقة الواقعة خلف منزل عائلة جنسـن والعالم الذي يقع أسـفله، الذي كان أكبر من عالمنا بكثير وما يزال مجهولاً لدى معظم الناس، لكن بعض الأطفال يعرفون بوجوده.

في البداية – بينما كانت تقرأ – مسحت بيبي وجهها المبلل بالدموع بكمي قميصها. إلا أنه سرعان ما أصبح الخط جليًا، وتوقفت عيناها عن إفساد وقت القراءة.

وهكذا، ساعة بساعة ويومًا بيوم، نسيت المعرفة المزعجة التي تعين عليها رميها خلف ظهرها. وأضحت التجربة الغريبة والمفزعة التي مرت بها في العلية مجرد ظاهرة غريبة أو هلوسة. وقد رفضت الاعتراف الذي كان جزءًا من الحادث، وأزالته من قماش الذكريات وأغلقت الثقب الذي خلفه، أو اعتقدت أنها فعلت ذلك.

أمضت أوقاتها في قراءة الكتب وكتابة قصص عن جاسبر، وهو كلب هجين هجره صاحبه، فسعى لإيجاد بيت جديد على طول ساحل كاليفورنيا. بعد ذلك ببضعة أسابيع، عندما ظهر كلب صيد ذهبي لها تحت المطر، احتفظت به وأسمته أولاف. ومثلما يفعل الصغار، وثقت في كلبها وأطلعته على أسرارها كافة – عندما عرفتها. أخبرته عن القائد وكيف كان شخصًا رائعًا. وقالت لأولاف إن الشقة الكائنة أعلى المرآب مكان يغمره الشر، لكنها لم تخبره السبب.

-28-
زيارة من الطبيب

طوت بيبي البيجامات والرداء ووضعتها داخل حقيبتها، وارتدت سروال الجينز والقميص ذا الكمين الطويلين الذين كانت ترتديهما حين أحضرتها نانسي إلى المستشفى. كان هذا تعبيرًا عن الثقة في اعتقادها أن سرطان المخ قد دخل مرحلة السكون، وأن الورم لم يتقلص فقط وإنما اختفى.

عندما دخل الدكتور سانجاي إلى الحجرة، كانت بيبي تسير ذهابًا وعودة ليس للتخلص من حالة من التوتر، لكنها كانت لا تطيق صبرًا حتى تعود إلى العالم وتستعيد حياتها. توقف لدى رؤيتها، وكانت تعبيراته رسمية للغاية لدرجة أن شيئًا ما وقف في حلقها، وكأنها حاولت أن تبلع قطعة لحم كبيرة دون مضغها، على الرغم من أنها لم تأكل شيئًا.

ما بدا سلوكًا رسميًا - أو حتى قلقًا من الأنباء التي تعين عليه نقلها - ثبُت أنه صدمة. قال «طوال سنوات عملي، لم أواجه في حياتي شيئًا كهذا. أنا عاجز عن الوصف يا بيبي. هذا مستحيل، لكنكِ خالية تمامًا من السرطان».

في اليوم السابق، كانت نانسي قد أخبرت الدكتور تشاندرا أنه يذكرها بكوكي؛ حبة البسكويت التي دبّت فيها الحياة في كتاب قديم للأطفال أهدته لبيبي حين كانت في الخامسة من العمر. كان وجه الشبه يتعلق بحس السخرية لدى نانسي أكثر من كونه حقيقة، وبكل تأكيد لم يكن الشبه واضحًا إلى درجة أن مجلة تافهة ستجمع بين الدكتور تشاندرا وكوكي في صورة واحدة وتكتب تحتها «توأمان مفصولان عند الولادة». إلا أن كل شيء في الطبيب - وجهه الطفولي وعيناه البنيتان مثل الشوكولاتة وصوته الموسيقي وتواضعه وسحره

– جعل بيبي ترغب في الإعجاب به. وعند تأكيده نبأ تعافيها، أحبت الرجل. هرعت صوبه مثل طفلة ترمي بنفسها في أحضان أب حنون.

«شكرًا لك، شكرًا لك، شكرًا لك» قالت بحماس وابتهاج، حتى مع أن ذلك قد أشعرها بالخجل.

بادلهـا العنـاق ثم أمسـك بها وذراعاه مفرودتـان ويديه على كتفيها، وهو يبتسم ملء شدقيه ويهز رأسه ببطء، وكأنه كان مسحورًا بها. «التشخيص الأول كان سليمًا. لقد كان لديكِ ورم في المخ».

«أنا واثقة من ذلك»

«يمكن للأورام الأخرى أن تتكسر ويجري امتصاصها، ومن الممكن أن يتعافى المرء سـريعًا جدًا. الأمر ليس شـائعًا، لكنه يحدث. باسـتثناء هذا النوع من السـرطان. لم يحدث هذا قط مع هذا الشـيء البغيض. أود رؤيتك كثيرًا بغية المتابعة».

«بالطبع»

«سيرغب أطباء الأورام المتخصصون في سرطان المخ دراسة حالتكِ»

«دراسة حالتي؟ لا أدري بشأن ذلك. لا أحبذ الأمر»

«ماذا بكِ حتى تجعلي المسـتحيل ممكنًا؟ هل الأمر وراثي؟ شـذوذ في كيمياء جسدكِ؟ جهاز مناعة أكثر كفاءة؟ إن دراسة حالتكِ قد ينقذ حياة عدد لا يحصى من الناس».

شـعرت بعدم المسـئولية بسـبب تحفظها على فكرة دراسة حالتها. قالت «حسنًا، لو كان الأمر كذلك...»

«هـو كذلـك». أفلـت كتفيهـا، ثـم تبدلت تعبيـرات وجهـه المبتهجة إلى تعجب ثانية. قال «بالأمس، عندما قلت إن أمامكِ عامًا على الأكثر لتعيشـي، قلتِ (سنرى). هل تتذكرين؟»

«أجل»

«وكأنكِ كنت تعرفين حينها أنك ستعودين إلى البيت اليوم».

-29-

حدس قوي مثل سم اللبلاب

كان كلاً من نانسي وميرفي قادمين في زيارة طويلة بحلول الرابعة عصرًا. لذا، لم تتصل بيبي بهما وتخبرهما بما حدث في الليلة السابقة أو بأن الحكم بإعدامها قد أُلغي بمعجزة ما. وعلى الرغم من معرفتها أنها قد استعادت صحتها، لكنها لم ترغب في فتح زجاجات الشامبانيا للاحتفال معهما إلى أن تحصل على تأكيد من الدكتور تشاندرا. إلى جانب ذلك، أرادت أن ترى صدمتهما وعدم تصديقهما وسعادتهما عندما يدخلان من الباب ويرونها في ملابس الخروج، وقد استعادت بريقها الضائع.

قبل خمسة عشر دقيقة من مجيء والدي بيبي، أطل تشاب كوي – مدير الأمن – عبر الباب المفتوح. بدا قميصه الأزرق الفاتح ذو الكتافات جديدًا، وكان ما يزال هناك ثني حاد في سرواله الأزرق الغامق. قال «هل لديكِ دقيقة؟»

قالت بيبي وهي تنهض عن الكرسي المجاور للنافذة «فجأة، بات لدي ملايين الدقائق».

دخل كوي الحجرة بدون أن يبادلها الابتسام، وقال «منذ أن تحدثت إليكِ، قمنا بمراجعة سريعة لتسجيلات كاميرا موقف السيارات خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية. فلم يكن هناك السيد شبح ولا كلب صيد ذهبي. يبدو أنهما لم يأتيا إلى هنا مشيًا أو عبر سيارة، ولستُ ممن يؤمنون بخرافات انتقال المادة عن بعد. ماذا عنكِ؟ هل تؤمنين بها؟»

«ماذا؟ كلا، بكل تأكيد»

«لذا سألت نفسي، هل جاءا إلى هنا قبل أكثر من يوم واختبآ في

المستشفى؟ وهل ما يزالان يختبئان؟»
فسألته «ولماذا سيفعلان ذلك؟»
«اللعنة إذا كنتُ أعرف» هزّ كتفيه وقد تظاهر بالحيرة للحظات، ثم أضاف «لذا، قمنا بتفتيش المكان من أوله إلى آخره، فلم نعثر على شيء». مشى بجوارها متجهًا نحو النافذة. ورفع رأسه إلى أعلى حتى يتأمل السحاب. «يجعلني هذا أشعر أنني أحمق، تعلمين؟ لذا فقد واصلت النظر في نفس التسجيلات حتى لاحظتُ شيئًا غريبًا. هل تريدين تخمين ما يكون؟»
«ليس لدي أدنى فكرة»
قال تشاب كوي – وهو ما يزال عند النافذة وظهره ناحيتها – «عندما أتى الرجل وكلبه، تجاوزا شخصين آخرين يسيران في الاتجاه المعاكس. ممرضة ومساعدة تمريض. لم تنظر أي منهما إلى السيد شبح. هذا غريب بعض الشيء، صحيح؟ في تلك الساعة، وشخص متخفٍ، ولا ينظران نظرة واحدة؟ الأغرب من ذلك هو وجود هذا الكلب الجميل في الرابعة صباحًا، ولم تنظرا إليه هو الآخر. عندما يرى الناس كلبًا جميلاً، فإنهم يحدقون ويبتسمون. ومعظمهم سيرغب في مداعبته، وسؤال مالكه عن اسمه. لكن كلتاهما أقسمت أنه لم يكن هناك كلب. وهما متمسكتان بما تقولانه. لم يمرا قط بجانب كلب في الرواق. هل تعرفين ما الذي يثير حيرتي؟»
فقالت بيبي «لا أدري. أثق بأنك ستخبرني».
استدار من جهة النافذة حتى يواجهها، ثم قال «لا أدري كيف يكون هذا ممكنًا، ولكن بالضبط مثل أي شيء في العالم هذه الأيام، فإن التسجيلات المرئية والصوتية والصور يمكن العبث فيها. لذا أتساءل عما إذا كان أحد القراصنة قد اخترق أرشيفنا الخاص بالتسجيلات الأمنية، وأضاف السيد شبح والكلب إلى التسجيل بشكل ما، ووضعهما حيثما لم يتواجدا في الأساس».
قالت بيبي في حيرة «من ذا الذي يخوض كل هذا العناء؟ ولماذا؟»
بدلاً من الرد على سؤالها، قال تشاب كوي «بعد أن شاهدته عشرات

المرات، ما زلت لا أرى أي نوع من التلاعب في التسجيل. إن كلاً من الرجل والكلب يظهران بنفس وضوح الممرضة ومساعدة التمريض. والإضاءة تنعكس عليهما بالضبط مثل بقية من ظهروا في المشهد. لكنني لستُ خبيرًا. يمكن لأخصائي تقنية من الدرجة الأولى ومحلل يحمل المؤهلات المطلوبة أن يثبت أن التسجيل مفبرك».

لكن بيبي ذكرته بالقول «باستثناء شيء وحيد يبدو أنك قد نسيته. لقد رأيتهما؛ الرجل والكلب. لقد دلفا إلى غرفتي. ووقف الكلب على أطرافه الخلفية، ووضع مخالبه الأمامية على فراشي. كان يمتلك عينين ذهبيتين لامعتين. وقد شرع في لعق يدي». رفعت يدها اليسرى، وكأن بقايا الحمض النووي الخاصة بكلب الصيد الذهبي ما زال بالإمكان العثور عليها بين أصابعها.

كانت عينا مدير الأمن الرماديتين والمرقطتين بالأزرق بالنسبة إليه بمنزلة المشارط بالنسبة إلى الجراح؛ إذ كانت مباشرة وحادة وقادرة على كشف أي خداع، وقد بدا أنه يتفحصها بدقة شديدة، فأزال طبقات صورتها بحثًا عن أي خدعة ماكرة، أو دليل دامغ يصبغ صفة الكذب على كل ما قالته.

«في الوقت الراهن،» قال بصوت جاف خالٍ من أي نبرة «ربما أكون مجرد حارس أمن في بيئة راقية نوعًا ما، لكنني كنتُ ذات يوم شرطيًا حقيقيًا، وما زلت أمتلك حاسة المخبر البارع».

قالت بيبي وقد زاد شعورها بالتعجب وعدم الارتياح «إلامَ تلمح؟»

«لا ألمح إلى أي شيء يا آنسة بلير»

«إلى أنني مشتبه به بشكل ما؟»

رفع حاجبيه ووسع عيناه في تظاهر غير مقنع بالاندهاش، وكأنها قد أساءت فهم ما قاله وقفزت إلى استنتاج بشأن نواياه، مما أصابه بالاندهاش.

«ما الذي يفترض أنني قد فعلته؟» سألته ولكن ليس بنبرة تهجمية أو غاضبة، وإنما بقدر من الحيرة الشديدة. «فبركتُ تعافيَ من السرطان؟ وخدعت

جهاز الأشعة وجميع الأطباء؟ هل يبدو أي من هذا منطقيًا؟».

لولا أن الفرحة العارمة التي شعرت بها نتيجة لتعافيها كانت ما تزال تملأ قلب بيبي، لكانت ابتسامة مدير الأمن المستفزة قد أشعلت غضبها.

«إنها غريزة الشرطي يا آنسة بلير، وهي تشبه اللبلاب السام الذي يسبب حكة شديدة لا يمكنكِ تجاهلها حتى تحكيها كثيرًا إلى أن تشعري بالراحة».

بتلك الكلمات – التي اعتبرتها بيبي وعدًا أو حتى تهديدًا – توجه تشاب كوي صوب الباب.

قالت «جرّب محلول الكالاماين. إن له رائحة جميلة ولونًا زاهيًا، لكنه يزيل الحكة».

غادر كوي الحجرة بدون أن ينظر وراءه.

حلّ مكان الابتسامة الرقيقة التي اختفت من على وجه بيبي القليل من التوتر. قالت «يا له من أحمق».

-30-

جامع متفاخر لعشرة آلاف رأس

خـلال فترتـي الصبـاح وبعـد الظهر مـن يومهم الأول على سـطح البناية ذات الطوابق الثلاثة، اسـتخدم أفراد القوات الخاصة الأربعة الكاميرات ذات المناظير وعدسـات التكبير غير العاكسـة لتفقد القرية الميتة بدون المخاطرة مـن انعـكاس ضوء الشـمس على زجـاج الكاميرات مما سـيفضح وجودهم. كانت الصور الملتقطة والمعروضة على الشاشـات شـديدة الوضوح. وعندما أبحرت الشمس غربًا - ولكن ليس خلف باكستون ورجاله مباشرة - تمتعوا بما يكفي من الجرأة لإبراز رؤوسهم فوق الحاجز لتفقد معالم البلدة؛ كانت مزيجًا من البنايات العشوائية ذات اللونين الرمادي والبني الباهتين، والجبس المدمر بالرصاص، والصلب المتداعي، وبوابات حديدية تتدلى من مفصلات مكسورة فوق الأنقاض.

كان هدفهم - الشبح الذي كان اسمه عبد الله الغزالي - مختبئًا في مكان ما بين هذه الأنقاض، وكان برفقته ستة معاونين من المؤمنين الصادقين، ويُرجح أن اثنين منهم نسـاء. كان قد اختار الاختباء في مسـقط رأسـه - الذي كان قد ذبح كل سكانه قبل سبعة عشر شهرًا - ربما لاعتقاده أنه آخر مكان سيبحث فيه أي شخص عنه، ولكن ربما أيضًا لأن أجواء المذبح جذابة لهذا السفاح، حيث سـتحيطه ذكريات جرائمه الفظيعة وعنفه غير المسـبوق اعتقادًا منه أنها تجلب السرور. كان باكستون قد درس الثقافة التي يعتنقها مثل هؤلاء الرجال، لكن دراسـته طوال حياته لن تسـاعده على فهم لماذا يكره هؤلاء العاشـقون للموت كل ما يمثل قيمة لسائر البشرية.

إرهابي عادل، فهو لم يقتل فقط اليهود والمسيحيين والهندوس والملحدين، بل وقد سفك عبد الله الغزالي دماء القبائل العربية من بني جلدته، فهم مسلمون أقل تدينًا في نظره. وقد زعم أنه قد قتل – أو أمر بقتل – عشرة آلاف شخص، بيد أن معظم الخبراء يعتقدون أن الرقم أكبر من هذا بكثير.

عادة ما تنقّل دون عائق عبر البلدان المختلفة التي صُدمت من همجيته، ولكن ليس منذ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي. فعلى الرغم من مراقبة وزارة الأمن القومي له ووضعه على قوائم الحظر من السفر، وفرض رقابة على كافة أنظمة النقل في كافة أنحاء البلاد، إلا أنه تمكن من دخول الولايات المتحدة، وأعطى أمرًا بالتحرك لعشرة خلايا نائمة، وخطط لهجومين – قاد أحدهما – على مولات للتسوق، فقتل 317 شخصًا. وقد جرى قتل أو اعتقال معظم معاونيه، لكنه تمكن من الفرار من الولايات المتحدة، فقط كي يجد نفسه الآن غير مرحب به في تلك الممالك والديمقراطيات الزائفة التي وفرت له ذات يوم ملاذًا آمنًا حين احتاج إليهم.

كان قد جرى الدفع بكل من باكس وداني وغيب وبيري لتحقيق العدالة، التي لم تكن تتطلب وجود قاضٍ وهيئة محلفين في هذه الحالة. وبما أنهم يتواجدون داخل البلدة الآن، فقد كانوا حريصين على إنجاز المهمة والعودة إلى الوطن، وقد نفد صبرهم من ضرورة التخفي حتى تكشف الأهداف عن نفسها، بدلاً من الخروج بحثًا عنها.

في وقت لاحق من النهار – على مسافة نصف شارع فقط – ظهر رجل على السطح المسوّر لبناية من طابقين تقع عند الجهة الأبعد من الشارع. ومع أنه كان يرتدي لباسًا باللون الرمادي كي يتماشى مع الحديد المحيط به، إلا أن أسلوب تخفيه كان مثيرًا للشفقة. كان يعلق منظارًا حول عنقه. وقد أنزل الرجال الأربعة نظارات المراقبة الميدانية واختفوا عن الأنظار.

رفع بيري إحدى الكاميرات على حاملها، فكانت بالكاد ترتفع عن الجدار. كانت الآلة صغيرة جدًا، مما يقلل من خطر رؤيتهم من قبل حارس

المراقبة. وقد تمدد كل من باكس وبيري وبينهما الشاشة، وهما يشاهدان صورة واضحة للإرهابي. لم يكن ذلك الشخص هو عبد الله، وإنما كان أحد مساعديه. أشعل الرجل سيجارة وسحب منها نفسين قبل أن يرفع المنظار لمراقبة هذا المكان المدمر الذي استخدمه هو ورفاقه كجحر للاختباء.

بعد تنصيب كاميرا ثانية، تحلق كل من غيب وداني حول شاشتها. كان الرجال الأربعة يتابعون المشهد، ويحللون سلوك المدخن، وهو ما يعتبر أفضل من قيام اثنين فقط بالمراقبة؛ فقد يرى كل واحد منهم شيئًا مهمًا لم يلاحظه الآخرون. في بادئ الأمر، اعتقد باكس أن الرجال الستة يشعرون بالأمان كلما ظهر أحدهم كل حين لإجراء مسح سريع للبلدة. وربما تبدد تأثير المخدر الذي يتعاطونه، الذي كانِ تناوله شائعًا بين الأشخاص الذين لا يشربون الكحوليات. إن القتل الجماعي عمل مجهد، لذا فقد كان لزامًا عليهم تهدئة أعصابهم بشكل ما.

ثلاثمائة وسبعة عشر متسوقًا، وعشرة آلاف ضحية. عندما كان معمر القذافي يحكم ليبيا، أجرى الشبح مقابلة مع قناة تلفزيونية أميركية من الفيلا الخاصة به هناك، حيث صرح قائلاً – إلى جانب التخاريف الدعائية المعتادة – إنه يمتلك مجموعة صغيرة من الرؤوس المقطوعة في إحدى مقرات سكنه. وقد أعلن بطريقته الساخرة أن تلك الرؤوس كانت مثل الكتب الموضوعة على أحد الأرفف، فكل منها تحمل في طياتها قصة. وتمنى أن تكون لديه مكتبة كبيرة بما يكفي لاستيعاب عشرة آلاف رأس.

طوال اليوم، فكر باكس في بيبي وهو يشعر بالقلق عليها، ويتساءل عن صورتها الواضحة التي سيطرت على عقله في الليلة السابقة. لكنها تراجعت الآن إلى ركن خلفي لأفكاره.

كان هناك مهمة يجب إنجازها. ولسوف ينجزها هو ورجاله بالشكل المطلوب وبرضاً كبير.

-31-
جنون مفاجئ

لـم يعـرف كل من نانسـي وميرفي هل يتعيـن عليهما الضحك أم البكاء، ومثلما جرت العادة عندما يتملكهما تضارب في المشاعر، فقد فعلا الشيئين، متنقليـن بيـن هـذا وذاك مـرارًا وتكـرارًا؛ فمـن البـكاء فرحًـا إلى بكاء شـديد يكفي لريّ حديقة خوفًا مما جرى. وقد جعلا من نفسـيهما فرجة في حجرة المستشفى إلى الحد الذي جعل ممرضة تدخل وتطلب منهما بأدب أن يتذكرا أن المرضى الآخرين في حاجة إلى الهدوء والسلام.

بمجرد أن حصلت بيبي على الأوراق التي تسمح لها بالمغادرة، رافقها والداهـا علـى طـول الـرواق، وداخـل المصعد، وفي البهو في الأسـفل، وفي الخـارج صـوب موقـف السـيارات، وكان كلاهما يتحدثان فـي نفس الوقت. كانت لديهما آلاف الاستفسـارات، وقد رغبا في سـماع كل ما جرى، لكنهما عجزا عن كبح نفسيهما عن مقاطعتها بالأحضان والقبلات وصيحات الفرح. كان بعض كلامهما بلغة المتزلجين على المياه مثل «رائع، اللعنة، هذا مدهش تمامًا، يا له من يوم رائع، عجيب» وهو ما بدا لأول مرة غريبًا وهما ينطقانه، وكأن مغازلة ابنتهما للموت جعلتهما تواقين للعودة إلى أيام الشباب مجددًا.

كان مـن الـلازم أن يكـون العشـاء خاصًـا وذو أجـواء احتفالية، فهي ليلة ستخلّد في الذاكرة إلى الأبد، واحتفال صاخب بتحقق المستحيل. كانت بيبي تدرك تمامًا معنى ذلك؛ أفضل تجميعة جبنة مكسيكية مع لحم البرغر، حيث تغمـر الجبنـة كل المكونـات وتكون التوابل حارة جدًا، مع وجود الكثير جدًا مـن زجاجـات الكورونـا المثلجة والتاكيلا. لكنها سـايرت الخطة لأنها كانت

جائعة وسعيدة وما تزال في حالة صدمة من هول ما حدث ولحبها الشديد لوالديها. لطالما كانا لطيفين ومرحين ولم يدمنا شرب الكحوليات، وإنما كانت حاضرة في المناسبات الخاصة مرة في الشهر أو نحو ذلك.

همست نانسي في أذن ميرفي وقت العشاء ونهضت عن الطاولة لعشرة دقائق. وعندما عادت - والبسمة تعلو محياها - همس ميرفي في أذن نانسي، ثم غاب هو الآخر عشرة دقائق. كان جليًا أنهما يتآمران على شيء ما، وكانت بيبي متحمسة قليلاً لمعرفة ما يكون. كانا كريمين وذكيين، لكن المشاعر الجياشة والإفراط في شرب الجعة قد يشكل تجميعة سيئة حفزتهم بين حين وآخر لمفاجأة ابنتهما بهدية غير لائقة.

فاحتفالاً بنشر رواية بيبي الأولى، كانا قد أهداها نمرًا صغيرًا، وهو ما بدا منطقيًا بالنسبة إليهم لأن إحدى القطط الكبيرة كانت إحدى شخصيات الكتاب الرئيسية. لكنها اتصلت بالسلطات المختصة برعاية الحيوانات، وتظاهرت بأنها قد عثرت على الشبل في الحديقة، وتأكدت من أن الصغير قد أودع في ملجأ للحيوانات الدخيلة من الدرجة الأولى.

لم تكن ترغب في نمر آخر أو - لا سمح الله - فيل، لكنها التزمت الصمت لأنه لن يوقفهما شيء ما إن يتفقا على «الهدية المثالية». كان بمقدور والديها دفعك إلى الجنون عندما لا تتوقع ذلك أبدًا.

شربت بيبي القليل من البيرة، لكنها لم تذق التاكيلا على الرغم من تظاهرها أمام نانسي وميرفي أنها تجاريهما. وقد أصرت على أنه ليس بمقدورهما إيصالها إلى شقتها، وإنما ستقلهم هي إلى بيتهما، وستعيد سيارتهما البي إم دبليو صباحًا. تشبثا ببعضهما في المقعد الخلفي مثل المراهقين.

عند المنزل الواقع في كورونا ديل مار، كانت محاولتهما للفكاك من بعضهما والنزول من السيارة تستحق أن تقارن بإحدى عروض سيرك Ringling Bros التي انطوت على محاولة الترجل من عربة شكلها مضحك تشبه في حجمها آلة جز العشب. توقفت نانسي أثناء العرض لتقول «عندما تعودين

إلى المنزل يا ملاكي الصغير، امضي مع الأمر».

«أمضي مع ماذا؟»

قال والدها وهو يبتسم «سترين».

«رباه، لا. لم أعتقد أن هذا سيكون الليلة»

طمأنها ميرفي بالقول «إنه ما تحتاجينه بالضبط»

«ما أحتاج إليه يا أبي هو دش ساخن ثم النوم»

«اسمها كاليدا باترفلاي»

«اسم من؟»

أغلق ميرفي باب السيارة وانحنى هو ونانسي إلى الأسفل للابتسام إلى بيبي عبر نافذة مقعد الركاب الأمامي. وقد لوّح كلاهما وأرسلا قبلات في الهواء، وكأنها لم تكن تحتضر قبلها بيوم، أو وكأنها في الثامنة عشر وستغادر إلى الجامعة. لا مفرّ مما هو مقدر، وقد اتضح أن ما كان مقرًا هو معجزة من نوع ما. وحتى إذا كان هذا التغير في الأحداث نحو الأفضل يبدو مستحيلاً ولا يمكن تفسيره، فإن كلاً من ميرفي ونانسي سيلقيان كل ما مرا به من قلق وتوتر خلفهما بحلول الصباح، ولن يهدرا طاقتهما العقلية في التساؤل حول كيف أو ماذا لو. وسيجلبان لوحيهما ويغزوان الشاطئ - إن جاز التعبير - وسيحترمان القدر بتجاهله إلى أن يصدمهما الشيء التالي الذي سيكون مثلما يشاء القدر.

في طريق عودتها إلى شقتها، ذكّرت بيبي نفسها مرارًا أنه - بعد أن أُخذت منها تذكرة العبور وهي تنتظر على ضفاف نهر ستيكس[1] - يتعين عليها أن تكون ممتنة لكل شهيق وأن تتقبل أي شيء يثير الانزعاج والغضب. لكن القول أسهل من الفعل عندما يتعلق الأمر بشيء ما يسمى كاليدا باترفلاي ينتظرك بما تحتاج إليه بالضبط.

ركنت السيارة في أحد مكانين محجوزان لشقتها وأطفأت الأنوار الأمامية، ولكن لم تطفئ المحرك. فكرت في إنزال النوافذ بمقدار بوصة

(1) نهر يفصل بين عالم الأحياء والأموات في الميثولوجيا الإغريقية

لتوفير التهوية، والنوم في السيارة. كان هذا تفكيرًا طفوليًا، على الرغم من أنها لم تتصرف مثل الأطفال في معظم صباها. أطفأت المحرك، لكنها لم تكن راضية عن تفكيرها الناضج.

في الفناء الخاص بمجمع الشقق - في وسط سكون الليل - كانت أشجار النخيل ونباتات السرخس تقف بلا حراك مثل نباتات في مشهد ثلاثي الأبعاد. وقد علت سحب الدخان من حمام السباحة الساخن وذي الإضاءة الغريبة، وقد سبح شاب نحيف مثل سمك السلمون بأقل مجهود يذكر لدرجة أنه بالكاد كان يصدر صوتًا أثناء تحريك ذراعيه في الماء.

صعدت بيبي السلم الحديدي المفتوح - وهي تحمل حقيبتها وحاسوبها - نحو الشرفة الكبيرة المشتركة بين الوحدات السكنية الكائنة في الطابق الثالث. وعندما وصلت إلى باب شقتها، وجدته مفتوحًا عن آخره. وخلف المدخل والبهو الفارغ، استقرت باقات زاهية من الورود البيضاء والحمراء في حجرة المعيشة، وكأن هناك حفل زفاف على وشك أن يبدأ، وقد غمر ضوء الشموع التي وُضعت في أكواب زجاجية كل سطح لم توضع عليه مزهرية للورود.

عندما وقفت مترددة في البهو، ظهرت امرأة في زاوية الرؤية من الناحية اليمنى. كانت ترتدي نعالاً بيضاء مسطحة، وسروالاً أبيض، وقميصًا أبيض بكمين قصيرين. وكان من الممكن الاعتقاد أنها أخصائية علاج طبيعي أو مساعدة طبيب أسنان لولا الوشاح الحريري الأزرق الذي ارتدته كحزام، والوشاح الحريري الذهبي المزين بنجمة زرقاء الذي وضعته حول عنقها، والأقراط الفضية المتدلية - كان يتدلى من كل أذن ثلاثة حلقات بأحجام مختلفة - وسلاسل تبدو ثمينة وخواتم أصابع كثيرة. كانت أشبه بالمحاربات الأمازونيات. فطولها يتراوح بين متر وثمانية وسبعين ومتر وثلاثة وثمانين سنتيمترًا. كانت ضخمة البنية ولكن تتمتع بالأنوثة، مع وجه يذكر المرء بغريتا غاربو إذا ما بدت الأخيرة أشبه بنيكول كدمان قليلاً. كانت في العقد الرابع

تقريبًا، مع بشـرة نظيفة وناعمة، وشـعر أشـقر بتسريحة رسمية، وعينان باللون الأزرق أو الأخضر أو الفضي–الرمادي اعتمادًا على الكيفية التي انعكس بها ضوء الشموع عليها.

قالت بصوت أجش وموسـيقي «أنا كلوديا باترفلاي. مرحبًا بكِ في أول يوم من حياتكِ الجديدة».

باسـتثناء أن والديهـا كانـا محافظيـن في بعض الأمور أكثـر مما يدركان، وباسـتثناء أن ثقافـة التزلـج علـى الميـاه التحررية التي أحباها لـم تكن لتتسـع للعلاقات الرومانسـية بين نفس الجنس، فلعل بيبي كانت سـتظن أن هديتهم لها سيتضح أنها أول تجاربها في العلاقات المثلية.

لكن الأمر كان بخلاف ذلك بكل تأكيد. فهي على وشك أن تعرف سبب نجاتها من سرطان المخ.

-2-

فتاة لديها مهمة،

فتاة في رحلة هرب

-32-

سولانج سانت كرويكس وتأثير الفراشة

سافرت كاليدا باترفلاي وهي تحمل طاولة للتدليك قابلة للطي وحقيبة مصنوعة من جلد النعام. تميزت الحقيبة بجزئين منفصلين وكان بالإمكان فتحها من كلا الاتجاهين. وقد احتوى نصفها على مستحضرات للغسل وزيوت وأغراض خاصة بالتدليك. أما النصف الآخر، فقد احتوى على أغراض كانت تحتاجها في مهنتها الثانية، التي رفضت الكشف عنها حتى تنتهي من تدليك عضلات بيبي المشدودة والمتوترة.

قالت كاليدا «إذا كنتِ تفكرين فيما سيحدث تاليًا، فلن تجني الفائدة من التدليك بشكل كامل».

فردت بيبي بالقول «إذا كنتُ أتساءل عما هو آتٍ ولماذا أنتِ شديدة الغموض، فلن يجعلني ذلك أسترخي أيضًا».

«بما أنكِ روائية، أعتقد أنكِ معتادة على أن تكوني متسلطة نوعًا ما، فأنتِ تأمرين شخصيات قصصكِ بما يتوجب عليهم فعله».

قالت بيبي «لا يسير الأمر بهذا الشكل».

فقالت باترفلاي «جيد. لا يسير الأمر بهذا الشكل بالنسبة إليّ أيضًا». ثم أضافت بعد أن خلعت خواتمها وأساورها «تمددي الآن وكوني فتاة مطيعة».

بينما كانت تغطي ثدييها بمنشفة وترتدي سروالاً داخليًا فقط، فعلت بيبي مثلما قيل لها. وقد تبدد خجلها سريعًا بسبب سلوك كاليدا الجاد والودود. بقي القليل من التوتر، لكنها كانت تجهل سببه؛ لعله كان بقايا آثار الخوف من السرطان، والمخاوف الكامنة التي لم تعد في حاجة إلى القلق منها.

كانت الطاولة تحتوي على فاصل للوجه، لذا فقد كانت تنظر إلى سجادة حجرة الجلوس، حيث تدفق انعكاس أضواء الشموع وتموج مثل الماء. «هل أنتِ من جلب كل الشموع والورود؟» سألتها بيبي وهي تنتظر بدأها بالتدليك.

«رباه، لا. لقد طلب والداك مني إيصالها في آخر دقيقة. يمكنني إنجاز أي شيء إذا طُلب مني قبلها بساعتين».

قالت بيبي «كيف تفعلين ذلك؟»

فردت كاليدا بالقول «لدي مصادري التي تمنحني المعلومات المناسبة. الآن اصمتي».

شغلت كاليدا جهاز آيبود، فبدأ إسرائيل كاماكاوايو أولي – الذي كان صوته أحد أعذب الأصوات التي سُجلت قط – يشدو بلحن مختلط لطيف لأغنيتي «في مكان ما فوق قوس القزح» و«يا له من عالم رائع».

سألتها بيبي «كيف دخلتِ إلى هنا؟»

فقالت كاليدا «تملك والدتكِ مفتاحًا إضافيًا، صحيح؟ لقد وضعته في مظروف وتركته مع النادلة في المطعم. فأخذته منها».

بعد ثوانٍ معدودة من اللمسة الأولى، أدركت بيبي أن كاليدا باترفلاي تمتلك يدين سحريتين. سألتها «أين تعلمتِ هذا؟»

ردت الآخرى «ألا تصمتين أبدًا يا فتاة؟ الزمي الصمت وحلّقي فقط».

فقالت بيبي «أحلّق إلى أين؟»

قالت باترفلاي «إلى أي مكان، أو إلى عالم مجهول. هدوء الآن، وإلا كممتُ فمكِ بشريط لاصق».

تحدتها بيبي «لن تجرؤي»

فقالت باترفلاي «لا تختبريني، فأنا لستُ مدلكتكِ المعتادة»

على الرغم من شعورها بالقليل من التوتر، سايرت بيبي البرنامج. وقد أثارت خيوط ضوء الشموع الذهبية والمتموجة على السجادة رغبتها في النوم. وما إن بدأت تحلّق بمخيلتها، تساءلت عما إذا كانت المرأة التي تدلك

جسدها في الواقع هي كاليدا باترفلاي، أم أن أحدهم قد ألحق الأذى بكاليدا الحقيقية - أو قام بقتلها حتى - وأخذ مكانها حتى...

حتى ماذا؟ كلا. إن تغيرًا في الأحداث كهذا هو خيال روائي فقير، وحبكة غامضة سيئة. أو فيلم رعب له موسيقى تصويرية صاخبة وتقوم ببطولته فنانة شابة تقلد جامي لي كيرتس.

على وقع ضوء الشموع الهادر والمتموج، والموسيقي، ويدا كاليدا السحريتين، سرعان ما حلّقت بيبي مجددًا؛ حلّقت إلى أي مكان، نحو العالم المجهول.

كان المكان هو ممر سريع للخروج في سوق جيلسون، بعد سبعة أشهر من تركها الجامعة.

شعرت بيبي بالحيرة من أن الذكريات التي تتضمن الدكتورة سولانج سانت كرويكس - مع أنها ماضٍ وانتهى - قد باغتتها مرتين خلال يومين.

بعد ظهر ذلك اليوم قبل ثلاث سنوات، توقفت لدى السوق لشراء الخسّ، والقليل من الطماطم الطازجة، والفجل والكرفس. كانت تحمل كل شيء في سلة، حين لاحظت أن أستاذتها السابقة تقف في آخر صف الخروج.

كان رد فعلها الأول هو التراجع، وتفقّد بعض الأرفف على الرغم من أنها لم تعد تحتاج إلى شيء آخر. قررت أن تهدر ما يكفي من الوقت حتى تنتهي الأم المقدسة لبرنامج الكتابة في الجامعة من شراء حاجياتها والمغادرة. كانت المواجهة التي خاضتها مع المرأة في ذلك المكتب المتواضع ذي الأرفف الخاوية قد تركت جرحًا كبيرًا في كبرياء بيبي. لطالما دافعت عن نفسها، ولم تكابر قط دون سبب وجيه، لكنها في تلك المرة تقهقرت من الخوف الشديد، وشعرت بالصدمة والارتباك والتوتر بسبب غضب البروفيسورة غير المفهوم. وإذا انسحبت الآن واختبأت في قسم المخبوزات، فستعاني من ضربة ثانية لكبريائها، وهذه المرة ستكون مستحقة عن سابقتها.

ولكن تحريًا للصدق، كان هناك بديل آخر. فخلال الشهور السبعة التي

انقضت منذ تركها الجامعة وعيشها مع والديها، كانت بيبي قد ألّفت ستة قصص قصيرة؛ ثلاثة منها حصلت على موافقة بالنشر من قبل دوريات أدبية هي The Antioch Review وGranta وPrairie Schooner. وكان القبول بنشر هذا الإنتاج الغزير أمرًا مدهشًا بالنسبة إلى كاتبة لم تبلغ التاسعة عشر من العمر بعد. وفي إحدى جوانب قلبها الصغير، أخفت بيبي رغبة تافهة بمشاركة نجاحها مع أستاذتها السابقة.

وقفت في الصف خلف هدفها، وهي تخبر نفسها بألا تفرض اللحظة، وبأن تنتظر حتى تلاحظها المرأة. لن تتحدث بغطرسة عندما تكشف عن كنزها. وستبذل كل ما في وسعها حتى تبدو صادقة عندما توجه الشكر إلى البروفيسورة على كل ما تعلمته في تلك الأشهر، وكأن الطرد من الجامعة كان خدمة جليلة أيقظتها من غفلتها عن نقائصها، ووضع يدها على حاستها الأدبية. ستتحدث بتواضع شديد وإحساس صادق مما سيجعل سولانج سانت كرويكس عاجزة عن الكلام.

احتوت سلة البروفيسورة على تسعة أغراض، وعندما حان دورها عند حزام نقل البضائع المشتراة، استدارت إلى اليسار لتفريغ مشترياتها، فرأت بيبي بطرف عينها واستدارت كي تواجهها وهي تتظاهر بالاندهاش.

بدا أن المرأة ترتدي نفس الزي الذي ارتدته في مكتبها في ذلك اليوم عندما نفثت سمومها؛ إذ كانت ترتدي بذلة نسائية مفصلة بشكل سيء وقميصًا باللونين الرمادي والأخضر مثل أعشاب البحر الميتة. وكان شعرها الأشيب مسرحًا على هيئة كعكة، ووجهها يخلو من الزينة، وكانت عيناها الزرقاوان باردتين بما يكفي لتجميد خصمها إذا دخلت في عراك مع قنديل بحر أسطوري.

قبل أن تتمكن بيبي من نطق أي كلمة، قالت البروفيسورة «أيتها العاهرة الصغيرة الجريئة» فتطاير البصاق مع كل كلمة، وتملك وجهها ما بدا أنه غضب وخوف. «تتبعينني وتتلصصين عليّ». وقبل أن تتمكن بيبي من نفي

التهمة، عاجلتها المرأة بالقول «سأطلب الشرطة لكِ، لا تحسبي أنني لن أفعل، وسأحصل على أمر بتقييد الحركة، أيتها المجنونة.....». وفي وسط عاصفة القدح التي هبت، استخدمت ألفاظًا نابية غير مرة، وكان من المستحيل القول ما إذا كان الغضب أم الهلع الشديد هو من له الغلبة في السيطرة على مشاعرها. قالت البروفيسورة «أبعدوا هذه الفتاة عني، ليساعدني أحدكم ويبعدها عني».

وقف ثلاثة متسوقين في الصف خلف بيبي، مما جعل تقهقرها تصرفًا غير لائق أكثر مما تريد. لعلهم عرفوا من تكون البروفيسورة المرموقة أو لعلها بدت هشة للغاية وأشبه بالأرملة إلى الحد الذي جعلهم يتعاطفون معها على الرغم من لغتها البذيئة. من ناحية أخرى، حملق الزبائن والمحاسبون والعاملون في بيبي وهم فاغرين أفواههم، وكأنها قد ارتكبت جريمة ضد السيدة العجوز قليلة الحيلة إلى الحد الذي يجعلها في نظرهم – على الرغم من أن أيًا منهم لم يشهد الواقعة – فتاة شريرة إلى أقصى حد. ومع استمرار سانت كرويكس في طلب المساعدة وتحذير الجميع من مهاجمتها الخطرة، شقّت بيبي طريقها بين المتسوقين خلفها في الصف وانعطفت يسارًا، ثم عبرت مقدمة المتجر. وبينما كانت تشعر بالهلع والخزي، كانت تجهل إلى أين هي ذاهبة، إلى أن وضعت سلة الخضروات على إعلان لكوكاكولا، وقالت «المعذرة» لأم شابة وطفلها اصطدمت بهما، وتوجهت إلى أقرب مخرج.

كان هذا تحليقًا زائدًا.

قالت كاليدا باترفلاي «لقد توترتِ فجأة».

ردت بيبي بالقول «ذكرى سيئة فحسب».

«إنهم الرجال» قالت المدلكة في افتراض خاطئ. وأضافت «لا يمكننا فعل شيء معهم سوى قتلهم، لو كان هذا قانونيًا».

لم تذهب بيبي إلى متجر جيلسون ثانية منذ عام، على الرغم من أنه متجرها المفضل. وحتى اليوم، كانت تتخيل بين حين وآخر أن أحد العاملين قد تعرّف عليها، لذا بقيت بعيدًا عن المتجر تحريًا للسلامة.

لم تقابل الدكتورة سولانج سانت كرويكس منذ ذلك الحين. وأملت ألا تراها ثانية قط. ولأنها كانت تجهل السـبب وراء تصرف البروفيسـورة الشـاذ، قررت بيبي أن الأخيرة تعاني من الأعراض المبكرة لمرض الزهايمر.

حرك تيار هواء لهب الشموع للحظات، فانتشرت أشعة الضوء الكهرماني اللطيف عبر الحجرة، حاملاً عبق الورود الجميل. أخذت بيبي أنفاسًـا طويلة ببطء عبر فتحة الوجه في طاولة التدليك.

قالـت كاليـدا «هـذا أفضـل بكثير». ثم قالت بعدها بدقائق «لقد انتهينا من هذا الجزء يا فتاة. الآن دعينا نكتشف سبب نجاتكِ من سرطان الدماغ».

-33-

انتظار الأشخاص الخطأ

بعد أن ارتدت ملابسـها بالكامل – وهي تشـعر بإجهاد لطيف – فتحت بيبي زجاجة جعة، وصبّت منها لشخصين، وجلبت الكأسين إلى طاولة الأكل المطلية بالكروم والتي صُنع سطحها من خشب الفورمايكا الأحمر.

كانت كاليدا باترفلاي قد نقلت بعض الشموع من حجرة المعيشة وقامت بتوزيعها على الطاولة والمنضدات لتوفير المزاج الملائم للشيء الثاني الذي جرى استئجارها لفعله.

كانـت تضـع حقيبتهـا المصنوعـة مـن جلـد النعـام على أحد الكراسـي المصنوعة من الفينيل باللونين الأسود والكروم. قالت كاليدا «هل تعرفين ما هو قراءة الطالع؟»

فقالت بيبي «التنبؤ بالمستقبل».

فردت كاليدا قائلة «ليس بالضبط. إنه أيضًا أداة لكشف المعرفة المخفية باستخدام وسائل خارقة للطبيعة».

سألتها بيبي «ما هي المعرفة المخفية؟»

«أي معرفـة مخفيـة» قالـت كاليـدا وهي تفتح النصـف الثاني من حقيبتها الذي لم يحتوي على أغراض تخص العلاج بالتدليك.

قالت بيبي «لست من المؤمنين باستشراف المستقبل وما شابه».

لم تشعر كاليدا بالإهانة، وإنما قالت بابتهاج «لا بأس، فليس من اللازم الإيمان به حتى يكون حقيقيًا».

رأت بيبي – من بين أغراض أخرى في الحقيبة – مسدسًـا من طراز Sig

Sauer P220 أو ربما من طراز P226. وقد تعرفت على السلاح لأن الأخير – الذي يستخدم مقذوفًا قطره تسعة ملليمتر – هو السلاح القياسي الذي يحصل عليه أفراد القوات الخاصة. كان باكستون قد اشترى سلاحًا من طراز P220، لأنه يستخدم مقذوفًا قطره 45 ملليمتر، وهو على الأرجح قادر على إحداث إصابة بالغة في الأشرار إذا استُخدم من مسافة قريبة. وكان كلا المسدسين يختلفان عن بعضهما تمامًا.

كانت بيبي تمتلك سلاحها الخاص من طراز P226، وقد علمها باكستون كيف تستخدمه. وكانت قد حصلت عليه كهدية خطوبة.

بدأ شعور عدم الارتياح – الذي تخلصت منه بيبي سابقًا – حيال كاليدا يزداد مجددًا. سألتها «لماذا تحملين مسدسًا؟»

أخرجت كاليدا المسدس من الحقيبة ووضعته على الطاولة. قالت «تخلق عملية قراءة الطالع ما يكافئ الموجة الزلزالية أو موجات الصدمة من الناحية النفسية. والغالبية العظمى من الناس لا يمكنها الشعور بها أو لا يدركون ما الذي يشعرون به. لكن هناك أشخاص بعينهم يمكنهم الشعور بها، وأحيانًا تحديد مصدرها».

«أي أشخاص هؤلاء؟» سألتها بيبي.

فردّت كاليدا «الأشحاص الخطأ. هذا كل ما تحتاجين إلى معرفته. وغالبًا ما يتركونني وشأني. فقد تعلموا أنه من الأفضل عدم العبث مع كاليدا باترفلاي».

ولأن غريبي الأطوار وتفاصيل هوسهم كانت مادة جيدة لعمل أدبي خيالي، فقد كانت بيبي صادقة في اهتمامها حين سألت «هل لديكِ طلقات فضية في المسدس؟»

أخرجت كاليدا من الحقيبة زجاجة كحول مختمر، ولفة صغيرة من الشاش قطرها بوصة واحدة، ولفة شريط لاصق يستخدم لمرة واحدة، ثم قالت «لم أحسب أنكِ نوع الكتّاب الذين قد يقفزون إلى استنتاج سخيف

كهذا. فالرصاص الأمريكي التقليدي سيفي بالغرض».

جلست بيبي على أحد الكراسي وهي تمسك بكأس الجعة بكلتا اليدين. سألتها «ما اسمكِ الحقيقي؟»

فردّت «صدّقي أو لا تصدّقي، كاليدا باترفلاي».

قالت بيبي «سأصدق اسم كاليدا، ولكن ماذا كنتِ قبل باترفلاي؟»

قالت كاليدا «حسنًا، لقد أوقعتِ بي، ها قد كُشف أمري. قبل أن أكون كاليدا باترفلاي (فراشة)، كنت بلا ريب كاليدا كاتربيلر (يرقة)».

وضعت المدلكة وقارئة الطالع علبة صغيرة – يزيد حجمها ضعفين على دفتر الثّقاب – بجوار زجاجة الكحول المختمر ثم عبثت في الحقيبة مجددًا. مدّت بيبي يدها عبر الطاولة، وأمسكت بالمادة الجديدة؛ علبة إبر للخياطة من أحجام مختلفة.

قالت بيبي – بعد أن أعادت العلبة إلى مكانها – «ماذا ستحيكين؟»

ردّت كاليدا قائلة «اللحم».

أثارت إجابتها تساؤلاً آخر، لكن بيبي لم تطرحه. كان جليًا أن جلسة قراءة البخت – على الرغم من عدم جدواها – تعد بالقليل من المرح. ولكن مع مرور الوقت، ازداد الغموض وأصبحت الأجواء أكثر قتامة. كان كل من نانسي وميرفي قد تورطا مع أشخاص غرباء عبر السنوات، إلا أنهم في الغالب كانوا رفاق تزلج مسالمين ممن لاحقتهم وأسقطتهم وغسلتهم العديد من الأمواج العاتية حتى فقدوا رشدهم. لم تبدُ كاليدا مجنونة بشكل خطير، بيد أنها لم تبدُ سريعة التأثر مثل بكرة الخيط أيضًا.

كان آخر ما أخرجته من الحقيبة هو قطعة مطوية من القماش المصنوع من القطن الأبيض، ووعاء فضيّ، وكيس من الفلانيلا بداخله محتويات أصدرت صوت خشخشة بسيط عندما وضعته أرضًا.

قالت بيبي «لم أكن أدري أنّ والداي مقتنعان بأمور كهذه. أعني، لم يرغبا قط في التفكير في المستقبل. تعلمين؟ منطقهم هو «لا مفرّ مما هو مقدّر».

جلست كاليدا وقد أمسكت بالكأس، ثم صبت نصفه في حنجرتها وكأنها تتحاشى تذوق طعمه، ثم قالت «مثلما ذكرتُ، قراءة الطالع ليست مجرد تنبؤ بالمستقبل».

فقالـت بيبـي «هـذا صحيح. الغـرض منه أيضًا هو الكشـف عن المعرفة المخفية باستخدام وسائل خارقة للطبيعة. ما المعرفة التي أراد والداي الكشف عنها؟»

قالـت كاليـدا «أنـتِ فتاة لطيفة، لكنكِ متطفلة. ما كنتُ لأشـارك خبراتي مع العملاء مثلما لا يكشف القسيس عما اعترف به أحدهم».

شعرت بيبي أنها قد وُبخت، ولكن ليس إلى درجة الإحراج. قالت «متى بدأتِ العمل في تجارة قراءة الطالع هذه؟»

بدلاً من أن تجيب، أكملت كاليدا كأس الجعة في شـربة واحدة طويلة، ثـم وضعـت الـكأس الفارغ وقابلـت نظرات بيبي وبدت أنها ترغب في معرفة إلى متى سـتتحمل عميلتها الصمت بينهما. داعب ضوء الشـموع وجهها بلا هوادة، وكأنه يحاول إزالة الظلال التي تحجب جزءًا منه. قبل حين، بدا أن لو عينيها يتقلب، اعتمادًا على الزاوية التي سـقط بها الضوء عليهما، لكنها الآن ثبتـت علـى اللـون الأخضر، وامتـلأت بالخطوط مما جعل بيبـي تتذكر عيني النمر الصغير الذي كان والداها قد أهدوها إياه.

بعد أن أخذت الزجاجة وأعادت ملء كأسـها، أجابت كاليدا أخيرًا على السـؤال. قالت «بدأت قبل اثنين وعشـرين عامًا. كنتُ في السادسـة عشَـر من العمر. وكانت والدتي هي من علمتني».

«ما اسم والدتك؟» سألتها بيبي.

قالت «تاليا. تاليا باترفلاي».

فقالت بيبي «باترفلاي الأم وباترفلاي الإبنة. إنها شراكة بين قارئتي طالع إذًا، مثل اشتراك أم وابنتها في مكتب للمحاماة أو ما شابه».

قالـت كاليـدا «لقـد توفيـت والدتي قبل اثنتا عشـرة عامًا، ولـم تكن ميتة سهلة حتى».

علـى الرغـم مـن أن بيبـي لم تعرف ما الذي يتعيـن عليها تصديقه، لكنها شعرت رغم ذلك بالضيق بسبب وقاحتها. قالت «آسفة. ماذا جرى؟»

فقالـت كاليـدا «ذات ليلـة، وبعد جلسـة كهذه، ظهر الأشـخاص الخطأ. قاموا بتعذيبها وتقطيع أوصالها. إذا كنتِ تعتقدين أن هذه مجرد قصة، يمكنكِ التحقق منها عبر الإنترنت. لم يجري حل لغز الجريمة قط».

-34-
عين الإبرة

يعرف الـAstrgalomancy بأنه وسيلة لاستشراف المستقبل أو تعلم المعرفة المخفية بقذف مكعبات النرد. وقد اعتاد العرّافون على إلقاء الشمع الذائب في الماء المثلج وتفسير الأشكال الناتجة. أما الـHolamancy (وهي كلمة مشتقة من كلمتي Halo وتعني الملح، وManteia وتعني قراءة الطالع باليونانية) فيعني قراءة الأشكال الناتجة من قذف حفنة من الملح على سطح منبسط. ويسعى العرّاف للحصول على إجابات عبر التواصل مع الموتى.

عندما سحبت كاليدا رباط حقيبة الفلانيل الصغيرة ونثرت أشكال الحروف المألوفة على طاولة الطعام، قالت «لقد ابتكرت أمي وأنجزت فن قراءة الطالع عبر الحروف Scrabblemancy».

كادت بيبي أن تنفجر ضاحكة، لكنها تذكرت حادثة القتل المروع وقطع الأوصال التي تعتزم البحث عنها على الإنترنت. ابتلعت الضحكة وأخذت فوقها رشفة من الجعة بعد أن كادت أن تهين ضيفتها. حتى في الأمور الغامضة والسخيفة مثل قراءة الطالع، يمكن للمرء أن يلتقي صدفة بشخص مختل ويصبح عرضة لغضبه. في الواقع، كلما كان موضع اهتمامك مثمرًا واستثنائيًا، زادت احتمالية أن يتقاطع سبيلك مع الأشخاص الذين يفتقرون إلى الوازع الأخلاقي ويميلون إلى العنف ويهيمون بحثًا عن فرصة لارتكاب جريمة. إلى جانب ذلك، لم ترغب بيبي في جرح مشاعر كاليدا.

قالت كاليدا «قيل لنا إنّ الخلق بدأ بكلمة، وأن العالم – الكون بأسره – قد أتى إلى الوجود بكلمة كُن. ولهذا، فقد خمنت والدتي أن أفضل أداة

يمكن للعرّافة استخدامها هي الكلمات، وليس أحشاء الإنسان أو الخطوط المرسومة في راحة الكف أو حفنة من الملح يجري نثرها على الطاولة، وإنما الكلمات. وإذا كانت الكلمة هي أول ما وُجد قبل أي نوع من المواد - قبل الشموس والعوالم والبحار والبشر وقارئي الطالع - فلا بدّ أن الأبجدية قد ظهرت قبلها حتى تتشكل الكلمات. وهكذا، فإن الكلمات أكثر صدقًا وقوة من أي شيء يمكن للعرّافة استخدامه لإجبار أسرار الكون على الظهور إلى العلن. سأطرح عليكِ سؤالاً الآن يا بيبي بلير، ويلزم عليكِ الإجابة بصدق وصراحة، لأنني سأعقد الجلسة بطرق مختلفة استنادًا إلى ردك. هل ترين أن قراءة الطالع عبر الكلمات شيء منطقي...لا أسألكِ إن كنتِ تؤمنين بنجاعة هذا أم لا، وإنما هل يبدو منطقيًا، وإلى أي درجة؟»

عندما اقتربت كاليدا من الطاولة، ومالت برأسها صوب بيبي، لمع شعرها الأشقر من الأمام واشتعل قليلاً عند جانبي وجهها - مثل الأجنحة الذهبية، وكانت عيناها الثاقبتين كالصقر والحادتين كالوحش المفترس تثيران القلق. وبقدرما أرادت بيبي أن تحب هذه المرأة، فإن لحظات كهذه جعلتها تشعر أنهما قد وُلدتا في عالمين مختلفين ولا يمكنهما الارتباط ببعضهما البعض.

«هل تبدو هذه النظرية منطقية، وإلى أي درجة؟» كررت كاليدا سؤالها همسًا، فتوهج لهب الشموع - الموضوعة في أكواب زجاجية على الطاولة - وهسهس بعد أن لمس بعض الشوائب في الفتائل، وكأن الشمع الذائب يتحدث تعاطفًا مع العرّافة.

قالت بيبي - وهي تحاول جاهدة تحري الصدق وألا تبدو متحفظة - «إنه يبدو منطقيًا بعض الشيء، أعني في سياق قراءة الطالع. لكنني مهتمة بالأشياء التي خُلقت في الكون أكثر من اهتمامي بالتنجيم لاكتشاف المعرفة المخفية».

فقالت كاليدا «ماذا لو كان الكون الذي خُلق - ومن خلقه والسبب في خلقه - هو نفسه المعرفة المخفية؟»

فردّت بيبي بالقول «لكنني لا أعتقد أنهما كذلك».

بـدا أن عينـي العرّافـة تبحثـان فـي أعماق بيبي كعيني صقـر منزلقتين في محجريهما وتتفحصان بدقة قشًا يقبع على مسافة بعيدة في الأسفل بحثًا عن فأر لمطاردته واصطياده. بعد ذلك، جلست إلى الخلف على كرسيها، وتدلّت أجنحة الشعر الكتاني على وجهها، فحجبت أذنيها مجددًا. شربت من الكأس الذي كانت قد أعادت ملأه، فأنهت نصفه مجددًا في شربة واحدة طويلة.

عندما وضعت الكأس، قالت «هل أقفلتِ الباب الأمامي عندما دخلتِ؟»

أومأت بيبي وقالت «أجل».

«هل هناك باب ثانٍ؟»

«كلا»

«هل النوافذ مغلقة؟»

«أجل»

«فلنبدأ إذًا وننتهي سـريعًا. فكلما قضينا وقتًا أقصر في هذا، سـنكون في أمان أكثر».

بعد أن أبعدت العرّافة الحروف عن الطاولة ووضعتها في الوعاء الفضي – وخواتمها تلمع مع ضوء الشـموع – رشـفت بيبي من الجعة وهي تسـتمتع بمذاقها، وتفكر فيما إذا كان والداها سيشعران بالإهانة إذا رفضت الجزء الثاني من هديتهما وطلبت من هذه السيدة المغادرة.

وضعت كاليدا الوعاء على الطاولة مجددًا. ومن علبة الخياطة، اختارت أكبر إبرة، ووضعتها فوق لهب إحدى الشموع، ثم وضعتها في قطعة القماش القطنيـة المطويـة. بعـد ذلـك، أزالت الغطـاء عن زجاجة الكحـول المختمر، وأدخلت إبهام يدها اليسرى داخلها، وتركته لدقيقة، ثم وضعت الغطاء مجددًا.

عندمـا أمسـكت العرّافـة بالإبـرة الكبيرة بيدها اليمنـى، قالت بيبي «لا بد أنكِ تمزحين».

وعندمـا بـدأت تتحـدث بهدوء بلغة لم تفهمها بيبي، غرزت كاليدا الإبرة فـي شـحمة الإبهـام، ليس عبـر الظفر ولكن خلفه. ومع اختـراق الإبرة لأحد

جانبي الإصبع، وبروزها من الناحية الأخرى، أصبح من غير الممكن رؤية ثُلث الإبرة لأنها كانت مغروسة في الإصبع.

«لماذا فعلتِ ذلك بحق الله؟» سألتها بيبي والدماء تتدفق من الإصبع وتسقط على القماش القطني.

تفوهت كاليدا بالقليل من الكلمات باللغة الغريبة ثم هسهست بشدة – وأسنانها مطبقة – قبل أن تجيب بالقول «إن الشك الذي يعتمركِ يمنعك من الانخراط بالشكل المطلوب في هذا العمل. لذا سيتعين عليّ التركيز بشكل أكبر للتعويض عن شعورك بالشك. ولا شيء يزيد تركيز العقل مثل الألم».

«هذا جنون» قالت بيبي.

فحذّرتها العرّافة بالقول «إذا لم تكفّي عن تعليقاتك عديمة الفائدة، سأضطر لغرز إبرة أخرى في راحة يدي».

«ليس إذا توقفنا عن هذا الآن» دفعت بيبي الكرسي بعيدًا عن الطاولة.

قالت كاليدا في غضب شديد «لقد بدأنا الجلسة، ولا بد أن نكملها، كي نغلق الباب الذي فتحتُه. وإلا فإن موجات الصدمة النفسية التي ذكرتها لكِ آنفًا لن تتوقف. إنها كالمنارة؛ حضور لا يمكن مقاومته. سيأتيك زائرون غير مرغوب فيهم».

لم يكن الشك الذي يتملك بيبي طاغيًا؛ إذ أن الإبرة الحامية والدماء المتدفقة دليل على صدق كاليدا، إن لم يكن على تعقلها. جلست بيبي بعد تردد. وقرّبت الكرسي أكثر إلى الطاولة.

لم يصبح والداها غريبين بالنسبة إليها بسبب اهتمامهما بقراءة الطالع وهذه الهدية العجيبة. ولم ينكمش حبها لهما مهما كانت الأسباب. إلا أن صورتهم اللامعة في ذهنها كانت على ما يبدو غير واقعية، وقد بدا اعتقادها الراسخ منذ أمد بعيد بشأن أسرار حياتهما ناقصًا وغير ناضج، إن لم يكن ساذجًا.

بينما كانت تحرك يدها اليمنى بين الحروف الخشبية في الوعاء الفضيّ،

بدت كاليدا تتحدث إلى حضور غير مرئي. قالت «أتوق للإجابات. لا يمكن تجاهلـي. اظهـر لـي». ثـم سـألت بيبي «كم عدد الأحرف التـي يتعين عليّ أن أسحبها؟»

ردت بيبي «لا أدري. كيف لي أن أعرف؟»

«لا بدّ أن تشاركي يا فتاة. كم عدد الحروف؟»

نظرت بيبي إلى نافذة المطبخ فوق الحوض وشـعرت بالارتياح بشـكل ما لرؤيتها مقفلة. قالت «أحد عشـر»، على الرغم من أنه لـم يكن لديها سـبب لاختيار هذا الرقم دون غيره. أضافت «أحد عشر حرفًا».

-35-
على الجانب الآخر من الكوكب

لم يؤمن كل من باكستون وداني بوجود الأشباح. أما بيري فكان منفتحًا على احتمالية وجودها، لكنه لم يتوقع رؤيتها قط. وحده غيب هو من كان متيقنًا من وجود الأرواح العالقة مثلما كان مؤمنًا بوجود الهواء الذي يستنشقه، لأن والدته - التي قامت بتربيته بمفردها - كانت ترى أحيانًا والده الراحل يسير في الحقول الواقعة خلف منزلهم أو يقف تحت شجرة البلوط في الفناء، أو يجلس في الشرفة وهو يبتسم ويبدو شفافًا. في تلك المناسبات، قالت إنه بدا منطقيًا أن يهبط العزيز هاري من السماء ويتنقل في الأرجاء مثلما تفعل الأرواح، بالنظر إلى أنه قد أحبها هي وغيب مثلما لم يحب رجل زوجته وابنه من قبل. لم يتمكن غيب من رؤية الشبح قط، على الرغم من رغبته الشديدة في ذلك. لكنه أدرك أن الأمر لا بد أن يكون حقيقيًا، لأن أمه لم تكذب قط، ولأنها كلما رأت الشبح، أضاء وجهها من فرط السعادة.

بيد أنه لم يشعر أحد من رجال القوات الخاصة الأربعة - بمن فيهم بيري ذو العقل المتفتح وغيب المؤمن الصادق - أن هذه البلدة الواقعة على أطراف جهنم قد تكون مسكونة. إذا جعلك أي مكان في العالم تشعر أنه يعجّ بمخلوقات من عالم آخر، فلا بد أنه هذه القرية الملعونة. ولكن لعل الفظائع التي نزلت على رؤوس هؤلاء الناس - وتلك الجرائم التي ارتُكبت بدم بارد وتلذذ وعنف - كانت شيطانية ومميتة جدًا، لدرجة أن العديد من الضحايا قُتلوا مرتين؛ جسديًا وروحيًا، ولم تُتح لهم الفرصة للاختيار بين الذهاب إلى العالم الآخر أو البقاء مطاردين.

عنـد السـاعة الثالثـة فجـرًا، عندمـا تـرك الرجـال الأربعة موقـع المراقبة الخاص بهم على السطح، وتنقلوا في الشوارع الضيقة متخفين مثل الأشباح، بدا أن هذه البلدة لم تعرف أي شكل من أشكال الحياة قط، وأنها كانت ميتة دومًا مثل أي فوهة بركان على سـطح القمر الخالي من الهواء الذي ينعكس الآن القليل من نوره. كانت المسـاكن مهدمة فوق بعضها البعض، وكل منها محاط بالمساكن المجاورة، وقد بدت أماكن كئيبة وفظة ومعزولة عن بعضها البعض، ولا تمنح أي شـعور بالراحة أو الدفء. كانت كل عائلة هي عشـيرة منفصلة لها منطقة نفوذ خاصة بها، ولذا فليس للتاريخ جذور في مباني البلدة أيضًا. ولم تمثّل هذه المباني تاريخًا خاصًا لمن كانوا يسكنون فيها يومًا.

تسـاءل باكسـتون عما إذا كانت حفرة الموت هذه هي مكان وفاته، لكنه لـم يتمعـن كثيـرًا في الفكـرة. ومع أنه قد يصعب على المدنيين تصديق ذلك، إلا أن فـرد القـوات الخاصـة الجلـد كان يهتم بحياة رفاقـه أكثر من حياته، بل وأكثر من شـرفه، وهو السـلوك الوحيد الذي يتعين على المرء التمسـك به إذا ما أراد الانتصار في أي حرب.

انقسـموا إلـى فرقتيـن واقتربـوا بحذر من المنزل المسـتهدف باسـتخدام الشـوارع الموازيـة للشـارع الـذي يقـع قبالته. دخل كل مـن باكس وبيري من الخلف؛ إلى داخل بناية مهدمة تواجه ما قد يكون جحر عبد الله الغزالي. وقد استغرق الأمر منهم خمسة عشر دقيقة حتى يتسللوا بهدوء عبر الفناء الخلفي المحاط بسور والممتلئ بالركام، ثم عبروا المنطقة الداخلية المهدمة المؤدية إلى الباب الأمامي، التي جرى تفجيرها في هجوم وقع قبل سبعة عشر شهرًا.

بينمـا كانـا يزحفـان خارج المدخـل، تفحصا المنزل الواقـع على الجهة المقابلـة مـن الشـارع مـن نقطة مراقبة أفضـل، وكانا يرتديان نظـارات للرؤية الليلية، وقد تأكد لديهما ما كانا قد رأوه من قبل بالكاميرات المكبرة والمناظير. كان البناء سـليمًا باسـتثناء وجود ثقوب وحُفر بسـبب الرصاص، وكانت كل النوافذ محمية بمغالق معدنية خارجية. وعوضًا عن الطوب الطيني المثبت في

الجبس، بدا المنزل أكثر حداثة، ومبنيًا من الحديد المسلح، وهو أمر شائع في بلد دارت فيها طويلاً رحى الحرب الطائفية والعشائرية باستخدام كافة أنواع الأسئلة بدءًا من البنادق والمدافع الرشاشة وحتى القذائف الصاروخية.

عند الساعة الـ5:11 بعد منتصف الليل، اهتزّ هاتف الساتالايت المخصص للمهمة في جيب باكستون. لا بد أن المتصل هو بيري، الذي اتخذ هو وغيب موقعًا على سطح البناية الواقعة شرقي المنزل المستهدف، مع منظر يطل على فنائه الخلفي.

قال بيري بهدوء «هناك ضوء خافت في الداخل، ومن الممكن رؤيته الآن من إحدى النوافذ».

يؤكد هذا أن الشخص الذي كان يدخّن سيجارة على السطح في الليلة السابقة لم يكن يستخدم المنزل كموقع للمراقبة فقط، ولكنه اتخذه كملجأ أيضًا، وربما يكون ذلك برفقة السفاح عبد الله الغزالي.

اتفق باكس ورفاقه على عدم التحرك قبل شروق الشمس بشكل كامل، وحتى حينئذٍ سينتظرون طالما تطلب الأمر التروّي، على أمل التأكد من أن المدخّن لم يكن الساكن الوحيد. إذا كان الإرهابيون السبعة منتشرين مثلاً في ثلاثة منازل منفصلة، فإن هجومًا على أحدها سيرسل إشارة تحذير للمنزلين الآخرين، وسيفقدون عنصر المفاجأة. وفي هذه الحالة، لن تكون احتمالات النيل من الغزالي نفسه قوية مثلما يجب. ولكن بصرف النظر عن ذلك، سيجري تنفيذ الهجوم في اليوم المقبل؛ فالتأخير أكثر من ذلك يحمل في طياته مخاطرة شديدة.

من مكان ما في ظلمة الليل المتبددة، أتى صوت صياح قط من فصيل الوشق الصحراوي، فشعر باكستون بالقلق.

-36-

قراءة الطالع عبر الحروف

بقدرما بدا الأمر جنونيًا، مع إصبع الإبهام المصاب والدماء النازفة ومحاربة الأمازون الشقراء ذات عيني النمر، والفتائل المشتعلة والغاضبة، ولهب الشموع الذي يطارد ظلاله على سطح الطاولة، وعبق الورود الذي يزداد كثافة – ويغدو جنائزيًا نوعًا ما – من الحجرة الأخرى، وتهديد الأعداء المجهولين المجتمعين في ظلمة الليل باستهداف الأمواج النفسية التي لم تتمكن بيبي من الشعور بها، مع أنها باتت تؤمن بالأمر الآن. في اللحظة الراهنة، كان لكاليدا باترفلاي حضور طاغٍ، وقدر كبير من السلطة قادر على جعل أكثر الناس ارتيابًا يصدّق ما يرتاب منه.

حرّكت العرّافة يدها اليمنى عبر الحروف الخشبية التي ملأت الوعاء الفضيّ، دون أن تشاهد ما الحروف التي التقطتها أصابعها من وعاء الأبجدية هذا، ودون أن تحاول أن تميزها بلمسة كفيف يقرأ بلغة برايل.

«آمر المعرفة السرية التي تخص تعافي بيبي من السرطان» قالت بصوت أجشّ ولكن موسيقي بما يؤكد عدم تسامحها مع المراوغة من جانب أي قوة خفية تنوي استجوابها. وأضافت «أنا أنزف للحصول على إجابات، ولا يمكن تجاهلي. اظهر لي. لماذا تعافت بيبي بلير من سرطان المخ؟»

ألقت أربعة حروف على الطاولة، فتدحرجت مثل النرد، ثم ألقت اثنين آخرين، فثلاثة، وأخيرًا اثنين. كانت بعض الأحرف مستقرة على وجهها، فقلبتها. وقامت بترتيبها من A إلى V على هذا النحو: A, A, E, E, F, I, L, O, S, T, V. ثم قامت بوضعها في صف على الطاولة بحيث لو أن كاليدا

استدارت إلى اليسار أو استدارت بيبي إلى اليمين، يكون بوسعهما قراءتها.

كان من الممكن تكوين العديد من الكلمات من الحروف الأحد عشر، حتى رغم تكرار بعضها. ومع أن بيبي لم تقم بترتيب الحروف، إلا أنه أمكنها رؤية كلمات مثل: مغادرة، غصن، سرعة، عيد، ليّن، يطفو، وحيد...

أشارت كاليدا إلى أربعة حروف في الصف – EVIL أو شر – وهو ما لم يحسّن من مزاج بيبي.

«علينا أن نستخدم كافة الحروف الأحد عشر حتى نكتشف الرسالة الحقيقية» أوضحت العرّافة. كوّنت جملة A FATE SO EVIL – أو مصير شرير للغاية – وتمعنت فيها للحظات، لكنها بعد ذلك قالت «كلا، هذه ليست الإجابة. وفي الغالب، هذا مجرد تهديد فارغ».

فقالت بيبي «تهديد؟ من الذي يهددكِ؟ أم أنا التي أتعرّض إلى التهديد؟»

بدلاً من أن تردّ على أي من السؤالين، أعادت كاليدا ترتيب بعض الحروف لتكوين جملة EAST EVIL OAF. قالت «هذه بداية خاطئة. الشر ليست الكلمة المفتاحية».

ازدادت كاليدا توترًا شيئًا فشيئًا. وقد زاد الغموض من عبق الورود حتى بدا أن هناك رائحة تعفن تعلق في عطرها...وتسارع تأرجح لهب العديد من الشموع، فغمر الطاولة ضوء فضيّ وطيف حشرات العث وهي تضرب بأجنحتها الضعيفة على الجدران بدون صوت...بدأت بيبي تشعر أنها مصابة بالحمى بدون أن تعاني من أي علّة جسدية؛ حمى بلا سبب وشديدة الخطورة مثل أي عدوى.

على الطاولة، بدت جملة FOIL A TEASE بلا معنى، وتركت حرفًا بلا استخدام.

وبالمثل، بدت جملة VIA LEAST FOE بلا معنى واضح.

فجأة، أبصرت بيبي بما لم تبصر به العرّافة، فمدّت يدها لتكوين جملة TO SAVE A LIFE أو من أجل إنقاذ حياة.

«هذه هي» أعلنت كاليدا بصوت عالٍ دون أدنى شـك. وأضافت «لديكِ حدس فطريّ لهذا يا فتاة. العميل لا يرى الرسالة قط، وإنما يجلس كالضفدع في انتظار أن أطعمه الذباب».

قالت بيبي «دعيني أستوضح الأمر. لقد نجوت من السرطان حتى أنقذ حياتي. كنتُ على علم مسبق بهذا نوعًا ما».

فقالت كاليدا «كلا يا فتاة، ليس هذا المقصود من الرسالة. يمكنكِ قراءة الرسـالة، ولكن أنا يمكنني قراءتها وفهم المعنى الكامن وراءها. لقد نجوتِ من السرطان حتى تتمكني من إنقاذ حياة شخص آخر».

لم تقتنع بيبي بهذا التفسير على الفور. تنقذها ممّ، ومتى، وأين، ولماذا؟ لـم تكـن مـن هـواة المغامرات ولا بطلة خارقة – كانت تكره الملابس الضيقة وأغطية الرأس – ولا امرأة محبة للإثارة إلا إذا كانت الإثارة على الورق.

سألتها «من؟ أنقذ من؟»

فردت الأخرى «هذا هو السؤال التالي».

بدت العرّافة غير جاهزة تمامًا لطرح السؤال الثاني، لذا أمسكت الكأس وابتلعت ما بقي من الجعة سريعًا.

أدركـت بيبـي حينئـذٍ أن الهـدف مـن الجعـة هو إما مسـاعدة كاليدا على تحمل ألم الإبرة التي تخترق إصبعها، أو لزيادة جرأتها، أو ربما كلا الأمرين.

قالـت العرّافـة وهـي تحـرك يدهـا اليمنـى فـي الوعـاء الفضـيّ الممتلئ بالحروف «أنا أنزف للحصول على إجابات. لا يمكن...»

قبـل أن تتمكـن المـرأة من الانتهاء، أصدر هاتف بيبي الذكي – المسـتقر علـى الطاولـة – رنة اتصال تشـبه الرنـة القديمة لهاتف القرص الدوار. نظرت في الشاشة وقالت «رقم مجهول. لنتجاهله».

أدى رفضها الرد على الاتصال إلى توتر كاليدا بشدة. قالت «كلا! إذا لم تردي، لن نعرف إن كانوا هم».

«من هم؟»

«الأشـخاص الخطـأ!» لـم تعـد نظراتهـا اللامعـة مثل الشـموع تبدو مثل نظرات عرّافة تثق في أنها تسيطر على أيًا كان الكيان الخارق الذي تستشيره. قالت «ردي على الاتصال، حبًا في الله»

بعد أن ازدادت ارتباكًا، ردت بيبي على المتصل. قالت «مرحبًا؟»

فقال رجل «هل أنتِ عميلة سرية؟»

«ماذا؟ من هذا؟»

«ما الذي يعنيه هذا...عميل سري؟»

«لا أدري عمّ تتحدث»

«لماذا تتظاهرين بالغباء؟ أشير إلى لوحة سيارتكِ».

«آه. هذه ليست سيارتي، بل سيارة أمي. من هذا؟»

أغلق الرجل الخط.

قالت بيبي لكاليدا «رجل ما. لقد عدت في سيارة أمي. ويريد أن يعرف ما معنى لوحة الأرقام».

«لا يبدو أحدهم»

«سـواءً كان أحدهم أم لا، لا بد أنه رآني وأنا عائدة إلى المنزل. أو لعله عند موقف السيارات الآن. كل شيء ينزلق، أليس كذلك؟»

«ينزلق؟ ماذا تقصدين؟»

«إلـى القـاع، مـن علـى الحافة، ونحو الفوضى» قالت بيبي وهي تتسـاءل عن سبب فقدانها لثقتها في نفسها.

حسـنًا، لم تكن قد اسـتعدت لعالمٍ بهذه الأبعاد الجديدة والغريبة. كانت قـد أعـدت نفسـها لكتابـة قصـصٍ لدوريات أدبية مثـل The Antioch Review و Granta و Prairie Schooner، ولنشر أولى رواياتها عبر دار Random House للنشر. ولـم تمتلك المرونة النفسـية والعاطفية للتعامل بسـهولة مع تعافٍ مفاجئٍ غير مفهوم من السرطان والتبعات الخارقة للطبيعة التي تلته.

نظرت إليها كاليدا في استغراب، وقالت «كل شيء ينزلق دومًا. فالحياة مثل

الانهيار الثلجي يا فتاة، وأنتِ تدركين هذا مثلي بالضبط. في بعض الأحيان، يكـون الانـزلاق بطيئًا وممتعًا بشـكل ما، ويكون عنيفًـا في أحيان أخرى. لقد قـرأت روايتـكِ. إنهـا هناك...عند قاع جبل الثلج. فارتدي زلاجاتكِ، واركبي الموجة الثلجية. لا تدعيها تسقطكِ».

«أجل، لكنني الآن أشعر أنني خرقاء»

«ماذا؟»

«حمقـاء، بلهـاء، عديمـة الفائـدة». بعـد ذلـك، أمسـكت الـكأس نصف الممتلئ وتقمصت شخصية كاليدا وأنهت الجعة في شربة واحدة طويلة.

قالت العرّافة وهي تقرأ الحروف على الطاولة «من أجل إنقاذ حياة. الآن دعينا نكتشف حياة من».

-37-

كل الأطفال بحاجة إلى التبول

تسبب صياح القط في منتصف الليل في إثارة قلق باكس لأنه ظنّ أن هذا قد يكون شخص يقلد صوت القطط. وعندما تبعت الصيحة الأولى صيحتان أخريان وبدا أنهما قادمتان من مكان بعيد عن الأول، ازداد قلقه. إذا كان أحدهم قد عرف بوجوده هو ورفاقه في البلدة، فربما يجري التلصص عليهم من قبل عملاء لأحد أمراء الحرب المحليين، فيرسلون إشارات الاستعداد إلى بعضهم البعض بلغة قطط الوشق.

كانت هناك قطط من فصيل الوشق في الشرق الأوسط، مع أن تعدادها كان أقل بكثير عما هو موجود في أفريقيا وآسيا. وقد درّب الإيرانيون تلك القطط على صيد الطيور ذات يوم. وعلى الرغم من أن قط الوشق كان وزنه يبلغ حوالي أربعين رطلاً، إلا أنه كان بوسعه القفز إلى ارتفاع يصل إلى سبعة أو ثمانية أقدام، فينقضّ على ويسقط بين ثمانية إلى عشرة طيور دفعة واحدة من سرب طيور يحلّق على ارتفاع منخفض.

وقف كل من باكس وداني متأهبين في انتظار صيحة قط أخرى للحكم على مصداقيتها، وكل منهما يمسك بسلاح من طراز MK12 وهما يتمنيان لو أنّ السلاح كان يطلق رصاصة تسبب ضررًا أكبر. بيد أن الوقت قد مر، وبزغ الفجر دون حدوث شيء. أحيانًا لم يكن القط سوى قطًا.

مع سكون الرياح في ساعات الصباح الأولى – وفي قلب الهدوء التام – تمنى باكستون ظهور دليل يؤكد أن أكثر من إرهابي واحد يسكن في البناية المهدمة. وعند الساعة الـ8:47 دقيقة، اهتزّ هاتف الساتالايت خاصته.

اتصل بيري من موقعه - برفقة غيب - على سطح بناية مكونة من طابقين تقع شرقي البناية المستهدفة. تحدث بصوت منخفض للغاية قائلاً «رجل واحد. ليس المدخّن. في الفناء الخلفي. يحمل دلوين».

«قل مجددًا...دلوين؟»

«يحمل دلوين» ثم قال بيري بعد لحظات «عند البوابة الخلفية. إلى داخل الشارع. يتحرك جنوبًا»

سأله باكستون «هل يحمل سلاحًا؟»

«مسدّس معلق على الخصر»

لو لم يكن الإرهابي مسلحًا، ولو كان قد ابتعد بما يكفي عن البناية المستهدفة، لربما حاولوا أسره واستجوابه. بيد أن رصاصة واحدة ستلفت انتباه الأشرار - وإذا صحّت المعلومات - والشريرات الآخرين.

قال بيري «على الأرجح نفايات ليلية».

كان بيري مولعًا بالخيال التاريخي، لا سيما روايات الحرب والمياه البعيدة في القرن الثامن عشر. وكان يستخدم كلمات قديمة بين حين وآخر، ولكن ليس عن وعي أو قصد، وإنما لأنها غدت جزءًا من قاموسه.

قال باكستون «أوضح...نفايات ليلية؟»

«غائط» رد بيري بالقول، وهو ما كان باكس يعتقد أنه يقصده.

ومثلما كان الحال بالنسبة إلى معظم البلدات الصغيرة إلى متوسطة الحجم في هذه الدولة المنهارة، كانت البلدة متأخرة في بعض النواحي؛ فلم يكن هناك نظام ولا خزانات للصرف الصحي، ولا وجود لمضخات مياه داخل المنازل باستثناء - وفي حالات قليلة - مضخة يدوية في حوض المطبخ تسحب الماء من بئر خاصة. وكانت هناك مراحيض مشتركة في الهواء الطلق تقع خلف البنايات الأخيرة - وهي في الأساس عبارة عن مكب للفضلات وسلسلة من الحواجز - حيث قضى الناس حاجاتهم أو تخلصوا من فضلاتهم. وكان يجري اختيار أماكنها بما يضمن قيام الرياح بدفع الرائحة الكريهة بعيدًا

عن البلدة، وهو ما كان يعني في هذه الحالة إلى الجهتين الجنوبية والغربية.

لعل معايير النظافة الشخصية لعبد الله الغزالي تحرّم التخلص من الفضلات في ركن بعيد في الفناء الخلفي.

كانوا على الأرجح يتخلصون من الفضلات كل حين في المرحاض المشترك لأن الرائحة النتنة التي سببتها وسحابة الذباب المتجمعة فوقها ستكشف عن مخبأهم وكأنهم قد رفعوا رايتهم على البناية.

قال باكس في الهاتف «دلو للرجاء، وآخر للنساء؟»

وافقه بيري الرأي وقال «احتشام مثير للإعجاب»، ثم أنهى الاتصال.

بخلاف النقر على باب عبد الله والتظاهر بأنهم من مكتب إحصاء السكان، فلن يحصلوا على أي تأكيد بأن الإرهابيين السبعة كلهم في تلك البناية. كان الدلوان دليلين دامغين.

في الظلال العميقة – بالضبط داخل مدخل البناية المقابلة لجحر الإرهابيين – بدأ كل من باكستون وداني في تجهيز بندقية كارل غوستاف عديمة الارتداد من فئة M4، وهو سلاح مضاد للدروع وفعال أيضًا في عمليات اقتحام المخابئ.

38-أ
منحي الموت قبلة

شعرت بيبي بالثمالة، ليس بفعل الجعّة، وإنما بسبب غرابة الأمر برمته. وقد غمرها قلق شديد من عنف وشيك يشبه ضغط الهواء الذي يسبق صاعقة الرعد الأولى في عاصفة عاتية أقوى من كل الأعاصير.

وعلى ما يبدو، فإن رجلاً يقبع في موقف السيارات، وقد أصابه هوس لمعرفة معنى اللوحة المموهة المثبتة على سيارة نانسي. كما يبدو أن حضورًا غريبًا يراقب المطبخ، لأن رائحة الورود المتعفنة أصبحت نتنة، ولأن لهب الشموع قد ارتفع ثلاث أو أربع بوصات عن حواف الأكواب التي وُضعت فيها، وأخيرًا لأن الحجرة أصبحت باردة. توقفت كل من ساعتي الحائط واليد عن العمل، فما عادت عقارب الثواني تتحرك، وأظلمت الساعة الرقمية الخاصة بالميكرويف، وكأن شيئًا ما يعيش خارج الزمن قد دخل إلى هذا العالم وجلب معه محيطه. ولعل أجهزة استشعار الموجات النفسية المعروفة باسم «الأشخاص الخطأ» - أيًا ومهما كانوا - كانت بالفعل في طريقها إلى شقة بيبي لضربها حتى الموت أو لشرب دمها أو لسرقة روحها، أو أيًا كان ما تفعله بحق أولئك الحمقى الذين اعتقدوا أن جلسة قراءة طالع سريعة على طاولة المطبخ لن تسبب أي أذى، بل وربما تكون ممتعة.

قبل أربعة وعشرين ساعة، ما كانت بيبي لتأخذ أيًا من هذا على محمل الجد، إذ أنها ذاتية التعلم وتتمتع بالكفاءة وذات عزيمة، وقد علمت نفسها على الأقل ما يوازي شهادتين جامعيتين من المعرفة، وهي واقعية وراجحة العقل وتتمتع بمخيلة خصبة، لكنها عرفت بشكل دقيق أين يقع الحد الفاصل

بين العالم الحقيقي والتفسيرات الزائفة له. وقد راقبت بشغف عالم المثاليين شديد اللمعان والضجيج، كما راقبت النسخ شديدة الظلام والتعقيد من الواقع الـذي ابتكـره المختلـون. ولكن يبـدو الآن أن هذه الحدود قد أزيلت أو على الأقـل أخفيـت، وللمـرة الأولـى في حياتها، شـعرت أنه من بين الأشـياء التي تحتاجها المرأة المعاصرة، لم يكن المسدس أقل أهمية من الهاتف الذكي.

«أحتـاج إلـى سـلاح» قالـت بوضوح، ومع أن الكلمـات بدت غريبة عن طبيعتها، فقد أيقنت أنها نطقت بالحقيقة.

كان سلاح كاليدا مستقرًا على الطاولة، لكنها قرّبته منها بعيدًا عن متناول بيبي، وكأنها لا تستبعد احتمالية أن تقوم عميلتها بقتلها، وهي بمنزلة الرسول.

قالـت بيبـي «لسـتُ فـي حاجة إلى سـلاحكِ، فلديّ سـلاحي. لقد أصرّ باكستون على ذلك، لكنني أحفظه في صندوق في الخزانة».

عندما بدأت بيبي في النهوض عن الكرسي، قالت كاليدا بحدة «اجلسي. علينا أن ننتهي من هذا سريعًا».

قامـت العرافـة بتحريـك يدها اليمنى بين الحروف في الوعاء الفضي، ثم قالت «أنا أنزف للحصول على إجابات، ولا يمكن تجاهلي. اظهر لي». ازداد الجو برودة، ثم قالت لبيبي «الشخص المقدر لكِ إنقاذه. كم يبلغ عدد حروف اسمه؟»

«لا أعرف»

«بلى تعرفين، لكنك تجهلين ذلك. كم يبلغ عدد حروف اسمه؟»

قالت بيبي «عشرة»

بعـد أن أخرجـت كاليـدا الحـروف من الوعاء، وضعتهـم جنبًا إلى جنب بترتيب أبجدي: A, B, E, E, H, L, L, L, S, Y.

كان اسـتنباط الأسـماء فـي هـذه الفوضى أصعب من تكويـن الكلمات، ولكن بعد برهة، كوّنت العرّافة اسم SALLY BHEEL. قالت «هل تعرفين أحدًا بهذا الاسم؟»

«كلا»

«ليس ضروريًا أن يكون شخصًا تعرفينه».

أعادت كاليدا ترتيب الحروف، فكوّنت اسم SHELLY ABLE.

«هـذا سـخيف» قالـت بيبي، لكنها لم تسـتطع أن تنكـر أن الحجرة باتت باردة للغاية لدرجة أن الدخان تصاعد مع أنفاسها هي والعرّافة.

ومثلمـا حـدث آنفًـا، أبصرت بيبي فجأة بمـا لـم تبصر به كاليدا، فحركت الأحرف على الطاولة وكوّنت الاسـم ASHLEY bell. وبينما كانت تضع آخر حرفين في موضعهما، سـمعت الجرس الفضيّ ذي المطارق الصغيرة الثلاثة الـذي كان القائـد قـد جلبـه معه مـن فيتنام، ومع أن صوت قـرع الجرس كان واضحًا ولطيفًا ولا يمكن تجاهله، إلا أنها أيقنت أنها تسمعه في عقلها فقط.

راقبـت العرّافـة عميلتهـا بتمعن شـديد – وكأن كاليدا كانـت قطًا فضوليًا وكانت بيبي بكرة تحتاج إلى من يفرد خيوطها لكشف السر الخطير المدفون في لبّها – وانتظرت اللحظة المناسبة للإمساك بطرف الخيط المتدلي والهرب.

«قالت «هذا الاسم مألوف بالنسبة إليكِ»

هزّت بيبي رأسها وقالت «كلا»

«لكنني أرى أنه كذلك»

«كلا، مع أنني أقرّ أن له صدى لديّ»

«صدى» قالت العرّافة وهي ترغب في شيء أكثر تحديدًا.

«إنه شـاعري للغاية، ويجعلكِ ترغبين في معرفة الشـخص الذي يحمله، لتري إن كانت هي لطيفة مثل اسمها».

«هي أو هو. الاحتمالان واردان».

«بل هي» قالت بيبي بيقين تام على الفور.

«أنّى لكِ هذا اليقين؟»

قطبت بيبي حاجبيها وقالت «لا أدري. الأمر هكذا وحسب».

«ليس عليكِ العثور عليها فقط، وإنما إنقاذها أيضًا».

بينما كانت بيبي تحدق في الاسم، دخلت في حالة من النشوة، وكأن كل حرف من الحروف العشرة لا بد أن يكون اختصارًا لتعويذة سحرية ما.

ارتجفت بيبي، ونظرت إلى العرّافة ثم قالت «أنقذها ممّ؟ ألا يجدر بكِ السؤال...واختيار مزيد من الحروف؟»

«كلا. الوقت ينفد منّا. لقد أمضينا وقتًا طويلاً جدًا في هذا».

لاحظت بيبي أن الدفء قد عاد إلى المطبخ وأن الساعات عادت إلى العمل، فضلاً عن ساعة يدها. قالت «أحتاج إلى معرفة لماذا هي في ورطة، أم هل ستقع في ورطة. أين تعيش، وكيف تبدو. لدي الآلاف من الأسئلة».

تأوهت كاليدا قليلاً وهي تستخرج الإبرة من لحمها. وقد ضغطت إصبعها النازف على قطعة القطن المضرجة بالدماء. قالت «نحن نحصل على آلاف الإجابات بالمجان، ثم ما تلبث أن تكلفنا الغالي والنفيس، كلمة بكلمة. الآن اسحبي القليل من القطع بطول ثلاث بوصات للواحدة من الشريط اللاصق من أجلي».

بعد أن أخرجت القطعة الأولى باستخدام القاطع المثبت في علبة الشريط، قالت بيبي «ماذا سيكلفنا؟»

بينما كانت تلف الشاش حول إبهامها وتشده بإحكام حتى توقف النزيف، قالت كاليدا «الوقت. وقتنا الثمين. تمر الأيام فالأسابيع ثم الشهور، لنكتشف أن حياتنا قد تبددت سريعًا، ثم نقوم ببذل شيء أسوأ»

«ما الأسوأ من خسارة جزء من حياتكِ؟»

«فقدان القدرة على الشغف والأمل، والبقاء على قيد الحياة بلا مشاعر سوى المرارة والأسى». رفعت إصبعها حتى يمكن لبيبي تحديد طول الشريط. وأضافت «ليس هناك إجابات إضافية تستحق التكلفة»

عادت رائحة الورود في حجرة المعيشة جميلة مجددًا. وتوقف اللهب عن القفز بعنف فوق حواف الأكواب الزجاجية. ولم تعد انعكاسات ضوء الشموع على سطح الطاولة والجدران تذكرها بأسراب الحشرات.

كان من اللازم أن ينحسر جو العنف الوشيك...

إلا أنه لم ينحسر.

وبينما كانت العرّافة تستخدم ثلاثة قطع أخرى من الشريط لتغطية الشاش، عادت بيبي إلى رشدها، بنفس القدر الذي عاد به الدفء إلى الحجرة الباردة. قالت «لا يمكنني القيام بهذا».

نظرت كاليدا في الساعة، بعدما لم تعد تشعر بالوقت، ثم قالت «لا يمكنكِ فعل ماذا؟»

«إنقاذ حياة. أيًا كانت وأينما وجدت هذه الفتاة. الأمر بأسره جنون».

«بالطبع يمكنكِ ذلك، لأنكِ فتاة مميزة. إلى جانب أنه لم يعد لديكِ بديل الآن».

«ربما ينتهي بي المطاف إلى أن أحدث ضررًا أكثر من المنفعة. أنا أخطط للزواج من بطل، لكنني في حد ذاتي لستُ بطلة. أعني، لا أظن أنني جبانة، لكنني لا أمتلك المهارات»

بعد أن نقلت الحروف الخشبية من الوعاء إلى الكيس الخاص بها، ثم أعادت الكيس والوعاء إلى الحقيبة المصنوعة من ريش النعام، قالت كاليدا «لقد تساءلتِ عن سبب نجاتكِ من السرطان، فأجيب على سؤالكِ. إذا لم تكوني مستعدة لذلك الآن، فالثمن سيكون مريعًا».

«ضرر أكبر من النفع» كرّرت بيبي كلامها. وأضافت «قد ينتهي الأمر بهذه المدعوة بيل ميتة، وبي أنا أيضًا»

بعد أن نهضت واقفة وأغلقت حقيبتها، قالت كاليدا «لقد ضربتِ موعدًا مع الموت بالفعل ونجوتِ. وإذا ظهر لكِ مجددًا، امنحيه قبلة وأخبريه أنّ عليه الانتظار. امنحيه قبلة قوية، واستخدمي لسانكِ أثناء ذلك. الآن اجلبي سلاحكِ يا رفيقتي وهيا بنا نرحل عن هنا»

«ماذا؟ كلا» تثاءبت بيبي وتمططت. ثم قالت «أنا مجهدة. سأخلد إلى الفراش».

رمقتها كاليدا وكأنها قد أعلنت للتو أنها ستتمدد في مرجل ممتلئ بالزيت المغليّ. قالت «إذا بقيتِ هنا عشرة دقائق أخرى، ستكونين في عداد الموتى. وربما خلال خمسة دقائق»

«لكن هذه شقتي»

«ليس بعد الآن. ليس بعد ما فعلناه هنا وجذب انتباههم. الآن باتت الشقة ملكًا لهم. ولن يعيقهم أي قفل عن الدخول».

-39-

نداء الحب وصيحة الحرب

على افتراض أن عبد الله الغزالي ومعاونيه مدججون بالسلاح وعلى استعداد للموت شهداء، سيكون انتحارًا تفجير الباب وقتال الإرهابيين السبعة من حجرة إلى الأخرى. سيبلغ قوام العدو سبعة أفراد، لأن النساء لن يقفن متفرجات. وإذا كانت المعلومات التي تخص هوياتهم صحيحة، فإن هاتين الأمّين – أمّين بما يتعدى المعنى المجازي للكلمة – قد قدمتا بحماس شديد أربعة من أبنائهما كقنابل بشرية. كان هذا السلوك المشترك هو بمنزلة فيلم الخيال العلمي المكافئ لصيد حشرة، حيث يكون الأمل الوحيد للنجاح هو الاستخدام المتهور للقوة المفرطة.

كان وزن بندقية كارل غوستاف عديمة الارتداد من فئة M4 يبلغ خمسة عشر رطلاً، وهذا أقل بأربعة أرطال عن البندقية ذاتها من فئة M3، ويبلغ طولها الإجمالي سبعة وثلاثين بوصة. كانت الذخيرة ثقيلة الوزن، ولكن بالنظر إلى طبيعة كافة الأهداف المحتملة في بلدة الأشباح هذه، فلم يكن من الممكن تعريف أي منها بمخبأ حقيقي، وإنما مجرد بنايات فوق الأرض وعادة ما يكون بناؤها مريبًا، لذا فقد اختاروا جلب أربعة قذائف فقط. وللتعويض عن الوزن الزائد – وهو ما سيعقّد من مهمة القيام بجولة في المنطقة – فقد حملوا ذخيرة أقل لبنادقهم وقلصوا من معداتهم قدر الإمكان.

كان السلاح يحتاج إلى فردين لتشغيله، أحدهما لإطلاق المقذوف والآخر لتلقيمه. تولى باكستون مهمة الإطلاق، بينما تولى داني مهمة التلقيم؛ وقد اتفقا على عدم إطلاق المقذوف عبر مدخل المنزل المهجور وإنما من

نافـذة محطمـة. أطلـق بعـض الجنود اسـم كارل جونسـون علـى مدفع كارل غوستاف، وهو اسم مستعار للعضو الذكري للرجل، وآخرون أسموه غوس، ولكـن بصـرف النظـر عن اسـمه، كان المدفع أكثر فعاليـة من مطرقة ثور، مع مدى يتجاوز ألفًا وثلاثمائة متر. كان مقرّ عبد الله الحالي لا يبعد أكثر من ستة أمتار؛ مما سيجعل الأنقاض تتطاير بشدة. أما إطلاق المقذوف من النافذة من وضعية الركوع، فسيتيح لهما خفض رأسيهما بعد إطلاقه على أمل أن تعترض الجدران المحيطة بالنافذة المفتوحة معظم الأنقاض التي سترتد صوبهم، فلا يتعرضون للأذى.

بعـد أن ارتـدى كلاهمـا سـماعات لحمايـة الأذن، وضع دانـي الطلقات الأربع على الأرض أسـفل النافذة، بينما حمل باكس المدفع على كتفه وهو جاثٍ على ركبتيه. فتح داني القفل الفنتوري – وهو المقبض الذي يفتح غطاء كعب السلاح لتلقيمه – وأدخل القذيفة الأولى.

وفّر سـطح البناية ذي الطابقين – الواقعة عبر الشـارع من الجهة الخلفية لجحر عبد الله – حاجزًا مرتفعًا من الطوب وبه فواصل مجهزة بقضبان حديدية تفصل بينها مسافات كبيرة، بما يجعله بقعة مثالية للقناص. وكان كل من غيب وبيري يتمددان عند حاجز آخر، ويراقبان مؤخرة المنزل والشارع.

فـي قلـب هـدوء الصبـاح، أحدث الدلـوان الفارغـان – المتأرجحان من مقبضيهما – صوت صرير أثناء عودة القاتل من المرحاض المشترك. دخل من البوابة الخلفية وعبر الفناء، الذي كان على هيئة مستطيل من الحديد المتصدع. كان أحدهم يترقب وصوله؛ إذ انفتح الباب، فدلف إلى الداخل.

طلب بيري الرقم الوحيد المسـجل على هاتف السـاتالايت الخاص به، وعندما حدث الاتصال، قال «الجميع بخير في المنزل».

وبالنظـر إلـى قصـر المسـافة نحـو الهدف، لم يكن باكـس في حاجة إلى المنظـار المكبـر أو المنظـار الحديـدي. اهتزّ الصباح بفعـل صوت الانفجار، بينمـا تطايـرت الأنقـاض نحو الجـدار الأمامي لمنزلهم وعبـرت النافذة فوق

رأسيهما على حد سواء – أو هكذا ظنا – مع الانفجار. وقد تصاعدت رائحة غبار الحديد والغازات الساخنة من قاذف الغوستاف، فعطس داني وهو يفتح القفل الفنتوري لتلقيم القذيفة الثانية.

يمكن للمقذوف الخاص بسلاح كارل غوستاف اختراق الحديد المسلح وكأنه يمر عبر قطعة من الجبن، وقد يدمر الضغط الهائل الناتج عن الانفجار معظم البناية من الداخل. لم يتمكن كل من بيري وغيب من رؤية ما حلّ بواجهة المنزل من موقعهما على السطح الواقع على الجهة الأخرى من الشارع، لكن البناء بأسره اهتزّ وتمايل وتضرر، كما انفجر مصراعان داخليان في النوافذ الخلفية، فأصدرا صوت قعقعة عبر الفناء، بينما تناثرت مسامير النوافذ الزجاجية على الرصيف.

بعد عشرين ثانية على الأكثر من استهداف البناية، انفتح الباب الخلفي، وخرج رجلان وهما في حالة ذهول وحيرة وقد تضرر سمعهما بلا شك. سحب الشخص الذي تخلص من الفضلات مسدسه من غمده، بينما حمل الآخر بندقية آلية مع خزينة سلاح ممتدة، ربما من طراز عوزي الإسرائيلية. لم يتطلب الأمر من باكس سوى طلقة واحدة كي يقتنص المجرم الأول، وطلقة ثانية لتأكيد مصرعه، في حين أسقط بيري الإرهابي الآخر، فأعفاه من مهمة نقل الغائط إلى المرحاض.

بعد إطلاق القذيفة الثانية من مدفع غوستاف، بدا المنزل أشبه بمكان في فيلم المتحولون بعد أن دمره إنسان آليّ. كان باكس يستعد لاستخدام القذيفتين المتبقيتين، وقام داني بتحميل إحداهما داخل السلاح. لكن البناية تمايلت وكأنها مشيدة من الشوكولاتة وانهارت أرضًا، فاندفعت سحب الغبار إلى الشارع.

أزالا سماعات حماية الأذن، والتقطا بندقيتي MK12، وتسللا إلى الخارج مع جلاء الغبار شيئًا فشيئًا. كانا يتقدمان بحذر صوب المنزل المستهدف، مع أن احتمالية أن يكون أحد داخله قد نجا تبدو معدومة. وقد أقبل كل من بيري

وغيب من الشارع الواقع جهة الشرق، وكان ذلك عندما عرف باكس أن اثنين من الإرهابيين قد تعرضا للقنص، مما يبقي خمسة منهم أسفل الأنقاض.

حان الآن الوقت لاستدعاء الطائرة المروحية المستقرة على حاملة الطائرات لسحب الفريق، مع أن المهمة الأخيرة لن تكون سهلة. كان الهدف هو إثبات أنك قادر على قتل 317 أميركيًا والعيش بما يكفي للتباهي بذلك أمام أحفادك. تعين عليهم العثور على الغزالي، والتقاط صورة لوجهه أو لما تبقى منه، وأخذ عينة من الحمض النووي الخاص به. بخلاف ذلك، فقد يزيف خبير إنترنت مجهول أخرق دليلاً على أنه هو الغزالي، وسيصدقه ثلث الشعب الأميركي.

كان باكس قد شرع في استدعاء المروحية عندما لمع وجه بيبي بشدة في عين عقله لدرجة أن حطام بلدة الأشباح اختفى من الوجود للحظات. لو كان قد شك في السابق أنها في ورطة، فقد بات موقنًا من ذلك الآن. كان هذا أكثر من مجرد تخمين. يتعين عليه الآن إنجاز العملية، ومغادرة هذه البالوعة، والاتصال ببيبي بمجرد أن ينتهي العمل بقاعدة التخفي، عندما يكونون في عرض البحر على متن حاملة الطائرات.

-40-

في القاع، ومن على الحافة، ونحو الفوضى

كانت كاليدا أشبه بدوامة من الطاقة المظلمة لا يمكن مقاومتها، لذا فقد وقعت بيبي في فخ قلق المرأة، وشعرت أنه يسيطر عليها هي الأخرى. كان توتر العرّافة شديدًا وقد بدا بوضوح على سلسلة تعبيرات وجهها المعذب، وقد أثبت ذلك أنه يستحيل أن تكون محتالة وذات نوايا إجرامية. فضلاً عن أنه كان هناك الكثير من الأحداث المريبة تنفي فرضية أنها مختلة أو مصابة بالأوهام. كان هناك شيء غير عادي يحدث، أو على وشك أن يحدث، ويقترب سريعًا، وبدا أن التصرف الأمثل هو الابتعاد عن طريقه قبل أن يصل.

في دولاب حجرة النوم - بينما فتحت بيبي صندوق الأحذية وأخرجت الجراب الذي يحوي مسدسًا من طراز Sig Sauer P226 - قالت كاليدا «سأترك طاولة التدليك هنا، لأنها ستبطئني. وسآخذها لاحقًا، في الأسبوع المقبل أو أيًا يكن. هل يمكنكِ الإسراع يا فتاة؟ هيا، هيا!»

علّقت بيبي جراب السلاح على كتفها وضبطت مكانه، ثم أخذت سترة فضفاضة معلقة على شماعة وارتدتها. كان المسدس يحوي خزنة ممتلئة بالكامل. نظرت إلى نفسها في مرآة باب الدولاب. لم يظهر المسدس أسفل السترة. ولم يشبه انعكاسها على المرأة مثل الشكل الذي اعتادت عليه؛ إذ كان شعرها فوضويًا نوعًا ما، وتذروه الرياح في ليلة لا رياح فيها، وبدت عيناها غريبتين للغاية، وتعلو وجهها قسمات قاسية لم ترها من قبل. اعتقدت أنها تبدو مثل مجرم ما، أو شخص أحمق.

في حجرة المعيشة - وبينما كانت كاليدا تأتي بحقيبتها - جلبت بيبي

محفظتها وحاسوبها المحمول، ثم قالت «اللعنة، لماذا ألقى بكِ والداي عليّ؟»

«ليس ذنبهما، فما كان بوسعهما أن يعرفا. ولم يحدث شيء مثل هذا معي من قبل قط»

«مثل ماذا؟»

«الرائحة النتنة المقززة، والبرودة مجهولة المصدر، وتراقص لهب الشموع العجيب، وتعطل الساعات. الأشخاص الخطأ قادمون».

قالت بيبي - وهي تتبع المرأة نحو الباب الأمامي - «حسبتُ أن أمورًا كهذه تحدث دومًا»

«لم تحدث لي من قبل قط»

«قط؟» أغلقت بيبي الباب خلفها. وعانت مع المفتاح لغلق القفل المركب. ثم قالت «لكنكِ عرافة، وكبيرة الكهنة».

بينما كانت تعبر الشرفة على عجالة صوب السلالم، قالت كاليدا «حدث ذلك لأمي في بعض الأحيان. وقد حذرتني من ذلك، لكن لعلني لم آخذ الأمر على محمل الجد بما يكفي».

هرعت بيبي خلف المرأة الشقراء وقالت «انتظري. لم تأخذيها على محمل الجد؟ حقًا؟ والدتكِ، التي عُذبت وقطعت أوصالها؟»

«لا داعي للنبرة التهكمية يا فتاة. أحيانًا تكونين فظة للغاية»

نزلت العرّافة طويلة الساقين درجتين في المرة، فكانت طرقات قدميها تصدر صوتًا عاليًا بفعل اصطدامها بالحديد. وبينما كانت ترتدي قميصًا وسروالاً باللون الأبيض، وشريط لامع حول العنق ووشاح، وأقراط تتدلى منها عدة كرات، وخواتم لامعة في يدها، بدت كاليدا هاربة جميلة في فيلم كوميدي يعود إلى الخمسينيات عن فتاة استعراض من لاس فيغاس هربت من العصابة التي تعمل لحسابها.

برشاقة وخفة حركة، لحقت بيبي بها وهي تخاطر بالسقوط بشكل سيء، لكنها تثبت في نفس الوقت - إن كان هناك أي شك - أن أعراض سرطان

الدماغ قد ذهبت دون رجعة. قالت «أوتعلمين، أحيانًا تكونين مستفزة للغاية»

«أفضل من أكون فظة»

«لم أكن فظة»

«أنـتِ أدرى» قالـت كاليـدا هذا وهي تنزل عن الدرجات الأخيرة وتشـق طريقها بين صف من كرسي التمدد وحمام السباحة، الذي كان الشاب النحيف يسبح فيه قبل حين.

بينمـا كانـت تهـرول لتضييـق المسـافة بينهمـا، مدت بيبي يدها اليسـرى وسـحبت خلسـة الوشـاح الحريري الغالي المزين بنجمة، الذي تدلى خلف كاليدا، على أمل أن تبادله ببعض الإجابات من العرّافة الفزعة. لم يكن الوشاح ملفوفًا حـول عنـق المـرأة، ولكنـه كان معقودًا بغير إحكام، وهو ما اسـتدعى قوانين الفيزياء، لا سيما تلك التي تتعلق بالحركة والفعل ورد الفعل. توقفت كاليدا باترفلاي عن المشـي فجأة - مع صوت اختناق - وأسـقطت حقيبتها للتشـبث بالوشـاح الخانـق، وفـي نفس الوقـت تعثرت خطوتيـن إلى الخلف واصطدمت ببيبي، التي كانت تسير بسرعة كبيرة. ظلا للحظات يدوران حول بعضهمـا البعـض مثـل الأذرع الأفقيـة لجهاز الجيروسـكوب، على الرغم من أن إحدى وظائف الجهاز هي الحفاظ على التوازن، بيد أن كلتاهما فشلتا في الحفاظ على توازنهما. وقد ترنحا سـويًا بالقرب من حمام السـباحة، وكادتا أن تسـقطا فيه. وعندما فكرت بيبي في ترك الوشـاح، أعادت قوى الطبيعة - التـي خُلقـت بعنايـة لتظهر البشـر حمقـى في معظم الظروف - موازنة نفسـها فجأة، فاختلّ توازن السيدتين. سقطت كاليدا على ركبتيها على الرصيف، بينما ترنحت بيبي إلى الخلف وسقطت جالسة على أحد كراسي التمدد.

تحول غضب وخوف العرّافة الأمازونية إلى ذعر وصدمة. وقد تصرفت بنـاءً علـى حالتهـا الأخيرة بينما كانت تنهض واقفة، فصبّت اللعنات على بيبي وأطفالها الذينِ لم تنجبهم بعد. قالت «ابتعدي عنّي أيتها العاهرة المجنونة».

بينما استدارت كاليدا نحو حقيبتها، قالت بيبي «عاهرة مجنونة؟ أنا؟ أنا؟

لقد كنتُ أستمتع بأفضل يوم في حياتي بعد أن شفيت من السرطان، هذا كل ما في الأمر، ثم ظهرتِ أنتِ و...»

لكنها لم تكمل كلامها؛ إذ كرهت نبرة الشكوى في صوتها، ولم ترغب في إظهار نفسها وكأنها ضحية. الفتيات الشجاعات لا يشتكين، ولا يتقمصن دور الضحية قط حتى إذا كانت هناك فائدة من وراء ذلك، وقد كانت هناك فائدة عظيمة، ولهذا السبب يرغب جميع الناس في تقمص دور الضحية هذه الأيام.

فُتح نصف حقيبة كاليدا ذات الجانبين عندما أسقطتها، فتناثر منها الوعاء الفضي وعدة أغراض أخرى استخدمتها في قراءة الطالع. وقد انحنت لإعادة جمع الأغراض في عجالة.

نهضت بيبي عن كرسي التمدد وقالت «انظري، ربما أكون مجنونة، فها أنا أهرب من شقتي لأنكِ تدّعين أن شخصًا ما قادم – شخص ما أو شيء ما – دون أن أعرف من أو ماذا أو لماذا، وربما أكون مجنونة لتصديقي هراء آشلي بيل هذا، لكن ها أنا ذا. لذا، أخبريني كيف أعثر عليها، ومن يكون أولئك الأشخاص الخطأ»

قالت كاليدا بجفاء – بعد أن استدارت لتواجهها وهي تحمل الحقيبة في يدها – «لا تقلقي، ستتعرّفين عليهم».

كان مجمع الشقق مخصصًا للشباب العاملين – ومعظمهم عُزاب – لذا، فقد جرى الاهتمام حتى بالإضاءة الخاصة بالفناء. ومن أجل توفير أجواء رومانسية – أو كيفما اتفق جيل اليوم على تسميتها – أنتجت المصابيح البرونزية الطويلة وكل تجهيزات الإضاءة طيفًا فريدًا من الأضواء – ذات وهج ولمعان –فداعبت كل وجه، وتقرّبت من تألق بشرة كل طرف ومنحنى مكشوف.

وفي وسط هذا الضوء الصناعي والدقيق والمنتقى بعناية، بقيت كاليدا شاحبة الوجه مثل الدقيق الأبيض. وبينما كان يعتمرها الخوف، بدا وجهها

مسـطحًا مثل شـريحة الخبز، فلم تتمكن من إبداء أي تعبيرات سـوى الهلع.

قالت «ستعرفينهم حين ترينهم».

سألتها بيبي «ماذا سنفعل؟»

فقالـت «لـن نفعل شـيئًا. لا أريـد أن أكون في أي مكان بالقرب منكِ. لا الآن ولا مستقبلاً. ما سأفعله هو الهرب. الهرب والاختباء»

بهذه الكلمات، استدارت واتجهت سريعًا صوب موقف السيارات، وقد اختفى كل تألقها وجمالها، فلم تعد الآن سوى امرأة بائسة أثقلها جنون العالم.

-41-

قبل ست سنوات - المحارب أولاف ورفيقته الجميلة

لست سنوات سعيدة، كان اللقيط أولاف مثالاً يحتذى في الصحبة الطيبة؛ إذ كان نقي القلب ونبيلاً ولطيفًا ومحبًا مثل أي كلب عرفته البشـرية. كان قد ظهـر تحـت المطـر ليغـدو أقرب صديق لفتاته المفضلـة، وظل على ولائه لها في السرّاء والضرّاء، وكان يمتطي أمواج البحر بحماس شديد مثلها بالضبط.

عندما ظهرت عليه الأعراض لأول مرة، كان السـرطان قد انتشـر بالفعل مـن الطحـال إلـى الكبد والقلـب. وقد أطلق الدكتور جـون كيرمان على هذه الحالة «الساركومة الوعائيّة». ومع أن بيبي كانت من عاشقي اللغة، فقد كرهت هذه الكلمة لبقية حياتها، وكأنها لم تكن مجرد كلمة، ولكن أيضًا أحد أسماء الشر. لم يكن العلاجان الكيماوي والإشعاعي ليمدا من عمر الكلب. وقد قدّر الطبيب البيطري أن أولاف أمامه أسبوع - أو أسبوعين كحد أقصى - ليعيش.

منحـت بيبـي صديقهـا العزيـز كل الحـب الذي يمكن إظهـاره في وقت قصير للغاية، فأطعمته كل وجباته المفضلة، فضلاً عن بعض الأطعمة التي لم يتذوقها من قبل. واصطحبته في نزهات بسيطة، ليس إلى أماكن من اختيارها، ولكـن إلـى الأماكـن التـي بدا راغبًا في الذهاب إليها. وجلسـا على الكرسـيّ الكائن عند نقطة الإلهام لأربع ساعات، فراقبا البحر الهادئ والمفعم بالعظمة، وهي تشارك أدقّ أسرارها مع كلب الصيد الذهبي مثلما فعلت دومًا.

لـم يتفاجـأ والداهـا مـن إخلاصها، لكنهمـا لم يتوقعـا أن التزامها براحة

أولاف في آخر أيامه سيمتد ليشمل المشاركة في القتل الرحيم. فقد تحين هذه اللحظة عندما يبدأ السرطان – الذي لم يصاحبه ألم إلى حد الآن – في مهاجمة الجلد. يعتبر الموت الطبيعي عند البشر ميتة كريمة، لكن الحيوانات كائنات بريئة، وبوصف البشر أوصياء عليهم، فقد تعين عليهم الرأفة بهم. قررت بيبي ليس فقط أن أولاف لا بد ألا يعاني، ولكن لا بد أيضًا ألا يشعر بأي خوف عندما تحين اللحظة لقتله. كان الكلب يحب الرعاية التي يتلقاها، لكنه كره الإبر وبات يشعر بالقلق لمجرد رؤيتها. كانت صديقته الصدوقة – العزيزة جدًا بالنسبة إليه – هي الوحيدة القادرة على حقنه بدون أن تثير أي قدر من الخوف لديه.

كان الدكتور جون كيرمان رجلاً صالحًا، فامتد عطفه وكياسته ليشملا البشر والحيوانات على حد سواء، لكنه لم يظن للوهلة الأولى أن من الحكمة الموافقة على طلب بيبي بالقيام بمنح الجرعة القاتلة إلى الكلب بنفسها. وعلى الرغم من أنها تبدو راشدة بالنسبة إلى عمرها، بيد أنها ما تزال في السادسة عشر فقط. لكنها استطاعت سريعًا إقناعه أنها على قدر المهمة عاطفيًا وذهنيًا على حد سواء. خلال ذلك الأسبوع، عندما كان يقوم بتخدير كلب بغية غسيل الأسنان أو إجراء ما، كان الدكتور كيرمان يرحب بحضور الفتاة في غرفة الجراحة ورؤية كيف يجري إدخال القسطرة في عرق في الساق. وقد حضرت أيضًا جلستي قتل رحيم طارئتين، فراقبت الحدث بهدوء وانتحبت لاحقًا في المنزل. وقد تدربت على الإدخال المائل للإبرة باستخدام العنب الأخضر والمحاقن الجلدية.

في صبيحة اليوم العاشر من تلقيهم التشخيص الخاص بأولاف، بدأت أزمة الكلب؛ إذ عانى من ضعف مفاجئ في ساقيه، وبات يتنفس بصعوبة، وبدأ يئنّ من الألم. حضر جون كيرمان إلى المنزل الصغير مع حقيبته الطبية، فأكد أن اللحظة قد حانت، فوضع الأدوات التي ستحتاج إليها بيبي على الدرج المجاور لفراشها.

حمـل ميـرف أولاف إلـى الفراش، وقد تركـوا الفتاة بمفردها مع الكلب للحظات، فلعلها تنظر في عينيه وتهمس بود إليه وتعده بأنهما سيلتقيان مجددًا ذات يوم في عالم بلا موت.

عندمـا أصبحـت بيبي مسـتعدة، عاد الطبيـب البيطري للوقوف على أحد الجانبين والمراقبة، وهو على استعداد للتدخل إذا ما فقدت الفتاة الشجاعة أو بدت على وشـك أن ترتكب خطأ في الإجراء. جلس كل من نانسـي وميرف على الفراش برفقة أولاف، حتى يثبتاه ويداعباه ويهدئا من روعه.

لم يظهر الكلب خوفه المعتاد لدى رؤية الإبر، وإنما راقب يدي صديقته باهتمـام. كانتـا يديـن رقيقتين ولكن قويتين وثابتتين في نفس الوقت. وبمجرد أن دخلت القسـطرة في الشـريان الفخذي للسـاق اليسـرى الخلفية وثبّتت في مكانهـا، أدخلـت بيبي الإبرة في أنبوب المسـكّن وسـحبت باحترافية الجرعة المطلوبـة. وعبـر منفـذ القسـطرة، قامت بحقن المسـكّن ببطء. كان أسـلوب الدكتور كيرمان المفضل يمر عبر خطوتين ولا ينطوي على الإجهاز المفاجئ على الكلب، وإنما يجري إدخاله في حالة سبات أولاً. وبينما تدفّق المسكن مـن المحقـن إلـى الوريـد، نظـرت بيبي في عينـي أولاف وراقبتها وقد غطاها النعـاس وأغمضـت للاسـتمتاع بمرقـده الأخيـر. وعندما بـدا أن الكلب يغط فـي نـوم عميـق وأصبحـت على يقين من أنه لن يشـعر بأي فزع عندما تتوقف عضلات صدره، استخدمت بيبي الإبرة الثانية لحقن العقار الذي أوقف قلبه النبيل.

فـي طريقهـا إلـى مقبـرة الكلاب برفقة والديها، جلسـت بيبي في المقعد الخلفي، وهي تضع جثة أولاف الملفوفة في بطانية على حجرها.

كان نظام حرق جثث الموتى من طراز Power–Pak II يقع في بناية أشبه بالمرآب خلف مكاتب مقبرة الكلاب. وعادة إذا أرادت العائلة الانتظار خلال عمليـة الحـرق، فكانـوا ينتظـرون في قاعة الزوار فـي البناية الأمامية. وبعد أن رأت جثـة أولاف وقـد وُضعـت بمفردهـا في جهاز الحرق، أصرّت بيبي على

ألا يُخلط رفاته ببقية الحيوانات، بينما فضّل كل من نانسي وميرف الانتظار في القاعة، حيث كانت هناك مجلات وتلفاز وقهوة. بقيت بيبي في البناية الخلفية، وقد جلست على كرسي في أحد الأركان تراقب جهاز الحرق العملاق وتشهد رحلة رفيقها عبر النيران.

بعد أكثر من ساعتين لاحقًا، عندما قُدم الرفات إليها في جرة صغيرة، كان معدن البرونز ساخنًا في يديها الصغيرتين.

اعتقد شعب الفايكنغ أن المحاربين القتلى ينتقلون إلى السماء عبر فتيات جميلات يُعرفن باسم فالكيري. وعند الكرسي الواقع في نقطة الإلهام، وفي النزهات الشاطئية وغيرها من الأماكن، شرحت بيبي أحيانًا لأولاف أن العالم بمنزلة ساحة حرب، ومن هذا المنطلق، فإن كل الرجال والنساء محاربون، وقد كان هذا جزءًا من فلسفة القائد التي تشاركها معها في السنوات التي سبقت ظهور أولاف. كل الناس يكافحون ويقاتلون بشراسة، أو يحملون السلاح ضد المعتدين. «أنت أيضًا محارب» قالت بيبي، وقد نظر إليها كلب الصيد دومًا وكأنما كان يفهم ما تقوله. وأضافت «تحاول الكلاب فعل الصواب. معظمهم على أي حال. وهم يعانون ويتعذبون ويجوّعون وتساء معاملتهم من قبل أناس لا يستحقونهم. من يدري ما الذي مررتَ به قبل أن تجدني؟ يا محاربي العزيز»

في ذلك المساء – بعد مغادرة المقبرة – كانت بيبي رفيقة أولاف الجميلة، على الرغم من عجزها عن اصطحابه إلى السماء، فعادت إلى حجرتها في المنزل الصغير، حيث تقوقعت لثلاثة أيام مريعة والحزن يغمرها، وكانت غير قادرة على التحدث مع أي شخص، ولا حتى مع والديها.

في اللقاء الذي جمعه بنانسي وميرف – عندما نقل لهما نبأ إصابة بيبي بمرض السرطان – أراد الدكتور سانجاي تشاندرا أن يتعرف أكثر على بيبي، وأن يعرف نوع بنيتها النفسية والشخصية، حتى يتمكن من تحديد الطريقة الأمثل لإطلاعها على ما تعاني منه.

فقـال ميـرف بيبـي فتاة اسـتثنائية. إنها ذكية...وستكتشـف إذا ما حاولت تلميع الحقيقة بأقل قدر...سترغب في معرفة الحقيقة بوضوح ودون تجميل... إنها أقوى مما تبدو.

عندما لم تنقل تلك الكلمات نوع شخصية الفتاة بالشكل المناسب، كان قتل أولاف هو القصة التي شاركها ميرف مع الطبيب.

-42-

كتاب الفهد القافز والغزال

راقبت بيبي كاليدا باترفلاي وهي تفرّ هاربة من الفناء إلى أن اختفت في موقف السيارات في جوف الليل.

بينما كانت تسيطر عليها مشاعر الإثارة والخوف والحيرة من كل ما يجري، نظرت بيبي إلى ساعة يدها، فوجدتها تشير إلى العاشرة وأربعة دقائق. وعندما نظرت إلى الأعلى نحو شرفة الطابق الثالث، فكرت في فراشها. وفي غمرة الهلع الشديد والذهول الذين أبقيا عقلها يفكر بلا انقطاع، شعرت بتعب شديد الذي - إذا سنحت له الفرصة - سيزداد ويطغى عليها. كان ما تبقى من جعة في الزجاجة هو مفتاح الباب المؤدي إلى أرض الأحلام. هل ستكون حقًا في خطر في هذا الملجأ الدافئ حيث حبست العالم وكل مغرياته وكوارثه لسنوات وخلقت عالمها الخاص؟ قالت كاليدا أجل واهربي واختبئي. لكن الاسم كاليدا ليس مرادفًا للحقيقة. عندما غادرت بيبي الشقة، كانت الورود جميلة ورائحتها عطرة مثلما كانت عندما دخلت أول مرة، ولم تكن قد تعفنت مثلما ظنت عندما سحرتها كاليدا عند طاولة المطبخ. أما هنا في الهواء النقي وليل كاليفورنيا الطبيعي، كان بوسعها إقناع نفسها إلى حد ما بأن لا شيء من الأحداث الأخيرة كان غريبًا مثلما بدا حينها.

لكن هذه القناعة لا تكفي. كان قلبها ما يزال يدق بعنف وسرعة شديدين عندما حملت حقيبتها الصغيرة التي أسقطتها حين اصطدمت بالعرّافة، وعلقتها على كتفها الأيسر. وبينما كانت تحمل الحاسوب في يدها اليمنى، بدأت في التوجه نحو موقف السيارات.

كان هناك شيء يقع تحت ظلال أوراق النخيل وضوء المصباح قد لفت انتباهها. التقطته فوجدته كتابًا صغيرًا اعتقدت أنه لا بد أنه قد سقط من حقيبة كاليـدا التـي احتـوت على أدوات قراءة الطالـع. كان الكتاب ملفوفًا في قطعة قماش داكنة عالية الجودة. قدم الكتاب شـخصيتين لامعتين على طراز آرت ديكـو صُممتـا مـن الجلد المرقط والمنقوش، وقد جـرى تصويرهما بالتتابع؛ ظهر فهد يقفز نحو ظهر الكتاب، وغزال يقفز جهة اليمين. ولـم يحمل الكتاب عنوانًا ولا اسم مؤلف.

من مكان قريب، أتى الصياح العميق والأجش والعالي لغراب الليل، مما أفزع بيبي. تفقدت السـماء وهي على يقين من أنها قد سـمعت صياح الطائر فوق رأسـها مباشـرة. ولكن عدا عن صوت مروحية الشـرطة القادم من مسافة بعيدة في هدوء الليل، لم يكن هناك شـيء في السـماوات. كان يسـتحيل عدم ملاحظـة طائـر فـي حجم غـراب الليل؛ إذ كان يبلغ طولـه أربعة أقدام وطول جناحيه ستة أقدام. عندما سمعت الصياح مجددًا - بصوت أعلى وأطول عن ذي قبل - لم يبدُ تعبيرًا شائعًا من الطبيعة، وإنما تعبيرًا خارج الزمن، وتحذيرًا غامضًا غرضه إيقاظها من غفلتها. خرجت بيبي مسرعة من الفناء ودخلت إلى موقف السيارات، على أمل الرحيل قبل ظهور الأشخاص الخطأ.

-43-

قبل ست سنوات - ثلاثة أيام في حجرة مقفلة

انتهت القصة التي أخبر ميرفي الدكتور سانجاي تشاندرا بها بحرق جثة أولاف وعودة بيبي إلى حجرتها، حيث بقيت ثلاثة أيام بمفردها مع الجرّة التي احتوت على رفات أولاف. بدا أن هذه هي النهاية الطبيعية للقصة، ولكن كان هناك فصل أخير معروف فقط للفتاة. لعله لا يرتقي إلى فصل كامل، وإنما مجرد مقطع ختامي لا يعرف أحد سوى بيبي مداه وصعوبته.

في أي عائلة أخرى، ما كانت فتاة في السادسة عشر من العمل لتتمكن من حبس نفسها في حجرة نوم مقفلة لثلاثة أيام كاملة، وتتغذى على التفاح ورقائق الجبنة وزبدة الفول السوداني، واللوز المحمص الجاف. عندما كان والداها ينامان، كانت تتسلل خارجة لاقتناص بعض الصودا والمياه المعلبة من الثلاجة. وقد رفضت الرد على أسئلتهما عبر الباب، على الرغم من أن والديها منحاها الهدوء اللازم في الساعات القليلة الأولى.

لطالما أحبها والداها بشدة ودون تحفظات، ولطالما تمنوا الأفضل لها، لكن حبهما لم يرتقي لمستوى التوقعات. فلم يمنحاها الإرشاد اللازم بخصوص أي شيء بخلاف آداب المنزل. ولم يخبراها قط أن أي سبيل أو طموح بعينه أفضل عن أي شيء آخر قد تفعله أو تتمنى تحقيقه. كانت سياستهما - إذا كانت لديهما أي سياسة - تحررية، وقد نما حبهما لابنتهما في حديقة تحررية. وإذا كان سلوكهما في هذا الصدد قد اختلف، لكانت العائلة مكانًا لشجارات وتوترات لا تنتهي، لدرجة أنه عندما كانت بيبي في السادسة أو السابعة من العمر، كانت لديها مواقف تجاه بعض الأمور تختلف عن مواقف والديها.

عادة أثناء صغرها، علّق أقرباؤها وأشخاص آخرون على طبيعتها الهادئة والمتحفظة (في إشارة منهم إلى أنها تبدو خجولة أو ربما ساذجة حتى)، وقد لاحظوا أنها بدت جسورة ومعتمدة على نفسها أكثر مما يليق بعمرها (يقصدون بذلك أنها تبدو غريبة للأنظار ومريبة)، ولطالما عبروا عن قلقهم الصادق من أنها تأخذ كل شيء على محمل الجد، وأنها تنهمك في أي نشاط تؤديه – سواءً كان ذلك قراءة الكتب أو التزلج على المياه أو سباقات التزلج الأرضي أو تعلم عزف المزمار – بشكل مزعج (حيث أرادوا تحذيرها من أنها ربما تعاني من اضطراب الوسواس القهري)، وذكروا بنبرة مديح يشوبها القلق من أنها قد تكون عبقرية أو معجزة، أو على الأقل موهوبة (حيث تحاشوا التصريح علنًا أنهم يجدونها شخصية غريبة إلى حد ما). أدرك كل من نانسي وميرفي أن – بطريقة ما على الأقل – كائنًا دخيلاً يعيش معهما؛ مخلوق ودود من عالم آخر أحبهما لكنه كان يجهل أمورًا رئيسية عنهما، مثل عقيدة لا مفرّ مما هو مقدر التي تشكل ركيزة إيمانهما، وقد كانا متسامحين مع اختلاف ابنتهما.

وهكذا – مع وجود الجرّة التي تحوي رفات أولاف بالقرب منها على الدوام – أمضت بيبي ثلاثة أيام في عزلة، على الرغم من أنها لم تكن وحيدة قط ولم يتملكها الملل بكل تأكيد. لدى مكتبها الصغير الواقع في ركن الحجرة، وعلى كرسيها ذي الذراعين، أو وهي جالسة على الفراش، كانت تبكي بأسى وتكتب لساعات متواصلة. أحيانًا كانت تدون في مذكرتها، وفي أحيان أخرى كانت تؤلف قصصها الخيالية على لوح مسطر، ولم يرتبك أسلوب كتابتها السلس قط، مهما أطالت زمن الكتابة.

كانت تكتب والوله يتملكها في أحيان كثيرة، وعقلها ممتلئ بالأفكار والحكايات الخيالية، وتظل على هذا الحال لساعة أو ساعتين بدون أن ترغب أو تكون على استعداد لرفع عينيها عما تكتب. وعندما كانت بمفردها مع رفات أولاف، كان هذا الوله مصحوبًا بيأس وأسى شديد لم تعهدهما من

قبل. وكان هدفها الأساسي خلال تلك الأيام الثلاثة هو التخلص من بعض الأفكار السيئة – أو فكرة بعينها – التي يبدو الانتحار بالمقارنة بها فعلاً رحيمًا.

أجهدت نفسها بالكتابة، لدرجة أنها إذا غطت في النوم، لم يكن يتبقى لديها مخيلة قادرة على تأليف القصص وهي نائمة. لكن أحلامها امتلأت بمغامرات مميتة وتهديد وغموض. وقد حلمت مرارًا – ولكن ليس حصرًا – بشخصيات مخيفة فارعة الطول في أماكن وسيناريوهات متنوعة. وعندما كانت تلك الشخصيات تلاحقها، كانت تستيقظ فزعة كل مرة، وهي على يقين أنه كان يفترض بها الموت أثناء نومها لو أنها قد لمحت أكثر من مجرد ضوء القمر الشاحب المنعكس على وجوههم.

في اليوم الثالث، تذكرت بيبي حيلة تساعد على النسيان كان القائد قد علمها إياها. في أكثر من حرب واحدة، رأى القائد أشياء – الآثار الدموية لفظاعة الإنسان، النابعة من أظلم نهاية في طيف التوحش – أرّقت منامه ليلة تلو الأخرى، وتركته قانطًا. لم يتحمل العيش مع تلك الذكريات. وكان قد تعرف على حيلة النسيان هذه عبر كاهن غجري أو فيتنامي، أو ساحر عراقي. لم يتمكن القائد من تذكر هوية فاعل الخير الذي ساعده، وهذا بلا شك لأنه استخدم هذه الحيلة السحرية لنسيان ذلك الشخص أيضًا. على أي حال، كان أول ما يتعين على المرء فعله هو تدوين الذكرى التعيسة أو الرغبة المتهورة أو النية السيئة على قصاصة ورق؛ وقد أفلحت هذه الحيلة في أكثر من مجرد التخلص من الذكريات التافهة. بعد ذلك، تقول ست كلمات لديها قوة كبيرة بإخلاص شديد ومن أعماق قلبك. وبعد أن تتلوا تلك التعويذة، تقوم بوضع قصاصة الورق في مرمدة أو وعاء، وتقوم بإشعالها. أو تقوم بقص الورقة إلى قطع صغيرة وتتخلص منها في مقعد المرحاض، أو تدفنها في الأرض. إذا نطقت تلك الكلمات السحرية بتواضع، وكنت صادقًا تمامًا مع نفسك حين زعمت رغبتك في النسيان، ستحصل على ما تريد.

نسيت بيبي، ولكن ليس إلى الأبد كما اتضح، لسنوات الفكرة السيئة

التـي دوّنتهـا علـى قصاصة الورق؛ ذلك الشـيء الـذي أرادت – وكادت – أن تفعله وكان سيدمر حياتها. ظلت حزينة بشدة، لكنها تخلصت من الخوف مع الذكرى. لم تراودها أحلام حين نامت تلك الليلة وعادت إلى حياتها الطبيعية في اليوم التالي.

كانت هذه هي المرة الثالثة التي تسـتخدم فيها طريقة القائد في النسـيان، بيد أنها لم تكن تتذكر المرتين الأولى والثانية.

-44-

التأقلم مع الفزع

في موقف السيارات الواقع خلف الشقق، وفرت المركبات المتوقفة والعواميد السميكة التي تحمل أسطح مواقف السيارات الواقعة في الهواء الطلق غطاء لأي شخص يضمر نوايا سيئة. وفي أفضل الأحوال، توقعت بيبي ظهور الرجل الذي احتدّ عليها بسبب لوحة الرخصة المموهة.

مشت مباشرة نحو سيارتها من طراز فورد إكسبلورر، التي كانت متوقفة بجوار سيارة البي إم دبليو الخاصة بنانسي. وبينما خطت بقدميها، تفقدت المكان المظلم تحسبًا لظهور شخص مريب، فكانت على استعداد لإسقاط الحاسوب وسحب المسدس من جرابه لتحذيره. وصلت إلى سيارتها بسلام، وبمجرد أن جلست على مقعد السائق، أقفلت كل الأبواب دفعة واحدة.

شعرت بالغباء لتساؤلها عما إذا كانت السيارة ستنفجر لدى تشغيلها المحرك، وبطبيعة الحال لم يحدث ذلك. وأيًا يكن نوع الدراما الواقعية التي وجدت نفسها عالقة فيها، فقد كان الوضع إلى حد الساعة خاليًا من مغامرات أفلام المافيا السخيفة.

بمجرد أن خرجت من موقف السيارات وانعطفت يسارًا، أضاءت مصابيح أمامية من سيارة خلفها، فلمعت في مرآة الرؤية الخلفية خاصتها. تبعتها سيارة سيدان إلى داخل الشارع. وعندما انعطفت يمينًا في أول تقاطع للطرق، فعلت السيارة الأخرى الشيء نفسه. وبعد منعطفين آخرين، لم يعد لديها شك في أنه يجري تتبعها.

هل يكون هذا أحدهم...أحد الأشخاص الخطأ المجهولين؟ تساءلت

وهـي تتمعـن فـي المصطلـح للمـرة الأولـى. كلا. التفكير المنطقـي يقول إن الأعداء ذوي القدرات الخارقة - التي يبدو أن الأشـخاص الخطأ يمتلكونها - لا يحتاجون إلى الركون إلى حيل المحققين الخاصين التقليدية، فيتلصصون عليها بنفس الكيفية التي يراقب بها المحقق الخاص زوجة مشتبه في خيانتها.

كان هنـاك سـبيل وحيـد لاكتشـاف هويـة المتتبع في السـيارة، لكن بيبي ترددت في الانخراط في مواجهة. شعرت بالامتنان لباكستون لتشجيعها على اقتنـاء سـلاح وتعليمهـا كيفيـة اسـتخدامه، لكن الحقيقة الصعبـة هي أن اقتناء مسدس - والمعرفة الجيدة بطريقة عمله - ليسا كافيين لتوجيه السلاح صوب شخص آخر وسحب الزناد. ظلت لخمس دقائق تسلك الطرق بشكل عشوائي، وهـي تفكـر في البدائـل المطروحة. كان متتبعها يبتعد حينًا ويقترب منها حينًا أخرى ثم يبتعد مجددًا، بل وأتاح لسيارة أخرى أن تأتي بينهما وتخفيه، لكنه لم ينصرف بعيدًا مثلما أملت.

أصبحـت أخيـرًا غاضبـة بمـا يكفـي لمواجهة المشـكلة. قادت سـيارتها نحـو طريق باسـيفيك كوسـت السـريعة، صـوب منطقة ضمّـت مجموعة من المطاعم والملاهي الليلية، حتى تضمن تواجد الكثير من السيارات وما يكفي مـن الشـهود بما يجعلها تشـعر بالأمان. وصلت إلى إحـدى تقاطعات الطرق وتوقفت في أول الصف في إحدى إشارات المرور التي تحولت إلى الضوء الأحمر. كان المتلصص خلفها بسـيارتين، ولا يظهر في زاوية الرؤية بسـبب سـيارة من طراز كاديلاك إسـكاليد. ركنت السـيارة وشدت المكابح وخرجت منها.

بينمـا كانـت تمـر بجانـب سـيارة الكاديلاك - التي لمعـت بقدر كبير من الزينة المتواضعة - أظهر لها الرجل الجالس خلف المقود امتعاضه الشديد، وأنزل النافذة وقال بلا مبرر «الطريق ليس ملكًا لكِ أيتها الساقطة». قامت في غضـب بالتأشـير بإصبعهـا علـى عنقها، مهددة إياه بجـز عنقه، وتركته قلقًا من أنه قد هاجم مخبولة عنيفة.

كان المتلصص يتقوقع في سيارة لكزس سوداء. ومع أن الزجاج الأمامي كان نصف معتم بسبب انعكاس ضوء مصباح الشارع عليه، فإن هوية السائق كانت واضحة بقدر ما كانت مفاجئة؛ إنه تشاب كوي. مدير الأمن في المستشفى، الذي اتهم بيبي بالكذب بشأن زيارة منتصف الليل من قبل الرجل وكلب العلاج. جلس تشاب كوي مثل السيد تواد المتجهم خلف مقود اللكزس، وهو غير قادر على مقاومة غريزة الشرطي بلا شك.

في اللحظة التي رأى فيها بيبي، انعطف كوي بسيارته إلى اليسار، فكاد أن يصدمها بالمصدات الأمامية، وتجاوز الخطين الأصفرين نحو الطرق المؤدية إلى الاتجاه المعاكس. وعلى وقع سمفونية من أبواق السيارات وصفير المكابح، أكمل انعطافاً لمائة وثمانين درجة وفرّ هارباً في جوف الليل.

-45-

لا ملجأ من أعدائها

ارتعدت بيبي بلير بعنف عندما جلست خلف مقود سيارتها وأغلقت باب السائق. لم يكن السبب في ذلك الخوف بالدرجة الأولى، مع أنه كان أحد الأسباب. إنه الغضب؛ أجل. كان خرق كوي خصوصيتها قد أغضبها، لكنها كانت تستشيط غضبًا، وليست حانقة وحسب. كان السبب الرئيسي لغضبها وصدمتها واستيائها هو الغياب الكامل للمنطق في أي شيء يحدث في العالم، والاستياء من التشابك المفاجئ للمسارات في حياتها، التي أمضت سنوات طويلة تشكلها على هيئة قصة واضحة وجميلة ومحبوكة. كان موضوع كاليدا في مجمله غير منطقي؛ فتح الباب المطل على عالم آخر تبدو فيه رائحة الورود متعفنة وتقبع خلفه قوى معادية من غير البشر. وفاعل الخير الملثم وكلبه الذين ظهرا في بعض كاميرات المراقبة ولم يظهرا في أخرى. والآن تشاب كوي وغريزة الشرطي التي تؤرقه، وهو يسير في أثرها ليلاً بعيدًا عن منطقة نفوذه، التي تمتد على مساحة المستشفى فحسب. وعندما فكرت فيما جرى من قبل، باتت متيقنة أن الرجل الذي اتصل بها هو كوي، ليسألها عن معنى لوحة عميل سري. كان قد ظهر في حياتها قبل كاليدا باترفلاي، وقبل جلسة قراءة الطالع التي يفترض أنها استدعت القوى الخارقة للطبيعة إليها، وقبل أن تسمع بيبي بشأن الأشخاص الخطأ، وهكذا فإن التفكير المنطقي يؤكد أن كلاً من هذه الأحداث الغريبة مرتبطة ببعضها.

ضغط سائق سيارة الإسكاليد خلفها على البوق بعنف في اللحظة التي تبدل فيها لون الإشارة، وقد عاد إلى طبيعته الوقحة مجددًا، بعد أن تبين الآن

أن بيبي ليست مخبولة عنيفة.

وبعـد بضعـة دقائـق – عنـد رصيف شـارع سـكني تحفّه أشـجار القيقب الشـائخة والضخمة التي تسـاقطت أوراقها في نهاية الشـتاء – ركنت سـيارتها بغيـة التفكيـر. أطفـأت المصابيـح الأمامية لكنها تركـت المحرك يعمل، لأنها شـعرت بأمان أكبر إذا ما بقيت قادرة على الابتعاد سـريعًا عن الرصيف إذا ما اقتضت الضرورة.

فكري، قالت في أعماقها. بما أن كل شـيء ضربته الفوضى في شـقتها، كانت ترد بعاطفة حيوانية على ما يجري، بدلاً من اللجوء إلى هدوئها وتفكيرها المعتـاد. كانـت تلعـب وفقًـا لقواعدهـم؛ تلك القواعد السـخيفة التي وضعها أشـخاص فقـدوا عقلهـم. وقـد أدركـت الآن أنـه بفعلهـا ذلك، فقد سـاعدت فـي زيـادة جرعـة الجنون. فكري، قالت فـي أعماقها مجددًا. كانت الأحداث غير الواقعية والمسـتحيلة التي وقعت تحمل في طياتها تفسـيرًا منطقيًا لو أنها فكرت فيها بما يكفي، وحينها، فإن التهديدات التي تنهال عليها من كل حدب وصوب إما ستتبدد أو ستختفي دفعة واحدة. فكري.

رن جرس هاتفها، فأظهرت هوية المتصل أن بيبي تتصل بنفسـها. كانوا يسخرون منها إذًا؛ يا لهم من أوغاد أذكياء. أيًا كانت هوية الأشخاص الخطأ فعلى ما يبدو أنهم خبراء في التقنية.

ردَت بيبي بكلمة واحدة قائلة «مرحبًا؟»

فقـال رجـل بصـوت ناعـم مغوي «مرحبًا يا بيبي. هل عثرتِ على آشـلي بيل بعدُ؟»

أخبرت نفسـها أنها بمشـاركتها في أي نقاش، سـتلعب وفقًا لقواعدهم، لكنها لو أنهت الاتصال، فلن تحصل على أي معلومة مفيدة. قالت «من هذا؟»

«كانت كنيتي وقت الولادة فوكنر».

من هذا الرد العجيب، استنتجت بيبي أن الغموض والمراوغة هما أسلوبه الرئيسي، لكنها جارته في لعبته. قالت «هل لديك أي صلة قرابة بويليام فوكنر؟»

«يسرّني أن أقول لا. أنا أكره معظم الكتب ومؤلفيها، لذا فقد غيرت اسمي. أنا الآن – وكنتُ كذلك منذ زمن طويل – معروف باسم بيركيناو تيريزن». قام بتهجئة الاسم لها. وأضاف «أصدقائي ينادونني بيرك».

اشتبهت في أن يكون اسمًا كهذا مدرج في دليل التليفونات الخاص بمقاطعة أورانج، وفي جداول الناخبين، أو في سجلات الضرائب. سألته «كيف يمكنني أن أساعدك يا سيد تيريزن؟»

«أنا أقف داخل شقتكِ الآن».

لم تبتلع الطعم.

أضاف تيريزن «إذا سمحتِ لي، ذوقكِ جميل، لكنكِ تفتقدين القدرة على اقتناء أشياء ثمينة. والنتيجة هي محاولة جادة ولكن رديئة لفرش المكان. والداكِ ثريان، فلماذا لا تأخذي مالاً منهما؟»

«أموالهما تخصهما. سأجني المال الخاص بي»

«ربما تنجحين في ذلك وربما لا. لقد عثرنا على الرواية ذات المائتين وثمانية وأربعين صفحة التي تعكفين على كتابتها الآن، وسوف نصادرها، إلى جانب حاسوبك. سندمر كلاهما».

نظرت بيبي إلى الحاسوب المستقر على مقعد الركاب. كان هناك نسخة من الرواية على ذاكرته.

قال تيريزن «سنحصل على الحاسوب المحمول أيضًا».

لم تكن بيبي لتشعره بالرضا عبر الرد على تلك المحاولة البائسة لجعلها تعتقد أنه قادر على قراءة عقلها.

«وإذا قمتِ بنسخ الرواية على ذاكرة محمولة، سنصادرها هي الأخرى ونحطمها».

على الرصيف، اقترب رجل تحت ضوء مصابيح الطريق وظلال أشجار القيقب. كان يسير بجوار كلب من فصيلة جيرمان شيبارد.

قالت بيبي للرجل «ماذا تريد مني؟»

«أن أقتلكِ فحسب»

مرّ الرجل وكلبه بجوار السيارة، فراقبتهما وهما يبتعدان في المرآة الجانبية.

قال تيريزن «كنتُ أفضّل ألا يكون ذلك عبر وسـيلة شـائعة مثل رصاصة في الرأس. إنه أسـلوب مبتذل للغاية بالنسـبة لكاتبة ظهرت قصصها القصيرة في مطبوعات مرموقة. أما الموت بسـبب ألف طعنة سـيكون لطيفًا، لا سـيما إذا استخدمنا ألف قلم رصاص حاد وتركناكِ تتعذبين مثل القط الجريح».

بدا هذا الرد وكأنه مقتبس من مسلسل درامي تافه، لذا بقيت صامتة.

«نحن نؤمن بالعدالة يا بيبي. ألا تعتقدين أن كل الكائنات الحية تستحق العدالة؟»

قالت «أنت كذلك»

«خلايـا السـرطان كائـن حـي يا بيبي. هل توقفتِ قـط للتفكير في ذلك؟ إنهـا مهتمـة بالحيـاة، وهـي تنمو أسـرع من الخلايا العادية. الـورم كائن حي، ويستحق العدالة».

قالت بيبي بحذر حتى لا تبدو متذمرة بما يدل على الضعف «لـم أمسّك بسوء»

«لقـد أهنتينـي. لقـد أهنتينا جميعًا عندما سـمحتِ لمدلكتك الجاهلة بأن تطلب إجابات. لماذا تعافت بيبي بلير من السـرطان؟ الإجابة بسـيطة للغاية؛ حتى تموت بطريقة أخرى»

لم تكن بيبي تأمل في أن التحدث بالمنطق مع مجرم مختل سيبدل طريقة تفكيره، بل وكان من الممكن أن تشـعل نيران جنونه وتجعله أكثر جنونًا مما هو عليه بالفعل.

مـا كان بوسـعها النجـاة بإغـلاق الخط في وجهـه والتظاهر بأنه لا وجود له. سلكت الطريق المباشر وقالت «من تكون آشلي بيل؟»

تغيـرت نبـرة صوتـه بشـدة وهو يقول «أنتِ لا تعتزميـن أخذ هذه الرحلة المثيرة للشفقة على محمل الجد، صحيح؟»

«وما شأنك في ذلك؟»

بدلاً من الإجابة على سؤالها، قال تيريزن «بالنسبة إلينا، أنتِ مجرد حشرة بلا قيمة؛ شيء ندهسه دون أن نلاحظ. لا أمل لديكِ في العثور عليها. سنعثر عليكِ أولاً ونضع حدًا لهذا. هل تعرفين يا بيبي الجميلة أن كل هاتف ذكي هو جهاز لتحديد المواقع أيضًا؟ حيثما تذهبين، يبلغ الهاتف الخائن عن مكانكِ أولاً بأول»

كانت على علم بهذا بطبيعة الحال، لكنها لم تتصور قط أن تكون مطاردة.

«أي شخص لديه العلاقات المناسبة مع الشرطة أو مع شركات تقنية بعينها يمكنه العثور عليكِ في أي لحظة من أي يوم. وأي شخص يملك القدرة على اختراق أنظمتهم يمكنه العثور عليكِ يا حشرتي الجميلة»

شعرت أن الهاتف حي ويتنفس في يدها.

أضاف تيريزن «وسيارة الفورد إكسبلورر خاصتكِ التي اشتريتيها قبل ثلاث سنوات من حر مالكِ – ويا له من دليل رائع على استقلاليتكِ – بها خاصية تحديد المواقع هي الأخرى. يمكن تتبعكِ عبر الأقمار الاصطناعية حيثما تذهبين. وبالمناسبة، إذا لجأتِ إلى والديكِ طلبًا للمساعدة، سنقتلهما أيضًا»

أغلقت الهاتف ورمته أرضًا، رغم علمها أن هذا ليس كافيًا. كانت الإشارة الدائمة الصادرة عنه ما تزال ستحدد مكانها. وعلى الرغم من أنها أوقفت محرك السيارة، فإن هذا غير كافٍ أيضًا.

فتحت حقيبتها، وحشرت داخلها كتاب الفهد والغزال النحيف، ثم أقفلتها، وجلبت الحاسوب الذي يحوي داخله النسخة الوحيدة الباقية من الرواية غير المكتملة. بعد ذلك، فتحت الباب وترجلت من السيارة.

بتركها الهاتف والسيارة، تكون قد استسلمت لاحتمالية مستحيلة. وإذا كانت تعتقد أن الأشخاص الخطأ يمكنهم العثور عليها عبر وسائل تقليدية مثل التكنولوجيا الفائقة، فيبدو أن عليها تقبل أن هؤلاء الأشخاص – وعندما

عقدت كاليدا جلسة قراءة الطالع – قد جرى لفت انتباههم إلى الجلسة عبر المكافئ النفسي لأمواج الزلازل التي يمكن تتبع مصدرها.

ظهرت أضواء مصابيح أمامية على بعد ثلاثة شوارع غربًا، فكانت تومض بشكل غريب بضوء أبيض مثل الثلج عبر أشجار القيقب، وكأنه الضوء الساحر المنبعث من سفينة فضاء خارجية، الذي يمدد ظلال الأغصان العارية حتى تنكسر. وعندما استدارت بيبي على وقع صوت محرك، واجهت المزيد من المصابيح الأمامية على بعد شارعين شرقًا، بعد أن انعطفت سيارة دفع رباعي ضخمة من ركن الشارع وبدت وكأنها ممتلئة بأفراد وحدة اغتيال تابعة للاستخبارات المركزية الأميركية. بدت تلك اللحظة درامية للغاية على أن تؤخذ على محمل الجد، لكن بعضًا من الشخصيات الشريرة الأقل مصداقية في الأفلام خلال العقود القليلة الماضية ظهرت في السنوات الأخيرة في العالم الحقيقي، واشتهرت للغاية كأي شخصية مختلة أداها ممثل يبالغ في التمثيل. كان الفرار شرقًا أو غربًا بمنزلة الجري بين فكي كماشة، بينما كان الاتجاه جنوبًا يحتاج المرور عبر الشارع على مرأى ومسمع من المارة.

بعد أن لم يتبقى لديها بديل مناسب، وبعد قليل من التردد، تقبلت بيبي حقيقة هذا العالم المظلم والغامض الذي وجدت نفسها فيه. عبرت الرصيف جريًا، نحو العشب الأمامي لمنزل محاط بسور خشبي، وذي سطح مائل، وزخرفة بيضاء اللون، وشرفة أمامية عميقة، ونوافذ تلمع مثل ألواح فانوس مضاء بالشموع. كان هذا مكانًا يمكنك اللجوء إليه بعد يوم طويل وشاق، حيث تشعر وكأنك قد عدت إلى بيتك مجددًا. لكنه لم يكن بيتها، وقد اشتبهت في أنها إذا حاولت اللجوء هناك، فإن قرعها على الباب سيستدعي تشاب كوي أو الشخص الذي كان يدعى فوكنر وبات يدعى بيركيناو تيريزن، أو شخص ما أكثر غرابة وعدوانية. جرت بجوار المنزل، تحت ضوء قادم من النوافذ، ودلفت إلى داخل الفناء الخلفي المظلم، بدون أن تحدد وجهتها حتى الآن، وهي مدفوعة بغريزة وعدتها بالأمان فقط في الحركة المتواصلة.

-3-

العالم يصاب بالجنون بين حين وآخر

-46-

حيثما ذهبت عندما لم تتمكن من العودة إلى البيت مجددًا

تخلصَت من الهاتف، وهجرَت السيارة، وتشبثَت بالحاسوب المحمول ليس بسبب قيمته أو الوظيفة التي يؤديها، وإنما بسبب الصفحات المائتين وثمانية وأربعين التي لم يعد لها وجود إلا على ذاكرته. دخلت بيبي بلير الفناء الخلفي للمنزل ذي السقف الخشبي، وهي تتساءل عما إذا كانت تهرب من المكافئ المنحرف لمحقق الشرطة الذي ظهر في رواية البؤساء أم تشكيلة متنوعة من الروبوتات القتلة في فيلم المدمر، وكأن ثمة فرق بين أن تتشابه محنتها مع الخيال الكلاسيكي أو فن البوب.

أتى صوت صفير مكابح من الشارع ولكن دون وقوع تصادم. إما أنه كاد أن يقع حادث أو أن مركبتين كانتا تهربان من مطارديهما. كان المنزل محاطًا بأحد تلك الجدران الحديدية المغطاة بالجبس التي أطلق عليها سكان كاليفورنيا اسم السياج. وعند آخر نقطة في موقف السيارات، وضعت بيبي حقيبتها وحاسوبها أعلى السياج، ثم قبضت بيديها على الطوب الذي غطى قطع الجبس، وتسلقت السياج صوب فناء آخر.

وبعد أن استعادت الحاسوب والحقيبة، مرّت بجوار حوض سباحة بالكاد يُرى في ضوء الهلال القمري، مع ضجيج صادر عن مضخة للمياه.

في الممر الواقع بين البيت المظلم والسياج، مالت دراجة مثبت عليها سلة على جدار المنزل. وضعت بيبي الحاسوب والحقيبة في السلة ودفعت الدراجة إلى الشارع، ثم ركبتها وقادتها غريبًا، لتضيف السرقة إلى جريمة

التعـدي علـى ممتلـكات الآخرين. نظرت خلفها، فلم ترَ أحدًا واعتقدت أنهم لن يكتشفوا أنها قد سرقت الدراجة.

إذا كان الأشـرار يتتبعونها مشـيًا على الأقدام، وإذا عادوا إلى سـيارتهم لتوسـيع نطاق البحث عنها، سـتكون في عداد الموتى عندما يمسـكون بها في قلب الطريق. إن أمثالهم لن يخشوا من مخاطرة إعدامها دهسًا أمام الناس.

حينئذٍ، أرادت النزول عن التلال والاختفاء عن الأنظار فوق جسـر شـبه جزيرة بالبوا، حتى لا يتمكنوا من معرفة الاتجاه الذي سلكته. عندما وصلت إلى نيوبورت بوليفارد، انعطفت يسارًا متجاوزة المستشفى، ومالت بشدة وهي تسـلك المنعطف لتقصير المسـافة والحفاظ على السـرعة. وبعد خروجها من المنعطف، دخلت في طريق مستقيمة تقود إلى أسفل التلة، ومن هناك إلى شبه الجزيرة. كانت هناك ثلاث حارات، ولم تتواجد سـوى القليل من السـيارات في تلك اللحظة. لو كانت هناك طريق مخصصة للدراجات، فهي غير مهتمة بالسير فيها، وإنما فضّلت الرصيف الواسع الخالي. كانت الطريق المخصصة للدراجـات ممتلئـة بالحصـى والعصيّ والخردة، وكل أنواع المعوقات التي – عند قيادتك السيارة بسرعة عالية – قد تجعل الدراجة تتمايل وتصطدم بجدار، أو ستسـقطك عـن الدراجـة. كانـت تميل بجسـدها إلى الأمـام وهي تخفض رأسـها وتشـق طريقها في هواء الليل البارد، وكانت تقود الدراجة أسـرع مما فعلـت مـن قبـل قط، متجاوزة بعض السـيارات والحافلات، وتحاشـاها كافة السائقين عندما لاحظوا أنها بينهم. كانت لتبتهج إذا لم تكن تتوقع أن يباغتها الأشخاص الخطأ من خلفها.

كانت قلقة من أن تواجه الشرطة أيضًا. دراجة مجهولة تسير في منتصف الشـارع، ولـم تكـن ترتـدي خوذة مثلمـا نصّ القانون. وكانت تحمل سـلاحًا مختومًا وبحوزتها رخصة لحمله، ولكن ماذا لو حدث سوء تفاهم...

سريعًا وقبل أن تلحظ ذلك، لمع الميناء على يسارها وهي تعبر الجسر. مـرّت مسـرعة علـى المنحـدر الأخيـر المؤدي إلى المسـاكن الكائنة في شـبه

الجزيرة. كان من الصعب العثور على أرض شاغرة هنا وكانت أسعارها باهظة للغاية، إذ عاش فاحشو الثراء والأغنياء في منازل ذات واجهات مائية رائعة مثل تلك التي تظهر على طوابع البريد، وعلى مقربة منها تقبع أكواخ شاطئ قديمة يستأجرها مجموعة من محترفي التزلج ممن يعملون في وظائف وضيعة لساعات قليلة ومقابل أجور بخسة، ويحفظون معظم أوقاتهم لاختراق الأمواج العملاقة أو السقوط من فوقها، لأن كل ما يهم هو التواجد داخل المياه.

شقّ الضباب طريقه على مهل، فحجب عنها الشاطئ والطرق، ونثر الندى البارد على وجه بيبي. تركت الدراجة في زقاق يقع خلف تجمع للمحلات التجارية – التي كانت مغلقة الأبواب في هذه الساعة – وواصلت طريقها سيرًا صوب أقرب رصيفين.

لم يكن المرور مزدحمًا عند نهاية يوم الخميس. وبالنسبة إلى مكان يعجّ بالمباني والسكان، بدت شبه جزيرة بالبوا مهجورة حينئذٍ. وكان من السهل الاعتقاد أن امرأة تتجول وحيدة في هذ الساعة قد تختفي بين أي شارع والذي يليه، بدون أن يراها أحد مجددًا.

بعد أن غطى الضباب اليابسة والماء، اعتقدت بيبي أن المرور بات أشبه بغواصات تبحر في المحيط عبر مدينة غارقة ذات مبانٍ أكثر تواضعًا من جزيرة أتلانتس الأسطورية. عندما وصلت بالقرب من الرصيف – حيث ألقت مصابيح حديدية على الطراز العتيق ضوءًا فضيًا على الضباب، وبدا أن بيبي هي الشخص الوحيد الذي يمكن رؤيته.

لحالات الطوارئ، كانت تحمل مفتاحًا لمتجر والدها. أدخلت الرقم السري في لوحة المفاتيح المثبتة على الباب الأمامي خلال دقيقة التأخير التي يسمح بها نظام الإنذار. وفّرت مصابيح التأمين – التي فصلت بينها مسافات كبيرة لإعاقة اللصوص – ضوءًا كافيًا لبيبي للوصول إلى السلالم الواقعة في الركن اليساري الخلفي للمتجر.

احتل المتجر مساحة وحدتين تجاريتين. وقام والدها بتأجير الغرف في الأعلى، التي كان من الممكن تأجيرها كشقة. كان يستخدم نصف المساحة العلوية لتخزين البضائع، بينما اتخذ النصف الآخر كمكتب له يضم بين جنباته مطبخًا صغيرًا ومرحاضًا ضيقًا مزودًا بدُش.

إلى جانب مكتب ودواليب للملفات، احتوت حجرة المكتب على أريكة مريحة وكرسيين بذراعين. وعلى الجدران، عُلقت خمس ملصقات ذات أطر كُتب عليها صيف بلا نهاية. وكان والدها يرفض بشدة بيع أي منها.

بعد أن أضاءت مصباح المكتب، أقفلت بيبي المصاريع ذات الشقوق، التي كانت ضيقة بما يكفي للسماح لقدر ضئيل من الضوء بالنفاد.

وعندما جلست على كرسي المكتب حيث اعتاد والدها الجلوس، شعرت بالأمان للمرة الأولى منذ أن هربت من شقتها. وقد استقرت بجانب مصباح المكتب صورة ذات إطار لبيبي وأمها.

شعرت برغبة شديدة في الاتصال بهما، لكنها تذكرت التهديد الذي أطلقه تيريزن. إذا ما ذهبت إلى والديها طلبًا للمساعدة، سيقتلهما أيضًا.

تساءلت عما ستقوله الشرطة إذا تواصلت معهم وأخبرتهم بقصتها العجيبة. هل سيعتبرونها خطرًا على نفسها ويطبقون القانون ويحيلونها إلى التقييم النفسي؟ لم تكن السلطات الرسمية ذات نفع لها، على الأقل في الوقت الراهن.

فتحت الحاسوب المحمول وقامت بتشغيله. وكان على المكتب كوب يحوي مجموعة من أقلام الحبر والرصاص. وقد فتحت درجًا في المكتب بحثًا عن لوح أو مفكرة.

من بين الأغراض المحفوظة في الدرج، كان هناك وعاء فضي يحوي كيسًا بلاستيكيًا بسوستة واحدة ممتلئ بأحرف خشبية. حملقت للحظات فيه قبل أن تخرجه.

كان دليل الهاتف الخاص بمقاطعة أورانج على الإنترنت يضم العديد

من الأشخاص الذين يحملون اسم بيل، لكن بيبي لم تعثر على أي أحد باسم آشلي. لعل هناك زوجة أو ابنة باسم آشلي ولكن لم تظهر في القائمة، لكن العثور عليها سيتطلب الاتصال بكل رقم وزيارة كل عنوان ظهر اسم بيل بجواره. ومن المؤكد أن هناك أشخاص آخرين باسم بيل لديهم أرقام غير مسجلة. كانت المهمة شاقة للغاية. وقد تعين عليها التفكير في وسيلة أذكى وأسرع لإجراء البحث.

بحثت عن اسم آشلي بيل على غوغل، فوجدت عددًا منهم في ولايات تمتد من واشنطن وحتى فلوريدا، ولكن لم يتواجد أي منها في مقاطعة أورانج، مما جعلها تشك في افتراضها أن هذه الشخصية هي من السكان المحليين. وقد عثرت على بعض الصور لأشخاص باسم آشلي - ذكورًا وإناثًا - عبر الفيسبوك، لكنها لم تشعر بأي قدر من الارتباط بهم عندما تصفحت وجوههم.

طوال هذا الوقت، ظلت ترمق الوعاء الممتلئ بالحروف الخشبية. لم يكن نفس الوعاء الذي استخدمته كاليدا، فضلاً عن أن حروف العرّافة كانت موضوعة في كيس من الفلانيل وليس كيسًا بلاستيكيًا.

بدأت تسأل نفسها؛ إذا كانت قراءة الطالع عبر الحروف مجرد لهو بالنسبة إلى كل من ميرفي ونانسي، فلماذا يقتني الحروف الخاصة بها؟ هل تحول المرح إلى هوس؟ ولكن بفرض أن كاليدا لم تكن محتالة، وأنها عرّافة موهوبة، فإن الحروف كانت بلا فائدة بالنسبة إلى أشخاص لا يملكون قوتها. هل اعتبر ميرفي نفسه وسيطًا روحيًا من نوع ما؟

بدا الأمر سخيفًا. فالأشخاص الذين بلغوا سن الخمسين وهم يرفعون بابتهاج شعار لا مفرّ مما هو مقدر، الذين كانت علاقتهم بالقدر تحكمها عقلية لا تسأل ولا تقل، والذين لم يظهروا أي قدر من الاهتمام بالمسائل الروحانية، وعاشوا من أجل العمل والتزلج وإمتاع المتزلجين، يستحيل أن يصبحوا فجأة سحرة أكثر من إيمانهم الصادق بطائفة شهود يهوه، ويوزعون المطبوعات التبشيرية من باب إلى باب. وإذا كان والدها قد فقد صوابه، فإن

والدتها قد فقدت صوابها هي الأخرى، لأنه بشكل ما، كل منهما كان نسخة من الآخر؛ ولعل أكثر ما يشفع لهما هو التزامهما ببعضهما البعض بشكل لا يتزعزع. وإن حدث هذا، فإن نانسي على الأرجح ستصبح أقل من ميرفي في السعي خلف المعرفة الخفية. كانت سمسارة شهيرة وبائعة متمرسة للمنازل الفاخرة وتلك التي تحتاج إلى إصلاحات، ومحترفة تزلج على المياه أصرّت على تسريحة شعر قصيرة لأنها وفرت عليها قدرًا هائلاً من الوقت يوميًا من الأفضل قضاؤه في الحفاظ على البشرة السمراء وركوب الأمواج، وشرب الجعة والبيرة، وأكل فليفلات الغالابينوس والهابانيروس الحارة، وهي بلا شك أكثر حماسة بشأن فراش الزوجية عن اهتمامها بطريقة تفكير ابنتها. كانت نانسي راجحة العقل بشدة على أن تنساق خلف فقاعة السعي خلف السحر. وإذا كان هذا هو حال نانسي، فهو بالقطع ينطبق على ميرفي. فلم تكن قراءة الطالع باستخدام الحروف أكثر من مجرد لعبة جماعية بالنسبة إليهم.

بعد أن عملت لبعض الوقت على الحاسوب، أخذت بيبي قسطًا من الراحة لاستخدام المرحاض. وعند طاولة الزينة - بجانب الحوض - عثرت على زجاجة كحول، وعلبة لإبر الخياطة، وقطعة قطن بيضاء ملطخة بآثار دماء قديمة وأخرى جديدة.

-47-

زوار المساء

لم تكن بيبي لتفترض أي شيء بشأن والديها، لا بشأن اهتمامهما بالسحر أو غير ذلك. وكانت تحبهما وتثق بهما. ويستحيل أن يكون معنى الوعاء الفضي والحروف الخشبية وآثار الدماء مثلما يبدو. رمت كل شيء في مؤخرة عقلها، إلى أن يتضح تفسير مبسط للأمر – وهو ما سيحدث بلا شك – أو تبرير مفاجئ يقدم تفسيرًا مختلفًا تمامًا للحقائق، أو إجابة شديدة الوضوح تجعلها تشعر بالغباء لأنها لم تستنتجها على الفور عندما عثرت على الأغراض في المرحاض.

بعد أن تملكها التعب من اليوم الحافل بالأحداث، أخذت زجاجة بيرة من ثلاجة المكتب وجلست على كرسي بذراع. لعلّ البيرة قد تهدئ من روعها بالمعنى الحرفي للكلمة وتساعدها على النوم لبضع ساعات.

بعد أن توقفت عن التخمين بشأن نانسي وميرفي، بدأت تفكر الآن بشأن الشخص الذي يتعين عليها أن تنقذ حياته كردٍ للدين على اختفاء السرطان من دماغها. فكرت مرارًا في ما قاله تيريزن عبر الهاتف. كانت ثقته من أنه سيقتلها قبل أن تقترب من آشلي غير نابعة فقط من تقييمه لبيبي على أنها هدف سهل المنال. لكن المنطق يقول إنه كان على علم بمكان آشلي، وبالتالي كان يعرف كيف سيكون من الصعب على بيبي العثور عليها. وهو ما يبدو أنه يشير إلى احتمال أو اثنين. الاحتمال الأول، ربما تكون آشلي أحدهم – أحد الأشخاص الخطأ – ولديها القدرة على استخدام وسائل خارقة للبقاء متخفية إذا أرادت ألا يعثر عليها أحد. الاحتمال الثاني – وهو الأرجح – أنها سجينة

لديهم، وحبيسة للأسباب الغريبة المعتادة...أو لغرض ما مفزع للغاية. وإذا اتضح أن الأمر كذلك، سيتعين على بيبي النزول عدة مستويات في الجحيم الذي صنعوه كي تخلصها.

كي تخلصها.

كي تنقذ آشلي بيل.

عندما كانت برفقة كاليدا لدى طاولة المطبخ، أصرّت بيبي على أنها لا تمتلك الشغف ولا المهارات حتى تصبح مثل المنقذ الذي يظهر في كتب الرسوم الساخرة وتنقذ الأشخاص الذين لا تعرفهم حتى. لكنها فكرت في هذه المهمة، وقد تغير شيء الآن، ولكن ليس بالضرورة نحو الأفضل. لعلها لم تكتسب الثقة في مهاراتها، ولم تكتشف في داخلها عمقًا أكبر من الشجاعة عما كانت تعتقد أنه كان لديها؛ ولعلها وجدت أنه من الأسهل قبول الأحداث غير المنطقية بدلاً من مقاومتها.

وضعت زجاجة البيرة الفارغة على الطاولة المستديرة الصغيرة بجانب الكرسي وأغمضت عينيها. وعلى الرغم من شعورها بالإرهاق إلى الحد الذي يجعل فكرة رفع ذراعيها عن الكرسي مرهقة في حد ذاتها، بيد أنها شكّت في أنها قد تنام. لم يكن سيل الأفكار الذي يغمر عقلها يعرف التعب. فمنذ مدة بعيدة للغاية، عُرف عنها أنها الفتاة التي لا يتوقف عقلها عن التفكير قط. وبطبيعة الحال، كانت عجلة التفكير هذه تظل تدور وقت النوم، لتنسج باستمرار سلسلة من الأحلام...

وإذا كانت الشخصيات طويلة القامة والملثمة قد ظهرت في أحلامها في تلك الليلة، فقد ظهرت بين مجموعة من الكائنات والأحداث التي نسيتها لاحقًا. أما الجثة الملفوفة بالملاءة التي لعبت دورًا مساعدًا في كوابيسها السابقة – ويبدو أنها ترغب في دور محوري الآن – فقد استقرت في أماكن مختلفة في أكثر من مشهد، وقد منعتها ظروفها المقيدة من أداء أكثر حضورًا. كان عدم مراوحتها مكانها مثيرًا للفضول. وبالنظر إلى أن كل شيء ممكن

في الأحلام، كان بوسع الجثة الخروج من شرنقتها وفقًا لرغبة عقل الحالم، وكان بوسعها الكشف عن وجهها والجروح التي أصابتها بينما هي ترقص أو تهدد أو تندفع على مسرح الأحداث في مناجاة مهيبة. ولكن بدلاً من ذلك، فقد ظهرت في حجرة المستشفى مثلما ظهرت من قبل؛ على كرسي بجوار النافذة، وكفنها يتلون بضوء شمس الغروب، وتتحدث من وراء حجاب قائلة «الهيئات...الهيئات...أشياء غير معروفة». أو جلست بجوارها على الأريكة الخشبية في شرفة المنزل الصغير، وهي تكافح بلا فائدة للمس بيبي عبر الكفن القطني وهي تهمس «...الأستاذ الأعظم...» و«...لا بد أن يكون حقيقيًا...» و«...لا شيء...لا شيء على الإطلاق...». أو أن بيبي فتحت بابًا فوجدت الجثة المكفنة تقف عند العتبة وتقول «...قوى الطبيعة...»

على الرغم من أن بيبي كانت متعبة – وهي ملقاة على كرسي المكتب – فإن مواجهتها مع الجثة لم تُخفها بما يكفي لإيقاظها من نومها. لكن كابوسًا أكثر رعبًا شقّ طريقه إليها لاحقًا، وكان أكثر رعبًا لأنه لم يكن مجرد حلم...

كانت صغيرة – لم تكن قد بلغت السادسة من العمر بعد – ووحيدة في فراشها، حيث كان الليل قد أسدل ستائره على نوافذ المنزل. كان الضوء الوحيد ضعيفًا ويقتصر بشكل كبير على الركن الأبعد من الحجرة حيث جرى توصيل مصباح على شكل ميكي ماوس بأحد المقابس. إن بيبي طفلة صغيرة، لكنها لم تكن تخشى الظلام؛ إذ كانت تشعر بالخجل من قبل ميكي ماوس اللامع هناك في نعاله الصفراء وسرواله الأحمر وابتسامته العريضة البلهاء. كان والداها قد اشتريا المصباح بقوة خمسة واط قبل أسبوع لأنهما اعتقدا أن كل الأطفال يحتاجون إلى الاطمئنان في الظلام. حسنًا، ربما تكون بيبي صغيرة، لكنها ليست رضيعة. فقد تجاوزت هذه المرحلة منذ زمن طويل للغاية. ووجود ميكي الأحمق لحراستها يشبه إخبارها أنها ما تزال رضيعة وستبقى كذلك إلى الأبد. كانت تنهض من فراشها في بعض الليالي وتطفئ الفأر المضيء الأحمق. ولم تكن ترغب في جرح مشاعر والديها، وهو ما

جعلها لا تقدم على التخلص من ميكي أو وضعه في المرحاض حيث لعله لا يغضبها كثيرًا. كانت حقًا تبغض وجوده هناك، حتى تلك الليلة. أما الآن فهي ممتنة أنها ليست في ظلام دامس.

كانت تتمدد على ظهرها في الفراش، والأغطية مرفوعة حتى ذقنها، وهي تصغي بتمعن في انتظار تحرك ذاك الشيء. بين حين وآخر، كان يزحف أو يتزلج أو يفعل شيئًا ما للتنقل في الحجرة. لكنه ما كان يلبث يسكن لبعض الوقت، وكأنه كان يفكر في خطوته التالية، أو يفكر فيمَ يرغب أو كيف يحصل عليه. كان هذا الوضع قائمًا منذ أكثر من ساعة.

في السابق – وقبل أن تبدأ الأحداث السيئة في الوقوع – كانت هناك أصوات وموسيقى التلفاز – الذي كان يعمل بصوت منخفض في حجرة المعيشة – وهو ما كان أمرًا لطيفًا. ولو أن تلك الأصوات كانت تتردد الآن، لشعرت بيبي بشجاعة أكبر عما هي عليه الآن. لكن الهدوء كان يسود المنزل، لذا فعندما يقرر ذاك الشيء التحرك مجددًا، ما كان بوسعها سوى الاستماع إلى الضجة المنخفضة التي يحدثها. لم يكن هذا ليعتبر أمرًا مزعجًا لو كان هذا الشيء يشبه ميكي، ويتنقل في الأنحاء محدثًا أصوات الفئران. حينئذٍ، كانت ستنهض عن الفراش وتحاول أن تكسب ثقته، وأن تمسكه بلطف وتحمله إلى الخارج لتتركه يمضي إلى حال سبيله. إن للفأر أصوات لطيفة، والفأر كئان يخاف وليس خطرًا وإنما يفزع. إلا أن هذا ليس فأرًا، ولا تعتقد أنه يخاف.

تحاشت بيبي الصراخ أو طلب النجدة، فهذا سلوك طفولي بامتياز. وإذا جاء والداها مسرعين، فلعلهما لن يعثرا على أي شيء. وحينئذٍ، سيسخران منها أبد الدهر. ثمة شيء ما هنا في حجرة النوم برفقتها ولا ريب، ولكن ربما هي فقط من يمكنها رؤيته وسماعه. هكذا يبدو الأمر أحيانًا في القصص وعلى التلفاز. وهناك مبعث قلق آخر؛ إذ لعل والديها سيرونه ويسمعونه، ولعله سيؤذيهما. وإذا آذاهما، سيكون هذا ذنب بيبي. لذا فبدلاً من الصراخ، جلست تتمنى أن ينصرف ذاك الشيء، وكلما بات صامتًا، تظنه قد غادر. لكنه لم يكن

كذلك. تقول العمة إديث – التي تأتي أحيانًا لزيارتهم من أريزونا – إذا كانت الأمنيات أسماكًا، لما بات أحد جائعًا. لكن بيبي تمنت انصرافه على أي حال بلا فائدة.

إلى جانب أمنيتها بانصراف ذاك الشيء المرعب، تمنت بيبي لو أن القائد كان يعيش بالفعل في الشقة الكائنة أعلى المرآب، حتى تتمكن من الهروب إليه طلبًا للمساعدة. لم ينتقل للعيش فيها إلا بعد مدة طويلة؛ بعد أسبوعين من عيد ميلادها السادس. لم تكن قد التقت به بعد، ولم تكن تعرف بوجود القائد حتى. لكن الأحلام لا تتقيد بالترتيب الصحيح للماضي ثم الحاضر فالمستقبل. وبما أنها تحلم بالصغيرة بيبي، فإن بيبي البالغة لم تكن لترغب في شيء أكثر من وجود القائد في حياتها الآنية، فضلاً عن التواجد في هذه الليلة الطويلة المرعبة في حجرتها في المنزل.

عندما تنتهي حالة الصمت، فإنها تسمع الشيء يتحرك بجوار الجدار. كان صوت حركة السلك الخاص بمصباح الدرج المجاور للفراش يشير إلى أنه يشق طريقه نحوها. أدارت رأسها يمينًا، وهي فزعة من أنها سترى الشيء يظهر في زاوية الرؤية على مسافة قدمين منها كحد أقصى. لكن سلك المصباح توقف عن الحركة بين الجدار والدرج، إذ كان الشيء يستكشف المنطقة الأبعد. عندما يلتزم الصمت هذه المرة، فإنه بلا شك سيكون أسفل الفراش.

إذا أرادت الصراخ الآن، لعجزت عن ذلك. إنها تتنفس، لكن أنفاسها لا تكفي للصياح. وإذا أرادت الفرار، لعجزت عن ذلك أيضًا. كان قلبها يدق بسرعة وعنف، وتتمتع بالصحة ومستيقظة تمامًا، بينما تزداد دقات قلبها سرعة وعنفًا بشدة، لكن ذلك جعلها خاضعة بشكل مريب، ومشلولة نوعًا ما، مما يجعل أصوات قلبها تبدو لها مثل كلمتين ما تنفكان تتكرران: هذا خطئي، هذا خطئي، هذا خطئي...

ساد الهدوء حجرة النوم. إنه الهدوء الذي يُغرق المرء، ويدفعه إلى الأسفل مثل أمواج المحيط. وسكون عميق تثقله التوقعات، حيث يمكن لبيبي

سماع الشيء وهو يفكر، وسماع ما يحتاجه ويرغب فيه ويخطط بمكر له.

ربما يكون تقدمه الصامت نوعًا من الخداع أو ربما تكون البطانيات قد حجبت الأصوات التي يصدرها، إذ أنها لم تلاحظ وجوده معها في الفراش حتى – ومن أسفل الأغطية – لمس قدمها اليسرى.

قفزت بيبي عن الكرسي، ونهضت واقفة بفعل لمسة المخلوق المرعب في الحلم. نظرت حولها بعينين جاحظتين وهي تلهث، وتكاد تتوقع زوال الحاجز بين الحلم والحقيقة بما لا يجعلها بمفردها أو بمأمن. كانت تشعر ببرد شديد وإنهاك عاطفي إلى الحد الذي جعلها تشعر بفراغ شديد داخلها.

لم يفارقها تأثير هذا الحلم. فمن بين كافة الأحلام التي راودتها، كان هذا هو الحلم الوحيد الذي مثّل ذكرى أيضًا. وعلى الرغم من أنها قد نسيته منذ مدة طويلة، لكنها تذكرت الآن أنها تواجدت هناك حقًا، في ذلك المكان وتلك الليلة، ولا بد أن الشيء الزاحف الذي أفزعها بشدة قد تواجد هناك هو الآخر.

-48-

الانسحاب

توقع باكستون أن تقوم مروحية متوسطة الحجم يتكون طاقمها من فردين بسحبهم. ولكن عندما ظهرت مروحية سيكورسكي العملاقة – المعروفة باسم تنين البحر – وحطت غربي البلدة – حيث لا يتسع أي شارع لمروحتها التي يبلغ قطرها سبعة وتسعين قدمًا – أدرك أن ثمة أوامر جديدة قد أُدخلت على المهمة. وصل هو ورجاله إلى المروج بينما اختفى صوت المحركات الثلاثة الضخمة، وتوقفت أجنحة المروحة عن الدوران، ونثرت آخر هبّة للرياح العاتية الغبار والقش في وجوههم.

إلى جانب طيارين والقائد، حملت المروحية على متنها اثنين من خبراء الهدم، واثنين من خبراء البحث والإنقاذ، وأربعة من مشاة البحرية لحماية الطائرة وهي على الأرض، وطنًا من المعدات.

كان وجود رجال مشاة البحرية مرحبًا به على الدوام، حتى لو كان ذلك يعني أن معركة مستبعدة الحدوث سابقًا باتت متوقعة الآن. وكان أكثر ما يلفت الانتباه هو أن هذه المروحية – التي تستخدم أصلاً في عمليات كسح الألغام – قد زُودت بمعدات هجومية مع مدفع رشاش منزلق من طراز GAU-21 عيار نصف بوصة.

كان العريف في مشاة البحرية نيد سيفرت – الذي يتسم بالانضباط وتربى على احتقار السياسيين في هيفلين في ألاباما – قد أوضح باقتضاب الموقف الجديد قائلاً «أحد المساعدين الحمقى في البيت الأبيض – يبحث عن مجد شخصي – أفشى ما يكفي من المعلومات لجعل المسلحين المحليين يأتون

مسرعين إلى هنا وإظهار أنفسهم ضحية لو أرادوا شرًا».

فقال باكس «علينا أن نسرع أكثر في الرحيل عن هنا إذن».

«أجل يا سيدي، قد تظن ذلك. لكن جنرالاً ما يرتدي ملابس مدنية في الجناح الغربي في البيت الأبيض يرغب الآن في جثة الغزالي، وليس مجرد عينة من حمضه النووي وصورة لدفتر الذكريات. في الواقع، إنه يرغب في استعادة الجثث السبعة».

«في آخر لحظة؟ لماذا؟»

«لا أسأل قادتي عن سبب أمر ما قط.فقد يخبروني طواعية، وربما أدرك حينها كيف أنني أعمل لدى أشخاص أحمق مما ظننت».

من بين المعدات التي حملتها الطائرة، كان ثمة مولدان محمولان يعملان بالغاز، ومكثفات، ورافعات هيدروليكية، وأكياس كبيرة قابلة للنفخ مصنوعة من مادة صلبة يمكنها رفع ألواح تزن ألف رطل من حطام الحديد».

فقال باكس «سنعود إلى الديار في مشرحة طائرة».

قال غيب – الذي كانت أمه ترى أحيانًا روح والده تتجول في منزلهم الكائن في جورجيا، والذي كان هو نفسه يؤمن بالأشباح – «ليست مشكلة يا باكس. الشجعان أمثالنا لا يخافون بسهولة».

فابتسم باكس وقال «الشجعان لا يخافون أبدًا. بل هم من يخيفون الآخرين».

فقال غيب «هذا حقيقي في معظم الأحوال، ولكن ليس دائمًا».

-49-

الرجل الذي استعار أسماء الموت

فتحت بيبي إحدى الشرائح في مصراع نافذة في الغرفة وحدقت في الرصيف وموقف السيارات المجاور له – حيث لمع الضباب مثل غبار الماس في ضوء مصابيح الشارع. وقفت هناك حتى تأكدت من أن أحدًا لا يراقب متجر والدها، وحتى كفّت عن الارتعاد.

تذكرت الآن...

كانت ذكرى الدخيل الزاحف في حجرة النوم قد ألهمت كابوسًا ما انفك يعذبها لثمانية أشهر، حتى باتت تبلغ من العمر ست سنوات ونصف. بعد ذلك – ولأول مرة – استخدمت طريقة القائد في محو الذكريات التي تنغص الحياة بشدة وتحيلها إلى جحيم. كانت قد دونت على بطاقة دليل – بمساعدة القائد – وصفًا للأحداث التي وقعت في حجرتها في تلك الليلة الموحشة عندما فشل مصباح ميكي ماوس في صرف البعبع. لم تصف ماهيته فقط بل كيف ولماذا حدث هذا أيضًا.. وبينما كانت تمسك البطاقة بزوج ملاقط – وهي تكرر الكلمات السحرية الست التي علمها إياها القائد – أشعلتها بلهب شمعة. وعندما أزال القائد الرماد بيديه ونفخه في القمامة، تبددت الذكريات غير المرغوبة من عقلها.

كانت حيلة مسح الذاكرة طريقة صبيانية، فلم تكن إلا أمانيّ، ولم تكن أكثر سحرًا من الورقة والنيران. لكنها أرادت بقوة وإلحاح شديد أن تفلح الحيلة لدرجة أنها أفلحت لسنوات عديدة. لم تفهم بيبي العامل النفسي وراء الذكريات المدفونة. لعلها لم ترغب في الفهم، لأنها إذا خدعت نفسها بهذا

الأسلوب، فلم تكن في نهاية المطاف الفتاة الشجاعة التي اعتقدت أنها تمثلها دومًا.

بعد أكثر من خمسة عشر عامًا من حرق الذكرى في لهب الشمعة – وأكثر من ستة عشر عامًا من وقوع المواجهة المفزعة – أعاد الإجهاد الاستثنائي لهذه الليلة الغريبة الذكرى المريرة إلى الواجهة. لكنها لم تذكرها بكافة تفاصيل التجربة المنسية. في تلك الليلة البعيدة، عرفت ما الذي كان يزحف في حجرتها وقبع أسفل الفراش؛ إذ كانت قد رأته بالفعل. لكنها عجزت عن رؤيته الآن في عقلها.

لعل الحقيقة ستعود إليها كاملة عاجلاً غير آجل. وحتى إذا حدث ذلك، فقد تتمنى أنه لم يحدث قط.

أصبحت ترى الآن بوضوح أن حدثًا استثنائيًا في الماضي لا بد أن يكون على صلة باختفاء السرطان وبكل ما حدث منذ بدأت كاليدا باترفلاي في إخراج الحروف الخشبية من الوعاء الفضي. وربما كان الشيء الزاحف في حجرتها – الذي تحول إلى ذكرى – شيئًا مرعبًا يتجاوز المخيلة البشرية العادية، ولكن لعل تسميته بالشيء كان وسيلة لحجب الحقيقة، ومحاولة للهرب مما حدث حقًا بتحويل التهديد إلى مزحة سخيفة، أو إلى الوحش الذي يظهر في أي كابوس. حاولت جاهدة أن تتمدد بذاكرتها إلى أصعب لحظات الحلم، ولكن في الوقت الراهن، لا يمكن استعادة تفاصيل أكثر.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة وأربعة دقائق عندما توقفت عن الارتعاش. عادت إلى مكتب والدها، وبحثت في الأدراج، فعثرت على علبة لذواكر البيانات غير المستعملة، فأعدّت نسختين من الرواية غير المكتملة المخزنة على حاسوبها. جثت في فتحة الركبتين أسفل المكتب، وباستخدام شريط لاصق، قامت بتثبيت إحدى الذاكرتين في الجانب السفلي من سطح المكتب، ووضعت الأخرى في جيب سروالها الجينز.

بعد ذلك، اغتسلت في المرحاض الصغير المجاور لمكتب والدها ثم

ارتدت مجددًا الملابس التي كانت ترتديها حين هربت من شقتها.

وبعد أن شعرت بالجوع، بحثت عن طعام في ثلاجة المطبخ الصغير، لكنها لم تعثر على شيء ترغب في أكله باستثناء نصف لتر من البوظة بالشوكولاتة السوداء والقليل من زبدة الفول السوداني. ليس إفطارًا صحيًا بأي شكل. وماذا في ذلك؟ إذا أصرّت القوى الخارقة على إفساد حياتها، وحرمتها من نعمة التفكير المنطقي، فلتذهب إلى الجحيم الأشياء المنطقية مثل الحمية قليلة الدهون وأنظمة ممارسة الرياضة.

بينما كانت تأكل، جلست على مكتب والدها وهي تبحث في دليل العناوين المخزن على حاسوبه. شعرت بالخجل من انتهاك خصوصيته، لذا فقد ترددت في الاستمرار أكثر من مرة. لكن مستقبلها كان على المحك، بل وربما حياتها بأسرها. ولم يتحول خجلها قط إلى شعور بالخزي. بحثت عن الأسماء الأربعة التي شكلت محور أزمتها حتى الآن، فعثرت على رقم هاتف وعنوان كاليدا باترفلاي، لكنها عندما لم تعثر على أي ذكر لأشلي بيل أو بيركيناو تيريزن أو تشاب كوي، شعرت بالارتياح. فلو أنها عثرت على أي منهم - لا سيما جميعهم - لاضطرت في التشكيك ليس فقط حول رأيها في والديها وإنما في إمكانية الاعتماد عليهما، وهو ما كان مؤلمًا إلى أقصى حد.

بحثت عن اسم بيركيناو تيريزن على الإنترنت. ومع أنها لم تعثر على رجل بهذا الاسم، إلا أنها عثرت على مكانين لهما تاريخ سيئ.

اتضح أن تيريزن كان اسمًا لبلدة في جمهورية التشيك، التي كانت تسمى قبل خمسة وسبعين عامًا تيريزينستادت، وكانت جزءًا من منطقة بوهيميا التي وقعت تحت الاحتلال الألماني. طرد النازيون سكان بلدة تيريزن البالغ تعدادهم سبعة آلاف من أجل استخدام البلدة كمجمع لليهود، حيث جرى حشر حوالي ثمانية وخمسين ألفًا من اليهود فيها، وتعاقب عليها أكثر من مائة وخمسين ألف شخص خلال سنوات الحرب. وقد عاشوا هناك بصفة مؤقتة، لأن تيريزن كانت مركزًا للنقل، حيث جرى اقتياد اليهود من كافة أنحاء

تشيكوسلوفاميا إلى البلدة، وكان يجري نقلهم منها إلى مخيمات موت متعددة بقدر ما يمكن لغرف الغاز والأفران استيعابه. وكان أحد المخيمات التي اقتيدوا إليها بعشرات الآلاف هو أوشويتز-بيركيناو.

تساءلت عن نوع الرجل الذي يبغض الكتب ومؤلفيها بشدة إلى الحد الذي يجعله يبادل اسم فوكنر بأسماء كانت مرادفة للوحشية والموت.

بعد أن التهمت نصف علبة البوظة، أدركت أنها قد نسيت شيئًا عندما كانت تتصفح دليل العناوين الخاص بوالدها. عادت بيبي إلى الدليل – وهي تشعر بتأنيب الضمير لأنها أصبحت ابنة مرتابة فجأة – وكتبت اسم فوكنر، فأظهر الدليل اسم كيلسي فوكنر مع العنوان الكامل ورقم الهاتف.

-50-

الضباب وضباب الزمن

مع انطفاء مصباح المكتب، تحسست بيبي طريقها نحو النافذة واستخدمت القضيب المائل لفتح فتحات التهوية على أحد جانبي المصراع. وقفت تحدق في الضباب المضاء بالمصابيح الذي ما يزال يغطي الشاطئ مثل شبح بحر سامٍ عمره مليارات السنين، قبل أن يُخلق البحر الصحي الحالي.

ومع عدم وجود من بوسعه أن يساعدها، تعين عليها أن تقوم بدور المحقق الخاص. كانت على يقين تام من أنه ليس أمامها متسع من الوقت لفك طلاسم القضية؛ فالأشخاص الخطأ يبحثون عنها، وقد شعرت أن عددهم سيكون ضخمًا، وأنهم ليسوا مجرد طائفة من عشرات الأفراد المختلين، وإنما كانوا أقرب إلى فيلق أو جيش حتى. لم يكن من المهم معرفة ما إذا كانوا يسعون خلفها بوسائل عادية أم خارقة للطبيعة؛ ففي كلتا الحالتين، سيقتلونها حينما يعثرون عليها، وذلك لأسباب لم تستوعبها حقًا.

وإذا كانت بيبي محقة بشأن أشلي بيل، بأنها سجينة لدى هؤلاء الأشخاص لسبب لا يعلمه إلا الله، فمن الضروري العثور عليهم من أجل العثور عليها. ومن أجل هذا العمل الاستقصائي، فقد احتاجت إلى سيارة، وكانت تعرف من أين يمكنها الحصول عليها. لكن كان يتعين عليها الانتظار للوقت المناسب - على الأقل بحلول السابعة صباحًا قبل أن تجري المكالمة.

إن للضباب قدرة على صبغ أجواء من الغموض على أي مشهد عادي. وعندما تذكرت أن باكس يتواجد في حفرة من جهنم لا تعرف مكانها، أصبغ الضباب أيضًا جوًا من الكآبة على الليلة. كان القنوط نوعًا من الحزن ما كانت

لتجرؤ علـى الانغماس فيه قط؛ إذ سـوف يسـتنزف إرادتهـا وقوتها. وبقدرما كانت تتوق إلى رؤية باكس، فلم تقوَ على الاستمرار في التفكير فيه.

فكرت في ليلة ضبابية أخرى، عندما كانت قد بلغت السادسة من العمر قبلها بأسـبوعين؛ تلك الأمسـية التي انتقل القائد فيها إلى الشـقة الواقعة أعلى المرآب. كان الشـخص الوحيد الجديد الذي يحتل مكانة هامة في حياة بيبي إلى حين - بعدها بأربع سنوات - ظهر أولاف في حياتها.

في السـابق، كانت الشـقة مسـتأجرة من طرف امرأة في العشـرينيات من العمر - وتدعى هادلي روجرز - ولكن بوصفها متاجرة أو سمسارة أو عميلة أو أيًا يكن. لم يكن لتواجدها معنى في حياة الصغيرة بيبي؛ إذ كانت تراها عادة وهي تنزل السـلالم نحو سـيارتها الكورفيت. ويبدو أن الآنسـة روجرز كانت تشـعر بالحيـرة مـن الأطفـال، وكأنهـا لـم تكن تدرك تمامًـا أصلهم أو الغرض منهم. ولم تبدو كشخصية حقيقية، وإنما بدت أشبه برسم كرتوني لشخص ما.

أما القائد - من ناحية أخرى - فقد بدا حقيقيًا ومهمًا. كان طويل القامة وذا ملامـح حازمـة مـع شـعر أبيض كثيف، وكان يعامـل الجميع - بمن فيهم الأطفال - بلطف وأدب. رافقت بيبي والدتها عندما كان القائد يتفقد الشـقة، وعند نهاية الجولة، أحبته وأدركت أنها ستبقى كذلك إلى الأبد. وعلى الرغم من الندوب التي تملأ يديه واختفاء إصبعين، إلا أن وجهه كان مثخنًا بالجراح، وكانت عيناه حزينة مثل عيني كلب بوليسي. كان القائد شخصًا رائعًا، وكل ما عرفته أن لديه الكثير من القصص المشوقة كي يخبرها بها.

فـي تلـك الليلـة - بعـد أن فرض الضباب حصارًا على كورونا ديل مار - عجزت بيبي عن النوم. وبعد مضي بعض الوقت، نهضت عن فراشها وذهبت للحصـول علـى كـوب من الحليب. وعندمـا اقتربت من المطبخ - حيث كان والداهـا عنـد الطاولـة يتحدثان ويتنـاولان القهوة والكالوا - سـمعت والدتها تقول شيئًا جعلها تتنحى جانبًا عن المدخل وتقف لتصغي في صمت.

«أعتقد أن هذا خطأ. إن لهذا ذبذبات سيئة».

فقال ميرفي «لا تصلني أي ذبذبات، سواءً كانت جيدة أم سيئة. أنا مضاد للذبذبات يا عزيزتي».

«أتحدث بجدية يا ميرف»

«أجل. اكتشفت ذلك قبل ساعة».

«من ذا الذي ينتقل للعيش في مكان بحقيبتين صغيرتين وثالثة مصنوعة من القماش الخشن؟»

«ما زال لدى الناس الكثير من صناديق المتعلقات الشخصية»

«أنتِ مصابة بالهلع بلا سبب».

«ماذا عن بيبي؟»

«هل تصغين لما تقولين يا عزيزتي؟ إنه ليس متحرشًا بالأطفال».

«لم أقل هذا. لا تضع الكلام على لساني. لكنه ليس مثل هادلي، التي كانت بالكاد تبقى في الشقة. أما هو فسيتواجد هناك طوال الوقت. سيكون له تأثير عليها؛ فقد أُعجبت به على الفور».

«يميل المتقاعدون إلى الجلوس في المنزل أكثر من الشابات المثيرات اللاتي يقفزن على السلم برشاقة»

سألته نانسي «هل تعتقد أن هادلي مثيرة؟».

«ليس وفقًا لمعاييري، ولا تمتلك حتى قدرًا ضئيلاً من الإثارة. لكنني أمتلك قدرًا كبيرًا من التعاطف. يمكنني رؤية العالم بعيون الرجال الآخرين».

«لعلك قد تحتاج إلى ذلك، إذا فقأتُ لك عينيك».

«ها أنتِ تهددين زوجكِ، وتحسبين أن عجوزًا ضعيفًا بثمانية أصابع يمثّل مشكلة».

ضحكت نانسي بلطف وقالت «لا أريد فقط أي تأثير سيئ على حياة بيبي».

«من ثم، سيتعين علينا الانتقال إلى فلوريدا أو مكان ما، لأن شقيقتكِ إديث الآن على الجانب الآخر من الحدود في أريزونا».

عادت الصغيرة بيبي إلى الفراش بدون الحليب وهي قلقة من عدم قدرتها على النوم، وتخشى أن يرحل القائد المثير للاهتمام عما قريب، ويحل محله شخص ممل مثل هادلي.

لكنها لم تحتج إلى افتقاد النوم؛ إذ عاش القائد فوق المرآب لأكثر من أربع سنوات رائعة، حتى حل يوم الدماء والموت.

وبينما كانت تقف الآن لدى نافذة مكتب والدها، رأت بيبي ما قد يكون ضوء الفجر ينبعث من بين الضباب، ويخترقه بصعوبة. نظرت في قرص ساعة يدها المضيء. حان الوقت تقريبًا للاتصال ببوغو.

-51-
محطمة الصواعق

عند الساعة السابعة وخمسة دقائق – وباستخدام الهاتف المستقر على مكتب والدها – اتصلت بيبي ببوغو. توقعت أن توقظه من النوم، لكنه بدا مستيقظًا للغاية عندما رد بعد الرنة الثانية قائلاً «أخبرني»

«ظننتك ملمًا بالأمر كله»

«مرحبًا يا بيبز. إنك لا تتصلين بي قط».

«لا تعاملني كطفلة يا أخي» ثم سألته عن محترفي التزلج الذين يتشارك معهما المسكن «كيف حال مايك ونايت؟»

«ما يزالان نائمين. على الأرجح يعذبان نفسيهما»

«أنا متفاجئة من أنك تبدو مستيقظًا هكذا في هذه الساعة».

«كنت أعتزم ركوب البعض قبل العمل» قال في إشارة إلى الأمواج، وأضاف «لكنني استيقظت لأجدها مثل حساء الحليب. لا بد أن يكون لديك كلب مرشد للتزلج في طقس كهذا. على أي حال، لقد أفزعتيني يا بيبز»

«تقصد موضوع السرطان»

«بدا الأمر قاسيًا للغاية حتى بالنسبة إليك».

«ولكن ها أنا ذا. معافاة وجاهزة لتدمير الأمواج».

«لطالما دمرتِ الأمواج»

«لا أتصل لشيء له علاقة بالسرطان؛ فقد بات ماضٍ وانتهى. لكنني أحتاج إلى بعض المساعدة يا بوغو»

«ولأي شيء غير هذا خُلقت أنا؟»

«سيارة الهوندا القديمة خاصتك. هل تحتوي على نظام لتحديد المواقع؟»
«اللعنة يا بيبز، إنها بالكاد تحتوي على مكابح»
«هل يمكنني استعارتها؟»
«بالطبع»
«ألا تريد أن تعرف السبب؟»
«ولماذا أحتاج إلى معرفة السبب؟»
«قد أحتاج إليها لبضعة أيام»
«لدي أصدقاء يمتلكون سيارات. ولدي لوح للتزلج. أنا بخير»
«اسمع، أنا لستُ ابنة مديرك وأعطيك أوامر».
«كلا، لقد تربينا أنا وأنتِ سوية يا بيبز. على أي حال، أنا لا أعتبر ميرف مديري»
«إنه يدرك ذلك. سأكون ممتنة لك إذا لم تقل له أي شيء بشأن هذا»
«ولا كلمة. متى تريدين السيارة؟»
«كلما كان أسرع كان أفضل. أنا عند المتجر»
«سأكون هناك خلال عشرين دقيقة»
«أنت صديق حقيقي يا بوغو»
«بيبز؟»
«أجل؟»
«هل ركبتِ موجة عاتية أو شيء من هذا القبيل؟»
فقالت «محطمة صواعق حقيقية»
«ربما تحتاجين إلى مساعدة أكثر من مجرد السيارة»
«إذا كنتُ كذلك، سأعلمك أيها الفتى اللطيف»
بعد أن أنهت المكالمة، فتحت بيبي حقيبتها وأخرجت منها الكتاب المرسوم على غلافه فهد وغزال. لم يكن هناك عنوان أو اسم مؤلف على ظهر الكتاب، ولم يكن هناك أي نصوص أيضًا. وعندما فتحت الكتاب وقلبت

صفحاته، اكتشفت أنها فارغة. ولكن سرعان ما ظهرت أسطر رمادية باهتة ومتموجة لمخطوطة عبر الصفحة، لتتدفق بانسيابية مثل الماء، لكنها اختفت قبل أن تتمكن من قراءة كلمة واحدة حتى. تصفحت الكتاب بتأنٍ أكبر، فظهرت الكلمات مجددًا مرتين، وتلألأت وكأنها تُعرض عبر فيلم لجدول ماء، لكنها اختفت قبل أن يتمكن أحد من قراءتها.

فحصت غلاف الكتاب. لم يكن هناك مساحة لأي إضافة إلكترونية أو بطاريات يمكن ربطها بظهر الكتاب. كان كتابًا فحسب، لكنه لم يكن كأي كتاب.

-52-

العودة إلى الديار برفقة الموتى

بقوة أربعة عشر ألف حصان، أنتجت المحركات الثلاث من طراز جنيرال إلكتريك صوتًا يزداد باطراد، وضربت المروحة العملاقة الهواء مثل قبضتي ملاكم من الوزن الثقيل وهي تنهال ضربًا على كيس ملاكمة. كان رجال القوات الخاصة ورجال البحرية ومساعدوهم قد غادروا البلدة المهجورة متجهين إلى خارج البلاد في آخر ساعتين من ضوء النهار بسرعة 150 عقدة.

وبينما اهتزّ جسد الطائرة أسفلهم، كان الإرهابيون السبعة مضطربين في أكياس الجثث، مثلما كانوا أثناء حياتهم. لطالما سعى الأخيار إلى الهدوء والسلام والوقت للتأمل، في حين كان الأشرار هائجين وعنيدين وتواقين دومًا للمزيد من الإثارة، وهي نفس الإثارة التي ما تنفك تتكرر، لأن الأشرار يفتقرون إلى الإبداع، وتحركهم العواطف بدلاً من المنطق. ولطالما تملكهم الغضب الذي كانوا يجهلون أن سببه هو نظرتهم الضيقة إلى العالم، التي تتسم بالخواء. لن ينتهي وجودهم من العالم، ولن تنتهي الحاجة الأبدية إلى رجال ونساء على استعداد لمقارعتهم مهما كلف الأمر.

قبل غروب الشمس بقليل – ودون أن تشهد رحلتهم أي عراقيل – حطت طائرتهم على مدرج حاملة الطائرات، فشعر باكستون بارتياح شديد. ستكون هناك جلسة لاستخلاص المعلومات، وقد توقع باكستون أن يتصل بعدها ببيبي في كاليفورنيا، حيث كان الصباح قد حل. لكن توقعه ذهب أدراج الرياح بعد ثلاثة دقائق من نزولهم عن متن المروحية. أرادت واشنطن أن يبقى كافة أعضاء الفريق منقطعين عن العالم الخارجي لثماني ساعات على الأقل، وذلك لأسباب شعروا أنهم غير ملزمين بالكشف عنها.

-53-

سيري على اللوح أيتها الجميلة

عندما اخترق ضوء المصابيح الأمامية الضباب في موقف السيارات وتهادت سيارة الهوندا الرمادية نحو الرصيف مثل مركبة يقودها شبح، خرجت بيبي من الباب الأمامي لمتجر بيت ذا كات.

ولأن المحرك أخذ وقتًا طويلاً حتى يسخن، فقد تركه بوغو يعمل ودار حول مقدمة السيارة متجهًا صوب بيبي، قال «تبدين مثل محترفي التزلج أكثر من أي وقت مضى».

«لعل السرطان كان خيرًا لي».

كانت تدرك أنها تتمتع بقدر من الجمال، لكنها لم تكن فاتنة أو أي شيء من هذا القبيل. في المقابل، تسبب بوغو في جعل معظم عارضي الأزياء الرجال الذين يظهرون في أشهر مجلات الموضة يبدون وكأنهم يخوضون تجارب لأدوار الوحوش في تكملة محتملة لسلسلة أفلام ملك الخواتم. بدا على دراية بجاذبيته الجسدية، وكانت الكثير من الفتيات ترمين بأنفسهن عليه بإصرار شديد، مما يجعل الهواء معبأ بالاستروجين. وقد ظنت بيبي في بعض الأحيان أنه إن كان مظهر بوغو يعني له أي شيء، فهو على الأغلب مصدر للإحراج. لكنهما تربيا معًا - مثلما قال آنفًا - وكانت فكرة معاشرته غريبة للغاية مثل فكرة معاشرتها لأخيها، إذا كان لديها أخ. كانت بيبي تكبره بعامين، وكانت قد علمته العديد من حركات التزلج على المياه، مثل كيفية الهبوط (كيفية التزلج على وجه الموجة بعد ركوبها على الفور)، وكيفية التدحرج للمرور عبر الأمواج البيضاء، وكيفية أداء حركة كسر الموجة

وغيرهـا مـن الحـركات، وذلـك عندما كان في مرحلة مـا قبل المراهقة، وقبل أن يفوقها مهارة. ربما كان مظهره الجيد قد لفت انتباهها في المرحلة الأولى مـن سـن المراهقـة، ولكن بات من الصعـب لفت انتباه الفتى الذي رغبت فيه كل الفتيـات. ولكـن منذ بضع سـنوات وحتـى اليوم، كان ما يعجبها في بوغو هو روحه وتواضعه وقلبه الرقيق.

قبّلها على خدها ونظر في عينيها وقال «ممن تختبئين؟»

«الأمر ليس هكذا»

نظرا طويلاً إلى بعضهما وكأنهما في مسـابقة للنظر، ولم يكن أي منهما ينوي أن يكون أول من يشيح بنظره.

قرر بوغو ألا يحول الأمر إلى مسابقة. فتفقد الصباح الغارق في الضباب الـذي كان يغطـي ميـناء نيوبورت. قال «ليكن معلومًا لديكِ أين يمكنك طلب المساعدة عندما تتخلين أخيرًا عن عنادكِ»

طمأنته بالقول «أعرف أين».

فتـح بـاب الـركاب وأخذ من المقعد كيسًـا لوجبة إفطـار من ماكدونالدز ورواية ورقية.

أغلقت بيبي الباب – بعد أن وضعت حاسوبها وحقيبتها على المقعد – وقالت «ما عدت تخفي الكتب بعد الآن».

«ما عدت أكترث إذا ما اكتشف أصدقائي أن بوسعي القراءة. فقد هجرت الجامعة بالفعل».

«لطالما عرفتَ ماذا تريد. ألا تخشـى أحيانًا – بعد سـنين من الآن – أن يتضح أن ما فعلته ليس كافيًا؟»

«ما حدث قد حدث يا بيبز. والمستقبل ليس إلا وهم. كل ما نملكه هو الآن».

قالـت وهـي تشـير إلـى كيـس ماكدونالدز «لا أريد أن يبـرد الطعام. لكن لدي بعض الأسئلة»

أومـأ ناحيـة المتجـر وقال «ثمة جهـاز ميكرويف في الداخل. وهو يعمل بشكل جيد».

كان بوسعها شم أدخنة العادم المتصاعدة من مؤخرة الهوندا. قالت «هل ذكر أبي قط امرأة باسم كاليدا باترفلاي؟»

قال بوغو بعد تردد «إنها تأتي إلى هنا. امرأة شقراء طويلة القامة ترتدي حلية تصدر ضجيجًا وهي تمشي»

«تأتي إلى هنا في المتجر؟ كم مرة؟»

«»مرتين في الشهر»

فقالت بيبي «لقد رأيتها، ولا أظن أنها من هواة التزلج على المياه»

«إنها لا تتزلج قط، بل وليست ممن يتمنون تعلم التزلج. إنها تأتي لرؤية ميرف»

«بشأن ماذا؟»

«ليتنـي أعـرف. إنهمـا يصعدان إلى مكتبه». نظرت في عينيه، فأدرك على الفور ما تفكر فيه، وقال «ليس الأمر هكذا يا بيبز. إنهما ليسا على علاقة»

ومع أنه آلمها أن تطرح سؤالاً كهذا، لكنها سألته «كيف عرفت؟»

«لـم يخبرنـي أحـد، لكنني أعرف. إنهما يعرفان بعضهما منذ مدة طويلة، لكن الأمر لا يتعلق بالجنس»

«متى بدأ هذا؟»

«ربما قبل عام ونصف»

واصل الضباب زحفه من جهة البحر، متحديًا ضوء الشمس. ولكن لا بدّ أنه قد انقشع في بعض المناطق، لأن الطائرات كانت تقلع من مطار جون واين، وكان أزيز محركاتها يخترق الضباب وكأنه قادم من حديقة للديناصورات.

«ماذا عن رجل يدعى كلسي فوكنر؟»

فكر بوغو للحظات ثم هزّ رأسه وقال «لم أسمع به قط»

«بيركيناو تيريزن؟»

«هل هذا اسم؟ ظننته نوعًا من الطفح الجلدي»

«أشلي بيل؟»

«عرفت فتاة باسم أشلي سكودر. كانت تمارس التزلج مقابل الحصول على تمويل لمشروعها»

«لا بد أنها مثل أولئك الذين يجيدون كلا الأمرين، ركوب الأمواج وإدارة الشركات»

«ليس هناك الكثير منهم»

فقالت بيبي «يجدر بي الذهاب، ويجدر بك وضع إفطارك في الميكرويف».

عندما قبّلته على خده، عانقها بشدة. وبينما كان يضع رأسه على كتفها، أدار وجهه وقال «حين اتصل ميرف من المستشفى يوم الثلاثاء ليخبرني بشأن السرطان، أغلقتُ المتجر، وأطفأت الأنوار، وجلست أبكي خلف الطاولة لساعة كاملة. لم أعتقد أنني سأتوقف عن البكاء. لا تجعليني أبكي مجددًا يا بيبز»

«لن أفعل» وعدته، وعندما نظر إليها، قرصت طرف أنفه الجميل بلطف وقالت «شكرًا على السيارة»

فقال «مهما كانت الموجة قوية، سيري على اللوح مثلما تفعلين دومًا»

من أجل الحفاظ على التحكم في اللوح، كان المتزلج يسير ذهابًا وعودة عليه للحفاظ على التوازن.

سارت بيبي حول السيارة، وفتحت باب السائق، ونظرت عبر السقف نحو بوغو بتأثر شديد للغاية إلى الحد الذي يجعلها تعجز عن إيجاد الكلمات لتصف مشاعرها في رواية، ثم ابتسمت وقالت «وداعًا أيها الوسيم».

بادلها الابتسام وقال «سيري على اللوح أيتها الجميلة».

-54-

مذاق لفطر اليرقة؟

كان بوغـو يهـوى التسـكع بالسـيارات أكثـر من المداومة علـى الجامعة ولكـن ليـس مثـل ركوب الأمواج، لذا كانت سـيارة الهونـدا أفضل مما تبدو. كان محرك السيارة قويًا، فكانت تنطلق بشكل جيد بعد توقفها وتمتلك القوة اللازمـة لصعـود التـلال. وعلـى الرغم من سـخريته من المكابـح، فقد كانت تعمل بانتظام.

كانت كاليدا باترفلاي تعيش في كوستا ميسا، وهو حي كان يومًا متوسط المسـتوى، لكـن حالـه تدهـور بشـدة، بيد أنه بدأ يسـتعيد عافيتـه قبل حدوث الأزمة المالية العالمية في 2008. وفي ظل الأزمة الاقتصادية الحالية، توقفت عمليـات التحسـين، ممـا ترك المنـازل الجديدة الجاهـزة المكونة من طابقين تقف بجوار منازل عتيقة على غرار المنازل الريفية، بعضها يُعتني به والبعض الآخر لا. وكان هناك مزيج من المنازل الصغيرة أيضًا؛ هذا من الجبس وذاك مـن الخشـب، ومعظمهـا يحتـاج إلى إصلاحات وإعادة طـلاء. وكانت بعض المنازل مصممة بشكل جيد وتحظى بعناية كبيرة، ولكن تواجدت هنا وهناك أفنية كثيفة الأعشاب وشجيرات ضخمة، وتناثر الطين مع الحصى.

إن مستقبل الحي واعد للغاية، لكن ذلك مرهون باستعادة البلاد معدلات النمو الكبيرة السابقة والأشجار الضخمة العتيقة التي ألقت بظلالها على المارة في الشوارع، وزراعة مزيح من الأشجار المعلاقة والبلوط والتوت الصابوني والصنوبر الحجري وغيرها.

أوقفت بيبي السـيارة على الجهة المقابلة – على مسـافة مائة قدم غربًا –

من منزل كاليدا، تحت الظل الأزرق لشجرة بلوط من كاليفورنيا. كانت كثافة الضباب قد انحسرت نوعًا ما في هذه المنطقة، إلا أن قدرًا منه ما زال يغطي الأرض، وكأنه غاز سام جرى قصف الحي به من قبل جيش عدو.

كان منزل العرّافة المدلكة يحتل مساحة أرض ونصف، وكان يتكون من طابقين مع القليل من لمسات شركة Craftsman. لم يكن قد مضى على بيبي خمسة دقائق وهي تراقب المكان حتى انفتح باب المرآب المجزأ ونزلت سيارة من طراز رانج روفر على الممر الخاص، ثم انعطفت شرقًا إلى داخل الشارع ومضت مسرعة، وقد مرت فوق الضباب أثناء ذلك. لم تكن قد شاهدت كاليدا وهو تقود سيارة من قبل، كما لم تكن متيقنة من أن هذه هي كاليدا؛ إذ منعها طول المسافة ونوافذ السيارة الداكنة من تحديد الركاب.

لم تكن متأكدة مما إذا كانت قد أتت إلى هنا لتواجه كاليدا وجهًا لوجه أم تتفقد الأنحاء. وقد ساعد رحيل سيارة الروفر في حسم أمرها؛ سوف تتفقد الأنحاء.

فضلت بيبي ألا تعرقلها الحقيبة، لذا فقد دفعتها إلى أسفل مقعد السائق. وأوصدت أبواب الهوندا وعبرت بجرأة الشارع صوب المنزل. كانت أوراق شجرة البلوط البيضاوية الصغيرة جافة وميتة، فأصدرت صوت طقطقة تحت أقدامها مثل أصداف الخنافس. وعندما لم يرد أحد على جرس الباب، قرعته مجددًا، ولكن لم يحدث جديد.

بدون أن تسترق النظر – وكأنه كان من حقها التواجد هناك – دارت بيبي حول المنزل، ومرت عبر بوابة مفتوحة جزئيًا، وتجاوزت ساحة تظللها شجرة وستارية متشابكة، ودخلت إلى الفناء، حيث حجبها جدار عن الجيران.

انجذب انتباهها على الفور إلى هيكل غير متوقع؛ مشتل غريب الشكل مشيد من الخشب المطلي باللون الأبيض والزجاج، وتبلغ أبعاده حوالي عشرين في ثلاثين مترًا، ويقع في مؤخرة المنزل. كان هذا اكتشافًا مفاجئًا جعلها تشعر أنها مجبرة على التحقق منه.

وقفت أربعة تماثيل مصنوعة من التيراكوتا – وتمثل المواسم الأربعة – على قواعد حجرية، حيث استقر تمثالان على كل ناحية من الممر المؤدي إلى المشتل.

بدت التماثيل الأربعة كلها – وليس التمثال الخاص بالشتاء فقط – مفزعة، وكأنها صُنعت في مكان وقرن لم يشهدا طقسًا جيدًا قط.

لم يكن هناك سبب وجيه يدعو إلى إقفال منزل من الزجاج لا يحتوي بين جنباته على شيء ذا قيمة، لذا فقد وجدت بيبي الباب الجنوبي مفتوحًا. دخلت بيبي إلى المشتل الدافئ والرطب الذي يضم نباتات فريدة من نوعها زُرعت في صواني تضم تربة خصبة، ومثبتة على ألواح طويلة تحيط بممرات العمل الضيقة. لم يكن هناك أزهار السحلبية أو الأنثوريام أو غيرها من الأزهار. فقد بدا أنها جميعًا أعشاب، ولكن كان القليل منها فقط هي الأعشاب التي يستخدمها الناس في المطبخ. استطاعت أن تميز الريحان والنعناع والهندباء والشمر وندى الجبل والطرخون والزعتر. ولكن لا بد أنه كان هناك ضعف هذا العدد من الأعشاب المجهولة بالنسبة إليها. وقد احتوت بعض المنضدات على صف سفلي بعيد تمامًا عن ضوء الشمس، وفي تلك البِرك الراكدة ذات الظلال الداكنة كانت هناك أنواع من الفطريات – الغاريقون والبافبول والعفن – التي بدت غير صحية وربما حتى قاتلة.

بينما كانت تتجول في المشتل، تذكرت بيبي رائعة لويس كارول «أليس في بلاد العجائب» عندما عرضت اليرقة ذات رائحة الشيشة على أليس قطعًا من هذا الفطر وذاك. ومع أنها تقبلت حقيقة الأحداث التي وقعت في المطبخ في الليلة السابقة – الانخفاض المفاجئ في درجة الحرارة، والسلوك العجيب للهب الشموع والساعة، ورائحة الورود المتعفنة على الرغم من أنها كانت جديدة وذات رائحة جميلة – إلا أنه يفترض بها التفكير في احتمال أن جزءًا مما مرت به ربما يكون له علاقة بتأثيرات الهلوسة التي تسببها بعض هذه النباتات. فلربما تكون قد دُست في كأس الجعة دون أن تلحظ ذلك.

انعطفت عند أحد الأركان، فاكتشفت عند إحدى المنضدات قفصًا يبلغ طوله ثلاثة أقدام وعرضه قدمان، وفي داخله نحو خمسة عشر أو عشرين فأرًا تتنوع ألوانها بين البنيّ والرمادي. كانت الفئران مشغولة بالأكل في أوعية صغيرة للطعام والماء، وتأتي وتذهب من جحور ضحلة في قطع ورق صحف ممزقة رطبة، فكانت تلهو وتقضي حاجتها وتتكاثر. وعلى الرغم من يقينها من أن الفئران مخلوقات ضعيفة، إلا أن هذا الجمع من الفئران بدا هائجًا على غير العادة؛ إذ كانت تطوف القفص ذهابًا وعودة، وتنتفض في هلع وكأن أحد الدخلاء قد دهس دون قصد على ذيولها، وتتفقد بلا توقف الأنحاء بأعين داكنة وسائلة مثل حبات زيت المحرك.

لفتت هذه الحركة انتباه بيبي نحو الأرضية الصلبة، حيث سعى عند قدميها سبب محتمل لهياج الفئران: ثعبان ثم ثعبان آخر ثم ثالث.

-55-

الصورة

لاحظت بيبي فجأة أن الأفاعي الزاحفة على أرضية المشتل لم تكن ثعابين الجلجلة وأنها تختلف عن بعضها البعض. وبما أنها لم تهتم قط بعلم الزواحف، فلم تتمكن لا من التعرف على أنواعها ولا من معرفة إن كانت سامة أم لا. لكنها افترضت أنها غير سامة، لأن كاليدا ما كانت لتسمح لها بالتجول بحرية إذا كانت خطيرة.

ولكن بطبيعة الحال، لطالما افترض الناس نظريات أودت بحتفهم، وذلك بسبب منطق حسن النية الذي آمنوا به. كانت بيبي قد تعهدت لبوغو بأنها لن تمنحه سببًا آخر للبكاء. لذا ابتعدت ببطء عن الثلاثي المتعرج، وهي تخشى من أنها قد تدهس رابعًا خلفها، وكانت على استعداد للاستدارة والجري إذا بدأ أحدها يسعى لمهاجمتها.

لعل الأفاعي كانت مهتمة بها فقط لأنها ظنت أنها كاليدا، وأنها قادمة لإطعامها الفئران. لم تلاحقها الأفاعي وهي تتراجع، بل زحفت اثنتان منها في صمت أسفل الطاولة التي استقر عليها قفص الفئران، بينما التفت الثالثة حول ساق الطاولة وزحفت إلى أعلى لتفقد المقبلات الحية المتنوعة التي يمكن الاختيار من بينها لتناول العشاء.

تنهدت بيبي في ارتياح بعد أن خرجت من المشتل وأغلقت بابه.

كانت على الأقل قد تعلمت شيئًا من المخاطرة التي خاضتها؛ إذ لم يقتصر شغف كاليدا على عالم السحر وقراءة الطالع باستخدام الحروف. وسواءً كانت الأم المقتولة امرأة شغوفة بالعديد من العوالم الغيبية أو أن كاليدا

قد طورت من تجارة أمها، فقد بدت المدلكة غريبة جدًا، وربما محطمة بشكل كامل.

في كلتا الحالتين، تعين على بيبي الدخول إلى المنزل. اعتبرت أن ما شاهدته في المشتل يشير إلى أنه من الممكن العثور على حقائق هامة داخل المنزل الصغير.

حاولت أن تفتح باب المطبخ، لكنه كان مقفلاً. لم ترَ لافتة تحذيرية تؤكد أن المنزل محمي من قبل نظام للإنذار، لكنها كرهت أن تكسر لوحًا من الزجاج. كانت قد بحثت في مواضيع السرقة من أجل الرواية التي كانت تكتبها، وتحدثت مع محققين حول تفاصيل عمليات السرقة، ومع مجرم مدان يقضي عقوبة السجن بسبب عدة سرقات. وقد عرفت أنه في بعض الولايات القضائية يحتاج الأمر إلى الاقتحام وسرقة شيء ما لاتهام شخص ما بالسرقة. لكن إن لم تفعل أيًا من ذلك – مررت فحسب – فستدان بأقل عقوبة في اقتحام المنازل كحد أقصى.

كانت تشعر بالانزعاج من تفكيرها في العواقب القانونية لنشاطها الإجرامي، وارتكاب جريمة بدلاً من الإبلاغ عنها. ولكن تبًا، فليس أمامها بديل آخر. لم تساعدها الشرطة حين شكت من مصدر إزعاج خارق للطبيعة، وعلى الأرجح ثمة عملاء للأشخاص الخطأ في سلك الشرطة أيضًا. كان ما يتعين عليها أن لا تنساه هو أن الموت لم يكن عند عتبة بابها قبل يومين فقط، وإنما قرع الجرس وطرق الباب واستدعاها للخروج واللعب. وأيًا كانت المتاعب التي ستقع فيها الآن، فهي هينة للغاية بالمقارنة بما سبق.

من بين العديد من الأشياء المثيرة للاهتمام التي تعلمتها أثناء البحث في موضوع السرقة هو أن عددًا غير متوقع من الناس كانوا أذكياء في إغلاق أماكن الدخول المحتملة في الطابق الأرضي، ولكنهم تقاعسوا في تأمين نوافذ الطابق الثاني، بل وأحيانًا أبواب الشرفة.

عند كل طرف من شجرة الوستيريا المتشابكة التي ألقت بظلالها على

الفناء الخلفي، كانت العناصر رأسية تتكون من أزواج وبدت قوية بما يكفي لاستخدامها كدرج. اختارت الطرف النحيف من الشجرة. وطمأنت نفسها من أن هذا أقل خطرًا من التزلج على المياه، بما أنه لا وجود لأسماك القرش، فتسلقت نحو قمة الشجرة برشاقة أبهجتها. ربما تكون قد أمضت السنوات القليلة الأخيرة في الجلوس على المكتب للكتابة أكثر مما تفضل، لكنها لم تضعف بعد.

أطلت أربعة نوافذة ذات إطارين على الشجرة والفناء الخلفي. وقد ظهر أن النافذة الثالثة غير مقفلة، ففتحت بيبي الإطار السفلي. وعندما لم ينطلق صوت إنذار، وقفزت فوق حافة النافذة، تاركة إياها مفتوحة تحسبًا إذا ما احتاجت المغادرة على عجل.

لم يكن اللص المتسلل – حتى في غياب السرقة – لقبًا يجعلها تشعر بالرومانسية أو الفخر بكل تأكيد. كادت أن تستلّ سلاحها من حزام الكتف حتى تتفقد أنحاء المنزل، لكن هذا بدا تصرفًا غبيًا. لم تكن تمتلك الخبرة اللازمة لعمل كهذا. كانت أعصابها متوترة للغاية. وإذا انعطفت عند ركن ما وقابلت كاليدا – أو ما هو أسوأ، شخص بريء تمامًا – فقد تسحب الزناد بفعل الهلع. لكنها مضت بدونه – مما أشعرها أنها عارية – وهي تتساءل عن سبب عدم تفكيرها قط في الحصول على حزام أسود في إحدى رياضات الدفاع عن النفس.

دخلت بيبي ما بدا أنها حجرة النوم الرئيسية، وقد وجدتها عادية أكثر مما توقعت. كان الفراش معدًا بشكل جيد مع ثنيات في أطراف الملاءة. وكانت هناك لوحات فنية لمدينة كاليفورنيا. لكنها خلت من أي سجادة عليها رسم لدولاب الأبراج، أو شموع سوداء على مساند على هيئة عظام بشرية، ولا حتى تمائم معلقة على الجدار خلف الفراش، أو ثعابين. وكان باب الخزانة الداخلية مفتوحًا، وكانت الملابس معلقة بشكل منظم.

وعلى الرغم من أنها بدخولها المنزل باتت معرضة للإدانة بتهمة اقتحام

ملكية خاصة، فلم يكن في نية بيبي العبث في أدراج دولاب كاليدا بحثًا عن الأسرار التي قد يتبين أنها تتعلق بأشياء لا علاقة لها بها وأنها مثيرة للشفقة بشكل أو بآخر، مثلما هو حال معظم أسرار حجرات النوم. وقد ساورها شك في أنها لو عثرت على أي شيء هام في هذا المنزل، فسيكون شيئًا منفّرًا أو شاذًا. وستتعرف عليه بمجرد أن تفتح بابًا أو تعبر إحدى العتبات.

أصدرت الأرض الخشبية للردهة في الطابق العلوي صوتًا أسفل قدميها. ولم يكن بيدها فعل شيء لإسكاتها، كما لم يؤدِ التزام جانب الجدار في تخفيف حدة الضجة. ولم يُحدث المشي السريع ضجة أكبر من المشي ببطء وحذر.

كان هناك غرفتان تقعان بعد المرحاض في الردهة، وكانت أولاهما غريبة ولكن ليس فيها ما يفيد. كانت خالية من أي أثاث، ولم يُعلق أي شيء على الجدران. وقد ظُللت النوافذ بتثبيت مرايات عليها. رأت انعكاسها عليها فلم يعجبها مظهرها. بدت متوترة وضئيلة الحجم وضائعة. وفي منتصف الأرضية الخشبية البالية – وبحروف سوداء كبيرة – كُتبت كلمة تاليا؛ اسم والدة كاليدا. لك أن تتخيل أن والدة العرّافة قد تعرّضت لتعذيب وحشي وقُطعت أوصالها من قبل الأشخاص الخطأ قبل اثنى عشرة سنة. ولكن على الأرجح في مكان آخر غير هذا المنزل. لم تبدُ الحجرة – مع الاسم المكتوب على الأرضية – مثل مسرح الجريمة أو ضريح للضحية. ولكن بدت – لسبب لم تتمكن بيبي من تحديده – وكأنها صُممت بغرض التواصل، لكنها عجزت عن تحديد مع من أو ماذا.

كانت هناك حجرة مكتب تقع على الجهة المقابلة من الحجرة الفارغة. وقد احتوت على طاولة عليها حاسوب وطابعتان، إحداهما كانت تطبع بالألوان، وكانت كافة المعدات مظلمة وصامتة. وتواجدت المزيد من اللوحات الفنية. وقد جرى تثبيت لوحة خشبية جانبية على طول أحد الجدران. وفي منتصف الحجرة، استقرت طاولة عمل مع كرسيّ واحد.

عثرت على الشيء المنفّر والشاذ.

وُضع وعاء فضي مملوء بأحرف خشبية على الطاولة. إلى جانب ذلك، جرى تكوين سطرين من الأحرف على الطاولة، وكأن كاليدا قد عادت إلى الاستجواب الذي بدأ في مطبخ بيبي الليلة السابقة. أشار السطر الأول إلى اسم آشلي بيل، بينما تكون السطر الثاني من عنوان: المنزل أحد عشر في شارع مون رايز.

كان هناك لوح ورقي لصورة عالية الجودة مثل النوع المستخدم في الطابعات الملونة إلى جانب الوعاء. وعندما قلبته بيبي، رأت صورة فتاة جميلة تبدو في الثالثة عشر من العمر. كان شعرها ذهبيًا، وعيناها بنفسجيتان وواسعتان مثل الياقوت. كان رأسها يغطي معظم الصورة حتى الكتفين. وقد ارتدت الفتاة قميصًا أبيض مع ياقة بيضاء، وبجوار الملابس كُتبت خمس كلمات؛ سيدة كاليدا، هذه آشلي بيل.

-56-

قناعة من رحم الفوضى

كان وجه الفتاة المدعوة آشلي بيل جميلاً وتعبيراتها هادئة. ولكن خلف ذلـك الهـدوء، رأت بيبـي رباطة جـأش مصطنعة؛ قناع غرضه إخفاء المشـاعر الحقيقية عن المصور، الخوف والغضب. حذّرت نفسها من أنها ربما تقرأ في الصورة سـيناريو من نسـج مخيلتها. فلربما كانت الفتاة تشـعر بالملل فقط أو تحاول تقليد إحدى تلك التعبيرات البلهاء التي كان يجري تشجيع عارضات الأزيـاء علـى التظاهـر بهـا في مجـلات الأزياء الراقية هذه الأيـام. ولكن كلا، فبالنسبة إلى بيبي يظهر الدليل في تلك النظرات الجذابة. إذا كانت ألوان الصورة حقيقيـة، فقـد بـدت عيناها الزرقاوان السـاحرتان رائقتين مثـل المياه المقطرة، وكشـفت عن عقل ذكي سـريع البديهة. كانت عيناها واسـعتين، ولكنها كانت مفتوحة عن آخرها بدون أن تقطب جبينها، وكأنها قصدت أن تكذب الطمأنينة البادية على وجهها، أو وكأن المصور أو شيئًا ما خلف الكاميرا قد أزعجها.

إلى جانب ذلك، رأت بيبي في الفتاة ضعفًا وتحفظًا يثير التعاطف، وصلة قرابة لم تتمكن – أو لم ترغب – في تفسيرها لنفسها. وقد باغتتها ردة الفعل هذه – هذا الشعور بالقرابة – بشدة مما غير كل شيء.

حتـى الآن، كانـت عمليـة البحـث عن آشـلي بيل غير واقعيـة إلى درجة ما، أو لعبة بدون قواعد، أو مزحة لم تُعجب الكثيرين. بل وربما تكون كذبة تنطوي على جلسة مزيفة لقراءة الطالع معد لها بمكر ومحفزة بعقاقير تسبب الهلوسة ويقف وراءها مجموعة من المجانين دافعهم على الأرجح هو خداع الأشخاص العاقلين. وحتى هذه اللحظة، مارست بيبي هذه اللعبة الخطرة مع

أنها هي المستهدفة منها. تبدلت وجهة نظر بيبي بسبب مظهر الفتاة وسلوكها، الذين كانا عند لحظة ما أثيرين للغاية وباردين كالحجر. كانت بيبي بمثابة الفارس الأبيض المنقذ وهدفًا ثانويًا لأن الغرض منها هو إنقاذ الفتاة. أما آشلي بيل، فهي الهدف الرئيسي للأشخاص الخطأ ومحور كل ما سيحدث من الآن فصاعدًا. بمصطلحات التزلج على المياه، كانت آشلي متزلجة هاوية، ومتدربة مبتدئة، بينما كانت بيبي راكبة الأمواج المحترفة التي يتعين عليها إنقاذها من الوقوع فريسة لسلسلة من الأمواج العاتية.

انبثقت الحقيقة أخيرًا من رحم الفوضى التي سادت في الساعات الاثنى عشر الأخيرة. كان وقعها صعبًا، مما أصاب بيبي بالصدمة.

إن آشلي بيل شخصية حقيقية، وفي حاجة ماسة إلى المساعدة. وكان الأشخاص الذين يهددونها موهوبين بشكل غريب وفوق طائلة القانون. وكانوا منظمين للغاية أيضًا ومجرمين عتاة.

كانت كاليدا قد طبعت صورة لآشلي بيل أرسلها شخص ما إليها في رسالة عبر البريد الإلكتروني كمرفق بصيغة JPEG. سيكون من المفيد معرفة مصدر الصورة. وربما تكون كاليدا قد طبعت الرسالة أيضًا.

مثل أي منزل آخر، أصدر هذا المنزل أصوات ضجيج منفصلة عن تلك الصادرة عن ساكنيه. كانت هناك أصوات صرير وطقطقة وأزيز خفيف عند فتح أو إغلاق أي شيء. وقد تسببت سلسلة من هذه الأصوات في تجمد بيبي في مكانها والإنصات بتمعن، لكن ما لبث أن ساد الصمت وهبط شعور بالأمان بمجرد أن ينتهي المنزل من الشكوى من الجاذبية.

بحثت عن رسالة البريد الإلكتروني في أدراج المكتب، لكنها لم تعثر على أي شيء. ملأت آلة تقطيع الأوراق سلة المهملات، التي احتوى معظمها على شرائط ورق يبلغ سمكها ربع بوصة ملائمة لصناعة لافتة ترحيب برواد فضاء عائدون من رحلة إلى القمر، ولكن في ما عدا ذلك كانت بلا فائدة. وبقية المحتويات لم تشمل الرسالة.

اشتبهت في أنها قد أمضت الكثير جدًا من الوقت في المنزل. ربما يكون من المهم تصفح حاسوب كاليدا، لكن هذا سيؤخرها للغاية.

أمسكت بيبي الصورة في يدها اليسرى، وأبقت اليمنى خالية حتى تتمكن من سحب المسدس عند الضرورة، ونزلت السلالم في سكون يشبه صمت القبور. مرت خلال أشعة الصباح الذهبية التي تملأ السماء، حيث دارت حبات الغبار الفريدة من نوعها حول بعضها البعض، وكأنها باتت ترى البنية الذرية الخفية لهذا العالم.

كانت الحجرات في الطابق الأرضي عادية للغاية، وتحتوي على أثاث عادي مثل أي منزل آخر. ولكن عندما دلفت إلى المطبخ، عثرت على آثار زيارة من الأشخاص الخطأ. كانت طاولة الطعام مقلوبة عند أحد الأركان، والكراسي مستقرة فوقها. وكان هناك غطاء بلاستيكي قوي أبيض مثبت على الأرض بشريط أزرق اللون لحماية البلاط المكسيكي اللامع. وقد تُركت بضعة قطع من القماش على الغطاء، ولكن لم تكن هناك الكثير من الدماء. يبدو أنهم قد قتلوها بطريقة لا تسبب فوضى، على الأرجح خنقًا، ثم قاموا بتقطيع أوصالها لاحقًا، لتقليل الحاجة إلى التنظيف وضمان عدم صراخها مما يلفت انتباه الجيران. كان قد جرى إزالة الجثة – على الأرجح جرى نقلها إلى سيارة الرانج روفر للتخلص منها – لكن الأصابع العشرة – التي كان كل منها يضع خاتمًا لامعًا – كانت مستقرة على المنضدة بالقرب من الثلاجة، وقد رُتبت بانتظام شديد على أحد الأطباق، وكأنها قطع بيتي فور ستقدم مع الشاي مساءً.

كان توحش البشرية يثير اشمئزاز بيبي، لكنها لم تشعر بالصدمة لذلك. ولم تهدر وقتًا في الترنح من المنظر البشع أو التساؤل عن الغرض من ترك الأصابع. وقد فهمت على الفور الرسالة العاجلة التي ينقلها المشهد؛ التنظيف لم يكتمل بعد؛ لذا إما أن من غادروا في الرانج روفر سيعودون، أو أن طاقمًا آخر سيصل عما قريب لإكمال المهمة.

بينما كانت تنسحب من المطبخ، سمعت صوت مركبة في الممر الخاص، والقعقعة المكبوتة لباب المرآب وهو ينفتح.

-4-

وضع قطع الأحجية معًا والمخاطرة بالانهيار

-57-

إفطار مع مفاجأة ثانوية

عندما سمعت باب المرآب وهو ينفتح، مدت بيبي يدها إلى سلاحها أسفل سترتها، وهي تتساءل عما إذا كانت ستتمكن من إسقاط الشخص القادم، ونزع سلاحه وتقييده واستجوابه. إذا كان القادم شخصًا واحدًا، فالإجابة على الأرجح كلا. أما لو كانا شخصين، فالإجابة بكل تأكيد كلا. وإن كانوا أكثر من اثنين، سيقطعونها إربًا بشكل أبشع مما فعلوا مع كاليدا. لم تكن الشجاعة والثبات كافيين عندما تكون بصدد مواجهة حفنة من المختلين ووزنك لا يزيد على مائة وعشرة أرطال في أحسن الأحوال ومسدسك يحوي عشر طلقات فقط وتدرك حقيقة نفسك. لم تنتظر حتى ينتهي باب المرآب من صعوده، بل فرّت من المطبخ، واتجهت مباشرة إلى حجرة المعيشة وخرجت من الباب الأمامي.

تحاشت الاقتراب من الجهة الشرقية للشرفة، حيث يصل الممر الخاص إلى المرآب. وتحاشت السلالم أيضًا، وأسرعت نحو الجهة الغربية من الشرفة، وقفزت فوق الحافة، ونزلت على قدميها. بعد ذلك، جرت مسرعة عبر العشب الأمامي، ثم عبر الشارع، واختبأت داخل سيارة بوغو، في الظلال العميقة أسفل شجرة بلوط.

وضعت صورة آشلي على لوحة التحكم وأخرجت حقيبتها من أسفل مقعد السائق. لو كان بمقدورها أن تبدو مذعورة وخائفة بحق - وهو ما لا يمثل مشكلة - فإن اتصالاً واحدًا بالنجدة سيجلب الشرطة إلى منزل كاليدا بينما ما يزال هناك شخص في الداخل ويمكن اعتقاله. قطع قماش مخضبة

بالدماء، وأصابع مقطوعة، وجريمة قتل. لو لم يكن ذلك كافيًا لإفراغ منطقة كوستا ميسا من سكانها، فلعلهم مشغولون بتصوير برنامج لتلفزيون الواقع. لم تتذكر أنها لم تعد تمتلك هاتفًا إلا عندما فتحت الحقيبة؛ إذ كانت قد تخلصت منه – مع خاصية تحديد المواقع والشخص الذي يطاردها – الليلة السابقة.

وإذا ترجلت من السيارة وصرخت – في محاولة منها للفت انتباه الجيران – فلن تنجز شيئًا سوى تنبيه القتلة إلى وجودها ومنحهم فرصة لمعرفة نوع المركبة التي تقودها هذه الأيام. جلست وهي تشعر بالقلق والحنق لدقيقة أو اثنتين، لكنها لم تجني شيئًا من ذلك أيضًا. وعندما قادت السيارة، سلكت منعطفًا عكسيًا واتجهت نحو الغرب تحاشيًا للمرور أمام المنزل.

عوضًا عن الحفاظ على توازنها، تسبب تناول نصف علبة من البوظة قبل الفجر في انخفاض حاد في مستوى السكر. فاتجهت مباشرة إلى مطعم نورم – أحد أبسط مطاعم كاليفورنيا – ليس فقط لأن الأطباق كانت شهية ومفيدة، ولكن أيضًا بسبب شعورها أن الأشخاص الخطأ لن يظهروا في هذا المطعم حتى لو كانوا يتضورون جوعًا وكان هذا آخر مصدر للغذاء على الكوكب. خلال محادثتهما القصيرة، بدا بيركيناو – أو سموه بيرك إن شئتم – تيريزن شخصًا متكبرًا ونرجسيًا. وعلى الأرجح فإن مساعديه سيكونون من نفس الطينة؛ أشخاص عتاة لا يعرفون التواضع. عندما يكون أعداؤك فتيانًا مغرورين، فإن إحدى سبل التخفي عنهم هي الأكل في مطاعم مثل نورم وشراء ملابس من كمارت.

أجلستها المضيفة في كابينة صغيرة عند مؤخرة المطعم، واختارت بيبي الجلوس وظهرها يواجه معظم الزبائن. أرادت شرب القهوة أكثر من تناول الطعام؛ إذ كانت أفكارها مشتتة بسبب قلة النوم وغرابة ما يجري. كانت في حاجة إلى تصفية ذهنها. جلبت النادلة اللطيفة والنشيطة كوبًا آخر من القهوة السوداء القوية إلى جانب طلب بيبي البيض المحمر واللحم المقدد وقطع الكعك، وهو ما سيحسن قدرتها على التفكير لساعات.

فـي الأفـلام، لـم يقضي الأشـخاص الفارون من القتلة – الذين شـاهدوا للتو الأصابع المقطوعة لإحدى الجثث – وقتًا في تناول الإفطار. ولم يضيعوا وقتًا في المرحاض أيضًا، أو في التفكير بشأن كيف أن الحياة الواقعية لا تشبه ما نشاهده في الأفلام.

بقلم ومفكرة صغيرة كانت تضعهما في حقيبتها، دونت ملحوظة في هذا الشـأن، وعنونتها بـ»هام للرواية: الأفلام والحياة«. وبينما كانت تأكل، أعدت قائمة بالأغراض التي يتعين عليها شـراؤها أو القيام بها للبقاء متخفية لأطول مدة ممكنة، لكنها لم تفاجأ من قدرتها على الإتيان بأفكار لروايتها. ففي نهاية المطاف، لم تكن دومًا تسعى للنجاة بحياتها وتحاول إنقاذ حياة شخص آخر، لكنها في المقابل كانت روائية دومًا.

حسنًا، كانت تحتاج إلى هاتف نقال مؤقت. ومع أنه قد لا يحتوي على مميـزات الهواتـف الذكيـة التـي ربما تحتاج إليها، فلا بد أن لا يكون مسـجلاً باسمها وأن لا يعرضها لمطاردات عبر خاصية تحديد المواقع. وإذا كانت ما تـزال أجهـزة الخرائـط الإلكترونية تباع – دون الاتصال بأي جهاز آخر تملكه – فبإمكانها شراء أحدها.

وجـدت نفسـها تـدون ملحوظـة أخرى لا علاقة لها بهـذا الأمر، وكانت هذه المرة تخص المناسبات الثلاث التي استخدمت فيها حيلة القائد من أجل نسـيان الذكريـات الأليمـة. كانـت قـد وقعت تلك الحوادث على مدى عشـر سنوات. وقد عنونت القائمة بـ»هام!«

كانت المرة الأولى عندما أشـعلت – بمسـاعدة القائد وعبر لهب شـمعة – ورقـة دونـت عليهـا حادثة الشـيء الزاحف. وكانت تبلـغ من العمر خمس سنوات وعشرة أشهر عندما أفزعها ذلك المخلوق، بينما كانت تبلغ من العمر ست سنوات ونصف عندما اتخذت خطوات النسيان.

في المرة الثانية، كانت تبلغ العاشرة من العمر، وكان قد مضى على موت القائد قرابة أربعة أشهر. حرقت ذكرى ما جرى في العلية الواقعة فوق الشقة،

وما تزال طي النسيان. وفي المرة الثالثة، لم تكتب حتى الذكرى على قصاصة ورق، لكن وقفت فحسب أمام حطب المدفأة الكائنة في حجرة المعيشة في المنزل الصغير وقذفت الذكرى في اللهب.

بينما كانت بيبي تدون قائمها بتفصيل شديد، امتلأ المطعم بصدى المحادثات وأدوات المائدة والأواني الصينية والزجاجية وموسيقى الخلفية التي لم تتمكن من تمييزها، وسرعان ما أصبحت لا تسمعها. فمع تركيزها، ساد صمت لم تكسره حتى أصوات مضغها الطعام؛ إذ لم تعد تسمع شيئًا باستثناء همس القلم على الورق.

كانت تبلغ السادسة عشر من العمر في المرة الثالثة، حيث كادت تصاب بالجنون حزنًا على موت أولاف، وغمرتها مشاعر التيه والاضطراب والمرارة والغضب عندما بدرت لها أكثر الأفكار سوداوية؛ نية سيئة للغاية لم تكد تصدق أنها خطرت ببالها؛ ومع أن الخطة التي بدأت تتشكل كانت غير ملائمة على الإطلاق، إلا أنها أيقنت أن إغراء تنفيذها لا يقاوم. ولو أنها كانت قد مضت في تنفيذ الفكرة، لكانت قد دمرت حياتها وحياة والديها. وهكذا، فقد كتبتها على ورقة في مفكرة ومزقتها وقذفت الورقة في لهب المدفأة، دون أن تخاطر برؤية ما إذا كان التخلص منها دون كتابتها سيجدي نفعًا مثلما حدث من قبل.

كانت جذور محنتها الآنية تعود إلى تلك الذكريات الثلاث المنسية. ما الذي كان يزحف على أرض حجرتها؟ وما الذي حدث في العلية التي تسكنها العناكب حيث تسلل ضباب عبر فتحات التهوية؟ ومن أجل تخفيف الضغط الشديد على مشاعرها في أعقاب حرق جثة الكلب، أي شر استحوذ عليها، وأي عنف أو غضب شعرت بخوف شديد منه إلى الحد الذي يملي عليها حرقه من ذاكرتها؟

تفاجأت من أنها قد انتهت من الأكل. وبعدما وضعت الشوكة في الطبق الفارغ، عادت الأصوات والروائح الجميلة في المطعم إلى وعيها.

في قلب الأجواء العادية لمطعم نورم، تساءلت بيبي عن الطبيعة غير العادية لحياتها السرية. بدا أن الأدلة تتزايد على أن قلبها بدأ يمتلئ بظلام غريب، مع أنها رأت نفسها بمنزلة ابنة البحر والرمال، ورياح المحيط ونور الصيف. كانت تدرك أن القليل من الناس فقط هم من فهموا طبيعة أنفسهم بشكل كامل. وهكذا فقد افترضت أنها أحد هؤلاء المتنورين القلائل، وأنه بوسعها قراءة نفسها من الصفحة الأولى إلى الأخيرة واستيعاب كل مزايا بيبي بلير.

بعد أن أكدت للنادلة أنها لا تريد شيئًا آخر، تركت بيبي بقشيشًا، وأخذت ورقة الحساب بنية السداد لدى الصرّاف، ونهضت عن الكابينة. وعندما علقت حقيبتها على كتفها واستدارت، رأت تشاب كوي عند الركن الأبعد من المطعم المزدحم، حيث كان يتناول الإفطار في كابينة تقع بجوار النوافذ الأمامية الكبيرة. لم يُظهر مدير أمن المستشفى أي اهتمام بها، بل ويبدو أنه لم يعرف بوجودها حتى. كان اهتمامه منصبًا بشكل كامل على الفطائر ورفيقته على الإفطار؛ سولانج سانت كرويكس، الأم المقدسة لبرنامج الكتابة في الجامعة.

-58-

بعيدًا عن الأعين

سـواءً كان تشـاب كـوي والدكتـورة سـولانج سـانت كرويكـس مـن الأشخاص الخطأ أو رفيقين من نوع آخر، ويتآمران لأغراضهما الخاصة، فقد بدا البروفيسورة أن ترمق المطعم بنفس الازدراء الذي اعتقدت بيبي أن تيريزن ورفاقـه سـيكنونه لأي مطعـم يفتقر إلى قماش طـاولات أبيض وتصميم على الطراز الصيني. استقرّ أمامها كوب من الماء فقط. وكانت تعبيراتها أكثر حنقًا عن المعتاد، وقد جلسـت وكتفاها إلى الخلف اسـتعلاءً وذقنها مرفوعة مثل محامية مخضرمة سريعة الغضب اكتشفت أنها في حانة ما لأسباب مجهولة. لـم يكـن ازدراؤهـا الجلـيّ موجهًـا نحو كـوي، إذ كان هو منهمـكًا في التهام الفطائر، وكانا منخرطين في نقاش حي بدا أنه مستمتع به ولا يشعر بالإهانة.

قبل أن يلاحظا وجودها، ابتعدت بيبي عنهما، وجلست لتخرج ما يكفي من المال من حقيبتها لسداد كامل الحساب الذي كانت قد تركته على الطاولة مـع البقشـيش. عنـد مؤخـرة المطعم، كان هناك بابـان ذوا فتحات يؤديان إلى المطبـخ، فاتجهـت صوبهمـا وكأنهـا أحـد العاملين في المـكان، وقد أخفت وجهها عن تشاب كوي ورفيقته.

نظر إليها الطهاة والموظفون الآخرون في استغراب، ليس لأنها لا تنتمي إلـى هـذا الجانـب مـن المكان، وإنمـا لأنها اقتحمت البابين بصرامة شـخص ينوي تقديم شكوى بصوت عالٍ. وعندما بدأت بشق طريقها عبر أروقة الطهو، متجاوزة الصينيات والمشـاوي والأفران، سـألها أحدهم عما تريده، وحاول آخر إرشـادها إلى مكان مرحاض النسـاء. نظرت نحو الباب الخلفي ولوحت

لهم قائلة «أحتاج إلى بعض الهواء» وكأن حجرة الأكل غدت فجأة جزءًا من الفراغ.

في موقف السيارات - بعد أن حركت سيارة الهوندا من مكانها حتى تحصل على منظر واضح لمدخل المطعم - اختبأت بيبي خلف المقود وهي تتمنى لو كانت بحوزتها قبعة بيسبول. وبعد عشرين دقيقة، خرج كوي والبروفيسورة ووقفا يتحدثان للحظات قبل أن يتصافحا ثم يفترقا. ذهب هو إلى سيارة اللكزس السوداء، بينما ركبت هي المرسيدس خاصتها.

شغلت بيبي المحرك، وفكرت في تتبع أحدهما، لكنها سرعان ما قررت عدم الاكتراث لأي منهما. فبكونه شرطيًا سابقًا، سيدرك تشاب كوي أن هناك من يتتبعه على الفور. وأينما كانت البروفيسورة ستذهب، فليس من المرجح أن يكون ذلك بأهمية العثور عليها برفقة هذا الرجل. كانت معرفتهما ببعضهما البعض كافية لإقناع بيبي أنهما في تحالف ضدها وأنها كانت موضوعًا في حوارهما، إن لم تكن الموضوع الأوحد. وإذا أرادت لاحقًا التحدث قليلاً مع سولانج سانت كرويكس، فقد باتت تعرف أين يمكنها العثور على هذه الساقطة.

بعد أن توارت سيارتا اللكزس والمرسيدس عن الأنظار، جلست بيبي لبعض الوقت وهي تفكر في المصادفات. لم تكن من المؤمنين بها. هل يمكنهم معرفة مكان تواجدها؟ وهل كان يريدان أن تراهما؟ هل من الممكن أن يكونا من سادة الكون في هيئة بشر؟ حدثت نفسها قائلة «حبًا بالله يا بيبز، إنكِ تفقدين صوابكِ». وحتى لو كانوا يعرفون نوع السيارة التي تقودها الآن - وهو ما لم يحدث - فما كانوا ليعرفوا أنها ستذهب إلى مطعم نورم إلا بعد وصولها إليه. على أي حال، كانت على يقين أنه لم يتتبعها أحد. لكنها ظلت لا تؤمن بالمصادفات.

بعد ذلك، انطلقت من أمام المطعم وذهبت إلى ثلاثة أفرع بنكية بغية سحب مائتي دولار من كل ماكينة صرافة، ليبلغ حجم النقود بحوزتها 814

دولارًا. وفـي أحـد المتاجـر الكبرى، اشـترت هاتفًا نقالاً مؤقتًا وجهاز خرائط به خاصية تحديد المواقع. كما اشـترت قبعة بيسـبول ونظارة للشـمس تحسبًا إذا ما أرادت التنكر مجددًا.

في موقف السـيارات، وعندما فتحت باب الهوندا ووضعت مشـترياتها علـى مقعـد الـركاب الأمامـي، بدأت تشـعر وكأنهـا عميل سـري يختفي عن الأنظار مثل عميل في الاستخبارات الأميركية.

كان ذلـك عندمـا قـال شـخص ما من خلفهـا «هل هذا أنتِ يا بيبي؟ بيبي بلير؟»

-59-

أول من يلاحظ موهبتها

استدارت بيبي لتواجه امرأة بالكاد كانت مألوفة لها، لكن لم يطرأ ببالها أي اسم. بدت أنها في الثلاثين من العمر، مع شعر أشقر مجعّد، ووجه ناعم خالٍ من التجاعيد مثل لحم دجاج نيئ نُزع عنه الجلد. كانت تملك أنفًا جميلة وشفتا نجمة دعارة وأسنان شديدة البياض. وكان ثدياها بارزين إلى الحد الذي يسمح بوقوف سرب من الغربان عليهما.

قالت «آمل أنكِ لم تشتهري إلى الحد الذي يجعلك تنسيننا نحن النكرات يا غيدجيت. لم تكد تمر ست سنوات حتى».

«آنسة هوفلاين» قالت بيبي، ليس لأنها تأكدت من هوية المرأة من التلميحات الظاهرة أمامها، ولكن لأنه لا أحد سوى معلمة اللغة الإنجليزية للصف الحادي عشر دعاها غيدجيت قط.

«أضحى اسمي هذه الأيام ماريسا هوفلاين-فورشاك. تزوجتُ منذ ما يقرب من عامين. وزوجي اسمه ليوبولد، ويعمل في مجال التطوير العقاري».

كادت بيبي أن تقول، إذا كان هذا اسمه، فلماذا ليس اسمكِ ماريسا هوفلاين-ديفيلوبمانت (تطوير)؟ بيد أن السيدة هوفلاين كانت أستاذة في الوقاحة، وقادرة على نزع أحشائك ببراعة إلى الحد الذي - إذا تأذيت من لسانها السليط - يمكنها التحجج بأنك قد أسأت فهم نيتها أو لم تفهم أيًا مما قالته.

وهكذا، كان من الأفضل عدم الدخول في جدال معها. قالت بيبي عوضًا عن ذلك «تبدين بشكل جيد حقًا».

«قبل أربع سنوات، عدلت مظهري قليلاً. لطيف منكِ ملاحظة ذلك».

قبل أن تعدل مظهرها، بدت السيدة هوفلاين امرأة في الخامسة والثلاثين من العمر، وذات بشرة سمراء مثل الفئران وأسنان مكسرة وصدر صبي في السادسة عشر. انطوى هذا التحول على جراحات تجميل جذرية – أقلها هو حقن البوتوكس – والكثير من التعاويذ السحرية.

قالت السيدة هوفلاين–فورشاك «لم أعد أعمل معلمة بطبيعة الحال، فلستُ مضطرة لذلك. أملك سيارة بنتلي المتوقفة هناك. لكنني أقول للناس دومًا إنني أول من لاحظ موهبتكِ».

كانت هذه كذبة كبرى؛ إذ لطالما انتقدت بيبي أكثر من أي طالب في الصف، لا سيما عندما يتعلق الأمر بكتاباتها. كانت بيبي قد استفادت من العديد من المعلمين في المدرسة الثانوية، لكن الطلاب كانوا قد اخترعوا لعبة قذف الكرات الورقية للمعلمات من أمثالها السيدة هوفلاين.

عندما رأت السيدة هوفلاين–فورشاك مسحة من الاستياء في عيني تلميذتها، قالت «لقد كنتُ قاسية قليلاً عليكِ يا عزيزتي، قليلاً فحسب، لأنكِ كنتِ في حاجة إلى التحفيز بين حين وآخر لإبراز إمكانياتك كاملة».

ابتسمت بيبي بطريقة جعلتها تبدو بلهاء وقالت «أقدّر لك هذا. من الجيد رؤيتكِ ثانية».

قالت المرأة – بعد أن مالت إلى الأمام مما جعل ثدييها يبدوان أنهما على وشك أن يفقداها التوازن – «هلا سمحتِ لي بسؤال؟»

أرادت بيبي الرحيل عن هناك والتواري عن الأنظار، وهو ما سيحدث بشكل أسرع إن سمحت لها بطرح سؤالها. «بالطبع، بكل تأكيد» قالت وهي تتوقع سؤالاً سخيفًا عن سيارة الهوندا العتيقة.

لكن السيدة هوفلاين–فورشاك سألتها «هل أكسبتكِ روايتكِ أعداءً؟ لماذا تخفين سلاحًا؟»

تمعنت بيبي للحظات في ما قيل، ثم قالت «مسدس؟ لستُ كذلك».

«بحـق الله يـا غيدجيـت، إن زوجي ليو يتلقى تهديدات بحكم موقعه، لذا فهو يحمل سلاحًا مرخصًا. وإذا كانت عيناكِ خبيرتان مثل عينيّ – لدي عينان مثل الصقر – فإن أبرع حياكة لا تكفي لإخفاء الانتفاخ الفاضح».

لم يكن هناك أي انتفاخ؛ إذ أن حزام الكتف الذي يحمل المسدس عند جانب بيبي كان يستقر في أوسع جزء من سترتها.

«حسنًا، يؤسفني القول إن عينيك قد ضللتكِ هذه المرة. ليس لدي سبب يدعوني لحمل مسدس».

عندمـا همّـت بيبي بالاسـتدارة، قبضت المـرأة على أحد ذراعيها. وبقلق زائـف مثـل ثدييهـا، قالت المعلمة السـابقة المحسـنة «اللعنة، أنتِ لا تحملين سلاحًا مرخصًا، أليس كذلك؟ بكل صدق يا بيبي، قد تقعين في ورطة كبرى بسبب هذا. فحمل سلاح دون ترخيص قد يودي بكِ إلى السجن».

كان موقـف السـيارات مزدحمًـا بالمتسـوقين القادميـن والراحليـن عـن المتجر، وكان صوت السـيدة هوفلاين–فورشـاك عاليًا وأجشًـا مثل بائع في مزاد، مما جعل المارة ينظرون إليهما في فضول واستغراب.

قالت بيبي – بعد أن جزّت على أسنانها بشدة – «لا أحمل سلاحًا. إليكِ عني الآن».

أفلتـت المـرأة ذراع بيبـي فقـط حتـى تجذب طية صدر السـترة اليسـرى وتزيحها، مما كشف عن القراب والسلاح. قالت «لطالما كنتِ منتهكة للقوانين يـا فتـاة. دومًـا كنـتِ كذلك. ولكن بصفتي أول من يدرك موهبتكِ، فلا أود أن أراكِ تدمرين حياتكِ المهنية».

أبعدت بيبي يد السيدة هوفلاين–فورشاك عن كتفها، وقالت «ما خطبكِ يا امرأة؟ ابتعدي عني».

قالـت هوفلاين–فورشـاك «إذا لـم يكن بحوزتـكِ ترخيص، يتعين عليك نزع هذا على الفور ووضعه في حقيبة السيارة».

توقف بعض المارة لمتابعة المواجهة. لا بد أنهم أناس لم يشاهدوا نشرة

أخبـار مـن قبـل قـط. في هذه الأيام – وفي مواقـف كهذه – إن لم تمضي إلى حال سبيلك، ستصبح أحد الضحايا.

«بحوزتـي ترخيـص حمـل سـلاح» زمجـرت بيبـي، ونزلت من السـيارة ودارت حولها.

اسـتوقفتها المعلمـة السـابقة بيـن المصباحيـن الأماميين قائلـة «إذا كنتِ تمتلكين ترخيصًا حقًا، فلماذا لم تقولي مسبقًا؟ لماذا التزمتِ الصمت؟»

بعـد أن رمقـت مهاجمتهـا بنظـرات ازدراء، شـددت بيبـي على كل كلمة وهي تقول «لأنني...لا...أريد...أن...يعرف...كل...أحمق...بشأن...ذلك».

قاومت السـيدة هوفلاين–فورشـاك نظرات الازدراء الشـديد ببرود أشد. قالـت «لا تـردي علـيّ بعنـف أيتهـا الشـابة. إذا كانت بحوزتـكِ رخصة حمل سلاح، أرينيها، وحينها سأطمئن على حياتكِ. بخلاف ذلك، سأضطر للاتصال بوالديك».

«أنا في الثانية والعشرين من العمر بحق الله».

«ليس بالنسبة إليّ»

عندما اقتربت بيبي مجددًا من باب السـائق وباتت على مسـافة قريبة من المعلمة السـابقة. تقدم أحد المتفرجين. كان رجلاً طويل القامة وذا بنية قوية ووجه مجعد وشارب كثيف، ويرتدي عصابة حول رأسه وقميصًا بلا أكمام لا يلائم الصباح البارد، وكانت وشوم العناكب والتماسيح تغطي ذراعاه وكتفاه وعنقه، وبدا وكأنه قد خرج من نسخة من مجلة ذي الستريتد مان لراي برادلي كُتبت في عالم موازٍ أسـقط فيه راي برادلي حامضًا على لوحة المفاتيح. قال «المعذرة يا سيدتاي، ربما يمكنني عقد اتفاق سلام هنا».

انتهزت بيبي اللحظة وقالت «تصرّ هذه المرأة على أنها تعرفني، ولكنني لم أرها من قبلُ قط، إنها مختلة».

بعد أن شـعرت بالإهانة من الاتهامات الموجهة إليها، اسـتدارت السـيدة هوفلاين–فورشـاك نحـو الرجـل الضخم المتقمص دور الوسـيط للدفاع عن

نفسها ضد افتراءات بيبي، وابتعدت عن الهوندا وأشارت نحو سيارتها المتوقفة في صف المركبات المقابل لهم، ثم قالت «أترى سيارتي البنتلي المتوقفة هناك؟ المختلون لا يقودون سيارات بنتلي فارهة».

بعد أن قدمت المرأة دليل براءتها من الجنون، ركبت بيبي سيارة الهوندا وشغلت المحرك. وعندما ضغطت بشدة على دواسة البنزين وهي تغادر المكان الذي كانت متوقفة فيه، تراجعت السيدة هوفلاين–فورشاك مسرعة وكأنها تخشى تعرضها للدعس، لكن الرجل الضخم لم يطرف له جفن، وكأنه لم يشك قط أن بنيانه القوي لن يتضرر من أي تصادم مع سيارة سيدان عادية.

بعد أن ابتعدت عن المتجر الكبير ودخلت إلى الشارع، رفعت بيبي صوتها أكثر مما فعلت خلال هذا الجدال العجيب؛ صاحت «ما كان هذا بحق الله؟» بدت المواجهة أكثر من مجرد لقاء مع معلمة سابقة. شعرت أن الحادثة تخفي وراءها سرًا، وأنها تمهيد لحدث سيقع، وتنطوي على معنى غامض يتعين عليها اكتشافه والتمعن فيه.

-60-

فهد الزمن الضائع

على بعد أحياء قليلة من المتجر الكبير، لجأت بيبي إلى موقف السيارات الخاص بأحد الأسواق. وإلى جانب صف المتاجر المتلاصقة، وقف مبنى مفرد يضم متجر دونات هيفن، وعلى سطحه تدور هالة ذهبية فوق قطعة دونات عملاقة.

ومع أن خدمة الهاتف المؤقت تعهدت بـ«تفعيل فوري»، بيد أنها لم تتفاجأ من أن مكالمة تأكيد التفعيل ستستغرق بعض الوقت.

في غضون ذلك، قرأت كتيب الإرشادات الخاص بجهاز الخرائط بينما كانت تتأمل اللقاء العجيب مع السيدة هوفلاين-فورشاك، الذي ظل يبدو ذا أهمية وعلى صلة ما بمأزقها الحالي. بيد أن الاعتقاد أن المعلمة السابقة كانت جزءًا من المؤامرة ضدها هو انتقال من مرحلة الهلع المبرر إلى درب الجنون. فإذا كانت هوفلاين-فورشاك متآمرة بالفعل، فما الذي يمنع أن يكون الوسيط المجهول ذو الشارب الكثيف وسرب الوشوم كذلك هو الآخر؟ وإذا كان هو كذلك بدوره، فلمَ لا كل زبون في متجر دونات هيفن؟ وكل شخص في كل سيارة مارة في الشارع؟ وكل شخص في كل مكان؟

حذرت نفسها قائلة «اهدئي الآن يا بيبز»

عندما عمل جهاز الخرائط - مع خاصية تحديد المواقع - حاولت تحديد موقع البناية رقم 11 في شارع مون رايز - وهو العنوان الذي شكلته الأحرف الخشبية على الطاولة في مكتب كاليدا. لم تكن تعرف اسم البلدة أو المدينة، لكن الجهاز أتاح لها ميزة البحث باسم المقاطعة. لم يكن هناك طريق أو شارع

أو جادة أو موقف سيارات بهذا الاسم في أي مكان في مقاطعة أورانج أو في المقاطعات التسع المجاورة. بدون معرفة اسم المدينة، كانت عملية البحث مملة بالمقارنة بما كان يمكنها إنجازه بالحاسوب، لكن استخدام حسابها على الإنترنت قد يتيح للأشخاص الخطأ تحديد مكانها بمجرد ولوجها.

عندما تفعلت خدمة الهاتف المؤقت، فكرت في الاتصال بوالديها. ربما يكونا ثملين من احتفال الليلة السابقة، ولكن صافيي الذهن بما يكفي. إذا كانا لم يتصلا بها بعد، فسيفعلان عما قريب، ولكن سرعان ما سينتابهما القلق، لأن اتصالاتهما ستحال إلى البريد الصوتي.

ولكن لو كان لتيريزن وعصبته القدرات والنفوذ الذي تفاخر بهما، فقد يكون بوسعهما مراقبة هاتفي نانسي وميرف مثلما تفعل وكالة الأمن القومي. وفي هذه الحالة، إذا اتصلت بيبي بوالديها، فقد يلتقط تيريزن إشارة هاتفها المؤقت، ومن ثم سيتمكن من تتبعها مجددًا، مما يعيدها إلى دائرة الضوء. ومن أجل البقاء متخفية، يمكنها الاتصال فقط بالأشخاص الذي لا يتوقع هو أن تتصل بهم.

من بين ثلاثة ملايين إنسان يعيشون في مقاطعة أورانج، كانت هي في اللحظة الراهنة – إن لم يكن إلى الأبد – وحيدة.

أغلقت الهاتف بعد تردد، ووضعته في حقيبتها، وأخرجت الكتاب ذي الغلاف الصلب الخاص بكاليدا. عندما فتحت المجلد، اعتقدت أنها رأت الفهد الفسيفسائي يتحرك، فقلّبت الصفحات نحو آخر الكتاب على عجل. كادت أن تسقط الكتاب فزعًا، ولكن عندما أغلقت الغلاف الأمامي، بقي الفهد مثلما كان، متمسكًا بقفزته.

قلبت الصفحات الفارغة، على أمل أن تلمح مجددًا النص السحري المتموج الذي طفا على سطح الورقة؛ تلك الكلمات الغامضة التي يصعب قراءتها. لكن الظاهرة لم تتكرر، على الرغم من تنقلها من أول الكتاب إلى آخره، ثم من آخر الكتاب إلى أوله مجددًا، وكأن الضوء خفت وحل الظلام،

ثم تبدد الظلام وأشرق الضوء مجددًا...

عندما رفعت عينيها عن الكتاب، ظنت بيبي أن وقتًا قد مر أكثر من دقيقة أو اثنتين. شعرت أنها تستيقظ من سبات عميق استغرقها ساعات طوال. في الواقع، تثاءبت وطرفت بعينيها وابتلعت لعابها لترطيب فمها الجاف. لكن الشعور بالخروج من النشوة، والتخلي عن طاقة النوم، لا بد أنه شعور خاطئ، لأنها ما تزال تشعر بالنشاط من وجبة الإفطار ولأنها لم تشعر بالإجهاد والملل من الجلوس مدة طويلة خلف المقود. وفقًا لساعتها، لم تمر سوى بضعة دقائق.

ومع ذلك، فقد أغلقت المجلد بدلاً من إعادة النظر فيه. وعندما أعادته إلى داخل حقيبتها، قالت «ثمة خطب شديد هنا».

-61-

بينما أتمدد على شفا الموت

كان هـذا أحـد تلـك الأيـام التي داعب فيها الضبـاب حركة أمواج البحر بلطف، ثم ما يلبث أن ينحسر تدريجيًا في دفء ضوء النهار، ولكنه لا ينقشع بشكل كامل عن الساحل، ثم يزحف نحو اليابسة بعد ساعة أو اثنتين، ليصل إلى مسافة ليست ببعيدة، قبل أن يرتد مجددًا.

عندما قادت بيبي السيارة عائدة إلى شاطئ نيوبورت، اضطرت إلى إشعال المصابيح الأمامية قبل مدة طويلة من بلوغها الجسر المؤدي إلى خليج بالبوا. وبمجـرد أن دخلـت إلـى تلـك المنطقة الواسـعة المطلة علـى البحر وعانقت المينـاء، ضبطـت ماسـحات الزجـاج الأمامـي علـى وضعية التنـاوب لإزاحة الضباب المتكثف بشكل مستمر.

كان عنوان كلسي فوكنر يقع في المنطقة التجارية الواقعة قبل ناحية خليج بوينت التي ترتفع فيها أسـعار العقارات بشـكل جنوني. وكانت هذه المنطقة وجهة سـياحية في الأشـهر الدافئة، وتميزت بمسـاحتها الكبيرة، وأطلت على المحيـط والمينـاء. كانت منطقة سـاحرة تذكّر المـرء بديك ديل وديل-تونز - الذين ابتكرا موسـيقى التزلج هناك في الخمسـينيات - مع أن اسـتواءها يثير بين حين وآخر مخاوفًا من وقوع تسونامي مدمر.

ركنت بيبي السـيارة في موقف سـيارات يسـتأجر بالسـاعة، وسارت عبر الضباب الذي يغطي البحر نحو العنوان المطلوب - الذي من غير المرجح أن يكون مقرًا لطائفة من القتلة المختلين. كان هناك متجر - يدعى سيلفر فانتازيس - يعـرض حليـة فضيـة مصنوعة يدويًا تراوحـت بين التذكارات الرخيصة مثل

قلادة دلفين البحر وحتى القلائد والأساور الفاخرة التي بيعت ببضعة آلاف من الدولارات. كان مفتوحًا في نهار عطلة أسبوعية على غير المعتاد، مما يعني أنه يحظى بقاعدة زبائن كبيرة.

عادة ما كانت بيبي ترى المتجر عند مرورها من هنا، ولكن بما أنها لا تهتم كثيرًا بالحليّ، فلم تتجول في المكان قط. كانت الأغراض الرخيصة معلقة على أرفف نحاسية. أما الثمينة فقد عُرضت في حاويات زجاجية.

كانت الموظفة – التي بدت في الثلاثينيات من العمر وجلست على طاولة عمل جانبية وهي تلمع قلادة – تبدو كمن قذفه الزمن إلى الأمام من حقبة الستينيات. وبتنورة طويلة فضفاضة من القطن، وقميصًا مصبوغًا بألوان فاقعة، وياقة كروشيه تشبه طوق الكلب، وأقراط فضية على شكل علامة السلام، كان بوسعها الصعود على مسرح مع أي فرقة من تلك الحقبة وتعتبر عضوًا فاعلاً فيها ما دامت قادرة على حمل آلة الرق.

رفعت المرأة عينيها عن عملها وابتسمت ثم قالت «ليس نوع اليوم الذي يحلم به عشاق كاليفورنيا».

«هذا أفضل من وقوع تسونامي» قالت بيبي مع أنها لم تكن ممن يخافون البحر قط. وأضافت «هل كلسي هنا؟»

أشارت المرأة نحو باب في مؤخرة المتجر وقالت «في هذا الاستوديو. اذهبي إلى الخلف فقط».

ومع أنه كان من غير المرجح أن تُقطع أوصالها في صالة العمل الخاصة بمتجر للحليّ، إلا أن بيبي ترددت.

قالت المرأة «لا بأس. إنه لا يصهر أو أي شيء من هذا القبيل، وإنما يصمم قطعًا جديدة». أضافت بعد أن قطبت جبينها «هل تعرفينه؟»

قالت بيبي بعد تردد «أبي يعرفه».

«من يكون والدك؟»

«ميرفي بلير، إنه يمتلك...»

«ميرفي، بالطبع. إنه شخص رائع. اذهبي إلى الخلف».

كان الاستوديو الخاص بفوكنر متقدمًا أكثر مما توقعته بالنسبة إلى فنان حرف يدوية. وكان صغيرًا ولكن منظمًا بعناية، ونظيفًا ولكن تغمره رائحة طلاء المعادن وزيت الآلات. وكانت هناك أربعة نوافذ صغيرة مرتفعة ضغط عليها الضباب بوجهه البائس.

بدا أن كلسي فوكنر يبلغ حوالي الخمسين من العمر، مع كتلة من الشعر الأبيض ذكرت بيبي ببتهوفن، وكان يجثم على كرسي عند طاولة العمل. كان يعد تصميمًا لقلادة.

رفع عينيه وابتسم وقال «الآن، ها هو ضوء مفاجئ في يوم مظلم».

حتى لو كانت المرأة المتواجدة في الحجرة الأمامية قد أنذرت بيبي، لظلت غير مستعدة لرؤية وجهه. كان نصفه وسيمًا، والنصف الآخر مثل شبح الأوبرا؛ كتلة مخيفة من الندب الجدرية والجلد المجعد، وقرحة حمراء تعلوها أنسجة بيضاء تبدو دهنية. وقد طغت الندب - لكنها لم تخفي - مشكلات في الخد والفك، وكأنه قد عانى من آثار حادث سير. وقد اختفت معظم أذنه اليسرى، وما بقي منها كان يشبه قشرة الفطر.

على الرغم من أن بيبي أخبرته أنه يصنع حليًا جميلة، وعلى الرغم من أنها أخفت صدمتها، فقد قرأ فوكنر ردة فعلها بشكل واضح. تحدث بتأنٍ ونطق دقيق، وكأنه من الضروري التحسب لكل كلمة تجنبًا لعدم وضوح ما سيقوله. قال «آسف. لم تنذركِ ريتا، أليس كذلك؟»

«البائعة؟ لقد قلت إنك تعرف أبي، فافترضت فقط...»

«من يكون والدكِ؟»

«ميرفي بلير؟»

«رجل لطيف مفعم بالحياة. إنه يشتري ما أصنعه من أجل والدتك».

«هكذا تعرفت عليه؟»

«كانت قد مرت سنوات طويلة قبل أن أقرر لقاء أي شخص جديد،

بخـلاف أولئـك الزبائـن الذين يصرون على التعبير عن امتنانهم إلى الصائغ». أومأ نحو دفتر الرسوم وأضاف «لدي عملي وشقتي في الأعلى وكتبي، وهذا كافٍ. وأحيانًا يكون كثيرًا جدًا».

ولأن الصائغ بدا أنه مستعد للسؤال، قالت بيبي «ماذا حدث لك؟»

بعد تردد، أمال رأسه ونظر إليها باهتمام أكبر عن ذي قبل، وقال «لستِ مثل الآخرين، أليس كذلك؟»

«من هم الآخرون؟»

تمعن فيها للحظات ثم قال «أي آخرين».

«أنا هي أنا. مثل أي شخص آخر».

اختلف معها قائلاً «بل أنتِ مختلفة. فضولكِ ليس تافهًا».

بعد أن شعرت أنه يتفحصها ولم ينتهي بعدُ من ذلك، وقفت بيبي صامتة خشية أن يسكته الإلحاح عليه.

«أنـتِ لا تشـفقين علـي. ربما تتعاطفين معـي، يمكنني رؤية ذلك. ولكنه ليس شعورًا بالشفقة يصاحبه اشمئزاز أو ازدراء خفي».

ظلت صامتة.

أغمض فوكنر عينيه وأومأ بعد لحظات، وكأنه كان يرد على نقاش جارٍ. وعندما فتح عينيه مجددًا، قال «هاجمني شـاب بأنبوب حديدي كبير. وبينما كنت فاقدًا الوعي، اغتصب زوجتي؛ حبيبتي بيث، وطعنها ثلاثة وعشرين مرة. وبينمـا كنـت أتمـدد على شـفا الموت...» اعتدل في جلسـته وأضاف «وبينما كانـت تتمـدد علـى شـفا المـوت، صب حمضًـا حارقًا على وجههـا، ثم على وجهـي. وقـد أيقظنـي الحمض الحارق وهو يغـادر. أنا نجوت، لكن بيث لم تنجُ»

كانت بيبي سترمي بنفسها على كرسيّ إن كان أحدها متاحًا. سألته «من كان المهاجم؟»

«روبرت وارن فوكنر. بوبي. ابننا الوحيد. كان يبلغ السادسة عشر وقتئذٍ

«رباه»

عند هذه اللحظة، لم يمثل الوجه المشـوه أي مشـكلة لبيبي. كانت عينا الرجل هي ما يثير فزعها، ومع ذلك فلم تتمكن من أن تشيح نظرها بسهولة.

قالت «أنا آسفة»، فأشاح بنظره بعيدًا.

كان العنصـر الرئيسـي للرسـم علـى اللوحـة هـو طائـر محلـق وجناحاه مفرودان. ربما يكون طائر العنقاء.

قالت بيبي «وجهك. يمكنه أن يصبح...أفضل من ذلك بكثير».

«أجل. بالجراحة يمكن إعادة تشكيله. بعض الإشعاع وحقن الكورتيزون لمنـع تشـكل نـدب جديـدة مع إزالـة القديمة. ولكن ما الفائدة؟ سـتبقى بيث ميتة».

عجـزت بيبـي عـن التفكيـر فـي الـرد المناسـب، وحتى إذا عثـرت على الكلمات المناسبة، فهي تدرك أنه يتعين عليها أن لا تنطقها.

أضـاف الصائـغ «أتريـن؟ لقـد كان الفتـى مهووسًـا بالنازييـن والحـرب ومخيمات الموت».

فقالت «أوشفيتز–بيركيناو، تيريزن».

«وداتشـاو، وتريبلنـكا، وجميعهـا. ولأن هـذا الحيـوان هتلـر كان مولعًا بالغمـوض، اهتـم روبـرت بهـذا أيضًا. أصبحت بيث قلقة، وأرادت استشـارة معالـج نفسـي، فقلـت لهـا لا، في هذه السـن، يفتتن العديد مـن الصبية بأمور مروعـة مـن نـوع أو آخـر. إنـه جزء من تكوين الشـخصية. يصبحـون مغرمين بالنازييـن أو الموتـى السـائرين أو مصاصـي الدمـاء، أو شـيء ما. قلت لها إنه سيتجاوز الأمر. لم يخطر ببالي ما يدور في رأسه. كان لدى بيث شك وحدس، أما أن فلا شيء، إلى أن...»

كان الضباب يتكثف بشدة على النوافذ المرتفعة. وكان هناك صوت هدير محرك طائرة أقلعت من مطار جون وين وتحلق عالية فوق البحر.

في حجرة المبيعات، حيّت ريتا زبونًا بصوت غير واضح.

قالت بيبي «ماذا حل به؟»

لم يعثروا عليه قط. وقد سرق أموالنا وبعض أغراضنا الثمينة. كانت لديه خطة، لكنني أحسبه قد مات».

«ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟»

«طوال هذا الوقت، كان يتصل ليستفزني. ولكن في النهاية، بات متعجرفًا وسليط اللسان. كان يستمتع برد فعلي على وقاحته»

«منذ متى حدث ذلك؟»

«قبل سبعة عشر سنة»

«إنه في الثالثة والثلاثين من العمر الآن».

في الحجرة الأخرى، كان هناك نقاش وضحك خفيف مثلما جرت العادة. أما في الخارج، كان صوت الطائرة يختفي سريعًا.

قال الصائغ «لماذا أنتِ هنا يا آنسة بلير؟»

تفقدت الاستوديو ثم قالت «هل تخشى عودته؟»

«كلا، إن وحشيته تجعله يفضل أن أظل حيًا وأعاني»

نظرت في عينيه وقالت «ولكن إن عاد؟ ماذا عندئذٍ؟»

من على الرف الواقع أسفل لوحة الرسم المائلة، سحب كلسي فوكنر مسدسًا. على ما يبدو أنه يبقيه بجانبه طوال الوقت.

قالت بيبي «إنه ابنك في نهاية المطاف»

«لقد كان ابني. لا أدري ما الذي أصبح عليه الآن». نظر مطولاً إلى المسدس قبل أن يعيده على الرف. وأضاف «لن يحدث ذلك قط، لأنني لا أستحق راحة البال».

لم تصدق بيبي أن سؤالها التالي له صلة بهذا اللقاء؛ بأن الفضة كانت لها أهمية هنا، لكنها طرحت سؤالها رغم ذلك. ومع تذكرها الحروف الخشبية التي شكلت اسم آشلي بيل، قالت «هل صنعت أوعية قط يا سيد فوكنر؟ أوعية فضية؟»

«الحليَ فقط. أنا موهبتي محدودة ولست مثل جورج جنسن»، ارتسمت على شفتيه ابتسامة بدت غير صادقة، وإنما أخفت وراءها حزنًا كبيرًا. ثم قال «لكنكِ لم تجيبي على سؤالي. لماذا أنتِ هنا يا آنسة بلير؟»

فقالــت «إلــى اللقــاء يا ســيد فوكنر. آمل أن تحصــل على راحة البال التي تريدها».

-62-
ابتسامة من الماضي

فـي موقـف السـيارات – وخلـف مقـود الهونـدا – أكملت بيبـي ما تبقى لهـا مـن الوقـت الذي دفعت ثمنه سـابقًا في العـداد. أمضت بعض الوقت في تفحص صورة آشلي بيل، مع أنها لم تعرف السبب ولم ترَ أي شيء في الوجه لم تلحظه من قبل. ومثلما حدث من قبل، شـعرت بصلة قرابة شـديدة ورغبة تجبرها على بذل أقصى ما يمكنها في عملية البحث. كلا، لم يكن هذا حقيقيًا؛ لم تكن مجبرة على شيء، ولم يكن دافعها قوة خارجية، ولا أي حافز تقليدي يمكنها تحديده. بدلاً من ذلك، كانت مندفعة نحو العثور على الفتاة السجينة، ومحفزة عن طريق حاجة داخلية ملحة، وليس مجرد رغبة وإنما حاجة، وكأنها وُلدت وعاشـت اثنتين وعشـرين سـنة لغرض واحد، وهو إنقاذ آشـلي بيل من أي جريمة يعتزم خاطفوها ارتكابها بحقها.

وضعـت الصـورة جانبًا، وفتحت الحاسـوب، وجرؤت على الولوج إلى الإنترنت لعملية بحث خاطفة. عثرت على القصة سريعًا، واتضح أنها أثارت ضجة وقتئذٍ، بينما كانت هي تبلغ الخامسـة فقط من العمر وتجهل ما يجري خارج محيط عائلتها. في تلك الأيام، عاش آل فوكنر بالقرب من الساحل في لاغونا بيتش. كانت بيبي قد عرفت بالفعل أكثر مما تهتم له بشـأن التفاصيل المروعة لمهاجمة روبرت لوالديه. أرادت أن ترى صورًا له، وقد عثرت على سـبعة صور في مواقع مختلفة، سـتة منها على ما يبدو قُدمت إلى السـلطات من قبل الجيران وليس والده.

أظهرتـه صورتـان فـي سـن يافعة للغايـة لن تفيدها فـي أي غرض، وفي

الصور الخمسة الأخرى، كان يبلغ بين الرابعة عشر والسادسة عشر. كان صبيًا وسيمًا، بل وفائق الجمال، وكان ينظر مباشرة إلى الكاميرا، وقد ظهر جادًا في كل الصور باستثناء واحدة، حين كان في الرابعة عشر وتعلو وجهه ابتسامة عريضة، ويقف بين نخلتين تطلان على المحيط. قاومت بيبي الرغبة الجامحة في قراءة ملامح الشر في ابتسامته المائلة أو الاضطراب في عينيه اللامعتين الثاقبتين. بدا كأي صبي آخر و - بدلاً من أن يصبح مجرمًا - يمكنه بسهولة أن يغدو قديسًا.

كانت هناك صورتان جرى التقاطهما قبل مدة قصيرة من ليلة الجريمة، كان يبلغ الخامسة عشر في الأولى، بينما يبلغ السادسة عشر في الثانية، وقد كشفت الصورتان عن أن روبرت قد تغير. كانت وقفته أكثر جرأة بلا شك، وكان هناك قدر من التحدي في سلوكه. لم تلحظ بيبي أي غطرسة في تعبيراته، وإنما نظرة ساخرة. وكان شعره أقصر عن ذي قبل، لا سيما عند الأطراف. كان قد فرق شعره من الجهة اليمنى، ولكن بشكل أكثر حدة، لذا فقد بدا الفارق في رأسه مثل خط رُسم بالطباشير. وقد سرحه إلى الجهة اليسرى عبر جبينه، ونزل الشعر على صدغه بشكل مألوف، وبعد لحظات من التمعن رأت أنه سرح شعره مثل هتلر.

كانت قد اعتزمت إرسال أوضح صورة إلى والديها مع تحذير بتوخي الحذر من رجل خطير يشبه هذا الصبي. لكنها أدركت الآن أن سبعة عشر سنة غيرت روبرت بشدة إلى الحد الذي يجعل صورة من أيام مراهقته دليلاً غير ملائم على مظهره الحالي. إلى جانب ذلك، سيرغب كل من نانسي وميرفي في معرفة سبب خطورته، وما التهديد الذي يمثله عليها، وما الفوضى التي وقعت فيها. إذا أجابت على تساؤلاتهما، فعلى الأرجح سيصبحان مستهدفين أكثر مما إذا لم تخبرهما بأي شيء.

أم أنهما كانا مستهدفين بالفعل؟

في جادة بالبوا، كانت السيارات تغادر الخليج نحو منطقة ويدج - إحدى

أشهر وأخطر بقع التزلج على الأرض – وكانت هناك سيارات قادمة نحو الخليج عبر الضباب الكثيف. أحاطت كتل بيضاء بسيارات الهوندا، وكأن العالم كما عرفته بيبي قد تحلل، ومن رحم السائل النووي يتشكل عالم جديد يضمر لها العداء عند كل منعطف.

كان روبرت وارن فوكنر – المعروف باسم بيركيناو تيريزن ويعيش باسم عادي غير معروف لدى الكثيرين – قد هددها بأذية والديها إذا اتصلت بهما. أراد أن يبقيها معزولة، مما سيسهل من التعامل معها عند العثور عليها. لكنها اشتبهت في أنه مهما فعلت، فإن نانسي وميرفي وبوغو وكل من تحب هم بالفعل على قائمة التصفية الخاصة بتيريزن. ومثلما كان المجرم المختل الذي عشقه، يريد تيريزن حلاً نهائيًا لا يقتصر على التخلص من بيبي فقط، ولكن أيضًا كافة الأشخاص الذين يهتمون بها بما يكفي لطرح أسئلة والسعي لتحقيق العدالة بعد موتها.

لم يكن باكستون ثورب ليفيدها بأي صورة في محنتها الحالية، ولم تتصور للحظة مجيئه لإنقاذها من أحد أركان العالم. لكنها تركت نفسها تفكر فيه لبعض الوقت لأن روعة الرجل – عقلاً وقلبًا وشكلاً – أزالت بعض التوتر وأمدتها بقليل من الأمل.

شغّلت السيارات ودخلت إلى الشارع؛ فقد كانت تعرف إلى أين يتعين عليها الذهاب تاليًا، لكنها كانت تجهل تمامًا ما ستفعله عندما تصل إلى هناك. كانت سولانج سانت كرويكس تعيش في لاغونا بيتش، وقد عرفتها بيبي لسنوات. ولكن أثناء بحثها عن صور لابن كلسي فوكنر السفاح، لاحظت أن منزل البروفيسورة ومسرح الجريمة يتشاركان نفس العنوان.

-63-

النوم فوق بحر من المتاعب

في مكان عميق على المدينة العائمة، تمدد غيب بلا نوم.

يتدرب عنصر القوات الخاصة على تحمل أشياء لم يكن يتصور قط أنه سينجو منها. وإذا لم يتمكن من الحفاظ على توازنه جسديًا وعقليًا وعاطفيًا خلال أسوأ ظروف الحرب مع التمسك بالثقة، تعين عليه ترك وحدة العمليات الخاصة والتحول للعمل كحارس أمن أو أمين مكتبة أو أيًا يكن. بوصفك عنصرًا في القوات الخاصة، فأنت ترى وتواجه أشياء لا يتوجب أن يمرّ عليها أحد؛ فظائع ستترك معظم الناس في حاجة إلى العلاج لسنوات، ولكن لا يمكنك أن تسمح لما تراه بإفسادك بأي شكل أو تدميرك. فبمجرد أن تشتري البسالة، فلا بد أن تتمسك بها إلى الأبد، ولا يجوز لك بيعها كمنزل أو تعيد تشكيلها إلى شيء أقل جودة، وإذا حل اليوم الذي ترفض فيه مواصلة العيش هناك، ستكون غير قادر على العيش في سلام مع نفسك.

ومع ذلك، كان عناصر القوات الخاصة يتملكهم الخوف أحيانًا، وحالهم كحال الجميع، كانت تراودهم الكوابيس. في الليلة الأولى بعد القضاء على عبد الله الغزالي وعصابته - وفي كابينة تضم سريرًا من أربعة طوابق - تمتم باكس ثورب وصاح في أحلامه. وبما أنهما كانا متمددين وغير نائمين، لم ينزعج كل من بيري وداني من هذيان قائدعما الوجيز والهادئ معظم الأحيان.

كان كل من غيب وباكس على السريرين السفليين، ويفصل بينهما رواق ضيق. ومع أنه كان مجهدًا من المهمة، فقد عجز غيب عن النوم، وظل يستمع إلى هذيان باكس الغريب، ويحاول حفظ بعضه.

فـي الصبـاح، قـال غيـب علـى الإفطـار «يبـدو أنك كنت فـي أحد أفلام هيتشكوك ليلة أمس يا باكس. من قذف حمضًا على وجه من؟»

شـحب وجـه باكـس وهو يرفـع عينيه عن طبقه الفوضـوي، وقال «أفظع كابوس. قطع ومشاهد جنونية، ليست متصلة ببعضها، لكنها شديدة الوضوح».

فسـأله غيـب «هـل كان هتلـر يغتصـب أمه؟ ومن الذي قطعـتَ أصابعه؟ عندمـا تتخلـى عـن العمل فـي القوات الخاصة يا رجـل، يجدر بك الحصول على وظيفة كتابة مسلسلات تلفزيونية لإحدى شبكات الكيبل».

-64-

عرين أسد بكل ما للكلمة من معنى

في لاغونا بيتش، كان المنزل الذي شهد الجريمة – والمكون من ثلاثة طوابق – يقع على شارع منحدر متفرع عن الطريق الساحلي السريع، حيث أطل السكان على الجهتين الشمالية أو الجنوبية، وفي كلتا الحالتين لم يكن لديهما إطلالة على المحيط، ولكن كان المكان راقيًا. كانت هناك أشجار عملاقة عتيقة، وأفنية أمامية بارزة، ومزيج منتقى من النباتات المزروعة، بعضها يبدو ذابلاً. كان المنزل الذي توفيت فيه بيث فوكنر عبارة عن ألواح من الجبس وطوابق خشب الساج الأملس المكدسة فوق بعضها مثل طبقات كعكة زفاف خُبزت لعروسين يفتقران الإحساس وتشبه الجزر.

في هذا الوقت من اليوم، على الأرجح ستكون الدكتورة سولانج سانت كرويكس في الجامعة، مدافعة عن معايير أدب الخيال الأميركي الحديث وموبخة للكتاب الشبان. وقفت بيبي عبر الشارع وظلت تراقب المنزل نصف ساعة. فلم يظهر أحد في أي طابق أو أي من الحجرات الواقعة خلف النوافذ الثمينة.

كان الضباب أخف نوعًا ما عما كان عليه في نيوبورت، ومع ذلك فما يزال كثيفًا بما يكفي للظهور في نسخة حديثة من رواية كلب باسكرفيلا. ولم يكن هناك نقص في الكلاب، فقد ظهر حشد من السكان برفقة كلابهم أعلى وأسفل التلة. ولا يبدو أن أحدهم سيتعجب من أن امرأة ترتدي قبعة بيسبول ونظارات شمسية وتتسكع في سيارة قديمة وتراقب المنطقة. لطالما تفاخرت لاغونا بأنها موطن الفنون الذي احتضن كافة الطبقات والثقافات، ولم تتكن تتحمل الغرباء فقط وإنما احتفت بهم.

بعد أن خلعت القبعة والنظارات، تقدمت بيبي بجرأة صوب منزل سانت كرويكس. وعندما لم يرد أحد على الجرس، مشت نحو مؤخرة الملكية برباطة جأش شديدة لمقتحمة منازل محترفة. كانت الأبواب والنوافذ مقفلة، ومع ذلك كان الباب الخلفي المؤدي إلى المرآب مؤمنًا بقفل ضعيف. وحتى إذا احتوى المنزل على نظام للإنذار، فمن غير المرجح أن يكون المرآب متصلاً بهذا النظام. كان بوسعها فتح المزلاج بإدخال بطاقة ائتمان بين الباب والعضادة، لكنها تركت حقيبتها في السيارة.

عندما فكرت في العودة إلى الهوندا لإحضار بطاقتها الائتمانية، تمزق شيء ما داخل بيبي. لم يكن تمزقًا شديدًا؛ وكأن روحها قد انشطرت نصفين وتداعت. ولم يكن مثل تصدع غصن شجرة أيضًا. كان شعورها بالأسى على اضطراب حياتها، ومشاعر القلق والغضب والحيرة التي غمرتها بسبب الأحداث المفزعة في الساعات الثماني عشر الماضية، قد أجهدتها إلى الحد الذي أجبرها على التضحية بشيء ما. مجرد غصن واحد مكسور؛ غصن واحد في شجرة بيبي العالية يحمل وسم «الحذر». فلتذهب بطاقة الائتمان إلى الجحيم، فلم تكن في حاجة إليها. ركلت الباب بقدمها، فلم تندم على الضجة التي أحدثتها، بل أحبتها. كانت تحقق إنجازًا ما أخيرًا. ركلته مجددًا، ومع الركلة الثالثة، استسلم المزلاج. رحّب بها المرآب المظلم.

عثرت على مفتاح الضوء، ولم تجد أي سيارات، ثم أغلقت الباب وراءها.

كان للباب الخلفي - الواقع بين المرآب والمنزل - قلب صلب وقفل مركب معقد. كان بوسعها ركله حتى تسقط من الإجهاد ودون نتيجة، كما أن البطاقة الائتمانية ستكون بلا فائدة أيضًا.

كانت هناك أدوات حدائق معلقة على الجدار. وبالقرب منها استقرت طاولة عمل مع أدراج تحيط بمنطقة الركبة. وقد عثرت على أدوات متنوعة في الأدراج، بما في ذلك مفكٍ ومطرقة.

عنـد أدنـى مفصلـة في البـاب، أدخلت حافة المفك بين الرأس والسـاق الخاصة بالمسمار، وسحبته نصف بوصة خارج أسطوانة المفصلة. بعد ذلك، دقت على كعب المفك بالمطرقة حتى انفك المسمار. وسرعان ما استخرجت المسامير الأربعة، وقذفتها جانبًا لتصدر صوت رنين على الأرض الصلبة.

كانت كل أسـطوانة تتشـكل من خمس مفصلات؛ اثنتان كانت جزءًا من رقاقـة الإطـار، وثلاثـة كانت جزءًا من الرقاقة المركزية. وبدون مسـامير لربط المفصلات ببعضها البعض، كانت تفصل بينها مسافة صغيرة، ولكن ظل الباب في مكانه. تمتمت قائلة «لا فائدة». باسـتخدام المفك – ثم المطرقة – قامت بفتـح شـق بيـن البـاب والعضادة يكفـي لإدخال أصابعها عبره. ظلت تسـحبه بعنـف حتـى تفككـت المفصـلات وبرز الباب إلـى الخارج بمقـدار بوصتين تقريبًا، ومال نحو العتبة. لـم ينطلق جهاز الإنذار. جميل. لـم يتبقى الآن سوى القفل المركب، الذي لا يمكن تحريكه مثل المفصلات. وبينما كانت تكافح للدخول، بدأ الخشب يتشقق حول المسامير التي تثبت قفل النقر؛ إذ اصطدم المسمار الملولب في لوحة الإضراب الخاصة بالقفل. زمجرت بيبي وبذلت قصارى جهدها في هذه المعركة حتى – بعد تشقق الخشب أكثر – انفتح الباب بمـا يكفـي ليتيـح لها النفاذ إلى داخـل المطبخ، حيث وقفت تصغي للحظات ومسحت العرق عن جبينها بكم سترتها.

أحيانًا كانت بيبي تتمنى أن تكون مثل باكسـتون. كان سيسـتخدم حزمة متفجرات سي–4 لتفجير الباب ونسف جزء من الجدار. إن الجيران في لاغونا متسامحون. وعلى الأرجح لن يتذمروا حتى التفجير الثاني أو الثالث.

تسـلل ضـوء النهـار – المصفـى من قبـل المياه المحيطـة بالمكان – إلى المكان، وانعكس على النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف، تاركًا ظلالاً في بعض الأماكن، وموفرًا إضاءة مناسـبة ولكن كئيبة تشـبه إضاءة فترة الظهر ليوم في فصل الشتاء.

بينما كانت تتفقد الطابق الأرضي – حيث انفتحت كل حجرة على التي

تليها مع ترك مساحة ضيقة للأروقة – شعرت أن البناء أفضل بكثير من الهيكل الخارجي. كان المكان هادئًا للغاية. وكانت الأرضيات مغطاة بالحجر الجيري الباهت، مع أقل قدر من السجادات، ودون وجود أي ستائر. وكانت هناك مدفأة رخامية، ومرايات ذات عمق لافت للنظر، وأثاث من الحديد والجلد وضع بعناية شديدة وبدا منفرًا وكأن من صممه كان مغرمًا بالحشرات. كان يفترض أن يصدر كل سطح صلب في المكان صوت رنين خافت مع كل حركة تأتي بها بيبي، لكنها تنقلت في صمت مثل الشبح، وكأن هذا المكان معبد مدفون منذ قرون تحت مائة قدم من رمال الصحراء.

كانت هناك لحظات شعرت فيها بوحدة شديدة، ولكن كانت هناك لحظات أخرى وقفت فيها وأصغت بتمعن، وهي تكاد تقتنع أن أحدهم ينتظرها هنا، مثل عنكبوت الباب المسحور الذي يترقب لحظة سقوطها.

كان من الجليّ أن الطابق الأرضي مخصص للأنشطة الترفيهية، مثل حفلات الشرب والسهرات الأدبية التي كانت رائجة بين زملاء الدكتورة سانت كرويكس من أعضاء هيئة التدريس، والمحاضرين الزائرين، والطلاب. لم تمضِ بيبي وقتًا كافيًا في برنامج الكتابة حتى تجري دعوتها إلى هنا؛ بيد أنه في حجرة تلو الأخرى، وتفصيلة تلو التفصيلة، فكل ما وقع نظرها عليه بدا مألوفًا. وبدقة متناهية، كان بوسعها تخمين ما ينتظرها في كل ركن وخلف كل باب.

في تلك المساحات الباردة والمفروشة بعناية، لم يفسر أي شيء دور البروفيسورة في الأحداث الأخيرة أو يؤكد أنها على علاقة بتيريزن بشكل ما. وإذا كانت هناك حجرة دراسة أو مكتب من المرجح العثور على بعض الأدلة فيها، فلا بد أنها تقع في الطابق الثاني.

صعدت بيبي سلمًا مفتوحًا مصممًا من الحديد والزجاج، متجاوزة نوافذ كبيرة رسم عليها الضباب الكثير من الوجوه المشوهة.

كان الوضع في الطابق الثاني مثل الطابق الأول، مع مسرح منزلي عادي،

وصالـة للرياضـة بهـا القليل من المعدات، وأخيرًا حجرة للدراسـة أملت بيبي العثـور عليهـا. كانـت حجرة متواضعة على غرار مكتب سـانت كرويكس في الجامعة. فقد احتوت على لوحتين بالأبيض والأسـود، وكانت أرفف الكتب خالية تقريبًا، فضلاً عن وجود أريكة بالية. كان هناك كرسي مكتب أسود من طراز هيرمان ميلر - وهو الشيء الوحيد الذي بدا مريحًا في المنزل - يستقر خلف مكتب من الحديد المطلي وألواح مطلية بالرمادي.

كان كل هذا مألوفًا بشدة أيضًا.

وحده المكتب هو الذي يخفي الاحتمالات، مع أنها ليست كثيرة. خلت حجرة الدراسـة من وجود أي حاسـوب. وكان سـطح المكتب خاليًا تمامًا. وكانت هناك أربعة أدراج لم تعثر بيبي في داخلها على ما يثير الاهتمام.

وعند الركن الجنوبي الغربي من الحجرة، قاد سـلم إلى الطابق الثالث. وللمـرة الأولـى، تعيـن عليهـا إشـعال الضوء. وفي الأعلـى، عثرت على باب مطلي بالأسود.

اشتبهت بيبي في أنه عند وجود ضيوف في المنزل، فإن هذا الباب يكون مقفلاً، حيث إن الباب والسلم المؤدي إليه ظهرا وكأنهما ممر نحو واقع مفزع. لكن القفل كان مفتوحًا الآن.

عندما أمسـكت بمقبض الباب، كانت على يقين بما سـتعثر عليه خلفه - ليـس بالتفاصيـل الدقيقـة وإنما الجوهر؛ حجـرات على النقيض تمامًا من كل ما مرت عليه في الطابقين الأولين.

عندمـا عبـرت عتبـة البـاب و - عبر مفتاح مثبت على الجدار - أشـعلت عـدة مصابيـح مـن الزجـاج الملـون والمنفـوخ المثبتة باحترافيـة، انتقلت من جـو الحداثـة إلـى العراقة الشـديدة. أطل الباب علـى قاعة صغيرة يزينها ورق جدران طُبع يدويًا بنمط ملون يشبه الأزهار. وكانت هناك ستائر رقيقة مغطاة بأخـرى مخمليـة ملونـة وذات أهداب. وكان هناك رفان ممتلئان بمقتنيات من البورسـلين، وأريكة من طراز تشاسـترفيلد، وكرسـي بذراعين مغطى بالجلد،

وطاولـة مسـتديرة كبيـرة جانبيـة مغطاة بقماش مغطى بدوره بالكروشـيه، وقد استقرت فوقها تماثيل صغيرة وزينة مطلية ورسومات لها إطار.

شعرت بيبي أنها مثل الأطفال الذين اكتشفوا نارنيا، وكأنها قد انتقلت إلى عالم آخر، لكنها شعرت أيضًا أنها قد عادت إلى مكان زارته من قبل. كانت الأقمشـة الفخمة والفوضى الشـديدة – وحتى في الوقت الراهن – دليلاً على شغف بالحقبة الفكتورية أكثر من كونه مجرد هوس.

خلـف القاعـة الصغيـرة، كان هناك جناح يضم حجـرة نوم كبيرة تحتوي على أغراض مشـابهة. كانت القطعة الرئيسـية في الحجرة هي فراش له مظلة مرتفعـة، ونُحتـت أعمدتـه الأربعـة على هيئـة نبتتين متسـلقتين وورود مطلية بالذهب.

وقفت بيبي داخل حجرة النوم وهي تشعر بالاندهاش والريبة، وتتساءل عما إذا كان يمكن العثور على أي شيء مثير للاهتمام في الدرجين المجاورين للفـراش. ولكـن قبـل أن تواصـل الاستكشـاف، انغلـق بعنف البـاب المطلي بالأسود عند أعلى السلالم.

-65-

صمت ينمو مثل السرطان

عندما استدارت بيبي نحو الباب الواقع بين حجرة النوم والقاعة الصغيرة، بدا أن الوقت قد حان لسحب المسدس من غمده.

كان باكس قد دربها لبضعة أيام في ميدان للرماية، وقد أطلقت في معيته المئات من الرصاصات على أهداف ورقية على هيئة بشر متخفين. كانت تخشى من اتخاذ قرار خاطئ عند وقوع أزمة ما، فتطلق النار عندما يتعين عليها الانتظار، وتقتل بالخطأ شخصًا غير المستهدف. لطالما كانت الكلمات سلاحها في الدفاع عن نفسها، وإذا ما استهدفت الشخص الخطأ، فإن التوضيح والاعتذار كافيان لتصويب الخطأ. لكن الاعتذارات لم تكن تشفي جروح الصدر القاتلة.

عندما لم يظهر أحد في زاوية رؤية بيبي عند مدخل الباب، وعندما بات الصمت قاتلاً لدرجة جعلتها تعتقد أنه يجري اختبارها - وربما السخرية منها - تغلبت على ترددها الشديد وسحبت المسدس. أمسكت به في يدها اليمنى ووجهت فوهته صوب السقف.

نظرت إلى إحدى النوافذ وهي تتساءل عما إذا كان يوجد خلفها حافة خشبية يمكنها استخدامها في الهرب عند الضرورة. كانت رحلتها عبر المنزل قد أصابتها بالتشتت. فلم تكن تعرف ما الجهة الي تواجهها هذه النافذة، وقد أعاقها الضباب الذي غطى الساحل من معرفة الاتجاهات بالنظر إلى حدة وزاوية ضوء الشمس.

يمكن للصمت أن يكون استراتيجية فعالة؛ إذ أنه يوتر الأعصاب ويحفز

المخيلة على ابتكار سيناريو مفزع تلو الآخر، فيخطئ المرء في أصغر الأصوات العادية ويعتبرها بداية الهجوم المتوقع، ويصبح غافلاً عن الهجوم الحقيقي في اللحظة المصيرية. ومع كل خطوة اتخذتها بيبي في هذا المنزل، كان قلقها شديدًا، لكنه الآن بات حادًا كالسكين.

في الأفلام، كان البطل المعذب من الصمت يسأل هل من أحد هناك؟ من هناك؟ مرحبًا؟ ماذا تريد؟ وكانت إجابة السؤال الأخير مثل رد تيريزن عندما سألته بيبي - عبر الهاتف - عما يريده منها؛ أن أقتلكِ فقط. وهكذا، الصمت يواجه بصمت مثله وبتحرك محسوب.

أنزلت المسدس إلى الأسفل وهي تقبض عليه بيديها وذراعاها مفرودان، مثلما علمها باكس. تأكدت من أن مدخل الباب آمن، ثم انتقلت سريعًا من حجرة النوم إلى القاعة الصغيرة وهي تخفض رأسها، وقامت بتحريك المسدس من اليسار إلى اليمين، ثم العكس.

لم يكن هناك أحد يجثم خلف الأريكة أو الكرسي، كما لم يختبئ أحد خلف الستائر العتيقة.

وقفت بيبي وحيدة وهي تتساءل عما إذا كان الباب قد انغلق بسبب تيار هوائي، بيد أن الهيكل الضيق للمنزل لا يتيح مجالاً للتيارات الهوائية مثلما أتاحه للصمت المطبق. ولم تكن تؤمن بتيارات الهواء التي تهب فجأة مثلما لم تكن تؤمن بالمصادفات.

بات الصمت الآن أعمق عن ذي قبل، وكأنه نزل بفعل تعويذة ساحر. كانت عاجزة عن سماع أنفاسها أو دقات قلبها. ولكن كان ما لفت انتباهها هي رائحة بالكاد يمكن شمها. لم تكن رائحة عطر. وكانت أكثر حدة من معظم منتجات النباتات أو الزهور المستخلصة والمخففة. وربما كانت رائحة شعر نظيف أزيلت منه آثار الشامبو، أو جلد أزيل منه كل العرق والصابون. لم تكن الرائحة جميلة ولا كريهة، بل كانت مزعجة على قدر ضعفها، وتشي بحضور بارد وعدائي.

عندمـا اسـتدارت بيبـي – وهـي ما تـزال تقبض على المسـدس بيديها –
كانت سولانج سانت كرويكس تقف على مسافة سبعة أو ثمانية أقدام. بدا أن البروفيسورة قد ظهرت من العدم، إلى أن رأت بيبي خلفها مدخل المرحاض مع حوض بقاعدة وحوض استحمام على أربعة أقدام. ومن أجل التماهي مع الديكور العتيق، كان الباب مخفيًا في الجدار المحيط به، والجانب السفلي منه مطلي ومصمم في قالب حتى يتماشى مع الخشب المكسو، ولُصقت أوراق جدران على الجانب العلوي منه.

ارتدت المرأة بدلة أنيقة كالمعتاد ولكن ضيقة كانت ستناسبها للغاية لو أنها تعمل كمتعهدة دفن للموتى. كان شـعرها الرمادي مسـحوبًا إلى الخلف بشـدة ومسـرحًا على هيئة كعكة، وكانت بشـرتها أكثر شـحوبًا، وشـفتاها خاليتين من الدماء، وبدت وكأنها وُلدت من رحم الضباب الذي يغطي النوافذ ذات الستائر.

لـم تفـزع سـانت كرويكـس، رغم توجسـها من المسـدس، ولـم تحاول الاقتـراب مـن بيبـي، لكنها بدأت بالدوران حولهـا، وكأنها كانت تنتظر لحظة لبدء الحوار. لم تكن نواياها واضحة، لأنها لم تحمل أي سلاح، مع أنها لن تكون مفاجأة إذا ما ظهر سـكين فجأة من البدلة التي بدت ضيقة للغاية على إخفاء أحدها.

فـي خضـم صمـت اسـتراتيجي متبـادل، دارت البروفيسـورة 360 درجة واسـتدارت بيبـي فـي مكانهـا للحاق بها. كان من الصعـب القول أيهما القمر والأخرى الأرض. عضت سـانت كرويكس على شـفتها السـفلى وكأنها تمنع تدفق الكلمات، وطوال ثورة غضبها، ما انفكت تنظر في عيني طالبتها السابقة دون أن تشيح بنظرها للحظة. كانت عيناها الزرقاوان جوهرتان تشعان حقدًا.

عندمـا بـدأت البروفيسـورة فـي الدوران ثانية – متعثرة فـي حافة الطاولة ومسقطة اللوحات الفنية والتحف – قالت «والآن فضيحة أخرى. ماذا تفعلين هنا يا آنسـة بلير؟ ما الذي جئتِ لتسـرقيه؟ أم أن شـيئًا غير السـرقة هو من يثير جنونكِ، شيء أكثر وضاعة، شيء شاذ؟»

بـدلاً مـن الإجابة على أسـئلتها، قالت بيبـي «لماذا كنتِ تتناولين الإفطار مع تشاب كوي؟»

قالت سانت كرويكس – بينما كانت تحدق بعينين لامعتين عبر رموشها – «ما زلتِ تطاردينني إذًا، صحيح؟ بعد كل هذه السنين».

«العكس هو الصحيح، وأنتِ تدركين ذلك»

«عكس ماذا هو الصحيح؟»

«أنتِ التي تطاردينني. لقد كنتُ في المطعم قبلكِ»

«يـا لـكِ نفـس السـاقطة الكاذبـة كما كنـتِ دومًا. سـاقطة كاذبـة صغيرة ومختلة. لكنكِ لستِ ذكية مثلما تظنين».

على الرغم من أنه لم يكن ثمة شيء يميز المرأة، إلا أنها اتسمت بالمكر؛ إذ كانت عدوانية وبلا رحمة مثل هرّة تطارد فأرًا.

قالت بيبي «ما علاقتكِ بتيريزن، أو بوبي فوكنر؟»

فقالـت سـانت كرويكـس – وهـي ما تزال تدور ربمـا لتحديد ما إذا كان بوسـعها خطـف المسـدس – «هـل هـذا شـخص يفترض بـي أن أعرفه ضمن مؤامرة تخططين لها؟»

«قبل سبعة عشر عامًا، قتل والدته في هذا المنزل وكاد أن يقتل والده».

لم تنفِ البروفيسورة الحادثة، بل ولم تؤتِ بأي ردة فعل على الإطلاق. قالت «هل أنت على استعداد للاعتراف بما ارتكبتيه يا آنسة بلير؟»

«لقد اقتحمتُ منزلك للعثور على شـيء يمكنه تفسـير علاقتكِ بالقاتل، روبرت فوكنر أو تيريزن».

توقفت سانت كرويكس عن الدوران. كانت تقدس الصورة التي رسمتها عن نفسها أمام العالم، وهو ما دعاها لبذل جهد كبير لإخفاء جمالها الطبيعي، لكنها مع ذلك فشلت في إخفائه بشكل كامل. بيد أن تعبيراتها في هذه اللحظة كانـت قبيحـة للغايـة إلـى الحد الذي محـى أي آثار للجمـال، وبدت في قمة العداء والحقد.

قالت «أعني ما فعلتيه آنذاك، ذاك الفعل المشين الذي طُردت بسببه من الجامعة بسببه».

«لم أُطرد، وإنما استقلت».

في المناسبتين الماضيتين اللتين تواجهت فيهما مع البروفيسورة حول جريمة بيبي المجهولة، لم تكن سانت كرويكس غاضبة بهذا الشكل. لكنها الآن انتقلت من الحنق إلى الغضب؛ غضب لا يمكن للكلمات التعبير عنه.

«استقلتِ، هذا صحيح. لأنكِ إن لم تفعلي ذلك، لكنتُ رأيتكِ مطرودة شر طردة»

قالت بيبي في غضب – وقد بدأت تفكر في إطلاق النار على قدم سانت كرويكس لإجبارها على التوقف عن التحدث بغموض شديد – «حسنًا، لا بأس، أخبريني بما ارتكبته إذًا».

«تعرفين تمام المعرفة ما ارتكبتيه» باتت عيناها الباردتان تقذفان لهبًا الآن؛ لهب أزرق يشبه المستخدم في محرقة الكلاب.

«تظاهري بأنني لا أعرف. أخبريني. هاتِ ما عندكِ وعنفيني. إذا كان الأمر بهذا السوء، فاجعليني أشعر بالخزي مثلما تعتقدين».

قال رجل «كفى!»

فتح تشاب كوي الباب المطلي بالأسود ودخل الجناح الكائن في الطابق الثالث. كان يرتدي بدلة سوداء وقميصًا رماديًا بلا ربطة عنق. وكان سلاحه مزودًا بكاتم للصوت.

أبقت بيبي سلاحها مصوبًا نحو البروفيسورة، التي كانت أقرب إليها من مدير أمن المستشفى (وأيًا كانت هويته الأخرى).

بالنظر إلى ردة فعلها، لم تكن سانت كرويكس أقل اندهاشًا من ظهور كوي عن بيبي. قالت «ماذا تفعل هنا؟ ليس لديك الحق في التواجد هنا. هذا منزلي. في البداية هذه اللصة الساقطة والآن أنت؟ لن أتحمل...» لم تكد تنهي الجملة حتى عاجلها كوي برصاصتين في الصدر.

-66-

إنه يفضل الموت عن انكشاف الحقيقة

اعتقـدت بيبـي للحظات أن تشـاب كـوي كان يقصد إصابتها هي، ولكن لأنه لا يجيد التصويب، فقد قتل البروفيسـورة بالخطأ. إلا أنه حين قال «كان يمكن لها أن تكون امرأة ومعلمة أفضل لو أن أحدهم أطلق النار عليها صبيحة كل يوم في حياتها»، اتضحت نواياه بما لا يدع مجالاً للشك.

كانت بيبي قد شهدت التبعات المفزعة لجريمة قتل، لكنها لم ترها وهي تُرتكب قط. وبصرف النظر عما كانت تتصوره بشأن لحظة كهذه، فكل ما كتبته أو فكرت في كتابته عن جرائم القتل فشـل في تصوير هذه اللحظة الصادمة؛ اللحظـة المرعبـة والصعبـة لرؤيـة حياة تُسـلب إلى الأبد، ومـا يصاحب ذلك مـن شـعور بنهايـة العالـم وكافـة ما مرت به مـن تجارب. شـعرت بالفزع من التشـنج الـلا إرادي للجثـة مع اختراق كل رصاصـة، ومن ضوء العينين الذي ينطفئ فجأة، ومن السـقوط المختلف للغاية عن سـقوط أي إنسـان به بريق من الحياة؛ سـقوط عنيف ومخزٍ لجماد وليس إنسـان. لكن سـولانج سـانت كرويكس - وهي ليسـت صديقة لبيبي - أثارت في داخلها شـعورًا بالأسـى، ليس على البروفيسورة فقط، ولكن على نفسها أيضًا وعلى كل شخص يولد في عالم الموت هذا.

كان مـن المدهـش حقًـا وجـود أي تعاطف لديها مع سـانت كرويكس، بالنظر إلى أنه - عندما سـقطت المرأة - انسـل سـكين من أحد كميها. كانت مدية زنبركية، بالنظر إلى الزرق المثبت على المقبض.

لم يتردد صدى الصوت المكتوم للرصاصتين عبر الجدران، بل كان أشبه

بهمس سريع بلغة غير مفهومة، وجرى امتصاصه بدون صدى من قبل طبقات الأقمشة والأثاث الفاخر للقاعة الصغيرة العتيقة. عند هذه اللحظة المكتومة – ومع تحول الدكتورة سانت كرويكس من إنسان حي إلى جثة هامدة – أنزل تشاب كوي سلاحه، فأوضح بذلك أنه لن يطلق النار على بيبي، مع أنه لم يخفي السلاح في غمده.

«ما هذا بحق الله؟» قالت تاركة الكلمات تخرج مع أنفاس مكبوتة. «لماذا؟»

فقال كوي «يا لها من غضبة. لقد فقدت المرأة الحمقاء السيطرة على نفسها. ويا لها من ثرثارة، إن لسانها طليق لدرجة أنه قد يسقط من فمها. لدي مصالح لأحميها».

«أي مصالح؟ إنها أحدكم. لقد كنت تتناول الإفطار معها صباح اليوم».

تلك العينان الرماديتان مثل الحديد والمرقطتان بالأزرق، اللتين كانتا في السابق حادتين كمشرطين يبحثان عن أكاذيب لكشفها مثل الأورام، أصبحتا الآن حاجزين صلبين يخفيان كل الأسرار القابعة خلفهما. قال «أنتِ لا تتفهمين الوضع يا آنسة بلير. هناك العديد من الأطراف في هذا الأمر، وقد يتحالف بعضها مع أخرى بين وقت وآخر، لكننا لسنا جميعًا على نفس الجانب. هذه لعبة عالية المخاطر، وفي مثل هذه الألعاب، يسعى معظم الناس خلف مصالحهم الخاصة».

سألته بيبي «أي لعبة؟ ما سبب كل هذا؟ وأين هي آشلي بيل؟ وماذا سيفعلون بها؟»

ارتسمت على وجهه المستدير والودود ابتسامة عريضة ساحرة وقال «لستِ في حاجة إلى معرفة ذلك»

«بلى، أحتاج إلى أن أعرف. ثمة أشخاص يريدون قتلي»

«ولسوف يفعلون» أكد لها. وأضاف «لإبقاء السر مخفيًا، سيقتلونكِ بستة طرق مختلفة دفعة واحدة»

«أي سر؟»

اكتفى بالابتسام.

عندما صوبت المسدس نحوه، استمر في الابتسام وأبعد سلاحه. قال «لا تملكين ما يتطلبه الأمر لقتل رجل بدم بارد».

«بلى، سأفعل»

هزّ رأسه نافيًا وقال «غريزة الشرطي. على أي حال، أنا أفضل الموت على أن أكشف لكِ أي شيء».

أنزلت بيبي المسدس وقالت «إن آشلي مجرد طفلة. كم تبلغ من العمر، اثنا عشر؟ ثلاثة عشر؟ لماذا يجب أن تموت؟»

هزّ كتفيه بلا مبالاة وقال «لماذا يموت أي إنسان؟ يقول البعض إننا لن نعرف السبب قط، وأننا بالنسبة إلى الآلهة مجرد ذبابات يقتلها الأطفال في يوم صيفي»

شعرت ببغض شديد له بسبب لا مبالاته الشديدة. قالت «أي نوع من الأوغاد أنت؟»

ابتسم مجددًا وقال «أي نوع تريدينه يا آنسة بلير»

عندما بدأ في الابتعاد عنها، قالت «هل تتعاون معه، مع تيريزن؟»

احتدت عيناه البليدتين للحظات وهو يستدير نحوها مجددًا. قال «ذاك الفاشي الوحشي غريب الأطوار وطائفته النازية الخرقاء؟ آنسة بلير، كدتِ تجعلينني أرغب في قتلكِ بسبب اقتراحكِ هذا. أنا أحتقره».

«حسنًا، عدو عدوك...»

«سيبقى عدوي. تقبلي المحتوم يا فتاة. أنتِ صيد سهل. كان تيريزن كلبًا وهو صبي، وقد عاد الآن إلى البرية. فأصبح ذئبًا الآن مثل كل الذئاب، ولكنه يختلف عنهم في نفس الوقت، فهو دائمًا يسبق القطيع. إنه يحلم بإعادة العالم إلى الوراء، بأن يعيده شابًا، وهو عالم القطيع. سينالون منكِ عاجلاً أو آجلاً.

أنتِ تحسبينها طائفة، وهي كذلك، لكنها أكبر مما تظنين. هناك الكثير من هذه الحشرات، وهي تمتلك النفوذ»

خرج من الجناح العتيق. فبدأت في اللحاق به، ولكن سرعان ما توقفت بسبب شكها في أنه – عند لحظة ما في الدقائق السابقة – منحها تلميحًا لكنها فوتته، وأنه قد ترك لها طرف خيط مهترئ – إذا ما نسجته على مغزل – سيكشف الغموض الذي وجدت نفسها عالقة فيه، مما سيكشف كل غطاء ونسيج لهذه المؤامرة المحبوكة بعناية. وقفت هناك برفقة الجثة في القاعة العتيقة الملونة؛ كانت تنظر ولكن لا تبصر، وتستمع في عقلها إلى محادثتهما ولكن تشعر بالصمم.

-67-
قليل من الوقت للهدوء

إذا كان تشاب كوي قد ترك لبيبي طرف خيط - تلميح - فلم تتمكن من العثور عليه في القاعة الكائنة في الطابق الثالث أو تتذكر محادثتهما بوضوح كافٍ لاستخلاص طرف الخيط المهترئ. وبينما كانت تشعر بالحيرة والاستياء، وضعت في جيبها مدية الدكتورة سانت كرويكس. بعد ذلك، أخذت وسادة مزخرفة من الأريكة، وفتحت الغطاء المهدب وأزالته، وغطت به يدها اليمنى وكأنه قفاز. وبينما كانت تشق طريقها إلى أسفل عبر المنزل، حاولت أن تتذكر كل شيء لمسته بيديها، ووقفت تمسح كل غرض لمحو أي بصمات أصابع ربما تكون قد تركتها.

إذا جرى اتهامها بقتل سولانج سانت كرويكس، فسيضع هذا حدًا لبحثها عن آشلي بيل مثلما سيكون الحال عندما يقتلها تيريزن. وإذا تصادف أن الضابط الذي سيعتقلها هو أحد الأشخاص الخطأ، فقد يدعي أنها قاومت الاعتقال، سواءً كانت فعلت ذلك أم لا، مما سيمنحه مبررًا لقتلها.

تساءلت عن شكل حياتها بعد أن تمر من هذه الأزمة بسلام. كان الفزع يسري في دمائها الآن مثل عدوى مميتة، وربما لا يكون هناك علاج لها. كانت تتخيل نفسها رهينة الخوف من الأماكن الخالية والرهاب الاجتماعي والأماكن المفتوحة والناس، وعاجزة عن مغادرة شقتها، وتعيش خلف باب مقفل وستائر مسدلة بإحكام.

قالت وهي تعبر حجرة المعيشة «تبًا لهذا».

في المطبخ - على الجزيرة - استقرت حقيبة ضخمة لم تكن موجودة

عندمـا دخلـت بيبـي المنـزل فـي البدايـة. لا بد أنها تخص سـانت كرويكس، وقد تركتها عندما دخلت عبر الباب المكسور من المرآب. أيًا يكن ما يمكن قوله بشـأن البروفيسـورة، فلا يمكن لأحد أن ينكر جرأتها بمطاردتها الدخيل بمفردها، مع أنها على الأرجح كانت تعرف بشكل ما هوية طريدتها. أخذت بيبـي الحقيبـة وواصلـت محـو بصمات الأصابـع داخل المـرآب، حيث كان محرك سيارة المرسيدس الخاصة بالمرأة المغدورة ما يزال لم يبرد بعد.

توقفت هناك لفتح حقيبة اليد الخاصة بسانت كرويكس، حيث عثرت في داخلها – مثلما توقعت – على هاتف ذكي. اسـتخدمت الهاتف في الاتصال بوالدهـا، وهـو ما لن يكشـف عـن مكانها إذا كان الأشـخاص الخطأ يضعون هاتف ميرفي تحت المراقبة.

ردّ على الاتصال عند الرنة الثانية قائلاً «معك ميرفي».

«مرحبًا يا أبي»

«بيبي! كنا نحاول الوصول إليكِ طوال الصباح»

«كنتُ أتجنب المكالمات»

«حتى مكالمات والديكِ؟ ما الخطب؟»

«لا شيء. أنا بخير»

«لا تخدعيني بكلام معسول».

«اهـدأ أيهـا العجـوز. كل مـا فـي الأمـر أنني كنتُ على شـفا الموت قبل يومين، وأحتاج إلى بعض الوقت لأتجاوز الأمر»

«أخبريني! طوال اليوم، كان حالي يتقلب بين الضحك مثل كلب مخبول والذعر الشديد».

قالت بيبي – بعد أن شعرت بصدق مشاعره – «لا تخف عليّ يا أبي»

«أحبكِ حبًا جمًا فقط يا عزيزتي»

«وأنـا كذلـك يـا أبـي. ولكـن أتعلـم؟ أردت السـلام فقط. سـأذهب إلى الساحل لبعض الوقت، وأعثر على مكان لطيف للاسترخاء لبضعة أيام»

«القليل من الوقت للهدوء»

«بالضبط. ربما في كارلسباد أو لا خويا. سأخبرك عندما أحجز غرفة في نُزل. آسفة لأنني لم أرد سيارة أمي هذا الصباح»

«بدأنا نقلق حينئذٍ. ولكن لا تقلقي يا فتاة. سنذهب إلى هناك ونأخذها بأنفسنا. بالمناسبة، كيف كانت ليلة الأمس برفقة كاليدا؟»

فقالت بيبي «استثنائية. سنتحدث عن ذلك خلال بضعة أيام عندما أراك»

كادت تسأل عن الوعاء الذهبي والحروف الخشبية التي عثرت عليها في مكتبه، وبشأن حزمة الإبر وقطعة القماش القطنية المخضبة بالدماء. لكنها لم تكن تعرف إلى أين يقود سؤال كهذا، وفي الواقع لم تكن تريد أن تعرف. لم ولن تجرؤ على الشك في والديها. ففي أوقات المحن كهذه – ولكن أيضًا في خضم أيام الحياة الرتيبة – يحتاج كل منا إلى الاعتماد على أشخاص متزنين وصادقين ومتمسكين بالمبادئ. كانت على علم بنقائص والديها، التي كانت بسيطة ويسهل تجاهلها، وقد اعتقدت – بناءً على تجربتها الطويلة – أنه يمكن الاعتماد عليهما مثل أي شيء في هذا العالم. وإذا اكتشفت يومًا ما أنهما ليسا مثلما ظنت، ستنهار، وكلمتا القلب المنفطر – اللتين أصبحتا مبتذلتين من كثرة الاستخدام – ستعودان إلى الحياة وسيكون لها معنى بالنسبة إليها.

«أخبر أمي أنني أحبها»

«ستقلق على أي حال، لذا سأخبرها»

«أنا أوازن اللوح يا أبي»

«كما تشائين. لا أحد يفعل ذلك أفضل منك»

«حسنًا إذًا. تذكر هذا فحسب. وداعًا»

أنهت الاتصال، وكانت تمسح الهاتف عندما رن جرسه. فتحت الخط دون أن تقول أي شيء.

يبدو أن تيريزن قد أمّن مراقبة على مدار الساعة لهاتف ميرفي. قال «ها أنتِ ذا أيتها الجميلة بيبي»

وعلى أمل أن تغيظ الوغد المتعجرف ولو قليلاً، قالت «أهلاً يا بوبي».

«إذًا المحققة الشابة أحرزت بعض التقدم. لا بد أنكِ قد زرتِ والدي. لعلّي سأزور والدك، ما إن أنتهي منكِ»

بينما كانت تعبر الباب الذي اقتحمته سابقًا، قالت «أنت في الثالثة والثلاثين، لكنك لم تكبر أبدًا. أسلوبك في الاستهزاء طفولي وممل»

«تريدين معرفة معنى الملل، اقرئي روايتكِ. لقد فعلت ذلك للتو. إنها سخافات تحتاج إلى الحرق في معظمها؛ حرق الكتاب أو مؤلفته. على أي حال، سأبلغ الرابعة والثلاثين بعد الغد. وأعدكِ أنني سأكبر حينها. من المؤسف أنه لا يمكنك حضور الحفل. آشلي ستكون هناك بمنزلة ضيفة الشرف. وستكون هذه آخر فرصة لكِ للعثور عليها حية. كل شيء يبدأ من جديد. إن دور الفتاة اليهودية تاريخي»

اعتقدت أنه يحاول إبقاءها تتكلم حتى يحصل على إحداثيات مكانها عبر الهاتف، لكنه أنهى الاتصال. ربما كان يعرف مكانها بالفعل.

مسحت بيبي الهاتف مرة أخرى وقذفت به في المرآب.

-68-
رجل وكلب ولحظة

على الرغم من أنه كان يومًا مشمسًا على اليابسة من شهر مارس/ آذار، إلا أن الضباب ظل يخيم على الساحل. ومع حلول الظهر وبقاء الضباب، لم يكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد أنه سينقشع بحلول المساء.

في سيارة الهوندا، قذفت بيبي حقيبة اليد الخاصة بالبروفيسورة وغطاء الوسادة المزخرف على مقعد الركاب، ثم أخرجت مفاتيحها من سترتها وشغلت المحرك.

شعرت بيبي بالقلق من السرعة الشديدة التي تعقبها بها تيريزن واتصل على هاتف البروفيسورة. لعل وكالة الأمن القومي لا يمكنها فعل ذلك. ولكن إلى أي مدى يبلغ نفوذ قاتل الأمهات المتوحش هذا داخل الأجهزة الأمنية الحكومية؟ بدت سرعته شيئًا خارقًا للعادة وأكثر من مجرد تقدم تكنولوجي.

كانت تعتقد أنه حتى إذا قام بإنزال حفنة من القتلة المأجورين بواسطة طائرة مسيرة أو مدفع سيرك، لما فعلها بهذه السرعة التي أجرى بها الاتصال. لكنها تذكرت ما قاله تشاب كوي؛ هناك الكثير من هذه الحشرات، ولديهم نفوذ. أرادت الخلاص من هذه الأزمة الآن قبل الغد.

قادت السيارة إلى أعلى التلة، أسفل مظلة من أغصان الأشجار، وعلى الجهة اليسرى من الرصيف - بالقرب من الركن - رأت رجلاً يمشي برفقة كلب. كان رجلاً طويل القامة ويرتدي غطاءً للرأس، وبرفقته كلب صيد ذهبي اللون. كادت بيبي أن تفقد أثرهما بسبب الضباب، إذ ظهرا كزوج من الأشباح

وبالكاد يبدوان حقيقين أكثر من الشبح، ثم انعطفا عند زاوية الشارع وتوارا عن الأنظار.

في ظل الضباب الكثيف والطقس البارد، كان ارتداء غطاء للرأس منطقيًا. الكثير من الناس سيرتدون أغطية للرأس حين يتنزهون برفقة كلابهم في طقس كهذا. وظهور كلب صيد ذهبي هو أمر عادي. لم يكن هذا الرجل الذي زارها في المستشفى في الليلة السابقة. هذا غير ممكن ومثير للسخرية.

عند تقاطع الطرق، لم تضغط على المكابح عند إشارة التوقف، بل انعطفت يسارًا حول الزاوية، وتفقدت الشارع. كانت هناك المزيد من الأشجار والسيارات المتوقفة وعربات الدفع الرباعي والشاحنات الصغيرة. وعند الجهة اليمنى من الرصيف، سار الرجل وكلبه عبر سحب الضباب التي تغطي الأرض، وقد ظهرا مثل الأشباح أكثر مما كانا عليه عندما لمحتهما في المرة الأولى. إذا كان هذا هو زائر الليل في المستشفى، فيستحيل أن يكون من حلفاء تيريزن؛ فقد أراد لها هذا الرجل أن تحيا لا أن تموت.

قادت السيارة بشكل أسرع، ومن الجهة اليمنى للرصيف، دخلت شاحنة صغيرة إلى الشارع. داست بيبي على المكابح بعنف وأطلقت البوق، فاهتزّت الهوندا وصرخت، وأطلق السائق الآخر بوقه لمدة أطول منها تحديًا لها. وعندما وصلت الشاحنة الصغيرة إلى التقاطع التالي وانعطفت نحو أسفل التلة، كانت بيبي قد فقدت أثر الرجل وكلبه.

بعد ذلك، رأتهما على مسافة نصف شارع أعلى التلة – على الجانب الأبعد من الشارع – وهما يعبران فتحة في جدار حجري منخفض إلى داخل أحد المتنزهات. وعندما وصلت إلى هناك وأوقفت السيارة في منطقة يُحظر الوقوف فيها، كان الاثنان قد ذابا في الضباب بين الأغصان المتلاصقة لبستان لأشجار الفلفل الكاليفورنية.

على خلاف معظم المتنزهات، لم يكن هذا المكان فسيحًا ولا وجهة سياحية، وإنما منطقة ترفيه متواضعة، وربما تبلغ مساحتها عشرة أفدنة وتضم

ممشـى عبـر أشـجار الفلفـل، ومنطقة لعـب للأطفال بها مزلجـة حلزونية وما يشـبه صالة رياضية بدائية في الهواء الطلق بها معدات من البلاسـتيك لضمان السلامة، فضلاً عن منطقة عشبية واسعة مفتوحة حيث يمكن للكلاب مطاردة مضـارب وكـرات تنـس الطاولة. وعند الطرف الشـمالي، مالت الأرض قليلاً إلى داخل وادٍ ضيق، وعند القمة كانت هناك طاولات تنزه وشرفتان صغيرتان توفران إطلالة على المكان.

لم تعثر على الرجل وكلبه في أي من تلك الأماكن، وفي الواقع لم تقابل أي أحـد علـى الإطـلاق. نـادت بصوت عالٍ في قلب الضبـاب قائلة «مرحبًا» و«أنت يا سيدي يا صاحب الكلب الجميل» لكن أحدًا لم يرد.

كان الـوادي الضيـق عميقًـا، وقد بدا أن الضبـاب يزيد من عمقه، لدرجة أنها عجزت عن رؤية القاع أو حتى مسافة كبيرة أسفل المنحدر. كانت الهاوية وعرة، وقد ازداد انحدار الطريق عند نهايته، وكانت هناك مملكة من الثعابين والقطط والذئاب البرية التي ما كان لشخص عاقل أن يفكر في العبور منها.

فـي قلـب رهبـة الأشـجار المحاطـة بالضبـاب والشـرفتين المهجورتين ومعـدات اللهـو المنبـوذة، بدأت بيبي تشـعر أنها مراقبة. لم تشـعر أنها مراقبة فقط، وإنما يجري التلاعب بها واستدراجها. كانت وحيدة وبعيدة عن الهوندا. ومع أنها كانت تحمل المسدس، بيد أنها ما عادت تشعر بالأمان.

وبينما كانت تتجه عائدة صوب الشارع، سرت رعشة باردة في عمودها الفقـري مـن أسـفل ظهرهـا وحتـى مؤخرة عنقهـا. بدأت تركـض، وهي على يقيـن أن أحـدًا أو شـيئًا ما لا بد أنـه يطاردها. وعندما عبرت الجدار الحجري المنخفض المؤدي إلى المنطقة المفتوحة ورأت سيارة بوغو العتيقة، توقفت ودارت حول نفسها تحسبًا لأي مواجهة. لم يكن هناك من يطاردها.

كان بوسـعها دومًا في السـابق أن تثق في حدسـها. لعلّ هذه ميزة أخرى لهذا الواقع الجديد؛ هذا العالم الذي أصابه الجنون.

قبل أن تتسـبب هذه الفكرة في إرباكها، باغتها سـبب وجيه كي تسـتعيد

ثقتها في حدسها ثانية. ففي قلب المتنزه – وعلى مقربة من حدود الرؤية التي فرضها الضباب، ظهر الرجل ذو غطاء الرأس من بين السحب البيضاء الباردة، يسبقه كلبه ببضع خطوات، ثم ما لبثا أن اختفيا، ولكن بعد بضعة ثوانٍ، عادا إلى الظهور، وهما يتنزهان على مهل بين أشجار الفلفل.

لا بد أن صاحب الكلب قد سمع نداءاتها. كادت أن تناديه مجددًا، لكنها أمسكت لسانها. حتى لو كان هذا هو الرجل الذي زارها في المستشفى، فقد أدركت فجأة – دون أن تفهم من أين نبع هذا التصور – في قلبها وعقلها ودمائها وعظامها، أنها بالوقوف وجهًا لوجه مع هذا الرجل تحت أشجار الفلفل ستلقى حتفها. ربما لا يكون عدوًا لها، لكنه مع ذلك يشكل تهديدًا لها بشكل ما. سيطر ذعر شديد على بيبي لدرجة أنها عجزت عن التنفس للحظات. بعد ذلك، ركبت السيارة وأغلقت الباب، وابتعدت عن المكان دون أن تحدد وجهتها، وإنما قادت السيارة حتى شعرت أنها أكثر أمنًا.

-69-

نقود ومفتاح واتصال

فـي تحـدٍ للضبـاب الخانق - الذي بـدأ يخيم على أفكارها بنفس الكثافة التي يخيم بها على الساحل - قادت بيبي السيارة شمالاً نحو طريق نيوبورت الساحلي إلى مسافة عدة أميال داخل البر نحو مركز تسوق تغمره أشعة الشمس. أوقفت السيارة في ركن هادئ من موقف السيارات، تحت ظل أشجار زيتون غير مثمرة، وعلى أبعد مسافة ممكنة من سوق بافيليونز المزدحمة.

إذا كان تشاب كوي والبروفيسورة الميتة قد عرفا نوع السيارة التي تقودها، فلربما يكونان قد شاركا هذه المعلومة مع أشخاص آخرين، وقد تحتاج عما قريب إلى وسيلة تنقل جديدة. ولأنها لا تحتوي على خاصية تحديد المواقع، كان مـن الصعـب تتبـع سـيارة الهوندا أينما ذهبت. ولا بـد أن يكون أعداؤها محظوظيـن للغايـة حتـى يروها بيـن الملايين الذين يقطنـون مقاطعة أورانج، ولكن يبدو أن الحظ حليفهم دومًا.

وفقًا لما ذكره كوي، لم تكن تواجه فقط تيريزن وطائفته الكبيرة؛ إذ كانت هناك أطراف أخرى. كانت تجهل كيف يمكنها الاسـتفادة من هذه المعلومة. فقبـل يـوم واحـد، لـو كان أحدهـم قد أخبرها أنها سـتواجه مؤامـرة من تدبير طائفة فاشـية سـرية ذات نفوذ، لاعتبرته أحد نزلاء مستشـفى المجانين. والآن يُطلـب منهـا أن تصـدق فكرة وجود متآمريـن آخرين لهم مآرب مختلفة؛ لكن تشـاب كوي لـم يكن فاشـيًا قط. هل من الممكن حقًا - وفقًا لشكسـبير - أن يكون عالمنا بكافة تعقيداته مسـرحًا وكافة البشـر مجرد ممثلين، وفي الوقت نفسـه - وفقًا لهوارد فيليبس لافركروفت - هناك أسـفل المسـرح آخرون غير

معروفين يلعبون أدوارًا مختلفة، ويؤثرون سرًا على حياة الجميع في الأعلى؟

لم تكن ترغب في تصديق ذلك. فقد كانت الحياة مضطربة بما يكفي بدون الحاجة إلى القلق بشأن ما نوع المؤامرات والمكائد التي يجري التدبير لها في القبو. بيد أنه بدا أنها – في سبيل العثور على آشلي بيل وتمني النجاة من هذا المأزق – تحتاج إلى المضي قدمًا وكأن هذا العالم المرعب لا مفر منه.

في الواقع – وبينما كانت تراقب الناس وهم يأتون ويغادرون من سوق بافيليونز والمتاجر الأخرى – أدركت سريعًا أن بوسعها التكيف مع هذا «الواقع» الجديد بسهولة أكبر مما كان سيفعل والداها على الإطلاق. كان استسلامهما الكامل للقدر – لا مفرّ مما هو مقدر – لا يشجع على التأمل الجاد للأسباب والآثار؛ فعندما يقذف المرء كل شيء أمام عتبة باب القدر، فقد أحال العقل من أداة لتغيير العالم إلى دمية لابتكار الأدوات التي تليّن حواف العالم الحادة. أحبت بيبي الحواف الحادة؛ فقد أبقتها يقظة، وجعلتها تفكر أكثر، وأضافت أهمية لحياتها.

في المقابل، لم يكن ثمة شيء هام في حقيبة اليد الكبيرة الخاصة بالدكتورة سانت كرويكس. كانت بيبي تأمل في أن تجدها ممتلئة بأدلة على أنشطة إجرامية ونوايا خبيثة، وأن تشير كلها إلى مكان آشلي بيل. ولكن بخلاف الأغراض التافهة المعتادة، كان هناك ثلاثة أغراض فقط مثيرة للاهتمام.

الأول كان مظروفًا يحتوي على خمسة آلاف دولار بأوراق من فئة المائة. وكانت الاحتمالات هي إما أن هذه أموال تُدفع للبروفيسورة من تحت الطاولة أو مبلغًا كانت تتأهب لسداده لشخص ما. وفي كلتا الحالتين، على الأرجح سيكون لهذا صلة بتجارة قذرة أكثر من كونه معاملة قانونية.

فكرت بيبي في الاعتبارات الأخلاقية لبضعة ثوانٍ ثم أخذت المبلغ. إذا لم يبدُ الأمر كسرقة، فقد بدا تصرفًا حكيمًا؛ فعندما تستخدم بطاقتها الائتمانية، فإنها تخاطر بالكشف عن مكانها. ولم يكن بوسعها معرفة مقدار الأموال التي ستحتاج إليها قبل أن تكمل هذه المهمة أو تموت دونها.

الغـرض الثانـي كان إمـا دبـورًا حقيقيًا أو نحت صغيـر مصنوع باحترافية لدبور مجمد في غلاف بلاستيكي على شكل معيّن، وكانت شوكته مثنية في وضعية الهجوم. وقد تدلت من المعيّن سلسلة مفاتيح تحمل مفتاحًا إلكترونيًا واحدًا. لم يكن مفتاح سيارة، ولم يحمل اسم شركة أو أي شعار. ولم ترَ مثله من قبل. كان المفتاح الإلكتروني الخاص بسيارة سانت كرويكس المرسيدس معلقًا في حلقة ثانية، كما عُلقت عدة مفاتيح تقليدية في حلقة ثالثة.

كان الغـرض الثالـث الـذي لفـت انتباهها هو منديل ورقي يحمل شـعارًا باللون الأحمر لسلسـلة مطاعم اشـتُهرت بشـطائر اللحم التي تقدمها، وكانت تقـدم وجبـة الإفطـار طـوال اليوم. وقد ظهر على المنديل اسـم السـيدة هالينا بيـرغ ورقـم هاتـف وعنوان في مقاطعة تاسـتن الواقعة في البلدة القديمة. كان الخـط سـميكًا، ممـا يرجـح أنـه يعود إلـى رجل. وفي كل الأحـوال، لم تكن البروفيسورة طيبة الذكر هي التي كتبته؛ فقد كانت مشهورة بالملاحظات التي زينت بها دفاتر الطلاب، وكانت كلها بخط دقيق وجميل للغاية، كانت بعضها نصائح تحفيزية، وكان بعضها الآخر انتقادات لاذعة. لعلها لم تطلب سـوى المـاء أثنـاء تواجدهـا مع تشـاب كوي في مطعم نـورم لأنها كانت قد تناولت الإفطار بالفعل في مكان آخر.

هالينا بيرغ.

بـدت فكـرة الاتصـال قبل الذهاب سـيئة؛ إذ كان ذلك يشـبه طلب اللقاء مـع تجهيـز مسدسـات وأصفـاد. إلى جانب أنه إذا تطلـب الأمر عملية اقتحام أخرى، فإن ترك اسم قبلها سيكون تصرفًا أحمقًا.

-70-
رقائق وشاي وتاريخ مظلم

علـى الرغـم مـن أن بيبـي كانت قد مرّت عبر هذا الحي مرات عديدة من قبل، فلم تكن تعرفه بشكل جيد. لذا، فقد تفاجأت حينما – ودون رؤية الأرقام المطبوعة على الرصيف أو المثبتة على المنازل – تعرفت على منزل عائلة بيرغ لحظة أن رأته. كان منزلاً ضخمًا من طابقين يعكس تصميمه حقبة الاستعمار الإسباني ويتمتع بقدر كبير بالفخامة، وكان يقع على مسافة جيدة من الشارع، وتظله أشجار بلوط عملاقة يبلغ جمالها حد الكمال.

كانت هناك امرأة عجوز تقوم بمسح الشرفة الأمامية. لم تنظر إلى الأعلى حين مرت بيبي بالسيارة وتوقفت على مسافة نصف شارع.

وعندما عادت بيبي مشيًا، كانت المرأة قد انتهت من مسح آخر جزء من الشرفة وحيت زائرتها بابتسامة جدّة لطيفة لحفيدها المدلل. وعلى الرغم من أن السـيدة بـدت فـي الثمانينيـات من العمر، إلا أن الزمـن كان رفيقًا بوجهها، فتـرك لهـا أثـرًا من جمالها فـي صباها، مما جعل ملامحها تبدو ودودة للغاية، فطبق عليها أساليب النحت البسيطة عوضًا عن استخدام المطرقة والإزميل.

سألتها بيبي «هل أنتِ السيدة بيرغ؟ هالينا بيرغ؟»

«أنا كذلك» قالت المرأة، مع مسحة خافتة من لكنة أوروبية غير محددة يتردد صداها في صوتها العتيق.

كان التعبير البـادي علـى وجهها السـاحر وابتسـامتها العريضة، وإيحاء المتعـة المكتـوم الظاهـر فـي عيني السـيدة بيرغ الملونتين تشـي جميعها بأنها علـى درايـة بهويـة بيبـي وما الذي دعاها إلى القيام بهذه الزيارة. بيد أنه لم يبدُ

عليها أنها تضمر أي عداء أو أي نية سيئة. وإذا كانت هذه قراءة خاطئة للمرأة، فلا بأس، بحوزتها سلاح من طراز Sig Sauer P226.

عندما عرّفت بيبي عن نفسها، أومأت السيدة بيرغ بابتهاج، وكأنها كانت تقول أجل، هذا صحيح، وعندما زعمت بيبي أن الدكتورة سانت كرويكس هي من أرسلتها، قالت السيدة بيرغ «تفضلي، سنحظى بجلسة لطيفة مع الشاي والرقائق».

ترددت بيبي في تتبع المرأة العجوز عبر عتبة الباب، لكن لم يكن لديها مكان آخر لتذهب إليه. ولم تكن تمسك بأي خيوط باستثناء هذا الاسم والعنوان. على أي حال، إذا لم يخاطر كل من هانسل وغريتل بأن يجري طهيهما على العشاء من قبل الساحرة الشريرة، لما عثرا على كنز اللآلئ والجواهر الخاص بها.

على طول الردهة الكائنة في الطابق الأرضي، تراصت كتب من الأرض وحتى السقف، وعلى عكس الأرفف في مكتب سانت كرويكس، لم تكن هناك أي مساحة خالية. قادتها السيدة بيرغ عبر المداخل نحو حجرة معيشة وحجرة تناول الطعام، ثم عبر الباب المفتوح لحجرة دراسة، وكانت جميعها مفروشة بما يتناسب مع الغرض منها، مع أنها خدمت أيضًا كمساحات إضافية إلى المكتبة الممتدة عبر المنزل، مع وجود عدد كبير من أرفف الكتب.

كان أحد دواليب المطبخ – ذو الواجهات الزجاجية – ممتلئًا بالكتب هو الآخر، ولم يبدُ أن أيًا منها كتب طبخ.

وبينما كانت تعد طبقًا من الرقائق المعدة منزليًا فضلاً عن الشاي، أوضحت السيدة بيرغ أنه لا هي ولا زوجها الراحل – ماكس، الذي مات قبل سبع سنوات – كان لديهما عائلة، ولم يُرزقا بأطفال من إنجابهما. «امتلك كل منا الآخر، وهذه معجزة في حد ذاتها. وقد تشاركنا حب الكتب. فقد عشنا هذه الحياة وآلاف فوقها عبر الكتب. لم نهدر دقيقة واحدة حتى!»

بدلاً من الذهاب إلى قاعة صغيرة، جلست السيدتان عبر طاولة المطبخ

قبالة بعضهما البعض، وكأنهما جارتان منذ زمن طويل. كانت الرقائق الحلوة غنية بالفانيلا. ولكن ربما كان الشاي البني الداكن – الذي يكاد يكون أسود اللون مثل القهوة – مرًا لو لم يتوفر معه الاختيار بين العسل أو شراب الخوخ كمواد للتحلية.

قالت بيبي «شهيان. كلاً من الرقائق والشاي. والشاي رائع»

فقالت هالينا بيرغ «شكرًا لكِ يا عزيزتي»، ثم أضافت – بعد أن مالت إلى الأمام بفضول واضح – «الآن أخبريني، من تكون هذه الدكتورة سولانج سانت كرويكس؟»

قالت بيبي وهي تشعر بالحيرة «لكنني ظننت أنك تعرفينها. عندما قلتُ إنها أرسلتني، أدخلتيني على الفور إلى منزلكِ»

قالت المرأة العجوز وهي تبتسم وتلوّح بإحدى يديها وكأنها توضح سوء الفهم «يا إلهي، لقد أدخلتكِ لأنكِ بيبي بلير»

عاد إليها إحساس بالألفة، ونظرت بيبي في أنحاء المطبخ وهي تتساءل.

«لقد قرأت روايتكِ» قالت هالينا بيرغ، وقد حلت اللغز بهذه الكلمات. أضافت «أنتِ هذا الشيء النادر، مؤلفة تبدو أفضل في الواقع عن صورتها على الغلاف».

ولأنه لم يُنشر لها سوى رواية واحدة، فلم تكن بيبي معتادة على اعتبارها كاتبة. وأوضحت أن الدكتورة سانت كرويكس كانت المؤسس لبرنامج الكتابة في الجامعة المرموق.

فقالت السيدة بيرغ «كم يبدو هذا مملاً. أنا مهتمة بكِ أنت يا عزيزتي»

تبع ذلك دقائق من المديح والثناء على كتاب بيبي، مما أبهجها وأشعرها بالحرج في آن واحد.

وكأنها استشعرت الحرج الناجم عن تواضع ضيفتها، قالت السيدة بيرغ «ولكن يمكننا التحدث عن هذا لاحقًا، إذا سمحتِ لي. إحدى الشخصيات الثانوية في روايتكِ؛ الناجية من المحرقة، أنا مفتونة بطريقة وصفكِ لها، بالنظر

إلى صغر سنكِ. ولكن أولاً، الدكتورة سولانج سانت كرويكس. لا أقصد أن أكون وقحة يا عزيزتي، ولكن هذا اسم رنان. أتساءل، هل هو الاسم الذي وُلدت به؟ ولكن بعيدًا عن هذا وذاك، لماذا بحق الله أرسلتكِ هذه المرأة التي لا أعرفها إليّ؟»

كادت بيبي أن تقول لا أدري، وهو ما كان سيبدو غريبًا، لكنها لحسن الحظ قالت بدلاً من ذلك «من أجل البحث. لعلها سمعت عن مكتبتكِ الضخمة». بدا ذلك غريبًا إن لم يكن سخيفًا بشكل كامل. كانت السيدة بيرغ قد أبدت تعليقًا قبل لحظات – مع الأخذ في الاعتبار لكنتها البسيطة وعمرها – أعطى السيدة العجوز فجأة سياقًا تاريخيًا محتملاً ألهم بيبي أن تقول «بحث بشأن المحرقة».

أومأت السيدة بيرغ وقالت «الكثير من الناس يعرفون بشأن خلفيتي. لعل الدكتورة سانت كرويكس كانت تعرف أنني نجوتُ من تيريزن وأوشفيتز».

-71-
امرأة عجوز ذاكرتها مزدحمة

عندما تحدثت عن الحي المخصص لليهود في ثيريسيانستادت وتيريزن ثم أوشفيتز-بيركيناو، تغير مظهر هالينا بيرغ. بدا عمرها الحقيقي واضحًا في ملامح وجهها، واختفى السحر في عينيها وكذا ابتسامتها العريضة. ولم يعد صوتها موسيقيًا كما كان، أو يظهر عليها الغضب والحزن، وإنما تحدثت ببرود شديد، وكأنها لن تتمكن من الخوض في الأمر على الإطلاق إذا ما أطلقت العنان لمشاعرها.

كانت هالينا في الحادية عشر من العمر في العام 1942، وكان النازيون قد نقلوا عشرات الآلاف من أغنى يهود أوروبا وأعلاهم مقامًا إلى بلدة ثيريسيانستادت المحصنة - رجال دين وقضاة وكتاب وفنانون وعلماء ومهندسون وموسيقيون - تمهيدًا لنقلهم إلى أحد معسكرات الموت. كان والدا هالينا موسيقيين مع فرقة السيمفونية، فكان هو يعزف على الكلارينت، بينما كانت هي تعزف على الكمان. ونتيجة لذلك - وبسبب شجاعة سكانها وتمسكهم بالحياة - شهدت ثيريسيانستادت حياة ثقافية مزدهرة رغم القمع والتهديد بالقتل والموت الذي يلفها من كل جانب. كان الزحام مروعًا والطعام شحيح والحالة النفسية لا توصف وتفشت الأمراض المعدية. وقد ماتت والدة هالينا بسبب تفشي التيفوئيد. وبينما كان والدها على شفا الموت جوعًا، نُقل إلى أوشفيتز، حيث لقي حتفه مع آلاف آخرين، لكن هالينا لم تُرسل معه. وقبيل أسابيع قليلة من تحرير أوشفيتز على يد الحلفاء، أُخذت إلى هناك برفقة فتيات وصبية آخرين، حيث هلك الكثير منهم. ومن بين خمسة

عشـر ألف طفل مروا على ثيريسيانسـتادت، لم ينجُ منهم أكثر من ألف ومئة طفل، وربما أقل من مئتين.

قالت «البشـر قادرون على ارتكاب الفظائع. ولكن عندما تدركين مدى هـذه الوحشـية غيـر المسـبوقة، والنطـاق الرهيب للفزع، يبدو لـكِ أن ما يُنفذ يفوق قدرة الإنس. وإنما فعل شيطاني».

عندما صمتت المرأة، سمحت بيبي لنفسها بجلب برّاد الشاي إلى الطاولة وإعادة ملء كوبهما. وبينما كانت تفعل ذلك، تملكها شعور أنها فعلت ذلك من قبل، ليس صب الشـاي فحسـب، وإنما صبه من هذا البرّاد تحديدًا، وفي نفس هذا المطبخ. إلا أن هذه الذكرى مرت سريعًا. ولأنها كانت تجهل ماذا تصنع بهذه الذكرى، فقد أزاحتها جانبًا للتمعن فيها لاحقًا.

عندمـا عـادت إلـى كرسـيها، ظنت أنهـا تدرك ما الذي جـاءت الدكتورة سـانت كرويكس تسـأل عنه هنا. لعلها تشـاركت مع البروفيسورة الحاجة إلى معرفة ما القوة الخارقة التي كان يمتلكها ذلك المدعو تيريزن.

قالت بيبي «سمعتُ أن هتلر كان عاشقًا للغموض. خلال كافة ما قرأتيه وما مررتِ به، هل اكتشفتِ أن هذا حقيقي؟ هل هناك أي كتاب في مكتبتكِ يمكنك أن تريني إياه يمكن أن...»

رفعت المرأة إحدى يديها في إشارة إلى عدم وجود حاجة إلى الطواف في المكتبة الشاسـعة، قالت هالينا «لقد رُزقت بنعمة الذاكرة القويةَ أو لعلني ابتُليت بنقمة – لستُ أدري أيهما. فأيًا كان ما يدخل عقلي يظل هناك، ولديّ قـدرة هائلـة على اسـترجاع الذكريات. قد يبدو هـذا دقيقًا ومنظمًا، لكنه ليس كذلك على الإطلاق. فكل شيء مبعثر داخل رأسي، وأحيانًا أحتاج إلى دقيقة أو اثنتين لترتيب الأحداث...»

انتظرتها بيبي، وظلت تراقب المرأة وهي ترشف من كوب الشاي الثاني.

أخيرًا قالت هالينا «كان هتلر وثنيًا إلى حد ما، ولكن ليس بشـكل كامل. وكان نباتيًا، فلم يكن يسمح بقتل الفئران عندما تغزو منزله بأعداد كبيرة. كان

يعتقـد أن الأرض الأبعـد – ألمانيـا – لديهـا قوة غامضة يمكن اسـتخدامها من قبل الشعب Volk – وهم الأشخاص ذوو الدم الألماني النقي. لم يكن مسيحيًا، ولم يكن بوسعه أن يكون مسيحيًا؛ لأن للمسيحية جذور يهودية، لذا فإن النظام الطبقـي الغامـض الـذي نشـأ من المسـيحية – الملائكة والشـياطين والسـحرة وجلسـات اسـتحضار الأرواح وغيرهـا الكثيـر – لم يكن يثيـر اهتمامه. بيد أن فكرة وجود قوة غامضة في الأرض الألمانية وأن الناس ذوي العرق الألماني النقي يمكنهم استغلالها ليصبحوا خارقين...هذا بلا ريب مفهوم غامض»

قالت بيبي «لم يسِر الأمر على ما يرام بالنسبة له»

فقالت هالينا «لسـتُ من المؤمنين بشـدة بالأشـياء الغامضة، لكنني أعتقد أن العالـم مـكان أكثـر غموضًـا ممـا نظن أو نعتـرف. إذا كان هناك قوة طبيعية خفيـة فـي باطـن الأرض أسـفلنا – تيـار مغناطيسـي ما لم نكتشـفه بعد – وإذا كان هناك أفراد يمكنهم اسـتخراجه، فهم على الأرجح أولئك الرجال الذين يمتلكون الكاريزما. وليس نجوم السينما والمطربون الحمقى أو رواد الأعمال الصغار. إنني أتحدث عن أولئك الأشخاص ذوي الشخصيات القوية، الذين يمتلكـون القـدرة علـى التأثير على حيـاة آلاف آخرين بخيالاتهم التي يحركها الغرور، مثل هتلر وستالين وماو»

على الرغم من أن بيبي قد أضافت مادة محلية إلى كوبها الثاني، إلا أنها لم تكن تستمتع به، فأزاحته جانبًا.

قالت هالينا «قال القديس الهندوسي راماكريشنا إنه عندما يصبح الرجل قديسًا، يتقاطر عليه الأتباع مثل تقاطر الدبابير على العسل. ولأنه تعين عليه أن يصبح قديسًا للوصول إلى الكاريزما الخاصة به، فلا يمكن للقديس أن يسيء استخدام قوته التي يسيطر بها على الآخرين. ولكن إذا كان هناك رجل عادي بلا سمات مقدسة، ولديه غرور مفرط وشعور بالنرجسية، واستطاع وضع يده على هذا التيار المغناطيسـي أو أيًا يكن، فقد يتمكن من حشـد جحافل بشـرية حوله، ويقود العالم إلى الفناء»

قالـت بيبـي – وقـد أصيبـت بخيبـة أمل – «كان هذا فقـط هو مدى ميوله الغامضة؟ والقوة الغامضة للأرض الألمانية؟ ألم تقرئي قط بشأن اهتمامه بأي نوع من قراءة الطالع؟»

«كلا»

«ألم يكن مفتونًا قط بجلسـات تحضير الأرواح أو الوسـائط الروحية أو قراءة الطالع باستخدام الشموع أو الملح أو الحروف أو ما شابه؟»

«ليس على حد علمي. لكنني لست أحد خبراء العالم فيما يتعلق بشخصية أدولف هتلر»

أخرجت بيبي من حقيبتها المفتاح الإلكتروني الملحق بالمعيّن المصنوع من البلاسـتيك. قالت وهي تشـير إلى الدبور «شـيء ما بشأن هذا يبدو غامضًا لي»

اتسعت عينا هالينا بيرغ، وقبضت يديها وكأنها تمنع نفسها من الاقتراب ولمـس الكائـن الغريـب. قالت المرأة العجـوز «كان الدبور في وضعية اللدغ هو الرمز الرسمي الذي اختاروه لأنفسهم في وحدة شوتزشتافل التي رابطت في ثيريسيانستادت»

«وحدة شوتزشتافل؟ الإس إس؟»

الحـرس البريتـوري الخـاص بهتلـر، وقـوات الصدمة التي تشـكل أداته الرئيسـية في الإرهاب. كان الرمز الرئيسـي لوحدة إس إس هو رأس الموت، لكن الوحدة التي كانت تسـيطر على ثيريسيانسـتادت أطلقت على نفسـها اسم *Der Führer's Wespe* أو دبور الفوهرر، الذي يفرض بالقوة سياساته وتوجيهاته. كان قائد المعسكر يعلق الصورة على بابه».

قالـت بيبـي – بعـد أن أعـادت المفتاح والدبور إلى حقيبتها – «آسـفة إذا كنتُ قد أجهدتك»

بسـطت هالينـا يديهـا المقبوضتيـن وأحاطـت بهما كوب الشـاي البارد، ثـم قالـت «إنهـا مجرد حشـرة في غلاف بلاسـتيكي. لا يفتـرض أن تزعجني.

إنهـا صدفـة علـى أي حـال، وسلسـلة مفاتيـح مبتكـرة. ليـس للأمـر علاقـة بثيريسيانسـتادت». وأخذت رشـفة من كوب الشـاي المر، ثم أضافت «لم يدُر بخلد أولئك الحمقى أنهم يقارنون أنفسهم بحشرة»

«هـل كان للدبـور أي معنـى غامـض لديهم، أو لدى وحدة إس إس التي أدارت المعسكر؟»

«كلا، ليـس علـى حـد علمـي. مع أنه...» بدأت تفكر بتمعن وهي تحدق في كوب الشـاي وكأنها تتبين شـيئًا في سـواده. ثم قالت «لبعضة أشـهر، كان هناك غجري في المعسـكر. وكان قد أُرسـل إلى هناك بالخطأ. جرى احتجاز اليهود والغجر بمعزل عن بعضهما البعض، وكانوا يتعرضون للإبادة على يد مجموعات من بني جلدتهم. كان يتعين على قائد المعسـكر إرسـال الغجري إلـى مـكان آخـر، لكنـه تأخر في فعل ذلك لشـهرين أو ثلاثـة وربما أكثر. وقد سـرت شـائعات تفيد بأن مجموعة من ضباط وحدة إس إس كانوا مبهورين بقراءات ذلك الغجري لراحات اليد والشمع الذائب وربما حتى كرة سحرية. ولكن لا أدري إذا كان ثمة أي صحة لتلك المزاعم. لقد تواجد شعار الدبور قبل مجيء الغجري...وظل هناك بعد رحيله»

بقيت السيدتان تجلسان على الطاولة لمدة أطول، لكنهما لم تقولا المزيد بشـأن هتلر أو الغموض أو الكاريزما، وكأنهما قد شـعرتا أنهما اقتربتا بشـدة مـن حـد لا يتعيـن عليها تجاوزه، وكأن الإسـهاب فـي الحديث أكثر عن هذه الأمور سـيجلب الشـر عليهما. بدلاً من ذلك، تحدثا في مسـائل تافهة، ولم تعـاودا فتـح موضـوع روايـة بيبي. وعندمـا بدا أن وجه هالينا قـد صغُر عقدًا، وعادت الموسـيقى تزين صوتها مرة أخرى، وتهلل وجهها مثلما كانت تقف عنـد الشـرفة الأماميـة، شـعرت بيبي أنه حان وقـت انصرافها، مع أنها وعدت بزيارتها مجددًا.

-72-
أسئلة معلقة

بعد ظهر ذلك اليوم من شـهر مارس/ آذار، ألقت الشـمس المبحرة غربًا أشـعة فضيـة بـدلاً مـن الذهبية، فسـكت أكوامًا من عملات السـحب الركامية المتناثرة التي لمعت في زرقة السـماء المتبددة. وعند مسـتوى الشـارع، كان هناك ضوء لامع ولكن كئيب، مما جعل الطريق 55 السريع وطريق 73 يبدوان مثل جسـرين معدنيين يصلان بين اللاشـيء والمجهول، وبدت كل السيارات المسرعة مثل روبوتات منخرطة في مهام قاسية بعد قرون من فناء البشرية.

في الطريق إلى متجر الكتب في مجمع فاشن أيلند للتسوق عند شاطئ نيوبورت، ما انفكت بيبي تسأل نفسها عن سبب عدم سؤالها هالينا بيرغ سؤالين مهمين. الأول: هل سمعتِ قط عن روبرت وارن فوكنر؟ الثاني: هل سمعتِ قط عن آشلي بيل؟ ففي نهاية المطاف، إنهما الشخصيتان الرئيسيتان في هذه الدراما؛ إذ كانت الفتاة في حاجة ماسة إلى الإنقاذ، وكان بوبي قاتل الأمهات يعتزم إخفاءها عن الأنظار. افترضت بيبي أن الدكتورة سانت كرويكس أرادت التحدث مع السيدة بيرغ لاكتشاف العلاقة بين النازيين والغموض، ولكن ربما لـم تكـن تعتـزم ذلك. وبصرف النظر عن الطـرف الخفي الذي تحالفت معه، وبصرف النظر أيضًا عن غايتها من هذه الفوضى، ربما كان يتملك البروفيسورة انطباع بأن المرأة الناجية من ثيريسيانستادت وأوشفيتز يمكنها أن تطلعها على شـيء يتعلق بفوكنر أو بيل، أو كلاهما. وحتى إذا ادعت السـيدة بيرغ أنها لم تسمع بأي منهما قط، سيكون ثمة شيء يمكن الخروج به من مراقبة ردة فعلها على سماع الاسمين.

ليس الأمر وكأن هناك سبب يدعو للاعتقاد بأن تاريخ هالينا ربما يكون مغايرًا عما سردته في مطبخها المريح. لقد كانت صادقة. وحتى إذا لم تكن ناجية من المحرقة كما تدعي، فقد كانت عاشقة للكتب، وهكذا فمن غير المرجح أن يكون هناك أي قواسم مشتركة مع الرجل الذي أبدى بغضه للكتب ومؤلفيها. إلى جانب ذلك، إذا كانت متحالفة مع فوكنر/ تيريزن، لكانت قد أخبرته أن المرأة التي يريد أن يقتلها تجلس عند طاولة مطبخها وتحتسي الشاي.

وإذا كانت بيبي غير واثقة من أنها قد حصلت من هالينا بيرغ على كل ما تعرفه المرأة، فقد كانت مقتنعة أن شيئًا ما فاتها خلال مواجهتها مع تشاب كوي في الجناح العتيق الكائن في الطابق الثالث من منزل سانت كرويكس، وأن لهذا علاقة أقوى بالطريقة التي تحدث بها. كانت هناك عبارات ومصطلحات مألوفة، ولهذا أرادت زيارة متجر للكتب.

عندما خرجت من الطريق ذي رسم المرور عند جادة جامبوري - وهي تزحف غربًا وسط المرور المزدحم - سمعت بيبي موسيقى بداية تشغيل تشير أن حاسوبها - المستقر على مقعد الركاب - يعمل. كانت قد سجلت الخروج وأغلقت الحاسوب بعد أن بحثت عن صور بوبي فوكنر. لكنها رفعت الشاشة فوجدتها مضاءة وجاهزة للعمل.

عندما توقفت الحارات الغربية، استخدمت لوحة اللمس لمحاولة الخروج، بيد أن الحاسوب ظل يعمل. أعادت الكرّة، فضغطت مرارًا وتكرارًا على زر الإغلاق ولكن دون جدوى.

هذا غير جيد. في الواقع، هذا سيء للغاية.

على بعد عشرة دقائق من مجمع فاشن أيلند ووسط المرور البطيء، توقفت عندما تحول ضوء الإشارة إلى الأحمر، وكانت تسبقها عشرة أو اثنا عشرة سيارة. وقفت أمامها مباشرة شاحنة مفتوحة ممتلئة بالجزازات، وآلات النفخ، وأدوات التقليم، والمدمة الخاصة بجمع العشب، وقماش أبيض منفوخ مع قصاصات عشب.

لم ترغب في فعل ما تدرك أنها ستفعله، وما تعتقد أنها مضطرة لفعله. ولكن بعد أن جربت زر الإغلاق مرتين أخريين دون نجاح، أغلقت الحاسوب وفتحت باب السيارة وترجلت، وتقدمت مسرعة نحو الشاحنة المفتوحة، وقذفت الحاسوب فوق الباب الخلفي للشاحنة، وعادت مسرعة إلى الهوندا وجلست خلف المقود، ثم أغلقت الباب دون النظر إلى أي من الأشخاص في السيارات التي حولها، الذين قد يتملكهم الفضول في فهم ما فعلته الآن وسببه. دعهم يتساءلون. هذه كاليفورنيا؛ حيث لا يمكنك قط تخمين ما سيفعله أي شخص.

أملت أن يسقط الحاسوب بين أدوات البستنة، لكنه استقر عند منتصف قطعة قماش ممتلئة بقصاصات العشب، مما جعلها تبدو مثل قطعة المارشميلو. وكأنه وُضع هناك لعرضه.

لم يتبدل ضوء إشارة المرور سريعًا كما تود بيبي. ولم يكن بوسعها تخمين ما سيحدث تاليًا، لكنها أدركت تمامًا أنه عندما يباغتها السفاح لجز عنقها، فمن الأفضل أن لا تكون متوقفة بلا حراك.

هل كانت الحواسيب الحديثة تطلق إشارة لتحديد المكان حتى وهي مغلقة؟ وهل يمكن لشخص نافذ أن يصل إلى تلك الإشارة ويشغل الحاسوب؟ تحتوي النماذج الحديثة من أجهزة التلفاز على كاميرات تراقب المشاهد وميكروفونات يمكنها نقل الصوت بهدف السماح بالترفيه التفاعلي. إنها خاصية سلبية، وستحصل عليها شئت أم أبيت، ويتعين عليك اتخاذ خطوات فعالة لإلغاء تلك الخصائص. وليس بالضرورة أن يكون قد جرى فصلها عندما يجري إخبارك بذلك. من يدري؟ إذا كان هناك شخص ذا نفوذ قادر على الوصول إلى حاسوبك وتشغيله، وإذا احتوى الحاسوب على جهاز لالتقاط الترددات له رقم تعريف محدد، فمن ثم يكون مثل لافتة نيون وامضة كُتب عليها «إنها هنا، تعال ونَل منها!»

تحول ضوء إشارة المرور من الأحمر إلى الأخضر، وبدأ المرور يتحرك،

لكن بيبي اعتقدت أنه على الأرجح - طالما بقيت حية - لن يتحرك بسرعة كما ترغب. تقدم حشد السيارات - الذي بدا مثل حبات خرز على قلادة - نحو تقاطع الطرق التالي الواقع عند قمة التلة، قبل أن يتوقف مجددًا. كانت الآن على بعد ستة أو ثمانية أماكن من الإشارة، وقد بقيت الشاحنة المفتوحة أمامها.

بعد ذلك بلحظات، سمعت الخفقان الجهوري لمروحية تحلق فوق التلة، وقد بدت ضخمة للغاية، إن لم تكن في الواقع تطير على ارتفاع ستين أو سبعين قدمًا فوق الطريق، وهو ارتفاع أقل بكثير من الحد القانوني في مثل هذه الأماكن. لم تكن مروحية شرطية عادية بمقعدين أو أربعة مقاعد، وكذا لم تكن مروحية عسكرية عملاقة، وإنما مروحية تجارية باللونين الأبيض والأزرق، التي يسميها باكس «توأم متوسط»، وهي مزودة بمحركين، وقادرة على استيعاب ثمانية أو تسعة ركاب. وتتميز بدوارات كبيرة رئيسية وعند الذيل، ومقصورة زجاجية متقدمة. ولعل وزنها يبلغ ثمانية آلاف أو تسعة آلاف رطل من الآلة والوقود، وكانت متجهة نحوها كالصاروخ، وقد ظهرت على ارتفاع أقل من الحقيقي في زجاج السيارة الأمامي. ازداد ضجيج محرك الطائرة والدوارات فجأة ليصبح عنيفًا مع مرور المروحية فوقها، ولكن سرعان ما انحسر مع جنوحها صوب أسفل التلة، فوق السيارات المنتظرة في الحارات.

تحول ضوء الإشارة إلى الأخضر، فبدأ المرور بالتحرك مرة أخرى عبر مطلع التلة. قالت بيبي «أجل!» وضربت المقود عندما انعطفت الشاحنة الصغيرة يمينًا، فخرجت عن الطريق وابتعدت عنها.

عندما عبرت تقاطع الطرق، نظرت في مرآة الرؤية الخلفية والمرايتين الجانبيتين، فلم ترَ المروحية، لكن ما لبثت أن سمعتها تقترب من الخلف. لم يعلو الضجيج مثلما حدث من قبل؛ فقد انعطفت المروحية شمالاً وارتفعت قليلاً لتجنب بعض الأشجار القديمة. نظرت بيبي يمينًا فرأتها تختفي وكأنها تسير في أثر الشاحنة الصغيرة.

بقدرما كانت تشعر بالبطء وعدم الكفاءة خلال الساعات الثماني عشر السابقة، باتت تشعر الآن بالسرعة والذكاء. ومع ذلك، فقد حذرت نفسها؛ إذ لا شيء في هذه اللعبة سهل على الإطلاق. وقد كانت محقة في ذلك.

-73-

أمام حشد السيارات بالضبط

كانت مساحة موقف السيارات الشاسعة لا تكفي أحيانًا لاستيعاب الحشد المتجه صوب فاشن أيلند، ولكن في هذه المرة كان أمام بيبي العديد من البدائل. بالقرب من متجر نيمان ماركوس، أوقفت سيارة بوغو بين سيارة فيراري حمراء وأخرى ماسيراتي فضية، فضربت عصفورين بحجر واحد؛ جذبت الانتباه إلى الهوندا مما سيظهر وكأن سائقها ليس لديه سبب لإخفائها، وفي نفس الوقت منح مالكي السيارتين الفارهتين تذكيرًا بالواقع، في حالة إذا ما كانا يحتاجان إلى ذلك.

سحبت شعرها إلى الوراء على هيئة ذيل حصان وثبتته برباط مطاطي حملته في حقيبتها لهذا الغرض. وبعد أن ارتدت النظارة الشمسية، تمنت أن يكون لديها وسيلة تمويه أكثر تعقيدًا، كالبرقع مثلاً. فلن يقترب أحد أو يزعج امرأة تضع برقعًا، حتى إذا كانت تحمل قنبلة إشعاعية.

كانت صورة آشلي بيل مستقرة على مقعد الركاب. وبدلاً من أن تقلبها رأسًا على عقب فقط، قامت بلفّها حتى يكون من الممكن وضعها في صندوق التابلوه.

عندما نزلت من السيارة، لم يكن بوسعها رؤية المروحية، لكنها كانت تسمع صوتها على مسافة بعيدة. أمضت ثوانٍ معدودة تصغي للتأكد من أنها تقترب. وعندما نظرت في ساعتها، أدركت أنهم لن يحتاجوا سوى خمسة دقائق لاكتشاف أن طريدتهم ليست على متن الشاحنة الصغيرة وأنهم قد تعرضوا للخداع. وبتوجههم نحو هذا المكان بدلاً من أن يسلكوا طريقًا

عشوائيًا، فلا بد أنهم يتتبعون إشارة أخرى بخلاف الصادرة من الحاسوب.

لم تحتوي حقيبة سانت كرويكس على ما يثير فضول بيبي، ولكن لعلها احتوت على جهاز ما يصدر إشارة؛ فربما كانت البروفيسورة تمثل أهمية ما لهم، مما يجعل أي شيء تحمله - بما في ذلك الحقيبة نفسها - مثبت فيه جهاز يطلق إشارة.

كم كان مذهلاً السرعة التي ينتشر بها الذعر في الحياة.

أخذت بيبي حقيبة سانت كرويكس من السيارة، على نية التخلص منها. وعند أقرب مدخل للجزء المفتوح في الهواء الطلق من مجمع التسوق، نقل سائق تابع لشركة فيديكس حزمًا في مؤخرة شاحنته إلى ما يشبه عربة نقل الغسيل لتوصيلها إلى متاجر مختلفة. وبينما كانت بيبي تمر، كان انتباه السائق منصبًا على الحمولة التي ينقلها. أخفت حقيبة اليد بين الصناديق في العربة وواصلت المشي.

عندما ارتفع صوت الضجيج الصادر عن المروحية فجأة، نظرت إلى الوراء ورأتها على مسافة مئات من الأقدام جهة الشمال الغربي، وكانت المروحية منخفضة للغاية لدرجة أنها مرت بين برجين وفنادق تحيط بالجزيرة الهائلة الواقعة في قلب المجمع. وفي المنطقة المفتوحة - وبينما كانت تعبر مركز نيويورت لتعليم قيادة السيارات نحو مجمع التسوق - بدأت المروحية تجنح يسارًا ثم يمينًا ثم يسارًا مرة أخرى، وكأن طاقمها يحاول التحديد بشكل دقيق مصدر الإشارة التي يتتبعونها.

لم تتمكن من رؤية اسم أو شعار لأي شركة على المروحية، وإنما فقط رقم التسجيل على غطاء المحرك. بصرف النظر عن هويتهم -كانوا إما أفرادًا من سلطات إنفاذ القانون معفيين من الالتزام بقوانين الطيران أو أشخاصًا أثرياء ونافذين شعروا أنهم محصنون من الملاحقة القانونية.

بعد أن أقفل شاحنته، دفع السائق العربة صوب بيبي وهو يصفّر بنبرة بهيجة. وعندما أدخلت يدها في حقيبتها، تساءلت عما إذا كان يتعين عليها

التخلص من المفتاح الإلكتروني مع الدبور المغلف بغطاء بلاستيكي. فعلى الرغم من صغر حجمه، إلا أنه ربما يطلق الإشارة التي تجذب المروحية ناحيتها. كل شيء قابل للتصغير هذه الأيام. كرهت التخلص منه بلا سبب. فهو يعني شيئًا وينطوي على تلميح ما أو مفتاح. وربما تحتاجه في نهاية المطاف. مرّ عامل التوصيل بجوارها وهو يدفع العربة إلى داخل متاهة من الممرات الممتلئة بالمتاجر، حيث تنقل الآلاف من الأشخاص من متجر إلى آخر.

احتفظت بالمفتاح وأغلقت الحقيبة، وسلكت اتجاهًا مغايرًا للذي سلكه عامل الفيديكس. أما المروحية – التي أصدرت ضجيجها على ارتفاع منخفض فوق المجمع – فقد كان لديها ميزة بارزة جعلتها تشبه الدبور.

-74-

هيرميون وهيرميون،
والرجال ذوو البدلات السوداء

إلى جانب المتاجر متعددة الأقسام المدمجة في ساحة من المتاجر ذات الطابق الواحد، وفّر مجمع فاشن آيلند سوقًا داخلية من ثلاثة طوابق – تحمل اسم أتريوم كورت – حيث تقع ثلاثة منافذ بيع كبيرة لمتاجر بارنز أند نوبل. وبينما كانت تتذكر بعض ما قاله تشاب كوي بعد قتله الدكتورة سانت كرويكس، اشترت بيبي ثلاث مجموعات قصصية لفلانري أوكونر وثورنتون ويلدر وجاك لندن.

بينما كانت تبحث عن كتاب لندن، كانت تقف في رواق مع مراهقتين أخريين. بدت إحداهما من أصول آسيوية، مع شعر أسود ناعم وكثيف وعينان بحجم أعين الأطفال الذين يظهرون في لوحات مارغريت كيان، بينما كانت الأخرى شقراء وترتدي نظارة طبية بإطار بلاستيكي أحمر اللون، وكانت كلتاهما تمتلكان ساقين طويلتين، وغير ملائمتين جسديًا بقدرما كانتا جذابتين. لم تتمكن من منع نفسها عن الاستماع لمحادثتهما، التي ما لبثت أن اتخذت منعرجًا ينذر بالشؤم.

«ماذا عن هذا؟»

«هذا فيلم سخيف»

«عادة ما تكون الأفلام سخيفة»

«أحب جون غرين»

«لكن هذا الفيلم سخيف»

«لم يكن هذا ذنبه. هوليوود هي من أفسدته»

«هنا. ماذا عن أليس هوفمان؟»

«أكره أليس هوفمان»

«الجميع يحب أليس هوفمان، باستثناء الحمقى ذوي الرؤوس المتحجرة»

«تعاني شقيقتي خلال دراسة أدب هيرمان ملفيل في الجامعة. تقول إن الأمر أشبه بألم حصوة الكلى»

«هل مرت شقيقتك بألم حصوة الكلى؟»

«هي نفسها تؤلم مثل حصوة الكلى. من يكونون برأيكِ؟»

«الرجال ذوو البدلات السوداء؟ ربما سيذهب الرئيس للتسوق»

«هؤلاء ليسوا رجال شرطة. إنهم يشبهون العناكب المنفّرة»

«هل ثمة خطب ما يجري؟»

«كلا. لا يبدو عليهم أنهم من النوع الذي يقتل ويصيح الله أكبر. ماذا عن سالنغر؟».

«هولدن كولفيلد ثرثار مثير للاكتئاب»

«إنه لا يثير الاكتئاب. بل هو صبي فاشل من عائلة ثرية. على أي حال، أحيانًا تكونين مثيرة للاكتئاب»

«كلا لستُ كذلك، وإنما أحيانًا أكون واقعية. إذا لم يكونوا سيقتلون الجميع في سبيل الله، فماذا يفعلون؟

«إنهم يبحثون عن شخص ما»

«من؟»

«أيًا يكن. ربما يكون الرجل ذو الأقراط يبحث عني، ولن أمانع حقًا»

«وكأن هذا سيحدث. عندما رآكِ وأنت تتفحصينه بعينيكِ، نظر إليكِ وكأنه يقول، ابتعدي أيتها الصغيرة. لدي شخص لأضربه»

بينما كانت تمسك بكتبها الثلاثة، استدارت بيبي نحو المراهقتين وقالت «هل تودان معرفة عمن يبحثون؟ إنهم يبحثون عني»

نظـرا إليهـا بعينـي بومتيـن صغيرتين فاجأهما الضوء. سـألتهما بيبي «كم يبلغ عددهم؟»

فقالت الشقراء «هل يبحثون عنكِ حقًا؟»

فقالت بيبي «أو أن هذا عرض ساخر على اليوتيوب، ولدي كاميرا مثبتة على أنفي. هل يمكنكما مساعدتي؟ كم يبلغ عددهم؟»

«عشـرون علـى الأقـل» همسـت السـمراء، مـع أنـه لم يكن هناك سـبب للهمس. وأضافت «إنهم في كل مكان».

فقالت الشقراء «عددهم يفوق العشرين بكثير، ويضعون جميعًا سماعات أذُن صغيرة. ثمة حشد مفزع منهم».

«رجـال فـي بـدلات سـوداء...تقصدان مثـل الأفلام، بـدلات ونظارات شمسية؟»

«كلا» قالت السمراء، فانتقلت من الهمس العادي إلى الهمس المسرحي، وأضافت «جميعهم يرتدون بشكل مختلف، ومع ذلك يشبهون بعضهم بعضًا. لديهم طريقة في النظر. تعلمين، وكأنهم يترصدون شخصًا ما لتبريحه ضربًا»

«ما رد فعل الجميع حيالهم؟»

«من هم الجميع؟»

«المتسوقون الآخرون ورجال الأمن في المجمع، وغيرهم»

هزّت الشقراء كتفها وقالت «لعلنا الوحيدتان اللتان لاحظتا وجودهما»

وافقتها رفيقتها قائلة «إننا نتمتع بقدرة خارقة على ملاحظة الأشياء، لأننا من شريحة الواحد في المئة التي تتمتع بالحكمة»

لكن الشـقراء قالت « إننا نتمتع بقدرة خارقة على ملاحظة الأشـياء لأنه ليس لدينا حياة خاصة»

«بل لدينا حياة ولكنها مزرية مثل الأفلام»

قالت الشقراء «أحد الأشياء التي لاحظناها هي أن الناس في هذه الأيام يرون كافة أنواع الأشياء التي لا يريدون رؤيتها، لذا فهم يصابون بالعمى»

«إنهـم عمـي عمـا لا يريـدون رؤيته» توقفت السـمراء عـن الهمس، لكن عيناها السوداوين الواسعتين كانتا تلمعان بروح المغامرة.

قالـت بيبـي «هـل تعرفان من أين تأتي العناكب المنفّرة؟» فهزّتا رأسـيهما نفيًـا. فقالـت «في الأيام التي سـبقت اسـتخدام المراحيـض الخاصة، كان في المنـازل مقاعـد خشـبية بهـا فتحـات. وكانـت العناكـب تحب بناء أعشاشـها والتناسل داخل تلك الفتحات»

قالت السمراء «هذا مقزز»

فقالت الشقراء «هذا مقزز ولكن رائع»

قالت بيبي وكأن خطة ما خطرت ببالها فجأة «ما اسمكما؟»

بنوع من التمثيل المسرحي، أشارت السمراء إلى الشقراء وقالت «تدعى هيرميون» وفي نفس اللحظة ردت الشقراء الحركة قائلة «تدعى هيرميون».

«اثنان هيرميون؟»

فقالت السمراء «أمهاتنا كانتا معجبتين من سن معينة»

وعندما لم تفهم بيبي ما قصدته، قالت الشقراء «كانتا طالبتين في المدرسة الثانوية شغوفتين عندما كانت روايات هاري بوتر في أوج شهرتها. وما تزالان كذلك بالمناسبة. هيرميون غرانغر هي صديقة هاري»

قالت هيرميون السمراء «لقد قرأنا الكتب بطبيعة الحال. إنه التزام اتجاه والدتينا»

فقالت هيرميون الشقراء «بل هو أمر يجري تحت تهديد السلاح. اقرئي وإلا قتلتكِ. لكن الروايات كانت جميلة»

قالـت بيبـي «اسـمعا، أحتـاج إلى المسـاعدة. بعد أن أشـتري هذه»...ثم وضعت الكتب الثلاثة على كرسي معروض للبيع، وفتحت حقيبتها وأكملت «أحتاج منكما مرافقتي إلى سيارتي. إنهم يبحثون عن امرأة بمفردها». أعطت خمسـمئة دولار مـن نقـود الدكتورة سـانت كرويكس إلى إحـدى الفتاتين ثم قالـت «لـن يطيلـوا النظـر في امرأة معهـا ابنتان مراهقتان». ثـم ناولت الأخرة

خمسمئة دولار أيضًا، فجزّت على شفتها وكأنها ستحاول التفاوض على سعر أعلى، لكنها قبلت المبلغ في نهاية المطاف.

«لكنكِ لا تبدين كبيرة بما يكفي لتكوني أمًا لنا»

«سأتظاهر أنني شقيقتكما إذن؛ تلك الشقيقة التي لا تشبه حصوة الكلى».

-75-

فتاتان ومجرمون وامرأة جديدة

بينما كانت ترتدي قبعة البيسبول ونظارة شمسية، وعلى جانبيها فتاتان تحملان نفس الاسم؛ هيرميون، خرجت بيبي من الطابق الأرضي لسوق أتريوم كورت، واتجهت صوب السوق المفتوحة في الهواء الطلق. كانت تسير على مهل ورأسها مرفوع وليس منخفضًا وكأنها تخفي شيئًا. وعلى مسافة عشرين قدمًا منهم، وقف رجل ضخم البنية مع سماعة تلتف على إحدى أذنيه، وكان يمسك بكوب ورقي كبير لقهوة ستاربكس، وقد حاول التظاهر بأنه زوج صبور يقتل الوقت في انتظار زوجته المهملة.

همست هيرميون الشقراء قائلة «عنكبوت منفّر»، ثم أضافت بنبرة متحمسة لفتاة في الثالثة عشر من العمر «كل ما أقوله هو أن فرقة للصبية لا بد أن يكون أفرادها صبية، وليس رجالاً عجائز لديهم شعر في أذانهم».

شعرت هيرميون الأخرى بالإهانة من قرينتها، فقالت «إنها جولة لم للشمل، لا يمكن أن يكونوا في سن التاسعة عشر وهم في جولة للم الشمل»

«جو» قالت هيرميون الشقراء، حيث قررا استخدام اسم الأخت التي أعجبوا بها للغاية في فيلم نساء شابات – جوزيفين – كاسم مزيف لبيبي. كانت رواية لويزا ماي ألكوت مبتذلة قليلاً، لكنها كانت جميلة في نفس الوقت، ولم يكن بوسع المرء سوى الإعجاب بها، وبطبيعة الحال ذرف أنهار وشلالات من الدموع بسبب أحداثها؛ عرفت بيبي كل هذا بينما كانت تقف برفقتهما في الصف لدى الصرّاف. «جو، جو، ألا ترين يا جوزيفين؟ ميں حصلت على هرمونات السيدات البالغات، وبدأت تلهث خلف حفنة من المسنين».

«كانوا وسيمين وقتئذٍ، وما زالوا كذلك الآن» قالت بيبي وهنّ تسرن بجوار المجـرم الـذي يحتسـي القهوة. وأضافت «علـى أي حال، إنهم في الثلاثينات فقط».

«أريـد أن أرى صبيـة فـي فـرق الصبيـة، هذا كل ما فـي الأمر. مهلاً، قبل أن نذهب، دعونا نتوقف عند ذلك المكان اللطيف، لتناول بعض الإسبرسـو والدونات»

فقالت هيرميون الأخرى «أنا أعشق الدونات»

كـنّ يتجـاوزن البحيـرة الكبيرة، حيث تجمع الناس لمشـاهدة الأسـماك الملونة الجميلة وهي تسبح في الماء محركة زعانفها بلطف.

قالت هيرميون الشقراء «كلتانا تعشق الدونات والإسبرسو. وأنتِ كذلك يا جو. أعرف أنكِ كذلك»

جلس رجل يضع سماعة في أذنه على كرسي بجوار البحيرة، ولم يكن يراقب الأسماك وإنما الناس الذين يتنقلون على طول المتنزه الرئيسي»

قالت بيبي «إذا حشوتكما بالدونات حتى ولو قبل العشاء بثلاث ساعات، سوف تقتلني أمي»

فقالـت هيرميـون السـمراء «أجل، أمك المتوحشـة؛ تلك الشـيطانة قاتلة البشر. يا إلهي، متى غدوتِ ناضجة هكذا فجأة؟»

«هذا يحدث للشخص الأفضل» أكدت لها بيبي وهنّ تنعطفن عند الركن نحو آخر مئات من الأقدام في المتنزه، ومتجهات صوب متجر نيمان ماركوس وموقف السيارات حيث تنتظر سيارة الهوندا.

مـن وراء النظـارة الشمسـية، تفحصـت جموع المتسـوقين ورأت رجالاً آخريـن مثـل الأوليـن؛ يرتـدون جميعًا ملابـس عادية ولكـن كل منهم يرتدي معطفًا رياضيًا أو سترة أخرى ربما لإخفاء حزام كتف وسلاح. كانت الفتاتان محقتين؛ فبعض المجرمين كانوا نحيفين، مع شعر أملس مسرّح إلى الخلف مثل الراقصين المحترفين في الأفلام الصامتة، وبعضهم الآخر كانوا مثل الثيران

مع رؤوس حليقة، ونوعٍ ثالث كانوا مثل نجوم كرة القدم في المدرسة الثانوية مع وجوه جميلة وشعور مسرّحة بعناية، ولكن كان ثمة شيء شديد الشبه بينهم جميعًا إلى الحد الذي يمكنها من رسم خط من واحد إلى الآخر بنفس سهولة التوصيل بين النجوم في مجموعة نجمية مشهورة. ربما كان السبب هو توترهم وطاقتهم المشحوذة بوضوح مثل ذئاب على وشك الانقضاض على فريستها، أو مجرد وجودة هالة من الشر حولهم. الكثير من الناس كانوا سيسخرون من فكرة هالة الشر هذه، لأنهم لا يؤمنون بالشر، وإنما يؤمنون فقط بالنفسيات المضطربة، وإذا كانت بيبي ذات مرة أحد أولئك الذين سخروا من الفكرة، فلم تعد كذلك بعد الآن. وقد تبين أن الفتاتين محقتان أيضًا بشأن انتشار هؤلاء الحاقدين في كل مكان.

قالت هيرميون الشقراء «أود اقتناء زوج من تلك السراويل الجينز؛ تلك التي بها حياكة زخرفية على دروز الجانبين والكلمات المثيرة على الجيوب الخلفية»

فقالت هيرميون السمراء «وكأن أمكِ ستسمح لكِ قط بارتدائها أن تبلغي الثلاثين»

«سأرتديها جميعًا، حسنًا. عندما يقرأ الرجل ما هو مكتوب على جيوبك، سيضطر للنظر إلى مؤخرتك، وهكذا يبدأ الأمر؟»

«ما الذي سيبدأ؟ التعرض للتحرش من شخص منحرف؟»

وكأن سرب الرجال المسلحين لم يكن تحديًا صعبًا بما يكفي للتعامل معه، رصدت بيبي مشكلة خطيرة على مسافة أربعين أو خمسين قدمًا أمامهم. إنها ماريسا هوفلاين-فورشاك؛ معلمة اللغة الإنجليزية السابقة للصف الحادي عشر، والمرأة الجديدة المتزوجة من المليونير، التي عينت نفسها منفّذة لقوانين الأسلحة المخبأة، والتي على ما يبدو أنها أمضت اليوم في التنقل بين هذا المتجر وذاك، فما انفكت تشتري أغراضًا حتى امتلأت حقيبة سيارة البنتلي ولم تبقى بقعة شاغرة. وقفت أمام نافذة عرض لأحد المتاجر وهي تطمع في

اقتناص أيًا كان ما تعرضه، وكانت تحمل كيسي تسوق من متجرين مرموقين.

ظنت بيبي أنه ربما يكون بمقدورهم المرور من وراء المرأة والابتعاد بينما هي مندهشة من البضاعة المعروضة. لكن المخاطرة كانت عظيمة؛ فإذا استدارت السيدة هوفلاين–فورشاك بعيدًا عن نافذة العرض وأصبحت وجهًا لوجه أمام تلميذتها السابقة، ستكتشف أمرها على الرغم من ارتدائها نظارة شمسية وقبّعة بيسبول. ليس أقل من بدلة على هيئة غوريلا قد يخدع تلك الساقطة.

استوقفت بيبي الفتاتين قائلة «انتظرا. هل تريان هذه المرأة أمامنا، التي ترتدي ملابس باهظة الثمن ولكن غريبة وتحمل كيسي تسوق؟ أنا أعرفها. إن صوتها أعلى من صوت محرك شاحنة. وستكشف أمري. سأختبئ في هذا المتجر وأتظاهر بالنظر إلى فستان. ابقيا أنتما هنا ودردشا مع بعضكما البعض، أنتما تبليان بشكل رائع بالمناسبة، وعندما ترحل، تعالا وأخبراني. لكنني أقصد أن تكون رحلت تمامًا، بحيث لا نمر عليها مجددًا.

«هذا مثير جدًا» قالت هيرميون السمراء بابتهاج واضح. فقالت هيرميون الشقراء «هذه إثارة غير مسبوقة».

دفعت بيبي الباب الزجاجي للمتجر الذي توقفن أمامه، فأصدر صوت أجراس إلكترونية. وفي داخله، كان هناك بائعتان تبدوان في الثلاثينات من العمر وترتديان ملابس راقية تتحدثان عند مؤخرة المتجر، مع أنه على الأرجح كان مطلوبًا منهما أن تسميا أنفسهما بمستشارتي موضة أو مساعدتي اختيار أزياء، أو أي شخص يتمتع بمظهر أنيق وعقل تافه. توجهت بيبي صوب رف للفساتين على الجهة اليسرى، وابتعدت عن نوافذ العرض، وتمعنت في البضاعة المعروضة باهتمام واضح. وقد أملت أن يكون هذا أحد تلك الأماكن التي يتدرب فيها مساعد اختيار الأزياء على عدم الاقتراب من الزبون الجديد باكرًا للغاية، حتى لا يبدو أن المتجر في حاجة إلى بيع بضاعته بدلاً من السعي إلى كسب عملاء كُثر.

اقتربت إحدى البائعتين قادمة من الخلف، وقد توقفت هنا وهناك لتعديل أحد الأغراض الموضوعة على إحدى طاولات العرض، عندما أعلنت أجراس الباب دخول زبون آخر. وإذا كانت البائعة تشبه صاروخًا موجهًا نحو جيب بيبي، فقد كانت تمتلك قدرات إعادة استهداف استثنائية، إذ أنها أعلنت بابتهاج صادق قائلة «سيدة هوفلاين-فورشاك، يا لها من مفاجأة سارّة» وتحركت صوب الزبونة الجديدة.

-76-

فتاتان ميتتان

في تلك اللحظة في مجمع فاشن آيلند، ربما تكون بيبي قد اقتنعت أخيرًا أن استسلام والديها للقدر هو أكثر التصرفات حكمة في عالم بدا مصرًا على أن يفعل بالمرء ما يشاء؛ في خرق لقوانينه المعلنة للسبب والنتيجة. بمقابلة السيدة هوفلاين فورشاك مرتين في يوم واحد، بعد أن لم ترها لقرابة ست سنوات، وعندما تعين على بيبي المرور عبر كتائب من الرجال المجرمين دون أن تلفت الانتباه إلى نفسها... حسنًا، كاد ذلك أن يجعلها ترفع يديها استسلامًا، والذهاب إلى أقرب حانة، وطلب البيرة، وانتظار ما سيحدث تاليًا؛ إما معجزة إلهية أو موت مفاجئ.

اندفعت البائعة الثانية إلى الأمام لتحية السيدة هوفلاين فورشاك بدون أن تظهر الحماس، وحملت عنها كيسي التسوق من أجل «إبقائهما بأمان خلال زيارتك لنا»، أما البائعة الأولى - بعد أن تجاهلت بيبي تمامًا - فقد أرادت أن تعرف إذا ما رغبت السيدة هوفلاين-فورشاك في شرب القهوة أو ربما شراب كحولي فاتح للشهية. ولأنها امرأة ذات مكانة اجتماعية مرموقة، تساءلت زوجة المطور العقاري عما إذا كان من المبكر للغاية تناول شيء بخلاف القهوة. ولكن عندما اطمأنت أن هذا وقت تناول مشروب كحولي في مكان ما في العالم، تساءلت عما إذا كان لديهم أي من «هذه الشمبانيا اللذيذة»، وبطبيعة الحال كان لديهم منها.

طوال مدة الدخول الملكي والاستقبال الاحتفالي، أبقت بيبي ظهرها صوب معلمتها السابقة، لكنها توقعت أن ينكشف أمرها في أي لحظة. لم تكن

واثقة من أن ذيل الحصان والقبّعة والنظارة الشمسية التي تغطي نصف أنفها ستخفي أمرها وتجنبها التوبيخ مرة أخرى. وهكذا، كان السبيل الوحيد لمنع السيدة هوفلاين–فورشاك من تتبعها إلى الخارج واتهامها علنًا بأنها تحمل سلاحًا غير مرخص هو إطلاق النار عليها، وهو حل غير قابل للتطبيق رغم جاذبيته.

ثبُت أن الوعد بتناول شامبانيا لذيذة يشبه وجود خطاف في الفم. تمايلت السيدة هوفلاين–فورشاك وهي تسير خلف البائعتين نحو مؤخرة المتجر، متجاوزة الملابس الجاهزة والمجوهرات التي لم تظهر أي اهتمام بها حتى اللحظة.

عندما أدركت بيبي أنها قد أفلتت، بدا ذلك إعجازيًا بنفس قدر شفائها من سرطان الدماغ. وعندما خرجت من المتجر، بدت أصوات الأجراس الخمسة مثل تحذير خارق يقول، لسوف تعثر عليكِ. ولأن بيبي لم تؤمن بالمصادفات، فلم تكن تحتاج إلى ترجمة لصوت الأجراس حتى تدرك أن معلمتها السابقة لم تفرغ منها بعد، وأن هذا الموقف المعقد للغاية – الذي بدأ يتخذ منعطفًا جديدًا عند المتجر الكبير – ما يزال ينطوي على ثورة أخرى.

كانت الفتاتان تشعران بالحرج من إخفاقهما في تحذير بيبي من أن المرأة ذات الصوت الجهوري تسير وراءها. بدت في البداية أنها ستتجاوز المتجر، بيد أنها استدارت فجأة نحو الباب. كانت متغطرسة لعينة، وقد تجلى ذلك في نظرات الإزدراء التي رمقتهما بها. كان مظهر ثدييها مرعبًا، وكأنهما توربيدان بحريان، وبدت عيناها لئيمة مثل عيني خنزير صغير.

أكدت لهما بيبي أنهما قد فعلتا كل ما في وسعهما، وبدأ ثلاثتهم التحرك مجددًا صوب نهاية المتنزه الرئيسي وموقف السيارات الواقع خلف متجر نيمان ماركوس، وهن تتحدثن عما إذا كانت الوشوم رائعة أم مفزعة، وهل كان من الأفضل أن يكون المرء جميلاً وغبيًا أو غير جميل وذكي.

وقفت سيارة بوغو الهوندا بلا حراك بين سيارتي الفيراري والماسيراتي.

وبقدرما يمكن لبيبي القول، فلم يكن ثمة من يراقبها. وعلى ما يبدو، فإن رجال تيريزن لم يعرفوا بعد نوع السيارة التي تقودها.

ومع ذلك، اعتقدت أنه من التهور أن ترافقها الفتاتان طوال الطريق نحو السيارة، مع احتمالية توريطهما في مواجهة عنيفة. على الجانب الآخر، إذا كان الأشخاص الخطأ يراقبونها، سيشتبهون في شقيقتهم المفترضة إذا افترقن عند السيارة وعادت الفتاتان إلى المجمع.

كرهت بيبي فكرة أن تطلب منهما الركوب معها إلى خارج موقف السيارات حتى الطريق الرئيسي المحيط بالمجمع. لكن التهديد الذي كان موجهًا نحو الفتاتين في هذا المكان المكشوف بدا أقل واقعية عن وعد تيريزن بأن آشلي بيل ستموت في عيد ميلاده بعد يوم غد. بعد أن ناولت كيس الكتب إلى الشقراء، وأخرجت مفتاح السيارة من حقيبتها، أدخلت بيبي يدها اليمنى أسفل سترتها وقبضت على المسدس المخفي، وذلك بينما كن تقتربن من السيارة.

لم يتعجلهن أحد وهي تفتح أبواب السيارة. كان الناس يسيرون ذهابًا وعودة نحو سياراتهم، أو يطوفون بحثًا عن أماكن للركن، وبدا أن الجميع لا يضمر نوايا خبيثة.

اندهشت الفتاتان من سيارة الهوندا الفضية العتيقة أكثر من اندهاشهما من الفيراري أو الماسيراتي، ربما لأنها كانت تبدو غريبة في هذه المقاطعة الراقية. استقرت هيرميون الشقراء على المقعد الخلفي، في حين أرادت هيرميون السمراء حمل سلاح، وهي ما تزال تشعر بروح المغامرة وتأمل أن تخرج بمغامرة أو اثنتين أخريين من هذه التجربة قبل أن تنتهي.

عندما غادرت بيبي المكان الذي كانت متوقفة فيه، تحدثت الشقراء من المقعد الخلفي قائلة «بدلاً من تركنا خارج مركز نيوبورت، هل يمكنكِ اصطحابنا إلى الطريق الساحلي السريع وإنزالنا هناك؟»

«بالطبع. على أي جانب من الطريق السريع؟»

«غربًا. إذا كنتِ متوجهة جنوبًا، فهذه وجهتنا»

«سأذهب حيثما تريدان»

عندما انعطفت إلى داخل الطريق، لم تصدمهن أي سيارة أو تحطم أي رصاصات النوافذ.

قالت الشقراء «إذا أنزلتينا عند ناصية الطريق الساحلي السريع وجادة بوبي، يمكننا المشي من هناك إلى منزلي»

«اتفقنا»

وصلن إلى نهاية الطريق، فانحرفت سيارة دفع رباعي متوسطة الحجم أمامهم وسدت الطريق عليهن.

بعد ذلك، مررن على مطعم حيث كان أحد الثيران ذوو الرؤوس الحليقة وأحد راقصي الأفلام الصامتة يقفان معًا وهما يتحدثان. وبينما أزال النحيف الوسيم السماعة من أذنه، نظر الثور نحو الهوندا لكنه لم يظهر أي اهتمام.

قالت السمراء من مقعد الركاب «ماذا سيفعلون إذا أمسكوا بكِ؟»

«سيقتلونني»

بعد دقائق قليلة، كان من الممكن أن تشعر الفتاتان بالإثارة من هذا الاعتراف الخطير، ولكن ليس الآن.

سألتها السمراء «ماذا فعلتِ؟»

«لا شيء»

«هل يمكن أن يكون هذا حقيقيًا؟»

«حتى الآن أجل. اسمعا، من الأفضل أن لا تعرفا أي شيء. أنا ممتنة لمساعدتكما، ولن أنساكما قط»

كان لدى الشقراء سؤال أخير «هل ثمة مخرج لكِ من أزمتك؟»

فقالت بيبي «هناك سبيل للخروج دومًا. لا تقلقا عليّ»

بعد أن كان قد انحسر في وقت سابق، ازداد الضباب حدة مجددًا في

آخر ساعة من النهار، وما من شك أنه سيمتد إلى بضعة أميال داخل اليابسة، وهو على نية التخييم الليلة. وقبل وصولهن إلى الطريق الساحلي – وقد بتن الآن على مسافة ربع أو نصف ميل من البحر – ارتفع جدار أبيض أمامهن؛ تسونامي من الضباب يتحرك ببطء تسبح فيه المصابيح الأمامية مثل الأسماك الذهبية.

انعطفت بيبي جنوبًا، وظلت ثلاثتهن صامتات طوال الطريق، إلى أن توقفت على الجهة اليمنى قبل جادة بوبي بالضبط. فتحت الفتاة السمراء الباب ونزلت من السيارة، ثم استدارت وأمالت رأسها إلى داخل السيارة وقالت «حظًا طيبًا يا جو» ووضعت الخمسمئة دولار على مقعد الركاب.

احتجّت بيبي قائلة «كلا يا عزيزتي، لقد استحقيتِ ذلك»

فقالت الفتاة «تحتاجين إليه أكثر مني. أنا لا أهرب من أحد»

انضمت الشقراء إلى صديقتها وقالت «تماسكي يا جو. لا تتركي العناكب المنفّرة تنتصر»، ثم قذفت الخمسمئة الأخرى بالقرب من النقود التي أرجعتها السمراء، وأغلقت الباب.

مشت الفتاتان جنوبًا بطريقة غريبة لا تتماشى مع عمريهما وهما تميلان على بعضهما البعض وتتشاركان الأفكار. تبددت ألوان ملابسهما وهيئتيهما وهما تتقدمان نحو مصدر الضباب. وحتى بعد أن انعطفتا إلى داخل جادة بوبي، كان بوسع بيبي رؤيتهما، لأن الملكية الواقعة عند الناصية كانت موقف سيارات مخصص لمطعم فايف كراونز، مع عدم تداخل أي بناياتٍ أخرى. نظرت الفتاتان وراءهما ولوّحتا. ومع أنهما على الأرجح لم يكن بوسعهما رؤيتها بوضوح، إلا أن بيبي لوّحت لهما أيضًا.

أخذًا في الاعتبار المدة القصيرة التي عرفت فيها الفتاتين، فقد طورت عاطفة غير عادية نحوهما وباتت الآن أقوى وهما تختفيان في قلب الضباب. ولعل أكثر ما أثّر بها هو ما تميزتا به من روح المثابرة، والحساسية، وسعة المعرفة، والبراءة.

بعد أن اختفت الصديقتان عن الأنظار، فكرت بيبي مع نفسها هاك فتاتان ميتتان.

تفاجأت بشدة من هذا الإحساس المتشائم إلى الحد الذي جعلها تعتدل في جلستها خلف المقود، وهي تشعر بالارتباك من أن تكون الكلمات السابقة تنبؤية، وأن الفتاتان لم تذهبا إلى منزليهما، وإنما كانتا تسيران نحو موتهما المحتوم. حاولَت أن تفتح باب السيارة في قلب الطريق، فانطلق صوت بوق من الخلف. فاجأها الصوت وأخرجها من قبضة الخيالات المخيفة، فجلست للحظات حتى تهدأ أعصابها. لم تكن نبية، ولا ساحرة تستخدم بلورة سحرية. ولم تملك القدرة على التنبؤ ولو بخمسة دقائق من مستقبلها، ناهيك عن مستقبل الآخرين.

أدركت أن هذه الفكرة المزعجة – هاك فتاتان ميتتان – هي تعبير عن إحساسها بالعزلة، فقد باتت الفتاتان الآن في عداد الموتى بالنسبة إليها، ولن تراهما مجددًا قط، وها قد أصبحت وحيدة مرة أخرى في رحلتها وبحثها. في الواقع، تملكها شعور مقزز بالوحدة أكثر من أي وقت مضى؛ حمل مقيد من الوحدة يكاد يصيبها بالشلل. وعلى الرغم من إيقافها السيارة في مكان لا يُسمح بالوقوف فيه، فكرت في الجلوس هناك حتى يحل المساء، ثم حتى يبزغ الفجر. لم يكن بوسعها الذهاب إلى أي من أحبائها خشية أن يصبحوا أهدافًا لتيريزن. أما باكستون، فقد كان مختلفًا؛ إذ كان قادرًا على التعامل مع التهديدات. عُد إلى الوطن يا باكس، أرجوك. بالنسبة إلى السلطات، كانت قصتها تبدو كهذيان شخص مصاب بالحمى، ولا بد أن تكون المشتبه به الرئيسي في قتل كل من سولانج سانت كرويكس وكاليدا باترفلاي. ومع ازدياد حدة الضباب المحيط بالسيارة والمصابيح الأمامية للمركبات المارة عليها، طغت عليها الحيرة، فبحثت عن السلوى في شيء خطير مثل الشفقة على نفسها.

ظلت متوقفة لعشرة دقائق حتى باتت تشعر بالضجر الشديد. اللعنة، كان

هناك أشياء يمكنها فعلها، وأجوبة يمكنها السعي وراءها؛ أجوبة لأسئلة عديدة حبيسة داخلها. كانت تدرك فحوى الأسئلة الرئيسية، مثل امرأة كفيفة في منزل لا تعرفه بشكل كامل، لكنها قادرة على تحسس طريقها داخله.

انتظرت حتى ينفتح المرور، ثم دخلت في الطريق الساحلي السريع، واتجهت جنوبًا وكأن حياتها تقف على ذلك.

-77-

الطوق الذي يقيدها

كان الطقس مروعًا في لاغونا بيتش؛ إذ كان الضباب يطغى على المكان مثل دخان لعالم يحترق. وكانت الشمس المحتجبة ضعيفة للغاية لدرجة أن ضوء النهار كان بلا قوة أو لون، وإنما مجرد أشعة باهتة وضعيفة ربما لم يكن الغرض منها الإضاءة ولكن اختراق العظام وطباعة أشعة مقطعية لهيكلها العظمي على الرصيف، كي تكون دليلاً أحفوريًا على أن البشر تواجدوا ذات يوم.

بدت جميع متاجر البضائع المستعملة مثل معرض فني. ولحسن الحظ، كان هناك الكثير من متاجر الملابس وتجار الفنون، فتمكنت بيبي من شراء ملابس بديلة. وقد اشترت حقيبة على عجلات، واشترت مأكولات سريعة لتناولها على العشاء من أحد الأسواق، فضلاً عن أغراض أخرى.

وفي طريق عودتها إلى السيارة، مرّت على متجر بارك بوتيك، الذي يبيع دمى وأدوات أخرى خاصة بالكلاب. وكان أحد الأغراض المعروضة في النافذة هو طوق من الجلد شدّ انتباهها لأنه ذكرها بطوق أولاف قبل أن تتبناه، عندما أتى إليها تحت المطر، بيد أن طوق أولاف كان باليًا وبه شقوق ومتسخًا.

إلا أن الذكرى التي أثارت قلقها لم تكن في اليوم الذي وصل فيه الكلب إليها، بل في الحادثة التي وقعت بعد موته بثلاثة أعوام، عندما كانت في التاسعة عشر من العمر وتعتزم الانتقال من منزل والديها الصغير إلى شقة خاصة بها. حينئذٍ، وبدلاً من وجود صندوق كتب واحد في مؤخرة دولابها، كانت هناك أربعة صناديق تعج بمجلدات من أرففها. جلست على الأرض كي ترتب المحتويات، فنحّت جانبًا العناوين التي لم تعد تهتم بها. وفي الصندوق

الأخير، اكتشفت أنها وضعت الكتب وتركت فراغًا في المنتصف وضعت فيه العديد من الأغراض، بما في ذلك قطعة قماش من الشامواه لُفت حول طوق أولاف القديم. كانت قد نسيت أنها احتفظت به. وإذا كانت قد شعرت ذات يـوم بالتعلـق بـه، فلم تعـد كذلك الآن. كانت حلقة الطـوق الجلدي مقطوعة ومتسـخة ويغطيها العفن، وكان مشـبك الطوق مثنيًا وصدئًا. لم يكن هناك ما يدعو للاحتفاظ به، لكنها لم تتخلص منه مجددًا. في الواقع...ما الذي فعلته؟ ألم تذهب إلى متجر لبيع أدوات المكاتب واشـترت صندوق حفظ سـندات مضاد للنيران؟ أجل. كانت مساحته تبلغ عشرين بوصة مربعة وعشر بوصات في العمق، مع غطاء مفصلي رقيق وقفل بسيط ومفتاح نحاسي، ويستخدم في حفـظ صكـوك الضمـان والوصايا وبوالص التأميـن وخلافه. ألم تضع الطوق المغطى بالشـامواه فـي هذا الصندق، فضلاً عن أغـراض أخرى عثرت عليها معه؟ أجل، ولكن...

الآن، عند نافذة العرض في قلب لاغونا - وبينما كانت تحدق في طوق مشابه - عجزت بيبي عن تذكر الأغراض الأخرى التي كانت قد عثرت عليها في الفراغ السريّ في صندوق الكتب. وما الذي فعلته في الصندوق المعدني؟ أين كان الآن؟

كانـت إطـارات السـيارات المـارة تصـدر حفيفًا على الإسـفلت المبتل، وقد أضفى الضباب نداوة لامعة على وجهها، وتسـاقطت قطرات الندى عن الأشـجار، ورفرف الضباب بأجنحته الثقيلة على زجاج مصابيح الشـارع، مما دفع بيبي للشعور أنها غريبة عن نفسها.

عادت إلى الهوندا وهي تحمل أحدث مشـترياتها. كانت السـيارة متوقفة بالقرب من الطرف الشـرقي لجادة فوريسـت. بعد ذلك بدقائق قليلة - وعلى الطريق السـاحلي السـريع - بدأت في البحث عن نُزل في الجانب الشـمالي من البلدة؛ عن مكان ما لا يمكن لأحد أن يعثر عليها فيه، ولكن حيث يمكنها العثور على نفسها.

-78-

مختبئة من زوج لا وجود له

لـم يكـن النُزل يسـتحق تصنيفًا من خمسـة نجـوم ولا حتى أربعة، وربما حتـى ثلاثـة، لكنـه بدا نظيفًا ويحظـى بعناية جيدة، والأهم من وجهة نظر بيبي أنه يضمن التخفي. أوقفت السـيارة في شـارع جانبي على مسـافة شارعين من النُزل واتجهت نحوه مشيًا، وهي تجر الحقيبة ذات العجلات.

كانـت هنـاك امـرأة واحدة في المكتب الأمامي في حجرة مطلية باللونين الأزرق والأصفـر الباهتيـن على الطـراز الكاريبي. وكانت المنضدة عبارة عن لوح من خشب الكوا، الذي إما كان أصليًا أو منحوتًا حتى يشي بتاريخ بطولي من الكد والتعب. كانت مطلية بالأحمر ولامعة ولها عمق مائي.

كانـت النُـزل الصغيـرة عـادة ما تكون ملكًا لزوجيـن، وقد تحلت موظفة الاسـتقبال بالكرم وكأنها كانت ترحب بضيفة في منزلها. عرّفت عنها الشـارة المثبتة على قميصها بدوريس. ولـم تمانع في قبول السداد نقدًا، لكن سياستهم تطلبت بطاقة ائتمان ورخصة قيادة لإثبات الهوية، وذلك تحسـبًا إذا ما ألحق النزيل ضررًا بالغرفة.

قالت بيبي «لم يسـمح لي بأخذ بطاقات ائتمان، ومزّق رخصة قيادتي». تفاجـأت عندمـا تلعثـم لسـانها وأظهر صوتهـا خوفًا ومـرارة وغضبًا. لـم تكن تتظاهـر؛ فقـد أمدتها حالتها الحقيقية – شـعورها بالقلـق والوحدة – بالعاطفة التي ساعدتها على سرد حكاية عن العنف الزوجي. «قطعتُ نصف المسافة في سـيارة أجرة، ثم مشـيتُ حتى رأيتُ هذا المكان». اغرورقت عيناها بالدموع، وأضافت «لن يأتي إلى هنا ويسبب فضيحة، فهو لا يعرف وجهتي».

تـرددت دوريـس للحظـات قبـل أن تتجاهل قوانين المـكان. قالت «هل لديكِ عائلة يا عزيزتي؟ شخص ما تلجئين إليه؟»

«عائلتي في أريزونا. وأبي قادم من أجلي غدًا».

قالت دوريس – وهي تحاول ألا تبدو متطفلة أو لا مبالية – «إذا كان قد اعتدى عليكِ يا فتاة، يجدر بكِ الإبلاغ عنه»

«لقـد فعـل مـا هـو أكثر مـن ذلك» وضعت بيبي إحـدى يديها على بطنها وكأنها تتذكر لكمة ما، وأضافت «لقد فعل ما هو أكثر بكثير من مجرد الاعتداء»

وقّعت على وثيقة التسجيل باسم هازل ويذرفيلد، وهي لا تدري من أين أتت به. قالت إنه اسم عائلة والدتها.

كانت هناك ثلاث غرف متاحة – تقع كلها بجانب بعضها البعض – وقد اختارت الحجرة رقم سـتة، الأبعد عن الشـارع. وكان فرشـها بسـيطًا ولكن مريحًا.

جلسـت على أحد كرسـيين عند طاولة مسـتديرة صغيرة، وأكلت العشاء الـذي احتـوى علـى الكاجـو والمشـمش المجفـف والجبن المرشـوش على الرقائق، وشربت علبة كوكاكولا من آلة البيع الخاصة بالنُزل.

وبينما كانت تأكل، تأملت صورة آشلي بيل، وسمعت في عقلها صوت تيريـزن عندمـا تحدثـت إليه على هاتف سـانت كرويكس؛ من المؤسـف حقًا أنـه لا يمكنـكِ حضـور الحفل. سـتتواجد آشـلي بيل بوصفها ضيفة الشرف. وستكون هذه آخر فرصة لكِ للعثور عليها حية. كل شيء يبدأ من جديد. إن دور الفتاة اليهودية تاريخي.

عيّن نفسه وريثًا لهتلر. وعلى ما يبدو أنه قد أخذ عاتقه – وحتى لو بضحية واحدة رمزية – أن يطبق مجددًا الحل النهائي «للمشكلة اليهودية». وقد تجلى من سـرب الجواسـيس – سـواءً في الجو أو على الأرض – الذين تتبعوا بيبي في مجمع التسـوق أن لدى تيريزن نوايا طموحة. ولكن سـواءً كان يعتزم قتل فتاة يهودية واحدة احتفالاً بعيد ميلاده أو أنه قد خطط لمجزرة إرهابية سينتج

عنها الكثير من القتلى، ففي كلتا الحالتين ستموت آشلي بيل إذا لم تعثر بيبي عليها سريعًا.

لو كان العالم الآن في فترة تسود فيها العقلانية، لكانت بيبي قد وجدت صعوبة في أخذ تيريزن على محمل الجد. لكن العالم قد جُن جنونه في السنوات الأخيرة. فلم تُصب عدوى معاداة السامية – هذا الكره المتوحش الذي لا يمكن قط غرز وتد في قلبه وتحويله إلى غبار – العواصم الأجنبية المتوقعة فقط، ولكن أيضًا انتشرت في الأوساط السياسية هنا في الولايات المتحدة، بل ولم تقتصر على السياسة فحسب، وإنما امتدت إلى الأوساط الأكاديمية وصناعة الترفيه. كان الأمر أشبه بوباء منتشر بين النخبة، ومع ذلك ولحسن الخط لم ينتشر بين الأمريكيين العاديين، الذين إلى حد الآن وفي معظمهم يبدون محصنين من هذا الوباء. ما كان يعتبر يومًا ما مرفوضًا مثل قصة فيلم سيئة بات الآن تهديدًا حقيقيًا. كان لتيريزن أتباع ومصدر تمويل ضخم، وكل هذا كان مطلوبًا اليوم منه حتى ينضم إلى زمرة الجماعات التي تهدم أسس الحضارة.

إلى جانب ذلك، كان يمتلك قوة غامضة من نوع ما. وقد أدركت بيبي من تجربتها الشخصية أن الأمر أكثر من مجرد قوة شخصية مستمدة من التيار المغناطيسي الغامض في باطن الأمر مثلما افترضت هالينا بيرغ، مع أنه قد يكون جزءًا من الأمر. تمنت لو كانت لديها فكرة أفضل عن نوع المصادر الخارقة التي يمتلكها، وهي أمنية حولت تفكيرها نحو الكتاب الغامض الذي يحمل صورة فهد وغزال.

بعد أن تناولت العشاء، أخرجت من حقيبتها كتاب كاليدا الصغير المثير للفضول، ثم استدارت نحو الطاولة وهي تحمله.

لمحت – ثلاث مرات – أسطرًا لنص غير مفهوم يتدفق بسرعة عبر الصفحة الوردية، وقد ظهر باللون الرمادي الباهت وكأنه يُقرأ من تحت الماء، لذا فلم تتمكن قراءتها. تصفحت ما يقارب من مائتي صفحة فارغة أو نحوه،

وهـي فـي حالـة انتباه تحسـبًا لظهور النـص. وعندما اعتقـدت أن الظاهرة لن تحدث، رأتها، ثم رأتها ثانية، لكن الكلمات ظلت تتدفق بسـرعة وبتشـويش أعاقها عن تتبعها، بيد أنها هذه المرة شعرت أن الكتابة تخصها.

لم تفهم كيف يمكن أن يظهر خطها – حتى بهذه الهيئة المبهمة – في كتاب لم تضع قلمًا عليه. لكن هذه كانت قطعة إضافية في هذه الأحجية المعقدة.

أخرجت قلمًا من حقيبتها ثم عادت إلى الجلوس بالكتاب، وهي تتساءل عمـا سـيحدث إذا كتبـت فيه. ترددت فـي البداية، لكنها بدأت في كتابة أبيات مـن قصيـدة «مسـاء العقـل» لدونالد جاسـتس التي كانت عاشـقة لها. وعندما بـدأت فـي كتابـة البيـت الثانـي، اختفـى الأول من الصفحة – من اليسـار إلى اليميـن – بالترتيـب الـذي كتبـت الكلمات به. وعندما انتهـت من كتابة البيت الثانـي، كان هـو الوحيـد الظاهـر في الصفحة، وقد اختفـى من الوجود عندما انتهت من البيت الثالث.

عندمـا تصفحـت الكتـاب في موقف السـيارات الملحـق بمتجر دونات هيفن، شعرت أن الوقت يمر بوحدات أكبر من الثواني والدقائق، ثم شعرت أنها...مسـحورة. أصبحـت تشـعر بشـيء ما يتراقص حولها، ومـع أن إدارتها رأسـها تطلبـت جهـدًا، فقد حركت نظرها ببطء يمينًـا. وبينما بدا أنها تتجاهل وجـود بيبـي، تحركـت امـرأة ترتـدي زيًا رسـميًا – ربما تكـون عاملة نظافة – بسـرعة خارقـة، وكأنهـا فيلم يعرض بسـرعة عالية، ولـم يعد المكان غرفة في نُزل بعد الآن، وإنما كان مكانًا آخر.

أسـقطت بيبي القلم في ذهول، وتركت الكتاب، ووجدت نفسـها وحيدة فـي الغرفـة، وكل شـيء كمـا كان. كان كيـس بارنـز أنـد نوبل علـى الفراش، وحقيبتها ذات العجلات بجوار باب المرحاض. ووفقًا لساعتها، لم تمر أكثر من دقيقة أو اثنتين.

لـم يبـقَ شـيء ممـا كتبته في الكتاب. فأين ذهبـت بحق الله أبيات دونالد جاستس؟

-79-

باكستون يتأمل

جلس باكس وحيدًا على كرسي التمدد، وهي يصغي إلى هدير المحركات مـع إقـلاع الطائـرات وتحليقهـا فـي الجو، لكنـه كان يفكر في مروج سـانت أنجلوس، ومزرعة الخيول الخاصة بالعائلة في تكساس. أصيبت عائلته بخيبة الأمل عندما اختار ألا يترك المدرسة الثانوية لصالح تجارة العائلة، لكنهم من ناحية أخرى كانوا فخورين أن ابنهم عنصر في قوات النخبة. كان أحد أشقائه الثلاثة – لوغان الذي يصغره بعامين – قد التحق هو الآخر بقوات النخبة، في حين أن إيموري وتشـانس رفضا الخدمة العسـكرية – بتردد نوعًا ما – للعمل في المزرعة والزواج وإنجاب الأطفال. كانت أنجلوس مكانًا رائعًا للأطفال، ومناسبًا للترعرع فيه والتعلق بشدة بالأرض والعائلة التي حافظت على توازن المرء طوال حياته. وكان هناك نهر مناسـب للسـباحة، ولطالما كانت الكلاب مسـتعدة للمرح والمطاردة، وتتميز أجواء الشـتاء بالبياض الشـديد والسـحر، في حين يتميز الصيف بحرارة الجو والخضرة، وكان يجري مطاردة الحمائم وطيور السمان بين الحقول في الخريف، وبطبيعة الحال، كانت هناك الخيول الجميلة.

كانـوا يقومـون بتربيـة الأفـراس، وهي خيول مناسـبة للعمل في المزرعة وبيعهـا إلـى الآخريـن. وكانت هناك خيول من فصيلة باسـو فينو، التي يهواها محبو الركوب لطريقة مشيها الفريدة. وبالمثل، كانت هناك الخيول الأندلسية والخيـول البلجيكيـة مـن فصيلة الـدم الدافـئ Warmbloods – وهي مذهلة في رياضـة الفروسـية – وعـادة ما تتوج في المنافسـات، فضـلاً عن خيول كوارتر

التي يجري تربيتها وإشـراكها في السـباقات. يمكن للمرء قضاء حياة بأكملها مـع الخيـول - ليـلاً ونهـارًا - ولا يمـل منها، أو من من مهورها السـاحرة في الربيع، وذكائها وقدرتها على جذب الآخرين، ومن جمالها ورقّتها.

جُبلت بيبي على أن تكون متزلجة على الماء وليست فارسة. وقد أحب باكس التزلج لا سـيما معها، لكن خصال الفارس لا يمكن فصلها عنه. كان سـؤالاً تعين عليهما البحث عن إجابة له. وقد تحدثوا بشـأن ذلك في بعض الأوقات، ولكن ما تزال أمامه بضعة أشـهر متبقية من مهمته مع الفريق، ولم يشـك أي منهمـا للحظـة أنهمـا سـيحلان المسـألة بمـا يرضي كليهمـا، إذا ما سمحت لهما الفرصة. وسواءً اختارا الساحل أو السهول المرتفعة أو كلاهما أو لا شيء على الإطلاق، فلن يهم كثيرًا، طالما أنهما بقيا معًا.

انفتـح البـاب، فمـال أحـد طاقـم الطيران إلـى الداخل مـن الردهة وقال «حضرة الضابط ثورب؟ طائرتك جاهزة»

نهض باكس عن الكرسـي وحمل حقيبته الثقيلة المصنوعة من القماش الخشن، وهو يشعر بالارتياح من التحرك مجددًا.

-80-

الحقيقة التي لا تجرؤ على مواجهتها

بعد قتله البروفيسورة سانت كرويكس في مخبئها الفكتوري، كشف تشاب كوي عن انخراط أطراف أخرى في هذه المؤامرة المحيرة، لكنه على الأرجح أراد أن يلمح لبيبي بما هو أكبر من ذلك. كانت بعض الأشياء التي تفوه بها لا تبدو من بنات أفكاره. وكانت بعض التعبيرات غريبة عن طريقة كلامه. في الواقع، لاحظت ثلاثة أمثلة بدا فيها أنه يطلق تلميحات أدبية، وكان هذا آخر ما تتوقعه منه. لم يكن رجلاً مثقفًا بأي شكل، وبدا أنه قد يقتبس كلام نجم رياضي أكثر من التفوه بسطر من كلام شكسبير.

تساءلت بيبي عما إذا كان كوي قد شعر - في تلك الصالة العتيقة - أنه مراقب، وأنه في الواقع يدرك أنه سيخضع للمراقبة دومًا وأينما حل من قبل جهة خطرة في وجودها. كان الأمر أشبه بمعرفته أنها هي نفسها - ليس حقيبتها أو ملابسها وإنما جسدها - قد زُرعت فيها شريحة تنقل كل ما تقوله وتسمعه. كانت هذه فكرة شديدة الاضطراب وتشي بهلع شديد. وربما تكون سخيفة وغير معقولة، لكنها لم تتمكن من التفكير في سبب آخر يدفعه إلى الحديث إليها رمزًا، وهو ما تشتبه أنه فعله. تشكل حديثه الغامض من إشارات خفية لا بد أنه قد أعدها مسبقًا للاستخدام في المرة التالية التي سيقابلها فيها، وهو ما تصادف أن يكون في الطابق الثالث من منزل سانت كرويكس. ويبدو أنه تفوه بإشارات من أعمال أدبية يعتقد أنها تعرفها.

قبل أن تفتح الكتب الثلاثة التي كانت قد اشترتها من متجر الكتب في فاشن أيلند، جلست لدى الطاولة في غرفة النُزل وهي تمسك بقلم

ومذكرة صغيرة كانت تحملهما في حقيبتها. وبالبحث في ذاكرتها، حاولت جاهدة أن تتذكر وتدوّن – بأقصى استطاعتها – الأشياء المبهمة التي قالها كوي. وبعد عشرة دقائق، كانت قد دوّنتها أمامها على الصفحة بخط يدها المنمق.

المثال الأول؛ قال – بعد أن أطلق النار على الدكتورة سانت كرويكس – كانت لتصبح امرأة ومعلمة أفضل لو أن أحدهم أطلق النار عليها صبيحة كل يوم من حياتها.

أدركت بيبي أين يمكنها العثور على هذا الاقتباس. فتحت كتاب القصص الكاملة لفلانري أوكونر وحددت موضع واحدة من أكثر القصص القصيرة فظاعة كُتبت على الإطلاق: «الرحل الصالح يصعب العثور عليه». انتقلت إلى الصفحة الأخيرة من القصة، بعد أن أجهز القاتل المتوحش على آخر فرد من العائلة، فقرأت في صمت الجملة المطابقة: قال ذا مسفت «كانت لتصبح امرأة صالحة لو أن أحدهم أطلق النار عليها صبيحة كل يوم من حياتها».

لم يكن تشابه الصياغة والإحساس بين ما قاله كوي وما ورد في القصة محض صدفة. لا بدّ أنه نطق بتلك الكلمات بنية لفت انتباه بيبي وتمرير معلومة شديدة الحساسية إليها بشكل غير مباشر.

المثال الثاني؛ عندما سألته بيبي لماذا يجب أن تموت آشلي، وهي مجرد طفلة في الثانية عشر أو الثالثة عشر من العمر، قال كوي لماذا يجب أن يموت أي أحد؟ بعض الناس يقولون إننا لن نعرف السبب قط، وأننا بالنسبة إلى الآلهة لسنا سوى ذباب يقتله الأطفال في يوم صيفي.

احتوى كتاب ثورنتون ويلدر على ثلاثة قصص قصيرة. انتقلت بيبي إلى قصة جسر سان لويس راي، وتتمحور حول الأشخاص الخمسة الذين ماتوا في يوليو/ تموز من عام 1714، عندما انهار أفضل جسر للمشاة في بيرو وسقط بهم في مكان سحيق. تصفحت بيبي الصفحات الأخيرة، لكنها عثرت في نهاية المطاف على ما تبحث عنه في موضع أبكر من القصة؛ فقد ورد في

نهاية الفصل الأول: يقول البعض إننا لن نعرف السبب قط، وأننا بالنسبة إلى الآلهة لسنا سوى ذباب يقتله الأطفال في يوم صيفي...

مجددًا، هذا التشابه غير عفوي.

المثال الثالث؛ سألت بيبي عما إذا كان كوي متحالفًا مع تيريزن، وقد أجاب باشمئزاز أنه يزدري ذلك الفاشي المسخ. وعندما أشارت إلى أن عدو عدوه – تقصد نفسها – قد يكون صديقه، صدّها كوي قائلاً اقبلي المحتوم يا فتاة. أنتِ صيد سهل. عندما كان صبيًا، كان تيريزن كلبًا، وقد عاد الآن إلى البرية. وقد بات ذئبًا يشبه كافة الذئاب ويختلف عنهم في نفس الوقت، دائمًا يتقدم على القطيع. إنه يحلم بإعادة العالم إلى الوراء، بعالم أكثر شبابًا، وهو عالم القطيع.

كانت القصة الرئيسية في كتاب جاك لندن هي «نداء البرية»، التي تدور حول كلب طيب يدعى باك، وهو هجين بين فصيلتي سانت برنارد وشيبارد الاسكتلندية. سُلبت منه حياة الرفاهية في كاليفورنيا وبيع في سوق للاستعباد ككلب زلاجة في كلونديك خلال الحقبة الذهبية لألاسكا في عام 1897. وبعد أن تعرض لسوء المعاملة، تكيف الكلب على حياته الجديدة الصعبة، وأدرك روح الذئب القابعة داخله، وهرب إلى حياة أفضل في البرية، حيث رد الدين للبشرية على وحشيتها معه.

في هذه الحالة، كان جزء من تلميح كوي يشير إلى القصة نفسها؛ إلى رغبة الكلب في التحول إلى الذئب الغاضب داخله. كانت الاقتباسات في هذا المثال أقصر من المثالين السابقين، لكن بيبي اكتشفت في نهاية النص ما يلي: لعل البعض يراه يتقدم القطيع تحت ضوء القمر الباهت...بينما ينشد أنشودة عالم أكثر شبابًا، وهي أنشودة القطيع.

في بادئ الأمر، بدا من غير المرجح أن تكون هذه الإشارات الثلاث شفرة ما لأنه سيكون من الصعب للغاية تضمينها في أي نقاش. لكنها أدركت بعدئذٍ أنه إذا كان كوي قد اعتزم لبعض الوقت أن يقتل الدكتورة سانت كرويكس،

فسيتعلم كيف يمكنه توظيف نص أوكونر. وبما أنه كان على يقين من أن بيبي عند لحظة ما ستأتي على ذكر آشلي بيل وتيريزن، فمن الممكن التلاعب بالمحادثة بسهولة لاستخدام نصوص ويلدر ولندن.

ولكن ما الرسالة التي أمل في نقلها عبر هذه الخدعة المتقنة، وهذا التواصل الغامض غير المباشر؟ إذا كان يأمل سرًا في مساعدتها، أما كان من الأسهل تمرير قصاصة ورق إليها، أو تقرير مفصل من عشرين صفحة لهذه المسألة؟ ليس هناك شك في أن إشاراته إلى المؤلفين الثلاثة كانت محسوبة، ولكن هل تشي طريقة التواصل المبهمة هذه بأنه كان ذكيًا ومخلصًا، أم أنه مختل ومضطرب؟ كلما فكرت في الاقتباسات الثلاث، بدا أنها تخبرها بما هو واضح؛ وهو أن كوي كان قاتلاً سفاحًا مثل ذا مسفت، وأن تيريزن كان ذئبًا متهورًا بخيالات مريضة، وأن قتل آشلي بيل سيكون فعلاً ارتكبه شخص أحمق يتملكه الغضب والاستياء، ولا معنى له. لم يكن الغرض من الشفرة نقل ما يعرفه بالفعل كل من المرسل والمستقبِل.

نهضت بيبي – وهي غاضبة وفي قمة التوتر – لتجوب الغرفة ذهابًا وعودة، وعندما بدأت الحركة، بدأ عقلها في العمل هو الآخر، متنقلاً بين مشكلة الاقتباسات الأدبية إلى احتمالية أنها ربما تحمل في داخلها شريحة ما تبث كل ما تقوله وتسمعه، ولكن لمن؟ ليس لتيريزن، لأنه إذا كان لديه وسيلة اتصال دائمة معها، لكان قد عثر عليها وقتلها بالفعل.

كيف جرى زراعة شريحة إرسال؟ عبر عملية جراحية؟ ولكن لم يكن لديها ندوب. عبر الحقن؟ ربما عبر وسيط متناهي الصغر، أو تكنولوجيا النانو...كان ثمة خبراء أصرّوا على أنه – ذات يوم في المستقبل المنظور – ستتمكن أجهزة بالغة التعقيد مصنعة من عدد قليل جدًا من الجزيئات من الانتقال عبر مجرى الدم، لتنقل باستمرار حالة المريض الصحية من منظور داخلي، بل وحتى إزالة الترسبات من الشرايين وإجراء عمليات أخرى على المستوى الميكروسكوبي. إذا كان هذا متوقعًا في المستقبل المنظور، فلمَ

لا الآن؟ وإذا كان هذا سيستخدم لأغراض طبية، فما الذي يمنع استخدامه لأغراض تجسسية؟

كان هذا درب الجنون؛ أرض كافكا. أصبحت خائفة فجأة ليس لاعتقادها أنها قد حُقنت بشريحة متناهية الصغر، ولكن لأنها فكرت في احتمالية ذلك لدقائق، وهو ما يعتبر مثيرًا للسخرية وضربًا من الجنون.

ذهبت إلى المرحاض ونثرت مرارًا ماءً باردًا على وجهها، وفركته بالمنشفة بعنف، وكأنها تحتاج أن تزيل عنه شيئًا ما سميكًا ولاصقًا.

عندما نظرت في المرآة، تعرفت على الوجه ولكن لم تتعرف على الهيئة، أو السحنة المرتبكة، أو الهلع الذي سبب شحوبًا في البشرة، أو التشاؤم الذي بدا على شفتيها.

قالت للمرأة في المرآة «اغربي عن هنا. لا أحتاج إليك». لم تكن تحتاج إلى بيبي الضعيفة التي ربما تحولت إليها، وإنما تحتاج إلى بيبي التي عرفتها دومًا.

عادت بيبي إلى غرفة النوم وجلست لدى الطاولة وتفحصت تلميحات كوي الثلاث، وقارنت ما قاله بالمصادر التي لم يقتبسها بشكل دقيق. فكرت فيها في سياق الصالة الفكتورية التي تفوه فيها بما قال. كما تمعنت في القصص الثلاثة وحبكاتها وشخصياتها ومواضيعها الرئيسية ومعانيها الخفية، ثم فكرت في المؤلفين، وتذكرت ما تعرفه عن حياتهم واهتماماتهم بخلاف الكتابة.

خطرت فكرة لبيبي حول شيء ربما كان يحاول كوي أن يقوله. إذا كان عقلها قد عمل دومًا عندما كانت صبية، فإنه ينسج بلا كلل منذ سنوات نسيجًا من التعبيرات والأحاسيس والأفكار والخواطر والمفاهيم والنظريات المتبدلة باستمرار. وقد بدأت الفكرة التي خطرت لها كخيط رفيع لاحظته بصعوبة في خضم حشد الأفكار والمخاوف، إلا أنه في غضون ثوانٍ كانت هناك خيوط أخرى تنسج الشبكة، وقد تشكل نمط ما بسرعة مذهلة، وكانت الخاطرة مفزعة للغاية لدرجة أنها قفزت من على الكرسي وأسقطته.

بدأت أبواب عقلها – المغلقة منذ أمد بعيد – تنفتح شيئًا فشيئًا، فرحَبت بهـا غـرف فـي ذاكرتها كان محظورًا عليها الاقتـراب منها. أصبحت فجأة في الخامسة من العمر وبمفردها في غرفتها المضاءة بمصباح ميكي ماوس برفقة شـيء شـرير، ثم باتت في العاشـرة من العمر وتخفي طوق كلب، بعد ذلك كبرت إلى عمر السادسة عشر وهي تقاوم رغبة قد تدمر حياتها. وبينما كانت تشعر بالدوار والوهن في ساقيها، تعثرت وهي تتجه نحو الكرسي الثاني، ثم أمسكت بحافته العلوية لموازنة نفسها. وبعد أن أغمضت عينيها، قالت بصوت حاد يملؤه الفزع «لا، لا، لا».

-81-
الخائن الأكبر

رائحة قصيرة حادة.

فتحت بيبي عينيها ونظرت صوب المرحاض والدُش والمناشف البيضاء على الرف المعدني، ولم تكن على يقين تام من أنها تعرف حمام من هذا، لكنها تذكرت النُزل، وسيارة بوغو المتوقفة على مسافة شارعين، وهازل ويذرفيلد، والعنف الزوجي. كان من المفترض أن يأتي والد هازل من أريزونا في الصباح. وكانت قد أكلت الكاجو والرقائق والمشمش والجبن على العشاء.

تملكها إحساس غريب لا ينذر بخير ولا بشرّ، ولم تكن هادئة ولا قلقة، أو خائفة ولا واثقة. كان هناك فراغ داخلها. وقد شعرت بالإجهاد وظنت أنها قد فقدت شيئًا، مع أنها لم تتمكن من معرفة ما هو، لذا فلا بدّ أنه لم يكن ذا أهمية.

لو أنه كان هناك دخان، فقد اختفى سريعًا تاركًا وراءه رائحة كريهة فقط.

ألم تكن تتكئ على كرسي؟ لكنها وجدت نفسها الآن تتكئ على سطح منطقة الزينة في المرحاض. وقد وجدت هيئات رمادية من الفرو - مثل اليرقات الميتة - ملقاة في الحوض؛ إنه رماد. كانت هذه بقايا شيء ما احترق بشكل كامل. وبجانب الحوض، كانت هناك ولاعة تعمل بغاز البوتان. تذكرت أنها قد اشترتها من السوق في لاغونا، حيث اشترت أكلاً، وفرشاة ومعجونًا للأسنان، وأغراض أخرى. وبما أنها لم تدخّن قط، فلم تعرف لماذا احتاجت إلى ولاعة. على ما يبدو لإحراق شيء ما.

رفعت سـدادة الحـوض، وفتحـت صنبور المياه البـاردة، وتخلصت من الرماد إلى داخل مصرف المياه. ذكرتها دوامة المياه أنها كانت تشعر بالدوار، لكنها لم تعد كذلك الآن.

أبقاها عـدم اليقيـن عنـد منطقـة الزينة في المرحاض. لـم تكن حائرة أو متوترة، وإنما كانت تائهة. بعد ذلك، عادت إلى غرفة النوم.

كان أحد الكراسي ذوي الظهر المستقيم مقلوبًا رأسًا على عقب. وبعدما قامـت بتعديلـه، لاحظت وجود ثلاثـة كتب على طاولة الأكل الصغيرة, وكان سـلك كل كتاب مكسـورًا، واسـتقر مفتوحًا. كما جرى إزالة أجزاء من ثلاث صفحات بالمدية الزنبركية التي سقطت من قميص الدكتورة سانت كرويكس عندما أطلق تشاب كوي النار عليها.

كانت مفكرة بيبي على الطاولة هي الأخرى، وكانت مفتوحة على صفحة فارغة. على ما يبدو أنها اعتزمت كتابة شيء ما.

بدأت حالتها المزاجية تتغير، فباتت تشعر أنها أقل ضياعًا وأكثر تركيزًا.

أثـارت كتـب كل مـن أوكونـر وويلـدر ولنـدن حيرتها. تذكـرت أنها قد اشـترتها، لكنها لم تعرف السـبب. وعلى أي حال، لم يكن لديها متسـع من الوقت للقراءة، ليس وتيريزن وجماعته يحاولون العثور عليها وقتلها.

كان للكتب علاقة بتشاب كوي.

فجأة، أدركت ما الذي فعلته؛ حيلة القائد الخاصة بالذاكرة.

أحبت القائد؛ إذ كان قد ساعدها وهي فتاة صغيرة مضطربة على الحفاظ على توازنها العقلي. لكن المسـاعدة التي منحها إياها لم تحل مشـكلتها (أيًا كانت هذه المشكلة)، وإنما علمتها فقط كيف تقمع أي ذكرى لها. لم ينكسر شعور الهلع، فما زال قائمًا وينتظر منها أن تفتح الباب وتخضع له.

جلسـت لـدى الطاولـة – وهـي ترتجـف وفي حالة صدمـة – تحدق في المجلدات الكبيرة المدمرة.

كان كوي قد ذكر شيئًا غريبًا في منزل البروفيسورة لم تدرك بيبي أهميته

فـي البدايـة. وقـد عجـزت عـن تذكره بطبيعـة الحال. فقد حذفته مـن الذاكرة بطقس طفولي لم ينجح بسـبب الكلمات السـحرية السـت التي علمها القائد إياها وبسبب أنها احتاجت إلى أن تنجح. لا بد أن ما قاله كوي كان له علاقة بالكتـب الثلاثـة، وقـد أفزعهـا ذلـك، وجعلها تعي حقيقة مهمـة للغاية لم تقوَ على مواجهتها.

استخدمت المدية الزنبركية لقطع ما تبقى من الصفحات الثلاث الهامة مـن الكتـب، ثـم طوتها ووضعتها داخل المفكـرة، ثم وضعت المفكرة داخل حقيبتها.

كانـت الغرفـة دافئـة، لكـن بيبي شـعرت أنها نُحتت من الثلج. ثمة اسـم آخـر يمكـن إضافتـه إلى قائمة الأشـخاص الكثيرين المتآمرين ضدها. لم يعد بمقدورها تمامًا الوثوق بنفسها.

–5–

من رحم رماد الذاكرة

-82-
عودة إلى المكان الذي وصمته بالشر

حاملـة سـلاحها وحقيبتهـا فقط، تركت بيبـي الأمان في النُزل، وهو أمان متخيل على أي حال مثل أي لحظة سلام أو أمن في هذا العالم الجديد الذي تعيش فيه. شـكرًا لكِ يا كاليدا باترفلاي أو أيًا كان اسـمكِ. ثبُت الآن أن أي معقـل حصيـن مـا هـو إلا مكان مـن ورق، وأن كل مخبأ ما هو إلا فخ. وبدلاً من أن يشكل حاجزًا، كان كل باب بمنزلة دعوة للتهديدات الطبيعية والخارقة. وكان الدرس المستخلص هنا يناقض ما نص عليه القول المأثور؛ إن جاءتك هديـة فاقبلهـا كمـا هي. هدية عادية أو في صورة مدلكة. تدليك للاسـترخاء، ثم احتساء الجعة، فجلسة قراءة طالع مرحة وسخيفة، لتجد نفسك قد جذبت انتباه شـبيه لهتلر، وأدخلت قوى غامضة في حياتك، وشُـفيت من السـرطان فقط حتى يطعنك مختل ما حتى الموت بألف قلم رصاص. أرادت أن تبرّح أحدهـم ضربًـا، لكنهـا لـم تجد أحدًا يسـتحق ذلك، باسـتثناء ميرفي ونانسـي لاسـتئجارهما كاليدا، بيد أنها لم تكن سـتفعلها، بسـبب أكرم أباك وأمك، وما شـابه من المواعظ. غادرت النُزل في حالة من الغضب والاسـتياء الشـديدين يصعب للغاية تحملها.

ومع أن السـاعة كانت تشـير إلى السـابعة وأربعين دقيقة، بدا أن لاغونا بيتش قد أغلقت أبوابها لهذه الليلة، وقد سكنت الأجواء عند التلال المحاطة بالضباب أمام صوت المحيط، وخفت حدة المرور بالفعل، بينما دفع المحيط مجموعـات الغيـوم الكثيفـة المعانقة لليابسـة، وعوى ذئب وحـيد من مكان ما وكأنه ضائع وينتحب على قطيعه المختفي.

قـادت سـيارة الهونـدا الخاصـة ببوغو شـمالاً صوب الضباب المسـبب للعمى، وهو ما بدا منطقيًا أخذًا في الاعتبار أن حياتها أمست مستنقعًا موحشًا من الألغاز والأحاجي، وأن كل الإمكانيات المستقبلية التي تخيلتها لنفسها قد ذابت الآن في نهر من الاحتمالات التي لا ترغب في التمعن فيه.

وعلـى الرغـم مـن أن سـرب المجرميـن الذيـن ظهروا في فاشـن آيلند مـن المؤكـد أنهـم قد غـادروا، إلا أن بيبي توجهت إلى مجمع تسـوق آخر. اشـترت نسـخًا جديدة من مجموعات القصص لفلانيري أوكونر وثورنتون ويلدر وجاك لندن. كما اشترت أيضًا مصباحًا يدويًا وبطارية له ولعبة أحرف خشبية.

ومن هناك، اتجهت جنوبًا مجددًا صوب كورونا ديل مار، حيث عرجت على المنزل الصغير الجميل الذي عاشت فيه لتسعة عشر عامًا، إلى أن انتقلت إلى شقتها الخاصة. وبعدها بعام. باع كل من ميرفي ونانسي المنزل إلى زوجين - آل غيلنهوكـس - الذيـن كسـبا قـوت يومهما من سـرقة الماشـية ومصارعة الديوك. حسنًا، القصة الحقيقية هي أنهما كان مستثمرين مصرفيين تمكنا من التقاعد عند سن الثالثة والخمسين، لكن بيبي شعرت في المرة الوحيدة التي التقت فيها بهما أنهما غير لائقين كمسـتثمرين مصرفيين مثلما لم تكن لائقة كعازفـة بيانـو محترفـة. ولم ينفك آل غيلنهوكس خلال العامين الماضيين عن عرض مبلغ مغرٍ من المال على الجيران المترددين في المغادرة الذين امتلكوا المنـزل المجـاور، حتـى اسـتحوذوا عليـه أيضًا، وفي نفس الوقـت تعاونا مع مهندس معماري على تصميم منزل سيترك بلا شك الجيران يشعرون بالحقد والخجل.

مؤخـرًا فقـط، أحيطـت الملكيتـان المدمجتـان بسـياج للبنـاء؛ عبارة عن سلسـلة ربـط ذات غطـاء مـن البولـي يوريثيـن لضمان الخصوصيـة. ومع أن العشب كان ذابلاً ومنزوعًا، إلا أن المبنيين لم يكن قد جرى هدمهما بعد.

أوقفـت السـيارة علـى مسـافة شـارعين مـن المنـزل الصغيـر. ووضعت

البطاريات في المصباح اليدوي، الذي ستستخدمه فقط في الشقة الكائنة أعلى المرآب. تركت حقيبتها أسفل المقعد وأقفلت السيارة، ثم مشت في الشوارع التي كانت مألوفة حتى في ظل الضباب الشديد.

كان المساء هادئًا مثل صالة عزاء، وبدت المنازل مثل الأضرحة في الضباب.

وبالإضافة إلى بوابة كبيرة في الواجهة، وفّر سياج البناء ممرًا واسعًا فصل بين المنزلين والشوارع المقابلة. كانت كافة أبواب موقف السيارات من هذه الجهة. وفي أي لحظة، من الممكن أن تنعطف سيارة ما من عند ناصية أو أخرى، ويفتح السائق باب المرآب عن بعد، وحينها سيراها على الفور حتى في ظل هذا الضباب الكثيف.

كان قماش حفظ الخصوصية مثبتًا على الجهة الخارجية من السياج، وقد اضطرت لقطعه بمدية الدكتورة سانت كرويكس حتى تتمكن من تسلق السياج. وبخلاف بقية السياج، كان ثمة قضيب أعلى البوابة يغطي أي شقوق في الحديد، مما سيجنبها جرح يديها. تسلقت البوابة وعبرتها إلى سقيفة السيارة المجاورة للمرآب.

في الفناء المرصوف بالطوب، عظّم شيء ما في الأركان والأسطح المتجاورة للبنايات التي تشغل المكان من بخار البحر الضعيف وحوله إلى تيار هوائي دفع الضباب ببطء في اتجاه عكس عقارب الساعة. وشعرت بيبي أنها تُسحب إلى الأعلى حتى قبل أن تصعد السلالم المؤدية نحو الشقة الواقعة أعلى المرآب.

كان باب الشقة غير مقفل، وكان المكان فارغًا، فلم يتبقَ شيء يمكن نهبه. سيشعر محبو تخريب ممتلكات الآخرين بخيبة الأمل من حقيقة أن المنزلين سيهدمان قريبًا ولن يهتم أحد بالدمار الذي سيلحقوه بالمكان.

أشعلت المصباح اليدوي، وهي تحجب ضوءه جزئيًا بيدها، لكنها كانت واثقة أن الضوء الخافت لن يجذب انتباه أي شخص في الخارج. كانت الشقة

قد أخليت من الأثاث عند بيعها. وكان المشمع المرقط ذو اللونين الأزرق والرمادي – الباهت بفعل الطين – والمغطى بقصاصات ورق وبضعة خنافس ميتة قد تشقق في عدة أماكن وانفصل عن الأرضية.

وقفت بيبي حيث كانت تقف في صبيحة اليوم الذي عثرت فيه على القائد ميتًا، حين كانت في العاشرة من العمر. كان يتناول الإفطار عندما حدث الأمر، وقد استقرّ وعاء من السيريال وطبق خبز محمص على الطاولة أمامه، وكانت صحيفته مفتوحة على صفحات مقالات الرأي. لا بدّ أنه نهض واقفًا قبل أن يسقط ويصدم رأسه في حافة الطاولة. كان يتمدد على جانبه الأيسر، وقد انفجرت الدماء من أنفه أو فمه أو كلاهما، فضلاً عن أن الدماء لوّنت عينيه أيضًا، ولمعت رموشه بدموع وردية.

كانت قد ظنت أن أحدهم قد قتله. ومع ذلك، فلم تهرب في هلع. لقد كانت محطمة للغاية حتى تقوى على الخوف، ولم يكن لديها مكان سوى للحزن. قالت بصوت عالٍ «جدّي، لا، لا! ما زلتُ أحتاج إليك يا جدّي».

كانت هذه هي المرة الوحيدة التي تناديه فيها بجدّي. فطوال الأسابيع الأولى من انتقاله للعيش أعلى المرآب، لم تكن تعرف أنه والد أمها. كان دومًا هو القائد بالنسبة إلى بيبي. وكان يفضّل الأمر هكذا أيضًا، لأنه شعر أن والدة بيبي ستنزعج من سماع كلمة جدّي طوال الوقت. لم تناديه نانسي بأبي؛ إذ أنه بالنسبة إليها، كان غانثر، وهو اسمه الأول. قال إن لنانسي الحق في ذلك، لأنه لم يكن قط أبًا صالحًا حتى يستحق لقب أبي. ولكن بقدرما كانت بيبي تهتم، فقد أصبح الجد المثالي.

لم تكن نانسي تعادي القائد، وإنما كانت هناك فجوة لا يمكن سدّها، وحزن عميق لم يعرف كلاهما كيف يُمحى. كانت هناك لحظات من الود المتبادل يمكنها أن تمنح المرء لمحة حول الكيفية التي يمكن أن تكون عليها الأمور بينهما.

أعلن الطبيب الشرعي أن سبب الوفاة هو تمدد في الأوعية الدموية – من

نوع نادر – انفجر بقوة. ولم يكن القائد على علم من أنه يعاني من ذلك. وكان قد نزف سريعًا، ولم يكن هناك أمل.

انتحبت نانسي وقد تفاجأت من شدة حزنها.

كانت الأسابيع التي تلت وفاة القائد صعبة عليهم جميعًا، لا سيما بيبي. وعندما جاء إليها كلب الصيد الذهبي تحت المطر – صديق عندما كانت في أمسّ الحاجة إلى واحد – سمته أولاف، لأن هذا كان اسم القائد الأوسط. كان اسمه غانثر أولاف إريكسون، عنصر متقاعد من مشاة البحرية الأميركية.

كانت قد حذرت الكلب بالابتعاد عن الشقة لأن الشر يقبع هناك. بيد أنه لم يسكن شيء شرير تلك الغرف عندما كان القائد يعيش فيها. لقد كان مكانًا مريحًا بسببه. ولم يطل الشر برأسه إلا بعد أسابيع من موته.

الآن – بعد اثنتا عشرة سنة من تلك الأيام التعيسة – ها قد عادت لتعرف إذا كان الشر ما يزال قابعًا، أو إذا لم يكن الشر بنفسه، فربما شيء قد يساعدها على تذكر ما جرى في العليّة. ومثلما كانت قد دوّنت في مفكرتها الصغيرة، كانت هذه الحادثة إحدى الذكريات الثلاث المنسية التي كانت بشكل ما تشكل جذور أزمتها الحالية.

سموا ذلك علاجًا بالصدمة.

أو ربما تصرف يائس.

لم تكن قد جلبت ولاعة البوتان. فأثناء مشيها من النُزل إلى السيارة، كانت قد ألقتها في مكب نفايات عام. ولم تشترِ ولاعة أخرى في مجمع التسوق. إذا حققت تقدمًا ما – مثل استعادة ذكرى هامة – فلن تتمكن بسهولة من استخدام حيلة الذاكرة الخاصة بالقائد وتمسح المعرفة الجديدة قبل أن تستفيد منها.

بينما كانت تتبع ضوء المصباح، انتقلت من المطبخ إلى داخل غرفة المعيشة، وكان الظلام يغمر الشقة خلفها وعلى جانبيها، لكنه تبدد أمامها فقط حيثما سلطت الضوء الأبيض لمصباح اليد.

اشـتمت رائحـة كريهـة في المطبـخ، لكنها لـم تكن قوية. وعندما وصلت إلـى غرفـة النـوم، اشـتدت الرائحة. كانـت رائحة نتنة نمت خـلال عامين من الهجر. غطى العفن الجدران، وتناثرت فضلات الفئران في الأنحاء.

فـي دولاب غرفـة النوم، أمسـكت حبل السـحب المتدلي بيدها وأنزلت السلّم القابل للطي.

-83-

ما أكثر ما تحتاجين إليه؟

لم تشعل بيبي مصابيح العلية؛ إذ أنه على الأرجح كان قد قُطعت الكهرباء استعدادًا لعملية الهدم. وحتلا لو كانت الكهرباء متاحة، فلم تفضل الصعود في وهج مصابيح الإضاءة الممتدة من الركن إلى الركن التي كانت تعشقها قبل اثنتا عشرة سنة. وكانت قد شعرت بالخوف في المغامرة السابقة، لكنها كانت مدفوعة أيضًا بتوقع مشؤوم، وقد أرادت أن تستعيد أكبر قدر من مزيج الأحاسيس هذا قدر المستطاع، بما يساعدها على تنشيط ذاكرتها. بوصفها بالغة، لم تكن تفزع بسهولة مثلما كانت في الماضي. ولعل قدرًا أكبر من الظلام يحفز مشاعر الخوف.

عندما وصلت إلى أعلم السلّم ودخلت إلى العلية، أضفى ضوء المصباح لونًا فضيًا على الضباب الذي ينفذ عبر إحدى فتحات التهوية الواقعة أسفل الطنف بالضبط، وقد ظهر الضباب كتلة تتموج ببطء - وكأنه ينبض - مثل الإكتوبلازم القادم من عالم آخر خلال جلسة تحضير للأرواح. تذكرت أصابع الضباب الطويلة التي نفذت عبر نفس الفتحة في صباح يوم الأحد ذاك قبل اثنتا عشرة سنة.

كان الرواق الأوسط المحاط بالأرفف على حاله، بيد أن كل شيء كان مخزنًا هناك ذات يوم أزيل منذ مدة طويلة. وكانت الأرفف مدعومة بألواح من الماسونايت، مما منع بيبي من رؤية ما يوجد في الأروقة الجانبية حتى وصلت أمام كل رواق.

في يوم الأحد ذاك، ربما كان هناك حضور ما في الرواق قبل الأخير على

يسارها، مع أن بيبي لم تتوقع مواجهته الآن. كانت تأمل فقط – بوقوفها حيثما وقفت حينئذٍ – أن تدخل نفسها في حالة عقلية مشابهة، بما قد يجعلها تتذكر شيئًا ذا فائدة صمد أمام نيران حيلة القائد.

بدد ضوء المصباح اليدوي الظلام على الجهة اليسرى، فلم يكن ثمة شيء يختبئ هناك. ثم تفقدت الرواق على يمينها، فوجدته مهجورًا مثل سابقه.

كان ثمة زوج أخير من الأروقة الجانبية التي لم تتفقدها، لكن المنطق يقول إنه يتعين عليها البقاء في نفس البقعة التي وقفت فيها في المرة السابقة. ولت وجهها يسارًا في محاولة لاستدعاء أيًا كان ما انتقل من الظلام إلى النور.

أطرقت السمع للضجيج الكامن في البناء القديم، فكان هناك الكثير منه، واستنشقت رائحة العفن وروث القوارض، فارتعدت ليس بفعل الخوف وإنما بسبب برودة المساء، ثم انتظرت في صمت.

على الرغم من شعورها بعدم الارتياح، وربما حتى بالقلق، إلا أنها من تكن خائفة مثلما كانت وهي صبية. وقد شككت في قدرتها على استعادة تلك الحالة المتوترى إلى مدى كافٍ في البيئة الحالية. لذا أطفأت مصباح اليد، لتسقط العلية في ظلام دامس.

هكذا أفضل.

اشتدت حدة التوتر، وبدا أن الضجيج الكامن يزداد وبكل تأكيد أصبح أكثر حميمية عما كان عليه من قبل. ولعل تحريك المواد الجامدة ليس السبب في حدوث بعض هذا الضجيج، وإنما الفئران أو الجرذان أو طيور الليل الصامتة التي تبيت ليلتها على العوارض الخشبية. بدون أن تبصر، كانت أكثر حرصًا على الشم. لم تصبح الروائح أفضل، لكنها باتت أقوى قليلاً. اعتقدت أنها سمعت أحدًا يتنفس على مقربة منها؛ تنفس سريع ومتقطع، لكنها عندما كتمت أنفاسها، أدركت أنها كانت تصغي إلى نفسها.

أتتها الذكرى بدون وميض أو دوار، ولا أبواق وحي، وإنما صوتان فقط؛ صوتها وهي طفلة وصوت القائد. كانت المحادثة التي تذكرتها قد قبل وقت

طويـل مـن موتـه، وليـس هنا في العلية، ولكن فـي مكان ما في الخارج حيث تلونت الأطراف السوداء لإحدى الأشجار بلون النيران دون أن تشتعل.

قال القائد «تبًا لذلك»

«أجل»

«آسف يا بيبي، أسأت اختيار الكلمات»

«لا بأس»

فقال الكابتن «أعني، انظري إليّ. ما زلت أرتعد»

«وأنا أيضًا»

«يا إلهي، لقد احتفظتِ بهذا لنفسك لمدة طويلة للغاية»

«لقرابة ثمانية أشهر. تعين عليّ إبقاؤه لنفسي. حتى عرفت»

«لكنني هنا منذ ستة أشهر»

«كان عليّ أن أتأكد أنه لا بأس من إخبارك»

«سحقًا! آسف يا بيبي. ولكن سحقًا! هذا جنون»

«أنا لست مجنونة»

«كلا بالطبع أنتِ لستِ كذلك يا عزيزتي. أنتِ أبعد ما يكون عن الجنون. ليس هذا ما أقصده»

كانا يجلسـان على كرسـيين في الشـرفة الصغيرة خارج شـقته. كان لون الشـمس برتقاليًا، ولكن ما تزال على مسـافة سـاعة من البحر، وكانت أشـعتها تتسـلل عبـر فروع الشـجر العتيق المـزروع في الفناء الأمامـي ويغطي المنزل الصغير، فكانت الأشعة الحارقة والظلال الكثيفة تسقط على الفناء.

قال القائد «قررتِ منذ البداية إذًا أنه لا يمكنك إخبار والديك»

«أبدًا وعلى الإطلاق»

«لماذا؟»

فقالت بيبي «لا أدري السـبب حقًا. كل ما أعرفه هو أنه لا يمكنني ذلك بسبب...طريقتهم. أجل هم لطيفان حقًا وذكيان للغاية...»

وافقها القائد قائلاً «إنهما صالحان»

«وأنا أحبهما كثيرًا»

«يجدر بك أن تحبيهما يا فتاة. إنهما جديران بذلك»

«أجل يا سيدي. أعرف ذلك»

«ولا تتوقفي عن حبهما قط»

«كلا يا سيدي، لن أفعل ذلك»

«لقد جلباكِ إلى الحياة لأنهما يريدانكِ. وبلا شك هما يحبانكِ كثيرًا»

فقالت بيبي «ولكن إن عرفا، سيسيئان فهم الأمر كلية»

«أي أحد تقريبًا سيسيء فهمه، وليس هما فحسب»

«لن يتعمدا ذلك»

كلا، لن يتعمدا ذلك»

«ولكن إذا أساؤوا فهم الأمر، ماذا سيحل بي؟ ماذا سيحل بهما وبي وبكل شيء؟»

«هذا شيء يجب القلق بشأنه، حسنًا» ثم رفع يديه وحدق فيهما، فكانتا ما تزال تهتزان. نظر إلى بيبي وقال «كم عمركِ حقًا؟»

«مثل الأمس. ست سنوات ونصف»

«أنتِ تراوغين»

«أنت تفهم ما أقصد بشأن طريقة أبي وأمي؟»

صمت القائد، لكنه كان يفكر بتمعن وسرعة شديدين لدرجة أن بيبي قد تتفاجأ إذا ما سمعت صوت عقله. بعد ذلك، قال «أجل، أفهم ما تقصدين. لكنني لستُ واثقًا من قدرتي على التعبير عن الأمر بالكلمات أفضل منكِ»

«فهل من الخطأ عدم إخبارهما إذًا؟»

«لا أصدق أنكِ أبقيتِ الأمر لنفسك لقرابة ثمانية أشهر منذ وقوعه. وأنتِ تكتمين خوفكِ»

«ولكن هل من الخطأ عدم إخبارهما؟»

«كلا، لا يتعلق الأمر بالخطأ أو الصواب. وإنما ما هو أفضل لكِ... وللجميع»

تنقلت الشمس من غصن إلى آخر عبر الشجرة، فتبدلت ببطء الأشكال الفسيفسائية التي ترسمها أشعة الشمس والظلال على أرض الفناء.

قال الكابتن «أخبريني، ما أكثر ما تحتاجين إليه؟»

«ماذا تقصد؟»

«ما أكثر ما تحتاجين إليه في كل هذا؟»

«ليتَ أي من هذا لم يقع قط. لا أرغب في الخوف بشدة»

فقال القائد «إذاً، تريدين نسيان ما جرى، ولماذا وكيف جرى؟»

«ولكن لا يمكنني ذلك. لا يمكنني النسيان قط»

مدّ إحدى يديه الضخمتين، فوضعت يدها الصغيرة فيها، وجلسا هكذا لبعض الوقت، وهما يمسكان بيدي بعضهما البعض من كرسيٍ إلى الآخر، وكأنه كان يفكر في الوضع، ثم قال «ربما هناك طريقة للنسيان»

انتقلت بيبي من ذاكرة الماضي إلى الحاضر، ومن الضوء البرتقالي لشمس الغروب إلى ظلام العلية الدامس، وذلك عندما وضع شخص ما خلفها يدًا على كتفها الأيمن.

جفلت بيبي فزعًا، وأشعلت ضوء مصباح اليد ولكن سرعان ما تعثر في يدها وسقط أرضًا. تدحرج المصباح على الأرضية المصنوعة من ألواح الخشب، فنشر قوسًا من الضوء عبر الرواق الأوسط.

تراجعت مبتعدة عن اليد التي مست كتفها، ومالت لتأخذ المصباح، ثم نهضت ودارت حول نفسها كي تسلط الضوء على الأنحاء، فلم تجد أحدًا.

لم تكن قد استكشفت الرواقين الجانبين الأخيرين؛ أحدهما على الجهة اليمنى والآخر على اليسرى. إذا كان أحدهم قد وضع يدًا عليها، فلعله قد اختبأ في أحد الرواقين.

لم تكن الفتيات المقدامات ليهزمهن الخوف، وكن يدركن أنه لو فرّ

الجميع من مواجهة الشـر، فإن هذا العالم سـيصبح سـجنًا من أوله إلى آخره، وتحكمه الوحشية والبربرية من قبل أسوأ البشر، ولن يتبقى ركن للحرية. وكل تراجع وترضية يمثل خطوة إلى الأسفل على سلّم من الأرض إلى الجحيم.

سـحبت المسـدس. لم يكن من المناسـب قط إمسـاكه بيد واحدة، لكنها احتاجت يدها اليسرى لحمل المصباح. تقدمت إلى الأمام ثم استدارت يمينًا ويسـارًا. إذا كان شـخص ما قد لمسـها، فلم تجده في أي من الرواقين، ولم يكن هناك مكان آخر يمكنه اللجوء إليه.

-84-

أثناء انتظارها لتناول البوظة

مثل مجتمع الأشباح، رافقها الضباب وهي تنزل درجات السلّم وتعبر الفناء نحو المنزل الصغير. كانت قد جاءت لزيارة المكانين الذين يمكنها العثور فيهما على الذكريات التي فقدتها من صباها، وكان المكان الثاني هو غرفة النوم. ولأن المنزل كان قد أخلي من كل شيء ذا قيمة – من الأجهزة المستعملة إلى الأثاث العتيق – ولأن عملية الهدم ستحدث عما قريب، فلم يكن الباب الخلفي مقفلاً.

دخلت المنزل الذي كان دافئًا ومريحًا ذات يوم، والذي كان يضج بالنقاشات والقهقهة والموسيقى، حيث كان أبواها أحيانًا يدفعان جانبًا طاولة المطبخ للرقص في المنتصف، وحيث كان أولاف فتى العائلة المدلل لست سنوات. لم تكن تلك الذكريات قد مُحيت من ذاكرة بيبي، وقد توقعت – بعد غياب دام ثلاث سنوات – أن يباغتها الحنين عندما عبرت عتبة الباب، لرؤيتها عند كل ركن أفضل اللحظات من طفولتها ومراهقتها المنعمة.

ولكن بدلاً من ذلك، كان الهواء باردًا ورطبًا ومغمورًا برائحة الفطر. وقد كشف ضوء مصباح اليد عن قذارة وأضرار أينما ذهبت، فبهت لون السقف وانحنى بسبب تسرب في السطح، وكانت هناك ثقوب في الجص أدى لانكشاف العوارض الخشبية، وفأر ضخم بلا مقلتي أعين وفم صغير كشف عن أسنان مدببة، وعلب هامبورغر وصودا فارغة وأغلفة حلوى على الأرجح ألقاها العمال أثناء المرحلة الأولى من الهدم. لكن الأضرار والأنقاض لم تُحل ما هو مألوف إلى غريب. فبين ثنايا برودة الجو وكآبة الدمار تقبع برودة

أخـرى، وفـراغ متجمـد لـم تكن له علاقة بالحاجة إلـى أثاث أو غياب التدفئة المركزية، التي نتجت عن غياب التواجد البشري.

عندما وصلت بيبي إلى غرفتها، أدركت كما لم تفعل من قبل أن المنزل ليـس مكانًـا ماديًـا وإنما بقعة في القلب. وفي هذا العالم المضطرب، كان كل شيء متغيرًا باستثناء ما يمكننا حمله معنا في عقولنا وقلوبنا. وكل منزل سيفقد رونقه عاجلاً أم آجلاً، ولكن ليس عبر الهدم. كان المنزل يصمد أمام الدمار ما دام هناك شخص واحد يحبه ما زال يعيش فيه. فالمنزل هو قصة ما حدث في المكان، وليس قصة أين حدث.

فـي الغرفـة القاحلـة – حيـث بـات الجص متصدعًـا ومبثـورًا ومتدرجًا، وباتت الأرضية التي لمعت ذات يوم متشققة وباهتة – شعرت بيبي ببرد قارس. لم تتمكن من رسـم صورة لما أصبحت عليه الغرفة، إلا بفرشـاة ولوح ضوء مصبـاح اليـد غيـر الملائمين. كل المتعـة التي حصلت عليها من قراءة الكتب هنا، وسحر موسيقى محطات الروك أند رول التي أصغت لها في ساعة متأخرة مـن الليـل وهـي مفتونـة من الاختلافات في الثقافـات المحلية التي يعبر عنها أسلوب ونمط الدي جي لم تساعدها على استرجاع ذكرى الملجأ الذي كان يمثلـه هـذا المـكان. عوضًـا عن ذلك، فقـد وجدته الآن مكانًـا كئيبًا ووحيدًا، حيـث بـدأت تفقـد جزءًا من كينونتهـا، وحيث دفعها الخوف إلى تجنب تذكر أشياء ذات أهمية شديدة.

جاءت إلى هنا محملة بأمل أن ترى شيئًا يحرر الحقيقة المخفية لما جرى في هذه الغرفة قبل سبعة عشر عامًا. من كان الدخيل الذي أفزعها بزحفه في الضوء الخافت لمصباح ميكي ماوس، حتى وصل أخيرًا إلى فراشـها أسـفل الأغطية؟

بيد أن الذكرى التي استعادتها كانت لمحاورة أخرى مع القائد، وكانت قد حدثت في المطبخ، بعد يوم أو نحوه من مواجهتهما في الشرفة الواقعة أعلى الفناء. كان كل من ميرفي ونانسي قد خرجا مساءً لحضور إحدى الحفلات.

وقـد طهـى القائد لبيبي بنفســه وصفته المفضلـة؛ النقانق بالجبن مع البطاطس المقلية في الفرن التي كان يشتريها من قسم خاص في إحدى الأسواق عُرف عنهـا فقـط خدمة عناصر المارينز الحاليين والمتقاعدين. وعقب انتهائهما من تنـاول الطعـام عنـد طاولـة المطبخ – وبينما كانا ينتظـران حتى يتأكدان من أن هناك فراغًا في معدتهما يتسع لتناول البوظة – أثار القائد موضوع النسيان.

قـال القائـد «لقـد تعلمـت حيلـة من قبل هـذا الغجري فـي أوكرانيا، بعد انفصالها عن الاتحاد السوفييتي. أليس كذلك؟ دعيني أفكر قليلاً، فربما أكون قـد تعلمتهـا مـن ذاك العجـوز ذو المائـة عام في فيتنام. أيًـا يكن ومهما يكن، فهي حيلة جيدة اسـتخدمتها لنسـيان الأشـياء الفظيعة التي رأيتها ولم أسـتطع التعايش معها»

«أي أشياء؟»

«أشياء ترينها في الحرب ستدمر حياتك إذا لم تكفّي عن التفكير بشأنها»

«أخبرني إحداها»

«حتـى إذا كنـت لـم أطبـق الحيلة على نفسـي، وكان بوسـعي تذكر تلك الأشياء، لما أخبرتكِ»

«أجل، لكنني أخبرتك بما حدث لي. وأريتك كيف حدث وكل شيء»

«وليتكِ لم تفعلي يا صغيرتي»

بعد أن أكلا النقانق على ضوء ستة شموع في أطباق نذرية صغيرة، جلسا في الوهـج الراقـص الدافئ، فشـرب القائد علبة بيـرة ثانية وتظاهرت بيبي أن الكوكا كولا التي تشـربها مع شـريحة الليمون هي شـراب للبالغين سـيجعلها تثمل.

قالت «أحب الحيل. هناك ساحر يأتي إلى متجر أبي أحيانًا. وقد شاهدته وهو يجعل البطاقات تختفي بأم عيني»

«إن جعل الذكريات السـيئة تختفي أصعب ألف مرة. إنه سـحر حقيقي. أراهن أن ذلك الساحر أعاد البطاقات مجددًا...»

«أجل فعل. في طرفة عين!»

«ولكن يمجرد أن تحرقي الذكريات بحيلتي، لن تعود قط. هل ما زلتِ تظنين أن النسيان أفضل؟»

فقالت بيبي «أجل، أنا متأكدة من ذلك. لا أرغب في أن أكون خائفة طوال الوقت. ألست متأكدًا أيها القائد؟»

«أحيانًا...» سكت للحظات ثم قال «أحيانًا أبدأ في التفكير في حواف إحدى الحفر. إحدى حفر الذكريات. كنت أفكر في الحواف، في محاولة لجمع الخيوط المحترقة معًا. وأحاول ملء الحفرة، وأحيانًا يصيبني هوس لملئها. وأحيانًا أخرى أملؤها بأسوأ مما كان فيها أصلاً».

لم تعرف بيبي كيف ترد على ما قاله. وبدا القائد وكأنه يحدث نفسه، لذا ربما ليست في حاجة إلى قول أي شيء.

تحت أشعة الشمس أو في الظلال، كان للقائد هيئة مهيبة، تتسم بطول القامة والقوة، ويمتلئ شعره الأشيب ووجهه المجعد وعيناه بالحزن حتى وهو يضحك. وفي ضوء الشموع، بدا أكثر هيبة، وكأنه ممثل سينمائي، والرجل الذي تلجأ إليه حين يقع خطب ما، والشخص الذي يلجأ إليه البطل عندما يكون عند نهاية الحبل ويحتاج إلى من يرشده.

بعد التفكير في سؤالها وهو يحتسي ما تبقى من البيرة وبعد أن جلب علبة ثالثة من الثلاجة قال «أجل، أعتقد أن هذا أفضل، وليكن الله في عوني إن كنت مخطئًا. هل تعرفين ما هو التنويم المغناطيسي يا صغيرتي؟»

«بالطبع. يؤرجح الشخص ساعة مثل سلسلة أمام عينيك حتى تقرقر مثل الدجاجة»

«الأمر ليس للاستعراض؛ إذ يمكن استخدامه لوقف شخص ما عن تدخين السجائر أو للتغلب – لنقل مثلاً – على الخوف من الطيران، ولأغراض خيرية وعلاجية. وحتى تفلح حيلة الذاكرة، تعين علي المشعوذ أن ينومني مغناطيسيًا أولاً»

«لماذا؟»

«بينما كنت تحت التنويم المغناطيسي، قام بغرز اعتقاد راسخ في عقلي أن حيلة الذاكرة ستفلح. لاحقًا، لأنني آمنت بأنها ستفلح، فقد أفلحت. هل تفهمين ؟»

جعّدت وجهها وقالت «ربما لا»

«هذا هو جمال الأمر. ليس عليكِ أن تفهميه حتى يفلح»

«لعلي لا أفهم هذا أيضًا» رشفت بيبي من الكوكا كولا وهي تحاول منح القائد نفس النظرة الجادة التي يرمقها بها، حتى يدرك أنها لم تعد طفلة، وأنها فكرت في الأمر وترغب فيه لأسباب وجيهة، مع أنه لا يمكنها تخيل سبب واحد سيئ يجعلها ترغب في ذلك. أضافت «ساعدني أرجوك. يتعين عليك ذلك أيها القائد. ساعدني مثلما ساعدك ذاك المشعوذ الغجري»

صمت القائد لبعض الوقت. ظل صامتًا معظم الوقت في هذا المساء، ولم يكن على سجيته. تحاشى النظر إلى بيبي، وظل ينظر إلى علبة البيرة، والشموع، وإلى يده اليسرى وإلى الجدعتين حيث كان من المفترض أن يتواجد إصبعه الصغير وإصبع البنصر.

أخيرًا، أمسك بحامل إحدى الشموع. ومع أنه أمسكه من القاعدة السميكة، إلا أنه لا بد أنه ما يزال ساخنًا، لكنه بدا لا يكترث للسخونة. بعد ذلك، نظر إلى بيبي، وكان ثمة شيء في عينيه لم تتعرف عليه قط، لكنه أثار حزنًا عميقًا داخلها، ولم يتوقف الأمر عند حدود الحزن فقط، لكنه جعلها أيضًا تخشى على القائد.

أخبرها أن تنحّي كوب الكوكا كولا جانبًا وأن تضع يديها على حجرها، وراحتاها إلى الأعلى، وأن تسترخي. قال لها إن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنه ليس هناك داعٍ للقلق أو الخوف، وأنه سيصحح كل شيء. ولكن عليها أن تصغي إلى صوته – الذي بات أنعم وأخفض – وأن تراقب لهب الشمعة المتراقص في الكأس الزجاجي الأحمر بدون أن تحرك رأسها، وإنما تتبعه

فقط بعينيها وتصغي إلى صمته. بدأ يحرك الكأس ذهابًا وعودة أمام عينيها بحركات مقوسة بطيئة ومرنة مثل بندول الساعة...

عندما استعادت وعيها، لم تكن تدرك أنها سرحت بعيدًا. لكنها كانت تظن أن شيئًا ما قد حدث، إلا أنه قال إن مرحلة التنويم المغناطيسي قد انتهت. الآن باتا جاهزين لتنفيذ حيلة الذاكرة. أمدّها ببطاقة وقلم حبر، وحددا معًا الكلمات التي ستدونها. لم يتعين عليها فقط نسيان ما كان يزحف في غرفتها في تلك الليلة قبل ثمانية أشهر، وإنما أيضًا كيف ولماذا تواجد هناك. وعندما اكتملت القائمة ولم يتركا أي نهايات مفتوحة قد تتكشف فجأة، أخذ القائد زوجًا من الملاقط من درج في المطبخ وأعطاها إياه من أجل عملية الحرق.

اقتنعت أن حيلة الذاكرة ستنجح، وأنها سحر من أرقى طراز وأنها ستعيد مياه حياتها إلى مجاريها الطبيعية، وأن الذكريات المخيفة ستختفي مثل مجموعة البطاقات الخاصة بالساحر إلى غير رجعة.

أمسكت البطاقة بالملقط.

ومن كرسيه الواقع عبر الطاولة، التقط القائد إحدى كؤوس الشموع وأمسكه لها.

كان اللهب المتراقص مرتفعًا بموازاة حافة الكأس.

أدارت بيبي زوج الملاقط حتى يلمس ركن البطاقة نحو الكأس، فالتصقت البطاقة باللهب واشتعلت.

بدا الشيء المحترق مثل الشرنقة بين فكي الملقط، ومن بين اللهب ستنهض فراشة جميلة تمد جناحيها عبر البطاقة البيضاء، التي تتحول إلى رماد. ويبدو أن الفراشة على وشك أن تطير في الهواء، وتنفض عن نفسها بقايا غرفة البعث البيضاء التي نسجتها يرقتها لها وتحلّق في رحلة مضيئة، لكنها بدلاً من ذلك تسقط في اللهب.

أخبر القائد بيبي بفتح الملقط، حتى تحترق بقايا البطاقة المحشورة بين فكيه.

امتثلت بيبي لطلبه، فسقطت البطاقة المحترقة على السطح الخشبي لطاولة الأكل، وهي نفس الطاولة المطلية بالكروم الرائعة التي ستكون يومًا ما في شقتها الأولى، وهي أيضًا نفس الطاولة التي ستشكل عليها الحروف الخشبية اسم آشلي بيل بعدها بسنوات.

كان آخر جزء من البطاقة المحترقة يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكن ما لبث أن تحول إلى رماد في غضون ثوانٍ.

أزاح القائد الرماد عن الطاولة، وحمله بين يديه إلى صندوق القمامة ونفخه إلى داخله.

وعندما عاد، وقف يراقب حفيدته الصغيرة للحظات قبل أن يسألها «ما الذي تخافين منه يا بيبي ؟»

«أخاف منه؟ لا أدري. هناك هذا الكلب العجوز على بعد شارعين من هنا، وهو غير ودود. وبكل تأكيد أكره الدبابير»

«هل حدث من قبل أن كنت وحيدة في الليل في غرفتك وشعرتِ بالخوف من أن هناك شيئًا ما معكِ هناك؟»

قطّبت حاجبيها وقالت «كيف لشيء أن يكون معي وأنا وحيدة؟»

بدلاً من أن يجيبها، قال «أعتقد أن المصباح الليلي يشعركِ بالأمان»

«مصباح ميكي ماوس الغبي» قالتها وارتسم على وجهها تعبير لا يمكن لأحد إلا أن يرى أنه سخط. وأضافت «لم أعد طفلة. ولا يجدر بهم معاملتي على أنني طفلة، فلم أعد كذلك، ولن أعود كذلك قط. هكذا تسير الأمور»

«ألم تشعري بالامتنان ولو لمرة واحدة لوجود مصباح ميكي هناك؟»

«كلا. أرغب في تحطيمه – تعرف – دون قصد، إذا لم يكن ذلك خطأ. لعلي سأفعل ذلك على أي حال». لاحظت الملقط وهو ما يزال في يدها اليمنى، وشمت رائحة الهواء، فاتسعت عيناها. قالت «لقد فعلناها للتو، أليس كذلك ؟»

«فعلنا ماذا؟»

«حيلة الذاكرة الخاصة بالمشعوذ الغجري»

«أجل فعلناها. كيف تشعرين؟»

«أنا بخير، وأشعر بشكل جيد. عجيب، كان هذا مذهلاً، صحيح؟»

«هل لديكِ أي فكرة عن ماهية الذكريات التي أحرقتيها؟»

حاولت أن تفكر، لكنها هزّت رأسها بعد ذلك وقالت «لا شيء. أعتقد أنني لا أحتاج إليها. ما الذي نسيته؟»

عند الثلاجة، قام بفتح المجمد وقال «هل أنتِ جاهزة لتناول البوظة؟»

كانت الذكرى واضحة للغاية لدرجة أنها عندما تتبدد وتغادر عقل بيبي مجددًا في منزل يستعد للهدم، يمكنها للحظات شم رائحة البطاقة المحترقة.

طوال ستة عشر عامًا، لم تكن قد تذكرت الحادث الذي وقع في غرفتها ولم تحلم به، حتى الليلة الماضية، حين غطت في النوم على الكرسي في مكتب أبيها الواقع أعلى متجره. كان هيكل النسيان يتداعى أخيرًا، ولكن ليس بالسرعة الكافية. وما تزال عاجزة عن تذكر طبيعة الشيء الذي زحف في هذه الغرفة، ولا كيف ولماذا ظهر، وإنما تذكرت أن الحادث قد وقع.

وعلى الرغم من انخفاض قدرته الكهربائية، كان الوهج المنبعث من مصباح ميكي ماوس ألمع ولكن أضيق نطاقًا عن ضوء مصباح اليد، الذي كشف القليل من الغرفة عما كان يكشفه الحارس الصغير. وبينما كانت بيبي تتنقل هنا وهناك، أدركت أنها حصلت على أقصى ما تستطيع – وأقل مما أملت – من هذا الاقتحام.

فكرت في شيء كانت قد عرفته بشأن القائد خلال نقاش مع والدتها بعد شهر من موته. الحرب النفسية، وأساليب مقاومة الاستجواب...

كانت نانسي قد ابتعدت عن والدها لأسباب وجيهة وأخرى تافهة. وخلال السنوات الأربع ونيف التي قضاها في الشقة أعلى المرآب، جُسرت الهوة بينهما؛ فقد شُفيت الجروح التي سببها والد نانسي الحقيقي، وأدركت أن تلك الجروح كانت في مخيلتها فقط. وبعد موته، أصيبت بحزن شديد،

وخلال الأسابيع التي تلت دفنه، تحدثت عنه مدة أطول وبشكل أعمق عما فعلته قط.

كان قد ظل جنديًا في الميدان وضابطًا إلى ما بعد مرور السن الذي يحتاج فيه الرجال الآخرون إلى التحول إلى وظيفة مكتبية؛ فوظيفة مدرب للمجندين لم تكن تلبي طموحاته. وطوال العقد الأخير من حياته المهنية، أصبح ضابط استخبارات، فكان يشرف جزئيًا على جمع وتحليل المعلومات الخاصة بأعداء أمريكا، لكنه التزم بشكل رئيسي بتطوير الدفاعات ضد الحرب النفسية ووضع أساليب لمقاومة الاستجواب التي يمكن للجنود - عندما يقعون أسرى - استخدامها لتجنب كشف معلومات حساسة إلى العدو.

لم يبدُ أن لهذه الذكرى أي أهمية عندما كانت بيبي في العاشرة من العمر وسمعتها للمرة الأولى من والدتها. ومن بين آلاف من الأشياء الهامة والتافهة، أخبرتها نانسي بشأن جدّها، وكان لهذا أقل أهمية. لكنها أدركت الآن أن إحدى وسائل مقاومة الاستجواب هي القيام بحيلة الذاكرة، فهي وسيلة لنسيان تلك الحقائق التي قد يحتاج العدو إلى معرفتها.

وبكل تأكيد لا بد أن الحضور الآخر في المنزل الخالي قد أصدر القليل من الضجة وهي يتقدم نحوها. ولا بد أنهاا كانت غارقة في الذكريات حتى تميز الأصوات الواشية لمتلصص ما عن أزيز أرضية منزل قديم على وشك أن يُهدم.

كان مصباح اليد الذي تحمله بمنزلة منارة جعلت منها هدفًا سهلاً، وكشفت عن مهاجمها في اللحظة الأخيرة، عندما تخلى عن التخفي فجأة واندفع صوبها من المدخل.

-85-

مكتبة بابل

في اللحظة التي سبقت التصادم، تراقص الضوء الأبيض البارد لمصباح اليـد علـى وجهـه الغامـض. كان وجهـه عريضًـا وجامـدًا، وذا ذقن مشـقوقة وحاجبين كثيفين، وملامح مألوفة للضحايا منذ الأزل، إذ كانت تشـاهد على اللصوص والمجرمين، وأولئك الذين اسـتخدموا التعذيب بالحديد السـاخن والأسـياخ الحـادة، والشـانقين وقاطعـي الـرؤوس، وأولئك الذيـن برعوا في استخدام الهراوات في معسكرات الاعتقال.

هجم عليها بقوة ساحقة وبتهور شديد لدرجة أنها ظنت أن شيئًا ما داخلها قد انكسـر عند التلامس الأول. وعندما اصطدم بها، أحاطها بذراعيه ورفعها بعزم شـديد وقذفها بعنف على الجدار. سـرى الألم إلى أسـفل في عمودها الفقري وعبر فخذيها وحول أضلعها، ثم صعد عمودها الفقري مجددًا وانتقل إلى كتفيها ثم ذراعيها، فانفجرت أنفاسها بعنف عجزت معه عن الاستنشاق.

وقد طار المصباح من يدها وبات الآن عند ركن بعيد في الغرفة، ليسلط ضوءه على زاوية الالتقاء بين جدارين. كان الضوء المرتد ضعيفًا للغاية حتى تتمكن بيبي من تبيّن تفاصيل الوجه الماثل أمامها بالضبط، لكنها تمكنت فقط من تبيان هيئة الجمجمة، فبدت مثل رأس مينوتور مجنون وبلا قرنين في أحد الكوابيس. ولم تكن هذه اللحظة الفظيعة إلا مقدمة لما هو أسوأ.

عندمـا فغـرت فمهـا في صدمة ومحاولـة للتنفس، أطبق بفمه على فمها، وأدخل لسـانه بين شـفتيها في محاكاة فاشـلة للتقبيل، وكانت أنفاسـه سـاخنة ولعابه مثل الرغوة. أرادت أن تعض لسـانها بشـدة وتقطعه، لكنها لـم تتمكن

من التنفس أو تحريك فكيها، إذ أن التصادم أصابها بالشلل. ولأنها كانت مثبتة وعاجزة عن تحريك ذراعيها، فلم تتمكن من الوصول إلى المسدس المعلّق على كتفها. وبينما كان جاثمًا فوقها، أدرك المهاجم أنها تحمل سلاحًا، فابتعد عنها بما يكفي لإدخال يد أسفل سترتها، وانتزع المسدس من الغمد وقذفه عبر الغرفة. وقد أخرج قميصها من السروال، وأدخل يديه أسفله وضغط على ثدييها – بعد أن بدأت تتنفس أخيرًا – ونفث أنفاسه في فمها التي علقت بها رائحة البصل واللحم المقدد.

عندما بدأت تتنفس، تمكنت من التحكم في عضلاتها وتملكها تصميم شديد. رفعت قدمها اليسرى لتثبيت أخمص القدم الكعب بشكل مستوٍ على الأرضية البالية، فشعرت بشد في عضلات الساق والفخذ. وعلى الرغم من كونها محاصرة بين أحد الجدران والوحش، بيد أنها تمكنت من ركله بركبتها بين ساقيه. لم تكن الركلة قوية مثلما أملت، لكنها جعلته يتأوه ويتراجع بما يسمح لها بدفعه قليلاً والابتعاد عنه.

أرجح إحدى يديه وضربها بعنف على رأسها، فتسببت الضربة في ارتجاج جمجمتها. ومع أنها لم تفقد الوعي، إلا أن حلقات سوداء ظهرت أمام عينيها وحولت الغرفة إلى دوامة، فترنحت وتعثرت وسقطت على إحدى ركبتيها. ثم ركلها من الخلف، فانبطحت ووجهها إلى الأسفل وهي تشعر بالفزع والخزي من عجزها عند مواجهة شخص متوحش وهمجي. ارتمى على ركبتيه وقلبها بعنف على ظهرها، وقذف يديها المرتخيتين جانبًا ثم أطبق على حنجرتها بقوة تكفي فقط حتى تدرك أنه بوسعه خنقها حتى الموت بيد واحدة إن شاء ذلك.

كان بوسعها رؤية وجهه ثانية، الذي كان مظلمًا ولكن واضحًا بما يكفي لكشف نيته الشيطانية الدنيئة، والرغبة المنحرفة الشديدة البادية بشدة في عينيه الخضراوين.

بقدرما كان ضخمًا وشديد القوة وعريض الوجه كالثور، فقد بدا في نفس الوقت مثل الزواحف، فكان ينفث من مسامه الرائحة السامة للسم الذي

وُضعت دماغه فيه. بينما كان يقبض على حنجرتها بإحكام، ووجهه قمر باهت من الجنون يطفو فوقها، قال «يمكنني اغتصابكِ ثم قتلكِ، أو قتلكِ أولاً. ولكن إن جعلتيني أقتلك أولاً ولم أتمكن من الاستمتاع باغتصابكِ حية، فمن ثمّ سأقتلكِ ببطء شديد وبشاعة، وستحسبين أن الأمر سيستمر أمد الدهر». وعندما قامت بسبّه، سحب قبضته اليسرى - وكأنها مطرقة ضخمة - ولكم وجهها ثم قال «هل تريدين قول ذلك مجددًا أيتها الساقطة؟». كانت لكمة واحدة كفيلة بتحطيم أنفها ومحيط إحدى عينيها، وقد تؤدي لكمة ثانية إلى شق شفتيها وتكسير أسنانها وشرخ فكيها، وحينها لن يتمكن أي جراح في العالم من إعادة وجهها إلى ما كان عليه، على فرض أنها قد نجت. بالنسبة إلى هذا المتوحش، كان الجنس والعنف رغبة واحدة ومتطابقة، وأي منهما ستكون مرضية كالأخرى. وعندما ترددت، سحب القبضة إلى الخلف أكثر وضغط بقوة على حنجرتها الضعيفة بأصابع يده اليمنى الحديدية، ثم كرر سؤاله «هل تريدين قول هذا مجددًا؟ هل تريدين أن تسبيني أيتها العاهرة الحمقاء؟» فقالت بصعوبة «كلا». سألها إن كانت ستختار القتل السريع أم البطيء، فقالت «السريع»، مما يعني أنها ستتحمل الاغتصاب في مقابل الحد الأدنى من الرحمة الذي يمكنه أن يعاملها به. قال «لقد وضع تيريزن حراسًا على الأماكن التي يحتمل أن تذهبي إليها، فكنتُ صاحب الحظ السعيد. إنه لا يريدكِ سوى جثة هامدة. لكنني سأستمتع أولاً، مثلما سيحتفل هو بعيد ميلاده مع تلك العاهرة الصغيرة».

أفلت حنجرتها لكنه صفعها بقوة بظهر يده تأكيدًا منه على سيطرته، وحتى يطفئ أي آثار للتمرد باقية لديها، ويتركها في ذهول لأطول مدة ممكنة حتى يغتصبها. بينما كان يضع ركبة على كلا جانبي بيبي - ولم يكن قد جثم فوقها بعد - فك وثاق حزامه بينما نظرت إليه وهي تتظاهر بالضعف والاستسلام. عندما ضمت ذراعيها على ثدييها، ضحك على سلوك الحياء هذا، وكانت ضحكته صوتًا رطبًا منخفضًا ذكرها بلسانه حين كان في فمها، مما أصابها

بالغثيان. وبينما كان مشغولاً بفتح سحاب سرواله – وهو متحمس لكشف عورته – لم يلحظ أن يدها اليمنى كانت تحت سترتها، ولم يدرك أنها كانت تفتش جيبًا داخليًا. استقرت مدية الدكتورة سانت كرويكس بسلاسة وثبات في يد بيبي، وكان زر فتحها أسفل إبهامها. سحبت المدية من أسفل الستر، فباتت المدية – التي يبلغ طولها سبع بوصات وهي حادة للغاية ومدببة مثل السيف – جاهزة للاستخدام.

عندما تدلى بنطاله إلى أسفل فخذيه، نزعت يده اليسرى سرواله الداخلي، بينما كانت يده اليمنى داخل السروال بالفعل تداعب ما يتمنى أن يطلق له العنان. اتسعت عيناه – التي كانت ممتلئة برغبة مجنونة – فقط بعدما غرست يدها المدية. لم يرَ المدية الحادة إلا قبل ثانية من شعوره بها. وقد شُج قميصه مثل الورقة، وأثبت لحمه أنه هش مثل الزبدة. انغرزت المدية حتى المقبض، فوضع يده اليسرى على يديها، في محاولة على ما يبدو لاستخراج المدية بطريقة تحد من الأضرار، لكن بيبي أدارتها قبل أن تخرجها، فقطعت الجرح الأصلي بالعرض. غرزتها ثانية متجاوزة استيعابه ويده العاجزة، ثم أخرجتها. نهضت بصعوبة ودفعته، فلم يسقط فوقها وإنما عن يمينها، واندفعت بعيدًا عنه.

في غمرة الأمر، وتحت الضغط وهي تبدو عاجزة، ظلت بيبي هادئة، وقد فعلت ما احتاجت إلى فعله وبأقصى استطاعتها. لكن الهلع امتطاها الآن وجلدها، ودار عقلها في عدة اتجاهات في نفس الوقت لدرجة أنه ربما ينتهي بها المطاف ميتة في غرفتها القديمة.

كان بوسعه حمل سلاح، لكنه ظن أنه لا يحتاج إليه. كان فخره بقوته العظيمة وفرحه بالتفوق الكاسح بدنيًا عليها قد جعله معرضًا للخطر، ويا لها من مفارقة. لكن المسدس سيكون أسفل معطفه...هل كان يرتدي معطفًا؟ أو ربما كان يعلقه على كاحله. والآن هو يبحث عنه بلا ريب.

استعادت بيبي مصباح اليد، وتفقدت الأرضية به، فرأت المسدس. كان

عند الطرف الأقصى من الغرفة، وبالقرب من باب الخزانة. وستُضطر للدوران حول المغتصب المحتمل لاستعادته.

كافح حتى يجلس معتدلاً بجثته الضخمة، وعنقه سميكة للغاية وناتئة إلى الحد الذي يجعلها تصمد على المشنقة. لم يكن يرتدي معطفًا في هذه الأمسية الباردة، أو لعله قد تركه في غرفة أخرى قبل أن ينقضّ عليها. كان يرتدي بنطالاً من الجينز وقميصًا قصير الكمين مخضبًا بالدماء. ويمتلك ذراعين قضيا آلاف الساعات في صالة الألعاب الرياضية.

بسرعة ولكن بحذر، وبينما كانت تعرج وترتجف من الألم بسبب الضرب المبرح الذي تلقته، دارت بيبي حوله، واستعادت المسدس وهي عاجزة عن التعبير عن امتنانها لباكس لأنه أصرّ على أن تقتنيه وتتعلم كيفية استخدامه.

كان البربري يجلس معتدلاً الآن، ويحاول مد يده إلى ظهره أسفل قميصه، وهو بلا شك يبحث عن سلاح مخفي أسفل ظهره. استنزف جهده أحشاءه الممزقة، وقد كافح حتى يكتم صرخة الألم في كل مرة يكتشف أنه عاجز عن لف خصره ولو قليلاً حتى للوصول إلى المسدس. وقد تلألأ وجهه بالعرق، ولمعت عيناه بالغيظ.

أرادت بيبي الرحيل عن هناك، ولكن تعين عليها إكمال المهمة إلى نهايتها. وضعت مصباح اليد أرضًا، وصوبت السلاح نحو الوغد، ووقفت فوقه ولكن بعيدًا عن متناوله. وعلى الرغم من إمساكها المسدس بكلتا اليدين، إلا أنه تراقص في يدها، وكأن له غرضًا خاصًا به. وحتى وهو يعاني، لاحظ البربري السلاح المرتعش، وقد أدركت بيبي أنه لاحظ ذلك. أي إشارة على الضعف ستستدعي العنف، لذا هدأت نفسها. قالت «قم بحركة خاطئة، وسأرديك قتيلاً».

بدا أنه قد تخلى عن فكرة سحب المسدس المعلق على ظهره. واختفى الغيظ والغضب والألم من وجهه. وقد جلس هناك مثل رضيع ضخم ساقاه

متباعدتان وراحتا يديه على حجره، وكأنه كان يشعر أن سوء سلوكه هو ما أنتج هذه العواقب.

لم ينظر إليها عندما تحدث، ولم تكن هناك مشاعر قوية في صوته. قال «لن تخرجي من هذا حية قط».

لو أن بيبي أرادت أن ترد عليه، فإن الدماء المتدفقة من فمه أشارت إلى أنه لا فائدة من الجدال أو الاستجواب.

«هذا أشبه بمكتبة بابل» قال وقد بصق دمًا مع الكلمات المنطوقة. وأضاف «ثمة عدد لا نهائي من الغرف. ولا سبيل للخروج»

سقط على ظهره من وضعية الجلوس، فارتطمت رأسه بالأرض. لكنه لم يشعر بشيء؛ إذ كان ميتًا واختفى الذهول من محياه، ولم يحل محله شيء آخر.

-86-

من أجل كسر عزيمتها

أرادت بيبي مغادرة المنزل الصغير، ولكن ليس بنفس رغبة الهروب الملحة التي تملكتها قبل لحظات.

أولاً – وبسبب رغبة شديدة في فعل ذلك – فتشت جيوب الرجل الميت فلم تعثر على شيء. قلبته على جانبه بنية استخراج محفظته، لكنه لم يكن يحمل واحدة.

جلست على الأرض وظهرها يستند على الجدار. كانت تتذوق طعم الدماء كلما لعقت الركن المتورم من فمها، وقد اختارت ألا تحصر عدد الأماكن التي تشعر بآلام فيها. كانت تنتظر حتى تهدأ، وليس مجرد أن تشعر بالهدوء وإنما حتى يتملكها إحساس أنها قد استعادت عافيتها بشكل كامل.

لم يكن يتعين على بيبي أن تشعر بالقنوط أو الأسى لأنها قتلت شخصًا دفاعًا عن نفسها، ولم تكن تشعر كذلك في الواقع. لم يكن القتل مثل ارتكاب جريمة، إذ أن غاية القتل الدفاع عن النفس أو حماية الأبرياء أو حرمان المعتدي من جني ثمار وحشيته في الحروب والحفاظ على الحضارة التي تقدر الحرية أكثر من المرجعية، بل وحتى السلام والعدالة، وهما كلمتان ما انفك معظم الطغاة يستخدمونهما. وكانت القدرة على إدراك هذا هي السبب في أن أعمال سولزنيتساين تعني الكثير لها أكثر من روايات تولستوي، وسيبقى الحال هكذا دومًا.

في هذه الحالة، اضطُرت بيبي للقتل إنقاذًا لنفسها والحصول على فرصة

لإنقاذ فتاة تسمى آشلي بيل. وعلى الرغم من فزعها من ضرورة القتل، إلا أنها جلست هناك بدون أن يعتمرها شك في أفعالها.

أبقت ضوء مصباح اليد مسلطًا على الرجل الميت وأجّلت رحيلها بلا سبب سوى التفكير في إشارته إلى مكتبة بابل. لم يبدُ نوع الرجل الذي - بطبيعته - قد يبدي تلميحًا كهذا.

كانت مكتبة بابل خيالاً أدبيًا ضرب العديد من الكتاب على وتره على مر السنين، مع أنها كانت مشهورة في الغالب بسبب قصة خورخي لويس بورغز الخيالية القصيرة «مكتبة بابل».

تخيل عددًا لا ينتهي من الغرف، مكدسة فوق بعضها البعض، حيث لا تُخزن كافة الكتب التي كُتبت فحسب، وإنما أيضًا كافة الكتب التي ستظهر مستقبلاً، وكل منها كُتب بكل اللغاا التي عرفها الإنسان وكل اللغات التي سيجري تعلمها أو ستظهر في المستقبل. إلى جانب ذلك، هناك كتاب عن حياة كل شخص عاش أو سيعيش، وعدد لا نهائي من المجلدات في كل المجالات والأغراض التي يمكن تخيلها. وهناك كتب غير منطقية وأخرى تبدو منطقية ولكنها على الأرجح ليست كذلك. ويضمن العدد الهائل من الكتب أنه لن يتمكن أحد من قراءة ما يكفي للتوصل إلى تفسير للمكتبة والحياة أو أي شيء آخر.

وجدت بيبي هذه القصة مثيرة للكآبة، وهذا إذا كان المؤلف قد تمنى حتى أن تسمى قصة، فهي نوع من العدمية الذي ينكر عدميته.

كان المغتصب الهالك قد لفظ قبل موته - لن تخرجي حية من هذا قط. هذا أشبه بمكتبة بابل. هناك عدد لا نهائي من الغرف، ولا سبيل الخروج. ولا بد أن له نية وحيدة؛ كسر عزيمتها، وهو ما يرغب فيه رئيسه تيريزن.

وإذا كان تلميحًا كهذا ليست من طباع هذا المجرم، فلا بد أنه قد أُخبر بحفظ تلك الأسطر. وإذا كان قد حفظها، فلا بد أنه كان ينوي إخبارها بها بعد أن يغتصبها وقبل أن يشق عنقها، حتى يتأكد أنها فقدت الأمل بالكامل

فـي نهايـة المطـاف. ولمـا كان الموت الليلة مـن نصيبه وليس من نصيبها، إلا أنه التزم بالخطة.

إذا كان هناك جواسـيس متمركزون في الأماكن الأخرى التي قد تذهب إليها – مثلما زعم الهالك – فلا بد أنهم جميعًا قد حفظوا نفس الأسطر بشأن مكتبة بابل. يبدو أن بحث تيريزن عنها عملية أكبر مما تصورت. ويبدو أيضًا من هوسه بها أنها تمثّل تهديدًا جديًا له.

حاولـت بيبـي التفكيـر فيما إذا كانت قـد تركت بصمات أصابع على أي شـيء. ستمسـح مقبـض البـاب لـدى مغادرتها، وسـتأخذ المسـدس والمدية الزنبركية معها. ولم تكن الأرضية القذرة والجدران المتشـققة أسـطحًا يمكن لخبيـر معمـل جنائـي أن يرفع أي شـيء ذا قيمة عنها. مـاذا عن بصماتها على جسـد الرجل الميت؟ هل هذا ممكن؟ أجل، ولكنه مسـتبعد. لم تكن تنوي بكل تأكيد مسح جثته، فهذا مستحيل.

إلـى جانب ذلك، سـتترك بعض الشـعيرات والقليل مـن قطرات الدماء. وإذا كان خبـراء المعمـل الجنائـي بنفس ذكاء ومكر أولئك الذين يظهرون في العروض البوليسـية التلفزيونية، فقد قُضي عليها. ولكن بطبيعة الحال، كانت الرواية الدرامية على التلفاز خيالية أكثر من كونها واقعية.

وعلى الرغم من عدم وجود أحد حتى يسمعها، فقد رفضت التأوه عندما نهضـت علـى قدميهـا. وقالت – ليـس فقط للرجل الميت ولكن أيضًا لتيريزن وبقيتهم – «اذهبوا إلى الجحيم».

-87-

لا تنانين أو جماجم أو قلوب

بجـوار البحـر، نـزل الضباب ببطء عن المنحدرات البيضاء المرتفعة مثل الانهيـارات الثلجيـة، فدفن شـبه الجزيرة والميناء خلفه ودفن الشـاطئ خلف المينـاء. وقفـت كل إشـارة مرور مثل كائـن عملاق ينظر عبر الضباب بغضب أحمر اللون أو غيرة وخوف أخضر اللون. وبقدرما تبدى لها، بدت المركبات المـارّة مثـل وحـوش عيونهـا مضيئـة انتقلت مـن عالم أسـطوري أو آخر إلى نيوبورت.

بعد أن اعتادت على الركن على مسافة بضعة شوارع من وجهتها – حتى تبقـي سـيارة بوغـو مخفيـة عمن يتتبعونها – تركت بيبي السـيارة في فيا ليدو. ومشت غربًا إلى الناصية ثم قطعت عدة شوارع جنوبًا نحو الشارع العريض. لـم تكـن قـد زارت مـن قبل المكان الذي تتجه إليه، إذ كانت قد لاحظته أثناء مرورها. لم يكن بمقدور رجال تيريزن توقع ظهورها هناك. وعلى أي حال، كانت تتوخى الحذر.

على البر الرئيسـي، ارتفع صوت صافرة إنذار قادم من مسـافة بعيدة لما يبـدو أنهـا سـيارة إسـعاف تشـق طريقها صوب مستشـفى هـواغ. كان العويل المتكـرر للصافـرة الضبابية في قلب الميناء البعيد يشـبه الموسـيقى المكتومة لفرقة غنائية تحيي حفلاً في ملهى ليلي.

قابلـت حفنـة أو أكثـر من المشـاة، الذين ظهروا فـي الضباب وكأنهـم قد وُلدوا الآن، وبعضهم كان يرافقه كلب. كانت الكلاب مبتسمة دومًا، مبتهجة بالليلـة الرطبـة اللطيفـة، أمـا النـاس فلم يكونوا كذلك حقًـا. ومع أنه كان من

فصيلة الملك تشارلز، فقد ذكّرها الكلب الأول بالمطاردة الصباحية في المتنزه في لاغونا. بعد ذلك، توقعت أن تقابل شخصًا يرتدي غطاءً للرأس وبرفقته كلب صيد ذهبي، لكنها لم ترَ أيًا منهما.

كان ضوء النيون الأزرق للوهلة الأولى خربشة بلا معنى في الضباب، تطفو مثل بالون على شكل حيوان لفصيلة غير معروفة على وجه الأرض. وعندما اقتربت، تحول اللون الأزرق إلى نص زجاجي متوهج لكلمتي بادي آرت.

بدا أن متجر الوشوم أكثر رقيًا عن المتاجر المشابهة، مع أن ذلك لا يصل إلى حد التجرد من أجواء معاداة الثقافة والتمرد. كانت هناك صور صادمة معلقة على نافذة العرض - جواد مجنح ورأس تمثل الموت تتطاير شررًا وشخصيتا روكيت راكون ومصاصة الدماء فامبايرا وثعبان ذو منحنيات من المجوهرات وقلب ملفوف بنبات العليق ومخترق بقرون - مما يشير إلى أن الفنان المسئول عن المكان سيجعل من جلدك لوحة فنية فريدة.

كانت الغرفة الأمامية الفسيحة تتميز بأرضية لامعة من خشب الماهوغاني البرازيلي وجدران مغطاة بعشرات التصاميم التخيلية. ومن بين الكراسي الأربعة المخصصة للزبائن، كان هناك كرسيان يشغلهما رجلان ملتحيان في الثلاثينات من عمرهما وبدا أنهما يقلدان فرقة ZZ Top في الشكل. كانت أذرعهما مغطاة بوشوم متشابكة. وقد جلس رجل أصغر سنًا على ما يشبه كرسي الحلاق مع ظهر يميل إلى الخلف، حيث يمكن رسم وتلوين زينة لليدين والذراعين تحت أنظار المتابعين الشغوفين. وفي الخلف - بعد تجاوز ستارة الخرزات - كانت هناك طاولات مبطنة لأولئك الذين احتاجوا إلى التمدد لكشف ظهورهم وصدورهم والمناطق الأكثر حساسية لإبرة الفنان.

كانت بيبي متأقلمة على اهتمام الرجال بها، لكن الثلاثة المتواجدين في متجر الوشوم منحوها اهتمامًا أكبر من المعتاد. كانوا يتحدثون بحماس عندما فتحت الباب، لكنهم صمتوا تمامًا بعد أن أغلقت الباب وراءها، وكأن فنانة

مشهورة أو قديسة قد وصلت. أدركت أن الجمال لم يكن الدافع وراء صمتهم بقدرما كان ما فعله الوحش بالجميلة؛ إذ كانت أذنها اليسرى المجروحة مغطاة بالدماء، وكانت هناك كدمة على فكها، وقطع ما زال ينزف عند الركن المتورم من فمها.

قالت للشاب العشريني الجالس على كرسي الحلاق «كم سأنتظر حتى أحصل على وشم؟»

فقال – بعد أن قفز من مقعده – «لا انتظار على الإطلاق. كيفن وتشارلي المتواجدان هنا مرّا فقط لتضييع الوقت».

أومأ تشارلي – الذي ابيضت لحيته وشعره قبل الأوان – إلى بيبي وقال «سيدتي».

كان كيفن يرتدي قبعة رعاة البقر، وقد رفعها عن رأسه على سبيل الاحترام ووضعها مجددًا «سررت بلقائكِ»

قال الفنان المسؤول عن رسم الوشوم «أنا جوش». وعندما لم تكشف بيبي عن اسمها أضاف «يمكنني فعل أي شيء ترغبين فيه، سواءً كان مثل المعلق على الجدران أو في إحدى ألبومات صور الزبائن»

فقالت بيبي «لا أريد تنانين أو جماجم أو قلوب. ما أريده هو أربع كلمات على رسغي، سأخفيها جميعًا أسفل الكم»

أخرج جوش مفكرة وقلم رصاص، فكتبت بيبي الكلمات الأربع تحت بعضها البعض مثلما أرادتها.

بعد أن رفعت المفكرة كي يتمكن كل من كيفن وتشارلي من قراءة ما كتبته، قال جوش «لدي كتاب يحوي نصوصًا هنا...»

فقاطعته «حروف كبيرة. بسيطة وسوداء»

«يمكنني تزيين الكلمات بخفافيش أو طيور أو...»

«الكلمات فقط»

قال وهو يشعر بخيبة الأمل «لا يستحق الأمر عناء كتابة كلمات فقط»

لكن بيبي أكدت له «إنه يستحق بالنسبة إلي، ما السعر المطلوب؟»
سمى سعره، فقبلته.

عندما جلست بيبي على الكرسي قال جوش «سيتعين عليكِ خلع السترة» ولأنها كانت تحمل المسدس في حزام الكتف، قالت «لن ننجز الأمر هكذا». رفعت كم السترة إلى أعلى حتى مرفقها ومعه كم القميص الطويل. أشارت إلى بقعة على بعد بوصتين من أبرز عظمة في رسغها، وقالت «ابدأ هنا في منتصف الذراع، وحافظ على الأسطر متقاربة رجاءً»

قال جوش – بعد أن أخرج أدواته – «هل ترغبين في حبتي أسبرين أو تيلونول؟»

«هل سيؤلم كثيرًا؟»

«ما قصدته هو أسبرين من أجل ما حدث لوجهك. لكن هذا سيلسع قليلاً»

«شكرًا، لكنني بخير بدونه»

نظر تشارلي إلى كيفن، وأومأ كيفن في المقابل، فهزّ تشارلي رأسه وقد بدا كل منهما حزينًا.

قال جوش «لا تبدين في قمة الغضب، ولعله يجدر بك ذلك. آسف على قولي هذا»

فقالت «لست غاضبة. فالغضب لا يحل أي شيء. كلي تصميم فقط»

تساءل تشارلي «تصميم على ماذا؟»

«على ألا يحدث لي هذا مجددًا»

ساد الصمت حتى أكمل جوش ثلاثة أحرف، ثم قال كيفن «آمل ألا تمانعي أن أقول ذلك يا آنسة، ولكن امرأة مثلكِ لا تحتاج إلى تحمل هذه الفوضى»

فأوضح تشارلي «أي نوع من الفوضى»

قالت «هذا لطيف منكما. لكنني لم أتحمل شيئًا»

فقال تشارلي «يسرني سماع ذلك».

بعد مدة وجيزة، منحها كيفن فرصة أخرى لمشاركة قصتها قائلاً «يتملكني شعور أنني سأكره رؤية الرجل الآخر»

فقالت «أجل، ستكرهه»

«آمل بشدة أن يكون قد تلقى علاجًا من أنف مكسور أو شيء ما»

ردّت بيبي بالقول «إنه ميت».

التزموا الصمت جميعًا حينئذٍ، حتى انتهى جوش.

كان جلدها ملتهبًا قليلاً ومنتفخًا في المنطقة المحيطة بالكلمات الأربع – كلمة في كل سطر – لكنها كانت مرسومة بدقة ويسهل قراءتها. قام جوش بلف بضع طبقات من الشاش حول الوشم، وثبته في مكانه، وأعطاها أنبوبة لمرهم مضاد حيوي لحمايتها من العدوى.

«عامليه كجرح لأسبوعين أو ثلاثة. ولا تغسليه. وعندما تشعرين بحكة، اضربي عليه ولا تحكيه».

عندما سددت بيبي ثمن الوشم، قال «لم يرضِ رغبة الفنان داخلي، ولكن كان من اللطيف التعامل معكِ يا آشلي».

صححت له قائلة «هذا ليس اسمي». تحت الضمادة، كان هناك وعد مدون على ذراعها الأيمن: آشلي بيل ستظل حية.

-6-

الفتاة التي كانت
ولم تكن هناك

-88-
فرع نُزل ذا بست وسترن المجهول

بعـد أن حصلـت علـى وشـمها الجديد، عادت بيبي إلى سـيارة الهوندا، التي كانت قد أوقفتها في شارع فيا ليدو. جلست تراقب الشارع والمارّة الذين ذابـوا بيـن ثنايـا الضباب الكثيـف، ليظهروا جزئيًا، ثم يذوبـوا مجددًا، وهكذا دواليـك، وكأن قـوة عليـا قـد أرادت أن تجلـب العالم إلى نهايتـه لكنها تتردد بشدة في إنهائه.

وبعدما فكرت فيما ستقوله، استخدمت الهاتف النقال المؤقت للاتصال بوالدتها.

«بيبي؟ ظننا أنكِ ستتصلين قبل وقت طويل. هل حصلتِ على غرفة في نُزل؟ أين تبيتين؟»

«لقد قدت السيارة طوال الطريق نحو سان دييغو يا أمي، ثم تجولت فيها لبعـض الوقـت؛ إنهـا بلدة جميلـة، ثم عثرت على مكان صغيـر لطيف لتناول العشاء»

لم تكذب بيبي بشأن أي شيء هام، وبالأخص لم تكذب على والديها، لكنها بدت أمام نفسها كاذبة محترفة. وعلى الرغم من أن إبقاء ميرفي ونانسي جاهليـن بشـأن وضعهـا كان ضروريًـا من أجـل إبقائهم خـارج قائمة الإعدام الخاصة بتيريزن، إلا أن بيبي لـم تشـعر بالرضا وأرادت تجاوز مرحلة الخداع في أسرع وقت ممكن.

«على أي حال، أقيم في غرفة في نُزل بست وسترن. إنها نظيفة وهادئة، وسأغط في سبات عميق»

سألتها نانسي «أي بست وسترن؟»

«سلسلة بست وسترن المعروفة»

«ولكن لا بد أن هناك العديد منها في سان دييغو»

«لا أدري، لا يحمل المبنى سوى كلمتي بست وسترن»

«لا بد أن يكون هناك جزء آخر للاسم. بست وسترن داون تاون، أو بست وسترن أولد تاون، أو بست وسترن هاربور، أو شيء من هذا القبيل»

«لا أظن ذلك»

«ابحثي عن بطاقة دعاية على الدرج المجاور للفراش أو كتيب في الخزانة. سيكون مدونًا عليهما الاسم الكامل. اذهبي وانظري»

«حسنًا. انتظري لحظة». وضعت بيبي راحة يدها على الهاتف وقامت بالعد إلى عشرين بينما هي تراقب منظر الضباب غير المثير. ثم أضافت «حسنًا. هناك بطاقة دعاية وكتيب، ولكن كل منهما يحمل اسم بست وسترن فقط. على أي حال، هذا لا يهم، فأنا سعيدة وتناولت طعامًا جيدًا وأشعر بالنعاس، وسأمكث ليلة واحدة فقط. وربما أعود غدًا إلى لا خويا، وأبقى هناك ليوم أو اثنين»

توقعت أن تطلب والدتها منها أن تقترب من نافذة وتصف لها المنطقة المحيطة مباشرة بالنُزل، لكن نانسي قالت «لن تتزلجي في لا خويا، أليس كذلك؟»

«كلا، لن أتزلج في أي مكان. الطقس بارد جدًا بالنسبة إلي»

«يقول والدكِ إن ثمة عاصفة في المحيط الجنوبي، ومن المفترض أن تأتي بعض الأعاصير العاتية من باخا إلى شواطئ لا خويا. تذكري أنكِ خرجت للتو من المستشفى»

«ليس بحوزتي حتى لوح التزلج الخاص بي يا أمي. سأقضي اليوم في شراء الأغراض التافهة، وأمتع نفسي. اسمعي، هناك شيء أرغب في سؤالكِ عنه. إنه بشأن القائد؛ بشأن جدّي»

«أعلم أنك ما تنفكين تتذكرينه»

فقالت بيبي «أجل. ولكن هذا غرض بحثي، من أجل الرواية التي أعكف عليها. هل تحدث مطلقًا بشأن المدة التي قضاها كضابط للاستخبارات؟ وبشأن أساليب مقاومة الاستجواب التي طورها فريقه؟»

«هذه معلومات سرية يا صغيرتي»

«لكنه تحدث بشأنها قليلاً»

«قليلاً جدًا»

«هل ذكر أي شيء قط بشأن قمع الذاكرة؟»

«وماذا يكون هذا؟»

«إنها وسيلة لحمل الناس على نسيان أشياء بعينها. مسح تجربة بشكل كامل من عقل الشخص، بحيث لا يتذكر أنها قد حدثت قط»

«يبدو هذا خيالاً علميًا أكثر من أي شيء عمل جدّكِ عليه»

«إن البحث الذي أجريته إلى حد الآن يخبرني أن الأمر ممكن. ولكن إذا كان كذلك، أتساءل عن كيفية إبطاله»

«هذا من أجل الكتاب الذي تعكفين عليه؟ يبدو أنه خيال علمي مقرز»

«إنه ليس كذلك على الإطلاق. على أي حال، أنا متعبة للغاية. أحتاج إلى شرب الجعة من حانة النُزل ثم أخلد إلى الفراش»

«إذا كنت في حاجة إلى وقت للراحة لنسيان موضوع العقل هذا، فمن ثم يتوجب عليكِ فعل ذلك كما يجب يا عزيزتي. انسي عملكِ لبضعة أيام»

«أنتِ محقة يا أمي. سأفعل. حسنًا، سأخلد للنوم. أحبك. أخبري أبي أنني أحبه. وأخبريه أنني لا أنوي ركوب الأعاصير العاتية عند شواطئ لا خويا»

بعد تبادل كلمات الحب عدة مرات، أنهت بيبي المكالمة وأغلقت الهاتف.

بعد ذلك، ركبت سيارة بوغو وغادرت شبه الجزيرة نحو الطريق

الساحلي السريع، وقد قادت السيارة ببطء عبر شبح الضباب الذي يغطي البحر، واتجهت إلى النُزل في لاغونا، وهي تحاول أن تقنع نفسها أنها ليست كاذبة بالفطرة. كانت قد أخفت أمورًا عن والديها في طفولتها المضطربة - مثل كافة الأسرار التي أفصحت عنها للقائد - لكنها كانت على يقين من أنها لم تخبرهم بكذبات كبرى. كان بعض الناس يظنون أن الروايات نوع من الكذب، لأن القصص والشخصيات كانت مختلقة، لكن الخيال يمكن أن يكون بمنزلة محرك بحث يتيح لك العثور على الحقائق المخفية وكشفها طبقة تلو الأخرى، لا سيما تلك الحقائق التي لم يفكر فيها كتاب أدب الواقع، إما لأنهم لم يؤمنوا بوجود مثل هذه الحقائق أو لأنهم لم يرغبوا في وجودها. عندما وصلت إلى كورونا ديل مار، قررت أنها كاذبة، ولكن ليست كاذبة وضيعة أو حقودة.

خلال الطريق، توقفت في سوق كبيرة واشترت جرعة مضاعفة من التايلينول، والأسبرين، والموترين، وأنبوبة كبيرة من كريم مسكّن للآلام بلا رائحة. وبصرف النظر عما إذا أفرطت في تناول العقاقير أم لا، فلن تفجّر أحشاءها في ليلة واحدة. كان يتعين على الفتيات المقدامات تحمل قدر كبير من العقاب البدني بدون شكوى، ولكن كان من الممكن كسر إرادتهن. لم تُرد أن تعترف بأنها تتألم، وأقنعت نفسها أنها أصبحت أكثر صلابة من الضرب المبرح الذي تحملته، لكن خداع النفس لم يكن ضروريًا للحفاظ على العزيمة. اشترت شاشًا وشريطًا لاصقًا وزجاجة يود وكيسًا كبيرًا من أكواب زبدة الفول السوداني من ماركة ريز. بغض النظر عن الطريقة التي قد تموت بها، فهي ليست معرضة لخطر أن تسقط ميتة سواءً بسبب السكري أو تصلب الشرايين.

اشترت علبة فودكا كذلك؛ إذ لم يكن النُزل يحتضن حانة ممتلئة مثل التي تخيلتها لبست وسترن، فلم يكن اسمًا على مسمى.

في لاغونا، ركنت السيارة على بعد شارعين من النُزل. وعادت إلى

غرفتهـا وهـي تحمـل الخريطـة الإلكترونيـة التـي كانت قد اشـترتها في وقت سـابق من اليوم، ولعبة الحروف الخشـبية، وكيس الكتب الذي يحتوي على نسخ جديدة من المجموعات القصصية الثلاث، والأغراض التي اشترتها من السوق الكبيرة، وقد توقفت لشراء علبة كوكا كولا من آلة البيع.

ومع أنها ليست ممن يفرطون في الشرب، لكنها كانت تتطلع إلى كأسين مـن الفـودكا مـع الكوكا كولا، لتحصينها مما قد يسـتجد مسـتقبلاً. من ناحية أخـرى، اشـتبهت فـي أنـه خلال السـاعة المقبلة أو نحوهـا، لديها فرصة قوية لتحديـد مـكان آشـلي بيـل، وعلى أي حال، فإنها فـي حاجة إلى تصفية ذهنها والاستعداد للتحرك.

-89-

أستاذ مصيرها وقائد روحها

خلعت بيبي سترتها، واحتست خليط الكوكاكولا والفودكا في كأس واحدة، ثم أتبعتهما بحبتين من التيلينول، وجلست لدى الطاولة الصغيرة لمقارنة النص في النسخ الجديدة من كتب أوكونر وويلدر ولندن بالصفحات التي كانت قد اقتطعتها سابقًا بالمدية الزنبركية. وقد قرأت مرارًا الكلمات التي اقتطعتها وحرقتها ونستها، لكن تأمل الكلمات لم يُنر بصيرتها. إذا كانت هذه الأسطر أو جزء منها أو مجموعة متنوعة منها هي ما قد قاله تشاب كوي لها ف المخبأ الفكتوري الواقع في الطابق الثالث من منزل الدكتورة سانت كرويكس، فهي لم تعد تذكرها بشيء، وهذا يرجع على الأرجح إلى أنها قد نسيت السياق التي قيلت فيه، أو ببساطة لأنه لا يمكن إبطال مفعول حيلة القائد بسهولة.

وضعت الكتب جانبًا، ووجهت اهتمامها صوب لعبة الحروف الخشبية التي كانت قد اشترتها. لم تكن تمتلك وعاءً فضيًا، ولم تكن تحتاج إلى واحد. كما لم تكن لديها رغبة في الانخراط في قراءة الطالع. وبين فينة وأخرى عبر السنوات، سمعت أناسًا يحذرون من اللعب بلوحة الويجا قد يكون خطرًا، وأنك عندما تطرح أسئلة عليها وتتلقى الإجابات، فإن هذه الإجابات لم تصدر من اللوحة، وإنما من حضور روحي لكيان ما ليس بالضرورة أن تكون نواياه حميدة. وحتى إذا لم يخادع ويضلل هذا الكيان بإجاباته، فقد فتحت بابًا له بالبدء بالتواصل، وهو ما قد يجعله لاحقًا لا يرضى بالبقاء في عالم الأموات أو الملعونين أو أيًا كان من يعلق معه حاليًا. لم تهتم بيبي قط بلوحة الويجا

لأسباب أخرى هي التزلج والكتب والصبية. ولم تعطِ مصداقية كبيرة لفكرة استحضار كيانات حاقدة من عوالم أخرى، وهي تنتظر البشر السُذج والجهلاء حتى يفتحوا لهم البوابة السحرية. ولكن إذا كان ثمة مصداقية لمعتقدات كهذه، فإن قراءة الطالع بالحروف الخشبية لا تقل خطورة عن السعي وراء إجابات من لوحة الويجا. إلى جانب ذلك، لم تكن ستغرز إبرة في عقلة إبهامها، لا سيما أنها اشتبهت أن الإجابة على مكان أشلي قد جرى التوصل إليها من قبل كاليدا باترفلاي في الساعة التي سبقت مقتلها.

طرق أحدهم بلطف على باب حجرة النُزل ثلاث مرات.

ما هذا بحق الله؟ سحبت المسدس ونهضت على قدميها وانتظرت.

عندما لم يتكرر الطرق، ذهبت إلى الباب ونظرت عبر العين السحرية التي تجعل العالم المشوه بفطرته أكثر تشوهًا. تحت ضوء المصباح الخارجي الواقع مباشرة فوق الباب، لم يكن الموت ولا غيره يقف عند عتبة الباب في الضباب المحيط بالمكان. أبقت إحدى عينيها على العدسة السحرية، تحسبًا لعودة زائرها المراوغ للطرق مجددًا. مرت دقيقة ثم أخرى، ولم تكافأ على صبرها.

فكرت في الذهاب إلى إحدى أو كلتا النافذتين وإزاحة الستائر الداكنة جانبًا. لكنها ليست فكرة جيدة؛ إذ أنها إذا كشفت عن مكانها، فستغدو صيدًا سهلاً.

هل يتعين عليها الاتصال بمكتب الاستقبال والإبلاغ عن متلصص؟ لعل دوريس ما تزال في الدوام. دوريس الطيبة ستصدقها. كلا، لا تعرّضي أي أحد آخر للخطر.

بدا لها أنه ليس هناك شيء تفعله أفضل من العودة إلى الطاولة. أصبح الطرق طيفًا ضعيفًا، وكأنه فكرة صوت، أو لعلها تخيلته.

رتّبت سبعة وعشرين حرفًا خشبيًا على سطرين – واحد فوق الآخر – بالضبط مثلما كانوا على الطاولة المستديرة في منزل كاليدا. تشكل السطر

الأول من اسم آشلي بيل، بينما قدم الثاني عنوانًا: البناية أحد عشر في شارع مونرايز.

وفقًا للخريطة الإلكترونية، لم يكن لهذا العنوان وجود في مقاطعة كاونتي أو أي مكان آخر في كاليفورنيا الجنوبية.

وفي الليلة السابقة - في مطبخ بيبي وعندما برأت من السرطان - لم تكن كاليدا قادرة على العثور على الرسالة الصحيحة في الحروف الأحد عشر الأولى. كانت قد رتبت الحروف لتنص على جملة A Fate So Evil أو مصير أسود، ثم جملتين بلا معنى هما East Evil Oaf وVia Least Foe حتى استخلصت بيبي الرسالة الحقيقية: To Save A Life أو لإنقاذ روح.

وبالمثل - في المجموعة الثانية من الحروف - عثرت كاليدا على أسماء Sally Bheel وShelly Able، ولكن لم يبدُ أي منهما صحيحًا. شكلت بيبي اسم Ashley Bell، وقد أكدت الأحداث التي تلت ذلك أنه الاسم الصحيح.

وعلى الأرجح - في الحروف السبعة عشر الخاصة بهذا العنوان - لم تتوصل كاليدا إلى التشكيلة الصحيحة. فلسبب ما - منطقيًا كان أو خارقًا للطبيعة - قد يكون مطلوبًا من بيبي وحدها حل اللغز الخاص بالموقع الذي يمكن العثور فيه على آشلي بيل.

من بين مترادفات كلمة شارع، ثمة كلمتان فقط يمكن تشكيلهما من تجميعة الحروف الثانية. لم تكن جادة ولا شارع عريض ولا طريق سريع أو مكان أو دائرة أو مركبة أو أي شيء عدا طريق وحارة.

جربت استخدام كلمة حارة، لكن العمل بالحروف الثلاثة عشر المتبقية لم يساعدها على تشكيل كلمة أو كلمتين ذات معنى بدون ترك حروف بلا استخدام. على ما يبدو أن كلمة حارة خاطئة، وكلمة طريق هي الصحيحة.

سمعت صوت طرق إصبع على لوح زجاجي لإحدى النوافذ.

كان الصوت خافتًا مثل الطرق السابق، لكنه تكرر. كان ذلك عند النافذة الواقعة على يمين الباب.

كانت الطاولة تقع على يسار الباب. وعلى مسافة اثنا عشر أو خمسة عشر قدمًا من النافذتين، لم تتمكن بيبي من التأكد من أن سبب الضجة يبدو كما تظن. ربما تكون مجرد فراشة كبيرة تصطدم بالنافذة، ولكن هل يمكن أن تكون هناك فراشة مشغولة إلى هذا الحد في الضباب، الذي سرعان ما سيثقلها ويسقطها أرضًا؟

استقرّ المسدس جاهزًا على أحد جانبي المسدس. وضعت يدها عليه. وعلى الرغم من أنها لم تطلق النار على أي أحد قط، كانت على يقين أنها قادرة على فعل ذلك. كانت قد طعنت رجلاً حتى الموت بسكين في نهاية المطاف، وهي وسيلة قتل أكثر صعوبة، لأنها تتم من على مقربة. من الناحية الفكرية، كانت قد أدركت منذ زمن طويل الفرق بين القتل والجريمة. والآن باتت تدرك الأمر من الناحية العاطفية، ولم تكن حساسيتها تجاه العنف وضرورة الرأفة لتعيقها حقًا إذا ما أتت اللحظة التي يكون فيها القتل مشروعًا.

انتظرت حتى يحدث النقر الخفيف على النافذة مجددًا، ولكن لا شيء.

توفّر الباب على قفل نقر مركب، وكان هناك قفل مركب آخر مستقل فوق القفل الأول، وسلسلة تأمين من الحديد غير القابل للصدأ.

بالمقارنة معه، كانت النوافذ سهلة الاقتحام.

عندما لم يحدث شيء آخر، رشفت بيبي من خليط الفودكا والكوكاكولا.

قالت في أعماقها أيًا كانت الفوضى التي أرسلت لتنظيفها يا باكس، يجدر بك البقاء حيًا. أحتاج إليك هناك أيها البطل.

بعد أن استبعدت كلمة حارة واستقرت على كلمة طريق، لم يكن بالإمكان تشكيل كلمة واحدة ذات معنى من الحروف الأربعة عشر المتبقية. ولا حتى كلمتين من الممكن أن شكلا اسمًا لشارع.

قررت أن الرقم أحد عشر قد يكون صحيحًا، بيد أن مونرايز لا بد أنها خاطئة. كانت كاليدا قد عثرت على الكلمة لأنها واضحة، وربما تمسكت بها لأنها تغازل طبيعتها الشاذة.

كان من اللازم وضع اختصارات كلمتي شمال وجنوب – No, وSo. – في الاعتبـار. بـدأت بيبي بالثانية وشـرعت في إعـداد قائمة في مفكرتها الصغيرة؛ So, Remino وSo. Mirone وSo. Inmore وSo. Emorin...إذا كان الشارع يحمل لقب أحدهم بغرض تكريم عائلة محلية أو شـخصية مرموقة، فسـيكون هناك كم كبير من الاحتمالات.

تكـرر الطـرق علـى أقـرب نافـذة، التي لم تبعد سـوى قدميـن عن مكان جلوسها. كانت الستائر الداكنة الثقيلة تمنع أي أحد من تحديد مكانها بدقة.

بعد أن استخرجت من تشكيلة الحروف أكبر قدر ممكن من الاحتمالات لقائمتي الشمال والجنوب، أعدت سريعًا قائمة أخرى أقصر باستخدام حروف كلمة Moonrise الثمانية ولكن بدون تحديد تجاه. ثم قامت بتشـغيل الخريطة الإلكترونية وبدأت في إدخال العناوين، بدءًا بأقصر قائمة.

سمعت صوت الطرق مجددًا، ولكن هذه المرة حدث على كلتا النافذتين في وقت واحد. كان الطرق ضعيفًا، وإن لم يكن فراشات، فهي تتخيل الأمر. ولا داعي للرد حتى تنكسر النافذة.

11 طريق أمني روز.

غير موجود.

11 طريق روز أمني.

غير موجود.

حدث الطرق بإصرار أكبر ولكن ما يزال ضعيفًا.

11 طريق روز مينو.

غير موجود.

11 طريق سايمرون.

غير موجود.

11 طريق موريسون.

غير موجود.

أصدر الباب صوت صرير خفيف. وكأن كلبًا يقف على ساقيه الخلفيتين وينقر على الخشب بساقيه الأماميتين. وأيًا يكن، إذا فتحت الباب، فلن يكون هناك كلب وراءه.

11 طريق سونوماير.

على شاشة الخريطة الإلكترونية، ظهرت خريطة لمقاطعة كاونتي. وقد لفت انتباهها ضوء أحمر وامض إلى طريق سونوماير في القاطع الجنوبي الشرقي، في ناحية لا تقع ضمن السلطات القضائية للمقاطعة مثلما هو الحال في أي مدينة. قامت بتكبير القاطع حتى يملأ الشاشة، ثم كبرت الجزء من القاطع الذي يقع فيه الشارع.

كان طريق سونوماير يقع ضمن نطاق شبكة من ستة عشر شارعًا ذوي حارات ثلاث تحمل كلها اسم طريق. وقد نتج عن المسافة بين الشوارع وعدم وجود أزقة في وجود شوارع كبيرة جدًا على أن تخدم كأحياء سكنية. وقد افترضت أن المكان لا بد أن يكون متنزهًا صناعيًا أو تجاريًا، على الرغم من عدم وجود عنوان له على الشاشة.

عندما توقف صرير الباب، حاول شخص ما أن يدير المقبض، فحركها إلى أعلى وأسفل. ليس هناك مجال للقول إن هذه ضجة متخيلة أو من صنيع الفراشات المحبة للضباب، لأنه كان بوسعها رؤية الضوء وهو يتراقص على مقبض الباب وهي ترتفع إلى أعلى وأسفل.

لم يبدُ الطرق ثم النقر على النافذة فالصرير على الباب والآن تجربة القفل أفعال شخص يسعى للنيل من بيبي على الفور. فقد بدا الأمر برمته محاولة لتشتيتها عن العثور على كلمة جديدة في مونرايز، وعن الخريطة الإلكترونية والبحث عن طريق سونومايز.

توقف مقبض الباب عن الحركة. ولم يطرق أحد أو يحدث صريرًا على الباب.

وبعدما أغلقت وفصلت جهاز الخرائط من القابس، فكرت بيبي بشأن

اللحظة السابقة من المساء التي خانت فيها نفسها. وبسبب هذه الخيانة الذاتية، لـم تشـترِ ولاعـة أخـرى. وإذا أصبحـت مدركة بتمزيق صفحـة من كتاب إلى قصاصات صغيرة، مع نية بالتخلص منها في المرحاض، فإنها تأمل أن تتمكن مـن التخلـي عـن هـذه النية، وأن تجمع القصاصات معًا، وتقرأ ما سـعت إلى محـوه مـن ذاكرتهـا. وكونهـا خائنة مترددة – أو حتى فاقدة للإدراك – لا يعني أنها تغيرت أو أصبحت غير كفؤة.

ولكـن إذا كانـت هـي من تحاول تشـتيت نفسـها عن البحـث عن طريق سونوماير، فإن الضجيج لدى الباب والنوافذ ليس سوى تهيؤات، بيد أنها كانت علـى يقيـن مـن أنها قد سـمعته. وبكل تأكيـد رأت مقبض الباب وهو يتحرك. وإذا كانـت أصـوات محاولـة فتـح القفل حقيقيـة، وإذا كانت هي أيضًا مصدر تلـك الملهيـات، فمـن ثـم لا بد أنها تمتلك قوة خارقة من نوع ما تسـتخدمها بدون وعي منها، وكأنها المكافئ الحي لروح شريرة.

لم تشعر بالارتياح من فكرة امتلاكها قوة كهذه. وإذا كان هذا جزءًا مما كانت قد أخفته عن نفسها منذ زمن طويل باستخدام حيلة الذاكرة التي علمها إياهـا القائـد، فإنهـا تفضـل أن تبقى هذه المعرفة رمـادًا. وإذا ما حالفها الحظ وأنقـذت آشـلي بيـل، فـكل ما تريده بعد ذلك هو العودة إلى مسـارات الحياة الطبيعية، إلى الحياة التي سُلبت منها بسبب السرطان والهوس بالفتاة المعرضة للخطر. كانت الحياة اليومية العادية – التي ظن الكثير من الناس أنها ليسـت ممتعة أو مثيرة – بالنسبة إلى بيبي غير عادية في كل الأوقات؛ فالعالم يحمل في تصرفاته قدرًا هائلاً من السحر والعجب، ويحمل أيضًا الكثير من الغموض في أعماقه الذي لم ترغب في رؤيته – وعجزت عن التعامل معه – أكثر مما تجلى لأي شخص مستعد للرؤية.

بعد أن ارتدت سـترتها، وحملت الخريطة الإلكترونية في يدها اليسـرى والمسـدس فـي يدهـا اليمنـى، وقفـت تنظـر عبـر العيـن السـحرية. إذا كان المتلصص ينتظرها لدى الباب، فإنه لا يظهر في زاوية الرؤية المباشـرة. كان

المشي مسافة شارعين نحو سيارة الهوندا عبر الضباب والتهديدات المحيطة – فضلاً عن احتمالية الوصول إلى طريق سونوماير – يعد باختبار صعب لجرأتها وشجاعتها. ولكن مهما حدث، وحتى إذا ثبُت أن هذا اختبار يقود إلى الدمار، فإن الليلة القادمة تتميز بأمرين: الأول، أن النهاية المرغوبة بشدة لهذه المحنة تقترب سريعًا؛ والثاني، أنها تعتقد أنها ستكون ليلة مثيرة.

فتحت بيبي الباب.

-90-

الصدمة الأولى من ثلاث

كان البـاب مغلقًـا، فطرقـه باكـس، ثـم فتحتـه نانسـي. أحاطتـه بذراعيها وعانقته بشـدة، وكأنها تشـك - وتتأكد - من سـلامته. ثم انضم إليهما ميرفي، وكان يجيـد العنـاق هـو الآخـر. وقـف ثلاثتهم متعانقين لدقيقـة قبل أن يقوده حمواه المسـتقبليان - وهما يرتعدان ويحاولان قمع تعبيرات الحزن الصامتة - إلى فراش المستشـفى وكأن نعش الرفات يقف جاهزًا لمراسـم التشـييع في الكنيسـة. كانت بيبي - التي لا تُقهر - تتمدد فاقدة للوعي، في غيبوبة، وهي ترتدي بيجاما، ووُضعت على أجهزة مراقبة القلب وموجات الدماغ، وكانت تضع قلنسوة كهربية بها العديد من الأقطاب المتصلة بجمجمتها، ورُكبت لها قسطرة، ويجرى تزويدها بالسوائل والأغذية عبر الحقن الوريدي.

كانت الممرضة - ذات البشرة البنية والوجه الجميل والأثير مثل رافائيل مادونا والشـعر المسـحوب والمثبت إلى الخلف - تهم بتغيير كيس السـوائل المعلق على الحمالة. وقد شغل الاسم بترونيلا شارتها المثبتة على صدرها. ابتسمت حين ظهر باكس إلى جانب الفراش، وعلى الرغم من ارتدائه ملابس مدنية، فقد قالت «لا يمكن أن تكون أي شخص في العالم سوى رجل القوات الخاصة خليل هذه الفتاة الجميلة»

بعـد أن اهتاجـت مشـاعره مـن تلـك الكلمـات ومن رؤية بيبـي في هذه الظـروف العصيبـة، وجـد باكسـتون نفسـه عند مفترق طـرق، وأدرك أنه لا بد من إحداث تغيير في نفسـه وفي معنى حياته، وليس مجرد تغيير وإنما ثورة. من مزرعة جياد في تكسـاس إلى عملية خاصة نتج عنها قطف رأس عبد الله

الغزالي، كان باكس قد وُلد كي يكون عنصرًا في قوات النخبة، بالضبط مثلما سيصفّر سهم القوس – الذي يطلقه رامٍ محترف – منذ إطلاقه وحتى اصطدامه بدائـرة المركـز فـي الهـدف. وبالنسـبة إليه – مثلما هو الحـال لكل عنصر في قـوات النخبـة – كان هنـاك التزامان مقدسـان ولهما الأولوية على كل شـيء؛ أولهمـا تجـاه رفاقـه في قوات النخبـة، وثانيهما تجاه وطنه. كانت العائلة والله والمجتمع والحرية أشـياء مقدسـة أيضًا، ولكن بالنسـبة إلى المحارب، فلا بد ألا يقـوق حبـه لأي شـيء واجبـه تجاه مـن يقاتل برفقتهـم والبلد الذي يضع حياتـه علـى المحـك مـن أجله. فإمـا أن تكون جنديًـا أولاً أو لا تكون جنديًا على الإطلاق. وأنت تعبر عن حبك لعائلتك بشكل رئيسي بالمخاطرة بنفسك من أجل أمنهم والموت مكانهم إذا اقتضت الحاجة. ولكن بوقوفه إلى جوار الفراش وتحديقه في بيبي التي سـقطت في غيبوبة، وهو على دراية تامة أنها بيـن الحيـاة والمـوت ويحتمل أن يفقدها، فـإن حبه لها قد تأجج مثل انصهار النواة في أجيال من سلسـلة التفاعل. سـيطر عليه غم شـديد، وأدرك أنه الآن وإلى الأبد – وأيًا كان السـبب الذي سـيُطلب منه أن يضحي بحياته من أجله – فإنه في الواقع سـيضحي من أجلها، وأنه على الرغم من اسـتعداده لذلك، فإنـه يفضـل البقـاء حيًـا من أجلها، سـواءً كان يعني ذلك انتهـاء حياته المهنية كجندي في المارينز أم لا.

في أعماق باكس، سمع بيبي وهي تقول بوضوح تام التقط بيتر بيبر قطعة فلفل مخلل، نطقتها بشكل رائع يا بيترونيلا. لو أنه لم يكن يحدق فيها، لظن أنهـا قـد تحدثـت فعـلاً؛ إذ كان صـدى الكلمـات يتردد بوضوح شـديد. لكن شفتيها لم تتحركا، وبقي جبينها منبسطًا. ولم تهتز رموشها، وعلى الرغم من سـكون جبينها، إلا أن عينيها لم تنفكا تتحركان أسـفل الجفنين؛ كانت حركة سريعة لشخص منغمس بعمق في أحلامه... نطقتها بشكل رائع يا بيترونيلا. لم يحدث لباكس من قبل شـيء مثل الهلوسـة السـمعية، وقد وجد الأمر أكثر إزعاجًا مما قد يتوقع.

عندمـا رفـع عينيـه نحـو بترونيـلا – التي كانـت تقف عند جهـاز الحقن الوريـدي علـى الجهـة الأبعـد من فراش المستشـفى – فلا بد أن باكس قد بدا مضطربًا من شيء ما أكثر من أزمة خطيبته، لأن الممرضة نظرت إليه في قلق. هزّت رأسها وقالت «هل أنت بخير؟»

كان جليًا أنه ليس بخير. فالتعرض لإطلاق النيران ليس سـيئًا مثل هذا. كان قـد مـرّ بلحظـات عصيبـة في أماكن ضيقة، والعالم يتداعى أسـفل قدميه، وعندما تخيل موته وفضّله على بعض البدائل الماثلة أمامه. ولكن إذا هلكت بيبي، سيعاني باكس من الموت بالوكالة، وبموتها سيضطر مجبرًا على العيش في عالم لم يعد لديه قلب فيه، وسيمسي مثل الموتى الأحياء. إنه يحبها، بلا ريـب، وقـد طلـب منهـا الزواج، أجل، ولكن حتـى الآن وفي هذا المكان، لم يفهم كيف كانت كل خيوطها منسوجة داخله بشكل كامل.

«هل أنت بخير؟»

قبل أن يتمكن باكس من التفكير فيما سيقوله للممرضة، تحدثت نانسي مـن عنـد طـرف الفـراش بنبـرة يعتصرهـا الألم «جلبـت بيبي إلى هنـا الثلاثاء الماضي. كان أسـوأ يوم في حياتي. وقد أعطاها الدكتور تشـاندرا التشـخيص في اليوم التالي. كان يومًا حافلاً للغاية ومريعًا. أردنا...تناول العشاء في تلك الأمسية...على سبيل التحدي...»

«ثلاثتنا فقط» أكمل ميرفي عندما عجزت نانسـي. وأضاف «كنا سـنتناول مأكـولات سـريعة، مثـل برغر الجبن مع فلفل الخلابينيـو والنقانق الباردة مع الجبـن، وكل شـيء لعيـن لا يفتـرض بها أكله، كنوع مـن التحدي مثلما قالت نانسي. لكن بيبي قالت إننا جميعًا متعبون. وأرادت فقط أن تأكل شيئًا خفيفًا وتستخدم الحاسوب لإجراء بحث عن سرطان الدماغ، فقد أرادت أن تعرف كل شيء عنه وتقاومه بكل الوسائل المتاحة»

قالت نانسـي – بعينين حمراوين وخدين تنسـال عليهما الدموع وصوت يتملكه الأسى – «كانت هذه آخر مرة تحدثنا إليها فيها»

فقال ميرفي «لن تكون الأخيرة. ستنهض ابنتنا من هذه الغيبوبة». وضع يده على كتف زوجته وقال «يتعين عليها ذلك».

فقالت نانسي «دخلت في غيبوبة في ساعة ما من مساء الأربعاء. يقولون إن الغيبوبة لا تحدث قط مع هذا المرض، على الأقل ليس حتى المرحلة الأخيرة، حين لا يتبقى أمل في الشفاء. لكنها حدثت معها»

لم يكن أي من هذا جديداً بالنسبة إلى باكس؛ إذ كان قد تحدث مع نانسي وميرفي عبر الهاتف بضع مرات منذ رفع الحظر عنه صباح الجمعة وانتشر خبر مقتل عبد الله الغزالي. لكنهم بدوا في حاجة إلى الإتيان على الأمر مجددًا، ولأن باكس قد صُدم من مظهر بيبي التي كانت شاحبة وهامدة كجثة في نعش، فقد شعر بالارتياح أنهما أرادا الكلام، مما سيمنحه الوقت للملمة شتات نفسه.

كان قد احتاج إلى يومين ونصف اليوم حتى يعرف بشأن ما حدث لبيبي، وحتى يحصل على إذن بإجازة طارئة، ويستقل أو طائرة عسكرية ثم أخرى مدنية من أقاصي العالم، وقد وصل أخيرًا إلى المستشفى بسيارة أجرة بدلاً من إضاعة الوقت في استئجار سيارة. كان هذا في الواحدة من بعد ظهر يوم الأحد، حيث بدت السماء زرقاء وصافية عبر النافذة. وكانت قد دخلت في غيبوبة منذ أربعة أيام.

عندما انتهت بترونيلا من تغيير كيس الحقن الوريدي، قالت «كنتُ في الدوام مساء الأربعاء. لم تكن تكثر الشكوى. لذا عندما قالت إنها تعاني من صداع شديد، أعطيتها أقصى جرعة عقاقير مسموح بها. كان هذا قبل دقائق قليلة من الساعة السابعة. ومنذ آنذاك، أصبحت حالتها غريبة»

رفع باكس نظره عن بيبي وقال «غريبة؟ غريبة كيف؟

فقالت بترونيلا «غريبة من كافة النواحي. أولاً، لا يمكنهم العثور على سبب للغيبوبة؛ فالورم الخبيث ليس كبيرًا للغاية لدرجة أنه يضع ضغطًا هائلاً على المخ حتى يستحث غيبوبة. ولا تظهر أشعة الدماغ وجود أي نزيف في

المخ ولا نقصًا في الأكسجين أو تدهورًا حادًا في تدفق الدماء إلى أي جزء منه. إن حدوث فشل في الكبد أو الكليتين قد يرسل سمومًا إلى الدماغ. لكن كبدها وكليتيها يعملان بصورة طبيعية تمامًا. وهذه غيبوبة عميقة. أعني، هذه الفتاة غارقة في سبات عميق، ومع ذلك» أومأت نحو الموجات الخمس التي أضاءت شاشة جهاز قياس كهربية الدماغ وأضافت «انظر فقط إلى موجات دماغها».

نظر باكستون، لكنه لم يعرف ماذا يفهم مما رآه.

فقالت الممرضة «سأبسط الأمر لك، لكنه أكثر تعقيدًا بمراحل عن هذا. حري بالطبيب شرح الأمر لك إن كان بوسعه ذلك. تظهر حبيبتك أنماطًا موجية لشخص ما نائم ومستيقظ في آن واحد. ولا تشبه الأنماط الموجية الخاصة بشخص في غيبوبة. إنها تبدو في قاع بعيد، في ذلك المكان العميق التي لا تحلم فيه حتى، ولكن انظر إلى عينيها. هذا نوم حركات العين السريعة، وهو نوم الأحلام»

سعى ميرفي للاطمئنان بأي شكل، فقال «أعتقد أنه رغم غرابة الحالة، إلا أن ثمة أمل»

خالفته نانسي الرأي وقالت «لا أرى أين الأمل. أنا خائفة»

عندما اقترب من حافة السرير المرفوعة، أمسك باكس بيد بيبي اليمنى بيديه. كانت دافئة ولكن مرتخية وكأنها بلا عظام.

قالت بترونيلا «بعد أن أعطيتها عقاقير للصداع، كان آخر ما قلته لها (سأمر عليكِ كل حين)، وهذا ما فعلته. ظننتها نائمة فقط»

ومثلما حدث مع هذيان بيتر بيبر، سمع باكس بوضوح صوت بيبي يقول، بسرعة الآن، هنا، الآن...عند نقطة السكون...ليس من أعلى ولا أسفل... حيث يجتمع الماضي والمستقبل معًا.

أدرك أن هذه ليست كلماتها، وأنها كانت تقتبس كلام شخص ما. وعلى الرغم من أنه قد شعر بضرورة أن يتعرف على مصدر الكلام، بيد أنه عجز عن ذلك.

عندما سمع صوتها في المرة الأولى، ظنّ أن الأمر ليس سوى هلوسة سمعية، لكنه أدرك هذه المرة أن الأمر ليس بهذه البساطة، وأنه ليس شيئًا قد يخطئ في تفريقه عن سمعه أو مخيلته. ولكن إذا كان يدرك أنه ليس هلوسة سمعية، فإنه لم يدرك ما هي طبيعته.

عند الجانب الأبعد من الفراش - حيثما ذكرت بترونيلا قبل ثوان آخر ما قالته لبيبي - حولت الممرضة انتباهها من باكس إلى مريضتها - وفعلت شيئًا بين التراجع من الصدمة والذهول على طريقة الأفلام. كانت إحدى تلك اللحظات التي دفعت بيبي أحيانًا إلى التساؤل علنًا عما إذا كانت ردود أفعال البشر هذه الأيام مثلما كانت عليه دومًا أم أنه بعد مرور أكثر من قرن من الزمان على ظهور السينما تأثرت ردود أفعالنا على كل محفز، لذا ففي اللحظة الفاصلة بين مرورنا بالتجربة واستيعابنا لها، كنا نتذكر بلا وعي كاري غرانت وكاثرين هيبرن، وبرادلي كوبر وجنيفر لورنس، وكيف كانت ردود أفعالهم في مواقف مشابهة في الأفلام، فنصيغ أداءنا ليشبه أداءهم، مما جعل طبيعة ردود أفعالنا مشوهة.

قالت بترونيلا - وقد اتسعت عيناها ووضعت إحدى يديها على صدرها وهي في ذهول من شيء أثار انتباهها على الجهة اليسرى من وجه بيبي - «ما هذا بحق الله؟»

على يمين بيبي، لم يتمكن باكس من رؤية ما كان يحدث، ولكن من عند قدم الفراش، كان بوسع كل من نانسي وميرفي رؤية ما يحدث، وقد صرخا فزعًا.

-91-

الصدمة الثانية من ثلاثة

ترك باكستون يد بيبي المرتخية، ودار حول فراش المستشفى في اللحظة المناسبة لرؤية السجحات وهي تغطي أذنها اليسرى بأكملها، لتتشكل قطرات دماء صغيرة على الجرح، وقد بدا أنها ظهرت بلا سبب وبشكل سحري على هيئة ندبة. زاد نضوح القطرات من النسيج التالف، وبسرعة البرق، بدأت في التخثر كمرحلة أولى من الالتئام. ترافق مع ذلك بروز كدمة على صدغها الأيسر، وكان لونها أحمر كالجعة، لتصل إلى حدود الفك. قالت نانسي «يا إلهي، يا إلهي!» وارتجفت هلعًا، وهي بلا شك تفكر في نفس ما أقلق باكس، وهو أن تتطور هذه الكدمة وجروح أسوأ وتنتشر عبر وجه بيبي حتى يصبح أمامهم امرأة متمددة مصابة بمرض غامض ما، الذي تشابهت آثاره مع آثار التعرض لضرب وحشي. ومع وصول الكدمة إلى ذقنها - وتحول لونها إلى العنابي ثم الأرجواني - ومع بدء التجلط الدموي في الجفاف والتحول إلى قشرة على أذنها، ظهر قطع صغير عند الحافة اليسرى من فمها، وتورم الجلد قليلاً. كانت الدماء ستسيل على ذقنها إن لم تتطور - مثل الجروح التي سبقتها - خلال ثوان من جرح حديث إلى مرحلة الالتئام الأولى. وبهذا، توقفت الندبة عن التشكل، واستقرت حالة الجروح. على الأقل في اللحظة الراهنة.

بعد أن تسمرت في مكانها من هول مشهد تحول بيبي، سارعت بترونيلا في التحرك بعد انتهاء التغيرات، فانتزعت زر الاتصال المتدلي عند حافة الفراش، واتصلت بمحطة التمريض الكائنة في الطابق الرابع. وبخبرة سنوات

من حل أزمات المرضى بنجاح، أخبرت الممرضة المستجيبة أنها تحتاج إلى الممرضة المسئولة عن الوردية على وجه السرعة في الغرفة رقم 456. قالت «لدينا مشكلة هنا».

«ما الذي حدث لابنتي للتو؟» سألت نانسي الممرضة بنبرة يكتنفها الاتهام لا مبرر لها. كان التفكير المنطقي قد غادرها، وحل محله الغضب والتخبط. أضافت «ماذا حدث لوجهها الجميل المسكين؟»

أحاطها ميرفي بذراعه، وقال بنبرة صوت يشوبها القلق «اهدئي يا حبيبتي، اهدئي. إنها لا تعرف ماذا حدث». وعندما حاولت نانسي دفع ذراعه، أمسكها بإحكام. وأضاف «لا أحد يمكنه معرفة ماذا كان ذلك. كان ذلك جنونًا محضًا. لكن بيبي ستكون بخير»

«انظر إليها، وانظر ماذا حدث لها. إنها ليست بخير قط. اللعنة»

«كلا، لكنها ستكون بخير. ستركب الموج ببراعة مثل أي أحد، وأفضل منكِ ومني، مثلما كانت دومًا»

سقطت نانسي رهينة للغضب، وقد انتصب شعرها المجعد القصير في استجابة على ما يبدو لشحنة كهربائية في الهواء. وإذا كانت عيناها لم تومضا حقيقة، فقد بدا أنهما كذلك، وانقبضت عضلات فمها المطبق. لكنه كان غضبًا عديم الفائدة وبلا هدف – بشريًا كان أو غير بشري – وكان في الواقع أقل حقيقة من كونه دفعًا لليأس الذي يشجعه الاستسلام للقدر.

وفيما يخص المنحنيات الظاهرة على جهاز مراقبة القلب المتصل ببيبي، حدّثت بترونيلا نفسها بصوت عالٍ قائلة «لم يتغير معدل نبضا قلبها أو ضغط دمها»

وقف باكس بلا حراك وفي حيرة مما شهده للتو، الذي كان لا ينبئ بخير. سواءً عندما كان يصد هجومًا أو يقود خطة ما، فلطالما كان سريعًا في الرد على الأحداث، ولا يتردد للحظة عن تغيير الاستراتيجية والتكتيكات. كان التفكير في التحرك أفضل من الوقوف متفرجًا، ولكن لا بد من وجود شيء للتفكير

فيـه، مثـل الحقائـق المثبتة ومجموعـة الظروف التي تتيـح التحليل العقلاني. أدرك أن وجـه هـذه المـرأة الجميلة يحمـل علامات التعرض للضرب، وليس دليـلاً علـى مـرض مـا. وبما أنه كان قد طارد أسـوأ المجرمين الذين تصدروا نشرات الأخبار في السنوات الماضية – مطاردة لقوى الشر – فقد رأى باكس ما يكفي من الرجال والنسـاء بعد تعرضهم للضرب لاسـتخلاص المعلومات منهم، ولتعليمهم خشية الرئيس الجديد، أو على سبيل الاستمتاع بالعنف فقط. كان يدرك تمامًا ما الذي ينظر إليه، وقد تاق – بشغف مراهق يسعى إلى الانتقام وكراهيـة رجـل بالـغ للوحشـية – إلى العثور على وقتـل أيًا كان من فعل هذا ببيبي. ولكن ثمة مشـكلة كبيرة، وهي أن أي شـخص لم يشـهد بنفسـه احمرار الجرح سيحسبه مجنونًا إذا ما صرح بما يفكر فيه، ولكن الجاني يبدو أنه شبح هاجمها في واقع ما لا يمكن لباكس الوصول إليه، عالم مجهول تتواجد فيه هي الآن إلى جانب عالمها الحقيقي.

اندفعت المسؤولة عن الوردية وتدعى جوليا، وهي امرأة في الأربعينات من العمر تتسم بالبدانة ولكن لديها حماس وخطوة شخص مهووس باللياقة البدنيـة، إلـى داخـل الغرفة، وتلقّت تقريرًا من بترونيلا، ورمقت باكس بشـك جليّ للغاية، وهذا بلا شك بسبب ضخامته، ولكن أيضًا بسبب تعبير الغضب الشديد الذي بدا على محياه منذ أن شاهد بيبي وهي تدمي وتتورم. وقد تبخّر أي تعجّب لدى جوليا من قصة بترونيلا الصادمة عندما ألقت نظرة عن قرب على جروح بيبي وتأكدت من أنها ليست حديثة. كانت قد تواجدت في الغرفة قبـل أقـل مـن نصـف سـاعة كي تعيد ضبط جهـاز مراقبة القلـب عندما انطلق جرس الإنذار دون سبب واضح، والذي كان يحدث من وقت إلى آخر، وفي تلك الزيارة، كان وجه بيبي سليمًا.

مع أنها لم تكن أقل حيرة من بقيتهم، إلا أن جوليا كانت تمتلك سمات المدير الناجح في هذا العصر الذي لا تنتهي فيه الدعاوى القضائية. أرادت أن يظـل الجميـع فـي أماكنهـم حتـى تأتي بمدير أمن المستشـفى كي يجري

مقابلات مصورة معهم في مكان الواقعة. اشتعل غضب نانسي في غير محله، ولكن سرعان ما هدأها ميرفي، وقد وعدتهم جوليا بالعودة خلال عشرة دقائق.

في غياب المشرفة على الوردية، لم تصبح المحادثة حادة مثلما توقع باكس. كان أربعتهم قد شهدوا حدثًا خارقًا للعادة، وعلى الرغم من أنهم قد شاهدوا بالضبط نفس الشيء ومن نفس الزاوية، إلا أن السلوك البشري الطبيعي في مواجهة المجهول كان يميل نحو إعادة تفسير التجربة حتى تنسيهم الحياة ما مروا به، حتى ينتقلوا إلى محادثة بشأن مواضيع خفيفة تتعلق بالأطباق الطائرة وذي القدم الكبيرة والأرواح الشريرة. ولعلهم كانوا مقيدين بحقيقة أن حياة بيبي – التي تُسلب منها بالفعل بسبب سرطان الدماغ – قد بدت فجأة في خطر محدق أكبر ومن قبل عدو مجهول، ويبدو في اللحظة الراهنة أنه يستحيل معرفة طبيعته. كان الحديث المقتضب الذي تبادلوه مع بعضهم البعض لا يزيد على كلمات للطمأنة، وكان اهتمامهم ببعضهم البعض أقل من اهتمامهم بالفتاة الجميلة المتمددة على الفراش، التي قد تصاب بجروح أخرى في أي لحظة بفعل حضور غير مرئي.

وفاءً بوعدها، عادت جوليا برفقة مدير الأمن في المستشفى، وهو محقق جنائي سابق كان قد تقاعد في أوائل الخمسينيات من العمر حتى يبدأ مهنة ثانية أقل خطرًا. كان شخصًا ذا شعر أبيض ووجه طويل بارز العظام مع هيبة فطرية جعلته يبدو قاضيًا أكثر من كونه شرطيًا، إذا كان القضاة ما زالوا هذه الأيام يتمتعون بالهيبة مثلما كانوا قديمًا. كان اسمه إدغار ألوين. قدم نفسه لنانسي وميرفي وباكس، مكررًا اسمه ولقبه لكل واحد منهم، وكأنهم لن يسمعوه إلا إذا نظر مباشرة في أعينهم. كانت مصافحته ثابتة، وسلوكه دافئًا، وقد أُعجب باكس بالرجل.

طلب ألوين الإذن من نانسي وميرفي لتصوير جروح الوجه الخاصة بابنتهم من على مقربة، وأكد لهم أن الصور ستبقى جزءًا من سجلها، ولن

تُـوزع إلا علـى عـدد محـدود من أفراد الطاقم الطبـي. لكنه بالكاد كان قد بدأ بتشـغيل الكاميرا عندما صرخ بسـبب شـيء ما، فتحلّق الجميع حول الفراش لرؤيـة اسـوداداً غيـر مفهوم لجسـد بيبي، وقد جرى تسـجيله هـذه المرة على الكاميرا وقت حدوثه.

-92-

الصدمة الثالثة والأخيرة

لـم يكـن وجـه بيبي مسـرح الأحداث هـذه المرة، ولم تكن التشـوهات كدمات وسجحات. كان ذراعاها يتمددان فوق الملاءة العليا والغطاء الرقيق. وكان الكـم الأيسـر للبيجامـا مرفوعـًا إلـى مرفقها. وعلى الجهـة الأمامية من ذراعها المكشوف - على بعد نحو بوصتين من عظام الرسغ - بدأت حروف سوداء في التكون بشكل دقيق واحدًا تلو الآخر، وكأن جلدها كان مخطوطة يطبع عليها رجل غير مرئي توقيعه، حتى يؤكد امتلاكه لها جسدًا وروحًا. ومع أن الكلمات لم تنطوي على لعنة أو اسـم شـيطاني، بدت الحروف السـوداء الجافة واحدًا تلو الآخر بنية غامضة يمكنهم اعتبارها نذير شؤم، بصرف النظر عن المعنى النهائي المقصود منها.

ارتد ميرفي من النص غير المفهوم وكأن الرسالة كانت تُنحت على جلد ابنتـه بسـكين، وأشـاح بوجهـه مرارًا فقط كي ينظر مجـددًا ويقول في كل مرة «هذا ليس جيدًا، هذا ليس جيدًا».

فـي مواجهـة الخـوف، كان الغضب وسـيلة دفاع غيـر ملائمة، ولم يكن بوسـع نانسـي الإبقـاء عليـه. وعند أسـفل الفـراش مجددًا، وقفـت مذعورة، وسُـلبت منهـا القـدرة علـى التحـرك أو الكلام، وهي في ذهـول من الحروف الظاهرة، وكأن هذه الكلمات ستنزل لعنة عليها وعلى ابنتها.

أمل باكس في سماع صوت بيبي في عقله مثلما حدث من قبل، حتى لو كان هذا مبهمًا مثل المرتين السابقتين. ولكن عندما انتهى السطران الأولان من تكوين اسم على ذراعها - ومع بدء السطر الثالث في التكون - لم يسمع شيئًا

ســوى تعابيــر الصدمــة من الممرضتيــن، وملاحظة من إدغار ألوين، الذي قال «هذا وشــم، أليس كذلك؟ وشــم بســيط للغاية، ربما أزيل بشكل سيء بالليزر ويعاود الظهور الآن. هل هذا ممكن؟»

فقالت نانسي «لم يكن لدى بيبي أي وشوم».

أطلق تأكيد نانســي – وليس التخمين – استســلامً لا إراديًا – وقنوطًا أو ربمــا يأسًــا – مــلأ قلــب باكــس. وعندما تحــدث، كانت نيتــه تصحيح معلومة تخص بيبي، وكأنه كان يوضح موقفها من الوشوم. قال «إنها لا تعارض فكرة الوشوم. بل وتعجب بها عندما تكون جميلة بحق. ولكن ليس لديها رغبة في الحصول على وشم. فهي تقول إن الوشوم وسيلة لإرضاء عاطفة أو أخرى، لكنها ترضي عواطفها بوسائل مختلفة».

بينمــا كان مديــر الأمــن يصــور ما يجــري، كانت الممرضتــان تراقبان في حيرة من اتضح له أن المسلمات بات مشكوكًا فيها، ووقفت نانسي في حالة من الرعب والعجز، في حين عضّ ميرفي على عقلة الإصبع لإحدى قبضتيه – حيث كانت القبضة تعبيرًا عن رغبته في مواجهة الشــخص المجهول الذي يعــذب ابنتــه، بينمــا مثّــل العض تعبيرًا عن الطفل الحائــر القابع داخله – بينما صبّت سدود شمس الغروب سيولاً من الضوء القرمزي على النافذة، وتكوّن السطر الرابع والأخير بسلاسة على ذراع بيبي – حرف أسود واحد في المرة – لتكــون الرســالة – أو الوعــد أو التحــدي أو أيًــا كانت – قد اكتملت: آشــلي بيل ستظل حية.

تساءل إدغار ألوين «من تكون آشلي بيل؟»

لم يكن أحد في الغرفة قد سمع عنها.

قالت نانســي «أين بيبي، وما هذا الاســم الموشــوم على ذراعها، وكيف يحدث هذا؟ ولماذا؟ لا أفهم شيئًا»

أدركت المرأة من اليأس الذي تملك صوتها أن زوجها – الذي عادة ما سارع لمواساتها وطمأنتها – شعر أنه ما عاد قادرًا على فعل ذلك. استدار نحو

باكس وعلى وجهه تعبير مألوف لأي قائد فرقة في المعركة؛ أراد النصيحة، فإن لم تكن الصيحة، فتأكيد لغرائزه، وإن لم يكن تأكيدًا، ليكن طمأنة إذًا.

لكن باكس شعر هنا بفقدان للأهلية لم يشعر به قط في أرض المعركة. شعر بالحيرة والعجز والغباء، وقد كره كل تلك المشاعر. كان هذا حاله في اللحظة الراهنة – وفي هذا الوضع غير المسبوق – لكنه لم يكن كذلك من قبل ولن يكون – بمشيئة الله – كذلك في المستقبل. منذ ذكرياته الأولى بشأن عائلته ومزرعة الجياد، كان هناك إيقاع لحياته يسير عليه دومًا، مهما حدث من تغييرات مؤقتة. وكان هذا الإيقاع ما يزال متواجدًا هناك، ولطالما كان كذلك. كان الإيقاع شيئًا خارج روحه وليس من وضعه، وكل ما احتاج إليه هو الاستماع إليه مجددًا.

توجهت نانسي نحو الجهة اليمنى من بيبي وأمسكت بيدها. لكنها بدت إما مستاءة من ارتخاء هذه اليد أو – على الأرجح – ليست مستاءة وإنما مثبطة بسبب انعدام الحياة الذي مثلته. ولعل الكلمات الأربع البسيطة ولكن الغامضة – التي لم تتمكن من رفع عينيها عنها – تشي لها بنظام عالمي لم تفكر فيه ويحتاج إلى أن تسلك نمطًا من التفكير تجده مزعجًا أو متعبًا، في حين بدا لباكس أن إجهاد نانسي يعزى إلى شخصيتها المعقدة، وأنه ليس مجرد حزن نابع من المحنة التي نزلت على ابنتها. وأيًا كانت المخاوف الأخرى التي تزعجها، فقد ابتعدت عن الفراش وذهبت إلى النافذة وحدقت في السماء الواسعة، حيث اصطفت النوارس عبر هواء المحيط أو أمسكت بأمواج الريح وحلّقت بدون الحاجة إلى التفكير في وجهتها.

كان ما يزال يتعين على إدغار ألوين تصوير إفادة أحدهم بشأن الظهور الغامض للجروح على وجه بيبي. وعندما كان يهم بفعل ذلك بمساعدة بترونيلا، فُتح الباب ودخل طبيب شاب يرتدي معطفًا أبيض ، بعد أن أبلغ بالجروح غير العادية ولكن لم يكن قد عرف بشأن الوشم بعد. اتجه مباشرة صوب المريضة وأصيب بنفس القدر من الذهول والقلق مما رأى. سارع

الرجل إلى الاستماع بانتباه شديد بينما كانت بترونيلا تخبر نسختها مما جرى أمام كاميرا ألوين. وقد أدى قلق الطبيب العميق والصادق الواضح للعيان إلى إعجاب باكس به حتى قبل أن يتعرفا على بعضهما البعض.

قال الدكتور سانجاي تشاندرا – بعد أن تصافحا – «عندما أخبرت بيبي أن أمامها عام كحد أقصى كي تعيش، رمقتني بتلك النظرة، ويا لها من نظرة، ولا أحسب أنه كان بوسعي أن أشيح بنظري بعيدًا حتى لو حاولت، ثم قالت «حقًا؟ عام واحد فقط؟ سنرى، سنرى!» لقد كنت مبهورًا بها، وبدأت أعتقد في المستحيل، وقلت في نفسي، حسنًا، لعلها ستصمد لعام أو عامين إضافيين، بل ولعلها تكون أول من يهزم المرض الخبيث، وتحقق المعجزة. ولكن الآن مع هذه الغيبوبة وهذه...الظاهرة العجيبة. لا أدري ماذا أستنتج من هذا. سأحتاج إلى استشارات مكثفة من زملائي؛ من أطباء أورام وأعصاب آخرين. بل إنني حتى أجهل مع من يجب أن أتواصل».

دار حول الفراش نحو يسار بيبي، صوب جهاز الرسم الكهربائي للدماغ الذي وُضع على عربة متنقلة. وبينما كان يستخدم لوحة المفاتيح ويشير إلى أشياء لفتت انتباهه أمامه على الشاشة، تحدث عن موجات الدماغ الخمس – غاما وبيتا وألفا وثيتا ودلتا – وعن نطاق تردداتها وسعتها، ووظيفتها في ضمان السلامة العقلية. في بعض الأحيان، كانت تظهر عشرين قراءة لموجات على الشاشة – وليس خمسة فقط – لكنها كانت تمثل الموجات القادمة من الأقطاب المتعددة المتصلة بالقلنسوة الكهربية التي ترتديها بيبي. كان بوسع النظام أيضًا إنتاج خريطة ثلاثية الأبعاد للدماغ من أربعة زوايا، وقد عرض الدكتور تشاندرا بعضًا من تلك الصور على الشاشة، لكنها لم تكن خرائط لدماغ بيبي في اللحظة الراهنة، وإنما دراسات منتقاة من الأيام القليلة الماضية، التي كان قد أبدى عليها بعض التعليقات. كانت هناك خاصية أخرى تسمى التحليل المنطقي وأخرى تسمى عرض أطياف الطاقة.

فهم باكس أكثر مما كان سيفعل لو أن أحدًا بخلاف الدكتور تشاندرا هو

من شرح الأمر، بيد أن معظم المعلومات مرت بعيدًا عن إدراكه مثل طائرة بوينغ 747 تحلق على ارتفاع شديد.

إلا أن الحيرة تملكته بسبب تعقيد الموقف، وهذا كان كافيًا لتأكيد شكوكه. كان هناك شيء غير مسبوق يحدث هنا، شيء مترابط منطقيًا بقدر كونه غريبًا. وقد يكون تطورًا تاريخيًا في سجلات الطب، ولكن قد يكون تاريخيًا أيضًا على النطاق الأوسع.

كانت كل موجة من الموجات الخمس مؤشرًا على وظيفة محددة للدماغ، وكان هناك مستوى قياسي يمثل الأداء الأمثل. ترتبط موجات غاما بوظائف التعلم والمعرفة والتصور ومعالجة البيانات والربط بين كافة الحواس بترتيب منطقي. وكان الانخفاض الشديد في نشاط موجات غاما يشير إلى معوقات في التعلم والاكتئاب، في حين أن الزيادة الشديدة في نشاطها يدل على القلق والإجهاد. وتضمن المستويات المثالية من موجات بيتا قوة الذاكرة والقجرة على حل المشكلات. بينما مثلت موجات ألفا المثالية حالة الاسترخاء مع التركيز الجيد، وعدم حدوث أحلام اليقظة. وتدل مستويات موجات ثيتا النموذجية على أن قدرتك الإبداعية واتصالاتك العاطفية وحدسك تعمل جميعها بأقصى طاقتها. وأخيرًا تشير مستويات موجات دلتا المثالية على أن جهاز المناعة والقدرة الطبيعية على التعافي يعملان بكفاءة، وتشير أيضًا إلى نوم عميق ومسترخٍ.

قال الدكتور تشاندرا «عندما يكون المرء مستيقظًا، تكون الموجات الخمس حاضرة دومًا، لكن إحداها تهيمن على البقية في أي لحظة بعينها، اعتمادًا على حالة الوعي التي تتملكه الآن».

لا بد أن نانسي وميرفي كانا قد سمعا هذا من قبل، لكنها أدارت ظهرها نحو النافذة للاستماع، واقترب ميرفي من باكس، مركزًا اهتمامه بالكامل على الطبيب، وكذا فعلت الممرضان.

صوّر إدغار ألوين الدكتور تشاندرا، ربما ليس كجزء من ملف تجنب

الدعوى القضائية، وإنما لأنه شعر هو الآخر أن التاريخ ربما يُكتب في هذه اللحظة، وهذه الغرفة.

قال سانجاي تشاندرا – بعد أن استدعى رسمًا توضيحيًا أبسط على الشاشة يكشف عن أنماط الموجات الخمس لدماغ بيبي في الوقت الحقيقي – «ولكن ليس هناك في أي لحظة موجة مهيمنة في دماغها. ففي اللحظة الراهنة، كل من هذه الأنماط مثالي وقياسي، وهذه سابقة من نوعها؛ إذ أن هذا لم يُشاهد من قبل، حتى ظهرت هي. وهي على هذا الحال من أن وصلناها بجهاز رسم كهرباء الدماغ صباح الخميس، قبل ثلاثة أيام ونصف».

سأله باكستون «هل يحتمل أن يكون الأمر عيبًا في الآلة؟»

«كلا. هذا ما ظنناه في البداية. لكن هذا هو ثاني جهاز رسم كهرباء الدماغ نستخدمه. وهو يظهر نفس النتائج مثل الأول».

سأل ألوين ملحًا على الطبيب من أجل التسجيل «ماذا يعني هذا؟»

نظر تشاندرا إلى الشاشة في صمت للحظات، وهو متعجب من الموجات الخمس الراقصة، وقال «يعني أنه منذ دخولها في الغيبوبة، لم تكن في غيبوبة بحق على الإطلاق، ليس وفق إدراكنا لمعنى الغيبوبة. لقد دخلت في حالات وعي متعددة ومتزامنة، بينما بقيتنا يظل دومًا في حالة واحدة فقط. وهي في نفس الوقت في سبات عميق وعند مستوى إدراك مرتفع. إنها تتعلم وتعالج المعلومات بحدة وتبحث بسرعة كبيرة في ذاكرتها وتحل المشكلات وتبدو في قمة الإبداع، وتحافظ على اتصال عاطفي قوي، بينما هي أيضًا تغط في نوم عميق وتحلم».

أتى الصوت المحبب إلى عقل باكس عندئذٍ، وكان أوضح مما كان عليه في المناسبتين السابقتين، وهو الصوت الذي تمنى أن يسمعه مجددا. وعلى الرغم من أنها لم تقل سوى عشر كلمات، فقد كانت ذات أهمية وتأثير قويين إلى الحد الذي دفعه – في ذهول – كي يقبض على مسند القدم للفراش لتثبيت نفسه، ولو كان هناك كرسي بالقرب منه، لارتمى عليه بعنف.

-93-

من القلب إلى القلب في ساعة عصيبة

خرجت بيبي من الغرفة رقم 6 بعد منتصف ليل لاغونا. وإذا كان هناك شيء ما قد حك وخدش وطرق على النوافذ والباب للفت انتباهها، فهو إما قد غادر الآن أو يراقبها من بقعة خفية في كسوف الضباب الأبيض. مشت – وهي تحمل الخريطة الإلكترونية في يسارها والمسدس في يمينها – عبر السحب الكثيفة التي احتاج الأمر إلى رادار ملاحة للسير على هدى، وكان الهدوء يعم أرجاء المدينة وكأن وباءً لم يترك حيوانًا أو حشرة حية في طريقه. وفي الأودية الضيقة، اختارت الذئاب الجوع على المطاردة العمياء وخلدت إلى النوم. ووقفت الطيور في أعشاشها صامتة وملفوفة في أجنحتها. وحدها مصابيح الإنارة – بترتيبها المنظم – كان يمكن التعرف على هويتها. أما سائر الأضواء – سواءً في المنازل أو المكاتب، أو الكنائس التي يسكنها قساوسة يتوقعون قدوم متحولين عن الدين في ساعة متأخرة – فقد كانت مشوشة وضعيفة، وليس لها نمط محدد، ويستحيل معرفة مكانها، وكانت بعضها محاطة بهالة ضعيفة أو عدة هالات، وأخرى كانت مثل مجارٍ للضوء لا يفصلها سوى القليل عن التحول إلى الظلام مثل النجوم الميتة.

كان بالإمكان حدوث أي شيء في هذا المستنقع، وكان بمقدور أي شيء أن يختطفها إن شاء. لكنها وصلت سليمة معافاة إلى سيارة الهوندا الخاصة ببوغو.

بعد أن وضعت جهاز تحديد المواقع المحمول والمسدس وحقيبتها على مقعد الركاب واستقرت خلف المقود وأغلقت الأبواب، فكرت في

الاتصال بباكس. لو أنه كان قد اتصل بها خلال اليوم المنقضي، لكان قد تلقى إما بريدًا صوتيًا أو ردًا من تيريزن، بما أنها كانت قد تخلصت من هاتفها مع سيارة فورد إكسبلورر الخاصة بها. لكنه بطبيعة الحال لم يتواصل معها، لأنه كان في مهمة تحكمها أوامر بالعمل في الخفاء. وإذا ما حاولت الاتصال به، فلن تجني سوى خيبة الأمل من فشل المحاولة.

لولا الضباب، لما كانت لتزعج نفسها بتشغيل جهاز تحديد المواقع. كانت قد حفظت عن ظهر قلب الطريق نحو 11 طريق سونومابر، حيث ستعثر على الرهينة آشلي بيل، إذا كانت آخر جلسة قراءة طالع أجرتها كاليدا قد أنتجت في الواقع معرفة خفية قبل أن تُقتل وتُقطع أصابعها. بيد أنه في ظل هذه السحب الكثيفة، كان الإرشاد الصوتي الذي حسب بدقة المسافة نحو كل منعطف سيمثل مساعدة كبيرة.

شغلت المحرك وأشعلت المصابيح الأمامية، التي أضاءت مسافة تتراوح بين اثنتا عشر أو أربعة عشر قدمًا في السحب المنخفضة، ولكن قبل أن تبتعد عن الرصيف، طغت عليها الرغبة والحاجة إلى التحدث إلى باكس وكأنه يسمعها – على الجانب الأقصى من العالم – بدون هاتف. كان هذا هو جنون الرومانسية لطفلة أو فتاة مراهقة، لكنها تمثل الحالتين إلى جانب كونها بالغة، حيث ظلت كما كانت دومًا.

أغمضت عينيها وسحبت بضعة أنفاس عميقة وفكرت في التعبير عن حبها وشوقها إليه. لكنها عندما تحدثت، فاجأت نفسها بالقول «أحتاج إليك يا باكس. لستُ أحلم. اعثر علي».

لم يسمع أحد آخر بيبي، إلا أن صوتها أتى عاليًا وبوضوح إلى باكستون. أحتاج إليك يا باكس. لستُ أحلم. اعثر علي.

لو أنه – منذ أن وطأت قدماه غرفة المستشفى – لم يكن قد سمع صوتها مرتين من قبل، فلربما ظن أنه تصور الأمر أو ربما أهدر الوقت في محاولة تفسيره. كانت الحادثتان الماضيتان – التواء اللسان الذي اشتمل على اسم

بترونيلا، والحديث عن نقطة السكون التي يتجمع عندها الماضي والمستقبل – قد أعدته لتقبل حقيقة الظاهرة والبقاء متحفزًا لكل كلمة قد تصدر ولغموض ما نطقت به.

على النقيض من الهاتف السابق – أو أيًا كانت طبيعته – كان هذا موجهًا إليه بالاسم. بينما هي في غيبوبة – وهي تبدو غير واعية بوجود أي أحد حولها – لا بد أن بيبي قد عرفت بوصوله. كان قد قرأ هو الآخر عن مرضى الغيبوبة الذين – بعد استيقاظهم – تحدثوا عن سماع كل كلمة قيلت حولهم بينما هم يبدون فاقدين للإحساس. وإن كان ثمة أحد في وضع منعزل ما ويتمسك بقوة بعالم الواقع الكائن أعلى حدود النوم، ستكون حبيبته بيبي، التي عشقت العالم وكافة عجائبه.

الأكثر من ذلك أنها قد تحدثت إليه في اللحظة التي قال فيها الدكتور تشاندرا إنها تمر بمراحل متعددة من الوعي في آن واحد بينما هي أيضًا في سبات عميق وتحلم. ولا بد أنها قد سمعت الطبيب، وقد ذكرت تحديدًا أنها لا تحلم، على الرغم مما يمكن قراءته في موجات الدماغ، وحركة العين السريعة، التي دلت دومًا على أن النائم يغط عميقًا في أحلامه.

بدأ إدغار ألوين في تصوير الممرضة جوليا وكافة المتواجدين في الغرفة باستثناء باكس، الذي كان منهمكًا في تأمل الظهور الخارق للطبيعة للوشم ذي الكلمات الأربع.

اعثر علي، قالت بيبي، اعثر علي. كانت تتمدد في الفراش هناك أمام عينيه، ولم تكن ثمة حاجة للعثور عليها. كان بوسع باكس أن يرجع استغاثتها إلى هذيان أو مجرد ارتكاب أصاب دماغها عندما ضاعت في عالم الغيبوبة الزائف، مهما بدا ذلك. لكنها بدت على طبيعتها للغاية وتتحدث في صلب الموضوع بثبات، ولم يظهر عليها الفزع أو الحيرة، ولكن بدت هادئة ومصممة على أن يُسمع صوتها. كان يجهل كيف أمكنها التواصل معه بهذه الطريقة أو لماذا عجزت عن نقل طبيعة محنتها وحاجاتها بشكل أكثر تفصيلاً وإفادة،

لكن القيود التي كانت مفروضة عليها لم تكن عذرًا بالنسبة إليه لتجاهل طلبها أو انتظار المزيد من الاتصالات التي قد لا تأتي قط.

ولكن إن لم تكن بيبي - أيًا كان عمق ووحشة المكان الذي تسكنه حاليًا - حائرة، فقد كان باكس كذلك، ولم يكن يدري ماذا بوسعه أن يفعل كي يساعدها.

كان الضباب غير المنظم يتراقص أمام ضوء المصابيح الأمامية وكأنه يحاول أن يجد هيئة مناسبة يتلبسها من الآن فصاعدًا، وكان الأزيز المنخفض لمحرك السيارة يشبه تعبير حيوان عن بهجته للمغامرة الموعودة، والزفرات الرقيقة الأولى للحرارة الصادرة من الأرضية وفتحات التهوية في لوحة التحكم، والضوء الساحر القادم من لوحة الأدوات والمنعكس على عينيها وهي تشاهد نظرتها المظلمة في مرآة الرؤية الخلفية...بدت كل تفاصيل اللحظة فجأة تنذر بحدث سيقع، مفعم بمعنى خفي وجاهز لاستشرافه ببلورة سحرية أو أوراق الشاي أو الحروف الخشبية.

جلست بيبي خلف المقود، وهي تتفكر فيما قالته بصوت عالٍ لباكس، وهي تتساءل لماذا قالته. وعلى الرغم من أنه كان على الجانب الآخر من الكوكب، فإن حقيقة تحدثها إليه لم تكن غريبة عليها، وإنما ما قالته فقط. لماذا قالت إنها لا تحلم، عندما لم تكن كذلك بطبيعة الحال، وهي مستيقظة تمامًا؟ لماذا تطلب منه العثور عليها بينما هي ليست ضائعة؟ كانت تتفهم جزئية الاحتياج إليه. فلطالما احتاجت إليه. وفي خضم الجنون السائد الآن، كان وجوده بجوارها فقط سيقلل حدة الجنون في الليل.

كانت قد تذكرت الشيء الهام الذي عرفته منذ أن غادرت شقتها وبدأت رحلة الهرب؛ وهو أنها أخفت أسرارًا عن نفسها، وفقدت جوانب من حياتها بفعل حيلة الذاكرة الخاصة بالقائد. ولأنها كانت قد استعادت جزءًا من تلك الذكريات، فهي تدرك الآن أنها لم تتحول إلى رماد وقُذف بها إلى الأبد. كانت الذكريات مخفية ومخزنة بانتظار من يكتشفها. ولعل الإجابة على سؤال لماذا

قالت ما قالته لباكستون تتجلى لها عندما تجد صندوق الذكريات، وتحدث ثقبًا فيه وتستخرج ما بداخله وتتعلمه كاملاً. وفي غضون ذلك، لم يكن بمقدورها فهم نفسها أو تثق في نفسها بشكل كامل، وهو ما كان يثير الاستياء ولكن ليس بنفس مقدار الاستياء الناتج عن الموت بالسرطان.

قالت «امضي قدمًا يا بيبز». لم تكن الفتاة الوحيدة الواقعة في المتاعب. ستلقى آشلي بيل حتفها - وتعاني أهوالاً وإذلالاً لا يعلم مداه إلا الله قبل الإجهاز عليها - على الأرجح بعد مرور أربعة وعشرين ساعة من الآن. عندما ابتعدت عن الرصيف وقادت السيارة ببطء جنوبًا في طريق باسيفيك كوست السريع، بدأ جهاز تحديد المواقع في عرض الاتجاهات، وكأنه كان مرشدًا روحيًا صغيرًا يقبع داخل صندوق.

كان باكس معتادًا على معرفة ما يجب فعله وإنجازه. وكان تدريب وحدة القوات الخاصة بمنزلة كارثة عقلية وجسدية وعاطفية، واختبار يلامس حدود الدمار لتفتيت المرء وبنائه بشكل أفضل، بما لا يستطيع معه خريج جامعة هارفارد العريقة مجاراته، حيث يجري غرس معاني الشرف والشجاعة والنزاهة والأخلاق التي يمكنها الصمود حتى في أحلك لحظات الحرب، وفي نفس الوقت يجري خلق أجواء من الأخوة تبقى صامدة إلى الأبد. وكان الغرض من دراسة العمليات الخاصة هو صنع جندي واثق في نفسه بلا تكبّر، وجريء بلا تهور، وحصيف ولكن لا يتورع عن خوض المخاطر المحسوبة، وماكر وليس مجرد فطن، وراسخ العزم بلا عناد، من كافة الجوانب العقلية والجسدية والعاطفية، وقوي بما يكفي لتلقين العدو درسًا. إن المرء يصبح عنصرًا في القوات الخاصة كي يكون قادرًا على فعل ما هو ضروري، وعجزه عن فعل المطلوب يعني الموت في خزي.

كان يشعر بالخزي وهو يراقب إدغار ألوين يصور إفادة ميرفي ويراقب بيبي تتمدد بلا حراك في فراشها. إنها تتعرض لهجمة ضارية من قبل السرطان والغيبوبة، ولكن ثمة شيء آخر يجري بحق الله، شيء أثار حماسة الخبراء

الطبيين بقدر ما سبب الحيرة لهم، شيء ما اعتقد باكس أنه الخلاص لخليلته. لكنه كان مترددًا في ترك العنان لتفاؤله، مثلما اعتاد أن يفعل، لأن هذا العالم قدم آمالاً زائفة أكثر من الحقيقية.

حينئذٍ فقط، فتحت الإجابة على سؤاله – ماذا أفعل؟ – الباب ودخلت الغرفة. إنه بوغو. اسمه هو أفيريل بيومونت ستانهوب الثالث، لكن الجميع كان يناديه بوغو، جزئيًا لأنه لم يكن يرد على أي اسم آخر. كان أفضل صديق لبيبي منذ أمد طويل، وأقرب إليها من أي صديقة. لم تكن تعرف أصل كنيته، فهو معروف باسم بوغو منذ أن عرفته. احترم باكس الفتى ووجده صحبة صالحة، لكنه مع ذلك لم يعرفه جيدًا. وقد أدرك فقط أن بوغو تظاهر بالغباء مع معظم الناس لكنه لم يكن كذلك، وأنه لم يكن يهتم بالمال حقًا، وأنه تظاهر بالكسل على غير الحقيقة، وأنه على الرغم من وسامته الشديدة، فقد افتقر إلى الغرور لدرجة أنه لم يكن يحتاج إلا إلى مرآة فقط أثناء الحلاقة.

صافح بوغو يد باكس، ولكن في طريقه نحو فراش المستشفى، حيث وقف ينظر إلى بيبي، اغرورقت عيناه بالدموع لحظة أن رآها. وعندما شرع إدغار ألوين في توثيق إفادة نانسي، عرف بوغو ما قاسى الجميع منه. رأى باكس الفتى وهو قد لمع وجهه بعد أن ألهمت الطبيعة الخارقة لهذه الأحداث الأخيرة الأمل، ولكن ما سرعان ما سيطر الحزن على محياه، وكأنه قد تصور بشكل فطري الخطر الذي يكتنف التفاؤل الشديد، فسار على نهج باكس.

عندما جذب بوغو جانبًا، قال باكس بصوت منخفض «ربما تكون هناك بعض الأشياء التي يمكننا فعلها لمساعدتها، ولكن ليس هنا»

«أي أشياء؟»

«تخميني هو أنني سأكتشف هذا عندما نمضي»

«ستكتشف الأمر...لكنه حقيقي؟»

«بلا مزاح. لقد سمعت بنفسك ما قالت نانسي إنه قد حدث. هناك المزيد مما لا يعرفونه»

«لكنك تعرفه»

«صحيح»

على الرغم من أن بيبي كانت قد قالت أن بوغو واقعي، إلا أن الفتى أثبت أنه ليس أحد المشككين الحمقى الذين جعلوا العالم مكانًا أكثر كآبة بالتشكيك في الدوافع وحكمة أي شخص لا يتفق معهم. تحلى بالشجاعة فجأة وقال «ماذا تريد مني أن أفعل؟»

«هل لديك سيارة؟»

«أجل. أسميها سيارة» قال بوغو وهو يمسح عينيه بأصابعه، ثم مجففًا أصابعه في سرواله، ثم أضاف «لكن الكثير من الناس لديهم أسماء أخرى لها. سيارة هوندا ابنة ثلاثين ربيعًا، مخصصة للزينة أساسًا، ولكن ما تزال جميلة بطريقتها الفريدة. أنا من سيقود؟»

«ولِمَ لا تقود؟ إنها سيارتك»

ابتسم بوغو وقال «يا رجل، هذا قد يكون مقدسًا تمامًا...أنا في الطريق لإنقاذ بيبي مع الرجل الأخضر الخارق الذي يركب بندقية صيد».

-7-

فتاتان في حاجة
إلى من يعثر عليهما

-94-

الفتاة التي نظن أننا نعرفها

قـذف باكـس حقيبتـه علـى المقعـد الخلفـي للهوندا، وجلـس في مقعد الـركاب الأمامـي، وأغلـق الباب بينما كان بوغو يشـغل المحرك، وهو ما حل لغز ما إذا كانت السيارة خردة مثلما بدت أم لا. لم تكن كذلك.

«غيرت المحرك»

«كل حين وآخر»

«لعلها تكون مدرعة هامفي متنكرة في زي هوندا»

فقال بوغو «لو كانت هذه الجميلة من فصيلة المتحولين، فعلى الأرجح ستتحول إلى سيارة دودج تشارجر موديل عام 1968».

«هذا أفضل ما يمكن أن تصل إليه. محركها من فئة 440 ماغنوم؟»

«لديك خبرة في المحركات» قال بوغو بعد أن خرج من موقف السيارات وانعطف يمينًا إلى داخل الشارع.

قال باكس «اضطررتَ لخلق مساحة تكفي المحرك الجديد. لكن الهيكل يبدو سليمًا».

ابتسم بوغو وقال «ما كانت لتكون مميزة لو بقي شكلها كما كان»

كانا في طريقهما إلى شـقة بيبي؛ إذ بدا أن هذا هو المكان الأمثل للبدء منه. كانت نانسـي قد أعطتهما مفتاح الشـقة، لاعتقادها فقط أن باكس سـيقيم هناك، وليس لأن لديه أغراضًا أخرى أيضًا.

سأله بوغو «هل تعتقد أحيانًا أن بيبي التي نعرفها ليست بيبي الحقيقية؟»

«إنهـا كمـا تصـف نفسـها بالضبط. هـذا جزء من جمالهـا. لا تخادع ولا

ترتدي أقنعة. لكنني أفهم ما تقصده. إنها تمثل لغزًا في الوقت نفسه».

قـال بوغـو «إنهـا بئر عميقة، ولديها هذه الأنهار التي تجري داخلها، التي نبعـت مـن مـكان ما عميق للغاية لو حاولت الغوص فيه ستُسـحق، تعلم، من وزن المياه العظيمة في الأعلى»

أومأ باكس بالموافقة وقال «تبدو أحيانًا أنها لا تعرف عن نفسـها ما قلته للتو».

ضغـط بوغـو علـى المكابح لدى إحدى الإشـارات الحمراء، ثم تحدث بـدون أن ينظـر إلـى باكـس، مـع أن كلاهما كانا يرتديان نظارات شمسـية، ما يجعلهما بشكل ما محصنين ضد انكشاف عواطفهما. قال «لا أدري إن كنتُ سأحب أحدًا بقدر حبي لبيبز. إنها بمنزلة أخت لي، أخت وأخ وأفضل صديق، إنها حزمة متكاملة. وهذا يعني الكثير لي يا رجل، وما كنت لأحاول قط تغيير أي من خصالها، وأفسد جمال روحها»

«أدري. لست مضطرًا لقول ذلك. هذا هو نفس شعورها»

«أردت فقـط أن تكـون الأمـور واضحـة بيننا. لقد غمرتني السـعادة حين التقيتك للمرة الأولى وكنت كما وصفتك هي»

«إنها تستحقني، أليس كذلك؟»

«تستحق ما هو أفضل، لكنك تستحق الاختيار»

ضحك باكس، وتغير لون الإشـارة، فقال «هل فكرت قط في الانخراط في مشاة البحرية؟ أحسب أنك ستنجح في هذا المجال»

«لقـد وُلـدت مـن أجـل البحرية، بمعناها الآخر. أنا ابـن المحيط، وليس الجيش. ليس لدي الطموح».

فقال باكس «أعرف. أنت تمتلك الإلهام وليس الطموح. وتفضل المهارة عن المال والشرف عن الشهرة»

«لقد خلطت بيني وبين بوغو آخر يا رجل»

«لا أظـن ذلـك. لـدي قـدرة على رؤية الناس علـى حقيقتهم. وكما قلت

أنت، لدي خبرة في المحركات»

ساد الصمت بينهما لبعض الوقت. وعلى الرغم من أن الطقس كان معتدلاً، فإن ضوء شمس شهر مارس/ آذار القوي أضفى مسحة شتوية على زجاج النوافذ وجدران الجص البيضاء، بل ورسم حوافًا لامعة مثل الثلج على أوراق النخيل الخضراء المتيبسة.

سأله بوغو «هل تعتقد حقًا أنه بوسعنا مساعدتها؟»

«لا يمكنني التفكير في خلاف ذلك»

«لكن هذا سرطان في الدماغ وغيبوبة. اللعنة. الكثير من الأنباء السيئة»

«سرطان، أجل. ولكن ليس هناك غيبوبة. هذا ما أثبتته أمواج الدماغ. هذه ليست غيبوبة»

«فماذا تكون إذًا؟»

كان باكس يفكر في الأمر منذ أن جاءه صوت بيبي في المرة الثالثة. قال «إننا نراها مستلقية على الفراش، ونظن أنها هي، أنها بيبي، ولكن ربما ليست هي. ليست هي على الإطلاق، على أي حال»

بينما كان يدخل إلى موقف السيارات الواقع خلف المجمع السكني الذي يضم شقة بيبي، قال بوغو «أخبرني أنك لا تنوي قذف قنبلة دخان على كيان شرير مجهول»

«عندما تكون نائمًا وتحلم، فأنت تعتبر ميتًا بشكل ما بالنسبة إلى العالم الحقيقي، وتعيش داخل الحلم. لكن بيبي لا تحلم، وإنما...»

«وفقا لموجات الدماغ، هي تحلم»

«لكن جهاز رسم كهرباء الدماغ يقول أيضًا إنها مستيقظة، وهي ليست الحالة أيضًا. على أي حال، لقد قالت إنها لا تحلم»

«قالت؟ متى قالت؟»

بعدما أوقف بوغو الهوندا بين سيارتين أحدث ومن طراز أرقى، تنهد باكس وقال «حسنًا، إليك ما جرى». أعاد ذكر المرات الثلاث التي تحدثت

فيها بيبي داخل رأسه. وأضاف «من ناحية، إنها تعي ما يجري حولها في غرفة المستشفى...لكنها لا تعيش هناك حاليًا».

«حقًا؟ أين تعيش إذًا»

«اللعنة لو كنت أعرف»

«تعيش في مكان ما بدون جسدها»

«لا أقول إن هذا يبدو منطقيًا»

«ظننتُ أن هذا ما تقوله بالضبط»

«ما أقوله – سواءً بدا منطقيًا أم لا – إن هذا ما يبدو حقيقيًا. وهي تريد مني – ومنا – أن نعثر عليها»

أطفأ بوغو المحرك. كان ذا شعر أشقر وبشرة سمراء وعينين داكنتين وصافيتين مثل الياقوت، وقد بدا في المجمل مثل قبطان سفينة في طور التشكل أكثر من كونه فتى تزلج على المياه من كاليفورنيا. كانت تحيط به هالة من الكفاءة والمسئولية يمكن رؤيتها في ملامح وجهه، بيد أنه قد يمر عقد أو اثنين قبل أن يظهر دليل قوي على ذلك ويراه الجميع. إلا أنه مهما تقمص من شخصيات، سيظل إلى الأبد ابن المحيط؛ فبمجرد أن ينظر المرء إليه، سيكون قادرًا على سماع صوت الأمواج وهي تتكسر على صخور الشاطئ. قال بوغو بعد قليل من التفكير «لا أدري إن كنت أؤمن بتوارد الخواطر أم لا».

فقال باكس مقرًا «لا أدري إن كنت كذلك أيضًا. ولكن ثمة شيء وحيد أدركه، وهو أينما كانت – حتى لو كان حلمًا – فإن ما يحدث لها هناك يؤثر عليها هنا. الكدمات والسجحات والوشم».

«هذا عجب عجاب»

«لدي حدس أنه عندما نكتشف الأمر، لن يثير العجب على الإطلاق. عندما نمتلك كل قطع الأحجية، سيبدو الأمر منطقيًا تمامًا»

«يا لك من ماكر، أقنعتني بالاشتراك في هذا في المستشفى، قبل أن تخبرني أنها مهمة موحلة»

«كنت ستشترك فيها بكامل إرادتك على أي حال. ماذا تقصد بموحلة؟»

«مثل المتزلج الأحمق، الذي بالكاد يقف على اللوح، وفي معظم الأحيان ينتهي به الأمر وقد غُرس رأسه في أعشاب البحر. كنت هكذا قبل أن تعلمني هي الحركات الصحيحة. اعثر علي، صحيح؟ كيف ذلك؟»

قال باكس بعد أن خلع نظارته الشمسية «يبدو لي أنه من المنطقي البدء هنا في الشقة».

خلـع بوغـو نظارتـه هـو الآخر وقال «مـاذا لو علقنا في مغامرة شـيرلوك هذه؟»

«لن يحدث»

قال بوغو – بعد أن فتح باكس باب السيارة – «ما يحدث لها هناك يؤثر عليها هنا؟»

أدار باكس رأسه ونظر إلى بوغو في عينيه. كان يدرك ما السؤال التالي، لأن أي شخص يحبها بحق كان سيطرح نفس السؤال.

قال الفتى «فماذا لو...ماذا لو ماتت هناك؟»

«لن تموت» قال باكس، ثم ترجل من السيارة.

-95-

منزل مألوف لم تراه من قبل

أرشد صوت امرأة قوي ولكن ودود - التي ربما كانت تعمل ممرضة أو معلمة في المدرسة الإبتدائية قبيل تسجيل الاتجاهات لنظام تحديد المواقع - بيبي عبر الضباب والظلام. قادت الأخيرة السيارة جنوبًا على طول الساحل نحو طريق لاغونا الضيقة، ثم ابتعدت عن الساحل وسارت على طول ذلك الطريق المتعرج، الذي كانت له امتداداته الخطرة حتى في أحسن الظروف الجوية.

لم تكن تعتقد بالخرافات التي تتعلق بعالم ما بعد منتصف الليل، ولم تؤمن بأنها قد دخلت الساعة السحرية التي تملأ فيها ساحرات تركبن عصا المكنسة السماء، بيد أنه تملكها شعور بأن حدثًا غريبًا ومفزعًا على وشك الحدوث في هذه الليلة بعينها، وليس في ليلة أخرى. نقر الفزع المبرر على أوتار أعصابها حتى كادت تصدق أن العالم - من وراء طوفان الضباب - يعاد تنظيمه مثل مسرح عملاق يخضع لتعديلات في بنيته. وكان يوازن هذا الخوف غير العقلاني شعور فطري بأن باكس عائد إليها، وأنه في الواقع بالقرب منها بالفعل. ومن وقت إلى آخر، كانت تنظر على يمينها، مع توقع غريب أنه يجلس على مقعد الركاب المجاور لها، لكنه بطبيعة الحال لم يكن هناك.

مع انعطاف الطريق الضيق بين التلال المائلة، تحول الضباب - الذي تنقل ببطء مثل مجموعات ضخمة من الملابس البيضاء المبللة - تدريجيًا إلى ستائر شفافة ثم إلى قصاصات معزولة عن بعضها البعض. وعندما مرت أسفل الطريق السريع الأول لتدخل الثاني بعد مرورها بالضيق، اختفى الضباب كلية،

وبعد حين – بعد أن مرت أسفل الطريق السريع الثالث – وصلت إلى أرض معزولة ذات تلال منخفضة ومروج قاحلة وعشب ضامر، وبدت كئيبة في الليلة القمرية الباردة.

تحدثت رفيقتها الافتراضية – التي خلا إرشادها الموجز إلى حد الآن من أي عيوب – لأول مرة خارج السياق، وهو شيء مستحيل. بدا الصوت مثل صوت فتاة صغيرة وهي تقول «على بعد مئتي ياردة، سترغبين في التوقف لدى المنزل الكائن على الجهة اليسرى».

كان الطريق السريع يعلو مرتفعًا صغيرًا وينعطف يمينًا عند نزوله، وقد استقر المنزل الموعود في المقدمة بأضوائه الخافتة ونوافذه المغطاة بالستائر. تسبب شيئان يخصان المنزل ذي الطوابق الثلاثة في رفع بيبي قدمها عن دواسة البنزين وترك السيارة تنزل برفق عن المنحدر. الأول، لم يبدُ المنزل فحسب أنه لا ينتمي إلى كاليفورنيا، وإنما بدا أيضًا أنه يقع في قارة أخرى، ليس هنا في منطقة مفتوحة، وإنما في شارع في إحدى المدن، مع وجود الكثير من المنازل حوله. وعلى الرغم من افتقاره إلى شرفة أو رواق بأعمدة، ومع عدم وجود سلالم رئيسية تقود نحو الباب الأمامي، بدا المنزل فخمًا، وجدرانه محسنة بزوايا حجر الكلس عند الأركان، ووجود أحجار الكلس حول كل نافذة. وقد ارتفعت أربعة مداخن فوق السطح المائل بشدة، التي بدت مشيدة من الصخر. وإلى جانب غرابة وجود منزل كهذا في مكان كهذا، كاد شعور بالألفة أن يدفع بيبي إلى وقف السيارة المنحدرة. لم تكن قد عبرت هذا الطريق السريع أو ترى هذا المنزل من قبل. ولم تتذكر رؤية مثيل له في أي مكان آخر، وهكذا فقد بدا لحظة تلو الأخرى مألوفًا بالنسبة إليها، إلى أن طغت عليها ذكرى قديمة مفزعة.

عندما هدأت من سرعتها وهي تمر بجوار المنزل، لمعت ذكرى في عقل بيبي فجأة؛ كانت آشلي بيل ترتدي فستانًا أبيض مع ياقة من الدانتيل باللون الأزرق الفاتح، وتقف وهي تنظر عبر نافذة في الطابق الثالث من هذا المنزل

تحديـدًا. لـم تتمكـن مـن تذكر أي شـيء آخر، لا المناسـبة ولا التاريخ، لكن الذكرى كانت شديدة الوضوح وحادة لدرجة أنها أدركت أنها لا بد أن تكون حقيقية.

نمـا شـعور القرابـة بيـن بيبـي وهـذه الفتاة – الـذي تملكهـا عندما رأت الصـورة لأول مـرة فـي مكتـب كاليدا – وإحسـاس المسـاواة والأختية بينهما داخلها مجددًا، بل وبشـكل أكثر حدة عن المرة السـابقة. آشـلي بيل ترتدي فسـتانًا أبيـض مـع ياقة مـن الدانتيل باللون الأزرق الفاتـح، وتقف وهي تنظر عبر نافذة في الطابق الثالث...لو كانت بيبي تعرف هذه الفتاة، فهذا مثال آخر على خداع النفس، وجزء آخر من حياتها جرى اسـتئصاله وحرقه باسـتخدام حيلة الذاكرة الخاصة بالقائد.

لم تجرؤ على إدخال سيارة الهوندا في الممر الخاص القذر والاقتراب من المنزل في جرأة. كانت هناك طرق لا تحصى للموت بطريقة غبية، لكنها أملت في تجنب أشـدها غباءً. ضغطت على دواسـة البنزين، وعبرت مرتفعًا صغيـرًا آخـر، وابتعـدت عـن المنـزل، ثـم أوقفت السـيارة عند حافـة الطريق السريع. جلست تفكر في خطوتها التالية، في محاولة لتحديد ما إذا كان ذلك غباءً شديدًا أم غباءً فقط. ولكن في النهاية، لم يكن ثمة شيء آخر يمكنها فعله بخلاف تفتيش المنزل.

ربمـا يكـون صـوت الفتاة الصغيرة الذي صدر عن جهاز تحديد المواقع يخـص آشـلي بيـل. فمـن غيرها سـتكون؟ لم تكن هناك طفلـة أخرى في هذا الشـأن. بعد غياب لعدة سـاعات، بدا أن القوى الخارقة للطبيعة التي أطلقتها كاليدا في حياة بيبي قد عادت.

-96-

صندوق الأغراض العادية

كانت شقة بيبي مفروشة بشكل يدل على حسن الذوق مع أجواء موضة آرت ديكو التي راجت في منتصف القرن المنقضي، وقد اتسمت بالبساطة والنظافة والدفء و - في الظروف الراهنة - الغموض. أسقط باكس حقيبته داخل الباب الأمامي. ووقف مع بوغو يتفقدان غرفة المعيشة ومنطقة الأكل والمطبخ المفتوح وراءهما، وهما ينصتان بحذر، ويكأن شيئًا مجهولاً ومفزعًا سيظهر في أي لحظة.

سأله بوغو «عمّا نبحث؟»

«أي شيء لا يبدو أنه يخص فتاتنا»

«هذا مبهم نوعًا ما، ألا تظن ذلك؟»

«إنه واضح بالقدر الكافي. لو أن أحدهم قد وضع ثلاث قبعات وقال أحدهم تخص بيبي، كنت ستعرف أيها تخصها، صحيح؟»

«إنها لا تحب القبعات»

«بالضبط. إذا رأيت قبعة، هذا أمر يثير الشكوك»

«إذاً القبعة هي كناية عن أي شيء لا يخص بيبي»

«سنتعرف على الشيء حين نراه»

«حقًا؟»

«إذا كنا نتوقع ذلك، أجل. الناس يمرون بمراحل فاشلة في حياتهم لرؤية كافة أنواع الأشياء المدهشة لأنهم لا يتوقعون رؤيتها»

«هل كل عناصر القوات الخاصة يميلون نحو الغموض؟»

فقال باكس «الحرب إما أن تحيل العقل إلى اليأس أو تدفعه نحو تخمين الحقائق»

«من قال ذلك؟»

«أنا. لنقتسم الغرف بيننا»

قال بوغو «سأتفقد غرفة الدراسة. تولى أنت غرفة النوم. ليس من اللائق أن أعبث في أغراضها النسائية»

شعر باكس أنه ليس من اللائق أن يعبث في أغراضها هو الآخر، ولكن لحجة مختلفة تمامًا عن التي ساقها بوغو. عندما كان في الحادية عشر من العمر، وبعد أسبوع من الموت المفاجئ لسالي ماي كولتر – جدته الحبيبة جهة أمه – اصطحبته أمه إلى منزل سالي لتعبئة ملابس المرأة في صناديق للتبرع بها إلى متجر للبضائع المستعملة. كما تفقدوا أغراض سالي مثل الكتب والمجوهرات والتحف، لتحديد أي منها يجب منحه للأصدقاء والأقارب كتذكار منها. كان الحزن سيطغى على اليوم، لولا أن أمه أخبرته بالعديد من الحكايات عن سالي لم يكن يعرفها وأبقتها حية في ذاكرته طوال هذه السنين. وبتفقده أدراج بيبي ودولابها ومنضدة الزينة الخاصة بها، شعر مرارًا وكأنه كان يجري تقييمًا أوليًا لتحديد ما الذي سيجري التخلص منه عند وفاتها.

وفي الخزانة الداخلية – وفوق كرسي بثلاثة سيقان – وجد الصندوق المعدني المقفل على أعلى رف. بلغت أبعاده حوالي عشرين بوصة مربعة، وعشر بوصات عمقًا.

لم يتمكن من تخيل أي شيء لا يخص بيبي أكثر من هذا. كانت بطبيعتها عملية، أما الصندوق فلم يكن كذلك. كان مقاومًا للنيران ولكن ليس محصنًا بشكل كامل، فقد يذوب في اللهب الشديد، وسينفتح طرف الغطاء، لتلتهم النيران محتوياته. كان من الممكن حمله دون أدنى معاناة لأي لص، لكنه جذب الانتباه بدلاً من ذلك. وما الفائدة من امتلاك صندوق مقفل قمت بتثبيت المفتاح على غطائه، مثلما فعلت هي؟

بعد أن انتهى من البحث في غرفة الدراسة، كان بوغو يبحث في دواليب المطبخ عندما دخل باكس ووضع الصندوق الذي اكتشفه فوق الطاولة. بدا الصندوق المعدني بلونه الأسود القاتم كئيبًا على خشب الفورمايكا الأحمر، وكأنه كان من الحكمة الاستنجاد بفرقة تفكيك المفرقعات للتعامل معه.

سأله بوغو «هل وجدت شيئًا؟»

«ربما»

جلسا على الطاولة، واستخدم باكس المفتاح. كانت المفصلة الرقيقة متيبسة بعض الشيء، لكن الغطاء فُتح عن آخره. كانت معظم المحتويات مخبأة أسفل قطعة قماش من الشامواه، التي احتضنت بين طياتها طوق كلب بالٍ ومتشقق ومتسخ.

قال باكس – بعد أن رفع الشيء بإصبع واحد – «هل رأيت هذا قبلاً؟»

«كلا»

«لماذا احتفظت بشيء كهذا؟»

أخذ بوغو الطوق وتفحصه، فعلقت القذارة بين أصابعه. «جاسبر» قال وقد قرأ الاسم الذي كان مدونًا بدقة على الجلد.

«هل امتلكت يومًا كلبًا أسمته جاسبر؟»

«نوعًا ما». عبس بوغو وهو يشير إلى غرض آخر في الصندوق، مفكرة مثبتة لولبيًا. أضاف «إنها ممتلئة بقصص عن كلب يدعى جاسبر»

بدت أبعاد المفكرة ست في تسع بوصات وبلغ سمكها بوصة تقريبًا، واحتوت على مئتي صفحة مسطرة. وعلى الغلاف، وُضع اسم وشعار شركة الأدوات المكتبية، فأنتجا خلفية بلون البيج الفاتح لرسم جميل صُمم بالقلم والمحبرة على طراز الآرت ديكو لفهد وغزال يقفزان، وكلاهما يقف على سيقانه الخلفية ويثب بعيدًا عن الآخر.

قال بوغو «لقد رسمت هذا من أجلها. كنت أرسم أغلفة خاصة لمعظم مفكراتها وكتبها. كانت تعشق موضة الآرت ديكو حتى حينئذٍ»

«لم أعرف أنك تمتلك موهبة كهذه»

هزّ بوغو كتفه بلا مبالاة.

«كم كان عمرك حين فعلت هذا؟»

«كانت هي...في العاشرة من العمر عندما كتبت قصص جاسبر، لذا كنت أنا في الثامنة».

«امتلكت هذه الموهبة في سن الثامنة؟ اللعنة يا رجل أنت أعجوبة»

«أنا لست نورمان روكويل. إن موهبة الرسم تظهر باكرًا، هذا كل ما في الأمر. يتشكل الإحساس ووجهة النظر. لا يذهب الناس إلى مدرسة الفنون للتعلم، وإنما لصقل الموهبة. ولكن هناك الكثير من الأشياء التي كان بمقدوري فعلها. ولكنني كنت أفعل ما يهم إذا ما أردت ذلك»

اعتقد باكس أن جميع الناس هم أكثر مما يبدون، وأن إحدى أكثر الحقائق حزنًا عن حالة البشر هو أن معظم الناس لا يدركون المواهب والقدرات والعمق الذي يمتلكونه. ولا بد أن أحد أسباب إعجاب بيبي الشديد ببوغو هو أنه وظف طاقاته بشكل كامل»

«لماذا الفهد والغزال تحديدًا؟»

«إنه تصميم جميل فقط. وإذا كان هناك سبب آخر، فأنا لا أتذكره»

تنقل باكس بين صفحات الكتابة الدقيقة، فبدت مثل مخطوطات بيبي قبل اثنتا عشرة سنة، ولكن مع لمسة طفولية ما عادت تستخدمها. كانت أحيانًا تضع دائرة صغيرة محل النقطة في حرف i، وأحيانًا لا، ولكن من الواضح أنها فضلت الدائرة عندما كانت الكلمة تدل على السعادة تحديدًا، ولطالما استبدلت النقطة في حرف j بنجمة.

قال بوغو «كتبت المسودة الأولى على لوح، وقامت بتعديلها بضع مرات، ثم نسختها في المفكرة»

ملأت القصص القصيرة ثلثي المفكرة. وفي الصفحة الفارغة الأولى التي تلت القصص، اكتشف باكس سطرين من بيت شعر أدرك أنهما مأخوذان من

أحد أكثر القصائد تفضيلاً لدى بيبي؛ قصيدة «مساء العقل» من تأليف دونالد جاستس: الآن يحل مساء العقل / وها هل الفراشات تغرق في الدماء.

كانت القصص قد كُتبت بحبر أزرق اللون، بينما كُتب الشعر بحبر أسود. وقد بهت اللون الأزرق مع الزمن، بينما ظل الأسود داكنًا وبدا وكأنه قد كُتب حديثًا. ولم يحمل أي حرف i دائرة بدلاً من نقطة؛ ولم تظهر أي لمسات أخرى لخط بيبي الصغيرة.

قال بوغو وهو ما يزال يشعر بالحيرة من الطوق الجلدي «أخبرتني أن أولاف كان يرتدي طوقًا باليًا ومتسخًا عندما ظهر لها في تلك العاصفة. لكنها لم تخبرني قط أنها منحته اسمًا».

«جاسبر. اسم الكلب بطل هذه القصص. لعلها عرفت شخصًا كان لديه كلب يدعى جاسبر وهذا هو الطوق الخاص به».

هزّ بوغو رأسه نفيًا وقال «الكلب الوارد في القصص من بنات أفكارها تمامًا. وكان أصغر حجمًا من أولاف. كان كلبًا هجينًا باللونين الأسود والرمادي، وليس كلب صيد ذهبي مثل أولاف. هذا الطوق سيكون كبيرًا جدًا على جاسبر»

قلب بوغو الطوق الجلدي، فأصدر المشبك صوت نقر خافت. وقد تدلت قطرات من الطين بين أصابعه ثم سقطت على الطاولة.

قال «ما احتمالات أن كانت قد كتبت كل تلك القصص عن كلب وحيد يدعى جاسبر، ويومًا ما ظهر كلب وحيد يدعى جاسبر عند عتبة بابها؟»

فقال باكس «أفضل العرّافين في لاس فيغاس لا يمكنهم معرفة تلك الاحتمالات. لعل ما تتساءل عنه أنت هو هل هناك مصادفة؟»

«لا تؤمن بيبي بالمصادفات»

«أجل. أدري. ولك هل هذا ممكن؟»

«لا أؤمن بها أنا أيضًا»

قال بوغو – بعد وضع الطوق وبروز اسم جاسبر – «لماذا لم تخبرنا

بهذا قط بحق الله؟»

لم يعرف باكس ماذا يمكنه أن يستنتج من هذا التطور. بيد أنه كان واثقًا بشدة من أنه مع أن الاسم المتكشف بدا تفصيلة تافهة وغريبة، فإن جاسبر الكلب الهجين الخيالي وجاسبر كلب الصيد الذهبي الذي أصبح أولاف فيما بعد لهما أهمية كبيرة. أدى الحدس؛ تلك المعرفة التي تسبق المنطق والتعلم، إلى وقوف شعر مؤخرة عنقه وخفض حرارة جسده.

بدلاً من الإجابة على سؤال بوغو، قال «لنرى ماذا يوجد أيضًا في الصندوق» وأخرج كيسًا بلاستيكيًا للاستعمال المتكرر من النوع الذي يستخدمه الناس في حفظ أقراص الفيتامينات أو العقاقير الطبية. احتوى الكيس على بقايا فروة رأس ذابلة تتصل بها خصلة شعر، التي كان ثلثها الأدنى متعقدًا ومكسوًا بما بدا أنها دماء جافة.

-97-

تعيش ظلالهم في موطنها

بينما كانت تشعر بالقلق وهي تحمل السلاح، تجادلت بيبي مع نفسها حول ضرورة ومدى حكمة التجول دون دعوة في منزل غريب مثل الذي وقف كشاهد قبر ضخم في ناحية منعزلة من صحراء موهافي. اقتربت من البر المقابل للمنزل بدلاً من السير على طول الطريق السريع المار في المقاطعة، عبر الرمال والصخر الزيتي والنباتات الجافة، التي تلمع كلها بلون فسفوري غامض تحت القمر، والذي بدا بدوره مخادعًا بقدرما وفره من ضوء. كانت تثير ضجة أكثر مما أرادت، لا سيما أنها تصورت نفسها تتنقل بسرعة عبر الأرض القاحلة بمكر الثعالب. على الأقل كانت الليلة باردة بما يكفي لجعلها تطمئن من عدم وجود ثعابين زاحفة، مع أنها اعتقدت أن العقارب ربما تهرول عبر الظلام.

كان المنزل يواجه الجهة الشمالية، وقد وصلت إلى الجدار الشرقي فشقت طريقها بجواره، وهي تراقب بحذر النوافذ المضاءة، التي لم يكن يغطيها سوى ستائر شفافة. كانت الغرف مفروشة، إلا أن الهدوء خيم عليها لعدم وجود ساكنين.

ومثلما كان حال الواجهة، افتقر المنزل عند جانبه الجنوبي وجود أي شرفة. وقام بناء من الطوب تبلغ مساحته ستة أقدام مربعة مقام الباب الخلفي، وكان محطمًا بفعل ما بدا أنه وعل معدني تسبب في اقتلاع المفصلات. وقد تمدد الباب المحطم على الأرضية الكلسية للرواق المضاء بمصابيح من الزجاج البلوري. كان من المفترض أن يتسبب وجود دليل على العنف في مغادرتها، لكنها دخلت.

لـم تكـن قـد رأت المنـزل من قبل، ومع ذلك بدا مألوفًا لها. كانت لديها شـظايا ذكرى لآشـلي بيل وهي تقف عند نافذة أمامية، في هذا المكان. كان الصـوت الصـادر عـن الخريطـة الإلكترونية – الذي أخبرها أنها سـترغب في التوقف هنا – يعود إلى فتاة صغيرة، وربما يكون صوت آشلي. لم يكن بوسع بيبي التراجع. هذا مسـتحيل. كانت قد نجت من السـرطان لإنقاذ حياة، وهي الحائل الوحيد بين الموت وفتاة في الثانية عشر أو الثالثة عشر من العمر.

أصدر الباب المتداعي طقطقة أسـفل قدميها – جلبة لا بد منها – لكنها عبرته سـريعًا. لـم ينادي أحد أو يُقبل لرؤية المسـؤول عن هذه الضجة. كان الصمت يخيم على المنزل.

لـدى دخولهـا المنـزل، كانـت بيبـي قـد دخلت حالـة غريبة مـن الوعي واللاوعي في آن واحد. لم يكن الأمر وهم سـبق رؤيته – وهو تخيل خوض تجربة ما من قبل بينما في الواقع كان المرء يخوضها لأول مرة – فلم تتعرف على الأشياء عند رؤيتها فقط، ولكن أيضًا كان لديها حس داخلي مستمر بما ينتظرها تاليًا. غرفة غسـيل على يمين الرواق. أجل. وغرفة مؤن داخلية على اليسـار. أجـل. وفـي الأمام يقع المطبخ. أجل. ولكـن على الرغم من قدرتها على التنبؤ بالغرف التالية، فلم تتذكر تواجدها هناك من قبل.

كان المطبخ بدائيًا قياسًا على معايير القرن الحادي والعشرين. لا وجود لميكرويـف أو غسـالة صحـون. وكان تاريخ موقـد الغاز والثلاجة الصغيرة – التي حملت الاسم Electrolux على بابها – يعود إلى عقود مضت، ومع ذلك فقد بدا أنهما جديدين أو على الأقل معتنى بهما.

كان الأثـاث فـي الغـرف الأخرى كبيـر الحجم ولكن لامعًا وحديثًا، وقد تشـكل من قطع على طراز آرت ديكو مصنوعة من خشـب الأمبيونا، وقطع أخـرى مطليـة بالورنيـش الأسـود، وعلى مـا يبدو، فإن من اشـتراها قبل زمن طويل قد دفع مبلغًا كبيرًا، بل وتبدو اليوم أغلى بكثير، بعد أن أصبحت جذابة للغاية. وكان هناك كرسـي أو طاولة مقلوبة هنا وهناك، ولكن معظم الأشـياء

كانت في مكانها. وقد تحطم زجاج واجهة المنزل ولكن لم تتحطم محتويات الموضوعة في الكابينة. لم يكن الدمار ممنهجًا، وإنما عشوائيًا في الغالب، وكأن من تسبب فيه قد جاء إلى هنا في مهمة أكثر أهمية من التخريب وارتكبه أثناء مروره.

عندما عادت بيبي من غرفة الرسم إلى البهو الأمامي، لمحت حركة خفيفة عن يسارها لهيئة داكنة وسريعة. كانت الهيئة طويلة القامة ونحيفة ومنحدرة المنكبين. استدارت نحوها وهي تقبض على المسدس بيديها، ولكن لم يتواجد أحد هناك. لو كان الحضور حقيقيًا، فبكل تأكيد كان سيصدر صوتًا ما – مثل خطوات أقدام ضعيفة أو صرير الألواح الأرضية الخشبية أو زفير خشن – لكن الصمت المطبق لم ينقطع. إلى جانب ذلك، بدا أن الهيئة قد انتقلت بسرعة خارقة، فعبرت الرواق من غرفة إلى أخرى في كسر من الثانية.

كانت النافذة التي تجلت في ذاكرتها – التي رأت آشلي تقف بجوارها في فستان أبيض ذي ياقة باللون الأزرق الفاتح – تقع في الطابق الثالث. صعدت الدرجات نحو بسطة، ثم صعدت مجموعة أخرى منها. ولدى اقترابها من الطابق الثاني، ظهرت هيئة داكنة – بانسيابية وسرعة شديدة لدرجة أن بيبي شعرت فقط بلا يقين أنها بشرية – فوقها وهوت خلفها. ومع أن الهيئة لم تحتك بها، إلا أن لسعة برد باغتت بيبي، فكادت تفقد توازنها. استندت على الدرابزين وظلت منتصبة، واستدارت للنظر إلى الأسفل في اللحظة المناسبة كي ترى الظل يختفي عن البسطة نحو المجموعة الأولى من الدرجات.

لم تتمكن من تبين ما إذا كانت نفس الروح – إذا كانت الروح هي الوصف الأمثل – التي رأتها في رواق الطابق الأرضي، لكنها أحست أنها لا تتنقل في أنحاء المنزل في غضب، وأنها بدلاً من ذلك كانت روحًا معذبة للغاية، وعالقة هنا بسبب محنة شديدة، ومفعمة بيأس مضاعف يسمى جزع.

عندما وصلت إلى الطابق الثاني، عثرت على جثة رجل ميت متمدد على ظهره على سجادة الدرج. وقد بدا أنه قد ضُرب حتى الموت بعصيان يحملها

رجل أو مجموعة رجال يظهر أن عنفهم الجسدي مميت. كانت ملابسه كفنًا غارقًا في الدماء، وكان وجهه وجمجمته محطمين بشدة مما اضطرها للإشاحة بنظرها بعيدًا.

كانت جريمته هي المقاومة، وأنه جرؤ على حماية عائلته. لم تكن تعرف كيف عرفت هذا، لكنها كانت تعرف على أي حال.

إذا كانت آشلي بيل ما تزال هنا، فلعلها ستكون في الطابق الثالث، في الغرفة ذات النافذة التي رأتها في ذاكرتها.

بقلب تتسارع نبضاته وشعور مثل غواص يرتدي بدلة غطس ضيق يصارع أشباحًا عديدة في طريق نحو سطح الماء، صعدت بيبي المزيد من الدرجات. كان المسدس ثقيلاً بشكل غريب، مما سبب ألمًا في رسغيها.

-98-
كنز ضئيل من المآسي

بينما كان جالسًا في مطبخ بيبي، فكر باكستون مرارًا في أنهما يحتاجان إلى ضوء الشموع، وأنه يتعين عليه وضع نصف دزينة أو أكثر من الشموع النذرية على الطاولة، مع أن الساعة كانت تشير إلى الثانية والربع بعد الظهر، وكان ضوء الشمس القوي يغمر النوافذ، فضلاً عن أن المناسبة لا تحتاج إلى أجواء رومانسية. وقد شم مرات عديدة رائحة زهور قوية، على الرغم من خلو الشقة منها، وعدم وجود أي ملطفات للهواء - بقدرما يرى - يمكنها أن تفسر الرائحة الغريبة. بدت تلك الأحاسيس الغريبة مرتبطة بتلك اللحظات في غرفة المستشفى حين أتاه صوت بيبي.

باغتته رائحة الزهور مجددًا عندما كان يحدق حائرًا في الكيس البلاستيكي الصغير الذي احتوى على بقايا جافة من فروة رأس بشرية التي نبتت منها خصلة شعر بيضاء مجعدة، ملطخة عند الجذور بدماء جافة.

قال «إذا كنا نبحث عن أغراض لا تخص بيبي، يبدو هذا كذلك».

فقال بوغو «من ناحية، أجل، ومن ناحية أخرى، كلا. ففي يوم جنازة جدها...»

«تقصد القائد؟»

«أجل. جاء الجميع من المقبرة إلى المنزل الصغير من أجل التجمع المعتاد. تعلم، للأكل والشرب وتبادل الذكريات. كان الحشد كبيرًا، حوالي سبعين أو ثمانين فردًا، وأصبح الضجيج مزعجًا. لاحظت أن بيز لم تتواجد. كانت محطمة، فقد أحبت الرجل. اعتقدت أنها لو قصدت مكانًا ما، ستذهب

إلى المحيط. لذا ذهبت إلى نقطة الإلهام، ووجدتها هناك تجلس على كرسي. لم ترني حتى جلست بجوارها...وكانت تمسك بالكيس البلاستيكي الصغير بكلا اليدين».

قال باكس «هذا شعر القائد؟»

«أجل. يبدو أنه عندما حدث انفجار الأوعية الدموية، لا بد أنه ترنح قبل سقوطه. لقد كان طويل القامة. وفي طريق سقوطه، اصطدم بحافة الطاولة بعنف، عند الزاوية الحادة بالضبط. وترك وراءه قطعة الجلد والشعرة الملتصقة بها. وقد أخذتها بيبي بعد أن عثرت عليها واحتفظت بها».

«لماذا فعلت هذا؟ هذا يبدو فظيعًا بالنسبة إلى طفلة في عمرها».

«لم تكشف عن السبب، ولم أسألها. لقد كنا صريحين مع بعضنا البعض دومًا بشأن معظم الأمور، تعلم، ولكن كان هناك دومًا بند الحاجة إلى المعرفة أيضًا، ولم يخالفه أي منا قط. جعلتني أعدها بألا أخبر أحدًا، وهكذا فعلت... حتى أتيت أنت. على أي حال، لقد كنت في الثامنة من العمر فقط، وكانت هي في العاشرة، وكانت تعلمني الانتقال من لوح تزلج صغير إلى لوح كبير، وكنت أقدّسها. وما زلت كذلك، وسأظل هكذا دومًا. عليك أن تتوقع أن يكون لدى القديسة أسرارًا، فهذا جزءمن كينونتها، ولا ترغب في الاطلاع على هذه الأسرار، لأنك إن عرفتها، ستلقى حتفك».

حدق باكس في محتويات الكيس البلاستيكي للحظات، لكنه بعد ذلك وضعه جانبًا لفحص الأغراض الأربعة المتبقية في الصندوق المعدني. لكنه بعد ذلك وضعه جانبًا لفحص الأغراض الأربعة المتبقية في الصندوق المعدني.

-99-

الفتاة التي أحبت الجياد

في الرواق الواقع في الطابق الثالث - خلف أعلى الدرجات - تمددت جثة امرأة كشاهد إضافي على همجية أولئك الذين اقتحموا المنزل. وربما كانت الجثة الملقاة في الطابق الثاني تخص زوجها، وقد وقفت هنا كدفاع أخير ضد المعتدين، لأنه ليس بعيدًا عنها - من بين كافة الأغراض - استقرت مذراة لا فائدة منها في هذا المنزل الأنيق والمفروش على الموضة. لم تكن أسنان السلاح الصدئ مخضبة بالدماء، لذا افترضت بيبي أن هذه المرأة المسكينة - التي افتقدت إلى وسيلة دفاع فعالة مثل المسدس - لم تسنح لها فرصة لإصابة قتلة زوجها. أبت أن تفحص الجثة، لكنها شعرت أنها ملزمة بإلقاء نظرة سريعة عليها، وكأنها تتحمل جزءًا من المسئولية عما حدث هنا ويجب أن ترد عليه، مع أنها بطبيعة الحال ليست مسؤولة عما قد يفعله تيريزن وأتباعه بحق أي شخص. كانوا ليرتكبوا في حقها نفس الشيء - أو ما هو أسوأ - لو أتيحت لهم الفرصة. كانت المرأة قد تلقت أكثر من رصاصة، في المعدة والصدر والوجه. أشاحت بيبي بنظرها بعيدًا، بسبب الشفقة أكثر من الرعب، وكأن النظر لثانية أخرى إلى الجثة سيجعلها مشتركة في الجريمة بشكل ما.

لم تعتقد أنها ستعثر على جثة ثالثة، لكنها تقدمت في الرواق في فزع من اكتشاف كهذا تحديدًا. إذا كانت آشلي مختبئة في غرفتها، فلا بد أنهم عثروا عليها واختطفوها. وفقًا لتيريزن نفسه، فقد أراد الفتاة من أجل عيد ميلاده المقبل. وعلى الأرجح ستتعرض للاغتصاب يومئذٍ بطرق لا تخطر على بال، ثم ستُعذب، وأخيرًا سيجري قتلها في أجواء احتفالية، مثلما يملي عليه جنونه

بـأن عليـه تنفيـذ الحل الأخير مرة أخرى لما سـماه هتلر «المعضلة اليهودية». ولكن إذا كان أعضاء الطائفة – أتباع تيريزن – لم يختطفوا الفتاة من المنزل، وإذا كانـت قـد قاومـت مثـل أبيهـا في الطابق الثاني وأمها فـي الطابق الثالث، فلعل خطتهم القاضية بأخذها حية قد فشلت.

عندما وصلت إلى الغرفة الواقعة على الجهة اليسرى عند آخر الرواق – حيث كان الباب مواربًا – عرفت بيبي ما الشـيء الآخر الذي سـتعثر عليه إلى جانـب إمـا فتـاة ميتة أو لا فتاة على الإطلاق؛ جياد. كان المسـدس في يمينها ومصوبًـا نحـو الأرضيـة، فلـم تعد قلقة من أيًا من القتلة الفاشـيين قد بقي في المنزل. عبرت بيبي المدخل.

كان شعورها المسبق صادقًا؛ إذ كانت هناك رسومات وتحف من البرونز والبورسلين لجياد، فضلاً عن كتب تتحدث عن الجياد. كان هذا المنزل شيئًا آخـر نسـيته بيبـي، على ما يبدو باسـتخدام حيلة الذاكرة الخاصـة بالقائد. لقد تواجدت هنا من قبل، لكنها لم تتذكر متى أو لماذا. وبمرور ساعة تلو الأخرى، عثـرت علـى مزيـد مـن الذكريـات التي كانت قد حرقتها، والتي نجت شـظايا منها في صورة رماد؛ هذا المنزل، وهذه الغرفة، وحقيقة أن آشلي بيل أحبت الجياد، وربما تكون تركبها إلى جانب إعجابها بهم. حدثت نفسـها قائلة، لا بد أنني أعرف آشـلي، ولا شـك أنني قابلتها مرة على الأقل! فلماذا بحق الله يبدو هذا المنزل مألوفًا بشدة لها؟ وكيف عرفت بشأن الظهور المتكرر للجياد في غرفة النوم هذه؟

كانـت الأبـواب الطويلـة لـدولاب مثبـت في الجـدار مفتوحـة. وكانت الملابس المعلقة داخله قد أخرجت وألقيت على الأرض.ز

اقتربـت منـه فـي خـوف، ومع ذلك فلـم ترفع المسـدس. كانت اللوحة السـرية فـي مؤخـرة الدولاب – التي عرفت بيبي بشـكل مـا بوجودها هناك – مسـحوبة جانبًـا. وهكـذا، كانت المسـاحة المنكشـفة التي تبلـغ حجم خزانة فارغة. إذا كانت الفتاة قد اختبأت هناك، فقد عثر عليها تيريزن ورجاله.

-100-
ساعة الحائط وساعة اليد والمواقد

شعر باكستون فجأة أن الوقت ينفد منهما. وقد أتاه هذا الشعور من العدم، وبلا سبب واضح، وكان بمنزلة انطباع على كارثة وشيكة، وفراغ قادم. أصبح متيقنًا من أن بيبي تضيع من بين يديه، وأنها رهينة شخص شرير ويجري اختطافها بأقصى سرعة، لكنه كان يجهل الطريق الذي سلكه أو وجهته. بدا ذلك غير منطقي، فهي طريحة الفراش في المستشفى، ويستحيل أن يختطفها أحدهم من منشأة طبية مؤمنة. وإذا تغيرت حالتها، سيستدعيه كل من نانسي وميرفي عبر الهاتف.

كان الغرض الرابع في الصندوق المعدني الأسود هو مسجل صغير. وقد احتوى على شريط صغير، لكنهما عجزا عن تشغيله لأن البطاريات كانت ميتة.

وبينما تفقد بوغو أرفف حجرة المؤن وأدراج المطبخ بحثًا عن بطاريات إضافية، تفحص باكس الغرض الخامس، وهو ورقة صفراء مسطرة مطوية كُتب عليها عدد من الاقتباسات والمصادر المأخوذة منها. لم تكن الكتابة بخط يد بيبي، سواءً خطها المنمق وهي بالغة أو الطفولي المزين وهي طفلة. كان الخط الداكن المائل يشي بأن رجلاً هو من دوّن القائمة. وكانت الورقة الرخيصة بالية عند الأركان، ومبقعة بفعل الزمن والعرق، وقد فُتحت وأغلقت مرات عديدة لدرجة أنه - عند لحظة ما - جرى دعم الطويات بشريط لاصق.

شرع باكس في قراءة الاقتباسات بصوت عالٍ من أجل بوغو. قال «هذا العالم ليس إلا نسجًا من مخيلتنا. من تأليف هنري ديفيد ثوريو».

قال بوغو «إنه الرجل الذي عاش في والدن بوند».

«كنت منتبهًا إذًا في المدرسة في نهاية المطاف»

«مهما حاولت طرد هذه الأشياء من رأسك، فإن بعضها يدخل عنوة»

«التالية تأليف ثوريو أيضًا. إذا تقدم المرء بثقة في اتجاه أحلامه، وسعى إلى عيش الحياة التي تخيلها، سيلقى النجاح فجأة في الأوقات المألوفة».

بعد أن عثر على علبة بطاريات من طراز Duracell AAA، جلب بوغو اثنتين منهما إلى الطاولة، وقال «هل كان ثوريو الرجل الذي عاش في والدن بوند ورائد التفكير الإيجابي في عصره؟»

«كلا. كان هذا نورمان فنسنت بيل. التالية لشخص يدعى أناتول فرانس. لا قيمة للمعرفة قط، ولكن القيمة كلها للتخيل»

«لعلي ألاحظ نغمة هنا» قال بوغو بعد أن أزال البطاريات الميتة من المسجل.

«وأنا أيضًا. تخيلات، تخيَل، تخيُل. إليك اقتباس من تأليف جوزيف كونراد».

فقال بوغو «مؤلف قلب الظلام».

«يا لك من محتال يا فتى» أزال باكس الحشرجة من صوته ثم قرأ «في مخيلة الرجال فقط تعثر كل حقيقة على وجود فعال ولا يمكن إنكاره. المخيلة – وليس الابتكار – هي المعلم الأكبر للفن والحياة»

«هذا كلام معقد يا صاح»

نما إحساس نفاد الوقت ووجود كارثة ما تحوم حول بيبي قوة. نظر باكس إلى ساعة يده ثم إلى المعلقة على الجدار، حيث زحف عقرب الثواني بانسيابية حول الدائرة، ولكن قفز عقرب الدقائق من الساعة 2:19 إلى 2:20، مصدرًا صوتًا مثل الزناد.

«إليك اقتباس آخر. كتب كينيث غراهام...»

قاطعه بوغو بالقول «إنه مؤلف ريح في نبات الصفصاف التي ظهر فيها السيد تواد، ومول وبادجر وراتي، والزمار عند بوابات الفجر، وخلافه»

«لذا فقد كتب، كقاعدة عامة، عادة ما يكون البالغون على حق في مسائل الحقيقة؛ إن هذا يقع ضمن قمة هبة التخيل التي يسعون بكل أسى وراءها. هل تعرف ماذا كان والاس ستيفنز؟»

«شاعر. البطاريات الجديدة لا تساعد. المسجل محطم»

«محطم؟»

«محطم أو متعطل أو ميت أو أيًا يكن. لكنني أعرف شخصًا يمكنه إصلاحه»

«إذا، كتب هذا الشاعر المدعو والاس ستيفنز يقول، في عالم الكلمات، تعتبر المخيلة إحدى قوى الطبيعة. هناك اقتباس آخر، ولعلك سمعت بمؤلفه؛ شكسبير. مهما كانت الأشياء مجرد خيالات ولا يعرف لها كنه ولا حقيقة، فإن الشاعر لحري به أن يجسدها ويمثلها تمثيلاً. بل ولديه القدرة على أن يعطي للأشياء الوهمية تصورًا حقيقيًا ويشتق لها اسمًا».

فكر بوغو في شكسبير، ثم هزّ رأسه وقال «سيسبب هذا لي صداعًا نصفيًا. علامَ تدل القائمة في رأيك؟»

«أيًا تكن دلالتها. أعتقد أن جدها هو من كتبها»

«القائد. أجل. وأعتقد أنها الشخص الذي فتحها وقرأها كل حين، وتسببت في تقطع الطويات»

نظر باكس في ساعة يده ثم إلى الساعة الرقمية في جهاز الميكرويف، فالساعة الرقمية للفرن التقليدي، وأخيرًا إلى النافذة حيث لم يكن ضوء شمس الظهيرة قد خفت بعد ولو قليلاً. ومع ذلك – وفي داخله – دقت ساعة من القلق بقوة أكثر فأكثر.

سأله بوغو «هل لديك حفل راقص يجب أن تحضره؟»

فقال باكس «بيبي تتحدث إليّ مجددًا»

«ماذا تقول؟»

«ليس بالكلمات هذه المرة. إنه شعور بأن الوقت ينفد وأن شخصًا شريرًا يطاردها وبسرعة».

بدا بوغو عابسًا وهو يقول «سرطان الدماغ».

«ليس شيئًا شريرًا...بل شخص»

«نانسي وميرف برفقتها، أحدهما وفي العادة كلاهما، وليس هما فقط»

«ليس شيئًا سيحدث في المستشفى. بل سيحدث في...أيًا كانت تتواجد»

قال بوغو «أعرف أننا في قلب حدث غامض. أقبل بهذا. ومع ذلك يبدو الأمر جنونيًا عندما تقول أشياءً كهذه».

أخرج باكس الغرض السادس من الصندوق المعدني، وهو كتاب مصور للأطفال يحتوي على قصة تُسرد بجمل قصيرة وكلمات بسيطة. كان اسم الكتاب مغامرة كوكي الكبرى.

فقال بوغو «هذا الكتاب يُطبع منذ الأزل. كان المفضل لدى نانسي وهي صبية. وقد أهدتني نسخة منه حين كنت في الخامسة من العمر»

«ألم يعجب بيبي؟»

«أجل، أظن أنها أحبته عندما كانت صغيرة. شخصيًا، لم أعتقد أنه كان أدبًا ثريًا».

فقال باكس «إذا كانت قد أحبته، فلماذا لم تضعه على رف في غرفة المعيشة أو في مكتبها؟»

«ليتني أعرف». بينما كان باكس يتصفح الكتاب المصور، استخرج بوغو الغرض الأخير من السوق وقال «الساقطة القديسة».

«من؟»

بينما كان يقلب بعض الصفحات من مجموعة أوراق ثُبتت معًا بمشبك ورقي، قال بوغو «هذا هو المقال الذي كتبته بيبز للبروفيسورة التي أجبرتها على ترك برنامج الكتابة». ثم نطق اسمها بصوت متغطرس «الدكتورة سولانج سانت كرويكس».

فقال باكس «في هذه الحالة، لا ينفع استخدام الغطرسة عندما يكون اسمك أفريل بيومونت ستانهوب الثالث»

«عُلم. هل قرأته من قبل؟»
«أخبرتني بشأنه، لكنني لم أطلع عليه قط»
مرر بوغو الصفحات الأربع إليه وقال «اقرأه. فلعلك سترى ما أغضب البروفيسورة العظيمة. كلانا لم يفلح في ذلك».
قال باكس وهو يراقب الساعات الثلاث «ربما حري بي قراءته في السيارة، بينما نحن ذاهبان إلى أيًا كان المكان الذي ستصلح التسجيل فيه»
«إن الصفحات في الصندوق مع الأغراض الأخرى، وربما يكون لها علاقة بما يجري. اقرأه الآن».
تراجع باكس عن قراره وقرأ الصفحات بصوت عالٍ، مقاطعًا نفسه بالضحك بضع مرات، مع أن الأسطر المضحكة لم تحتوي على أي بذاءات.
«هذا أسلوب بيبي تمامًا»
فوافقه بوغو بالقول «بالضبط»
«لكنني لا أفهم لماذا أغضب البروفيسورة»
«حسنًا إذا، لعل هذا أفضل خيط أول لدينا»
«كيف ذلك؟»
«لمَ لا نزور الساقطة القديسة ونسألها عما فجر غضبها؟ أعرف أين تعيش»
لم يعاود باكس النظر في ساعة الجدار أو ساعة يده أو الساعات الرقمية الخاصة بالمواقد، لأنه شعر أن يدًا خفية تحرك عقرب الثواني من ورائه. كان مدركًا تمامًا بمرور الوقت مثلما كان متيقنًا خلال لحظات المعركة، فشعر أن الوقت ينقضي مثل حبات الرمال التي تتسلل عبر الخصر الضيق للساعة الرملية. كانا قد عثرا على كنز من الأغراض المثيرة للفضول، لكنهما لم يكتشفا إلا القليل مما تخفيه. كان التحرك المدروس أفضل دومًا من الوقوف متفرجًا، حتى لو لم يبدُ التحدث إلى أستاذة جامعية بشأن ردها على مقال إحدى طالباتها قبل خمس سنوات تحركًا كافيًا.
«حسنًا» قال وهو ينهض عن الطاولة «دعنا نذهب ونلتقي بالبروفيسورة».

فقال بوغو «تولّ أنت أمر الاستجواب»

«هذا ليس استجوابًا، بل مجرد دردشة»

«بعد الطريقة التي عاملت بها بيبز، لا أمانع في تعذيبها بالإيهام بالغرق»

«لم أنفذ أسلوب الإيهام بالغرق على أي أحد. ولم أستخدم آلة سحق الإبهام قط، أو الصعق الكهربائي للأعضاء التناسلية، أو الضرب بالخيزران أسفل الأظافر، أو تشغيل موسيقى ديسكو صاخبة للتسبب بانهيار أحدهم... لا شيء مما تراه في هوليوود. فالذكاء وجهاز كشف كذب جيد هما معظم ما ستحتاج إليه».

طوى باكس ورقة الاقتباسات المكتوبة بخط اليد بشأن المخيلة وثبتها بالمشبك مع الأربع صفحات التي كتبتها بيبي واستشاطت بسببها الدكتورة سانت كرويكس غضبًا، ثم وضعهم جميعًا داخل المفكرة التي تحمل صورة فهد وغزال، والتي احتوت على قصص عن الكلب جاسبر. لم يرَ أي سبب لأخذ طوق الكلب أو كتاب الأطفال، أو الكيس البلاستيكي الصغير الذي يحوي خصلة من شعر القائد، وكان بوغو يحمل المسجل الذي كان يحتاج إلى تصليحه.

«تماسكي يا بيبز» قال، فسأله بوغو إن كان يعتقد أن بوسعها سماعه، فقال «كلا. لكنها ليست المرة الأولى التي أتحدث إليها بصوت عالٍ عندما لم تتواجد لتسمعني».

-101-

مراوغون ومتعددون

بينما كانت بيبي تشق طريقها نزولاً عبر المنزل الذي اختُطفت منه آشلي – متجنبة الجثتين المفزعتين – ظهرت روحان من أحجام مختلفة في محيط رؤيتها، وتنقلتا بسرعة ومراوغة مثل الخفافيش، مع أنهما كانتا في حجم البشر. كانتا صامتتين كالسابق، وقد أحست مجددًا أنهما تتنقلان عبر المنزل في حالة من العذاب وليس الغضب. وكانتا تتنقلان بسرعة أكبر عن ذي قبل في اهتياج. وفي تصرف مفاجئ غير متوقع، شرعتا في الانتقال من محيط رؤيتها إلى المثول أمامها مباشرة، مما أفزعها حتى بعد أن توقعت أن يعتديا عليها. بدأت تعتقد أنهما تريدان شيئًا منها لا يمكنها – ولا يجب عليها – منحهما إياه. وقد مستها هاتان الروحان اللتان تفتقران إلى الملامح مرارًا وبجرأة أكبر أثناء مرورها. ولأنهما افتقرتا الوجود المادي، فلم تشعر بأي ضغط أو ملمس للمستهما، ولكن في كل مرة كانت تسري رعشة باردة داخلها، رعشة لم تنبع من أعماقها كالسابق، وإنما تنفجر داخلها مثل شظايا الجليد الحاد، لذا وعلى الرغم من غياب الألم، فقد توقعت رؤية الدماء تنتشر عبر ملابسها.

بعد أن طغت عليها – أو هوجمت في الواقع – حاجة ملحة لمغادرة المنزل، وهي تشعر بالحذر وليس الفزع، وقد ارتقت لمستوى تحدي الأزمة بدلاً من الفرار منها، وضعت المسدس في قرابه كي تحرر يديها. وعندما نزلت عن الدرجات من الطابق الثاني وعبرت البهو صوب الباب الأمامي، لوحت بذراعيها للروحين عندما اقتربتا منها، وكأنها تحذرهما بالابتعاد عنها. ولأنهما

كانتـا بـلا وزن مثـل الظلال، فقد عجزت عن دفعهما بعيدًا أو تنحيتهما جانبًا. شـعرت بالغباء والحمق، لكنها كانت مقتنعة أنها إن لـم تقاومهما، سـتصبحان أكثر عدوانية وربما تكتسبان قوة أكبر لتمثيل تهديد حقيقي.

اندفعـت مـن البـاب الأمامـي، وعبـرت منحدرًا صغيرًا مـن الطوب نحو الفناء، الذي كان عبارة عن مساحة من الأرض الرملية والحصى ومجموعات مـن العشـب الذابـل الذي ربما لم ينضج قـط، وجميعها مضاءة بضوء خافت وتغطيهـا ظـلال كثيفـة مـن قبل القمر. ومثلما أملت، فلـم تتبعها الروحان إلى خـارج المنـزل، وإنمـا بقيتـا مسـجونتين في غرفهما التي عاشـا فيهـا وماتا ثم استيقظتا مجددًا لتعيشا معذبتين.

جـرت بيبـي وتعثـرت وكادت أن تسـقط غير مـرة قبل أن تصل إلى حافة الطريق السريع المرصوفة بالحصى، حيث استدارت للنظر إلى الوراء صوب المنـزل. بـدا المنـزل مجـددًا في المـكان والزمان الخطأ. أخذت نفسًـا عميقًا انتظـارًا لغـرق المنـزل مثلما غرق منزل أوشـر في قصـة ألان إدغار بو. ولكن لم يكن ثمة نهر أسـود ومتوهج هنا، مثلما كان في القصة، ولا طين سـيغرز البناء فيه.

مع انتفاء الحاجة إلى العودة إلى اليابسـة، عبرت الرصيف نحو الشـرق، حيث كانت سيارة بوغو متوقفة على جانب الطريق. وبينما كانت تسير، فكرت في الروحين السجينتين في المنزل، وفيما تريدانه منها.

مـن بيـن العديـد مـن الرغبات التي فكرت فيهـا، كان ثمة واحدة أدركت أنها حقيقية عندما تجلت لها؛ لقد أرادا تأخيرها وإعاقتها، وهو ما يعني أنهما ليسـا روحي والدي آشـلي الميتين مثلما ظنت، المرأة التي قُتلت بالرصاص والرجـل الـذي ضُـرب حتـى الموت. كانت قد نجت من سـرطان الدماغ من أجل إنقاذ حياة؛ حياة آشـلي، ولكن ثمة قوى - بشـرية وخارقة للطبيعة على حد سواء - أرادت آشلي ميتة.

وإذا كانت الفتاة قد قُتلت هي الأخرى، فقد يعاود السرطان الظهور لدى

بيبي، وحينها تكون قد فشلت في الحصول على العفو من الفتاة المغدورة.

بـدت مسـيرة العـودة إلى الهوندا أطول مما يجـب، فبدأت تقلق من أنها قد عبرت بالفعل المكان التي أوقفت السـيارة فيه، وأنها قد سُـرقت، مما لن يبقي أمامها أي بديل سوى المواصلة سيرًا على الأقدام إلى طريق سونومايز.

تأخيـر وإعاقـة. لـم تكن الأرواح الداكنة والسـريعة فـي المنزل الكيانات الوحيـدة التـي سـعت إلـى عرقلتهـا منـذ أن بدأ كل هذا. عندمـا كانت تجلس لدى الطاولة الصغيرة في غُرفة النُزل - وهي تبتكر أسماء شوارع جديدة من الحروف الخشـبية التي شـكلت كلمة مونرايز - طرق شـيء ما وحك الباب، ونقـر علـى النوافذ، لتشـتيتها وتأخيرها عـن البحث عن الكلمات قبل أن تعثر على طريق سونومايز. الضباب! في الليلة الأولى، زحف الضباب المعيق قادمًا من ناحية البحر، وغمر اليابسة، وانحسر في اليوم التالي فقط حتى يعود بشكل متكرر، حتى غربت الشمس وحلت الليلة الثانية، ثم تحول إلى ستارة عظيمة أبطأتها بشـدة. بدا لها الآن أن الضباب كان كثيفًا وعالقًا بشـكل غير طبيعي، وأنه نزل عليها ليس بفعل الطبيعة وإنما عبر قوة مجهولة أمرها تيريزن بالتحرك وإعاقة تقدمها.

لـم تظهر الهوندا بعد.

فبدأت بالعدو.

ربما يحول التدفق الأكبر للدماء من قلبها النابض نوع الأفكار التي تطرأ ببالها، لأنه أثناء بحثها عن السيارة، تطلب احتمال مزعج جديد التفكير بتأنٍ. لعل أعداءها ليسوا مراوغين ومتعددين مثلما يبدو. فلربما أنها تخيلت الطرق والنقـر والحـك فـي النُـزل، لأنها عندمـا فتحت الباب وخرجـت لـم يكن ثمة تهديد.

وإذا كانت الأرواح الداكنة غير حقيقية، فلا بد أنها مجرد هلوسات مثلت مستوى من خداع النفس يشي بفقدان التوازن.

وفي نهاية المطاف، كانت قد خانت نفسـها من قبل، بقطعها أسـطرًا من

كتب أوكونر وويلدر ولندن، وإحراقها في مرحاض النُزل، لمنع نفسها من تأكيد شكوكها بشأن تشاب كوي.

وبطبيعة الحال هي ليست العدو الوحيد لنفسها لسبب وحيد، وهو أنها لا يمكن أن تتخيل ستارة الضباب الكبيرة، بل لا شك أنه قد جرى استحضاره من قبل الطبيعة أو من قبل قوة تيريزن الغريبة.

أليس كذلك؟

أم لا؟

توقفت في منتصف الطريق السريع وقلبها يدق داخل قفص أضلعها، وكأنه كاد يتسلل من صدرها ويفرّ هاربًا في جوف الليل ويتركها منهزمة وميتة على الأسفلت. برز سر - سر أو ذكرى ضائعة - مميز وفظيع في عقل بيبي. كان بوسع بيبي الشعور بحضوره وبحجمه العظيم، وأدركت أن انكشافه سيمثل كارثة. وقفت تنتظر في الطريق. بدأت السماء السوداء وقمرها وكواكبها وطيفها اللانهائي من النجوم يثقل كاهلها، وامتلكتها حالة من الضعف، لدرجة أنها ظنت أن ساقيها ستنهاران. انتقل طنين إلكتروني غريب - ما ظنته طنينًا بدا كصوت أنين من يعانون منه - من أذن إلى أخرى، فقالت في نفسها، هذا ليس سوى تأثير جهاز مراقبة الدماغ اللعين، لكنها لم تكن تعلم ما الذي قصدته بذلك، ولم يكن ما اعتزمته عندما مدت يديها إلى رأسها لإزالة القلنسوة الإلكترونية فاكتشفت - بطبيعة الحال - أنها ليست سوى قبعة بيسبول. أصبحت رؤيتها غير واضحة. أم أن العالم من حولها هو الذي بات غير واضحًا وبدأ يفقد تماسكه وينهار؟

أغمضت عينيها؟

في تلك اللحظة، أدركت ما يحدث لها، فبدأت تعدو في غضب واحتقار للذات. القدر. كانت تستسلم لوهم أن القدر يملي عليها احتمالات حياتها. لا مفرّ مما هو مقدر. تبًا لذلك. إنها تحب والديها، لكنها لم تكن مثلهم. لم تكن لتسمح للقدر بالتحكم فيها. كانت المتحكمة في قدرها، وقائدة روحها.

ولـن تتوقـف. لـم تكن كلمة الاستسـلام قابلة للتكوين من الحروف الخشـبية لاسمها. لقد قطعت هذا الشوط الطويل ولن تتوقف.

زال حمل ملايين النجوم عنها، وسـقطت المادة السـوداء التي شـكلت معظـم الكـون عـن كاهلها. وإذا كان الطنين الحاد هو صوت صياح الكواكب وهـي تـدور حـول أنويتها السـائلة أو شـيء ما عـادي، ففي كلتـا الحالتين قد اختفـى. فتحـت عيناها ومشـت شـرقًا، وبـدأت الليلة غيـر الواضحة تتجلى. وعندمـا صعـدت مرتفعًـا صغيـرًا، كانت الهونـدا في انتظارها لـدى المنحدر المتدرج إلى أسفل حيث أوقفتها.

قبـل أن تفتـح بـاب السـائق، نظرت شـمالاً عبـر الطريق السـريع، حيث ارتفعـت الأرض الرطبـة قليـلاً، فبدت أملس في المسـاء أكثر مما تبدو نهارًا، وانحنت إلى أعلى مثل بطانيات رمادية يتمدد تحتها جيش من النائمين. وسواءً كان صوت قد جذب انتباه بيبي أو شيء خارق للطبيعة، فقد رأت عند حدود الرؤيـة الرجـل الطويـل ذا غطـاء الرأس، ثم الكلـب، وقد لمع كلاهما خفيفً من قبل ضوء القمر.

فكرت أولاً في عبور الطريق والنداء عليه، ثم الهرع صوبهما، هنا حيث لا وجود لضباب يحجبهما. لكنها أدركت أنهما مثل الضباب والأرواح الداكنة في المنزل يخدمان نفس الغرض مثل أيًا كان من طرق ونقر وحك على باب ونوافـذ غرفـة النُـزل. كانا هنا لتشـتيتها وتأخيرها، وقـد كان هذا غرضهما من البداية. لم يتسـببا في تعافيها، لأن السـرطان كان قد اختفى من جسـدها قبل ظهور الرجل وكلبه في غرفة المستشفى عبر صفة مميزة ما لجهاز المناعة في جسدها أو بسبب المشيئة الإلهية. وسواءً كانا من لحم ودم أو كيانين غريبين يلاحقانها، فلن تعرف شيئًا منهما حتى إذا تمكنت من اللحاق بهما وأمسكت بالرجل الطويل من غطاء رأسه.

لكن بيبي أملت وبشـدة إنقاذ آشـلي بيل، ومهما بلغ تصميمها على تتبع الفتاة، كان هناك شخص ما – تيريزن ولكن ربما شخص آخر لم يكن الأخير

سوى واجهة له – لديه نفس التصميم على عرقلتها. وبينما كانت تراقب الرجل والكلب يسيران على مسافة يتعمدان من قابلية رؤيتهما وتعظيم قدرتهما الخارقة، تساءلت بيبي عما إذا كان قتل آشلي ليس الهدف الأخير لعدوها، إذا ما كانت الفتاة مجرد طعم يجذبون به ضحيتهم المنشودة، بيبي، إلى مكان لا مفر منه.

استدارت بعيدًا عن الرجل والكلب، وصعدت إلى السيارة، وشغلت المحرك.

-102-

الساحرة الشمطاء تفرد شعرها

بـدا منـزل الدكتـورة سـانت كرويكـس – المغطـى بالجص مـن الخارج وشُيدت طوابقه من خشب الساح ويحيط به سور من الحديد غير القابل للصدأ والزجـاج – مكدسًـا فـوق بعضـه كالذي كان سيسـمى في عصر آخر شـطيرة داغوود، على اسم البائس داغوود بامستيد، وهو شخصية كرتونية أحبها قراء صفحات الترفيه في الصحف ذات يوم لكنها طي النسيان الآن. كان باكستون على علم بهذه الشخصية من سلسلة بلوندي الساخرة، لأن جدته سالي ماي كولتر كانت تعشـقها بنفس قدر عشـقها لأكثر كتب الرسـوم الساخرة المفضلة لديها، L'il Abner. نُشرت كتب تحوي العديد من إصدارات كلتا السلسلتين، وقد اقتنتها الجدة كلها.

لـدى البـاب الأمامـي، قال باكس «تذكر، العسـل يعطـي نتائج أفضل من الخل».

«رأيـت الصـورة فـي المجلـة التي تمتلكهـا بيبي؟ صحيـح؟ يبدو لي أن الأستاذة الشهيرة تزدهر على الخل»

«ربما ليست في المنزل أصلاً» قال باكس وقرع الجرس.

تعرّف بالكاد على المرأة التي فتحت الباب. في الماضي، كانت ترتدي البدلات المفصلة والباهظة والمثيرة. أما الآن فقد ارتدت زي أو داي الفيتنامية الكلاسـيكي – وهـو عبـارة عن سـترة قصيـرة فوق بنطال كلاهمـا من الحرير – أبيـض اللـون، مع ورود متناثرة بالأزرق الطاووسـي واللازوردي والأصفر الزعفراني. وهو زي نسـائي مثير مثل أي موضة نسـائية على مسـتوى العالم.

وكانت في العادة تسحب شعرها إلى الوراء على هيئة كعكة تبدو كثيفة مثل الحجر، مما يمنحها مظهر إحدى رائدات الحركة النسائية في القرن التاسع عشر التي اشتدّ عودها عبر عقود قضتها في الكفاح ضد الحرارة والبرود والريح والهنود وعدد لا يحصى من ظروف المروج القاسية، بيد أنها اليوم الأحد تركت شعرها الرمادي ينسدل، مما أظهره أقل رمادية عن الشعر الفضي الأشقر، وبدا لامعًا وسميكًا وحريريًا مثل ردائها. أما بشرتها - التي لطالما بدت مثالية في الصور والمقابلات التلفزيونية - فقد بدت مثالية الآن، لكنها بدت أكثر مثل اللحم عن كونها مثل معدن الكوارتز. وكانت عيناهَا مثلما وصفتها بيبي من قبل بالضبط بأنها زرقاء مثل الجيل المحفوظ في علبة ثلج، لكن نظرتها لم تكن باردة. وعلى ما يبدو، فإن البروفيسورة كانت ذات يوم امرأة أميركية فاتنة يسيل لها لعاب الرجال، وما تزال تبدو كذلك وهي في العقد الخامس من عمرها، عندما لا تتقمص شخصيتها العامة.

استهل باكس النقاش وقال «دكتورة سانت كرويكس...»

وقبل أن يتمكن هو أو بوغو من قول المزيد، رأت سولانج سانت كرويكس الحبر على ذراع باكس اليمنى، وقالت «لا أصدق ذلك» وبإصبع واحد دفعت كم القميص الذي أخفى نصف الوشم الوحيد لديه. كان الوشم عبارة عن الشعار الرسمي لوحدة القوات الخاصة؛ نسر في وضعية المراقبة على رمح ثلاثي يتقاطع مع مرساة، مع مسدس كلاسيكي في الأسفل، يلقي ظلالاً ذهبية بتفاصيل سوداء. سألته «هل أنت محتال أيها الشاب؟»

«المعذرة يا سيدتي؟»

فقررت قائلة «كلا، لست كذلك. أنت السلعة الأصلية، عنصر قوات خاصة مخلص لله. لم أقابل سوى واحد فقط من قبل، وكل ما كتبته عنه محفوظ بعيدًا عن أعين الناس، وسيبقى كذلك حتى أكبر بما يكفي لأرغب في أن يقرأه الجميع».

بعد أن تركت كم القميص يغطي نصف الوشم مجددًا، نظرت البروفيسورة

إلى بوغو وابتسمت، فاحمرّت وجنتاه خجلاً، وهو ما لم يراه باكس يحدث من قبل.

قالت لباكس بحماس طفولي «يمكنني الاستعانة بقدرات البطل الخارق. أخبرني أنك في مهمة رسمية بالغة الأهمية، وأنك عنصر في الاستخبارات العسكرية وتجري تحقيقًا يعتمد عليه مصير الأمة».

فقال باكس «ليس مصير الأمة يا سيدتي. لكنها مسألة حياة أو موت».

لم يؤكد أو ينفي أنه كان يعمل لحساب فرع أو آخر من الاستخبارات العسكرية، حتى يسمح لها أن تعتقد - بفطنتها الأكاديمية - أنها قد عرفت حقيقته من النظرة الأولى. وبناءً على سلوكها والحماس البادي في عينيها، اعتقد باكس أن هذا الأحد كان أسوأ مما أملت، على الأرجح مثلما كانت الأيام السابقة، وأنها ستصر على المخاطرة بالاعتقاد أنه كان مثلما تتصور، وسترحب بهما في منزلها. لعلها تحتاج في اللحظة الراهنة أكثر من أي شيء آخر إلى لون ما في حياتها، وقد عرض كل من باكس وبوغو كل درجات الألوان لعلبة تضم ثمانية وأربعين قلم تلوين.

«سيدتي، أنا الضابط باكستون ثورب، وهذا أفريل بيومونت ستانهوب الثالث».

سألته البروفيسورة «آل ستانهوب في بوسطن؟»

«كلا يا سيدتي» ردّ بوغو بالقول، على الرغم من أنه لا وجود لآل ستانهوب في بوسطن وسؤالها مجرد فخ. «بل من آل ستانهوب في فيرجينيا»، وهذه كذبة، لكنها منطقية.

قال باكس «سنكون ممتنين للغاية إذا منحتنا ربع ساعة من وقتكِ، ولكن يمكننا أن نتقابل غدًا في مكتبك في الجامعة، إن شئتِ»

كان ما يزال يتوقع أن تطلب منه إثباتًا على انتمائه إلى جهاز استخباري أو آخر، وعندئذٍ سيكون بمقدوره فقط إبراز هويته العسكرية فقط، التي لن تعرّفه مثلما يتظاهر الآن. لكنها تراجعت إلى الوراء ورحبت بهما في منزلها

وقادتهما عبر غرف مثيرة ولكن معقمة مفروشة بديكور حديث رائع، وكان رداؤها فضفاضًا وملتصقًا بها في آن واحد، مما أظهرها تعوم عبر المساحات المظللة مثل الأسماك الملونة الجميلة في مياه خافتة الإضاءة. كانت حافية القدمين، وذات قدمين صغيرتين بالنسبة إلى امرأة يبلغ طولها 170 سم تقريبًا، مثل أقدام جميلة لطفلة مقدر لها أن تكون راقصة باليه.

«لا بد أن أقلّب الحساء» قالت وأدخلتهما في المطبخ الفسيح ذي الأرضية الخشبية باللون الرمادي، المتوافقة مع الخزائن، مع أسطح منضدات من الغرانيت الأسود، وأجهزة مضادة للصدأ. استقرّ الحساء على الموقد، بينما داعب اللهب الأزرق أسفل الوعاء الضخم. قالت «هذا حساء البطاطس والكرّاث». اشتمّ باكس رائحة البطاطس والكرّاث والطرخون وقدرًا وفيرًا من الزبدة. وقد اصطفت مجموعة من الكراسي الصغيرة المبطنة على أحد جانبي الجزيرة الوسطى، وأومأت لهما سانت كرويكس بالجلوس.

وعلى الجزيرة الوسطى استقرت زجاجة جعة من ماركة ماكالان يعود تاريخها إلى ثمانية عشر سنة، وكان نصفها فارغًا وحُفظت في وعاء من الثلج، مع وجود كأس جعة كلاسيكي من ماركة باكارات الفرنسية يحتوي على تلك المكونات الثلاث. وسواءً كانت الدكتورة سانت كرويكس معتادة على الشرب في الساعة الثالثة وعشر دقائق أيام الأحد أو أن هذا استمتاع استثنائي، فلم تشعر بأي حاجة على الإطلاق لتبرير تصرفاتها. وبعد أن فرغت من تقليب الحساء ووضعت الغطاء مائلاً على الوعاء، قدمت لهما كأسين آخرين. وبيقين شخص يفعل ما يحلو له دومًا دون أن يواجه أي اعتراضات، لم تسألهما البروفيسورة عما إذا كانا يريدان الانضمام إليها في تناول الجعة أو إذا كانا يفضلان شيئًا آخر. وبينما كانت تقف على الجهة الأخرى من الجزيرة وهي تتحدث عن عشقها للطبخ وملئها الكأسين، أدرك باكس أن رفض الجعة سيعتبر إهانة شديدة، وأنه على الرغم من فرحتها الطفولية بزيارتهما وكرم ضيافتها، فقد تنقلب عليهما في طرفة عين.

نظر بوغو إليها في ارتياب، وكأنه كان يشك أنها ربما تعد سُمًا، لكنه على ما يبدو توصل إلى نفس الاستنتاج الذي توصل إليه باكس.

قالـت سـانت كرويكـس – وهـي تدفـع كأسـيهما عبر الغرانيت الأسـود نحوهما – «إذًا... قلت إنها مسألة حياة أو موت».

بما أنه كان قلقًا من ذكر اسـم بيبي بدون مقدمات، أقحم باكس مرادف الجعة والكريمة في خرافة انتمائه للاسـتخبارات العسـكرية. قال «مسـألة حياة أو موت، أجل، وعلى الرغم من أنها تبدو مأساوية، إلا أنها أيضًا مسألة أمن قومي».

فقالت البروفيسورة «القليل من المأساة أمر جيد بين الحين والآخر. فلو لم تكن الحياة إلا قصص رايموند كارفر، لجُننا جميعًا».

كان باكـس يعـرف مـن يكـون رايمونـد كارفر، لكنه فكر في الاسـم مما جعله بدا حائرًا للحظات قبل أن يكمل «على أي حال، نحن هنا كي نسـألك عن شخص يخضع لمراقبتنا...»

«مشـتبه بـه» قاطعتـه، وقـد بدا أنها تأخـذ الأمر بجدية مثل أفـراد اعتقلوا المحتالين الذين اتصلوا – مدعين أنهم عملاء لدى دائرة الإيرادات الداخلية – وحثوهم على تحويل الأموال إلى حسابات بنكية أجنبية.

فقـال باكـس «مشـتبه بهـا إلى حد مـا. ولكن لا يمكننا مشـاركة تفاصيل أنشطتها معكِ لأسباب أمنية»

«امرأة؟ أنا أعرف امرأة تمثل تهديدًا كبيرًا؟ هذا مثير!»

«أجل يا سيدتي. إنها طالبة سابقة تدعى بيبي بلير»

تحولت بشاشـة يوم الأحد إلى برود يوم دراسـي. قالت «تلك السـاقطة القذرة الصغيرة».

-103-
الفتيات المقدامات لا يصبن بالجنون

يمثل الذعر من القوة المعقولة أداة جوهرية للنجاة، لكن الذعر الشديد من أن كل من أعرفهم هم كائنات فضائية شريرة هو نهج الحمقى. بدا المكان مشوهًا. فقد تناثرت تجمعات صغيرة لبنايات في أنحاء الأرض القاحلة والشاسعة، لكنها كانت جميعًا مظلمة في هذه الساعة وبدت مهجورة منذ زمن طويل. في هذه الأرض المظلمة، لم يظهر وهج إلا على مسافة بعيدة جهة الشمال. كان هناك أميال مربعة من الوميض الأصفر والأزرق الباهت، ولكن لم يكن ثمة ضوء يدل على وجود حضارة ما. وقد ظهر لمعان فوسفوري غير طبيعي، ومسطحات حارة من الزجاج المشع. وبينما كانت بيبي تقود السيارة عبر هذا المكان الغريب والعدائي - بدا وكأنها قادت السيارة من كاليفورنيا إلى مكان بلا اسم ولا وجود له - شعرت أنها تسير على شعرة تربط بين التعقل والجنون، وأن توازنها يختل.

وعلى الرغم من المرهم المضاد الحيوي الذي استخدمه فنان الوشوم، وتحت طبقات الشاش الملفوفة، حرقتها الكلمات الأربع المكتوبة على رسغها الأيمن وكأن شيئًا أسوأ من الالتهاب يحدث. ربما كانت البكتيريا تلتهم اللحم أو أن الحبر المستخدم يحتوي على مادة كيماوية سامة. كانت الأحرف الثمانية عشر تلسعها وتحكها. وكانت قد أُمرت بألا تحكها. وقد تركت الكريم المسكّن والضمادات النظيفة في النُزل. وليس بحوزتها أي شيء لتغيير الضمادة. وليس لديها وقت لتغييرها على أي حال. تساءلت عما إذا كان ازدياد التهاب الجروح الثمانية عشر الصغيرة ينشأ عن عدوى متعمدة.

ولكن بما أنها اختارت متجر الوشوم عشوائيًا، فإن القلق من أن رسام الوشوم ربمـا يكـون متآمـرًا مع تيريـزن كان بنفس قدر جنون نظرية الكائنات الفضائية الشريرة.

عندما لم تقابل أي مرور يتحرك في كلا الاتجاهين لبضعة دقائق، تساءلت عما إذا كانت حواجز التفتيش قد حاصرتها من أمامها وخلفها، وكانت تنتظر منعطفًا أو مرتفعًا ستجد عنده فرقة إعدام تابعة للأشخاص الخطأ. ومن ناحية أخـرى، عندمـا ظهـرت مركبـة في الطريق القادم، شـعرت بالتوتـر لتوقعها أن الزجاج الأمامي للهوندا قد يتطاير بفعل سـيل من الرصاص. كل قائد دراجة ناريـة يقتـرب مـن خلفهـا هو متعقب محتمل، وعندما تقلل من سـرعتها حتى تدعـه يمـر، فإنـه يظـل بجوارها دومًا - أو ظنـت هي كذلك - حتى ينظر إليها بنية سيئة.

كانـت مـا تـزال علـى مسـافة خمسـة عشـر أو عشـرين دقيقة مـن طريق سونومابر عندما علا صوت مزعج فوق همهمة السيارة العتيقة وأزيز محركها. كان صوت التخبط المزعج يشـبه صوت سـمكة علقت في شـرك صياد وهي تكافـح للخـلاص، وقـد ظنـت في البدايـة أن أحد الإطارات قـد انفجر. وفي هذه الحالة، كانت سـتواجه مشـكلة مع عجلة القيادة، وهذه مشـكلة كبرى، لكن هذا لم يحدث.

سـاد الصمـت بعـد ذلك، لكن هذا لم يطمئن بيبـي، وبعد ثوانٍ معدودة، عاد الضجيج مجددًا، وهذه المرة ربما من أسـفل السـيارة. لا بد أن شـيئًا ما انزلق من مكانه ويحتكّ بالأسفلت. لكن الهوندا واصلت المسير، ولم يظهر أي ضوء تحذيري على لوحة العدادات.

عندما سـمعت الصوت في المرة الثالثة، لاحظت أن مصدره من داخل المركبة. في المقعد الخلفي أو على الأرض خلف مقعد الركاب الأمامي.

ثم أدركت ماهية الصوت.

فـي الليلـة السـابقة - حيـن كانـت نائمة على الكرسـي ذي الذراعين في

مكتـب أبيهـا الواقـع فـوق متجـر بيـت ذا كات - كانت قد حلمـت بحقيقة ما حدث في غرفة النوم عندما لم تكن قد بلغت سن السادسة بعد. إنها الحقيقة التي أخفتها عن نفسها باستخدام حيلة الذاكرة الخاصة بالقائد للنار والنسيان. لم تكن الحقيقة كاملة، وإنما جزء منها. في ذلك الحلم، لم تكشـف لنفسـها عن مصدر وطبيعة التهديد. وإنما فقط أن كيانًا خبيثًا قد أتى للنيل منها زاحفًا على أرضية غرفتها ثم مختبئًا تحت الأغطية بجوارها.

وها هو مجددًا.

بعـد مـدة مـن الصمـت التي ربما اسـتغلها هذا الكيان فـي تحديد رغبته والتفكير في البدائل المتاحة أمامه، علا الصوت الناعم والمهتز مجددًا، وكأن هذا حيوان قابع في مياه موحلة أو مستنقع من الطين لا ينتمي إليه، لكنه عاقد كل العـزم علـى شـق طريقـه عبر هذه البيئة الغريبـة نحو وجهته المرغوبة التي يتوق إليها؛ نحوها. بالنسبة إلى بيبي، بدا أن الكيان يحاول الصعود على ظهر مقعـد الـركاب الأمامـي، أو أن يزحف صعودًا علـى ناقل الحركة وصولاً إلى لوحة التحكم بين المقعدين، وهذا من المفترض ألا يمثل سوى عقبة صغيرة يمكنه تجاوزها.

عنـد امتـداد مسـتقيم مـن الطريـق السـريع، أدارت بيبي رأسـها كي تنظر إلى الوراء وأسفل، وفوق لوحة التحكم. لم يصل اللمعان اللؤلؤي لعدادات لوحة التحكم إلى أبعد من الجزء الخلفي من السيارة، حيث لم تظهر الظلال المجتمعة وضوء القمر المندفع عبر النوافذ أي شـيء. إذا كان ثمة شـيء ما ملتف حول نفسـه أو يرتجف على الأرضية الخلفية وهو يتوق إلى الصعود، وإذا كان يراقبها، فإن عينيه لم تلمعا في الظلام.

تعثـرت إطـارات السـيارة علـى الطـرف المغطـى بالحصى مـن الطريق. نظرت بيبي إلى الأمام، وأدارت المقود يسارًا، فأعادت السيارة على الأسفلت مجددًا، قبل لحظات من الغوص في حفرة منخفضة.

سواءً كانت علامة على الجنون أو التفكير المنطقي - أو معرفة مقموعة

ترشـدها بدون أن تفهم - أخبرت بيبي نفسـها أنها لو رفضت الاسـتماع إلى المخلـوق، ورفضــت الاعتـراف بوجـوده، وتخيلت أنه قـد اختفى الآن وإلى الأبد، فستتخلص منه. هل أفلحت هذه الاستراتيجية معها عندما فزعت وهي طفلة؟ لم تستطع أن تتذكر.

بعـد دقيقـة أو اثنتيـن، بـدا أن النظريـة قد تأكدت، ولكـن بعد ذلك صدر صوت جديد من مؤخرة السيارة يشبه الكلام أو محاولة للتكلم. كان الصوت منخفضًا وناعمًا، وظهر كفيض من المقاطع التي لم تشكل أي كلمات، لكنها عبرت عن شـغف وطمع وحاجة ماسـة ومرارة شـديدة وحقد لا يدع مجالاً للشك أن الكراهية تتقزّم أمامها.

-104-

مدمنة كحوليات وخبازة وصانعة نجوم

بعد أن نعتت بيبي بالساقطة القذرة الصغيرة، شعرت الدكتورة سانت كرويكس بالسعادة لفكرة أن تلميذتها السابقة تعاني من أزمة مع وكالات معنية بالأمن القومي لدرجة أن وجهها العابس عاد إلى الانفراج مجددًا، بيد أن ابتسامتها كانت أقرب سخرية انتقامية وكانت لتقهقه بصوت عالٍ لو أن المكان كان يعج برفاق الكنيسة.

«أيقنت أن تلك الساقطة المخادعة ستقع في مشكلة عميقة يومًا ما. أتمنى أن تكون مشكلة عميقة تغرق فيها. تظن نفسها أكثر مكرًا مما هي عليه، وقد اعتقدت بحماقة أنني شخص يسهل إرهابها. تخيلوا مبتدئة في السابعة عشر من العمر تجرؤ على محاولة التلاعب بامرأة في مثل خبرتي ونفوذي ومحترمة مثلي. تلك الحمقاء الصغيرة».

مرّ باكستون بلحظة غضب غير مألوفة لدى عنصر قوات النخبة، لحظة تقمص فيها شخصية بيت دايفز وأراد أن يقذف شرابه في وجه البروفيسورة والتفوه بإهانات ستحتاج بسببها بقية السنة حتى تستعيد كرامتها مجددًا. لكن ذلك لم يكن أسلوب استجواب ناجع. لم يكن بوغو الوفي جيدًا بما يكفي في إخفاء غضبه، وقبل أن تنظر البروفيسورة إلى الفتى وتلمح اشمئزازه، ابتسم باكس له وغمز بعينه ورفع كأسه وكأنه يشير بالنخب، لكنه قصد من ذلك القول إن تناول المشروب سيكون أفضل من توجيه لكمة إليها.

قالت سانت كرويكس «سأفعل أي شيء باستطاعتي للمساعدة في إدانة الآنسة بلير بما فعلته أيًا كان. لستُ في حاجة إلى معرفة أي شيء سريّ

بشأن القضية، لكنني آمل أن تنال فقط عقوبة تتراوح بين السجن مدى الحياة والإعدام».

منحت باكس ابتسـامة مثيرة، فقال «لديكِ كامل الحق كي تأملي ذلك يا سـيدتي، لكنكِ تتفهمين أنه لا يمكنني مشـاركة أصغر التفاصيل حتى للائحة الاتهامات».

تهلل وجه البروفيسورة أكثر، وفردت ذراعيها فلمع كمّا سترتها القصيرة الملونة مثل جناحي الفراشة. قالت «يا لها من كلمات...لائحة الاتهامات. هذا كل ما أود سماعه. أنا في حالة مزاجية رائقة للغاية لا يمكنك أن تتخيلها قط. لقـد كنـت أهـمّ بتشـكيل الكعك عندما قرعتما جرس البـاب، لذا هل يمكنني المضي في هذا بينما تطرح أسئلتك عليّ أيها الضابط؟»

لـم يفكـر باكس كثيرًا في كلمتي تشـكيل الكعـك، لكنه قال أجل بالطبع يمكنها مواصلة أيًا كان ما كانت تفعله ما لم يتداخل مع الاستجواب.

بينما ذهبت البروفيسورة إلى إحدى الثلاجتين من ماركة Sub–Zero، جرّب باكس كوكتيل الجعة. وقد تفاجأ حين اكتشف أن الجعة لم تخثر الكريمة، بل وتفاجأ أكثر أن الدكتورة سانت كرويكس لم تخثرها.

ومن أجل علاج غضبه، شرب بوغو معظم كأسه في شربة كبيرة.

عادت سولانج سانت كرويكس إلى الجزيرة وهي تتبختر حافية القدمين وحاملة وعاءً مغطى بمنشـفة أطباق. وقد أزاحت المنشـفة لتكشـف عن كرة ضخمـة مـن العجيـن المنتفـخ. قالت «أحـب صناعة المخبوزات. بل أعشـق ذلـك». ومـن الخزائـن، أخـذت لـوح خبز واثني عشـرة كوبًا من السـيراميك الأبيض خاص بتشكيل الكعك، وجلبتهم جميعًا إلى الجزيرة أيضًا.

صبّـت المزيـد من الجعة لنفسـها وعرضت عليهمـا المزيد. وعندما قبل بوغـو جولـة أخـرى، ابتسـمت له سـانت كرويكس مثل ثعلب يبتسـم لأرنب ضعيـف. وبعـد أن انتهـت من تقديم الجعة، غسـلت الخبـازة المغرورة يديها عند الحوض. وقد تنقلت دومًا وكأنها تفترض أنها تخضع للمراقبة بشهوة.

وعندما عادت إلى الجزيرة وبدأت في تعبئة العجينة المخبوزة في أكواب الكعك، نظرت بعينيها الزرقاوين إلى باكس وقالت «الآن، ما الذي تريد أن تعرفه بشأن الآنسة بيبي بلير؟ أين يثمل والداها وينتشيان، أو فقط عندما فقدا صوابهما ومنحاها هذا الاسم العجيب؟ لا عليك. آسفة. أنت من يحتاج إلى طرح الأسئلة».

تعجّب باكس من تقبّلها السريع والساذج لفكرة أنهما كانا يحملان صفة لم يزعماها قط، وأنها استنتجت من وشم القوات الخاصة وأمور تافهة أخرى أنهما في مهمة رسمية ما لإنفاذ القانون. ربما تكون قد ولّت منذ زمن طويل الأيام التي كان أساتذة الجامعات يبنون فيها استنتاجاتهم على المنطق والسبب، وعاشوا حياتهم بمثل هذا الأسلوب.

قال باكس «مثلما قد تتصورين، فإن أكثر ما يهمنا هو لماذا طُردت الآنسة بلير من برنامج الكتابة في الجامعة».

فقالت سانت كرويكس – بعد أن رفعت حاجبيها اندهاشًا – «لم يُذكر في أي مكان أنها قد طُردت لسبب بعينه. القصة هي أنها استقالت بملء إرادتها، ربما لأنها وجدت البرنامج شديد الصعوبة، أو أن الأجواء الأكاديمية لا تناسبها. من يدري سواها؟»

ابتسم باكس وهزّ رأسه ثم قال «امنحينا بعض الفضل على البحث العميق في الأمر يا دكتورة. لقد علمنا من مصادر متنوعة أن الأمر ينطوي على أكثر من ذلك. ونحن نشك في أن أيًا ما فعلته حتى تُطرد حينئذٍ، فهو مثال على السلوك الذي يجعلها شديدة الأهمية بالنسبة إلينا الآن».

«بالضبط» قال بوغو، وهو قلق من أنه قد يبدو بلا فائدة مما سيثير الشكوك.

كان اهتمام سانت كرويكس منصبًا في معظمه على تشكيل الكعك. قالت «لقد منحت واجب كتابة. كان يفترض بالطلاب اختيار شخص ما يعرفونه ولكن لم يزوروا مسكنه قط. وهذا الشخص يمكن أن يكون زميلاً أو عضوًا في

هيئة التدريس في الجامعة أو أحد الموجهين. كان الغرض من هذا هو اختبار قوة الملاحظة والبصيرة النفسية، فضلاً عن حس الوصف لديهم ومخيلتهم. وقد طُلب من كل طالب إعداد بيئة معيشة غنية بالتفاصيل وواضحة الوصف ومتماسكة وصادقة لذلك الشخص، سواءً كانت غرفة في السكن الجامعي أو شقة أو منزلاً. وقد اختارتني الآنسة بلير من أجل موضوعها».

«هل أزعجكِ ذلك؟»

«كلا على الإطلاق. كنتُ لأعرض نفسي كموضوع مقبول. وقد توقعت أن سيختارني من الطلاب سيستمتع بالأمر. ليست لدي حساسية شديدة تجاه الانتقادات. وعندما سلمت الآنسة بلير موضوعها، لم أتفاجأ من أنها قد وصفت الطابقين الأولين من هذا المنزل بدقة شديدة. لقد أقيمت حفلات رائعة هنا، ومناسبات جميلة للغاية، عندما اجتمع أعضاء هيئة التدريس وطلاب الفصول السابقة في أجواء احتفالية وفكرية فريدة. كلا، لم أتفاجأ، لكنني شعرت بخيبة الأمل من أنها على ما يبدو قد تواصلت مع بعض أولئك الأشخاص وسألتهم عن تصميم المنزل والديكور وأدق اللمسات الشخصية. كان من المفترض أن يكون هذا تمرينًا إبداعيًا وليس إخباريًا. كانت توصيفاتها مدهشة، وكتابتها حية ودقيقة بشكل غير معتاد لفتاة في مثل عمرها، لكن ما فعلته كان نوعًا من الغش. بعد ذلك – وعندما واصلت القراءة – صدُمت للغاية حين اكتشفتُ أن الأمر يتجاوز الغش، لقد كانت جريمة».

ركزت سانت كرويكس بشدة على إعداد أكواب الكعك لدرجة أنها عندما تصمت، لاحظ باكس أنها تستخدم ما تقوم به لتوجيه طاقتها بعيدًا عن الغضب الذي – عندما يظهر – يجعلها تبدو أكبر بسنوات وقاسية وغير جذابة.

سألها «جريمة؟ أي جريمة؟»

بعد إكمالها الكوب الخامس، قالت البروفيسورة «السرقة. حسنًا، حتى أكون منصفة، كلا، ليست السرقة. إنها لم تسرق أي شيء على حد علمي. يسمون ذلك اقتحامًا. لقد دخلت إلى منزلي دون دعوة عندما كنتُ غائبة،

وطافت كل ركن فيه حتى الطابق الثالث، الذي لا ولم يُفتح قط لمعظم ضيوفي. كان هذا انتهاكًا مروعًا لخصوصيتي. إن الطابق الثالث مقدس للغاية بالنسبة إلي».

أيقن باكس أن بيبي غير قادرة على فعل شيء كهذا، لكنه بطبيعة الحال لم ينبري للدفاع عنها. نظر فقط في ريبة إلى بوغو.

بعد أن رشفت من كأسها، نظرت سانت كرويكس في عيني باكستون وسألته «لماذا تسمى Chief petty officer؟ لا شيء فيك يثير الشفقة حسبما أرى».[1]

«إنه مجرد مصطلح طريف في القوات البحرية للتفرقة بين الضابط وضابط الصف، حتى لا ننسى موقعنا في خضم الأزمات».

«حتى لا نصاب بالغرور» قال بوغو ليثبت أنه لا يمتلك موهبة الخداع أو الاستجواب.

توقع باكس أن رده على سؤال سانت كرويكس قد يجعلها للتساؤل عما إذا كان ضابط صغير كهذا يُرسل في مهمة رسمية في النطاق المدني، لكنه أدرك من ابتساماتها واتجاه نظرتها أن المرأة أملت أن يعرف أن الباب مشرع لنقاش شخصي أكثر وأي شيء قد يؤدي إليه.

سألها «كيف دخلت الآنسة بلير عنوة؟ هل حطمت نافذة أم كسرت قفلاً؟»

فقالت البروفيسورة «لا دليل على الكيفية، وهو ما جعل الأمر مزعجًا. على ما يبدو أنها حصلت على مفتاح. لقد دُهشت من كيفية فعلها ذلك. لكنني غيرت كل الأقفال»

«هل أنتِ متأكدة أنه كان بحوزتها مفتاح؟»

بعد أن أخذت رشفة أخرى من كأسها، عاودت سانت كرويكس التركيز

---

(1) –كلمة petty لها أكثر من معنى في الإنجليزية، فهي تعني مثير للشفقة، ولكن في petty officer تعني ضابط صف (المترجم).

على العجينة وأكواب الكعك، وبدون أن تنظر في عينيه مجددًا قالت «أنا امرأة قويـة ومعقـدة أيهـا الضابط. وأمتلك خصالاً عدة، كما قال الشـاعر. لقد تعين علـيّ أن أكـون معقـدة، مـع قـدر كبير مـن العمق، حتى أبلغ مسـتوى نجاحي والشهرة في عالمي الأدب والأكاديمية الذين يتسمان بالمنافسة الشرسة، حيث الرياضة الوحيدة الأشهر من التنازلات المتبادلة هي الاغتيال المعنوي».

صمتت مرة أخرى، ولم يشأ باكس الإلحاح عليها.

بعـد أن انتهـت مـن تشـكيل الكوب السـادس وبدأت في السـابع، قالت سـانت كرويكس «الصورة هي كل شـيء في العوالم التي أسـكنها. أنا أحمي صورتي بشراسة مثلما يحمي الآخرون عائلاتهم وثرواتهم وشرفهم المقدس، إذا كانوا يؤمنون بشـيء كهذا. أنا مؤسسـة أنجح برنامج كتابة في أي جامعة في البلاد. ويُعرف عني أن لي عينًا خبيرة في اكتشـاف العباقرة والقدرة على دعمهـم. وقـد دُعـي العديـد مـن طلابـي السـابقين للانضمام إلـى الأكاديمية الأمريكيـة للفنـون والأدب. وثلاثـة منهم حازوا على جائزة بين/ فوكنر لأدب الخيال، وحاز اثنان منهم على جائزة الكتاب الوطنية، وحاز اثنان آخران على جائزة البوليتزرز. أما الجوائز الأقل شأنًا فهي كثيرة جدًا ويصعب حصرها. أنا صانعة نجوم. وبالنسـبة إلى شـخصية في مقامي، فإن صورة المرأة المخلصة للكلمة المكتوبة على حساب حياتها الشخصية حتى، وعدم رضاها بأقل من التميـز فـي مجـال الأدب، يجعلني موضع الثناء الشـديد ورمزًا. إن تميزي لن يتضرر فعليًا حتى إذا ما أقررت علنًا أن بعضًا من أكثر طلابي المشهورين في برنامجي هم حمقى ذوو موهبة ضعيفة. ولكن بالنسبة إلى امرأة معقدة مثلي، فثمة جوانب في شـخصيتي لن تبدو متسـقة مع صورتي العامة بل وسـتلحق ضـررًا بالغًـا بهـا. وعليه، فإنني أبقي تلك الاهتمامات خاصة للغاية وأسـتمتع بها بعيدًا عن أعين أولئك الذين سيشعرون بالإهانة منها».

جلس بوغو جاحظ العينين، وكأن مخيلته تشتعل بصور لرغباتها المحرمة، ونسـي أن أحد الجوانب المثيرة للجدل من شـخصيتها هو شـعورها بالحاجة

إلى إخفاء ما لا يعدو كونه افتتانًا بالحقبة الفكتورية، وبنمط المعيشة والحياة الأدبية وربما قيم ذلك العصر.

أضافت البروفيسورة «كتبت الآنسة بلير ورقة الابتزاز الخاصة بها وكأنني امرأة ذات وجود متعددة أكثر من ماسة مصنعة ببراعة. لقد كتبت عن الطابق الثالث من منزلي وكأنها وجدت أسراره ساحرة وأن اهتماماتي غير المعلنة دليل على عمق شخصيتي وتفكيري. لكن هذا كان تملقًا بطبيعة الحال الغرض منه إخفاء محاولتها للابتزاز. لقد كانت تسعى للحصول على ثنائي ورعايتي ودعمي لموهبتها، وقدرتي على صنع نجمة منها في مقابل صمتها».

تشجّع باكس وقال «ماذا لو أنها لم تدخل منزلكِ قط؟ ماذا لو أنها تخيلت بدقّة فقط...اهتماماتك الخاصة؟»

رفعت سانت كرويكس عينيها عن كوب الكعك، ورمقته بشفقة المفكرين على هؤلاء الذين ابتليوا بجينات الجهل. قالت «لا أحد يمتلك مخيلة بهذه القوة والحدس العبقري، لمعرفة ما يحتوي عليه مكان معين بدقة وهو لم يطأه قط. كان وصفها الدقيق للطابق الثالث إخباريًا مثلما كان عن الطابقين الأولين، ليس خيالاً بل صحافة رخيصة، بلغت دقتها نسبة خمسة وتسعين في المائة. اللعنة، بل ثمانية وتسعين في المائة! لقد كانت الساقطة الصغيرة هنا. ولا بد أنها قد دونت ملاحظات. إن هذا جزء من حياتي أقدسه إلى درجة أنني نادرًا ما أشاركه مع أحد. الفراش الذي أنام عليه معظم الليالي في الطابق الثالث، ليس الواقع في غرفة النوم في الطابق الثاني. لم أشاركه إلا مع القليلين جدًا الذين أثق فيهم، وما كان أحدهم ليخاطر بعلاقتنا للتآمر مع تلك العاهرة الصغيرة الوضيعة».

بدون أن تعي ما كانت تفعله، انتهت البروفيسورة من تشكيل الكوب السابع ثم قطعتها بالسكين وكأنها كانت تتخيل جزّ عنق تلميذتها السابقة. وقد قذفت العجين الفاسد في اشمئزاز، ومسحت يديها في منشفة الطبق، والتجأت إلى كأس الجعة بالكريمة. إذا لم تكن قد استعادت توازنها بالشراب، فعلى

الأقل أدركت أنها أثناء فورة غضبها لم تكشف لهما شيئًا عن طبيعة المخبأ السري التي استمتعت به في الطابق الثالث. كان غائبًا عنها أنهما قد اطلعا على موضوع بيبي، لذا فقد افترضت فقط أنهما يتخيلان كل شيء غريب الأطوار بدءًا طقوس تعذيب النفس وحتى التضحية بالحيوانات. وقد بدا أن حيرتهما تثير بهجة البروفيسورة، لدرجة أن الغضب تبدد من وجهها المتيبس، وعاد منبسطًا بنوايا لعوب. لعقت شفتيها وقالت «إذا أردتما التأكد من اتهاماتي للآنسة بلير، سأسمح لكما بقراءة نسخة من موضوعها ثم أصحبكما إلى الطابق الثالث كي تريا بأم أعينكما».

-105-
الراكب

مفصحًا عن تعبيرات بلا كلمات تدل على نوايا حاقدة، بدا أن المخلوق غير المرئي يقبع أسفل مقعد الركاب الأمامي، محاولاً التفكير في المسارات البديلة والبنية، وهو يعتزم شق طريقه نحو فتحات القدم الأمامية، ومن هناك ربما ينقض عليها.

وبما أنها كانت غير مستعدة لترك السيارة والمواصلة سيرًا على الأقدام في هذه الليلة الغريبة والموحشة، سحبت بيبي مسدها من أسفل السترة وأمسكت المقود بيدها اليسرى فقط، مما أجبرها على تخفيض سرعتها.

إذا لم يكن الزمن قد عاد بها إلى الوراء في تلك الليلة المخيفة التي سبقت عيد ميلادها السادس،ن فقد عاد إليها الهلع. ليس هنناك رعب حقيقي يضاهي ما تواجهه طفلة بريئة عندما تتجلى لها للمرة الأولى حقيقة أن الشر ليس محض حكايات خيالية، وأنه يتجسد على الأرض بهيئات لا حصر لها، وأن أكثر ما يسعى إليه هو تدمير حياة الأبرياء. وبتجربة كهذه، تنتهي الطفولة، بصرف النظر عن السن الذي حدث فيه الاكتشاف المروع. ذاقت بيبي مجددًا النكهة المعدنية للمعرفة الأولى بوجود الشر، وشعرت أن رعب الطفولة يغزو عروقها، وكان قلبها يخفق بعنف وكأنه إما سيحطم القفص الصدري الذي حماه أو سيمزّق نفسه إربًا. كان شعور العجز الذي تحملته في تلك الليلة البعيدة لا يُحتمل الآن، ووضع لم تكن لتسمح لنفسها بالخضوع له، ليس بعد كل هذه السنوات من الكفاح كي ترمي وراء ظهرها بواعث الفزع الكبرى - المنسية - لشبابها لصالح مخاوف عادية وتهديدات الحياة الطبيعية.

قالت «كلا، اللعنة، كلا، لا يمكن لهذا أن يحدث، ولن يحدث، وإنه لا يحدث».

وعلى الرغم من أن الكيان المتململ المنتفض والبائس وعديم الرحمة كان حقيقيًا في غرفة النوم في المنزل الصغير، لكنه لم يكن حقيقيًا هنا؛ إذ كانت قد أجهزت عليه ليلتئذٍ – أيًا كانت هويته – بوسائل لم تتذكرها. وبعد سبعة عشرة عامًا، يستحيل أن يعود ليعذبها. اختلف المكان والزمن الآن، ومن غير المرجح أن يتجسد كشبح حتى يطاردها. كان الكيان القابع أسفل مقعد الركاب – الذي ينادي عليها بنبرة مبهمة قاسية لا معنى لها مثل صياح الحيوانات – ليس إلا صورة أخرى من الكيان الذي طرق باب النُزل، وقرع على النافذة، مجرد إلهاء مثل الضباب والأرواح التي رأتها في المنزل الذي اختُطفت منه الفتاة، ومثل الرجل ذي غطاء الرأي وكلب الصيد الذهبي الذين حاولا إعاقتها عن البحث عن آشلي بيل.

ومثل تشاب كوي، مدير الأمن في المستشفى. ما دخله بأي من هذا إلا المساهمة في الإلهاء، وإعاقتها بتضليلها؟ لقد ظهر في مطعم نورم وهو يتناول الإفطار برفقة سانت كرويكس، ثم ظهر لاحقًا في مخبأ البروفيسوري الفكتوري كي يقتلها عندما كانت ربما على وشك أن تكشف عن شيء هام، ومقتبسًا مقاطع من فلانري أوكونر وثورنتون ويلدر وجاك لندن، الذين من المستبعد أن يكون على اطلاع على أعمالهم أكثر من براعته في مجال فيزياء الجزيئات.

فجأة، أحاطت حقيقة تخص تشاب كوي ببيبي مثل طائر ليلي يجول في الظلام بعين ثابتة على فريسته، وهي ذات الحقيقة التي تذكرتها سابقًا، وكانت قد أحرقتها بحيلة الذاكرة. قادت السيارة بيدها اليسرى، وممسكة بالمسدس بيدها اليمنى، وهي تهيم وحيدة في الطريق السريع، ويبدو أن قلبها يتقافز عوضًا عن النبض، مما أحدث تشنجات عنيفة في صدرها، فحدّثت نفسها قائلة، إنه لم يقتبس تلك الكتب لأنه أراد ذلك، بل لأنني حملته على ذلك.

لـم تكـن هـذه هـي الحقيقـة التـي أحالتها إلى رمـاد في حوض النُـزل، لكنها كانـت نوعًـا مـا انعكاسًـا للحقيقـة على مرآة حديقة الملاهـي. لم تدرك كيف كان بوسـعها إجبار تشـاب كوي على فعل أي شـيء، فهذا غير منطقي. ظلت تتمعـن مـن الفكـرة المثيرة للفضول فـي محاولة لفهمها، ولكن بدلاً من جني الوضوح بسـبب التكرار، فقد فقدت الفكرة تماسـكها، حتى أدركت فجأة أن الكيـان القابـع أسـفل مقعـد الـركاب - الراكـب غير المرغوب فيـه - كان قد صمت لبعض الوقت.

-106-

حدس الأب

في الغرفة رقم 456، وفي الساعة الثالثة وتسعة وعشرين دقيقة من بعد ظهر يوم الأحد، والسماء خارج النافذة زرقاء صافية. كانت الشمس تغرب لكنها لم تتحول بعد إلى طيف أحمر اللون. على شاشة جهاز رسم القلب، كان معدل ضربات قلب الفتاة يرتفع، لم يكن هناك صوت، لكن خط التتبع كان يتأرجح سريعًا. وعلى جهاز رسم كهربية المخ، تشير مؤشرات موجات الدماغ الخمس كافة وفي آن واحد إلى أنماط نشاط مثالية، وهو ما كان مستحيلاً مثلما يدرك أي طبيب أعصاب.

جلست نانسي بالقرب من النافذة وهي تمسك بصحيفة لم تكن قد طلبتها لكنها قبلتها من ممرضة متطوعة شابة طيبة، وقد بدا أنها تقرأ لكنها لم تنتقل من الصفحة الأولى إلى التالية قط.

كان ميرف يجلس على كرسي آخر مع هاتفه الذكي وهو يتصفح أحوال التزلج في أستراليا؛ في بايرون باي ونارابين وتوركواي وبوينت دنجر. ثم إلى بالي؛ ارتفاع الموج في كوتا ريف ونوسا دوا وبادانغ بادانغ. وإلى المكسيك في مازاتلان وسان بلاس وتودوس سانتوس في باخا كاليفورنيا وسكوربيون باي. ودوربان في جنوب أفريقيا وكاب سانت فرانسس. لن يمتطي الموج في أي من تلك المناطق اليوم وربما قط. واصل التصفح على أي حال. بايبلاين وسانست ووايميا على الساحل الشمالي من أواهو. وهونولولو باي وماليا في مويْ. شعر أنه يفقد قبضته على التعقل، ويتراجع ببطء نحو نوع من الجنون.

بين هاواي والأوروغواي، رفع نظره عن الهاتف ورأى جهاز رسم

القلـب، حيـث كان خـط تتبـع القلب يقفز إلى أعلى وأسـفل خط المنتصف، وكان ينقبض وينبسـط مثلما يفترض به، ليس بشـكل غير منتظم، ولكن أسـرع مما كان عليه من قبل.

على الفراش، تجعد الشـعر حول القلنسـوة الكهربية المنفّرة، وتمددت بيبي في سكون مثلما هي منذ أيام. لكنها تأوهت في ألم فجأة.

أسـقطت نانسـي الصحيفـة ونهضـت على قدميها. واقتربـت من الفراش وبيبي تقول «كلا، اللعنة، كلا، كلا...»

تناسـى ميـرف الأمـواج والمـد والأماكن البعيدة، وتعثـر وهو يهرع نحو جانب الفراش، فباتت الفتاة بينه وبين نانسي.

عبـس وجههـا الجميـل وأغمضت عينيها أكثر وهي تقول «لا يمكن ولن يحدث، وهو لا يحدث».

قالت نانسي – بعد أن مالت على حافة الفراش ووضعت يدًا على كتف بيبـي – «هـل تسـمعينني يـا عزيزتـي؟ لا بأس يا بيبي. نحن هنـا يا حبيبتي. أنا ووالدكِ، كلانا هنا»

«لا يحدث، لا يحدث». أصرّت بيبي. أدارت وجهها من جهة إلى أخرى، وكأنها مبتلاة. وترفض وتقاوم.

مـدّ ميـرف يـده إلـى زر الطـوارئ المثبت على حافة الفـراش، لكنه تردد في نقره.

كانت هناك علاقة بين أب وابنته لطالما حيرته، ومعرفة يجهل مصدرها، فكان يعرف متى تكون بخير ومتى لا تكون كذلك. كانت في بعض الأحيان تركـب أمواجًـا عاليـة كالجبال تفوقهـا ارتفاعًا بثلاثة أضعاف، مع وجود خطر حقيقي بالانجراف نحو الصخور المتكدسـة التي تنكسـر عليها الأمواج عند ثغـر الميـنـاء، حيـث قُتـل العديد من المتزلجين، لكنه كان يعرف أنه ليس عليه أن يقلـق. وفـي أحيـان أخـرى، ربما تكـون برفقة بعض الأصدقـاء، ويركبون الدراجـات فـي مـكان لا يتسـم بأي خطورة مثل الرصيـف الممهد الذي امتد

على طول شبه الجزيرة في الشوارع غير المزدحمة جنوب الرصيف البحري الأدنـى لبالبـوا، فـكان يتصل بها ويعـرض عليها المرور عليه في متجره للبقاء برفقته لبعض الوقت. ولطالما استشعرت نبرة القلق الغامضة في صوته. لكنه كان يؤمن بأن شيئًا ما قد يقع إذا لم يتصل بها وغير نمط يومها. لم تكن هذه العلاقة بحدة الاستبصار، لكنها كانت أقوى من الشعور.

عندمـا تأوهـت بيبـي ثانية وأدارت رأسـها على الوسـادة، نقلت نانسـي يدهـا مـن كتـف الفتاة إلى وجهها الجريح. قالت «هل تسـمعينني يا حبيبتي؟ هـلا استيقظتِ مـن أجـل أمكِ؟ هل يمكنكِ الاسـتيقاظ والابتسـام من أجل والديكِ؟»

أدرك ميرف – عن طريق المعرفة مجهولة المصدر – أنه – وبقدرما يبدو الأمـر غيـر منطقـي – كانـت في أمان في الغيبوبـة، أو على الأقل أكثر أمنًا مما إذا كانت مسـتيقظة. كانت الجروح على وجهها والوشـم والندبات الغامضة تتعارض كلها مع ما شـعر به، لكن الشـعور بقي قويًا. في الواقع، لقد أحسّ أن الغيبوبـة هـي أملهـا الوحيد، وأنها بشـكل ما فـي الغيبوبة لديها فرصة لـ... لماذا؟ أن تُشفى من السرطان بطريقة ما؟ سرطان الدماغ الذي لم يُشفى أحد منه قط؟ هل كان ذلك ممكنًا بحق أم ما هي إلا أمنية أب يائس؟ راقب عينيها تتحرك بسرعة أسفل الجفنين الشاحبين، ثم نظر إلى موجات الدماغ الخمس التـي تصـف أنمـاط نشـاطها المثالي، وهـي ظاهرة لم يشـهدها أحد من قبل، وفكـر فـي مـن تكون بيبي، تلك الفتاة التـي لطالما كانت مميزة، وبدت أمنيته اليائسة أملاً منطقيًا.

كررت بيبي كلامها «إنه لا يحدث».

وضعت نانسي يدها على جبين ابنتها – الذي كان نصفه مغطى بالقلنسوة الكهربية – وحثّتها على الاستيقاظ والعودة إليهم.

«كلا!» همـس ميـرف، ولكـن بحـدّة أدهشـت زوجتـه. وأضـاف «كلا يا عزيزتي. دعيها تنام، فهي تحتاج إلى ذلك».

رمقته نانسـي وكأنه كان ملك المجانين، ومعتوه ومعتل نفسـيًا، ثم قالت «هذا ليس نومًا يا ميرف. هذه غيبوبة سرطان لعينة».

فقال وهو يومئ صوب جهاز رسـم كهربية الدماغ «ليسـت غيبوبة...إنها شيء ما».

نظـرت نانسـي إلـى الفتـاة الغاليـة، ثم إليه مجددًا، وأيًـا كان ما رأته على محياه وفي عينيه، فقد أفزعها.

انتشـر احمـرار علـى جبيـن ميـرف وخديه، حرارة لم يشـعر بها من قبل. نضحـت حبـات عـرق علـى وجهه، عرق بسـبب الرعب، لو كان هناك شـيء كهذا. كان وجهه يتوهج ويلمع، وقد علِم أن عينيه تتلألآن كذلك. قال وهو يحدق في ابنته – ومطمئنًا زوجته – «إنها تسير على اللوح».

-107-
نجاح صعب

في سيارة الهوندا – على بعد عشرين مترًا تقريبًا أعلى التلة من منزل سولانج سانت كرويكس – جلس بوغو خلف المقود، وجلس باكس صامتًا. كانت دوائر ضوء الشمس الذهبية تختلط بالظلال الكثيفة على الزجاج الأمامي للسيارة.

قال بوغو «يا إلهي أيها الضخم. ماذا كان سيحل بنا إذا كنا رافقناها إلى الطابق الثالث؟»

«أعتقد أن مهاراتي كعنصر في القوات الخاصة كانت كافية كي أخرج من هناك حيًا. قيل لي إنه يمكنني اللكم بيميني بعنف».

«كريمة مع الجعة. هل بدأت والدتها في إرضاعها ذلك وهي في المهد؟»

بينما كان ينظر إلى الألواح الكبيرة لزجاج النافذة شديد السواد في المنزل المشيد من الطوب، وهو يتساءل عما إذا كان هو بوغو يخضعان للمراقبة بدورهما من قبل المرأة وإذا كانت تلعق – مثل القطط – الكريمة من على شفتيها، قال باكس «ثمة شيء فيها يثير الإعجاب. في الواقع، أشعر بالأسى عليها».

قال بوغو وهو غير مقتنع «كيف ذلك؟»

«إنها تتظاهر بأنها قد بنت الحياة التي تنشدها، ولكن عند مستوى ما، هي تدرك أنها فهمت الحياة بشكل خاطئ. لقد أرادت تأثيرًا فنيًا، لكنها حصلت على القوة بدلاً من ذلك. وقد أرادت حياة أدبية، لكنها حصلت على حياة مؤتمرات وندوات الكتّاب واللجان المتحمسة لأدب الخيال بغية بيع القضايا

الاجتماعية المثارة في الوقت الراهن. وحفلات الشرب حيث يحل التواصل مع الآخرين محل الموهبة. وتجد نفسها مستهدفة من مدونين حاقدين. لقد تصورت نفسها روحًا حرة – مثل هولي غولايتلي – ولكن بعقل جين أوستين. ولكن لا مكان على الإطلاق للأرواح الحرة في الحياة الأكاديمية الحديثة، مع خطابها المعقد وسماتها الخالية من المرح. لذا فقد صنعت حياتين لنفسها أو ثلاثة قدرما نعرف أو حتى أربعة، وفي النهاية ليس هناك إشباع في وجود أكثر من سولانج سانت كرويكس».

حملق بوغو فيه.

قال باكس بعد لحظات «ماذا؟»

«ظننتك تجيد تفجير الأشياء فقط».

«لقد فجرتُ الكثير من الأشياء» قال باكس ثم نظر إلى ساعة يده، وإلى ساعة السيارة، فشعر مجددًا أن الوقت يسرقهم. أضاف «يجدر بنا التحرك».

قال بوغو بعد أن شغل المحرك «كل ما أعرفه هو أنها طردت بيبز من برنامج الكتابة وأهانتها في سوق ذات مرة. ونعتتها بأوصاف وضيعة».

أثناء نزولهما عن التلّة صوب طريق الساحل السريع والقلب التجاري للاغونا بيتش، قال باكس «حسنًا، لنراجع الوضع. لسبب ما نجهله، أعطى القائد إلى بيبي قائمة من الاقتباسات تمجد المخيلة».

«أجل. وهي تقرأها كثيرًا لدرجة أنها كادت تمزق الورق»

«ثم يموت القائد وبيبي في العاشرة من العمر، فينفطر قلبها وتحزن بشدة. ثم تكتب قصصًا عن كلب مهجور يسمى جاسبر»

«مئات من الصفحات»

«وذات يوم يظهر كلب يسمى جاسبر من العدم»

«أجل. لكنها تخفي طوقه المدوّن عليه اسم »

«أنت متأكد أنها لم تخبرك بشأن ذلك قط؟»

«أجل» أكد بوغو ثم انعطف شمالاً في الطريق الساحلي السريع.

فقال باكس «ثم بلغت السابعة عشر لتكتب عن منزل سانت كرويكس...»

«إنها كذبة سخيفة القول إن بيبز حصلت على مفتاح ودخلت إلى هناك».

«بالطبع، ولكن بمجرد النظر إلى سانت كرويكس، ووضع سيكولوجية البروفيسورة في الاعتبار، وبضم مخيلة بيبي الخصبة، فقد وصفت الأمر بدقّة متناهية. كيف يكون ذلك ممكنًا؟»

«حسنًا، لأنها بيبز».

«أنا لستُ واطسون، وأنت بكل تأكيد لست شيرلوك» قال باكس ثم نظر في ساعته من طراز G–Shock مجددًا. وأضاف «هل يمكنك الإسراع قليلاً؟»

«لقد استنزفتُ كامل طاقة هذه الخردة، لكنها لا تملك خاصية النقل الفضائي».

فقال باكس «آسف. الأمر وما فيه أنني أعتقد أنه ليس أمامنا ما يكفي من الوقت لحل هذه المشكلة، علينا أن نسرع».

«نسرع. حسنًا. ولكن إلى أين سنذهب؟»

أخذ باكس نفسًا عميقًا وقال «ليتني أعرف».

-108-

البرودة المستمرة

أوقفت بيبي السيارة على جانب الطريق السريع، وهي على يقين أنها بمفردها في السيارة، أو على يقين نسبي في الوقت الراهن.

كانت في حاجة إلى بلوغ طريق سونومابر والعثور على آشلي بيل، لكنها احتاجت أيضًا إلى استعادة السيطرة على نفسها. كانت تنتقل من موقف عصيب إلى آخر، ومن أزمة إلى التي تليها، تاركة الأحداث تتقاذفها من هنا إلى هناك إلى أي مكان، وكأنها كرة. يمكن للأحداث أن تثقل كاهل أي شخص؛ فلا أحد بوسعه الصمود طويلاً أمام التسونامي. لكنها كانت قادرة على مقاومة التيار تحت الماء، وإبقاء رأسها فوق السطح حتى ينحسر اهتياج البحر، ثم تشرع في السباحة.

الأسوأ من ذلك أنها تركت نفسها ألعوبة. وقد استغرق الأمر منها وقتًا طويلاً جدًا حتى تدرك ذلك، فبحيلة تلو الأخرى، كان يجري تشتيتها عن هدفها. وكانت قد استثمرت قدرًا هائلاً من الطاقة والعاطفة – والوقت! – في الخوف والقلق من الرد على الأشياء التي لم تكن تشكل تهديدًا حقيقيًا عليها. النقر على النافذة، وحك الباب، والرجل المتخفي وكلبه. كان الوشم نوعًا مختلفًا من المشتتات. لماذا حصلت على وشم آشلي بيل ستظل حية؟ لم تكن في حاجة إلى استعراض شجاعتها، فهذه ليست طبيعتها، بل إن التحفظ الشديد هو ديدنها، ولم تحتاج إلى الحماس والتشجيع الشديدين. كان الوشم تحديًا، ولكن لمن أو ماذا، إن لم يكن للقدر؟ وهي لا تؤمن القدر. كانت المتحكمة في قدرها بإرادتها الحرة. وفي حياتها، كانت هي القدر.

كانت قد أطفأت محرك السيارة قبل حين، لكنها شغلت السيارة مجددًا بدون أن تضيء المصابيح الأمامية.

كانت تعيش في الماضي والحاضر على حد سواء، على الأقل في سياق أن أحـداث الماضـي – التـي نسـيتها ولا تتذكرها بشـكل كامل – قد شـكلت الحاضر. كانت تدرك كيف تتعامل مع الحاضر، وكيف يعمل عالم الآن وكيف تشـق طريقها عبره بما يحقق مصالحها بأفضل صورة. لكنها كانت فاشـلة مع الماضـي. فعندمـا تجلـت لحظـات الحقيقة، كان يفتـرض بها أن تقبض عليها وتزيـل كافـة طبقات الأيام الغابرة السـميكة عنهـا، حتى ترى ما الذي ينتظرها تحتها.

إلى جانب ذلك، كانت تعيش في عالمين. وهي على هذا الحال منذ أن بدأت كاليدا باترفلاي السعي خلف المعرفة الخفية عند الطاولة في المطبخ. كان العالـم الأول عالـم السـبب والأثـر، والمنطق والمخطط، حيث تُكتشـف الحقيقـة عبـر التخميـن والملاحظـة. أمـا العالـم الثاني فقد كان أكثر اتسـاعًا، ومكانًا لم تعد فيه الخوارق مختبئة وراء حجاب حتى نشـعر بها أو لا، لكنها تتجلـى إلـى العلن باسـتمرار. وخلال السـاعة الماضية، بـدأت بيبي تفهم أنها كانت تعيش ماضيها – خلال العام الذي بلغت فيه سن العاشرة – في العالم الثاني الأكثر اتساعًا.

استخرجت من حقيبتها الكتاب الجميل المغلف بالجلد الخاص بكاليدا الذي كانت قد رأت فيه أسطرًا رمادية باهتة بخط يديها تتدفق وكأنها سائل ثم تختفي عبر الصفحات. وقد أدركت الآن فقط أن الأسطر تعود إلى المخطوطة التـي كتبتهـا فـي صباهـا، التي تشـبه إلـى حد كبير ما تؤلفه هـذه الأيام، ولكن بكتابة مزخرفة ما عادت تستخدمها. كان الكتاب بشكل ما وصلة بين الماضي والحاضر، وأيضًا جسرًا يربط بين العالمين الذين تسكنهما الآن.

أشـعلت مصباح سـقف السـيارة وفتحت المجلد السـحري وتنقّلت عبر الصفحات الفارغة الوردية، لكنها لم ترَ النص السحري هذه المرة. لم تعاود

أبيات شعر دونالد جاستس – التي كانت قد كتبتها على إحدى الصفحات ثم اختفت – الظهور ثانية. لم تكن قد كُتبت بحبر يختفي، وإنما بقلم حبر عادي. لذا لا بد أن أبيات الشعر قد اختفت في مكان ما. فمثل البريد الإلكتروني – الذي ينتقل من حاسوب إلى آخر – انتقلت الأسطر إلى كتاب آخر.

وحتى تستعيد السيطرة على نفسها، وتعود مجددًا بيبي بلير التي كانت عليها قبل انفجار هذه الفوضى، تعين عليها الربط بين الماضي والحاضر، فضلاً عن العالمين الذين تسكنهما. كانت تجهل كيف يمكن للكتاب أن ينجز ذلك أو إذا كان يمكنه ذلك أصلاً، لكنها أدركت ألا شيء آخر في المتناول قادر على تحقيق هذا الغرض. ما الفائدة من امتلاك كتاب سحري إن لم تستخدمه بشكل ما؟

عبثت في حقيبتها وعثرت على قلم الحبر. وعلى الرغم من أنها أحست بأن الزمن في صوره الثلاثة – الماضي والحاضر والمستقبل – يبتعد عنها، وأنه يقبع في قلب نظام القيم الخاص بها تذكير بالعمل والإنجاز – الفعل من أجل الفعل – فقد طردت من عقلها الحاجة الملحة للبحث عن الفتاة. وقد فكرت بتمعن فيما يتوجب عليها أن تكتبه بدلاً من أن تخط الكلمات على الصفحة دفعة واحدة.

كانت كلما بدأت سطرًا جديدًا، اختفى سابقه من الصفحة. وعندما انتهت، راقبت آخر بضع كلمات تختفي عن الأنظار. وعلى الرغم من أنه قد بدا وكأنها لم تفعل شيئًا، بيد أن إحساسًا بالإنجاز تملكها حاملاً معه بصيص أمل.

وضعت القلم والكتاب، وتناولت كبسولتين من علبة التيلينول. كانت أذنها المجروحة ووجهها المغطى بالكدمات يؤلمانها. وكان الوشم ذو الحروف الثمانية عشر يحرقها طولاً وعرضًا. وبقي في الزجاجة التي كانت قد جلبتها من النُزل ما يكفي من الكوكا كولا لإزالة المسكّن.

أطفأت المصباح الداخلي، وأشعلت المصابيح الأمامية، وقادت السيارة إلى داخل الطريق السريع.

وخلال ثوانٍ معدودات، بدأ صوت المرأة الناعم والجاد الذي صدر عن جهاز تحديد المواقع مجددًا في إرشادها صوب طريق سونومابر، وهي رحلة لن تستغرق الآن أكثر من عشرة دقائق.

إذا قلنا إن الضباب قد عاد سيكون إساءة تمثيل لأصوله وحدة تنقله. لم يزحف الضباب من الغرب، وليس من البحر الذي كان قد حمل معه السحب السابقة، وإنما أتى من الشرق البغيض، قادمًا من صحراء موجافي حيث لا وجود لمصدر مياه يمكنه أن ينتج مثل هذه السحب البيضاء الضخمة. لم يأتِ الضباب متخبترًا مثل قطة صغيرة – مثلما يقول كارل ساندبيرغ – وإنما أتى في صورة فيضان هائل للغاية وكثيف لدرجة أن بيبي اضطرت لتهيئة نفسها لآثاره، وكأنه يملك قوة جدار مائي، وهو ما لم يكن حقيقيًا. وفي طرفة عين، اختفى الطريق أمامها والمنطقة المحيطة بها عن مجال الرؤية، وكانت المصابيح الأمامية بلا فائدة بالنسبة إليها مثلما تكون الشمس بلا فائدة بالنسبة إلى عامل مناجم محاصر في كهف عميق.

بينما كانت تتبع إرشادات جهاز تحديد المواقع، أدركت بيبي أن شخصية المرأة التي كانت عليها وتتمنى أن تعود إليها مجددًا لم تكن الشخصية التي يجب أن تتقمصها، لأنها لم تدمج قط في أعماقها بعض تجارب صباها. فقد قمعت – بمساعدة من القائد – معلومات كانت ستؤثر بشكل جذري على تكوين شخصيتها وتفكيرها وعاطفتها وإرادتها. إن بناء الشخصية على حقائق منقوصة ينتج شخصية مشوهة. وبهذا الإدراك، سرى نوع آخر من البرودة في جسدها، برودة غريبة لم تعرف لها مثيلاً من قبل. وإذا عرفت في الساعات المقبلة حقيقة ماضيها، سيطرأ تغير عليها، وسيُفرض عليها من قبل معرفة جديدة، وسواءً أنقذت آشلي بيل أم لا، فلن تعود قط بيبي بلير التي بدأت هذه المغامرة.

–8–

من بيبي إلى بيل

-109-

النادلة ذات الأصابع الثمانية واحتمالية الموت

مـع عـدم وجـود مكان آخـر للذهاب إليه، ومع عدم وجود خيوط يمكن تتبعهـا فـي الوقـت الراهـن، توجهـا إلـى المطعـم المفضل لدى بوغـو. يقال إن أسـماك القـرش الكبيـرة الثلاثـة المتدلية من السـقف كانت حية ذات يوم، وليسـت مصنوعة من البلاسـتيك أو الورق المعجن، وحُفظت من قبل محنط الحيوانات، وكان جلدها يلمع وكأنها ما تزال تعوم خلف بعضها البعض في البحر بحثًا عن وجبة شهية. وقد زعم البعض أنه قد عُثر على ميدالية منقوشة وخاتـم مرصّـع يعودان للمتزلج الأسـطوري الـذي اختفى في ظروف غامضة تومي كوردوفان في بطن أكبرها، لكن هذا الزعم مشـكوك فيه مثل زعم آخر يفيد بأنه قد عُثر على عظام بشرية تبين بعد فحص الحمض النووي أنها تخص الطيـارة المفقـودة أميليـا إيرهـارت. كانت جدران المطعـم مزينة بألواح تزلج ملونـة وصـور لمشـاهير التزلج المحليين يعود تاريخهـا جميعًا إلى ثلاثينيات القرن الماضي؛ صور رجال – ومع تعاقب السنين – ونساء كانوا غير معروفين خارج حدود مجتمع كاليفورنيا الجنوبية لمحبي التزلج، لكنهم كانوا يحظون بالإعجـاب والاحتـرام بـل والتقديـس أحيانًا من قبل أعضاء مجتمع الشـاطئ المحلي.

ارتـاد النـاس المطعـم من أجل الطعام الشـهي، وأيضًـا من أجل الأجواء التي كانت ممزوجة برومانسية كاليفورنيا الزائلة، التي وللأسف على الأرجح لن تعود قط. لم يكن باكس قد تناول الإفطار، وكان هو وبوغو قد فوتا وجبة

الغداء. جلسا على طاولة في الركن في أجواء هادئة ودافئة قبيل ازدحام المكان عند العشاء.

كانت النادلة التي جلبت قوائم الطعام تتماهى مع طبيعة الديكور، إن لم يكن مع أجوائه. وكانت امرأة ذات بشرة سمراء وشعر قصير أشقر ويبلغ طولها حوالي 180 سم وفي الأربعينيات من العمر، وقد بدت نسخة مشوهة من نيكول كدمان. بدت عيناها باللون الأزرق أو الأخضر أو بين الأزرق والرمادي اعتمادًا على الزاوية التي تنظر إليك منها. لم يكن يتعين على طاقم الخدمة ارتداء زي بعينه، وكانت هذه المرأة – التي كُتب على شارتها اسم كاناني ويعني الجميلة بلغة جزر هاواي – ترتدي بنطالاً وقميصًا باللون الأبيض ووشاحًا حريريًا أحمر ارتدته كحزام ووشاحًا آخر باللونين الأحمر والذهبي وضعته حول عنقها. وتدلت من أذنيها أقراط ذهبية، وارتدت أساور لامعة وثمانية خواتم أصابع من الماس. كان بوسعها ارتداء عشرة خواتم، باستثناء أنها امتلكت ثمانية أصابع فقط. والمفارقة هنا أنها كانت تفتقر إلى إصبع الخاتم – الذي يلي إصبع الخنصر – في كلتا اليدين.

ابتسمت كاناني فبدت جذابة بما يكفي، ولكن كانت لديها ميزة خفية، وإحساس بأنها حفظت خصلة الوثوق في الآخرين في مكان ما داخلها، تاركة العالم يراها كما يشاء، وهذا على الأرجح لا يعكس حقيقتها.

بعد أن سجلت طلبهما للبيرة وغادرت، قال بوغو «إن بيبز مفتونة بكانامي. أعتقد أنها ستؤلف كتابًا عنها ذات يوم».

«ماذا حدث لإصبعيها؟»

«لا أحد يعرف. سألها أحدهم ذات مرة، وقد ندم على ذلك. لم أتواجد هنا عندما حدث هذا، لذا لا أدري إن كان قد سخر من الأمر أم كان مجرد السؤال كافيًا لإشعال غضبها، لكن كانامي لكمته في وجهه، وطرحته أرضًا».

«ولم تُطرد؟»

«إنها نادلة جيدة. إلى جانب أن وايلاند زوكرمان – مالك المطعم – إما

متيّم بحبها أو يخشاها بشدة. لا يمكن لأحد معرفة أيهما».

عندما جلبت كاناني زجاجتي كورونا وكأسين ومناديل، أثبتت كفاءة مثل أي نادلة بعشرة أصابع وأكثر من كثير من النادلات.

طلب كل من باكس وبوغو طبق تاكو السمك فضلاً عن طبق إنشيلادا الدجاج مع صلصة الطماطم والفول الأسود والأرز حتى يقتسماهما.

سأله باكس «من أين حصلت على اسم بوغو؟»

«ليس لدي أدنى فكرة»

«أنت لا تعرف حقًا أم أن الاسم ليس شأن أي أحد، مثل أصابع كاناني المفقودة؟»

«لم ألكم أي أحد سألني عن ذلك قط. أنا أسمى بوغو منذ أن أدركت الحياة حسبما أذكر، ولم ينسب أحد الفضل لنفسه على تسميتي ذلك؟»

«كانت هناك شخصية رسوم متحركة قديمًا، في ملحق الترفيه في الصحيفة».

«أجل، ولكن لا أعتقد أن لهذا علاقة باسمي. لقد كان جميع أفراد عائلتي جادين للغاية على قراءة ملحق الترفيه، وعلى أي حال كان ذلك قبل زمنهم بمدة طويلة».

جلبت كاناني أطباقهما، فأكلا بنهم لبعض الوقت قبل أن يقول بوغو «أشعر بقليل من الخجل، فنحن نلتهم التاكو والبيرة، بينما تحتاج بيبي من العون».

«باستثناء أنه ليس هناك ما يمكن فعله حاليًا. هل تود الاتصال بخبير الأجهزة لترى إن كان قد تمكن من إصلاح المسجل؟»

«على الأقل هذا شيء يمكن عمله» قال بوغو ثم وضع قطعة تاكو حتى يمسك بهاتفه.

قبل حين – وهما في طريقهما لمقابلة الدكتورة سانت كرويكس في لاغونا بيتش – توقفا لدى منزل شخص يُدعى غانيش باتل، وهو متزلج تحول

شغفه بتصميم أنظمة الأجهزة الصوتية والمرئية إلى متجر لم يرغب فيه حقًا، وباعه في نهاية المطاف لقاء مال يكفي لقضاء ما تبقى من عمره بجوار البحر. وقد أوضح أن مسجلات الأشرطة الصغيرة من هذا النوع عفا عليها الزمن منذ أمد بعيد، واحتلت مكانها إلى حد كبير الأنظمة الرقمية ذات قدرات تخزين أكبر، ولكن يمكنه إصلاح نسختهم من التكنولوجيا البدائية لأن بوسعه إصلاح أي شيء.

رد غانيش على الاتصال، ظل بوغو يصغي لدقيقة أو اثنتين وهو يقول «آه، حسنًا، اممممم، آه، رائع، امممممم، ألح يا رجل» قبل أن ينهي الاتصال.

بسبب مخالطته لعائلة بلير مدة طويلة، كان ذلك كافيًا حتى يتعلم بعض مصطلحات لغة التزلج، لذا أدرك باكس أن ألح تعني أراك لاحقًا.

قال بوغو «قام بتفكيكه ونشر أجزائه على طاولة العمل، والآن لم يتبقَ سوى أن يعثر على العطل ثم يعيد تجميعه. يا رجل، عندما يتحدث عن هذا الأمر، يخيل إليك أن فتاة مثيرة متمددة على طاولة العمل».

«كل يغني على ليلاه. لا تجعلني أتحدث عن بندقية كارل غوستاف عديمة الارتداد».

«أهذا شيء يستخدم في تفجير الأشياء؟»

«إنها فاتنة» أكد باكس.

كانا على وشك أن ينتهيا من الأكل ويفكران في المزيد من البيرة عندما قال بوغو «هل تعتقد أن هذا محتمل؟»

«ما هو؟»

«أن أيًا كان ما ألمّ ببيبز – أعني إلى جانب مرضها – هو شيء وارد الحدوث وأنها قد تموت هناك وتموت هنا أيضًا»

«إنها تعاني من سرطان الدماغ يا بوغو. وبصرف النظر عما إذا كان هناك شيء سيئ حقًا يقع لها في منطقة الشفق أم لا، فقد تموت بسبب المرض الخبيث»

«أجـل، أعتقـد ذلـك. أعني، أدري» نظر حوله إلى الصور الباهتة الخاصة بالمتزلجين الراحلين منذ أمد بعيد، ثم إلى أسماك القرش الساكنة على وضعية المطاردة الأزلية، وكأن تلك المناظر المألوفة كانت جديدة بالنسـبة إليه، وأن المطعم أضحى مكانًا غريبًا مثل الزوايا السـريالية والتدفق المشـوه لحلم في المنام. وأضاف «ولكن من ثم...ما مصيرنا إن ماتت هي؟»

بعد مدة من الصمت، قال باكس «لا أريد التفكير في ذلك».

«ولا أنا»

«إذن، لن نفكر»

بعد أن انتهيا من تناول الطعام، طلب كل منهما المزيد من البيرة.

كان باكـس قـد جلـب معـه المفكـرة المثبتـة لولبيًا التي رُسـم عليها فهد وغزال. فقام بفتحها على الطاولة لتصفح بعض قصص الكلب جاسبر، وهو يجهل عما يبحث، ربما عن أي شـيء قد يسـاعد على تنفيذ طلب بيبي؛ اعثر عليّ.

كانت قصصًا خطتها يد صبية في العاشـرة من عمرها، لكنها صبية تتّقد ذكاءً. وكان لها أسلوب مميز واتسمت بالتشويق.

ومـع ذلـك، وجـد باكس نفسـه مرارًا يتجاوز آخر قصة عن جاسـبر، إلى أول صفحتين فارغتين بعدها. في الصفحة اليسرى، كان هناك بيتان من أحب القصائد إلى قلب بيبي: الآن يأتي مسـاء العقل...ها هي الفراشـات تعوم في الدماء. غمس إصبعًا في زجاجة البيرة ومسح به على الآن يأتي المساء، فتشوه الحبر الأسود بسهولة.

«إنها لم تكتب هذا عندما كانت في العاشرة من العمر، بل كتبته مؤخرًا. أخمّن أنها فعلت ذلك خلال الشهر الأخير، بل وربما حتى أقرب من ذلك»

بينما كان يعصر شريحة الليمون فوق حافة زجاجة البيرة، قال بوغو «ما رأيك...هل يعني هذا شيئًا؟»

«لا بد أنه يحمل معنى ما»

«ماذا يعني؟»

بينما كان باكس يهمّ بالاعتراف بأنه لا يدري، بدأت بعض الكلمات تظهر بشكل سحري على الصفحة اليمنى، في صورة المخطوطة الأنيقة المألوفة. قبل أن تبدأ محنة بيبي، كان قد تذوق مرات قليلة خلال سنواته الثماني والعشرين مذاق الأحداث الخارقة للطبيعة الحار، لكنها اختفت فجأة من نظامه الغذائي. كانت آثارها – رعشة وإحساس بلدغة عقرب في مؤخرة العنق وتسارع مزعج لدقات القلب – قوية مثل احتراق الفم ونضوح العرق الذي يصاحب أكل الفلفل الحار.

رأى بوغو أيضًا الكلمات وهي تظهر، وقد قلب باكس المفكرة حتى يتمكن كلاهما من قراءة الرسالة التي تشكلت.

أعلن السطر الأول، أنا فتاة مقدامة.

-110-

الفتاة التي تحتاج إلى الانضباط

على الخريطة الإلكترونية، لم تحمل شبكة الشوارع الستة عشر - ثمانية شرقًا وغربًا ومثلها شمالاً وجنوبًا - أي اسم. ولكن عندما أعلن جهاز تحديد المواقع أن منعطفًا على الجهة اليمنى سيصل ببيبي إلى طريق سونوماير، ظهرت لافتة عتيقة في الضباب الكثيف، فكانت أشبه بتمثال نُصب من قبل كائنات فضائية لتعليم البشر الحمقى التواضع وحثهم على فعل شيء أفضل لأنفسهم خلال الألفية القادمة. كان ارتفاع اللافتة يبلغ حوالي أربعة أمتار وعرضها متران، وكانت مزينة بالغرانيت الأسود المرصع بطوق من الحديد المقاوم للصدأ المطفي الذي يحيط بحروف بلاستيكية متلاصقة تضيء باللون الأزرق الآن في الرابعة صباحًا. كانت الحروف أصغر مما قد يتوقعه المرء في تلك الثمانية وتسعين قدمًا مربعًا من الغرانيت، وكأن اللافتة على وشك الصياح للفت انتباهك وكانت الكلمات اسمًا لا يُنطق إلا همسًا بدافع التوقير: حديقة سونوماير للتكنولوجيا.

بينما كانت تتجول ببطء وحذر على طول الشارع ذي الحارات الأربع، رأت بيبي عددًا هائلاً من البنايات منخفضة الارتفاع - أربعة وخمسة طوابق - ولكن الممتدة على نطاق لا يعرف نهايته، ولم تكشف عنها سوى مصابيح الإضاءة التي كانت في حقيقة الأمر مصابيح تأمين مموهة بشكل أنيق، وتتدفق منها فيضانات من ضوء باهت متجمد، وعبر صفوف متناثرة من النوافذ حيث كان هناك أشخاص أو روبوتات تعمل رغم تأخر الوقت. بدا المعمار غامضًا في الضباب وربما غير مريح حتى في ضوء النهار، كما بدا كمنشآت عسكرية

لا يسكنها بشر، لذا كانت البنايات راسية مثل سفن حربية ضخمة في بحر الضباب، كلا، بل مثل أساطيل المركبات الفضائية التي تتأهب للهجوم لإبادة ليس مجرد مدن وإنما كواكب بأسرها.

أعلن جهاز تحديد المواقع «أحد عشر طريق سونومايز، على بُعد تسعين مترًا في الأمام وعلى الجهة اليسرى».

ركنت بيبي فجأة بجوار الرصيف، وأطفأت المصابيح الأمامية والمحرك والخريطة الإلكترونية وجلست في الظلام، بينما كشف الضباب عن المنشآت العسكرية الغامضة العديدة وأظهرها شيئًا فشيئًا خلال الليل. ما انفكت تفكر في الرجل الذي قُتل ضربًا والمرأة التي قُتلت بالرصاص في المنزل الذي اختُطفت منه آشلي بيل، وجسديهما المحطمان والداميان. كان كل جرح أصيبت به خلال معركتها مع الكيان الغريب في المنزل الصغير الواقع في كورونا ديل مار يؤلمها أكثر من أي وقت مضى. كانت تحتاج إلى استجماع شجاعتها، والشيء الجيد الوحيد الذي ينطوي على فعل هذا هو - وبالنظر إلى مقدار الشجاعة الضئيل الذي ما زالت تتمسك به - أنها لم تهدر وقتًا في استجماعها.

نزلت من سيارة الهوندا، فانتقل صوت طقطقة وجلجلة إغلاق الباب عبر الضباب، فلم يدوي بعيدًا صوت الأول، ولكن ربما جذب الثاني الانتباه لو أن أحدهم كان ينتظر وصولها. طغى الضباب الأبيض على المكان من حولها بنداوته وبرودته. وقد تسلل إلى أذنيها وحنجرتها كانت رئتاها مثقلتين بالضباب المستنشق، لكنها سرعان ما عثرت على الممر الجانبي وبدأت السير على قدميها.

وعلى ما يبدو، لم تكن كل البنايات في حديقة سونومايز للتكنولوجيا مكتملة البناء، فقد كانت البناية رقم 11 محاطة بسياج بناء مع بوابة مزدوجة عريضة. وقد كُتب على لافتة معدنية مثبتة على النصف المغلق من البوابة موقع تيريزن المستقبلي المحدود. وكان تاريخ الانتهاء المعلن بعد أقل من أربعة عشر شهرًا، وهكذا فلابد أن هيكلاً ضخمًا يتخفى وراء الضباب، وربما

أجنحة مكتملة من البناء الرئيسي أو بنايات بأكملها.

كان الضوء الوحيد المتوهج قادمًا من إحدى مقطورتي مكاتب البناء المتنقلة. تقدمت بحذر عبر الأرض الممهدة بشكل غير متساو والمغطاة بالركام، ثم اختلست النظر من إحدى النوافذ، فرأت غرفة تحتوي على ستة أو ثمانية كراسٍ مكتبية تحيط بما بدت أنها نموذج مشروع بحجم طاولة أكل. كان المكان عبارة عن مجمع مترامي الأطراف من البنايات الضخمة ذات الحواف البارزة التي بدت وكأنها تطير، وتقع، وتقع بين مجمعات للتسوق تظلها بساتين من النخيل، وتزينه العديد من الينابيع فضلاً عن مجرى مائي كبير بما يكفي حتى يُطلق عليه بحيرة.

وخلف نافذة أخرى، كانت تقع غرفة تحتوي على طاولتي رسم كبيرتين يمكن تعديل ارتفاعهما وميلهما، فضلاً عن بعض الأثاث. وكانت هناك رسومات معمارية وجداول بناء مثبتة على ألواح الفلين على الجدران.

عبرت نافذة مظلمة صوب أخرى حيث تسرب الضوء من حول ستارة مسحوبة وأثاث ملون في الضباب. وقد فزعت من بعض الأصوات المكتومة القادمة من الغرفة، لكنها لم تتمكن من تبين ما الذي يقال. كان عمال البناء يشرعون في العمل في الصباح الباكر، ولكن ليس قبل الفجر. وأيًا كان المتآمرون هنا، فلا بد أنهم يناقشون مسائل جادة على علاقة ببيبي أكثر من كلفة الحديد والميعاد المتوقع لتسليم الشحنة المقبلة من الدعامات الفولاذية.

واصلت السير نحو مؤخرة مقطورة المكاتب الكبيرة، حيث كانت هناك نافذة مغطاة بستارة مطوية. استمرت في السير حول الركن، آملة أن يمتد عرض المقطورة بما قد يكشف عن نافذة أخيرة لا تغطيها الستائر.

كانت هناك مركبتان مخفيتان بشكل كامل تقريبًا في قلب الضباب الكثيف الذي بدا مثل اللحاف الصوفي، وكانت إحداهما تشبه تمامًا سيارة كاديلاك إسكاليد، أما الأخرى فكانت على الأرجح سيارة سيدان. ظلت الرؤية ضعيفة للغاية لدرجة أن بيبي كادت تتخطى السيارة الكبيرة قبل أن تلحظ شعار بنتلي

على الغطاء الأمامي. اقتربت منها لتتأكد من أن لونها – عندما تجلت في ضوء أقوى – فاتح بما يكفي مثل القهوة.

عندما تصادم عالمان بدون وقوع كارثة واحتلا نفس الفضاء – عالم السبب والأثر وعالم غامض يمكن أن تُلقى فيه بطاقات خارقة على الطاولة في أي لحظة – بدا حتميًا أن المعلمة السابقة والمرأة الجديدة ماريسا هوفلاين-فورشاك متواجدة هناك بصرف النظر عن الوقت. وفقًا لقواعد هذه اللعبة المتغيرة باستمرار، فمن بين كافة المطورين العقاريين في كاليفورنيا، لا يمكن أن يكون المسؤول عن مشروع تيريزن أحد سوز زوج مدمنة التسوق.

بدا أن أكثر التساؤلات إلحاحًا هي الآن عن المكان الذي تتواجد فيه المرأة ذات الثديين المتضخمين وعما إذا كانت بيبي قادرة على تجنب تلك الساقطة المجنونة. وقد أجيب كلا التساؤلين عندما توهجت المصابيح الأمامية للبنتلي، مما أصاب بيبي بالدوار، ثم انفتح باب السائق.

ترجلت السيدة – التي كانت أول من يلاحظ موهبة الكاتبة الشابة – من السيدان، فلمعت هيأتها من قبل ضوء السيارة الداخلي الذي تدفق خلفها وانعكاس ضوء المصابيح الأمامية. ومع اقتراب المرأة، لاحظت بيبي أنها ترتدي ملابس لا تتلاءم مع الوقت والمكان؛ إذ كانت تنتعل حذاءً بكعب مدبب، وسروال مصارع ثيران أسود اللون مثبت بحزام مزين بالجواهر، وقميصًا كاشفًا بما يكفي لإخفاء سلة قطط صغيرة، وسترة بيضاء من الجلد مع نقوش سوداء.

منحت المعلمة السابقة – وهي مثال حي للحقارة والمكر في الفصل الدراسي – تعبيرًا بيبي مألوفًا من الأيام الخوالي، على الرغم من الزينة المبالغ فيها التي تضعها المرأة. ابتسامة متغطرسة لشخص متسلط، مصحوبة بامتعاض غير مفهوم لشخص – مع أنك لم تهنه قط – يعتقد أنه يدين لك بانتقام. شعرت المرأة الآن – مثلما شعرت دومًا – أن لديها مبرر لإحداث جرح حقيقي لبيبي بسبب جريمة متخيلة، وأنها ستبتهج لإمطار هدفها بعاصفة من الثأر التافه.

باستثناء أن انتقامها قد لا يكون تافهًا هذه المرة.

قالت هوفلاين–فورشاك «بوسعي أن أسألكِ ماذا تحسبين نفسكِ فاعلة هنا، لكنني لا أكترث، وستكذبين فقط على أي حال. مثلما كذبتِ بشأن حيازتكِ سلاحًا وامتلاكك رخصة سرية له. ما زلتِ المتمردة الصغيرة والكاذبة كما عهدتكِ دومًا».

بدا أن الضباب يبتعد عن هوفلاين–فورشاك، ويفسح لها مساحة يمكنها شغلها، وكأنها هي والضباب كانا مادتين مغناطيسيتين متنافرتي الأقطاب.

قالت بيبي «قفي عندكِ، ولا تقتربي».

توقفت المرأة، ولكن فقط بعد أن تقدمت خطوتين أخريين وأجبرت بيبي على الابتعاد عنها. قالت «ألا تكبرين قط يا غيدجيت؟»

«لا تناديني بهذا الاسم».

«لماذا؟ ألأنه يثير قلقكِ؟ غيدجيت الصغيرة الطائشة، التي لا تهتم بشيء سوى التزلج وحفلات الشاطئ والظهور فاتنة في البكيني، بل إنها حتى أكثر حماقة وإثارة للسخرية من والديها المراهقين دومًا».

«أنتِ لا تعرفين أي شيء عن والديّ، ولا تعرفين من يكونان».

«لقد حضرا اجتماعات الآباء والمعلمين، صحيح؟ لقد عرفتهما من النظرة الأولى، ولطالما كنتِ فتاة تفتقر إلى الانضباط»

لم تعتقد بيبي أن أحدًا يمكنه سماعهما، بيد أنها سحبت المسدس من غمده تحسبًا لأي طارئ.

كانت ابتسامة المعلمة السابقة تشي باحتقار شديد لا يقل حدة عن السكين المنحني عندما ذكّرت بيبي بالقول «ستتسببين في مقتل نفسك أيتها الفتاة الغبية، بتجولك في جوف الليل متقمصة شخصية نانسي درو. أو قد يحدث لكِ ما هو أسوأ من القتل. يمكننا إسقاطكِ وتدميركِ كلية، ولن يتمكن أحد من جمع رفاتك مجددًا قط. ولسوف نفعل ذلك».

-111-
وكأنها رسالة في زجاجة

كانت هناك على الجدران صور لأسماك قرش ميتة جرى اصطيادها، وأخرى لمتزلجين مخضرمين ذوي أجساد رياضية وبشرة سمراء يقفون بقاماتهم الطويلة على ألواح التزلج القصيرة والطويلة وهم يبتسمون. وعلى الطاولة - في إحدى صفحات المفكرة - كانت هناك ثلاث كلمات: أنا فتاة مقدامة.

قال بوغو «هذا عميق، لكنني أدرك ما يعنيه».

«وأنا كذلك».

«بالطبع أنت كذلك. إنه اقتباس من تلك الكتب».

«تلك الكتب» وافقه باكس وقد جفّ حلقه وتسارعت دقّات قلبه.

السطران التاليان ينصان على أنه عندما رأيتها بالأمس، لماذا لم أسأل هالينا بيرغ عما إذا كانت قد سمعت عن روبرت وارن فوكنر...هل هو من النازيين الجدد المعروفين؟

سأله بوغو «هل يعني أي من الاسمين أي شيء بالنسبة إليك؟»

«اسم هالينا بيرغ مألوف نوعًا ما، أما الآخر فلا».

«كيف أمكنها مقابلة هالينا بيرغ بالأمس؟ إنها في غيبوبة منذ أربعة أيام».

«يستحيل ذلك».

بدأ السطر الرابع في التجلي، وقد تدفق بانسيابية وانتهى بعلامة استفهام، لماذا لم أسأل هالينا بيرغ عن آشلي بيل؟»

فقال بوغو «الاسم الموجود في وشمها».

ظلا يراقبان المفكرة على مدة دقيقة أو نحوها، وهما ينتظران بصبر نافد سطرًا خامسًا من النص كي يتجلى، بيد أن بوغو التجأ بعد ذلك إلى هاتفه الذكي.

عادت كاناني لتسأل عما إذا كانا يرغبان في شيء آخر، فردّ باكس بالنفي، وتركت ورقة الحساب.

وبينما انشغل باكس بحساب البقشيش وسداد المبلغ، قال بوغو «ليس الاسم شائعًا مثل جون سميث أو هيذر فلان، ولكن هناك ما يكفي من الأشخاص ممن يحملون اسم آشلي بيل منتشرين في المقاطعة بما سيهدر المزيد من وقتنا».

«جرب روبرت وارن فوكنر».

«أبحث عنه بالفعل».

لم يتجلى شيء آخر في صفحات المفكرة المفتوحة. وقد تردد باكس في التقدم أكثر في المجلد، بحثًا عن المزيد من الرسائل المدفونة عميقًا، وذلك خشية أن يزعج أيًا كان الوسط الذي سمح بهذا التواصل من بيبي في غيبوبتها أو أيًا كان العالم الذي تسكنه. بدا الأمر وكأن حبيبته - التي جرفها بحر في عالم خارجي - قد وضعت رسالة في زجاجة وقذفتها في البحر، وقد ظهرت بطريقة ما على شواطئ هذا العالم.

أمسك بزجاجة البيرة ثم وضعها دون أن يشرب منها. كانت أصابعه مبتلة بسبب التكثيف على الزجاجة، وقد مسحها في بنطاله الجينز. لاحظ أن توتره قد ازداد، وهو ما يحدث نادرًا. إنه حذر وحاضر الذهن ومنتبه وأحيانًا خائف، هذا صحيح، لكنه نادرًا ما يكون متوترًا. أمال رأسه إلى الخلف وحدق في أسماك القرش التي عرف كيف يتعامل معها. كان ذلك جزءًا من تدريبه. كما عرف أيضًا كيف يتعامل مع خسارة رفاقه الذين قاتل برفقتهم، كانوا جميعًا بمنزلة الإخوة والأصدقاء. لكنه كان يجهل كيفية التعامل مع الخسارة خارج سياق الحرب.

قال بوغو «هناك حفنة أشخاص يحملون اسم روبرت فوكنر، ولكن بعد بحث سريع تبين أن لا أحد منهم لديه هذا الاسم الأوسط».

«هالينا بيرغ».

عـاد بوغـو إليه سـريعًا في هذا قائلاً «إنه اسـم مسـتعار. وقـد كتبت كتابًا واحدًا بهذا الاسم. روايتها الأولى. تسمى من داخل فم التنين».

«من الذي استخدم هذا الاسم المستعار؟»

كان الهاتـف الذكـي بمنزلـة العالـم بيـن يـدي بوغـو، حيـث مليـارات الـدولارات المُنفقـة علـى الإعلانات وحكمة الخبـراء الذين لا حصر لهم قد ضمنـت لـه السـحر التكنولوجـي – السـحر الحقيقي فقط. ولكـن عندما رفع ناظريه، بدا أن عينيه تريان – ووجهه يعكس – العجب الناشـئ عن رؤية لغز مـن عالـم آخـر – بضوئـه ونغمتـه – دخل للتو إلـى عالـم التكنولوجيا الفائقة الخافت والمتنافر.

«هالينا بيرغ هو الاسم المستعار لتوبا رينجلباوم».

في صباها، استطاعت توبا أن تنجو من معسكر اليهود في تيريزنستادت، حيث ماتت والدتها بسبب وباء التيفوئيد. وقد نجت لاحقًا أيضًا من معسكر أوشفيتز، حيث هلك والدها. وبعد عقود من زواجها من ماكس كلين والهجرة إلـى الولايـات المتحـدة، كتبت سلسـلة من الروايات للمراهقين عن مدرسـة للفتيات – تسـمى أكاديمية الشـجاعة – حيث كانت ناظرة المدرسـة متعددة المواهـب مغامـرة وتتقـن فنون الدفاع عن النفس، ولـم تكتفي بتعليم طالباتها، بل قادتهم أيضًا في مهمات مثيرة ضد أشرار يمثلون وجهًا أو آخر للشر متعدد الرؤوس المتمثل في الدكتاتورية.

كان باكس على علمٍ بكل ما سبق لأنه عرف توبا رينجلباوم شخصيًا؛ إذ كان قـد التقاهـا مرتيـن برفقـة بيبي. وكان بوغو يعـرف المرأة العجوز أكثر منه حتى، إذ اعتاد زيارتها برفقة بيبي.

كانت بيبي قد عثرت على سلسلة الفتاة المقدامة عندما كانت في العاشرة

من العمر وقرأتها مرارًا وتكرارًا خلال سنوات مراهقتها.

بدا أن خط يدها يكاد يلمع في المفكرة: عندما رأيتها بالأمس، لماذا لم أسأل هالينا بيرغ عما إذا كانت قد سمعت عن روبرت وارن فوكنر...هل هو من النازيين الجدد المعروفين؟

أثار هذا السؤال تساؤلاً آخر في عقل باكس: لماذا تشير إلى صديقتها ومعلمتها توبا رينجلباوم باسمها المستعار؟

قال بوغو «سأتصل بتوبا إذا أردت الذهاب إليها».

فقال باكس «أجل، أود الذهاب إليها، لا بأس. ولكن هيا بنا لنتحرك. سأتصل بها من السيارة».

-112-

جائزة أفضل معلمة في العام

في الضباب اللامع أمام المصابيح الأمامية – المتطاير ببطء وعن قصد مثل المجرّات – وقفت السيدة هوفلاين-فورشاك في مساحة من الهواء الصافي، مثلما يجري دائمًا رسم إحدى القديسات في مدرسة للراهبات وهي تقف – أو تحلّق – داخل هالة نورانية لامعة. وبالنظر إلى كافة الأدلة المتاحة، فإن معلمة اللغة الإنجليزية السابقة لم تكن قديسة أكثر من الدودة، بل في الواقع إن الدودة لديها ميزة أخلاقية هي عدم القدرة على التفريق بين الصواب والخطأ.

صيغة «الجمع» في تهديدها...

يمكننا إسقاطكِ وتدميركِ كلية، ولن يتمكن أحد من جمع رفاتك مجددًا قط. ولسوف نفعل ذلك.

...تضعها ضمن طائفة تيريزن من النازيين الجدد وتنسف أي فرصة للاعتقاد أن اختيار زوجها كي يشيّد المقر الجديد لتيريزن كان محض صدفة.

سألتها بيبي «أين الفتاة؟ أين يخفونها؟»

«ويكأنني سأخبركِ»

«أخبريني»

«ويكأنكِ تحتاجين إلى من يخبركِ»

«هل يعني ذلك شيئًا؟»

«أنتِ تعرفين»

«كفى ألغازًا»

«لا تجعلي مني لغزًا»

رفعت بيبي المسدس في يدها اليمنى.

فقالت هوفلاين–فورشاك «غيدجيت تتهور»

فقالت بيبي «والله لأقتلنكِ، سأفعلها».

لم تكن تدري ما إذا كانت جادة في تهديدها أم لا. قبل حين، كانت قد طعنت حتى الموت المتوحش الذي أوسعها ضربًا وحاول اغتصابها، لكن هذا كان دفاعًا عن النفس ضد شخص غريب. سيكون من الصعب عليها أن تقتل شخصًا تعرفه، حتى لو كان هذا شخصًا في وضاعة هذه المرأة. الألفة تولد الازدراء، لكنها تولد الكياسة أيضًا، حتى لو كانت كياسة منفّرة.

كان وجه هوفلاين–فورشاك عشًا للمشاعر البغيضة – ازدراء شديد وكره وغطرسة. لم تقترب أكثر، مع أن وقفتها كانت تنمّ عن تحدٍ. قالت «تريدين معرفة شيء أيتها الشقية الصغيرة الجهولة غريبة الأطوار؟» لم تستخدم المعلمة السابقة لغة التزلج من قبل قط. أضافت «لقد أخطأتِ فهم كل شيء. ولم تجمعي قطع الأحجية بشكل صحيح. لو كنتُ ما أزال أمارس التدريس وكنتِ طالبة لديّ، لمنحتك تقدير ض على هذا، وسيكون هذا كرمًا بالغًا».

قبضت بيبي على المسدس بكلتا اليدين، ثم قالت «أين آشلي بيل؟»

«تخالين نفسكِ تفهمين كيف يفكر بوبي فوكنر، قاتل الأم؟ تخالين أنكِ قد أبصرتِ حقيقة نفسيته بشكل صحيح، وأنكِ تعرفين بشأن تقمصه هوية تيريزن والطائفة التي يبنيها؟ أنتِ لا تعرفين شيئًا يا غيدجيت. أنتِ مثيرة للشفقة. إنها ليست طائفة، ولم تكن كذلك قط، ولا تقترب حتى من مفهوم الطائفة السخيف». بدا شعر بيبي متجعدًا في الضباب، ولكن في فقاعة الهواء النقي التي تقف فيها هوفلاين–فورشاك، بدت خصلات شعرها الشقراء المتدلية جديرة بالظهور في إعلان لشامبو للشعر. أضافت هوفلاين–فورشاك «انظري حولكِ يا بيييييييي» – جعلت الاسم يبدو مثيرًا للسخرية – «انظري حولكِ ولربما ستلحظين أن طائفتكِ الخيالية قد تحولت إلى تكتل عملاق يشيّد مقرات فسيحة على طريقة حرم المدرسة. ولعلكِ ستدركين أن الآلاف من

الناس يشـاركون في هذه العملية، بل عشـرات الآلاف، وربما مئات الآلاف. هل هذا يناسب طائفة نازية غريبة الأطوار؟ لسنا كذلك يا غيدجيت».

«لكنكم فاشيّون».

«الجميـع فاشـيّ هـذه الأيام يا عزيزتي. لـم تعد الكلمة تؤلـم مثلما كانت من قبل. لقد احتضنت البلاد كافة الدكتاتوريين الفاشيين الذين لفظناهم ذات يوم. وقبّلناهم ورفعنا من قدرهم، وباتوا يحظون بالاحترام الآن. إنها الطريقة الصحيحة والمفضلة».

رفعـت بيبـي المسـدس، ومـا عادت تصوّبـه نحو صدر المـرأة، بل نحو وجهها مباشرة، وذلك من على مسافة مترين تقريبًا. من زاوية الرؤية الخاصة بهوفلاين-فورشـاك، لا بد أن فوهة المسـدس بدت مثل ثقب أسـود جاذب للكواكب. قالت بيبي «أين يحتجزون الفتاة؟ لن أسأل مجددًا».

«من الجيد أنكِ لن تسألي ثانية، فقد سئمت أسئلتك».

تحكمت بيبي في غضبها طوال حياتها، ووضعت حدًا بين جانبها الطيب الودود والجانب المظلم منها الذي أراد أن يرد الهجوم أحيانًا. لكن تمسكها بإجبار نفسها على رد الفعل المنضبط - أو على الأقل الغضب المكتوم - لم يكن بدافع الأخلاق النبيلة، وإنما بسـبب الخشـية من أن تفقد السـيطرة على نفسـها. كانت تشـك في أنها إذا فقدت السـيطرة على نفسـها، فسـتكون قادرة على إحداث ضرر بالغ يتناسـب مع الإهانة التي عانت منها، بيد أنه لم يكن ثمة دليل - سواءً داخليًا أو خارجيًا - يدعم هذا الشك.

سألت «أين آشلي؟»

انفجـرت هوفلاين-فورشـاك ضاحكـة وقالت «ها قد سـألتِ ثانية. قلتِ إنكِ لن تفعلي ذلك، لكنكِ فعلتِ للتو. اسـمعي يا غيدجيت، أنت لسـتِ في حاجـة إلـى تلـك اليهوديـة الصغيرة، ولـم تحتاجي إليهـا قط. ألا تتعرفين على السـمك المملـح أحمـر اللون عندما ترينه، عندمـا تكونين أنتِ من أوقعتِ به في الشرك بنفسكِ؟»

كان غضب بيبي يتعاظم. لقد كرهت هذه المرأة، فقد كانت ماريسا هوفلاين معلمة فاسدة. وما كانت لتحوز على جائزة أفضل معلمة في السنة من أي منظمة ولـو بعـد ألـف عـام. وهي الآن تقوم بعمل فاسـد آخر بكونهـا زوجة ثرية بدون أي امتنان للنعمة التي غمرتها، وتحولت بفعل المال إلى غول من الاسـتغلالية وإرضـاء النفـس. ولـن تكُف عـن الثرثرة. وإذا ما واصلت ثرثرتها، ستفسـد كل شيء. إذا ما انفكت تثرثر وتثرثر وتثرثر، فستتفوه بشيء لا ترغب بيبي في سماعه.

«أنـت لسـتِ فـي حاجـة إلى تلـك اليهودية الصغيرة يـا غيدجيت. افعلي ما يتوجب عليكِ فقط. واجهي الحقيقة البشـعة، وتقبّلي نفسـكِ كما هي، بل اعرفـي نفسـكِ، ومـن ثم افعلي ما يتوجب عليـكِ فعله». كان وجه هوفلاين- فورشـاك أشـبه بلوحة فنية لشـخص معتدٍ بنفسها للغاية لدرجة أن بيبي أرادت أن تضربها بعنف، ومرارًا وتكرارًا، لإسكاتها وقتلها. لكن هذا سيعتبر جريمة وليس قتلاً. ثمة فرق هنا.

كان الغضـب الـذي خشـيت بيبـي طويـلاً من التعبير عنه قـد انفجر الآن وتحـول إلـى غيـظ شـديد، وكان نتاجًـا لقمع الخوف. كانـت تفهم هذا القدر أخيـرًا. فـي الواقع، لم تحـرق حيلة الذاكرة الخاصة بالقائد التجارب الأليمة، وإنما ألقت بها في غياهب ثقب ذاكرة عميق، حيث تقيحت - هي وما يصاحبها من خوف - في الظلام. طوال سبعة عشر عامًا، قبع الخوف في وعاء عميق، حتى بات سميكًا ومرًا وفزعًا لا يختفي، وقلقًا مكتومًا يرتبط بهاجس شرّ مقيّد.

كرّرت هوفلاين - فورشاك كلامها «اعرفي نفسكِ يا غيدجيت».

«اصمتي».

«اكتشفي أسراركِ»

«اصمتي، اصمتي، اصمتي!»

فقالت المعلمة السـابقة «تعلمين أنني على حق يا غيدجيت. لقد سـألت عـن أكثـر ما تحتاجين إليه، فقلتِ النسـيان. ولكـن أكثر ما كنتِ تحتاجين إليه وقتئذٍ لم يكن النسيان. وهو ليس ما تحتاجين إليه الآن».

-113-

ما تعجز الكلمات عن وصفه

كان المنزل إحياءَ لحقبة الاستعمار الإسباني مع كل محتوياته الساحرة. وكانت الطرقات والغرف تعج بالكتب. وجرت نقاشات حول طاولة المطبخ أكثر من تناول الوجبات. وكان وجه توبا رقيقًا وساحرًا وابتسامتها سخية وودودة إلى أقصى حد. كان المكان مبهجًا ومريحًا للعقل والقلب على حد سواء، ولكن في الوقت الراهن، لم يكن لدى باكس القدرة على الراحة ولا الوقت للسماح للمنزل ونزيلته العجوز الوحيدة أن يفتناه بسحرهما.

سألتهما مضيفتهما إن كانا يفضلان الشاي أم القهوة، التي كانت قد أعدتهما بعد أن اتصل بها باكس ليستأذنها زيارتها، لكنه وبوغو رفضا الحصول على مشروب. عندما سمعت توبا بشأن سرطان الدماغ الذي تعاني منه بيبي ودخولها في غيبوبة قبل أربعة أيام، أفرغت كوب الشاي الخاص بها بأكمله في الحوض، واستبدلته بالقهوة، ومزجت القهوة بكل من كريمة بيلي الأيرلندية والجعة. وقد فعلت كل هذا قبل أن تتمكن من قول أي شيء ردًا على النبأ، وعندما تمكنت من الكلام، كانت هناك رعشة في صوتها غير مميزة. قالت «أنا نادرًا ما أتناول الكحوليات، ولكن تأتي أوقات لا يكون فيها الإفراط في الشرب كافيًا».

لم يرفع بقية ما تعين عليهما أن يخبراها به بشأن غرابة حالة بيبي - أمواج الدماغ غير المسبوقة، والإصابات في وجهها التي ظهرت بدون سبب واضح (لكنهم لم يذكروا شيئًا عن الوشم) - من معنويات توبا، لكنه حفز مخيلتها وأمدها بالطاقة. وقد حدثاها عن جاسبر وأولاف وطوق الكلب المخفي منذ زمن طويل، وعن السبب الذي دعا الدكتورة سانت كرويكس إلى إجبار بيبي

على ترك برنامج الكتابة في الجامعة.

وعلى الرغم من باكس قد جلب المفكرة المزينة برسم بوغو، لكنها لم يطلعاها على الفور على الأسطر التي كانت قد ظهرت على صفحاتها وكأنها خُطت من طرف عفريت. لم يكن هذا استجوابًا، فتوبا في جانبهما، وفي جانب بيبي، ولكن ثمة أساليب استجواب بعينها لها فائدة في المقابلات غير الرسمية بل وحتى في المناقشات العادية. وسواءً كنت تتحدث إلى عدوّ أو صديق، فإن المعلومات المستخلصة على مراحل - أو طبقات - تميل إلى أن تكون أكثر وضوحًا، وتشمل المزيد من الاكتشافات المفيدة. وهذا ليس لأن الموضوع ينطوي على معلومات مخفية عن قصد، وإنما ببساطة لأن العقل البشري لم يكن يدرك دومًا كل شيء يعرفه، ويحتاج إلى بعض الوقت حتى تكشف خاطرة عن أخرى، وتوحيد العُقد الصغيرة المتعددة في الذاكرة واستعادة تجربة ما بشكل كامل.

وعندما ألمحا إلى أن بيبي قد نطقت الكلمات أنا فتاة مقدامة في غيبوبتها، هبّت توبا من على كرسيها وكأن سنوات عمرها الستون قد سقطت من شحمها وعظمها. قالت «لقد أحببت تلك الكتب. وقد كافحت حتى تعثر على رقم هاتفي غير المسجل، وهذا تصميم مدهش بالنسبة إلى فتاة في الرابعة عشر من العمر. اتصلت بي واعتذرت عن ذلك، وعن تنقيبها عن الرقم. هيا الآن، رافقاني، وسأريكما شيئًا. لقد رآه بوغو من قبل، لكنك لم تره يا باكستون. غرفة مكتبي، حيث كنتُ وما زلتُ أكتب».

بينما كانا يسيران في عقبها على طول رواق الطابق الأرضي وأرفف الكتب المرتبة بدقة التي حافظت على نظافتها بشكل لافت، ثم صعودًا على الدرجات المفتوحة المؤدية إلى الطابق الثاني، ووصولاً إلى مكتبها، قالت توبا «أوتعلمان؟ لقد كسبت مالاً وفيرًا من سلسلة الفتاة المقدامة، لكنها لم تدخل قائمة الأكثر مبيعًا قط. وقد تلقيت بعض الرسائل من القرّاء بطبيعة الحال، لكنني لم أفاجأ بفتيات صغيرات يطرقن بابي. لقد شعرت بالإطراء

مـن المعانـاة التـي خاضتها بيبي. وفُتنت من دقائق الدردشـة القليلة معها عبر الهاتـف. لـذا أخبرتهـا أنه يمكنها زيارتي برفقة أمها إن شـاءت. زيارة قصيرة، ولتجلب معها خمسة أو ستة كتب للتوقيع عليها. لم أوقّع على كتب في حفل رسـمي قط. بدا ذلك مبالغة بالنسـبة إليّ، وتباهيًا زائدًا عن الحد. فمن كنت أنا – في نهاية المطاف – سوى توبا رنجلباوم، التي كادت أن تموت عشرات المرات؟ لم أكن السـيد سـول بيلو، مع أنني تمنيت أن أبدع في الكتابة! لقد وجدت الفتاة مدهشـة، ورصينة بشـدة بالنسـبة إلى عمرها، ومع ذلك كانت مبهجة في كل شيء، وعاشقة للمعرفة تبحث عن شيء تملص – وما يزال – منها، أيًا كان ذاك الشيء».

لم يكن من المفاجئ وجود صفوف من الكتب المتراصة في مكتبها، لكن وجـود مكتـب شـديد الفخامة على شـكل حرف U لم يكـن القطعة الأوروبية العتيقة التي توقعها باكس. وكان هناك حاسـوب من أحدث طراز مع شاشـة بـدا أنهـا فـي حجم لوحة إعلانات فضلاً عن طابعات وماسـح ضوئي وطيف مـن أحـدث الأدوات الإلكترونيـة مما يدلل على أنهـا تواكب التطور إلى حد لم يدركه باكس، وبات محرجًا الآن لأنه ظنها متقاعدة منذ وقت طويل رغم ادعائها أنها ما تزال تكتب.

قـال بوغـو «هـذا المـكان يشـبه محطة تحكم في سـفينة فضائيـة يا توبا– وان كينوبـي. لطالمـا عرفـت أن القـوة لديكِ. هل أنتِ مدمنة وسـائل تواصل اجتماعي؟»

«ليـس كثيـرًا يـا عزيـزي. لديّ طرق أفضل لإهدار وقتي. إلى جانب أنني أجد أن هذه المواقع تتعارض بشدة مع فكرة التواصل الاجتماعي بالمجمل. ولكن من الحكمة متابعتها بين حين وآخر».

عنـد جانـب مـن الأرفـف مخصـص لعـرض رواياتهـا، قامـت بوضـع الإصدارات الأميركية من كتب سلسـلة فتاة مقدامة بترتيب النشـر. فكان ثمة ستة وأربعون منها.

قالت توبا «تنعتني بملهمتها ومعلمتها، ولعلي أتشجع قليلاً للإقرار بالأولى، ولكن ليس الثانية. كيف لي أن أعلم فتاة – بحلول سن السابعة عشر وتخرجها من المدرسة الثانوية – كاتبة أفضل مني بالفعل أو حتى أفضل مما قد أصبح يومًا؟»

فقال باكس «ربما تعلمت منكِ بطرق أخرى. مثل القيم التي تتعلمها الفتيات في أكاديمية الشجاعة. كثير من الناس هذه الأيام قد يعتبرون هذه أشياءً مبتذلة أو عفا عليها الزمن. لكن بيبي تقول إن قانون الفتيات المقدامات هو تمدد مذهل وتطبيق لقانون الطبيعة».

كان جليًا أن توبا مسرورة لسماع هذا، ولكن بدا أنها فكرت في بيبي طريحة الفراش في المستشفى والضائعة في غيبوبة، إذ أنها رفعت الكوب وأخذت رشفة طويلة من القهوة الممزوجة بالجعة. قالت «إذا كان ثمة شيء وحيد عثرت عليه في السلسلة القصصية لم تكن تمتلكه فعلاً أو كان ناقصًا لديها وهي في سن الرابعة عشر، فهو المفهوم الرائع للإرادة الحرة. ما انفكت تشير إلى هذا خلال محادثاتنا. أننا أحرار في توجيه حياتنا، وبوسعنا تجاوز الصعاب. ووجود خطر عظيم في إنكار وجود الإرادة الحرة، وتقرير أننا آلات من لحم، ليس له معنى ونحن لا نتحمل مسئولية ما يحدث بسبب ما نقوم به».

فقال بوغو «هل أخبرها بشأن الوشم؟»

أومأ باكس بالموافقة.

لم تندهش توبا رنجلباوم من فكرة ظهور الكلمات الأربع بدون استخدام حبر أو فنان وشوم، ولم تفكر حتى في إعادة النظر في معتقداتها بأي شكل كان. لم تخفِ حقيقة أنها خلال المدة التي قضتها في تيريزنستادت وبعد أن أطلق سراحها من أوشفيتز قبل ساعات من إعدامها المقرر، كانت قد مرّت بعدة تجارب لا يمكن تفسيرها، في لحظة تعطل فيها كل من المنطق وقوانين الطبيعة بشكل ما أدى إلى نجاتها على غير المتوقع. قد يصف بعض الناس هذه الأحداث بأنها محض صدفة، وهو أحد أدوات القدر، لكن آخرين

سيصفونها بالمعجزات التي لا تحتاج إلى القدر. لم تكن قد كشفت من قبل عن طبيعة تلك التجارب، ولا حتى لزوجها ماكس، لأنها كانت مقدسة بالنسبة إليها ولأنها أدركت أن الكلمات ستعجز عن وصف ما حدث بدقة. فما لا يمكن وصفه سيفقد صفته إذا بات قابلاً للوصف.

عندما انتهى بوغو، فتح باكس المفكرة على الصفحات التي ظهرت فيها أسطر خط يد بيبي، وأصغت توبا بدون الحاجة إلى المزيد من القهوة بينما كان يشرح هو كيف صاغا وقرآ الأسطر. ومع أنه عجز عن معرفة ما إذا كان هذا أقل أو أكثر إبهارًا من التجارب التي مرت بها في صباها في الأحياء اليهودية ومعسكرات الموت، إلا أنه كان بوسعه رؤية أنها من نفس النسيج المثير للعجب، إذ أنها ابتسمت ووضعت كوبه جانبًا على المكتب وقالت «الأمر ليس بلا أمل إذن».

سألها باكس «لماذا تفضل الإشارة إليكِ باسمكِ المستعار...هالينا بيرغ؟»

فقالت توبا «لا أدري. هذا غريب، أليس كذلك؟»

«من يكون روبرت وارن فوكنر؟»

«لم أسمع به من قبل».

فقال بوغو «الأهم من ذلك، من تكون آشلي بيل؟»

-114-

المرأة المقززة والضربة الشديدة

بـدا أن الضبـاب الـذي ملأ رئتي بيبي قـد ملأ دماغها أيضًا. وقد تحدثت ماريسـا هوفلاين-فورشـاك عن أحداث يسـتحيل أن تكون قد عرفت بها. لقد سألكِ عن أكثر ما تحتاجين إليه، فقلتِ أن تنسي. لكن أكثر ما كنتِ تحتاجين إليه وقتئذٍ لم يكن النسيان. وليس هذا ما تحتاجين إليه الآن. لم تلتقِ ماريسا بالقائد قط؛ إذ كان قد قضى نحبه قبل سـنوات من ظهور هذه المرأة المقززة في حياة بيبي.

كانت السيدة هوفلاين الجديدة - بارتدائها ملابس باهظة ملائمة لملهى ليلي وضيع أو للمشـاركة في أحد أفلام إلفيس بريسـلي، وحذاءً بكعب عالٍ وسـروالاً ضيقًـا للغايـة وقميصًـا أظهر أكثر مما أخفى وسـترة جلدية باللونين الأبيـض والأسـود، ووقوفهـا فـي فقاعة هواء نقية في قلب الضباب - تسـعى إلى أن تُرى وتُفهم.

ظنت بيبي أنها قد سـمعت شـيئًا خلفها؛ شـخص ما يدنو منها ويكشـفه صـوت تكسـر الحصـى. دارت حـول نفسـها لتفقد الظلام وهـي تقبض على المسدس، بيد أنها لم تجد أحدًا. كانت هناك أضواء داخل مقطورة المكاتب الهندسية، خلف ستائر النافذة. وقد صدرت أصوات خافتة بالداخل لكلام غير مفهوم، وربما يكون بلغة غير الإنجليزية. وكأنها آتية من عالم آخر إلى جلسة تحضير أرواح وتصدر من قماش من الإكتوبلازم تطير في الهواء.

قالت السيدة هوفلاين-فورشاك «لم يسمعونا بعد».

استدارت بيبـي صوب معلمتها السـابقة، متوقعة التعـرض للهجوم أثناء

ذلـك، لكـن المـرأة لم تبرح محلها. كانت نظرة الانتصار في عينيها تشـير إلى أنها لا تحتاج إلى إيذاء بيبي جسديًا، فبوسعها تدميرها بالكلمات.

قالـت هوفلاين-فورشـاك «لـم ولـن يسـمعونا، مـا لم ترغبـي في ذلك. يمكنك دومًا تمني ما تشائين».

ظلت بيبي تشـعر بالعجز بسـبب الضباب، الذي غمرها جسـديًا وعقليًا، بـل وحتـى الغضـب كان عاجزًا عن تبديده. ومن بين كافة الطرق التي توقعت أن تتطور بها مواجهتهما بعد نزول هوفلاين-فورشـاك من السيارة، لم تكن هذه إحداها. ولم تكن قد شعرت في أي لحظة خلال اليومين السابقين بحيرة شديدة، وسيطرة شبه منعدمة على الأحداث.

سـألتها هوفلاين-فورشـاك بنبرة غضب «ماذا تريدين يا غيدجيت؟ هاه؟ ماذا تريدين حقًا؟»

«آشلي بيل بحق الله. أين تحتجزونها؟»

«إن مكانهـا هـو المنعطـف التالي في الحكايـة. أما ما تريدينه الآن، فهذه مشـكلة أكبر. تحفيز شـخصي. إذا كنتِ عازمة على إنقاذ الفتاة، إذا كان هذا حافزكِ، تحتاجين أولاً إلى معرفة حقيقة نفسكِ بالكامل. أما إذا كنتِ تخشين الحقيقـة، وإذا كنـتِ جبانـة مثلمـا أحسـبكِ، فـإن حافزكِ هـو أن تظلي جاهلة بالحقيقة، ولن تنقذي أحدًا قط».

«لمـاذا تواصليـن التكلـم هكـذا؟ مـا هـذا الهـراء؟ نحن لسـنا في فصل دراسي».

«حقًـا؟» كانـت ثمـة قناعـة في صوتها وتحـدٍ في عينيها إلـى الحد الذي بـدا معـه وكأن جدرانًـا قد تتشـكل حولهما، وسـتظهر صفـوف من الطاولات المدرسية. أضافت «ماذا تريدين مني أن أكون يا غيدجيت؟»

«أريد منكِ أن تكوني؟»

«كما تعلمين، سأتقمص أي دور تشائين».

غطـى الضبـاب كافـة الأنحاء، وكان عميقًـا وغامضًا، وقد تواجد في كل

مكان باستثناء حول هوفلاين–فورشاك، لكنها كانت تتحدث بضبابية، وكأنها آلة للتشويش.

قالت بيبي «كل ما كنتِ عليه دومًا منذ عامي الأول في المدرسة هو عقبة. والناس لا يتغيرون فجأة».

«إذن تريدين مني أن أكون عقبة، وأمنعكِ من الوصول إلى آشلي ومن مواجهة الحقيقة؟»

كان نسيج السريالية قد تشكل خلال اليومين السابقين، لكنه عدد خيوطه الآن يزداد باطراد.

«كوني كيفما شئتِ» لم ترغب بيبي في هذه المحادثة، وأرادت أن تنهي هذه المواجهة.

على الرغم من الكعبين العاليين والسروال الضيق والثديين الذين يتحديان قوانين الطبيعة، تحركت هوفلاين–فورشاك بسرعة، فانقضت على سلاح بيبي بإحدى يديها، وهجمت على أذن بيبي المجروحة بالأخرى، ففشلت في الظفر بالمسدس، لكنها أصابت الأذن بدقة. كان تأوه بيبي من الألم صامتًا ومكتومًا. وبينما ابتسمت المعلمة مثل مسخ كاشفة عن أسنانها، استخدمت بيبي المسدس، ولكن ليس كسلاح وإنما كهراوة، فنزلت بفوهته بعنف على جبين مهاجمتها، فصدر صوت قاسٍ ولكن مكتوم، لتسقط هوفلاين–فورشاك أرضًا ووجهها إلى الأسفل، ورأسها متجه نحو اليسار، وقد أضاء من قبل المصابيح الأمامية لسيارة البنتلي، في وضع جميل بشكل غريب، وكأن هذا كان إعلانًا مفزعًا تتظاهر فيه الممثلة بأنها ضحية جريمة قتل. لعلها كانت فاقدة للوعي أو على وشك أن يغشى عليها، لكنها رمقت تلميذتها السابقة بعين واحدة ثاقبة بوسعها أن تقتل إذا ما انبعثت شحنة الكراهية الشديدة في صورة تيار كهربي. وربما كان يتوجب على بيبي الانتظار لرؤية ما إذا كانت العين قد أغمضت وتوقفت المرأة عن الحركة، لكن الغضب التي لطالما تمكنت من التحكمم فيه بات هو المتحكم فيها الآن. قلبت المسدس في يدها وأمسكته

من فوهته، ونزلت بعقبه على جانب رأس هوفلاين-فورشاك، ربما ليس بقوة كاملـة، ومـع ذلك كانت الضربة شـديدة بما يكفـي لأن تختفي العين الحاقدة خلف جفن مرتعش سرعان ما سكن.

شـعرت بيبـي بالإثـارة والخـزي مـن العنف على حد سـواء، كما جعلها ذلك تشـعر بالقوة ولكن ليس بالسـمو. إذا لم يكن الخزي جزءًا منه، لكنت وجهـت لهـا ضربـة ثانيـة ثم ثالثة، حتى تـرى الجمجمة من الداخل وتخضب الشـعر الأشـقر بالدماء. لكنها اسـتعادت السـيطرة على نفسها، وأغلقت الشق الذي قد يطلق الغضب الناتج من رحم الخوف ويحيله إلى نوببات من العنف.

واصلت الأصوات الصادرة في مقطورة المكاتب نقاشها المكتوم. وسواءً كانـوا يدبـرون مكيدة أم يثرثرون فحسـب، أو يخططـون لتدمير المدينة بقنبلة ذرية أم يلعبون البوكر، كان من المستحيل معرفة ما يفعلونه.

إذا كان أحدهمـا هـو زوج فورشـاك المحظـوظ، فربمـا يكـون الآخـر هو روبرت وارن فوكنر، المعروف باسم تيريزن. وعلى أي حال، يمكنها أن تفاجئه، وأن تدخل وترديه قتيلاً، وتحرمه الاحتفال بعيد ميلاده وتنقذ حياة آشـلي بيل. ولكن هل سيتنقل قائد طائفة كهذه - أو شراكة كهذه - في أي مكان بدون حفنة مـن الحـراس؟ هذا مسـتبعد. كانت عاجزة عـن تخمين عدد المتواجدين داخل المقطورة، وهل يقفون في غرف أم في رواق لم تتمكن من رؤيته من الخارج.

اعتقـدت أنـه يجدر بها استكشـاف المسـاحة الجـاري تطويرها بدلاً من القيام بمواجهة غير محسوبة، مثلما كان يجدر بها ألا تطيل التفكير في غرابة مواجهتها مع ماريسا هوفلاين-فورشاك والطريقة المفزعة التي انتهت بها.

ما حافزكِ؟

إنقاذ آشلي بيل.

حقًا؟

أجل. آشلي بيل. سأنقذها أو أموت دون ذلك.

أحاطها الضباب من كل جانب.

-115-

حياة توبا الحقيقية والخيالية

بدا أن المرأة العجوز لا تعاني من التهابات في المفاصل، إذ أنها تنقلت بسرعة وبدون شكوى، ولم تبرز أي عظام سميكة أو مشوهة في أصابعها، ولم تكن هناك أي مفاصل متورمة. ولم ترتدِ نظارات، لكن باكس كان يشك في أنها ترتدي عدسات لاصقة. كانت صحتها جيدة بصفة عامة، وكأنها كانت قد عانت كربًا وفزعًا عظيمين في سن الحادية عشر لدرجة أنها عندما بُعثت من أوشفيتز، فإن ملاك بيت المال الذي تتبع الديون التي تدين بها كل نفس قد أعفاها من سداد ثمن باهظ على عيشها حياة هانئة في ثمانينيات العمر.

مرت بجوار مجموعة من روايات الفتاة المقدامة بعدة لغات، صوب أرفف أخرى حفظت عليها الكتب التي كتبتها بخلاف السلسلة. ومن بين المجلدات المرتبة بعناية، استخرجت الكتاب الوحيد الذي كتبته باسم هالينا بيرغ. وكان أيضًا أول كتاب ينشر لها تحت أي اسم؛ من داخل فم التنين. أظهر الرسم على غلاف الكتاب تنينًا مع جماجم بشرية مكان العيون، لكن التصوير كان فقيرًا وعلى الأرجح أُنجز على عجل، فظهر غير جذاب. وعلى الرغم من أن وجود كلمة رواية أسفل العنوان قد يوجه المشتري، إلا أن العمل يمكن وضعه ضمن تصنيفات عديدة.

قالت توبا «لم يحقق المبيعات المرجوة. كان بمنزلة كارثة. لكنني في الحقيقة لم أمتلك المهارة لكتابة القصة كما أملت. كانت من المفترض أن تكون رحلة قصيرة عبر الجحيم ولكن ملهمة في نفس الوقت. إنها قصة فتاة

صغيرة نجت من معسكر الموت في داشو، وتجاوزت المحنة، وأرست حياة ذات معنى في أميركا».

فقال بوغو «قصة حياتكِ».

«كلا في الواقع يا عزيزي. لكنها خيال بُني على الواقع. وهي مقتبسة من قصة حقيقية بشأن شخص ما التقيت به في هذه البلاد بعد الحرب. كان اسمها أرلين بلوم، لكنني بطبيعة الحال غيرته من أجل الرواية».

قال باكس وهو يتصفح الغلاف الأمامي «إذن اسم البطلة هو آشلي بيل».

فأوضحت توبا «وقعه أخف على الأذن الأميركية».

كان بوغو مباشرًا مثل خط أبيض على طريق سريع وسهل القراءة مثل لافتة مرورية. كانت حيرته ظاهرة للعيان. قالت «الوشم على ذراع بيبي... آشلي بيل ستظل حية. لقد كانت حية، لكن اسمها كان أرلين بلوم».

سألها باكس «هل ما زالت المرأة حية؟»

فقالت توبا «كلا للأسف. لقد توفيت قبل أربع سنوات».

قال بوغو «وآشلي بيل ليست شخصية حقيقية، بل شخصية في رواية. فلماذا الوشم؟»

فقالت توبا «بعد تلك الزيارة برفقة والدتها، عندما اكتشفت أنني كتبتُ رواية باسم هالينا بيرغ، أصرّت بيبي على قراءتها. أخبرتها أن الكتاب لم يعد يُطبع لسبب وجيه للغاية. لم تتمكن مهارتي من استغلال هذه المادة على النحو الأمثل. لقد اكتشفت نفسي في مغامرة خيالية مرحة للفتيات. لكنها ظفرت بنسخة مني».

«ليس فقط مغامرة خيالية للفتيات» قال باكس، لأنه كانت هناك سلسلة من أحد عشر كتابًا عن أكاديمية شجاعة للصبية، وكان قد قرأها عندما كان ما يزال يعيش في المزرعة برفقة عائلته، وذلك قبل وقت طويل من أن تسيطر عليه فكرة الالتحاق بالقوات الخاصة. أضاف «وقد ساعدتني أنا وبيبي في ترتيب مواعدتنا الأولى، فكلانا كان يقرأ لتوبا رنجلباوم».

«أجـل، لقـد أخبرتني بهذا وشـعرتُ بالإطراء. لكن أخشـى أن السلسـلة المخصصـة للصبيـة لـم تحقـق مبيعات مثل سلسـلة الفتيـات. وإلا لكنت قد كتبت المزيد». ارتسمت على وجهها الجميل الهرِم تعبيرات الابتهاج الشديد، ولمعـت عيناهـا الملونتان. وأضافـت «أجد أنه من اللطيف حقًا اقتحام عقول الرجال الشبان، مع تخيلهم وهم يقومون ببطولات بطابع طيب مرح».

فقال باكس «فتياتك يقمن ببطولات أيضًا. وهذا أحد الأسـباب الرئيسـية لعشق بيبي لتلك القصص».

قال بوغو «لنعد إلى سـؤالي. لماذا الوشـم؟ وأين بيبي؟ وما الذي تحلم به؟ أو ليس تحلم به...بل ما تفعله؟ وما علاقة آشلي بيل بكل هذا؟»

«توبا؟» قال باكس بعد ما أعاد كتاب من داخل فم التنين إليها. وأضاف «أي أفكار؟»

«ثمة شيء غريب آخر» بعد أن وضعت المرأة العجوز الكتاب على الرف، التقطت مجلدًا آخر بجواره وقالت «لم أمتلك العديد من النسخ الإضافية من الإصدار الأميركي، لذا منحت بيبي الإصدار البريطاني».

عوضًا عن التنين، أظهر الغلاف وجه فتاة يافعة جميلة تبلغ على الأرجح الثانية عشر أو الثالثة عشر من العمر. كان شعرها أشقر فاتح، وبشرتها ناعمة مثل خزف البورسلين، وعيناها بنفسجيتان وواسعتان، وقد اتقدتا بالذكاء، وبدا من نظرتها المباشرة والرائقة، ومنعرجات وجهها ومسحة التحدي في شفتيها أنها تمتلك شخصية جذابة، وكأنه في هذه الحالة كان المظهر والواقع سيان.

قالت توبا «عندما قرأت أرلين بلوم مسـودة الرواية المقتبسـة من حياتها، أُعجبت بها المرأة الطيبة أكثر من اللازم، بالنظر إلى أنني لم أكن عادلة للغاية معها. كانت امرأة جميلة وكريمة دومًا. وعلى أي حال، أراد الناشر البريطاني وضع وجه آشلي بيل على الغلاف، بدلاً من ذلك التنين البغيض. وقد أرادوا الاسـتعانة برسّـام فـي ذلـك، لكننـي رأيت هـذه الصورة لأرليـن وهي صبية، وشـعرت أنهـا رائعـة. وقد وافقت على السـماح باسـتخدامها. كانت الصورة

بالأبيض والأسود بطبيعة الحال، لكن الرسّام استخدمها كمصدر، ورسم الغلاف ليبدو واقعيًا مثل الصورة. أنا على يقين أن هذا هو السبب الوحيد لتحقيق الإصدار البريطاني مبيعات أكثر بكثير منن نظيره الأميركي».

قال بوغو «إنها فاتنة نوعًا ما...هل كبُرت لتصبح بهذا الجمال؟»

«أجل في الواقع. وكانت روحها أجمل من مظهرها. كما أسلفت، لقد توفيت قبل أربع سنوات. وسوف أفتقدها دائمًا».

بقدر ما كان مدهشًا، لم يكن الرسم على غلاف الكتاب يعتبر غريبًا.

قال باكس «إننا نتساءل يا توبا عن كيف – ولكن أيضًا لماذا – حصلت بيبي على هذا الوشم، ولماذا آشلي بيل جزء من هذا. وقد ذكرتِ أن هناك شيء غريب آخر».

فقالت توبا «في الرواية، تنجو آشلي بيل من معسكر داشو، مثلما فعلت أرلين بلوم، وتأتي إلى أميركا، أيضًا مثل أرلين، وتصبح بحلول السبعينيات جرّاحة ناجحة ومرموقة، مثل أرلين. كان تأليفي قريبًا جدًا من الواقع. واستنادًا إلى شخصية أرلين، فإن آشلي بيل في الرواية هي جرّاحة أورام متخصصة في سرطان الدماغ».

-116-

الواقع وسمسارة العقارات

اتجهت الشمس غربًا نحو البحر، وكان هناك ما يكفي من الغيوم بأشكال متنوعة لضمان أنه - بعد ربع ساعة من الآن - ستحل نهاية اليوم بسماء محترقة. وقد تمددت الظلال في الضوء الذهبي وكأنها تذوب، وستتحول إلى الحمرة بعد حين.

لدى النافذة في الغرفة رقم 456، نظرت نانسي إلى أسفل صوب موقف السيارات الملحق بالمستشفى ولم يرُق لها ما رأته على الإطلاق، فأشاحت بوجهها بعيدًا. أعادت إليها صفوف السيارات المركونة ذكرى النعوش المصطفة التي رأتها في نشرات الأخبار لجنود قُتلوا في الحروب وأعيدت جثثهم إلى الوطن جوًا.

كان ميرف قد ذهب إلى الكافتيريا في الأسفل للحصول على شطائر وسلطة المعكرونة من أجل العشاء الذي سيتناولونه في هذه الغرفة. لم يرغب أي منهما في المغادرة حتى تنتهي ساعات الزيارة الثماني، بل وربما ليس حينئذٍ أيضًا.

بينما كان ميرف يجلب عشاءهما، قررت نانسي التوقف عن تجارة العقارات، اعتمادًا على ما سيحدث تاليًا. لقد أحبت بيع المنازل، ومساعدة الأشخاص الذين احتاجوا إلى بيوت جديدة، وكانت بارعة في ذلك، وتفوقت في مجال العقارات أكثر من تفوق ميرف في بيع ألواح التزلج، ولقد كان بارعًا للغاية في ذلك. ولكن إن حدث شيء لبيبي - ليس مجرد شيء غامض، وإنما الموت - فإن أي ملكية في العالم ستصبح مسكونة بالنسبة إلى نانسي.

وسـيغدو كل منـزل عرضتـه على كل شـارٍ محتمل منـزلاً كان من الممكن أن تعيش فيه بيبي وتكوّن عائلة برفقة باكس. وستغدو كل قطعة أرض شاغرة – تنتظر مهندسًا معماريًا كي ينهي تصميم المنزل – مدفنًا ينتظر شاهده. كان هذا ما تحدث نفسها به وهي تجول الغرفة ذهابًا وعودة ويكاد القلق يفتك بها.

وعلـى الرغـم مـن أنها بدت وكأنها سـتعقد صفقة مـع القدر، فلم تتعهد بالتخلي عن مهنتها فقط إذا ما سُمح لبيبي بالعيش. فلا فائدة في مساومة كهذه. كان هذا النوع من المبادرات العاطفية يجعل المرء يشعر بشكل أفضل قليلاً إذا ما كان شعوره مريعًا، ويمنحه إحساسًا بالسيطرة عندما يكون قد فقدها تمامًا، لكنه كان بلا معنى. لا مفرّ مما هو مقدّر. القدر يتسم بالقسوة، وهي لا تعتزم المساومة. كان ما تحدث نانسي نفسها به حقًا – بتخطيطها للتوقف عن تجارة العقارات – هو أن خسـارة ابنتها في سـن يافعة للغاية سينسـف بكل تأكيد أي قيمة لعملها وحياتها. ولكن يتعين على المرء مواجهة الواقع مهما كان مريعًا.

كانت تقف عند أسفل الفراش وهي تراقب الفتاة النائمة عندما تدفقت دماء جافة ورطبة من أذن بيبي المجروحة، وتناثرت على كيس الوسادة والملاءات. تدفقت الدماء مرة أخرى، وكأن حضورًا لا يُرى قد فتح السحجات المتجمدة.

-117-

أمواج الليل

لمسافة ثلاثين مترًا أو نحوها، شقّت بيبي طريقها عبر البياض الملائم لعاصفة ثلجية في القطب الشمالي، بياض بلا ريح أو برد قطبي، لكنه مع ذلك يثير الارتباك والهلع. وعندما كانت أضواء نوافذ مقطورة المكاتب بالكاد ألمع من التوهج الأصفر الخافت لشاشة تلفاز أطفئت للتو، استخرجت مصباح اليد من أحد جيوب سترتها وأضاءته.

إذا كان لديهم حراس متمركزون، فقد يرونها، لكن الوقت ليس مناسبًا للقلق بشأن هذا. أخبرها حدسها أن التهديدات التي ستواجهها من الآن فصاعدًا لن تكون عادية مثل الحراس. ومنذ أن جلب بوغو السيارة إلى متجر أبيها، ومنذ أن شرعت في هذه المغامرة، كانت قد قطعت أميالاً تفوق قدرة عداد المسافات على القياس. شعرت وكأنها قد سافرت إلى بلد مجهول في قارة لم تُكتشف بعد، إلى شفا هاوية غير معروفة. كان هناك العالم المعروف والعالم الخارق الذي أظله، وقد بدأ الحاجز المتداعي الذي يفصل بينهما يتلاشى بالكامل الآن.

أو ربما كان حاجزًا آخر يتعفن في الوقت الراهن؛ حاجز يفصل بين حياتها كما تصورتها وحياتها الحقيقية، وبين ما كانت عليه وما يمكن أن تصبحه. وكانت حافة الهاوية التي تقف عندها هي الحقيقة.

كان جسدها يؤلمها بفعل الضرب المبرّح الذي تلقته على يدي الرجل الذي أردته قتيلاً، وشعرت وكأن أذنها تشتعل. كانت قد تركت المسكّن في السيارة. ولكن لا مشكلة؛ فلن يعيقها الألم. بل إنه قد زادها تركيزًا وشحذ حواسها.

قاوم الضباب الكثيف قوة الضوء، وقد أثبت مصباح اليد أنه أداة غير فعالة. لم يتجمع ويذُر ويزحف الضباب فقط، بل إنه أيضًا علِق بالأسطح على غير طبيعته. وفي قلب الظلام الدامس، غطت ستائر سميكة تشبه الطحالب أرفف تخزين الأدوات، ومنصات من الكتل الخرسانية وصناديق حصى مكدسة. كما غطت حفارات ورافعات وأدوات أخرى مثل ألواح ملقاة فوق أثاث في منزل مغلق في الموسم الحالي.

شعرت بوجود - أو لعلها تخيلت - هيئات سريعة منخفضة تحاصرها في الضباب. كانت الهيئات رمادية اللون وبلا ملامح، وفي ارتفاع الكلاب أو القطط البرية، لكنها لم تكن أيًا من تلك الحيوانات، إذ كانت أنحف من الكلاب وأضخم من القطط البرية وذئاب القيوط حتى، واتسمت بالمكر والمراوغة. لم ترَ عينًا تلمع، وإذا كانت هذه الهيئات أكثر من مجرد ظلال لتهديد ما من بنات أفكارها، فإنها هادئة مثل الأرواح.

كان المجمع ليبدو ضخمًا في ضوء النهار، ولكن في المساء وفي هذا الظلام الدامس، بدا أكثر ضخامة؛ مقاطعة منفصلة بذاتها. شعرت بيبي أكثر مما رأت بالهياكل الضخمة للبنايات المكتملة ونصف المكتملة التي تماثل نماذج الرسومات في مقطورة المكاتب. شاهدت مرتين رافعات عملاقة جرت موازنتها بأوزان ضخمة متقابلة، وكانت ترتفع بشدة وتختبئ في قلب الضباب، وكأنها ذبائح معلقة متحجرة من العصر الجوراسي.

تقدمت ببطء السلحفاة، وكلما اتجهت شرقًا نحو خلفية المجمع، بدا المشروع مكتملاً أكثر، وكأنهم استهلوا البناء هناك وتقدموا غربًا. وفي بعض الأوقات، أفسحت التربة المتراصة المجال لمسارات من الحصى، المطعمة بتصاميم من الكوارتز والجرانيت، وبالكاد يمكن رؤيتها عبر الضباب الكثيف والمتنقل. دارت حول القاعدة المرتفعة لينبوع حوضه جاف حاليًا ويبلغ قطره حوالي خمسين قدمًا، وقد برز من المنتصف ما كان سيبدو - في حالة عدم وجود الضباب - كمجموعة من الدلافين البرونزية التي تقفز معًا على الأرجح

لنشر المياه عندما يكون الحوض ممتلئًا والمضخات تعمل.

بدأت بيبي تشعر أنها قد ضلّت طريقها في متاهة غير منتظمة الشكل، وقد حاصرتها بالتغيير المستمر للمسار الذي يتيح التنقل فيها بنجاح، بيد أنها سرعان ما رأت أنوارًا أمامها. كانت الأنوار خافتة في البداية ومثيرة للفضول، وتكونت من صفين متوازيين من الكرات الكبيرة، وكان الصف الأول يرتفع حوالي أربعة أمتار ونصف تقريبًا عن الأرض، وهي المسافة نفسها التي تفصل بين الصفين الأول والثاني. ومع ازدياد لمعانها، شكت في أنها ليست كراتًا معلقة، وإنما نوافذ على هيئة فتحات دائرية، يبلغ قطر كل منها حوالي مترين تقريبًا. وقد تأكدت شكوكها عندما اقتربت بما يكفي لتبين العوارض التي برزت من مركز كل نافذة وثبتت الألواح الزجاجية التي تشبه الفطيرة في مكانها.

وعلى الرغم من أنها تمكنت في البداية من تخيل شكل البناء عبر التداخل بين حجم ومكان الفتحات المستديرة، إلا أنه بدا مثل سفينة عملاقة. اقتربت منها في تعجب، مثلما كان أي شخص في عام 1912 سيتعجب حين ينظر من على رصيف الميناء في دهشة نحو سفينة تيتانيك العملاقة. وحتى من على بُعد خطوات قليلة من المكان، وعندما أدركت أنها ليست سفينة وإنما بناية، فلم تستطع سوى رؤية القليل من التفاصيل، مع أنها أحست أنها أطول من ملعب لكرة القدم، ومقببة مثل حظيرة الطائرات، وتخلو من النوافذ في الطابق السفلي. وبينما كانت تسير بجوار البناية وهي تمسح بيدها على الجدار المنحني، لاحظت أنه مغطى بالمعدن، وشعرت بنتوء خارجية مثبتة بشكل منتظم وصُنعت من الحديد.

وحينما وصلت إلى أحد أطراف البناية ووجدت جدارًا مسطحًا، حاصرتها الهيئات المتلصصة الماكرة – بصرف النظر عما إذا كانت حقيقة أم خيالاً – بأعداد أكبر، وكأنها دُربت خصيصًا على حماية هذا الصرح الخاص التي تهم بيبي بدخوله الآن. كانت هذه الهيئات ظلالاً للظلال، وبلا وجود مادي بكل

تأكيد. بيد أنها قد سمعت الآن لهثًا خافتًا وطقطقة مخالب على الحصى. كانت تمسك بالمسدس – المبتل بفعل الضباب وربما بدماء هوفلاين–فورشاك – في يدها، لكنها كانت تشك في فعاليته ضد قطيع من الظلال، أو حتى ضد أحدها فقط.

توهج انعكاس غير منتظم لضوء مصباح اليد على باب حديدي مطفي التشطيب، ويبلغ عرضه حوالي مترًا ونصف المتر وارتفاعه مترين ونصف، وكان دائريًا عند قمته ومحمي بغطاء معدني متدلٍ، وقد بدا أنه على طراز العصور الوسطى على الرغم من المادة التي صُنع منها. ولم يكن هناك مقبض باب أو أي شيء يشبه ثقب المفتاح التقليدي، كما لم تكن هناك فتحة يمكنها أن تدخل فيها بطاقة مفتاح. كانت وسيلة الفتح الوحيدة هي ثقب بيضاوي كبير في الإطار الحديدي العريض الذي أحاط بالباب.

وقفت بيبي حائرة للحظات لكنها بعد ذلك تذكرت. من أحد جيوب سترتها، سحبت المفتاح الإلكتروني الملحق بسلسلة إلى الكيس البلاستيكي الذي احتوى على دبور ميت.

-118-

بوسعه إصلاح أي شيء تقريبًا

كان المنزل الكائن في مرتفعات كاميو أحد قلاع الموسيقى مثلما كان منزل توبا رنجلباوم أحد قلاع الكتب. وكان غانيش باتل – محترف التزلج وعبقري صيانة أنظمة الصوت والفيديو – قد صمم وصنع وباع العديد من أنظمة الموسيقى للمنازل، ولكن في منزله الشخصي، كان لديه نظام خاص لكل غرفة. كانت المشكلات التي يواجهها تخص قوة الصوت ووضوحه وتردد الصدى الأمثل، وكان لا ينفك عن إدخال تحسينات على معداته.

عندما توقف كل من باكس وبوغو لديه لاسترجاع المسجل بعد إصلاحه، كانت غرفة المعيشة تصدح بموسيقى لم يسمع باكس مثيلاً لها من قبل. كانت خليطًا من ألحان هاواي وغيتار حديدي وبيانو، وقد مُزجت معًا بتناغم يليق بشركة موتاون للصوتيات، وبدا صوت المطرب الرئيسي مثل إلتون جون، لو كان الأخير قد وُلد في ناشفيل وترعرع وهو يستمع إلى جوني كاش. لكنها كانت جيدة بصفة عامة. أخفض مضيفهم صوت الموسيقى بما يكفي حتى لا يصرخوا كي يسمعوا بعضهم بعضًا.

«هذا الصغير» قال غانيش وهو يقدم المسجل على راحة يده «كان جميلاً في زمنه. إلى جانب أنه يجعلك تشعر أنك خبيث ورائع مثل جاسوس، بالكيفية التي يمكنك إخفاؤه بها، وتوصيله بمايكروفون عبر الغرفة. وحتى إذا أجريت مقابلة علنية مع أحدهم، فوجود هذا الصغير على الطاولة يجعلك تشعر بالغموض».

سأله بوغو «هل يمكنك خفض صوت الموسيقى أكثر؟»

ابتسم غانيش وهزّ رأسه وقال «ليس حقًا».

كان نحيفًا وداكن البشرة وشديدًا، ولعله قد ورث الشدة من جدّه لأبيه، الذي ربما كان فنان شوارع في نيودلهي يروض أفاعي الكوبرا بالمزمار العادي، وأحيانًا بيديه فقط، فيداعبها حتى تغفو وهو يخاطر بالتعرض للدغة قاتلة. ربما يكون ما سبق حقيقيًا وربما لا. فقد كان هناك من قال إن غانيش وُلد وتربى في بوسطن، في كنف عائلة تدير مطاعم منذ عقود طويلة، وأن أقرب تواصل له مع الهند كان بمشاهدة أفلام بوليوود الغنائية في السينما المنزلية ذات الاثنتا عشر مقعدًا. بشعره الداكن الكثيف ومظهره النحيل المعتدل وعينيه الواسعتين المعبرتين، كان غانيش ناجحًا في التعامل مع النساء اللاتي تعامل معهن، لكنه لم يفوت فرصة استغلال إرثه الثقافي – الحقيقي والمفترض – عندما كان يشعر أن الفاتنة الجديدة التي جذبته ستتجاوب أكثر مع طبقة أخرى من التاريخ الشخصي الغريب. ولا أحد – بمن فيهم النساء – أهانه أو أبدى تحفظات على سيرته الذاتية، لأنه كان متقدًا بالحماس وظريفًا ومحبوبًا.

قال «هذا الرجل الذي يظهر صوته في التسجيل، هل كان عم بيبي أو ما شابه؟»

فقال باكس «بل جدّها لأمها نانسي».

«عجيب. يذكرني بالجد مانستر مصاص الدماء أكثر من الجد والتون الريفي الطيب. هل كان مدمن كحوليات أم مخدرات أم ماذا؟»

فقال باكس «لقد كان عنصرًا متقاعدًا في مشاة البحرية. لم أقابله قط لأنه توفي قبل ظهوري. لكن بيبي أحبته. صوت الموسيقى مزعج للغاية».

«أليس هذا رائعًا؟ لا يسعك سوى الرقص على وقعها» قال غانيش وهو يرقص الجاز في مكانه. ثم قال «أنت لم تنهني عن الاستماع إلى الشريط، لذا استمعت إليه».

قال بوغو «لا بأس».

«ظننتُ أنه لو كان تالفًا قليلاً، فبوسعي نقل وتوضيح الصوت. لكنه كان

واضحًا؛ واضحًا وجنونيًا. كان الرجل العجوز منتشيًا أو به خطب ما يا رجل. كان خياله محلقًا أعلى مما يمكن لطائرة ركاب أن تحلق به. لقد أفزعني تمامًا، مما اضطرني لتشغيل هذه الموسيقى لوقف زحف الرعب في دمائي. لا بد أنه قد أثار فزع بيبي أيضًا. مع أنه لا يبدو أنه قد أثر فيها بأي شكل. كيف حال كاها هونا بالمناسبة؟»

كاها هونا هو إله أسطوري للتزلج والرمل والشمس لدى سكان هاواي، ولم يكن غانيش يسخر أو يمزح عندما أشار إلى بيبي بوصفها أحد آلهة التزلج.

كان كل من بوغو وباكس قد اتفقا على عدم الحديث عن حالة بيبي أمام مجتمع الشاطئ. وربما إقرارًا بالموقف المفزع الذي يخفيانه، شعرا على سبيل الخرافة أنه كلما زاد عدد المتزلجين الذين يعرفون بشأن ما ألمّ بها، عجّل ذلك بموتها.

«إنها بخير» قال باكس، وقال بوغو «لا بأس بها».

بينما كان يهز رأسه موافقًا على كلاهما وعلى وقع الموسيقى، قال غانيش «إنها ظريفة وأنيقة. ظللتُ أحبها عن بُعد لبعض الوقت، ولعلي ما زلتُ كذلك. لكنني أدركت دومًا أنني لست جيدًا بما يكفي بالنسبة إليها. هل أنت جيد بما يكفي بالنسبة إليها يا باكس؟»

«سأحاول أن أكون كذلك»

«حري بك أن تحاول»

«شكرًا على هذا» قال باكس وهو يومئ نحو المسجل في يده. وأضاف «أقدر لك ذلك».

فقال غانيش «لا عليك. كان من اللطيف تفكيكه وتجميعه مجددًا. إنها عملية سهلة. يمكنني إصلاح أي شيء». نقر على المسجل وقال «عدا أنني لم أتمكن من إصلاح جدّي رجل مشاة البحرية. كانت حالة ذلك الرجل العجوز معقدة».

بعد عودتهما إلى الهوندا مجددًا، وإدخال مفتاح التشغيل بدون تشغيل

المحرك، قال بوغو «الجد مانستر؟»

«هذا غانيش وهو يتصرف على طبيعته»

«لا أظن ذلك».

«سنعرف خلال لحظات» قال باكس ثم شغل المسجل.

كانـت لديهـم إطلالـة جيـدة على مشـهد غروب الشـمس مـن مرتفعات كاميو. كان مشهدًا ساحرًا يشبه لوحات الفنان ماكسفيلد باريش والأزرق هو اللون الرئيسي في السماء. كانت السحب تشتعل باللونين البرتقالي والقرمزي، وتتوهج من سان كليمنت جنوبًا إلى لونغ بيتش شمالاً. وقد استقرت الشمس على البحر، فبدت خرزة مستديرة ودامية.

-119-
الرجل الذي لا ينتمي إلى هناك

توافـق المفتـاح الإلكترونـي مـع الثقـب البيضـاوي، فتوهـج الدبور في الكيـس البلاسـتيكي مثـل سـلك مصبـاح، وانفتح الباب الحديـدي الغامض. ولأن الغرفـة الواقعـة خلـف العتبة كانت ممتلئة بضغط موجب عالٍ، انفجرت عاصفة من الهواء المعقم نحو بيبي وطاردت الضباب فوق كتفيها ومن خلفها. وعندمـا خطـت إلـى الداخل، لم يكن في انتظارها أي من الهيئات المتلصصة والمتخفية، مما جعلها تتساءل عما إذا كان الغرض منها هو حماية هذه البناية بدلاً من استدراجها إليها إذا ما فشلت في دخولها بكامل إرادتها. ومن ورائها، انغلق الباب بعنف.

وقفت فيما بدت أنها قاعة استقبال صُممت لإرهاب الحاضرين أو إصابتهم بالصدمة. كان عرضها حوالي خمسـة وعشـرين مترًا وعمقها تسـعة عشـر مترًا وارتفاعها ثلاثة عشر مترًا، ومضاءة بمصابيح مستديرة قابلة للتعديل ومثبتة على السقف، ومعظمها موجه إلى الأسفل مباشرة. كان كل سطح مشطبًا بألواح من الكوارتز الأبيض الذي خلا من أي زينة، مما أعطى سـطحًا لامعًا ومتماثلاً له عمق. وقد ظهرت الزينة الوحيدة على الجدار المقابل للمدخل؛ قرص حجري مرصع باللون الأحمر الدموي ويبلغ قطره ستة أمتار، ربما يكون حجر العقيق، وكان هو ذاته مرصعًا بصاعقتي برق متوازيتين من الجرانيت الأسود.

لاحظـت بيبـي أن البـرق نسـخة من شـعار حرف S المـزدوج الذي كان قد ظهر على غلاف *Das Schwarze Korps* أو الحرس الأسـود وهي الصحيفة الرسـمية التابعة لوسـيلة الرعب الرئيسـية لدى هتلر. كانت ألوان العلم النازي

واضحة للغاية في القاعة الضخمة، مع أنها كانت معكوسة. فبدلاً من الخلفية الحمـراء، كان ثمـة بيـاض؛ وبدلاً مـن الدائرة البيضاء، كانـت الدائرة حمراء؛ وبدلاً من الصليب الأسود المعقوف، وُجد شعار حرف S المزدوج. وبصرف النظـر عـن الغـرض مـن هذه البناية، لم يبذل تيريـزن الكثير من الجهد لإخفاء الإلهام. ولعل هذا بسبب أنه – في العقد الثاني المضطرب من القرن الجديد – كان من السهل خداع عدد هائل من الناس أو إخضاعهم لأي معتقد – مهما بلغ زيفه – يمنحهم الطمأنينة ويبرر سواد قلوبهم.

دخلت بيبي في حالة عقلية غريبة. كانت تشعر بالخوف ولكن ليس من هذه البناية أو أي مما تحتويه، ولا حتى من تيريزن، إذا كان ينتظرها في غرفة أخرى. كانت تشعر بالخوف من نفسها، ومن قدرة ما في داخلها كانت تنكر وجودها منذ زمن طويل، لكنها ربما ما عادت قادرة على ذلك.

لـم تخـشَ الغضـب المكبـوت الذي ظهـر بقوة عندما أوسـعت معلمتها السـابقة ضربًـا بعقِـب المسـدس. كان حنقها وقدرتها علـى العنف لهما مبرر أخلاقـي ولا يتسـمان بالهمجيـة. وأحيانًا كان حسـد الآخريـن والحقد عليهم بسبب عرقهم أو دينهم أو مستواهم الاجتماعي مصدر العواصف التي اقتلعت حضارات من جذورها، لكنها لم تكن مصدر غضبها. إذا ما شعرت بالغضب، فإن هذا يكون بسبب البربرية والتوحش، والجهل والغطرسة، وشيطنة الإنسان لمعارضيه وذبح الأبرياء. وكانت حتى قادرة على التحكم في الغضب الشديد الناشيء من سبعة عشر عامًا من قمع المعرفة الرئيسية لنفسها، مما تركها تشعر بالخـوف مـن فعـل مـا ارتكبتـه – وربما ما تزال ترتكبه – ولكن دول أن تدري ما طبيعة هذا الفعل.

بيـد أنـه إلـى جانب الغضـب، كانت تمتلك قدرة أخرى كانت قد نسـيته ولكـن لـم تختفـي تمامًـا. وكانت تسـتعيدها. وبشـكل ما، فـإن المغامرة التي تخوضها منذ يومين كانت بحثًا عن تلك الحقيقة المكبوتة بقدرما كانت بحثًا عن آشلي بيل.

كانت القاعة الفسيحة الملونة بألوان العلم النازي خالية من أي أثاث عدا ما قد يكون مكتب استقبال، وهو كتلة ضخمة من الجرانيت الأسود الداكن، وشديد الارتفاع لدرجة أن أي شخص سيشغله خلال حدث ما سيضطر للبقاء واقفًا. وبما أن المكتب هو أكثر ما لفت انتباهها، فقد تقدمت نحوه. وعندما أصبحت بيبي على بعض خطوات قليلة منه، نهض تشاب كوي على قدميه من خلفه، وكان يحمل مسدسًا صاعقًا.

كانت قد بحثت عن المسدسات الصاعقة من أجل روايتها. كان هناك مسدس من نوعية اضرب وانقر لا يزيد مداه على ذراع المرء، وكان هناك النوع الذي أطلق كرتين صغيرتين تسحبان سلكين بطول أربعة أمتار ونصف. كان كوي مسلحًا بالأخير. قال «اللعنة يا امرأة، أنا لا أنتمي إلى هنا». مدفوعًا بغاز النيتروجين، أصدر السلك حفيفًا وهو في طريقه نحو بيبي واخترقت الكرتان قميصها. سرت الصاعقة في أنحاء جهازها العصبي وعطلت قدرته على إصدار إشارات إلى الخلايا العصبية المختلفة، وبدون أي سيطرة على أطرافها، سقطت على أرضية الكوارتز البيضاء، وتمتمت بلعنة عجز لسانها عن إكمالها.

-120-

الطريق الصعب

لم تتمكن بيبي من التركيز بشكل كامل على تشاب كوي؛ إذ كانت تهيم في عالم ألمها الخاص وارتباك الجهاز العصبي، وكأنها خنفساء كُسرت صدفتها لكنها تنكر ذلك. بيد أنها أدركت سبب وجوده هنا، وكانت تفهمه بما يكفي لتعلم أنه يدور حول المكتب متجهًا نحوها، وهو لم يفرغ من المسدس الصاعق، فتخلص من العيار المستخدم، ولقّم آخر مكانه. كانت قد عرفته منذ مدة قصيرة فقط، لكنها كانت على علم بقدراته الإجرامية. كانت تعرفه بشكل جيد. وقد تحقق توقعها فجأة مع لمعان شعاع ضوء أزرق خلف عينيها وسريان تيار حاد غريب على طول مساراتها العصبية، مما جعل أسنانها تصطك ويديها تهتزان مثل دمية يحركها شخص سكير.

دار كوي حول المكتب بينما كانت بيبي تتلوى على الأرض، فمال ناحيتها وقال بصوت عالٍ «هل تفهمين أنني لا أنتمي إلى هنا؟ هل تفهمين ما أخبركِ به؟ هل ستتمسكين بعناد بهذا الخيط؛ خيط تشاب كوي؟ هل الطريق الصعب هو السبيل الذي يمكنكِ عبره إدراك الحقيقة؟»

كانت عيناها ممتلئة بالدموع من شدة الألم. وقد تلألأ الكوارتز الأبيض أمامها وكأنه يذوب، أو وكأنه كان يتكوّن من ضباب متكثف ومتحجر وعلى وشك أن يعود إلى بخار. وبخلاف حذاء كوي وهو يدور حولها، كان الشيء الداكن الوحيد في مجال رؤيتها على بعد حوالي مترين هو سلاحها.

إذا استطاعت الوصول إلى المسدس، يمكنها استخدامه. إذ كان باكس قد علّمها كيفية استخدامه، وكانت جاهزة لاستخدامه الآن. ما عاد هناك مجال

للتردد. يتعين عليها أن تستخدمه بحق لا أن تهدد به فقط. ولا أن تستخدمه كعصا ضرب. لا بد أن تجذب الزناد، وأن تفرغ مشط المسدس، وتقضي على الوغد.

«إذن، أنا محقق شرطة متقاعد يستمتع بمهنة ثانية كمدير الأمن في إحدى المستشفيات. هذا منطقي. ويجعلني أكثر براعة وخطورة من حارس الأمن العادي. لستُ سيئًا ولا نابغة، لكنني معقول».

استمر في الدوران حولها بينما هي تعاني في الزحف على غير هدى وهي ترتعد، لتقطع بوصة تلو الأخرى عبر الأرضية اللامعة مثل بحر متجمد أسفل مصابيح السقف المستديرة. كانت الأرضية تبدو أحيانًا وكأنها تميل بشدة مما جعلها تخشى من الانزلاق سريعًا إلى أن تسقط من حافة ما، إلى داخل مجرى مائي أملس سيدور بها - مع أنها تعاني من الدوار بالفعل - ويسقطها في غياهب كهوف ثلجية.

قال كوي «منذ البداية، تمثلت مهمتي في ترسيخ جو من التآمر والفزع يزداد تعقيده مع تعاقب الأحداث. ولكن كان هذا هو كل ما طُلب مني فعله. عدا أن أقوم بتشتيتكِ بطبيعة الحال، وأن أظهر عندما يقودك تفكيرك نحو الشيء الذي تجدينه مستبعدًا».

استقر المسدس على مسافة سنتيمترات منها، وقد تجمد على الأرضية الجليدية المائلة مما جعله يقاوم الجاذبية التي كانت ستجذبه بعيدًا عنها. مدت يدها اليمنى إليه، بعد أن بدأت تستعيد السيطرة عليها مجددًا.

كان كوي قد لقّم مقذوفًا ثالثًا في المسدس الصاعق، وأطلقه على ظهرها. اخترقت الكرتان - اللتان يمكنهما اختراق ثياب بسُمك بوصة - سترتها وقميصها بكل سهولة، فبدتا مثل أنياب أفعى تحقن تيارًا مشابهًا للتيار الذي يسري في جسم الإنسان. كان خبراء التكنولوجيا يطلقون على ذلك العجز العضلي العصبي، وهو مصطلح علمي رسمي للعجز البدني الكامل، حيث يعجز الدماغ المرتبك عن تحديد الفرق بين إشارات الجسد الطبيعية وعاصفة

التيار الكهربي الثابت الذي لا يُعرف سببه، لكن الأثر كان أكثر شدة مما يشي به المصطلح. ومع كل صاعقة، كانت بيبي تُقذف في نهر بارد من الأحاسيس في نفس الوقت الذي سُلبت منها أي قدرة على التحكم في رد فعلها على الصاعقة، فتساءلت عما إذا كانت ستبول على نفسها مع المقذوف الرابع أو الخامس وتسقط عنها آخر ورقة للكبرياء.

ركل كوي المسدس بعيدًا عن أصابع بيبي المتشنجة. فخرج السلاح من مجال رؤيتها المشوش.

«هل تصغين إلي يا امرأة؟» سألها كوي وهو يصيح فيها وكأنه كان نسخة مصغرة عن إله العناصر، ويتكلم بلغة الرعد، بينما كانت هي تائبة متذللة. وأضاف «تمعني في اسمي. تشاب اسم أخرق مثل بيبي، ألا تظنين ذلك؟ أجل بالطبع، أنا أُستخدم لتشتيتكِ، ولكن جزء مني – مثلما هناك جزء منكِ – يريدكِ أن تكتشفي الحقيقة، وأن تتحرري عبرها».

كان هناك مذاق معدني في فم بيبي، ولم يكن طعم النحاس المألوف للدم – فلم تكن قد عضت لسانها – ولكنه كان أشبه مثلل مذاق لعقق حديد صدئ، وارتفعت كتلة مرّة في حلقها، التي إما كانت تقيؤًا أو شعورًا بالأسى. وقد تيبس جلدها حتى مع أن عظامها بدا أنها قد تحولت إلى هلام يهتز على أحد الأطباق.

«أنا مقيد – لقد قيدتيني – بوسائل غير مباشرة لكسر عزيمة بيبي العنيدة، والوصول إلى بيبي الأخرى التي تريد أن تتذكر الحقيقة كاملة. لذا أنا أحاول أن أجعلك تفهمين حقيقتي بقول كلام لا ينسجم مع طبيعتي. هل تصغين إلي يا غيدجيت؟».

ظنت أنها قالت أجل.

«ماذا قلتِ؟»

«أجل»

«أجل ماذا؟»

«أسمعك، أجل». سمعت المقاطع الخافتة تخرج من بين شفتيها وتنتشر عبر الأرضية الكوارتز. «أجل».

فقال «لقد حاولت أن تفهمين بقول كلام لا ينسجم مع طبيعتي. أنا تشاب كوي، المحقق الجنائي السابق، لا يُعرف عني اهتمامي الشديد بكلاسيكيات الأدب الأميركي. جاك لندن وثورنتون ويلدر وفلانيري أوكونر، يصادف أن جميعهم من المقدسين لديكِ. هل تصغين إلي يا غيدجيت؟»

قالت هامسة «أجل».

«الإصغاء ليس مثل الاستماع» قال، ثم بوحشية إله بلا رحمة مسلح بالتكنولوجيا الحديثة، هاجمها بمقذوف رابع من المسدس الصاعق.

لم يُغش عليها أو تبول على نفسها حتى. لكنها لم تشعر برغبة في البحث عن المسدس الضائع أو فعل أي شيء عدا التمدد هناك على أرضية الكوارتز اللامعة، التي تذوب مثل قالب الزبدة.

ظل صوتها قويًا، لكنه بات أنعم عن ذي قبل. قال «حاولت أن أحذركِ مني. لقد أفسدتيني وأفسدت نفسكِ بحيلة الذاكرة».

كانت تنظر إلى حذائه الذي يبعد عن وجهها بوصات قليلة. كان الحذاء بلا كعب من طراز غوتشي، وهو ما يعتبر باهظًا وعقيمًا للغاية بالنسبة إلى شخص مثله.

دار عدة مرات حولها بدون أن ينطق كلمة واحدة.

كانت جواربه مناسبة، فلم تكن من علامة تجارية فاخرة مع زخارف متواضعة. وكانت سوداء بالكامل، ومصنوعة من مزيج من الأنسجة اليدوية مع القليل من القطن. وعلى أي حال، كانت جوارب ملائمة لشرطي، ولعله قد اشتراها من وول مارت.

قال «هل حقًا تفضلين الموت على معرفة حقيقتك»؟

«كلا»

«ماذا قلتِ؟»

«كلا، لا أرغب في الموت»

«قوليها وكأنكِ تعنين ذلك»

«لا...أرغب...في...الموت»

بعد مدة من الصمت – وبشفقة يصاحبها قليل من الإزدراء – قال «أثبتي ذلك إذن بالتعامل معي».

كانت متمددة على وجهها ورأسها متجه يمينًا. فضغط الجانب الأيسر المجروح من وجهها على الأرض الحجرية. وبدأت أذنها الدامية تحرقها وتنبض مجددًا تبدد الأثر الفوضوي للمقذوف الأخير وعادت الإشارات تسري في جهازها العصبي.

قال كوي «إثبات قدرتكِ أمام نفسكِ لا يعني أنك ستنجين. فقد ينتهي بك المطاف ميتة بسهولة، أو مصابة بالجنون. لكن التعامل معي خطوة أولى. تعاملي معي».

بينما كانت تتمدد في قاعة استقبال في بناية يتشكل فيها عالم جديد من الجنون الفاشي، فكرت فيما يتعين عليها فعله، وعدلته وراجعته.

أتى من ورائها صوت حفيف وبضع نقرات خفيفة. وكأن ألبسة طويلة انزلقت عن قضيب، بيد أن الغرفة خلت من أي ملابس.

انتظرت حتى تصغي، فلم تسمع المزيد.

عندما جلست بيبي بعد جهد مضنٍ وأدارت رأسها، رأت ملابس ونعال تشاب كوي الملقاة، كومة من الأقمشة المبعثرة يظهر من بين ثناياها حزام كتف ومسدس صاعق ومسدس عادي. وعلى ما يبدو، فقد خلع ملابسه وتخلص من أسلحته وغادر عاريًا، مع أنها لم تسمع صوت باب يُفتح أو يُغلق.

قبل حين في النُزل، عندما كانت تدرس اقتباسات لندن وأوكونر وويلدر، بدأت تدرك ليس فقط أن تشاب كوي نطق بما يخالف شخصيته، ولكن أيضًا أنه كان شخصية من بنات أفكارها. كان رحلة البحث عن آشلي بيل ستنهار هناك إذا لم تُقدم على اقتطاع الكلمات من الكتب وحرقتها في حوض

المرحاض، مستخدمة حيلة الذاكرة للحفاظ على هذا العالم، الذي كان قد نضج بشدة الآن وسيذوب بسهولة.

بالنسبة إلى شخص يراقب الوضع، فربما بدت منهزمة مع زحفها على يديها وركبتيها نحو المكتب المرتفع المصنوع من الجراني الأسود وجلست على الأرض وظهرها يستند على واجهته المزينة. كانت قد فقدت قبعة البيسبول، وتدلى شعرها بشكل فوضوي. إذا كان وجهها المصاب شاحبًا مثل يديها - التي كان لونها أشبه بالرماد - فلا بد أنها قد بدت فجأة ضعيفة ومستسلمة.

بيد أنها لم تكن ضعيفة، واستسلمت إلى الحد الذي يجعلها تجهل الغابات الغامضة التي تنتظرها أو ما القوى - المرتبطة بالغابات - التي ستكتشفها عما قريب. لم تكن قد انهزمت، لكنها كانت أسيرة الفزع.

-121-

القائد يبدي ندمه

وقـف كل مـن باكـس وبوغـو مع والديّ بيبي، وقـد تحلقوا جميعًا حول الفـراش وهـم يشـاهدونها وهي ترتعش وتنتفض أسـفل أغطيـة الفراش، وقد بدت يداها المكشوفتان - المشلولتان والمرتجفتان - وكأنها تنقر على شيء بعنف بأطراف أصابعها، كما لو كانت هناك تيارات شـديدة القوة تسـري في الغرفة وهي الوحيدة التي تشعر بها.

اسـتحث المشـهد المفزع دموع نانسـي، لكن ميرفي حجب زر اسـتدعاء الممرضـة عنهـا. وعلـى الرغـم مـن أنـه ليس أقـل حزنًا من زوجتـه، فقد ظل متمسـكًا بحدس الأب، ومقتنعًا أن ابنته ليسـت في خطر في اللحظة الراهنة، لكنهـا بعقلهـا وروحهـا تحتل مكانًا غامضًا أكثر واقعية من الأحلام وآمن من متاهات الغيبوبة.

انحسـرت الحـركات الغريبـة والهـزات، ثـم مـا لبثت أن اختفـت تمامًا. تمددت في هدوء وسلام. أما جهاز رسم القلب - الذي كان قد سجل زيادة حادة في معدل نبضات قلبها - فقد بات يسـجل الآن انخفاضًا حادًا مماثلاً. وخـلال هـذه النوبـة، ظلـت موجـات الدمـاغ الخمـس تعمل بأقصـى طاقتها وبأنماط مثالية.

بعد أن استمعا إلى محتوى التسجيل، كان لدى باكس وبوغو سببًا إضافيًا عن ميرفي للاعتقاد أن أمله منطقي. كما كان لديهما سبب وجيه للخشية من أن هنـاك تهديـدًا قاتـلاً لبيبـي نبع مـن داخلها، وعلى الأرجـح لم يواجهه أي إنسان من قبل.

تذكرا نقاط يومهما البارزة. الصندوق المقفل ومحتوياته بخلاف الشريط، بما في ذلك طوق الكلب الذي يحمل اسم جاسبر. والزيارة إلى الدكتورة سانت كرويكس؛ السبب الذي أجبر بيبي على ترك برنامج الكتابة. ومفكرة الفهد والغزال، والأسطر التي خطتها بيبي التي ظهرت أمام أعينهما. والزيارة إلى توبا رنجلباوم. وهوية آشلي بيل: شخصية خيالية مقتبسة من شخصية حقيقية لأخصائية أورام نجت من معسكر داتشو.

صُعق كل من نانسي وميرفي من تلك الاكتشافات وشعروا بحيرة شديدة، فامتلأ عقلهما بالأسئلة وكانا تواقين للإجابات.

قال بوغو «ليست لدينا كافة الإجابات، ولكن ما ورد في الشريط شيء لا يُصدقه عقل. إن بيبز ليست كما اعتقدنا، بل إنها تخفي الكثير».

قبل تشغيل الشريط لهما، أراد باكس أن يعرف عن القائد، غانثر أولاف إريكسون. كانت نانسي قد قاطعته معظم حياتها وعثرت على وسيلة كي يدخل قلبها مجددًا بعد أن أصبح مهمًا للغاية بالنسبة إلى بيبي. فما الذي حدث بين نانسي ووالدها قبل زمن طويل؟

من القليل الذي قاله باكس عند وصوله إلى الغرفة رقم 456، كانت نانسي تدرك أن الشريط يحتوي على سر خطير قد يغير إلى الأبد فهمها لكل من أبيها وابنتها. وبينما كانت تجاهد كي تلخص شطرًا كبيرًا من ماضيها في غضون لحظات، أمسكت بسرعة بإحدى يدي بيبي المرتخيتين. كانت نظراتها تثبت أحيانًا على الأرض، وأحيانًا أخرى على المساء الذي يغمر النافذة، وأحيانًا على وجه بيبي، لكنها نظرت باستمرار إلى المسجل الصغير، الذي أبقاه باكس في يده وكأنه كان قيمًا للغاية على أن يضعه خشية أن يسقط أرضًا ويتحطم.

قالت نانسي إن غانثر كان رجلاً صالحًا. وأراد فعل الصواب. لكن المشكلة تكمن في أولوياته. ربما كان رجلاً ما كان يجدر به الزواج أو – أما وقد تزوج – أن ينجب أطفالاً، ومع ذلك كانت لديه ابنتان هما نانسي وإديث. وكان مقاتلاً حتى النجاح، ولأسباب وجيهة – حب الوطن والعائلة – التحق

بمهمة وطنية تلو الأخرى، فلم يجعل عمله ضمن صفوف مشاة البحرية مهنته الوحيدة فقط، ولكن أيضًا حياة ممتلئة بالأحداث جعلت حياته الشخصية كزوج وأب تبدو باهتة، فأصبحت مثل حلقات برنامج تلفزيوني تافه شاهده من حين إلى آخر عندما تسمح له ظروف الحرب العادية والباردة بذلك. لقد أحب زوجته وابنتيه، لكنه افتقر إلى لغة المشاعر التي يمكن عبرها التعبير عن الحب بالشكل اللائق. كان طليقًا في لغة الشرف والنزاهة والتضحية، وقادرًا على فهم الرجال الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل وطنهم، والذين هم على استعداد للموت لحماية رفيق في السلاح. لكنه عجز عن التواصل بنفس السهولة مع زوجة أحبت الأمور الصغيرة في الحياة، والتفاصيل الهادئة التي يقال إنه بمقدور المرء عبرها فهم معنى الوجود. كما عجز عن التواصل مع الفتاتين اللتين كانت طباعهما مثل أمهما. على أي حال، في صباهما، كانتا لا تدركان الطبيعة الخطرة للعالم أو التضحية اللازمة لإبقاء أميركا في أمان، ولحمايتهم من الأهوال والحرمان الذي يعاني منه الملايين في بلدان شتى وتحملوه كجزء مسلّم به من طبيعة الوجود.

عندما لقيت والدة نانسي حتفها في حادث ما، كان غانثر غائبًا في الحرب ولم يعُد إلى الوطن وقت الجنازة. وإذا كان يدرك ما احتاجت إليه الفتاتان اللتان يقتلهما الحزن منه، فقد كان يجهل كيف يمنحه. بدا مهتزًا إن لم يكن محطمًا من مصابه، لكنه كان حائرًا أيضًا، وكأنه قد ظن أن خطر الموت ينبع فقط من العنف الذي قد يمارسه العدو على أرض الوطن، وأنه بالنسبة إليه تعتبر تهديدات مثل حوادث السيارات وحرائق المنازل والسرطان شيئًا ثانويًا، يقع على الأرجح كنتيجة لهجوم العدو. وكان يؤمن بصدق أن لمسة الأنثى مطلوبة لتربية فتاتين، وبما أنه لم ينوي الزواج ثانية – «لا أحد يمكنه تعويض أمكِ» – كانت المرأة التي فكر فيها هي شقيقة زوجته، التي رحبت بلا شك باستضافة نانسي وإديث في منزلها.

قالت نانسي «لم أشعر قط أنني أعرفه حقًا حتى أتى للعيش في الشقة

الكائنة أعلى المرآب. وعن طريقة تعامله عن بيبي...حسنًا، لقد اكتشف الجانب الأبوي في داخله، بعدما لم تعد الحرب تناديه». عاد انتباهها مجددًا نحو المسجل الذي يحمله باكس في يده. وأضافت «قلت إنه قد ترك هذا الشريط لبيبي. هل أنت متأكد من أنه لا بأس من أن نستمع إليه؟»

فقال باكس «الأمر ليس لا بأس به فقط، بل إنه جوهري».

وافقه بوغو الرأي قائلاً «ولكن إذا دلفت ممرضة أو أي شخص إلى الغرفة، سنوقفه. الأمر خطير وصعب ومفزع للغاية على أن نسمح لأحد سوى أربعتنا بمعرفته».

فقال باكس «إذا عرف أحد سوانا بالأمر، فهذا ليس قرارنا. إنه قرار بيبي».

وضع المسجل على الفراش واقترب كل من نانسي وميرفي، ثم ضغط زر التشغيل. ومن السماعة الصغيرة صدر صوت ضعيف ولكن مدهش للقائد.

«فتاتي الجميلة والعزيزة بيبي، هذا اعتذار مني إذا ما ظهرت حاجة إليه. لقد مرت علي بضع سنوات الآن وأنا أفكر فيما فعلته، وأنا أقل يقينًا عما كنت في السابق بشأن كونه التصرف الصائب. أحيانًا يقتلني الندم. وأنا أتحدث هنا بشأن الحدث المفزع الذي ساعدتكِ على نسيانه، ولكن أيضًا بشأن حيلة الذاكرة نفسها، التي ربما تكونين قد نسيتيها ليس بسبب أنكِ أجبرتِ على نسيانها أيضًا، ولكن لأن الأطفال بطبيعتهم ينسون الكثير جدًا من سنوات طفولتهم...»

-122-

بيبي على الحافة

على الرغم من سطوعها بالضوء، فقد قمعت قاعة الاستقبال الكهفية ذات الأجواء الفاشية الغامضة بيبي مما جعلها تتذكر مقطعًا موسيقيًا من فيلم ديزني «ليلة على جبل أجرد» من ألحان موسورسكي. وبعد أن تعافت من مقذوفات المسدس الصاعق، جلست على الأرض وظهرها يستند على مكتب الجرانيت الأسود، وهي تتساءل عما إذا كانت الأقزام - عند انطفاء المصابيح - ستتراقص في الظلام وستنهض الغيلان من عالم يقع أسفل أرضية الكوارتز لالتهام الحضور غير المرغوب فيه.

كانت مفرطة في الحذر، ومتوجسة من الأخطار المجهولة من كونها بيبي بلير. وكانت قد محت تشاب كوي من الوجود. وقد بقيت ملابسه وأدواته الأخرى ملقاة وراءه، لكنها كانت قد اختفت عندما نظرت بإمعان نحوها، وكأن بإمكان عينيها محو الأشياء من الوجود. اعتقدت أنها تفقد صوابها، فما بدا أنه قد حدث يستحيل أن يحدث. فمن غير الممكن أن تزيل شخصًا بتخيل رحيله. ومنذ أن غادرت المستشفى قبل يومين، ومنذ أن سمحت لكاليدا باترفلاي بالسعي خلف المعرفة الخفية نيابة عنها، كانت بيبي مدركة للقوى الخارقة التي تعمل في العالم. ولكن ربما لم تكن خارقة على الإطلاق. أفلا يمكن بسهولة أن تكون من بنات أفكار عقل مضطرب؟ إذا لم يكن تشاب كوي حقيقيًا بما يكفي حتى يختفي بمجرد التمني، أوليس من الممكن أيضًا أن يكون كل من كاليدا وهوفلاين-فورشاك ورسّام الوشوم وموظفة النُزل والمتنمرون المجهولون وروبرت وارين فوكنر - المعروف بتيريزن - كانوا

بالمثل ليسوا سوى أشباح أنتجها اضطراب في المعدة، بسبب وجبة لحم غير مهضومة، أو قطعة جبن...؟ بكل تأكيد يمكنها محوهم بتخيل رحيلهم إذا كانت هي من أوجدتهم في المقام الأول. ليس بالضرورة أن يكون الاضطراب واضحًا لمن يعاني منه.

عدا...

عدا أن معاناتها للتشبث بالحرية والحياة خلال اليومين الماضيين، ومغامرتها الشاقة، وبحثها عن آشلي بيل كان حقيقيًا بما يكفي، وواقعيًا بشكل لا يطاق، ويمكن إدراكه عبر آلام العظام والمفاصل التي لا تنتهي. وعبر شدة الألم في أذنها المقطوعة وشبه المحطمة، وعبر الألم الذي يظهر ثم يختفي في فكّها، والتشنج الذي ازداد حدة كلما صكت أسنانها أو لمست وجهها الجريح. إذا لم يكن باستطاعتها محو الألم، فإن الأشخاص الذين تسببوا لها في تلك الآلام - والشخص الذي يخدمونه، قائد الطائفة الذي قتل أمه - لا بد أنهم حقيقيون أيضًا، أليس كذلك؟

إذا كان روبرت وارين فوكنر من بنات أفكارها، فكذلك هو تيريزن وشركته. وإذا لم يكن هناك وجود لشركة كهذه، فإن البناية التي تجلس فيها غير موجودة هي الأخرى عدا في مخيلتها المريضة. وبالتمعن في فدان أرضية الكوارتز البيضاء، حاولت محو المكان من الوجود، وجاهدت كي تستعيد ذكرى وقائع سالفة وحتى اللحظة التي ركنت فيها الهوندا في طريق سونوماير، وقبل أن تدخل إلى البناية وتواجه ماريسا هوفلاين-فورشاك. بيد أن قاعة الاستقبال والبناية التي تحتويها لم تختفي من الوجود.

كانت بيبي غير متيقنة مما إذا كان الوجود الدائم للبناية يؤكد أنها حقيقية أو إذا كانت - عبر إصرارها العنيد على واقعية شركة تيريزن - تقاوم محو المكان من الحكاية. وفيما يخص قواعد أوهامها، فإن العقل المضطرب لا يكون متماسكًا على الأرجح.

إلى جانب حيرتها واختبارها لقوتها العقلية، سمعت صوت القائد. تردد

الصوت في قاعة الاستقبال وكأنه يصدر عن نظام صوتي محيطي، ولكن لا بد أنه يتردد في رأسها، سواءً كانت تتذكره أم تتخيله.

«"فتاتي الجميلة والعزيزة بيبي، هذا اعتذار مني إذا ما ظهرت حاجة إليه. لقد مرّت علي بضع سنوات...»

لـم تقـوَ علـى الاسـتماع إلـى هذا. لقد مات القائد منذ مـا يزيد على اثنتا عشر عامًا. وفي الشهور التي تلت ذلك، تمنت عودته. أرادت بيأس أن يحيا ثانية. وقد كانت على خطأ في مرادها هذا. وإذا كانت تستدعيه بلا وعي منها، فإن عودته لن تزيد صوابًا الآن عما كانت عليه حينئذٍ.

«...أتحدث هنا بشأن الحدث المفزع الذي ساعدتكِ على نسيانه، ولكن أيضًا...»

أبت الاستماع. فإذا ما استمعت، سترغب مجددًا في عودته، ولا يمكنها ذلـك، ولا حتـى تجـرؤ علـى ذلـك. ألم تعرف السـبب قبل زمـن طويل؟ ألم تعرف؟

كابدت العناء حتى تنهض على قدميها، ومالت للحظات علىى المكتب. بعد ذلك، شـرعت في المشـي عبر القاعة نحو جسـم أسـود بعيد لا يمكن أن يكون سوى سلاحها.

بـدا أن القائـد يعتقـد أنهـا ربما نسـيت بشـأن حيلة الذاكـرة. فبدأ يخبرها كيف تتم.

وصلت إلى السلاح والتقطته ودارت حول نفسها لتتفقد الغرفة الفسيحة، وهي تتساءل عما يتوجب فعله الآن. من سيلاحقها تاليًا؟

اسـتمر القائـد فـي الـكلام. وكان بوسـعها رؤية وجهه بوضـوح في عين عقلهـا، وكـذا ابتسـامته. كـم كانت سـتصبح الأحوال أفضل لـو كان القائد ما يزال حيًا. كلا.

في الغرفة 456، كانت تظهر خمس موجات مثالية على جهاز قياس كهربية الدماغ. كانت بيبي تسير على لوح التزلج في مكان ما. وكان ثمة أربعة شهود

عيان يتحلقون حول الفراش. الفتاة ليست نائمة ولا هي بمستيقظة، وبالرغم عن هاتين الحالتين، فهي تتمدد على الفراش، وتتواجد في نفس الوقت في عالم آخر مجهول.

من جهاز التسجيل، تحدث القائد بادئ الأمر عن حيلة الذاكرة، لكنه لم يذكر السبب الذي دعاه إلى استخدامها. عبس وجه نانسي ربما من الأسى الذي طغى على أيامها عندما – في صباها – شعرت بالتجاهل من قبله. قالت «ما الذي يقوله...أنه أخضعها إلى عملية غسيل دماغ؟»

فقال باكس «ربما يكون قد أخطأ في ذلك، لكن كان لديه سبب بدا وجيهًا بالنسبة إليه. استمعي».

كان يعرف أن الكشف التالي سيصدم كلاً من نانسي وميرفي، لكن الصدمة الأكبر ستحدث عندما يكشف القائد عما ساعد الفتاة على نسيانه.

«لقد نجحت حيلة الذاكرة بشدة ليس لأنني تعلمتها غجري أو ساحر يبلغ من العمر مائة عام، أو لأنني أخذتها من مكان سحري ما مثلما أوهمتكِ. لقد نجحت لأنها طُورت من قبل العديد من الأذكياء في مجتمع الاستخبارات، لتكون بمنزلة دفاع ضد وسائل الاستجواب الخاصة بالعدو. وبمجرد أن تنامي مغناطيسيًا وحُملت على الاعتقاد أن حيلة الذاكرة قد نجحت، فستظل كذلك لبقية حياتكِ، متى ما احتجتِ لمحو شيء ما من ذاكرتكِ».

شحبت بشرة ميرفي السمراء، وقال «قام بتنويمها مغناطيسيًا؟»

فقال باكس «استمع».

«ما سأقوله تاليًا صعب قليلاً عليّ يا بيبي. إنه يبدو أسوأ من الحقيقة، لكنني على يقين أنه لن يؤذيكِ بأي شكل. أتعلمين يا حلوتي؟ إن التنويم المغناطيسي ناجح للغاية في دعم حيلة الذاكرة لأنه في حد ذاته يجري دعمه عبر دواء يُدخل الشخص الخاضع للتنويم – في هذه الحالة أنتِ – في حالة متقبلة بشدة للإيحاء بالتنويم المغناطيسي. في الليلة التي علمتكِ فيها حيلة الذاكرة، كان والداكِ قد خرجا لحضور حفل ما. وكنا قد تناولنا العشاء في

مطبخهما؛ النقانق بالجبنة الحارة والبطاطس المقلية. وبعد العشاء – وقبل تناول كعك الإسكيمو – علمتكِ حيلة الذاكرة. والدواء الذي ذكرته آنفًا كان في كأس الكوكا كولا الخاص بكِ»

استشاط وجه نانسي غضبًا، لدرجة أن باكس ظن أنها قد تمسك بالمسجل وتقذف به أرضًا. وضع يدًا حوله لحمايته وقال «استمعي فقط».

«...كان والداكِ قد خرجا لحضور حفل ما...»

لم يتوقف الصوت، وعجزت بيبي عن إسكاته لأنه نبع من أعماقها. وكلما أطالت الاستماع، بدا الصوت أدفأ، وتذكرت القائد بوضوح أكبر، وكيف أنه قام بحمايتها. كانت قد شعرت بالأمان من عيش القائد أعلى المرآب وإطلاله على المنزل الصغير في الأسفل، حيث كانت حجرتها تواجه الفناء، وكان القائد في الأعلى يحرسها.

وجدت بيبي نفسها خلف مكتب الجرانيت الأسود بدون أن تدرك حقًا كيف وصلت إلى هنا. كان ثمة كرسيان مرتفعان يتيحان لحارسي أمن أو موظفي استقبال باستخدام المكتب. ولم تكن تشغل أي منهما؛ إذ أنها قد قبعت بشكل ما في فتحة الركبتين. فبدت مثل طفلة تبحث عن ملجأ، أو مكان للاختباء.

قال القائد «لا أدري ما الذي فعلتُه بالضبط. أعني، لا أعرف كيف أن وجود فراغ كبير في ذاكرتكِ سيؤثر عليكِ مع مرور الوقت. لقد أدركت بعد فوات الأوان أنه قد يكون هناك...اضطراب في التطور النفسي للطفل. ولكن عند استخدام حيلة الذاكرة مع شخص بالغ، فهذا أمر مختلف، لأن شخصيتكِ قد اكتمل نموها. ولكن ماذا لو...ليكن الله في عوني، آمل ألا يقع مكروه. على أي حال، لا أدري كيف كنتِ ستعيشين وتحظين بحياة طبيعية مع تلك الذكرى...بل هي أكثر من مجرد ذكرى...بتلك المعرفة بما كان قد حدث، وبما في وسعكِ فعله».

أدركت بيبي أن لحظة معرفتها الحقيقة الكبرى للذكرى المشوشة تقترب،

ألا وهي هوية الدخيل – الشيء – في غرفتها عندما كانت في الخامسة من العمر. حاولت أن تنكفئ على نفسها أكثر في فتحة الركبتين مع سيطرة الهلع عليها؛ هلع مضاعف من حقيقة أن القائد سيكشف السر. إذا كانت مخيلتها خصبة للغاية، فلعلها ستستحضره هو والدخيل إلى هنا الليلة، كي يطوفا قاعة الاستقبال بحثًا عن مكان الاختباء الوحيد فيها. وما الذي يعنيه هذا بحق الله؟ استحضار؟ لم تكن بيبي ساحرة.

«بعد ستة أشهر من مجيئي للعيش في الشقة، وبعد ثمانية أشهر من تجربتكِ المفزعة، وثقتِ بي أخيرًا كي تطلعيني عليها. لقد شعرتِ أنكِ غير قادرة عن إخبار والديكِ، وأنهما لن... حسنًا، لن يتفهما الأمر. وسواءً كان هذا تصرفًا صائبًا أم لا... بدا أن النسيان هو الخيار الأفضل. وها كنتُ هناك مع حيلة لجعل النسيان أمرًا ممكنًا. هل هذا محض صدفة؟ لم أؤمن بها قط. وبإدراكي طبيعتكِ كفتاة، وكيف أنكِ تكبرين بسرعة – أقصد أنك حكيمة للغاية عقلاً وروحًا بالنسبة إلى سنك اليافعة – وأحسب أنكِ في نهاية المطاف لن تؤمني بالمصادفات أيضًا. على أي حال، لقد أخبرتيني بقصتكِ المميزة والمفزعة للغاية، وبغباء شديد – بالشكل الذي يصبح عليه البالغون حمقى عندما يفقدون قدرتهم على التعجب – حاولتُ عبثًا محوها وكأنها مجرد كابوس. لقد أثبتِ هذا لي. لم أشعر بالفزع قط من أي تجربة في الحرب مثلما حدث هناك في مطبخ شقتي. إن الغرض من هذا الشريط – الذي سأخبركِ به عندما أعطيكِ إياه – هو أن يكون بمنزلة... لا أدري، نوعًا من إعادة الأمور إلى نصابها، ونوعًا من العلاج لكِ إذا ما اتضح أنني كنتُ أحمقًا بشدة لتعليمكِ حيلة الذاكرة».

في مخبأها أسفل المكتب، انتحبت بيبي من أجل القائد، لأنه كان قد عانى من الندم والقلق من أنه قد أذاها، في حين أن مجيئه للعيش أعلى المرآب كان نعمة كبرى في الواقع. لم يمحُ تجدد الحزن هذا الخوف بأي شكل. فقد شعرت بالحزن والخوف بنفس المقدار. ومع أنها أخبرت نفسها أن الفتيات

المقدامات لم يختبئن من أي شيء، وأنهن يقفن متحديات أمام الجميع، ويواجهن التهديدات بإقدام، فقد بقيت في فتحة الركبتين المظلمة، وهي تجلس وركبتاها مسحوبتان إلى صدرها، وذراعاها يطوقان ساقيها، وأفلتت آهة قصيرة عندما – من الماضي – أتاها صوت القائد بالاعترافات.

-123-

قبل سبعة عشر عامًا - لحظة في حياتها برفقة الكتب

أحبت بيبي الكتاب مثلما وعدتها والدتها بذلك، وبقدر حب والدتها للكتب أيضًا عندما كانت صغيرة. مغامرة كوكي الكبيرة. كلمات وصور. كانت بيبي قد استخرجت المزيد من الكلمات من الكتب قبلها بعام، وأضحت مؤخرًا قادرة على قراءتها جميعًا بمفردها، بدون مساعدة من والدتها. ولطالما تفاخرت بقدرتها على القراءة عند مستوى يفوق عمرها.

كان كوكي - وهو بسكويتة من الزنجبيل على هيئة رجل، مع عينين من الشوكولاتة وابتسامة من السكر الأبيض - أفضل شخصية في أي كتاب قرأته حتى الآن. كان ظريفًا ولطيفًا وتواقًا لخوض مغامرة. دبت الحياة في كوكي بعد خبزه وتركه ليبرد على صينية الخباز، بيد أن السبب كان مجهولاً؛ إذ لم يذكره المؤلف. ولم يكن كوكي هشًا، ولم ينفرط بسهولة مثلما قد تظنون. كان مرنًا وقويًا وسريعًا. وقد ظل من الزنجبيل طوال القصة، لكن كان به سحر ما، مثل فروستي رجل الثلج.

عندما غادر كوكي المخبز ووجد نفسه في مدينة مزدحمة، كان سعيدًا للغاية بالاستكشاف والاكتشاف والتعلم. وقد مرت عليه لحظات مرعبة، عندما كادت شاحنة أن تدهسه وتحيله إلى فتات، وعندما طارده كلب جائع. ولكن كانت مغامراته في معظمها مثيرة بشكل جيد ورائعة.

بعد مرور أسبوع من منح والدتها الكتاب لها، لا بد أن بيبي كانت قد قرأته ألف مرة، وربما ألفين، لم تكن تعُد. أصبح كوكي نوعًا ما صديقها

المفضل، فلم تكن تكوّن صداقات بسهولة في سنها تلك. كان الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة مملين. وقد اعتقدت الخالة إديث وبعض الأقارب أن بيبي مختلفة. كانت قد سمعتهم وهم يخبرون والدتها بذلك. ولم تفهم ما الذي قصدوه - كيف كانت مختلفة - ولم تكترث بذلك حقًا. وعندما كان يسألها أحدهم، كانت بيبي تقول إن أولئك الأقارب نفسهم يبدون غريبين بالنسبة إليها، ولم تكن قادرة على تفسير سبب كونهم غريبين أكثر من مقدرتهم على تفسير سبب كونها مختلفة. بعد ذلك، دخل كوكي الرائع في حياتها، وكان مختلفًا هو الآخر، مع قلب شجاع وروح جريئة، بنفس القدر الذي تمنت أن تكون عليه بيبي. كوكي وبيبي، أفضل أصدقاء إلى الأبد.

أثناء قراءتها للكتاب، كانت بيبي أحيانًا تبتكر قصصًا من عندها عن كوكي، ومغامراته المستمرة. لم تكن تجيد الرسم، ولم تحاول أن تجسد أعماله البطولية. ولكن كان بوسعها رؤيتها بوضوح في عقلها بالألوان وحية للغاية، وكأنها أحلام يقظة.

في هذه الأمسية - بعد أن وُضعت في الفراش وتلقت أمنيات بأحلام سعيدة - جلست بيبي مجددًا لقراءة مغامرة كوكي الكبرى عدة مرات تحت الضوء الخافت للمصباح المجاور لفراشها، بينما جاءها صوت موسيقى التلفاز المكتوم من غرفة المعيشة. لعل النعاس قد غلبها وهي تضم الكتاب إلى صدرها، لأنها عندما نهضت من تحت كومة الوسائد التي انزلقت تحتها، كان السكون يعم أرجاء المنزل؛ إذ كان والداها قد خلدا إلى النوم.

جلست لبعض الوقت في صورة كوكي المفضلة لديها وتتحدث إليه وكأنه كان صديقها في الواقع وقادر على الاستماع إليها بعناية. أخبرته بأنها تتمنى أن تدب فيه الحياة من أجلها، مثلما دبت فيه الحياة في القصة الرائعة، وقد تمنت وأرادت واحتاجت إلى ذلك حقًا. كان بوسعها رؤيته بوضوح هو ينهض من صفحة الكتاب مثلما نهض من صينية الخباز قبل أن يخرج إلى المدينة.

عندما بدأت الحادثة، كان الأمر مثل أحد عروض ديزني، لكن ذلك لم يدُم طويلاً. لم يخرج كوكي فجأة من الكتاب ويقف أمامها وذراعاه مفرودان قائلاً «مرحى!»، وهو يلمع بالسكر أو الغبار الخيالي. ولم يتحدث إليها بصوت الرسوم المتحركة. كلا، في البداية أدار رأسه قليلاً في الصورة، كما لو كان يقيّم بيبي عن قرب. لم تكن حتى متيقنة من حدوث هذا، حركة إدارة الرأس تلك. بعد ذلك، غمز كوكي بعينه، فاتسعت عينا بيبي. تحولت ابتسامة كوكي إلى ضحكة جانبية ماكرة، أطلقت بيبي صيحة اندهاش قائلة «آه!» وسرعان ما سحبتها مجددًا. لم يكن هذا كتابًا تفاعليًا، ولم تكن الصور ثلاثية الأبعاد تتغير حسب الزاوية التي يُنظر إليها منها. تحول كوكي فجأة إلى شخصية ثلاثية الأبعاد، بينما ظلت بقية الصورة كما هي، وبدأ يحاول استخراج نفسه من الصورة ثنائية الأبعاد، وحينها لم يعد الأمر يشبه عروض ديزني مجددًا.

قذفت بيبي الكتاب عن الفراش إلى الأرض، حيث نزل على وجهه وبدا مثل الخيمة، وكانت صفحاته المبعثرة تهتز بينما كافح الرجل المصنوع من الزنجبيل للانفصال عنها. جثت على المرتبة حتى تشاهد وهي تتعجب مع قليل من الخوف، ومبتهجة بتحفظ ولكن قلقة نوعًا ما، ومذهولة من منظر الكتاب حين بدأ يتقافز هنا وهناك عبر أرضية الغرفة، وكأنه كان صدفة حشرة غريبة ضخمة.

كان كوكي ودودًا وظريفًا وما كان ليؤذي حتى الكلب الجائع الذي أراد أن يلتهمه. ولم يقع مكروه قط للأطفال في الكتب التي تقرأها بيبي؛ بل كان هؤلاء الأطفال يخرجون في مغامرات رائعة مع حيوانات ناطقة، مثل الجان والجنيات، والدمى المفضلة التي تدب فيها الحياة ومخلوقات غبية من عوالم أخرى، لكنهم لم يتعرضوا إلى أي أذى. وعندما انتهى كوكي من الخروج من الكتاب، بدا مثل الدب ويني، وستكون هي مثل كريستوفر روبن، وسيصبحان أفضل صديقين إلى الأبد. كان هذا هو الأرجح، ولكن...كان هناك شيء في ابتسامته الجانبية الماكرة أثار قلق بيبي. كان قد غمز لها بعين لامعة من

الشوكولاتة، وكان لا بأس في ذلك. بدت الغمزة ودودة، وكأنه كان يشاركها مزحة صغيرة. لكن هذه الابتسامة جعلتها تعتقد أنهما لن يكونا أفضل صديقين إلى الأبد.

سقط الكتاب وانفتح على الأرض. ونهض رجل الزنجبيل من بين الصفحات، التي لمعت حوله كأجنحة مشتعلة. زحف إلى خارج الكتاب، فبدا داكنًا وغريبًا ولا يشبه كوكي الضاحك. إنه...كلا، بل هذا الشيء. لم يكن مكتملاً، بل كيانًا متضخمًا ومشوهًا، وقد ترنح وهو يحاول الوقوف على قدميه الصغيرتين. ولم يكن نحيفًا مثل حبة البسكويت وإنما أكثر سمكًا بكثير، وكان طوله بين ست وثماني بوصات. كان ينتفض ويرتعش بلا هوادة. وبدا أنه يتعذب، وانفتحت شفتاه البيضاوين عن آخرهما فيما بدا صراخًا مكتومًا، وكان يدير رأسه المشوه من جانب إلى الآخر، ويشد شحمه بيدين تشبها القفازات.

كان بوسع بيبي - من على مسافة مترين ونصف إلى ثلاثة أمتار - رؤية أن هذا الشيء ليس مصنوعًا من الزنجبيل. في الكتاب، كان كوكي معدًا من عجين الزنجبيل، ثم لُف وشُكل وخُبز. كان هذا سخيفًا بطبيعة الحال. وحتى مع حبها للقصة، عرفت بيبي أن هذا الجزء من القصة سخيف تمامًا. ولهذا كانت هناك حاجة إلى السحر، القليل من سحر فروستي رجل الثلج، لجعل كوكي لينًا وقويًا وسريعًا. لم تعرف بيبي طريقًا إلى السحر. وعندما تمنت أن تدب الحياة في كوكي، فكرت فيه - إذا كانت قد فكرت على الإطلاق في هذه الجزئية من ظهوره - كحيوان من الزنجبيل، لكن ما حصلت كان حيوانًا خالصًا. أو لعله كان أقل من الحيوان - عنصري وبدائي - وكأن كتلة نبات متعفن ونسيج حيواني في أحد المستنقعات قد ضربتهما صاعقة من البرق فتحولا إلى شيء أقل من الحياة ذاتها.

بينما كان ما يزال يصرخ في صمت، التقط الشيء الكتاب - الذي كان أكبر منه حجمًا - وقذفه على بيبي. أخطأها الكتاب الطائر لكنه اصطدم بالمصباح المجاور للفراش، فأطفأه وأسقط كمة المصباح المتعرجة.

كانت بيبي لتهرب لو أن ذلك الصغير الذي تمنت وجوده لم يحُل بينها وبين الباب. أتت الإضاءة الوحيدة من مصباح ميكي ماوس الذي ثبته والداها مؤخرًا، والذي كانت تعتبره إلى حد اللحظة مصدرًا للإحراج، وخططت للتخلص منه بطريقة أو بأخرى. كانت طفلة، أجل، بيد أنها لم تكن رضيعة في حاجة مصباح ليلي. فقد تجاوزت سن الرضاعة بكثير. وعندما اختفى الشيء القابع على الأرض من الضوء، واختبأ في الظلام، لم ترغب بيبي في الصراخ طلبًا للنجدة مثل الرُضع. ولعلها كانت ستعجز عن الصراخ حتى إذا أرادت ذلك، لأنه بدا أن قلبها الذي يدق بعنف قد صعد إلى حنجرتها، فبات من الصعب عليها ابتلاعه، وعندما حاولت أن تقول ‎\‎ارحل إلى الشيء الصغير، فلم يصدر عنها سوى همس مرتجف وخافت.

إلى جانب ذلك، حتى إذا ما هرع والديها مسرعين، فربما لا يتمكنان من رؤية الشيء. في القصص، كان الصغار في العادة يتمكنون من رؤية الجن والجنيات وكافة أنواع المخلوقات التي يعجز البالغون عن رؤيتها لأنهم لا يؤمنون بها. وحينها ستبدو كرضيعة ضخمة، ولن يتوقفا عن معاملتها كرضيعة. وقد يقع ما هو أسوأ؛ فقد يُقدم الشيء المفزع الذي خرج من الكتاب على أذيتهما. كان صغير الحجم، وبلا أسنان كما يبدو، لكنه كان قويًا بالنسبة إلى حجمه، بالنظر إلى كيفية قذفه الكتاب. وإذا ما تعرضا للأذى، ستكون بيبي الملامة. سيقولان إنه ليس خطؤها «لا مفرّ مما هو مقدر» لكنها كانت تدرك أن الحقيقة هي أن ذلك حدث بسببها.

بينما كانت جاثية على الفراش، استمعت إلى الكائن وهي يزحف في أنحاء الغرفة. وبالتمعن في طريقة طقطقته وحكه ونقره، قررت أنه أبطأ حتى مما بدا للوهلة الأولى. لم يكن ثمة أي سحر فيه، ولعله كان كفيفًا. وقد بدا عاجزًا عن الصراخ أو الكلام، لذا فمن المحتمل أنه أصم أيضًا أو لا يقوَ على الشم. وإذا كان الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله هو تلمّس طريقه على طول إزار الجدار، فإنه سيعثر عليها بالصدفة، هذا إذا ما أراد العثور عليها أصلاً.

ربمـا لا يمتلـك عقـلاً، وربمـا ليـس بمقدوره الرغبة في أي شـيء، فهو مجرد كتلة خرقاء من الأطراف المرتعشة.

وعلى الرغم من أن قلبها كان يدق بسرعة جنونية وبدا على وشك القفز مـن بيـن أضلعهـا حتى مع صعوده إلى حنجرتها، أخبرت بيبي نفسـها أنها إذا كانت قد تمنت خروج المخلوق من الكتاب، فبوسـعها تمني اختفاؤه بنفس السـهولة. في الواقع، كان هذا ما يتعين عليها فعله. كان القضاء عليه واجبها ومسؤوليتها.

غطست أسفل الأغطية مجددًا، وهي تستند على كومة الوسائد، وفكرت بتمعن في الشيء، وتصورته يزحف عائدًا إلى الكتاب على الأرض، ويختبي بين صفحاته، ويذوب مجددًا في الصورة التي نهض منها. وعلى مدى ساعة تقريبًا، ساد صمت كُسر بين حين وآخر عبر حركات جديدة من قبل المخلوق. كان فمهـا جافًـا وتشـعر بالـدوار من التمعن والتخيل. وعندما صمت الشـيء المخيف لمدة طويلة في نهاية المطاف، ظنت أنها قد نجحت أخيرًا. تمددت دون حراك كالتمثال وهي تسترق السمع. تشجعت مع مرور الثواني والدقائق، بيد أن قلبها بات يدق بشدة أكثر من السابق.

لكـن الصمـت انكسـر مجددًا؛ إذ زحف الشـيء علـى طول جدار مجاور، فاهتـزّ سـلك المصبـاح خلـف الدرج المجـاور للفراش. إذا لـم يكن ذلك عبر الحواس الخمسة المعتادة، يبدو أن الوحش الصغير المخيف يجد طريقه نحوها بحاسـة سادسـة. توقعت أن يصعد إلى أعلى الدرج المجاور للفراش على بعد سنتيمترات قليلة من وجهها. ثم تحرك أسفل الفراش وسكن مرة أخرى.

كانت مخطئة بشـأنه كونه بلا عقل. بوسـعه التفكير، حسـنًا. فكر وتعلم وارغـب واسـعَ. فـي قلـب السـكون الذي يعـم الغرفة، كان الصـوت الوحيد ينبع من داخل بيبي، صوت دقات قلبها العنيف، مما أخضعها بشـكل غريب وأصابهـا بنـوع مـن الشـلل. لكنها كانت بالكاد تسـمع أيضًا المخلوق يتربص بها في الظلام أسفل الفراش.

كان مـن المسـتحيل بالنسـبة إليهـا أن تعـرف حجـم التقـدم الذي أحرزه أسفل الفراش والأغطية بدون الاستماع إليه أو الشعور بحركاته. وعندما لمس قدميها الحافيتين، قذفت البطانية والملاءة العليا جانبًا، ولم يعد صراخها سوى حشرجة في حلقها.

وصـل الأمـر إلـى هذة المرحلـة إذن. المواجهة بيـن المخلوق وصانعه. تحت الضوء الخافت لمصباح ميكي ماوس، مالت بيبي إلى الأمام، وأمسكت بالشـيء بكلتا يديها، وأزاحته عن كاحلها. كان باردًا ولكن ليس لزجًا، ويهتزّ بشكل غير منتظم، وكان ملتويًا ويصعب إمساكه. انفجر قلبها بالخفقان فاهتزّ جسـدها بأسـره، وتسـارعت أنفاسـها المتقطعة، فتمنت أن يختفي بشـدة فكاد الصداع أن يفلق جمجمتها، وسـمعت خفقانًا في أذنيها وكأنه قد حدث تغير فـي ضغـط الهـواء، وانفجـرت الشـعيرات الدموية في أنفهـا، فتدفق خيط من الدماء من فتحة أنفها اليسرى. بيد أن الصديق المفضل المفترض فرّ من بين يديهـا، وتلـوى وقفـز إلـى أعلـى صدرها نحو رأسـها. كانا وجهًـا لوجه حين سيطرت عليه مجددًا، ولم تكن عينا الشوكولاتة رقيقتين أو ودودتين أو حتى مصنوعة من الشـوكولاتة، وإنما حفرتين سـائلتين ملأتهما مادة زيتية سـميكة اعتقـدت بيبـي أنهمـا تحتويان على كل مشـاعر البغض في العالم علىى هيئة حفنتين صغيرتين. وبينما كان فمه مفتوحًا، اقترب الشيء بوجهه المسطح أكثر فأكثر، كما لو كان يسـعى لشـفط أنفاسـها منها. وفي أوج تألمها من الصداع النصفـي، وتشـويش غيمـة مـن الدماء على رؤيتها، أدخلـت بيبي أصابعها في شـحم المخلـوق الليـن ولـم تتمنَ اختفاءه بعد الآن، وإنما أمرت هذا الشـيء البغيض الذي أتت به إلى الوجود بالاختفاء. وللتأكيد على سـلطتها، ألحقت أمرهـا بالبصـق عليـه. فرضـخ، وبعدما كـفّ عن التلوي وانكمـش في يديها، سـمعت صفحات الكتاب وهي تتقلب في مكان ما في الظلام، وعاد الشـيء الغريب إلى عالم كوكي. وعندما باتت يدا بيبي فارغتين، أصدر الكتاب حفيفًا أخيرًا، ثم نزل الصمت على الغرفة.

وعندما استجمعت قواها للاقتراب من المصباح المجاور للفراش، أشعلته. كان الضوء وهاجًا. وقد تمنت أن يحل الصباح على النافذة قبل ساعات من ميعاده المقرر. حينئذٍ فقط، لن يكون هناك الكثير من الضوء. مالت إلى الوراء على الوسائد واللوح الخلفي للفراش، وكانت الدماء تتدفق من إحدى فتحتي أنفها، والدموع من عينيها. اعتقدت أنها ستتقيأ، لكن هذا لم يحدث، كما اعتقدت أن قلبها لن يتوقف عن النبض كالمطرقة، لكنه عاد رويدًا رويدًا إلى نبضه الطبيعي. ظلت لمدة طويلة تجلس في جمود، ليس لأنها عجزت عن التحرك أو الكلام، وإنما لأنها لم ترغب في هذا ولا ذاك، وكانت تتساءل – وتشعر بالقلق – عن الأشياء الجديدة التي يمكن استدعاؤها إلى العالم بإيماءة طائشة أو كلمة خاطئة.

غطت في النوم مع مرور الوقت.

ثم أتى الصباح.

استيقظت واستحمت وتناولت الإفطار.

كانت أكثر هدوءًا من المعتاد، وهو ما لاحظه والداها، لكن عقلها كان يعمل كالمعتاد، فكان يدور ويغزل وينشر بأقصى سرعة، لينسج أفكارًا في صورة خيوط مشدودة وخواطر وتخمينات. كانت حياتها قد تغير بشكل درامي لا رجعة عنه قبل عيد ميلادها السادس، ولم يكن هناك ما يمكن فعله سوى تقبّل ما باتت عليه الآن. وحتى تتوخى الحذر، لم تتمنَ مجددًا قط ظهور شيء غير طبيعي في عالمها. إن القصص شيء جيد جعل الحياة أفضل وأبهج، ولكن لا بد أن تظل القصص بين غلافي الكتاب.

-124-

القائد وطائر القطرس

وقف باكس يراقب الأرقام تتعاقب على عداد الشريط، بينما كان المحوران التوأمان يدوران مع حركة الشريط في دليل البكرات. لم يكن يصغي بإمعان إلى كلمات القائد مثلما فعل كل من ميرفي ونانسي، إذ أنه كان قد سمعها في السيارة برفقة بوغو وما كان لينساها قط. وبينما كان الشريط الممغنط المصنوع من الخلات يدور من بكرة إلى أخرى، مفصحًا عن الماضي، شعر أنه يجذبه نحو المستقبل. تساءل وهو يشعر بقليل من الرهبة عما ستكون عليه السنون المقبلة برفقة بيبي – هذه المرأة الاستثنائية – إذا ما كُتبت لها النجاة وأمضت حياتها معه.

خلال حديث القائد، بدا أن الغرفة 456 ستبرز من البناية التي تقع فيها، مثل فقاعة من نفاخة فقاقيع، وستصبح عالمًا عائمًا قائمًا بذاته، لذا فإن فتح أحدهم باب الغرفة، لن يكون في انتظاره رواق المستشفى، وإنما فراغ لا يطاق. أصبح صوت القائد مذهلاً مثل الدواء الذي دسه في كأس الكوكا كولا الخاص بالصغيرة بيبي. وعلى الرغم من الطبيعة الغريبة للحكاية التي يقصّها، لم يظهر على أي من أربعتهم علامات عدم التصديق، لأنهم باتوا يعرفون الآن من أمثلة أخرى عندما شكلت مخيلة بيبي حياتها إلى الأفضل (جاسبر، الذي أصبح اسمه أولاف فيما بعد) أو الأسوأ (موضوع الكتابة عن الدكتورة سولانج سانت كرويكس). عند لحظة ما، احتاجت نانسي إلي كرسيّ، فجلب لها ميرفي أحد الكرسيين المجاورين للفراش. وطوال الوقت، تمددت الفتاة بلا إدراك بهذا العالم، وهي تعيش في عالم مختلف من صنع

مخيلتها الخصبة.

بعـد أن ذكّـر بيبـي بالحادثـة التـي وقعت في غرفتها، التي سـاعدها على نسـيانها، أعـاد القائـد تذكيرهـا كيف أنهـا قد أخرجت المخلـوق من الكتاب مجـددًا، ولكـن هـذه المـرة في مطبخ شـقته الواقعة أعلى المـرآب، كي تثبت صحـة ادعائهـا. كانـت تلـك التجربة مفزعة لكليهما، مـع أنها كانت أقل فزعًا بكثير بالنسبة إلى بيبي، لأنها كانت قد هزمت الشيء من قبل، وكانت تعرف أن لديها سلطة عليه.

بينما كان يتحدث الآنَ من المسجل كما لو أن صوته آتٍ من قبره، قال القائد «بالنظر إلى أنكِ قد عشتِ مع هذا السر لمدة ثمانية أشهر قبل أن تطلعيني عليـه يـا بيبـي، وبالنظـر إلى أنكِ كنت مطاردة من قبل ما حدث وتخشـين مما قد تستحضرين في المرة القادمة، فما زلتُ أعتقد أن الحل الأفضل كان حيلة الذاكـرة. لا وجـود للمصادفـات. لقـد دخلتُ في حياتـكِ بالمعرفة الضرورية لعلاجكِ وحمايتكِ، وأؤمن أنه كان مقدرًا لي فعل ذلك».

نهضت نانسي عن الكرسيّ، وكأن والدها تواجد في الغرفة حتى تواجهه، وقالـت «دواء وتنويـم مغناطيسـي وغسـيل دمـاغ؟» لكنها بـدت بعد ذلك أنها قد استسـلمت للوضع كما هو وجلسـت ثانية وهي ما تزال تشـعر بوهن في الساقين، بينما واصل القائد كلامه.

«إن لديـكِ مخيلـة قوية، ومتنوعة ومفصلة للغاية...وعميقة. وقد أدركت أنهـا هبـة مـع مـرور الوقت، بـل وهبة غير عاديـة. أعتقد أنكِ ولـدت لتقصّي الحكايات يا بيبي. وإنه لشـيء رائع. لقد قرأت حقائق في كتب أدب الخيال أكثـر ممـا قـرأت في كتب أدب الواقع، وهذا في جانب منه لأن الخيال يمكنه التعامل مع المسـائل الروحية، أما الواقع فنادرًا ما يتطرق إلى هذه المسـائل. القلـب البشـري والـروح، والمجهـول، وغير القابل للاكتشـاف. إن للقصص قدرة على شـفاء القلوب المنفطرة والعقول الفاسـدة. وبكونكِ كاتبة يا بيبي، يمكنكِ أن تصبحي طبيبة للروح. لقد بدأت أقلق من أنني – عبر حيلة الذاكرة

– قد سرقتُ منكِ جزءاً من هبتكِ الثمينة، وحرمتكِ من فرصة التحكم فيها وتشكيلها حسبما تشائين. لذا بدأتُ في جمع اقتباسات من كتّاب مشهورين، وتخص أفكارهم بشأن قيمة التخيل العظيمة. ممارسة غبية؟ رباه، لا آمل ذلك. لقد تحدثنا كثيراً على مر السنوات – مثلما أثق في أنك تتذكرين –بشأن تلك الاقتباسات، وبأسلوبي الغامض، حاولتُ أن أتأكد من أن تطوري هبتكِ، وأن المعرفة المفقودة فيما يتعلق بالمدى الكامل لموهبتكِ، والمعرفة الممحية بحيلة الذاكرة، لن تعيقكِ عن أن تصبحي كل ما يمكنك تحقيقه».

-125-

في عالم من صنعها الخاص

«...وبأسلوبي الغامض، حاولتُ أن أتأكد من أن تطوري هبتكِ، وأن المعرفة المفقودة فيما يتعلق بالمدى الكامل لموهبتكِ، والمعرفة الممحية بحيلة الذاكرة، لن تعيقكِ عن أن تصبحي كل ما يمكنك تحقيقه».

خرجت بيبي من فتحة الركبتين أسفل المكتب. ونهضت واقفة في قاعة الاستقبال، فبدت جسمًا ضئيلاً في قلب الكوارتز الأبيض، وظلت تحدق في الدائرة الحجرية الحمراء وصاعقتي البرق اللتين توسطاها.

على مر السنوات، كان قد أقضّ مضجعها كابوس متكرر لشخصين ملثمين طويلي القامة ويمشيان بتثاقل، وذوي أطراف وهيئات مشوهة، وكانا يحملان جثة ملفوفة في كفن. وأسفل قمر الهلال، حملا الرجل الميت عبر الفناء الممهد بالطوب الواقع خلف المنزل الصغير، بينما كانت تراقبهم هي عبر النافذة وهي في فزع من نواياهما. كانا – بطبيعة الحال – يعيدان جثة القائد إلى الشقة الواقعة أعلى المرآب، حيث كان قد مات.

كم هو غريب العقل، حدثت نفسها الآن. وكم هو غريب كيف يخفي عن نفسه بعضًا من أسوأ قدراته.

في الحلم، بات أحد حاملي الجثة مدركًا بوجودها وأدار رأسه صوب نافذة غرفتها. حينها فقط لمعت الأمسية، وبات بوسعها رؤية وجه الموت للحظات قبل أن يشيحه بعيدًا. وقد أفزعتها تلك النظرة إلى الحد الذي جعلها تعجز ولا ترغب في حمل المنظر معها عندما تستيقظ. لكنها تذكرت الآن: لم يكن الوجه المختبئ أسفل غطاء الرأس جمجمة مكشوفة، ولا حتى وجهًا

متعفنًا يعج بالديدان والخنافس، وإنما وجهها هي، الذي كان شاحبًا وترتسم عليه ابتسامة ملؤها الإصرار. لم يكن الموت المتخفي هو من أخرج القائد من مرقده. بل أرادت بيبي – حفيدته العزيزة ذات العشرة أعوام – بشدة أن تحييه. بينما كانت تحلم، استدعت قوة مخيلتها الخفية بشكل فطري – وهو ما لم تتذكره حين استيقظت – والمعرفة التي كانت قد تخلصت منها.

على الرغم من شكوكه العميقة، كان القائد على حق في استخدام حيلة الذاكرة. وعلى الرغم أيضًا من التجربة المريرة مع رجل الزنجبيل، لم تكن قادرة على مقاومة الرغبة الشديدة في إعادة القائد إلى الحياة. في الواقع، أدركت الآن أنه في الأسابيع التي تلت موته، وبينما كانت تزور شقته، كانت قد أخرجته من مرقده أكثر من مرة عن غير قصد، في هيئة جثة متحركة، وأعادته إلى حيث كان دون أدنى دراية بما كانت تفعله. أما فيما يخص خطوات الأقدام التي سمعتها في غرف أخرى، وآثار الدماء الرطبة التي كانت تقطر من مقبضة غرفة النوم. والحضور المشؤوم في العلية الذي خرج من الظلام إلى النور، فكانت كلها قيامات وجيزة مشوشة. ولو كانت تدرك أنها قادرة على التأثير في عودته بمخيلتها، لأعادته بشكل كام، ولكان الرعب الناتج عما فعلته قد دمرها.

وعندما مات كلب الصيد الذهبي – أولاف – بعد ست سنوات من رحيل جدّها، لا بد أن حيلة الذاكرة بدأت تخفق. كان القائد مخطئًا حين اعتقد أن التجارب المأساوية قد أُحرقت إلى الأبد. لكنها في حقيقة الأمر كانت قد رُميت في حفرة عميقة للذكريا، وبقيت تنضج هناك حتى جذبها ظرف ما إلى السطح. أرادت بيبي حضور مراسم حرق الكلب، كي تتأكد من تحوله إلى رماد، ولم تحتفظ بأي شعرة من فروه، مثلما احتفظت بخصلة الشعر وقطعة من جمجمة القائد. وبصرف النظر عن وعيها بهذا أم لا، كانت تخشى من إحيائه، وتخيله برفقتها مجددًا. كان هذا بلا ريب سيجعله نسخة غريبة ومفزعة من الكلب الذي أحبته. وعلى الرغم من أن أولاف أضحى مجرد جرة ممتلئة

بالرماد، فقد تاقت إلى عودته. وبعد قضائها ثلاثة أيام حبيسة غرفتها، وهي تعاني من الحب المتهور الذي قد يقود إلى إحيائه، لجأت يائسة إلى حيلة الذاكرة مجددًا.

أطفأ باكس المسجل وحمله عن الفراش، ففتحت بيبي عينيها.

نطق باسمها، لكنها لم تنظر إليه مباشرة.

انتقل بصرها من اليمين إلى اليسار ـ ثم من اليسار إلى اليمين، بدون أن يثبُت على أحد، ومحملقًا في الجميع وفي كل شيء...أو ربما لا شيء. وسرعان ما أغمضت عينيها ثانية وظلت ساكنة.

عندما استدارت بيبي بعيدًا عن الدائرة الحمراء وصاعقتي البرق السوداوين، اندمجت كل من القاعة البيضاء وغرفة بيضاء أخرى للحظات. وقد استقر فراش مستشفى على بُعد ثلاثة أمتار تقريبًا، وطيف من الشاشات المترابطة، وكيس حقن وريدي. وكان كل من نانسي وميرفي وبوغو والوسيم باكستون مجتمعين حول الفراش، وتركيزهم منصب على المريضة، التي كانت بيبي نفسها.

أدركت فجأة معنى هذه الرؤيا، وأنها في الواقع لم تكن رؤيا بالمعنى الخارق للعادة، وأنها كانت حقيقة حالتها، وكشف من نفسها لنفسها، مستلهم من حديث القائد من مرقده. لم تتفاجأ من تواجدها في عالمين مختلفين في نفس الوقت، وفي حالتين مختلفتين أيضًا. في أعمق خبايا العقل والروح، كانت تدرك ذلك طوال الوقت، لكنها احتاجت إلى تلك الرواية الثانية لإنقاذ نفسها في المقام الأول. كانت في حاجة إلى أن تكسر سطوة حيلة الذاكرة، وأن تكتشف مجددًا القوة الاستثنائية لمخيلتها، واستخدامها لاستعادة صحتها.

كان الدواء الوحيد الذي لطالما عالج آلامها وشفاها من الحزن هو القصص، قراءة وكتابة. ولم تعرف سبيلاً لأي علاج فعال آخر.

تبددت الرؤيا القصيرة في العالم الآخر والحياة الأخرى.

تجلّت صورة عابرة في ذاكرتها؛ كانت هي في السادسة من العمر،

وتجلس مع القائد في مطبخ المنزل الصغير، وتمسك ببطاقة صغيرة بملقط حديدي، وقد اشتعلت البطاقة فجأة، ففرد لهب على شكل فراشة أجنحته، وكانت الفراشة لامعة وجميلة في عيني القائد...

إذا كان الماضي قد ولّى حقًا، فقد وضعته أخيرًا وراء ظهرها. وكان المستقبل الآن هو موضع كافة التهديدات، ولم يكن لديها بديل سوى مقابلتهم في العالم الذي كانت مستلقية فيه في غرفة في مستشفى، وهي تخضع للمراقبة، فضلاً عن هذا العالم الذي صنعته بنفسها.

ومثلما كانت قد أدركت قبل حين في المساء - عندما تاقت بشدة إلى أن يعثر باكس عليها - فلم تكن تحلم. كان العالم المتشكل من مخيلتها الاستثنائية صلبًا مثل الكوارتز أسفل قدميها، وحقيقيًا مثل الألم الشديد اشتعل عبر ثنايا أذنها المجروحة ونبض في وجهها المغطى بالكدمات.

يقع هذا المكان بين السماء والأرض، وكان من الصعب عليها تخيل أين ستصل مغامرتها إلى نهايتها. ولا بد من إنجاز ذلك.

على الرغم من قوتها - هنا في العالم الذي أنشأته - لم تكن خالدة بأي شكل أكثر مما هي في العالم الأول. لم تكن إلهًا، وإنما مجرد حالمة موهوبة. فبإمكان رصاصة في الرأس أن تضع نهاية لحياتها ولكافة ما تخيلته. وإذا ما ماتت هنا، فقد ماتت أيضًا في العالم الذي وُلدت فيه. ولم تكن واثقة في فرصها.

سحبت المسدس من غمده. ونظرت إليه لبعض الوقت، ثم وضعته على مكتب الاستقبال الأسود.

بقي عدو واحد. في هذا العالم مثلما في العالم الذي وُلدت فيه، لم يكن من الممكن القضاء على العدو الأخير باستخدام العنف.

في الجدار الواقع خلف المكتب، كانت ثمة ثلاثة أبواب مكسوة بنفس الكوارتز الأبيض الذي أحاطها. ووقع اختيارها على الباب الأوسط من بين الثلاثة، الذي كان يقع أسفل الشعار الأحمر والأسود للقوة الغاشمة. كان

ثمة رواق خلف الباب سارت فيه نحو تجويف في الجدار يضم عدة مصاعد. وعندما ضغطت على زر الاستدعاء، انفتحت أبواب أحد المصاعد الستة، فدلفت إليه. ووفقًا للوحة التحكم الخاصة بالمصعد، كانت هناك أربعة طوابق فوق الأرض وقبو. وقد أضاء زر الطابق الرابع بدون أن تلمسه، فانغلقت أبواب المصعد، وحُملت إلى أعلى.

في هذا العالم من بنات أفكارها، كانت قد تخيلت أشخاصًا آخرين ذوي بأس، ولم تكن تُحمل الآن إلا إليه فقط. فكرت في كلسي فوكنر - صانع الفضة ووالد هذا الرجل - ونصف وجهه وسيم، بينما النصف الآخر محطم. كما فكرت أيضًا في زوجة كلسي - بيث - ووالدة الرجل الذي ينتظرها الآن، التي تعرضت للاغتصاب من فلذة كبدها، وطُعنت ثلاثة وعشرين مرة، وألقي حمض حارق على وجهها. كان قد نهب أموالهما، وأغراضًا قيمة غير محددة، ودشّن حياة جديدة، ذلك الفتى المراهق المهووس بهتلر والعالم السفلي.

وفي النهاية، بعد أن تحملت بيبي الصعق الكهربائي أربع مرات، وما إن فهمت أنها من تحوز على القوة، مُحي تشاب كوي بسهولة، واقتصر دوره على الظهور خمس مرات. لكنه كان شخصية هامشية وجرى تخيلها بشكل ضعيف، فلم يكن له ماضٍ سوى إشارة إلى أنه كان محقق شرطة. في المقابل، كان لروبرت وارن فوكنر - المعروف باسم بيركيناو تيريزن - ماضٍ واضح ومثير، ونهج عنيف حفره في الذاكرة. إلى جانب ذلك، ومنذ أن بدأ كل هذا، كان كل من وقفوا في طريقها هم إما أعضاء في جماعة تيريزن أو متحالفون معه بشكل ما، مما جعله العنكبوت القائد في الشبكة، والخصم الرئيسي. لم تتمكن من محوه من الوجود بدون هدم هذا العالم المتخيل بأسره. لم يعرف سوى الأدباء المخضرمون متى يبدأون قصة وكيف يحبكون مصير البطل. عند التأليف بشكل طبيعي، والسماح للشخصيات بحرية الإرادة، فقد يتفاجأ المؤلف بمن مات ومن عاش في المشهد الأخير.

وصل المصعد إلى الطابق الرابع. فخرجت من تجويف المصاعد إلى

رواق فسيح مضاء بشكل خافت يضم مكاتب مغلقة على كلا جانبيه. وقد لمع الضوء التالي أكثر قليلاً، فاتجهت صوبه.

كانت خائفة ولكن لم تتسمر بسبب الخوف. كانت حذرة ومنتبهة ومتعقلة، هذا صحيح، لأن الفتيات المقدامات كنّ كذلك على الدوام. كانت قد أتت إلى هنا لإنقاذ حياة آشلي بيل، وقد أدركت الآن أنها إذا أنجزت ذلك بشكل، فستنقذ نفسها أيضًا من الموت بالسرطان الذي هدد حياتها في العالم الآخر، بيد أنها لم تفهم لماذا ترى الأمر على هذا النحو. إذا خذلت آشلي بيل، فقد خذلت نفسها.

خلف الباب المفتوح، كانت هناك غرفة طويلة للغاية مع سقف معقود يبلغ ارتفاعه تسعة أمتار تقريبًا وكانت الجدران متقوسة عند الأرض. كانت شديدة الارتفاع، ولا تناسب المقياس البشري. وتذكر المتواجد فيها بالمعماري المفضل لدى هتلر؛ ألبرت سبير. كان السقف والجدران مكسوة بخشب الكرز الخفيف الذي ينتهي بعدة طبقات من الورنيش اللامع، مع عمق الكريستال الملون، ومضاءة بالعديد من حوامل المصابيح الجدارية الذهبية التي تصدر خيوطًا ضوئية إلى الأعلى والأسفل على حد سواء. وقد تواجدت هنا النوافذ التي اعتقدت بيبي سابقًا أنها مصابيح مستديرة متوهجة، والتي تأرجحت بشكل غامض في الضباب، وهي عبارة عن فتحات يبلغ قطرها مترين تقريبًا، وتبدو مقعرة من هذا الجانب، وأحيط الزجاج بعوارض برونزية. وعند مركز الغرفة الفسيحة، لم تعكس أرضية الجرانيت الأسود أي من أضواء الجدار، وشعرت بيبي بوجود مسافة عميقة أسفل قدميها؛ فراغ بين عالمين تنقلت فيه بدون أن تسحبها الجاذبية.

وعند الجانب الأبعد من الغرفة، وقبل جدار عُلق عليه بساط مزخرف يحاكي الدائرة باللونين الأحمر والأسود وصاعقتي البرق الذين رأتهم في قاعة الاستقبال، استقر مكتب ضخم من الحديد المقاوم للصدأ والجرانيت الأسود لا يناسب أي أحد سوى شخصية أسطورية. وإذا ما انتظر خلفه

مخلوق المينوتور – ذو جسم الإنسان ورأس الثور – أو غول بقرنين يشبه النعجة والإنسان في آن واحد، أو وحش ما بأجنحة مطوية وعينين خضراوين لامعين، فحينها سيتماهى المكتب مع شاغله.

بيد أنه كان في انتظارها رجل طويل القامة ذو هيئة رياضية ويرتدي بدلة سوداء ضيقة ذات تصميم رائع، وقميص أبيض، وربطة عنق سوداء، مع منديل زينة أحمر اللون في جيب السترة. قبل سبعة عشر عامًا، كان يُعرف بالفتى في السادسة عشر من العمر الذي قتل والدته وترك والده مقطع الأوصال للموت. ما يزال يفرق شعره شديد السواد بشدة ويمشطه إلى اليسار عبر جبينه، مع أن أي أحد لا يعلم بشأن هوسه بالرايخ الثالث لن يفسر الأمر على أنه تيمن بهتلر.

كان مظهره الجيد ينفي عنه الشبهات إلى حد ما، حيث إنه في هذا القرن الجديد، تفوقت الصورة على الجوهر وعادة ما كان المظهر أهم من الحقيقة. كان صبيًا وسيمًا في صغره، وبات رجلاً بلمحات نجم سينمائي وتحيطه هالة من اللمعان. كان هتلر ومعظم مساعديه غير جذابين، فإما كانوا ذوي بشرة لينة وبلا ذقن مثل هيملر، أو كانوا منفّرين مثل هيس وبورمان، وأحيانًا يكونون بشعين حتى، وهكذا قادوا أمة عظيمة إلى الجحيم والعالم إلى الفوضى والدمار. ولو أنهم بدوا مثل تيريزن هذا، فلربما تمكنوا من جمع المزيد من الأنصار وتوجوا منتصرين.

مع اقتراب بيبي، خرج القاتل المتأنق من خلف مكتبه ووقف بجوار كرسي مكتبي جلست عليه فتاة صغيرة، وظهرها صوب بيبي. كان الشعر الأشقر اللامع يشبه شعر آشلي بيل في الصورة التي عثرت عليها في منزل كاليدا.

قالت بيبي لتيريزن «لماذا يفضل الطغاة – الأشتراكيون والفاشيون على السواء – اللونين الأحمر والأسود؟»

كان جرس صوته – ذو الصدى الذكوري الذي يقع بين الصوت الجهوري والصياح – سلاحًا فعالاً مثل مظهره. قال «الأسود يشير إلى الموت، وقوة

الحياة والموت. أما الأحمر فيشير إلى دماء هؤلاء الذين لا يحترمون القوة. أو ربما لأنهما لونا عجلة القمار، ولونا القدر. قدرنا أن نحكم، وقدركم الخضوع لحكمنا. نحن وكلاء القدر، ونحن ننفذ إملاءاته».

«يا له من كلام فارغ» قالت بيبي وهي تقف على بُعد مترين تقريبًا منه.

فقال «أجل، أليس كذلك؟ ولكن يا عزيزتي بيبي، الكلام الفارغ هو اللغة المفضلة في عصرنا».

أدار كرسي المكتب، ليكشف عن رهينته. كان رسغ آشلي بيل الأيمن مقيدًا إلى ذراع الكرسي.

قال تيريزن «إنها الفتاة التي سميتيها عبر قراءة الطالع باستخدام الحروف الخشبية».

أكدت بيبي له «سآخذها منك الآن».

برزت المدية الطويلة من السكين الذي لم تدرك أنه يحمله. وقد وضع حافتها الحادة على عنق آشلي.

أثناء ابتكار هذه المغامرة، كانت هناك مؤلفتان؛ بيبي بلير التي كتبت روايات خيالية وحسبت أنها تفهم نفسها، وبيبي بلير أخرى خفية ذات موهبة خارقة، التي أُخفيت عن توأمتها عبر حيلة الذاكرة. وبالنسبة إليهما، لطالما كان الدواء الوحيد لألمهما وللشفاء من الحزن هو القصص. وأثناء ابتكار رحلة البحث عن آشلي بيل، سعت بيبي خلف حقيقتها الكاملة، لأن الحقيقة اشتملت على القوة لمحو بعض الأشياء في العالم الحقيقي مثلما يمكنها محوها هنا...القدرة على محو السرطان. لكن بيبي الخفية كانت عازمة على إبقاء المعرفة الخاصة بتلك القوة في حفرة الذاكرة التي ألقاها القائد بداخلها، لأنها كانت السبب في أقسى المحن في حياتها. ولمنع بيبي من إدراك أن عدوها الحقيقي هو غرورها، كان على بيبي الخفية ابتكار عدو - تيريزن بدا عدوها الوحيد. ولكن الآن باتت بيبي وبيبي الخفية كيانًا واحدًا، متحدتان بانهيار حيلة القائد، وباسترجاع الذاكرة كاملة. ولم تعد ثمة حاجة إلى عدو.

بينما كان يحرك يد المدية ببطء – وليس حافتها الحادة – يمينًا ويسـارًا عبر عنق الطفلة، قال تيريزن «إذا قتلتُها، فقد قتلتكِ».

لوهلة، لم تستوعب بيبي بشكل كامل هذا التصريح، ولم تدرك ما تعنيه معرفة تيريزن بأمر كهذا. كانت مصممة على الحاجة إلى محوه من هذا العالم الذي ابتكرته، واستخدام ممحاتها المجازية عليه مثلما استخدمتها مع تشاب كوي.

ابتسـم وهزّ رأسـه وقال «لن ينجح هذا يا عزيزتي بيبي. وإذا فكرتِ في الأمر، ستدركين السبب».

-126-

الفن الخطر

مع شعورها بانفلات القصة عن نطاق سيطرتها، أحست بيبي بالإرهاق والانخناق. وقد دعمت هندسة المكان رد الفعل هذا. أعطت الغرفة الأسطوانية الفسيحة والنوافذ الدائرية إيحاءً بأنها في مركبة بحرية - غواصة - وكان الضباب يتحرك في هياج كبحر مظلم على أوتاد زجاجية مؤطرة بالبرونز. في الواقع، بالنظر إلى كِبر هذه الحجرة وجنون العظمة البادي في كل تفاصيلها، فلا بد أن الغواصة هي نوتيلوس التي وردت في روايات جولز فيرن، ويقوم تيريزن بدور القبطان نيمو مع سمات القبطان أهاب.

كان قد قال إذا قتلتُها، فقد قتلتكِ.

تجلّى معنى الكلمات فجأة، ووقفت بيبي ترتعد وكأنها تهتز بفعل موجة ارتجاجية نفسية. كان على علمٍ بالغرض الحقيقي لمغامرتها؛ أن تنقذ نفسها وتُشفى من السرطان بفعل تفاعل ما مع آشلي بيل ما زال غامضًا. ولكن إذا كان هو مجرد شخصية من مخيلتها، ابتُكر من أجل قصتها، فيستحيل أن يعرف أي شيء بخلاف ما حدث في المشاهد التي ظهر فيها معها. وما كان بوسعه معرفة أن قتل الطفلة سيؤدي إلى قتلها.

قال تيريزن «السرطان يلتهم دماغكِ. ويومًا تلو الآخر - إن لم يكن ساعة تلو الأخرى - ستتقلص قدرتكِ الإبداعية كمؤلفة، حتى ستصبحي عما قريب عاجزة عن تأليف قصة قصيرة ناهيكِ عن مغامرة طويلة. إذا قتلتُ هذه الفتاة، فإن رحلتكِ المتعبة حتى الآن ستذهب سدى. وسيتعين عليك البدء من جديد، بشخصيات وحوادث جديدة كليًا، لتنسجي منهم قصة أخرى كي

تنقذي نفسكِ. ولا تملكين الوقت لذلك».

ربما يكون السرطان قد انتشر بالفعل إلى الحد الذي يجعل تفكيرها أقل اتزانًا عن ذي قبل. كانت تدرك أن ما قاله يحمل نصف الحقيقة، لكنها لم تتمكن من إيجاد سبيل لفهم النصف الآخر من هذه الحقيقة. انحسرت ثقتها، وطغى العجز عليها.

على الكرسي، حافظت الطفلة الجميلة على التعبير الذي ظهر في الصورة؛ هدوء بشق الأنفس، وقناع لحرمان آسرها لذة رؤية مشاعرها الحقيقية.

قال تيريزن «أخبريني، في نشوة الكتابة، ألم تبتكري أحيانًا شخصيات تبدو حقيقية مثل أي شخص في حياتكِ اليومية؟»

«بالطبع. لكنك لست أحدهم».

«وهل تفاجأتِ قط عندما يطور شخص درجة ما من حرية الإرادة تجعله باستمرار يفعل أشياءً لا تتوقعينها، ولا تخططين لها، لكنها تبدو في مسارها الطبيعي؟»

«إن كل كاتبة تثق في حدسها تمر بهذه التجربة. وهذا يحدث عندما تعرف أن شخصية ما تنجح وحقيقية وعلى صواب».

ارتسمت على وجهه الوسيم ابتسامة متكلفة تعبر عن الاستمتاع، وقال «وهل أتى عليكِ وقت خلال الكتابة عندما تملككِ شعور غريب من أن إحدى الشخصيات تبدو وكأنها تعرف ما ستخطه يدكِ لها، وكيف ستتخيلينها وتشكلينها، ثم تتمرد عليكِ وتجعلكِ تعانين لإبقائها كما تريدين؟»

فقالت كاذبة «كلا. هذا لا يحدث».

«الخيال فن خطر يا بيبي بلير، إذ يؤدي ذلك إلى خلق عوالم جديدة يسكنها أناس يبدون حقيقيين على قدر إبداعكِ. هل تعلمين كيف يفسر العلماء ظهور الكون؟»

حاولت أن تمحوه مجددًا، ولكن هذه عبر حيلة تمدد الأوعية الدموية، ثم عبر تخيله قد خرّ ميتًا بأزمة قلبية.

نظر إليه بصبر يكاد ينفد، مع ابتسامة تشي بالشفقة. وعندما مرّ وقت كافٍ حتى يتضح لها أنه ما من سبيل لمحوه، أعاد طرح سؤاله. «هل تعلمين كيف يفسر العلماء ظهور الكون؟»

«ماذا تقصد؟»

«إنهم لا يفسرونه. بعد الانفجار الأعظم، يمكنهم فقط تفسير لماذا وكيف تمدد مثلما فعل. ولكن من حيث كيف بدأ...فإنهم يقفون عاجزين هنا. بعضهم يقولون إنه بدأ من العدم. ويخترعون نظريات غريبة غير قابلة للإثبات تدعي إثبات ليس فقط أن شيئًا ما قد يُستحدث من العدم بل وأن هذا يحدث طوال الوقت. ويحدث بدون سبب وهو أثر بلا سبب».

على الكرسي، أغمضت آشلي بيل عينيها استسلامًا، وكأنها حصلت على تلميح ما من ثنايا كلامه أدركت عبره أنه بعد حين سيصل إلى أوج غضبه ويعتزم التأكيد عليه بجزّ عنقها.

واصل تيريزن كلامه بالقول «يقول القليل جدًا من الفلاسفة – ومن بينهم بعض من أكثر الشخصيات احترامًا ورقيًا – إن العالم قد أتى إلى الوجود عبر التخيل. وبطبيعة الحال، سيسخر العلماء الذين يصرّون أن شيئًا ما يمكن أن يُستحدث من العدم من الفلاسفة. ولكن على الأقل تخفي المخيلة سببًا وقوة خلفها. وبالنظر إلى أنني موجود بفضل القصة التي تقصّينها على نفسكِ، فإنني أميل إلى جانب الفلاسفة».

«إلامَ ترمي؟»

أبعد السكين عن عنق آشلي، سامحًا للضوء بأن يحل محله. قال مجددًا «الخيال فن خطر. إن ابتكار العوالم ينطوي على مخاطر. وليست مخاطر للقرّاء فحسب الذين قد ينجرفون نحو الظلام عوضًا عن النور، والشر عوضًا عن الخير، واليأس عوضًا عن الأمل، ولكن أيضًا نحو المؤلف».

طالما أن السكين كانت بعيدة عن عنق آشلي، كان بمقدور بيبي الانقضاض على تيريزن، وطرحه أرضًا. ربما يضرب رأسه في مكتب الجرانيت، ويلقي

السكين. يمكنها رؤية كيف سينتهي الأمر. يمكنها أن تفاجئه بالانقضاض على كرسي المكتب الذي تجلس عليه الفتاة. وتستخدم أقصى عزمها وقوتها لقذفه عليه. لعل هذا يعتبر تهورًا وعدم تقدير للعواقب. لكن بيبي رأت أن الفعل المحسوب أفضل دومًا من عدم الفعل المحسوب أيضًا. بيد أنها ترددت.

قال تيريزن «عندما تبتكر الكاتبة شخصياتها، فقد يخيّل إليها أنها تعرف ما المعاناة التي يجب وستقع على أولئك الذين – مثلي – سيختارون القوة على أي شيء آخر. إلا أن مخيلتكِ المتصلة بقدرات خارقة قد مكنتني بطرق لم يكن بوسعكِ توقعها».

بيده اليسرى، قبض على جبين آشلي وجذب رأسها إلى الخلف ووضع سن المدية على الجلد أسفل عظمة ذقنها. ضاعت فرصة الهجوم عليه.

«طريقة أخرى لقتلها هي بغرز المدية مباشرة عبر فمها، مرورًا بشراع الحنك، ووصولاً إلى المخ. ستكون لحظة مميزة، ألا تظنين ذلك؟»

تحركت عينا الفتاة بعنف خلف جفنيها المغمضين.

كان هتلر قد وضع السياسات التي أدت إلى الإبادة الممنهجة لملايين البشر، لكنه لم يزُر قط معسكرًا للموت ليشهد بنفسه عائلات بأكملها تُقتل رميًا بالرصاص أو بالغاز وأحيانًا يُنقلون إلى أفران الحرق وهم ما يزالون أحياء. ولم يزُر قط معسكر استعباد حتى يرى السجناء السياسيين وجنود العدو الأسرى والناشطين المسيحيين يُجوعون ويعملون حتى الموت. وعندما قُصفت مدنه، لم يمشي ولو لمرة بين الأنقاض لتشجيع مواطنيه ورفع معنوياتهم. كان بوسعه فقط إصدار أمر باستخدام العنف الوحشي، لكنه متعاليًا جدًا على أن يشهده بنفسه.

إذا ما وصل تيريزن وطائفته إلى سدة الحكم بشكل ما، فسيصدر أمرًا بلا تردد بارتكاب عمليات قتل جماعية، لكنه سينخرط فيها بنفسه على سبيل الاستمتاع.

قالت بيبي «إذا كنتَ عاقد العزم على قتل هذه الفتاة مهما حدث، لكنتَ

فعلتها بحلول الآن، أنت ترغب في شيء مني. فما هو؟»

«سأتركك تنقذينها وتنقذين نفسكِ، وكل ما أريده في المقابل هو أنه عندما تخرجين من عالم قصتكِ هذه، اتركيه قائمًا. اتركيه كميدان لهو لي».

ظنت أنه على الأرجح يعبث معها، فقالت «لكن هذا كله...خيالي».

«يعيش هاك فن في مكان ما في هذا العالم، ويحظى بمغامرات لم يحلم تواين بها قط. بل وحتى شيرلوك هولمز يحل قضايا جديدة الآن».

ترددت بيبي في الإجابة خشية أن تقول شيئًا خاطئًا.

كان تيريزن يتسم بجنون العظمة، ومخبولاً بكل المقاييس، ومع ذلك كان قادرًا على العطاء – وناجحًا – في المجتمع، على عكس هتلر. وإذا كان يؤمن بحق أن عالمًا خياليًا سيستمر في الوجود عندما تنتهي القصة، وأنه عند مستوى غامض ما كان حقيقيًا ويدور إلى الأبد حول محوره، فقد يكون هناك مخرج من هذا المأزق.

«أترك كل هذا قائمًا؟» قالت أخيرًا في مجاراة له، وهي تومئ نحو الغرفة الفسيحة والعالم الضبابي الذي يحيط بها. وأضافت «كيف يمكن هذا؟»

«أنجزي القصة وانشريها»

«تريد مني الجلوس وكتابة...»

«كلا. لقد تخيلتِ معظمها سلفًا. إنها محفوظة في رأسكِ، فتخيلي فقط أنها مخزنة على حاسوبكِ الكائن في شقتكِ، في العالم الذي وُلدتِ فيه».

كانت أن تؤكد على أنه قد صادر الحاسوب في شقتها وأنها كانت قد تخلصت من حاسوبها المحمول الآخر، وقذفت به في مؤخرة شاحنة البستنة، عندما كانت مطاردة من قبل رجاله في المروحية. بيد أنها أدركت أن تلك الأحداث وقعت في هذا العالم، وفي هذه القصة، وليس في العالم الحقيقي، حيث كانت تصارع سرطان الدماغ.

بدا أن ارتكابها – حتى لو كان لحظيًا – دليل على أن سرطان الدماغ يدمر قدرتها على التفكير.

قال «يمكنني غرز هذه المدية في دماغها عبر مقلة عينها. وبوسعي قطع شفتيها أولاً ثم أنفها، ولا يمكنكِ ردعي».

«يمكنك الاحتفاظ بهذا العالم» قالت بيبي وهي على يقين أنه لن ينخدع بسهولة، وأن العنف آت لا محالة مهما قالت أو فعلت.

كانت نظرته باردة، لكن صوته على قليل من بهجة الأطفال. قال «ستنشرين القصة كلها كرواية؟»

«أجل»

«وسيكون هذا العالم ملكي وحدي؟»

«إذا سار الأمر كما تظن».

«بالطبع سيسير كما أظن. لقد فاجأتيني أيتها العزيزة بيبي. حري بكِ الإيمان أكثر بالخيال. فهو يتيح لك الانحراف عن الحقيقة، وهو السبيل الوحيد على الإطلاق للاقتراب منها».

طوى المدية وألقاها على المكتب. فانزلق السلاح عبر الجرانيت الأسود ثم توقف، ودار حول له نفسه ببطء مثل مؤشر في لعبة يانصيب ما.

عندما دنا منها، استعدت لتفادي ضربة بسكين أخرى. لكنه ابتسم فقط وتجاوزها نحو الباب المفتوح على الجهة الأبعد من الغرفة.

تخيلته ميتًا بفعل جلطة دماغية، أو انسداد شرياني قاتل في قلبه. تخيلت بتمعن شديد نارًا ذاتية تحرق تيريزن، ليترنح جسده الذي يشتعل باللهب الأبيض والأزرق الحار مثل لب الشمس، وتحوله إلى فحم متوهج ثم إلى رماد.

استدار وسحب مسدسًا من أسفل معطف البدلة. واقترب منها وقال «أحيانًا تفهم الشخصية المؤلفة مثلما تفهمه هي». كانت فوهة المسدس – التي بدت مثل مقلة عين فارغة في جمجمة بلا شحم – مؤطرة بالحديد. انتظر حتى فكرت في الأمر ورفعت ناظريها أخيرًا لتنظر في عينيه. أضاف «بشكل ما، في كل مرة تستهدفينني فيها وتفشلين، أزداد قوة. هل تشعرين بذلك أيتها العزيزة

بيبي؟ أنا أشـعر بذلك بوضوح». عندما التزمت الصمت، أخذ سـكوتها على أنه موافقة. وضع السلاح في غمده، وأدار ظهره نحوها، وسار مبتعدًا مجددًا.

كانت ما تزال لا تصدق أنه قد انتهى منها. لعلها كانت محقة في صمتها. إلا أنه كان هناك سؤال وحيد شعرت بشدة أنه توقع أن تطرحه، وإذا لم تفعل، سيستنتج أن وعدها كاذب.

نادتـه مـن بعيـد «كيـف تعـرف أنني سـأفعل هذا حقًا؟ كيـف تعرف أنني سأترك هذا العالم قائمًا من أجلك؟».

بعد أن عبر نصف الغرفة، توقف ونظر خلفه وقال «أنتِ فتاة تبذل قصارى جهدهـا، وتقـدر الحقيقـة، وتفـي بوعودهـا. أنـت مبتكرتـي، ألسـتِ كذلك؟ حسنًا...إذا لم نثق في من أتى بنا إلى الوجود، فبمن سنثق؟»

فكـرت فـي رواية تسـمى «الحياة المبدعـة» تأليف هنري ميلر، حيث قال فيهـا إن الرجـال المجانيـن «لا ينفكون يحلمون أنهـم يحلمون». تفاجأت من أن تخطر هذه الكلمات على بالها حينئذٍ فقط، فهي تنطبق على تيريزن. ولكن بعد لحظات، اعتقدت أنها ربما تنطبق عليها بشدة، ولم تتمعن فيها أكثر.

راقبت تيريزن حتى غادر الغرفة وعبر الرواق نحو تجويف المصاعد.

-127-

من بيبي إلى بيل

ضغط الضباب الشـديد – الذي بدا مثل وحش البحر وخُلق قبل ملايين السـنين – علـى النوافـذ المسـتديرة. وفي عمق البيـاض الطاغي، مرّت ظلال ضخمـة وغريبـة، وكأن مخيلـة بيبي المشـغولة لم تقاوم الإنـذارات الآتية من حيوان البوهيموث الذي سكن المحيط عند بدء الخليقة.

لـدى دنوهـا مـن الفتـاة الجميلـة – التي جلسـت برباطة جـأش عجيبة – أجرت بيبي تعديلاً تحريريًا صغيرًا يخص الأصفاد التي قيدتها إلى الكرسي، فسقطت أرضًا.

نهضت آشلي بيل وتقدمت إلى الأمام. كانت ترتدي نعالاً جلدية لامعة، وجـوارب بيضـاء، وتنـورة مطوية بيضاء، وقميصًا أبيض متموج مع فراشـات باللون الأزرق الفاتح مطرزة على أطراف الكمين والياقة.

تقابلتا وجهًا لوجه، ولا تفصل بينهما سوى سنتيمترات قليلة. كان جلدها رائعًا، مثلما بدت في الصورة، وملامحها في تناسب مدهش. وكانت عيناها الواسـعتين – الظل البنفسـجي المميز لبعض الزنابق – مذهلتين ليس بسـبب لونهما فقط ولكن أيضًا بسـبب صفائهما غير العادي، وكانت نظرتها مباشـرة وثاقبة، كما لو أنها لا ترى بيبي فحسب، بل ويمكنها قراءة روحها.

قالـت بيبـي «أنـتِ فـي الثالثـة عشـر وأنا فـي الثانيـة والعشـرين، ولكننا متساويتين في الطول. كيف هذا؟»

ابتسمت آشلي بيل وقالت «أجل، كيف؟»

تفاجأت بيبي حين سمعت نفسها تقول «أنا أعرفكِ. لقد التقينا من قبل»

«أجل، قبل ثماني سنوات»

«أين؟»

فقالت آشلي بيل «في كتاب»

تعجبت بيبي وقالت «لقد نجوتِ من معسكر داتشو»

«أجل، وانتهى بي المطاف في أميركا».

«تلك هي الملابس التي كنتِ ترتدينها حين أتت وحدة إس إس النازية لأخذ عائلتكِ».

«قاوم والداي، فقتلوهما، وجُررت من المنزل».

ازداد تعجب بيبي، وشعرت بالذهول من مشاعر الفتاة، والاندهاش من ذكائها. قالت «هناك حيث رأيت المنزل من قبل. في كتاب توبا الأول. توبا رنجلباوم. كان منزلاً في مدينة ألمانية، وليس في قلب صحراء شاسعة. كيف لي أن أنساكِ. كتاب توبا الرائع، هل يحكي قصتها؟»

كانت قد أخذت من الحقيقة فقط ما تحتاج إليه لصياغة روايتها، وحجبت عن الذاكرة أي شيء كان من الممكن أن يجعلها تدرك أنها في حالة خيالية تشبه الحلم، وأي شيء سمح لها بفهم أنها بقيت محاصرة بالسرطان وأنها عاجزة عن السعي خلف أي علاج حقيقي.

تذكرت بيبي بالقول «لقد كبرتِ وأصبحت أخصائية جراحة أورام، وتتخصصين في سرطان الدماغ».

فقالت آشلي «ما عدتِ تحتاجين إلى أخصائية أورام يا بيبز. ليس بعد الآن. لم أكن في خطر حقيقي قط. كيف ذلك وقد سُردت حكايتي وانتهت قبل زمن طويل في كتاب مطبوع الآن؟ لقد كنتِ أنتِ من يحتاج إلى الإنقاذ». تغير صوتها الآن، وباتت تتحدث بصوت بيبي. أضافت «وقد احتجتِ إلى التغلب على حيلة الذاكرة الخاصة بالقائد، حتى تتمكني من اكتشاف أنكِ تمتلكين القوة لعلاج نفسكِ».

«حقًا؟ هل أمتلك قوة كهذه؟»

«إذا كان بإمكانكِ تخيل جاسبر بوضوح شديد إلى درجة ظهوره لكِ ذات يوم...حسنًا، بكل تأكيد يمكنك تخيل نفسكِ خالية من السرطان».

بينما كانت تتحدث، تغير شكل آشلي بيل، فتحول شعرها الأشقر إلى الأسود تقريبًا، كما أظلمت عيناها البنفسجيتين، وأصبحت ملامحها انعكاسًا لصورة بيبي.

وضعت بيبي - التي هي آشلي - يدها على جبين بيبي، ثم غرزتها في رأسها وكأن اللحم والعظم لا يشكلان أي عائق، وكانت أطراف أصابعها تتبع على نحو أعمى سطح المخ، لتمر عبر التلافيف والتلم والطيات والشقوق. كان هذا تصرفًا يفوق قدرة بيبي على الاستيعاب، فوقفت حبيسة الأنفاس، إذ أن المخ هو تاج الروح. يقول البعض إن الروح لم توجد، وقد تساءلنا جميعًا من وقت إلى آخر عما إذا كان المشككون على حق، وإذا ما كنا مجرد حيوانات. لكن بيبي - التي هي آشلي - لم تتبع فقط التلافيف والتلم، مزيلة شبكة السرطان، لكنها رأت أيضًا ما لمسته أصابعها، فرأت المخ بكل تركيبته المعقدة، وكذا رأته بيبي؛ تحفة فنية من مادة رمادية وفي داخلها ضوء رقيق لم يكن مجرد تيار موجات المخ، وإنما الجوهر الأبدي واللامع للفتاة التي أحبها باكستون.

وعندما سحبت بيبي الأخرى يدها، علقت في أصابعها شعيرات نسيج سوداء غريبة الشكل وكريهة، وهي ليست سوى الخيوط المقززة لسرطان الدماغ. حركت أصابعها وقامت بلف خيوط شبكة العنكبوت وحولتها إلى صرّة لامعة في حجم كرة الغولف قبل أن تقذف بها جانبًا. بعد ذلك، مالت إلى الأمام واحتضنت بيبي وهمست قائلة «لننهي هذا يا بيبز. أغمضي عينيكِ. لننهي هذا ونعد إلى الديار».

عندما فتحت بيبي عينيها بعدها بلحظات، لم يكن هناك سوى نسخة واحدة منها، مثلما كان الحال دومًا.

وحيدة، تنقلت على مهل عبر الغرفة الفسيحة في حالة من الصدمة الخالصة، مثلما كانت ستشعر إذا كانت قد وُلدت وتربّت في كهف عميق

وخرجت إلى سطح الأرض بعد ربع قرن تقريبًا كي ترى للمرة الأولى سماء الليل الممتلئة بالنجوم.

فعلت مثلما طلب تيريزن، فتخيلت المغامرة بأكملها على حاسوبيها المكتبي والمحمول، مع أن هذا ليس من أجل فائدته، وإنما من أجل فائدتها الشخصية، إذ يتعين عليها أن لا تنسى ما حدث قط. لم تكن تعتزم نشر القصة، ولن تترك هذا العالم الذي ابتكرته لقاتل الأمهات المتوحش حتى يلهو فيه. بل ستتركه يهلك معه. لم تكن قديسة، وإنما كاذبة صالحة.

لا حاجة الآن إلى المشي في الرواق أو ركوب المصعد بعد أن تفهمت الآن الطبيعة الحقيقية لهذا المكان. تخيلت نفسها تحلّق مثل روح مطارِدة نزولاً من الطوابق العليا وحتى قاعة الاستقبال، فوجدت نفسها بعد لحظات هناك.

عندما رفعت عينيها صوب الدائرة الحمراء الكبيرة ذات صاعقتي البرق، كان الحجر المرصّع قد ذاب مثل الشمع وتدفق إلى الأرض. وبدأت جدران الكوارتز البيضاء تفقد ظلمتها من حولها، حتى أضحت شفافة مثل ألواح الزجاج، وفي نفس الوقت بدت الغرفة 456 مثل سراب يصعب رؤيته، سرعان ما بدأت تتجلى، بيد أنها كانت خالية من أي مرضى أو زائرين.

لم تسِر على قدميها وإنما حلّقت عبر أرضية قاعة الاستقبال المتداعية صوب فراش المستشفى، وباتت الجدران الشفافة غير قادرة على اعتراض بحر الضباب. غمر الضباب الكثيف المشهد، فسيطر بشكل كامل على ما كان من المفترض أن يصبح المقر الرئيسي لشركة تيريزن، مثلما سيسيطر على سائر العالم الذي أتت به إلى الوجود خلال الأيام الأربعة الماضية، التي بدت يومين فقط بالنسبة إليها. وفي النهاية، حتى الضباب سيختفي من الوجود.

كان قضيب الفراش منزلاً. فصعدت عليه، ووضعت رأسها على الوسادة، وأعمضت عينيها.

بعد ذلك، فتحت عينيها على مشهد أكثر أربعة أشخاص أحبتهم في هذا العالم.

-128-

ليباركك الله يا إريك سيجال

ماذا عساك أن تقول بشأن فتاة في الخامسة والعشرين من العمر قضت نحبها؟

كانت هذه الفتاة تكبر بيبي بلير بثلاث سنوات، وهي البطلة ذات المصير المشؤوم لرواية قصة حب التي ألّفها إريك سيجال. ولم تحظَ بفرصة في الحياة، وفطرت قلوب الملايين بموتها.

عندما فتحت بيبي عينيها، رأت أربعة قلوب تنتظر من يفطرها. لكنها أعطتهم الأمل حين قالت فجأة «عجيب. لن أمرّ بهذا ثانية. سرطان الدماغ شيء مقزز».

عندما أزاحت بيبي القبعة الكهربائية عن رأسها، قالت نانسي «كلا يا عزيزتي، انتظري، ماذا تفعلين؟»

«شعري في حالة فوضى» قالت بينما دخل جهاز رسم كهربية المخ حالة الإنذار، وأضافت «وتنبعث منه رائحة عرق مقرفة. رائحة جسدي مقززة، هذا مقرف! متى سأستحم!»

عندما جلست في اعتدال في الفراش وتفحصت القسطرة المثبتة في ثنية ذراعها الأيسر، وهي تتساءل عما إذا كان بوسعها إزالتها بنفسها، كاد ميرفي أن يفقد عقله، فسيطرت عليه سعادة مترددة وذعر في آن واحد، وارتعشت يداه وتلعثم فمه وهو يقترب منها متمتمًا «أنتِ مستيقظة وتتحدثين يا صغيرتي، لا تنهضي واسترخي يا بيبز، لا يمكنكِ النهوض، أنتِ تتحدثين، انظري إليكِ. أنا أحبكِ، لكنكِ تثيرين فزعي».

قالت بيبي إلى باكس «أهلاً أيها الضخم. أنا أحبك أكثر من الهواء الذي أتنفسه» وقالت لبوغو «كنتَ هناك حين احتجت إليك يا صاح، فقد أعرتني سيارتك. كلا انتظر، هذا كله من بنات أفكاري. ولكن إذا كان حقيقيًا، كنت ستعيرني إياها، أليس كذلك أيها الوسيم؟»

فقال بوغو «سيارتي البالية رهن إشارتكِ»

بدا أن كلاً من باكس وبوغو يتعاملان مع تعافيها المفاجئ أفضل بكثير من والديها، كما لو كانا يفهمان ويستوعبان قليلاً ما حدث، مع أنها لم تتمكن من معرفة كيف يكون هذا ممكنًا.

وصلت ممرضة استجابة للإنذار الذي أطلقه جهاز قياس كهربية المخ. وبعد أن أفاقتِ سريعًا من صدمة رؤية مريضتها السابقة أسيرة الغيبوبة وقد باتت حية للغاية، حاولت أن تهدئ الجميع وتوضح أنه لا يمكن إزالة القسطرة إلى بأمر من الطبيب. قالت «ما زلتِ تحتاجين إلى السوائل يا بيبي».

فردّت بيبي بالقول «ما أحتاج إليه هو شطيرتا برجر بالجبنة وبيتزا، فأنا أتضور جوعًا. ومحلول الجلوكوز مقزز. آسفة لأن رائحتي كريهة للغاية».

فطمأنتها الممرضة قائلة «رائحتك ليست سيئة».

«أوتعلمين؟ ما زلتُ أمتلك أنفًا، لذا لطيف منكِ القول إن رائحتي ليست سيئة، لكنني كذلك حقًا. بالمناسبة، لم يعد لدي سرطان الدماغ بعد الآن. يتوجب علينا إجراء تلك الفحوصات مجددًا، حتى تتركوني أعود إلى المنزل». ثم غمزت إلى باكس وقالت «تبدو مثيرًا. علامَ تبتسم؟»

في تلك اللحظة، وصل طبيب مسائي تحت التدريب وممرضة أخرى، فبدأ النقاش حول ما إذا كانت بيبي ما تزال مصابة بالسرطان أم لا، ومن لديه سلطة الأمر بإجراء الفحوصات، وعما إذا كان حريًا بهم الانتظار حتى الصباح. كان الفنيون يداومون لإجراء كافة الفحوصات بدءًا من الأشعة المقطعية وحتى أشعة الرنين المغناطيسي، فقد تعين عليهم التواجد في قسم الطوارئ الذي لا يُغلق أبدًا. اعتقد كل من نانسي وميرفي بشكل ما أن المشكلة تكمن في تردد

شـركة التأميـن فـي دفع ثمـن الفحوصات التي تُجرى خارج سـاعات الدوام، وكانوا قد أعلنوا أنهم سيدفعون الثمن نقدًا، ولكن ليذهبوا إلى الجحيم.

أعلـن باكـس أنـه مسـتعد لدفع ثمـن إجراء الفحوصات، وقـال بوغو إنه سـيبيع سـيارته اللعينـة للمسـاهمة فـي السـداد. ولكن فهم الجميـع في نهاية المطاف أن مشكلة شركة التأمين كانت مجرد سوء تفاهم وأنه لا يتعين على أحد سداد الثمن نقدًا. تواصلت كبيرة الممرضين في هذه الوردية مع الدكتور سـانجاي تشـاندرا عبر الهاتف. فعبر عن شـكوكه في أن تكون بيبي على علم بأنها قد شُـفيت من السـرطان، بل ويشـك حتى في أنه من الممكن أن يسـكن سرطان الدماغ، لكنه أمر بإزالة القسطرة وإجراء الفحوصات بعد أن تحدثت بيبي معه وأخبرته أنها خالية من الأعراض.

عندما نهضت عن الفراش، جذبتها والدتها وعانقتها بشوق سمسار عقار لا يسمح بإفلات العميل منه قط. كانت نانسي تضحك وتبكي في نفس الوقت، وكانت قبلاتها رطبة، وقالت «كيف يكون هذا، كيف لهذا أن يحدث؟». فردّت بيبي بالقول «في نهاية المطاف، يمكن الفرار مما هو مقدّر». وبينما تبدو الحيرة على والدتها، أضافت «أحبك يا أمي. لطالما كنتُ وسأظل أحبك إلى الأبد». دنـا ميرفـي منهمـا، وأصبـح العناق جماعيًا، وكان أكثر تأثرًا من نانسـي. وعلى الرغم من ترويضه لكافة الأمواج، واقتحامه وركوبه الأمواج العاتية بلا خوف؛ إذ كان أمهر متزلجي جيله، بيد أنه كان رقيقًا وشديد الحساسية مثل هرّة. كان عاجزًا عن الكلام، عدا عن نطق اسمها مرارًا وتكرارًا، وكأنه كان يظن أنه لن ينطقه مجددًا قط وهي على قيد الحياة، وكذا كان بوغو، الذي كان ينظر إليها بعينين الزرقاوين اللتين سحرتا النساء الأخريات، ولكن بحق نقيّ لم يعرفه أحد قط، فكان بمنزلة أخٍ لها من أم أخرى، ويحبها مثلما أحبته. قال «بيبز» فقالت «أهلاً يا صاح»، وعانقها بما يكفي كي يقنع نفسه أنها حقيقية مثلما كانت دومًا.

بينما كانت ترتدي بيجاما متغضنة وتفوح منها رائحة العرق، وكان شعرها أشـعثًا ومتشـابكًا بسـبب انكماشـه أسـفل القبعة الكهربائية، وهي على يقين أن

أنفاسها تنفث الصدأ على الحديد اللامع، إلا أن بيبي رمت بنفسها بين ذراعي باكستون، وقد جذبها نحوه إلى الحد الذي جعل تبدو وكأنها قد اختفت. قالت إن حالتها لا يرثى لها، فقال إنها أجمل ما رأته عيناه قط، فقالت إن رائحتها عفنة، فأكد لها أن رائحتها مقل ورود الربيع، وكم كان هذا الرجل بارعًا في التقبيل.

عندما أقبل ممرض مع محفة ونُقلت بيبي إليها، إلى جانب كيس الحقن الوريـدي، قالـت له «آسـفة لأن رائحتي عفنـة»، فقال «كلا، لقد كانت رائحتي أسوأ بكثير».

خالف كل من باكس وبوغو ونانسي وميرفي قوانين المستشفى بمرافقتهم بيبـي إلـى كل غرفـة للفحـص، مع أنهم لم يتمكنوا مـن ركوب نفس المصعد في وجود المحفة وموظفي المستشفى. وبدون طلب إذنٍ، تجمع أربعتهم مع فني أشـعة الرنين المغناطيسـي وراقبوا عبر نافذة كبيرة بينما كانت بيبي تُنقل إلى داخل النفق المشؤوم، وهي تلوح لهم واختفاء رأسها أولاً.

سار كل شيء هذه المرة مثلما حدث عندما تخيلت أنها قد عولجت من قبل زائر الليل صاحب كلب الصيد الذهبي وأعادت إجراء الفحوصات لتأتي النتائج مذهلة. وعندما أتى الدكتور تشاندرا إلى غرفتها بعد منتصف الليل مع مجموعة من الأطباء المذهولين، قال تقريبًا نفس ما كان قد قاله حين تخيلت هذا الاجتماع؛ وهو أن لا شيء في خبرته الطبية قد أعدّه لهذا، وأنه عاجز عن تفسير الأمر، وأن هذا غير ممكن، لكنها قد برأت من السرطان تمامًا.

عانقته مثلما فعلت من قبل، لكنها اعتذرت هذه المرة لأن رائحتها منفّرة. فأخبرهـا أنـه بالنظـر إلى أنماط موجات الدماغ المسـتحيلة والآن هذا التعافي الإعجازي، فإن جميع المتخصصين في المجال سيرغبون في دراسة حالتها. ومع أنها كانت على علم بسـبب شـفائها، وأنها قررت أن تبقي الأمر سـرًا بين أفراد عائلتها، فقد وافقت على إتاحة نفسها في الأسابيع المقبلة. وقد عانقته مجددًا، بعد أن اعتذرت مسبقًا.

بـدا الدكتـور تشـاندرا سـعيدًا ومذهـولاً حين قـال «عندمـا أخبرتكِ يوم

الأربعاء أن أمامكِ عام كحد أقصى كي تعيشي، قلتِ (سنرى). هل تتذكرين؟»

«أجل، أتذكر».

«وكأنكِ كنت تعرفين حينها أنك ستعودين إلى منزلكِ قريبًا».

لم يكن السماح بمغادرة المريض بعد منتصف الليل أمرًا غير مسبوق، لكنه كان شبه مستحيل. ومع ذلك، وبحلول الساعة الثانية وخمسة وعشرين دقيقة بعد منتصف الليل، كانت بيبي في منزل والديها في كورونا ديل مار وهي تستحم، وكانت المياه ساخنة بقدر ما تتحمل. يا لها من نعمة.

لم يكن أحد يشعر بالنعاس، لا سيما بيبي، التي قضت أيامًا في النوم أو شيء مثله. وقد توقف كل من باكس وبوغو لدى سوق تعمل على مدار الساعة في طريق عودتهم، لشراء اللحم وخبز البرغر والطماطم والخس والبصل. ولأنها لم تتناول أطعمة صلبة لأكثر من أربعة أيام، نُصحت بيبي بتناول الأطعمة الخفيفة، لكنها رفضت التفكير في أن اضطراب المعدة سيقيدها في الوقت الذي عجز فيه السرطان عن ذلك. وعندما نزلت إلى المطبخ في الأسفل، كان والداها وحبيبها وأفضل صديق لديها يغنون مع فرقة بيتش بويز، ويحتسون البيرة، ويشوون قطع برغر عملاقة مع كافة المشهيات.

كان باكس أول من يلاحظ أن الكدمات قد اختفت من وجه بيبي، وأن أذنها المسحوقة والمكشوطة تعافت تمامًا، وأنها على ما يبدو قد شفت نفسها. وبينما كان ينظرون إليها بتوقير شديد، قالت «أجل، لدي نبأ هام، ولا أدري إلى أين سيصل هذا في قادم الأيام. ولكن بصرف النظر عن ذلك يا رفاق، إذا نظر إليّ أحدكم مجددًا قط مثلما تفعلون الآن، وكأنني شيء تعجز الكلمات عن وصفه، سأركل خصياتكم إلى أعلى أحشائكم. وأنتِ كذلك يا أمي».

تناولوا الطعام على سطح المنزل، وبحر المساء الداكن يقع غربًا، وتحدثوا حتى أضاءت السماء شرقًا، وهم لا ينفكون عن السمر، وكانت تجلس على حِجر باكس معظم الوقت، ولمست وجهه بين حين وآخر وهي في افتتان.

-129-

وجهتها التالية

لـم يكـن المنـزل الخشـبي الصغيـر قد هُدم من طرف الأشـخاص الذين اشـتروه مـن والـديَ بيبـي. كانـت قـد تخيلت دماره لتسـهيل الحبكـة والنبرة والأجـواء الخاصـة بمغامرتهـا المميتـة. بيد أن المنزل وقـف تقريبًا مثلما كان في صباها. بعد ظهر يوم ثلاثاء مشمس، وبعد أقل من يومين من خروج بيبي من المستشفى، قرعت جرس الباب، ولكن لم يرد أحد.

كان الملاّك الجدد أشخاصًا طيبين، وليسوا مثل آل غيلنهوكس المثيرين للريبة الذين ادعوا أنهم مستثمرون مصرفيون متقاعدون في العالم البديل الذي ابتكرتـه بيبـي. ولـن يمانعوا إذا ما اسـتمتعت بشـرفتهم لبعـض الوقت. كانت الكراسي الهزّازة قد اختفت، لكنها جلست على أحد كراسي الفناء وهي تنظر إلـى الشـوارع، حيـث كانـت أغصان أشـجار النخيل تصدر حفيفًا في النسـيم المتنقل، وبدت ثمار التين متلألئة مثل أوراقها - ذات اللون الأخضر الداكن مـن جهـة، والأخضـر الفاتـح من الجهة الأخرى - وتمايلـت في هذا الاتجاه وذاك في الهواء المقلب.

في الأسـابيع التي تلت موت القائد، كانت قد جلسـت هنا لكتابة بعض من قصصها بشأن جاسبر، وفي أحد الأيام الممطرة هنا، ظهر لها كلب يُدعى جاسـبر. وبقـدر مـا أحبت والديهـا، فلم يكونا قادرين علـى فهمها مثلما فعل القائـد، وإذا لـم تكـن قـد تخيلت في نهاية المطاف ظهور جاسـبر في حياتها، فلربمـا كانـت قـد تخيلـت عودة القائد إلى الحياة. كانت في حاجة ماسـة إلى كلب ذي مواصفات غامضة. بالنسبة إليها، لم تكن الطبيعة مجرد محركًا جميلاً

حرك القدر. لم تكن تؤمن بالمصادفات، وكذا كان القائد، ولا حتى الكلاب. ففي خضم استمتاعها المتواصل وقدرتها غير المحدودة على الحب، كانت الكلاب متوافقة أكثر مع حقيقة أكثر تعقيدًا.

سيبقى هذا المكان بمنزلة المنزل بالنسبة إليها، ولعلها ذات يوم هي وباكس يمتلكانه. المنزل هو حيث يكون القلب. كلا، الأمر ليس بهذه البساطة. المنزل هو حيث تكافح – في عالم لا تنتهي فيه المعاناة – حتى تصبح أفضل ما يمكنك بلوغه، ويصبح منزلاً في قلبك فقط إذا ما أمكنك ذات يوم النظر إلى الوراء والقول إنه – على الرغم من كافة أخطائك وإخفاقاتك – في هذا المكان المميز كنت قد بدأت – بشكل خافت – شكل روحك.

في يوم الأربعاء، جلست هي وباكس على كرسي في نقطة الألهام، وهما يراقبان البحر وهو يحمل إلى الشاطئ ملايين أشعة الشمس ويلقيها – بعد أن بردت وتحولت إلى زبد – على الرمال.

مع بقاء ثلاثة أشهر فقط على انتهاء فترة التجنيد الحالية، كان قد رتّب لقضائها في الولايات المتحدة، والمساعدة في تدريب المجندين الجدد. كان قد وهب القوات الخاصة عشر سنوات من عمره، وسيمنح بيبي ما تبقى من عمره.

وبينما حلقت تشكيلات البجع على ارتفاعات منخفضة على طول الساحل، وتفقدت طيور الطيطوي الشاطئ الرطب بحثًا عن الغذاء، وتراقصت الدلافين على بعد مئات الياردات داخل المياه، تحدثت هي وباكس عن ضرورة توخيها الحذر في استخدام مخيلتها. لم يكن هذا عالمها كي تغيره حتى إذا ظنت أنه بوسعها تغييره إلى الأفضل. وأخذًا في الاعتبار كيف يمكن أن تكون التبعات غير المقصودة لأفعالها كارثية، فمن الأفضل إبقاء شطحات خيالها على الورق فقط. وإذا ما أنجبا أطفالاً – وسيفعلان – وإذا ما هدد السرطان أو مرض بغيض ما حياة شخص عزيز عليها يومًا ما، سيتعين عليها المجازفة بخوض تلك التبعات غير المقصودة، مثلما قد تُضطر إلى فعل ذلك

فـي ظـروف اسـتثنائية أخـرى. بيد أن الفتيات المقدامات كـنّ دومًا حصيفات ومتعقلات. وقد تساءل باكس عما إذا كانت متفرّدة في هذا العالم أم أن جميع البشر امتلكوا قوى تخيل كامنة مثلها. ظنت أن الافتراض الأخير هو الحقيقي، لأنها لم تؤمن بأنها مميزة. قالت «إذا كنا قد أتينا إلى الوجود عبر التخيل مع كـون ممتلـئ بالعجائـب، فـلا بد أن القوة التي ستشـكل المسـتقبل بمخيلاتنا تسـري في مجرى دمائنا»، وكانت الدلافيت تتراقص في البحر اللامع بضوء الشمس.

في يوم السبت، كان من المقرر أن تتناول بيبي الغداء مع بوغو في مطعم فايـف كراونـز فـي كورونـا ديل مـار. وقد وصلت نصف سـاعة باكرًا وتركت سيارتها في موقف السيارات الخاص بالمطعم.

وعند تقاطع طريق السـاحل السـريع وجادة بوبي، وقفت تتذكر الفتاتين المراهقتيـن حيثمـا رأتهمـا آخر مرة؛ كلتاهما تسـمى هيرميون، واحدة شـقراء والأخـرى سـمراء، وهمـا تتجهـان جنوبًـا نحـو الناصية ثم غربًـا، ولم يكتمل جمالهمـا بعـد، وكانتـا تسـتندان إلـى بعضهمـا البعض وهما تضحـكان على الأرجـح ومفعمتـان بالحيـاة. لم تعرفهما بيبي سـوى لفترة قصيرة، ومع ذلك فقـد شـعرت بانجـذاب شـديد نحوهما بسـبب خفة ظلهمـا ورقتهما، ومزيج الثقافـة والبـراءة اللتيـن تتميـزان به. في ذلك اليـوم، وبعدما توارتا عن الأنظار في الضباب، قالت في نفسـها، هاك فتاتان في عداد الموتى، وقد دُهشـت من طريقة تفكيرهما العجيبة.

فهمت الآن المعنى الكامل لتلك الكلمات. لم تكن الفتاتان – ابنتا اثنين من عشاق هاري بوتر – تسيران نحو قاتلهما أو أي شيء مأساوي مشابه. بل كانتا ميتتين لأنهما لم تعيشا أصلاً، وإنما كانتا من إبداع مخيلة بيبي، التي لم تسحب نفسًا قط أو تطلق ضحكة واحدة يمكن لأي أحد سماعها.

مشـت الآن على طول جادة بوبي التي تظللها الأشـجار نحو البحر، ثم عـادت مجـددًا، وتجـاوزت المنازل التي شـاهدتها آلاف المرات. تمعنت في

كل منزل باهتمام أكبر من ذي قبل، وكان يحدوها بعض الأمل أن تلمح تلكن الفتاتين وهي تمر على نافذة ما، وتراهما وهما تسترخيان على كرسي قابل للطي، أو تخرجان من باب ما. كانت عملية البحث العابرة هذه ستنتهي مثلما انتهت عملية البحث عن آشلي بيل؛ مقابلة مع نفسها فقط. ومع ذلك، كان في داخلها بصيص أمل على أي حال، يشبه دواء الحزن، الذي يطغى على قلب كل كاتب. وطوال الساعات الضائعة والجهد المبذول في الكتابة على لوحة المفاتيح والتفكّر والاستنزاف العاطفي، فإن إبداعات الكاتب هي انعكاس للحقيقة، وعابرة مثل كافة أعمال البشرية في هذا العالم عبر الزمن.

لاحقًا، على الغداء، عندما تشاركت هذه الفكرة مع بوغو، قال «أجل، ولكن لديك، اليوم مثلي بالضبط. لديكِ اليوم، وهناك الوقت والكون بأسره اليوم. سيري على اللوح أيتها الجميلة».

-130-

إنها تسمع السقسقة من داخل بيض الطيور

وصل عند غروب الشمس إلى المتجر الواقع في خليج بالبوا، بالقرب من الرصيف الثاني. كان متجرًا لبيع المجوهرات يسمى «أحلامًا فضية» وبطبيعة الحال لم يكن كذلك قط. لم تكن نيوبورت بيتش قط موطنًا لصائغ فضة يسمى كيلسي فوكنر، ولم يكن هناك قط صبي يدعى روبرت وارين فوكنر أقدم على قتل أمه هنا. كانت المنطقة مشغولة بمتجر لبيع التذكارات باع أغراضًا مصنوعة من الصدف والخشب الطيني وقطع الزجاج المصقولة على هيئة أشكال متعرجة بفعل حركة البحر التي لا تتوقف.

كان بلا ماضي باستثناء ما كانت قد ابتكرته له، لكنه أُعجب بهذا الماضي، فقد بشّره بمستقبل أثار حماسه. يمكنه توثيق ماضٍ لنفسه بسهولة، ماضٍ خال من العيوب، ومصمم للصمود أمام التدقيق. بل إنه حتى لم يمانع في البدء من الصفر إن جاز التعبير. وكانت بحوزته فقط البدلة السوداء التي كان يرتديها والنقود التي كان يحملها عندما رآها آخر مرة. لكنه امتلك قوى ومواهب بعينها، وسيحقق تقدمًا سريعًا بلا شك.

بينما كانت السماء تشتعل غربًا وتغدو بنفسجية شرقًا، عاد إلى السيارة التي كان قد سرقها بعد ظهر اليوم. قاد السيارة إلى مقدمة الخليج، وقطع مسافة قصيرة جنوبًا في الطريق الساحلي السريع، ثم انعطف أخيرًا إلى داخل اليابسة، وترك السيارة في شارع جانبي كان قد اختاره سابقًا.

كان هذا عالمًا غنيًا بالكثير من الاحتمالات لرجل في مثل مظهره الأنيق وسحره وحدة ذكائه وعزيمته. ومع كامل الاحترام لقدرات التخيل الاستثنائية

الخاصة بها، كان عالم المرأة فقيرًا للغاية بالمقارنة مع هذا الواقع الغني. كان خطؤها هو أنها صنعت رواية أصبح فيها على دراية بحقيقة طبيعتها في العالم المتخيل اللذين تركاه خلفهما؛ فقد أدرك حينها الخطر الوجودي الذي يتربص به، والفرصة المتاحة.

في الغسق الأحمر والأزرق الداكنين، وبينما سار نحو ملهى ليلي راقٍ يقدم وجبات العشاء كان قد راقبه سابقًا، حذر نفسه من الاستهانة الآنسة بلير الشجاعة. كانت مخيلتها قوية لدرجة أنه بوسعها سماع سقسقة العصفور هو ما يزال صفارًا في البيض. وعاجلاً أو آجلاً، فقد تتساءل عما إذا كانت قد شرعت بابًا له بتخيل حفظ مغامرتها بالكامل على حاسوبيها في هذا العالم. وعندما تقتنع بهذه الفكرة، ستظل إلى الأبد تتحسب له و - إذا ما تعرفت عليه - وستطارده بكل ما أوتيت من قوة. سيحتاج إلى تغيير مظهره؛ تسريحة شعره بادئ ذي بدء؛ وكان تقليد هتلر تصرفًا طفوليًا على أي حال.

عندما يشيّد مقرًا له - عندما وليس إذا - وعندما يحين الوقت حتى يتحرك بجرأة وعلانية ضد أعدائه، وهم نفسهم في هذا العالم كما في العالم السابق، سيبدأ بحرق الكتب. وستكون كتب الجميلة بيبي في الدفعة الأولى. ستقدر المفارقة الساخرة. إذ كانت قد ابتكرته مع كره للكتب ومؤلفيها، ولسوف تحصد عواقب هذا الكره. ومثلما ستكون كتبها في الدفعة المحروقة الأولى، ستكون هي على متن القطار الأول نحو أو مخيم للموت.

كان الملهى الليلي - المطل على ميناء نيوبورت - يتألق بأقصى درجات اللونين الأزرق والرمادي الجميلة والخلابة، مع القليل من الأسود والفضي. وقد أطلت النوافذ الكبيرة على اليخوت الراسية والقوارب الصغيرة التي تبحر في الغسق بينما بدأت مصابيح الرصيف البحري والمنازل تلمع بشكل شاعري عبر ظلمة المياه.

كان الملهى كبيرًا ويعج بالحاضرين، وعلى ما يبدو أنه مكان لتجمع ميسوري الحال، لا سيما العزّاب لأسباب مختلفة، والمطلقين والمترملين

والذين لم يتزوجوا قط، والطامحين للعثور على رفيق من بين أولئك الذين يتشابهون معهم في المستوى الاجتماعي. طلب الحصول على جعة، متظاهرًا بعدم ملاحظة النساء اللاتي أظهرن اهتمامًا به، حتى رغم أنه وبشكل خارق للعادة قد صنف وقيم سمات كل واحدة منهن.

إن الوسيلة الأسرع لجني ثروة هي بناء شبكة علاقات مع أشخاص ذوي نفوذ، وللحصول على مكانة مرموقة في المجتمع لا بد من الزواج من امرأة تمتلك هذه الأشياء سلفًا. في العالم الآخر، تخيلته بيبي على أنه زعيم طائفة، ثم مليارديرًا شابًا يعمل في مجال التكنولوجيا الفائقة. ولكن عند الجمع بين المال والمكانة، سيتمكن من تحقيق أهدافه عبر السياسة بشكل أسرع، سواءً كان المرشح الذهبي أو مخادع بشكل ما؛ لم يكن يكترث أيهما.

يتعين أن تتصف المرأة بالجمال ولكن ليس بالإثارة الشديدة. ولا أن تكون خاطفة للأبصار أو متأنقة أو عصرية أو مثقفة. ويفضل أن تكون أكبر منه بكثير وغير جذابة للغاية، حتى تشعر بالإطراء والامتنان لاهتمامه بها. لمحها أمامه في حانة حدوة الحصان. كانت شقراء جميلة ربما تكون في الأربعين أو الثانية والأربعين من العمر. كانت قلادة الماس الرائعة وخاتم السبابة النفيس هما كل ما احتاجت إليه النسيمة كي تعلن عن أنها غير متزوجة وحجم ثروتها.

التقت أعينهما بضع مرات. وعندما بات الكرسي المجاور لها شاغرًا، نظرت إليه بجرأة و- بنظرة لعوب - أومأت نحو المقعد الفارغ. حمل جعته وانتقل إلى جانبها بثقة كبيرة. كان اسمها إليزابيث باريت رادكليف، لكن أصدقاءها كانوا ينادونها بيث.

إذا كان يرغب في تجنب لفت انتباه بيبي في السنوات القادمة - ومع تحوله إلى شخصية بارزة - لا يمكنه بطبيعة الحال أن يسمي نفسه روبرت فوكنر أو بيرك تيريزن. كان يحتاج إلى اسم بسيط ولكن لافت؛ اسم له جوهر، وقد خطر بباله اسم سابقًا. سيمر وقت طويل للغاية قبل أن يدرك أن هذا الاسم كان اقتباسًا حرفيًا من رواية بيبي الأول، الذي تخيلته يقرأها بعد أن

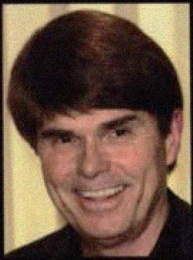
أصبحت هدفًا له في العالم الآخر الذي ابتكرته. قدّم نفسه إلى بيث، لكنه لم يكتشـف حينئذٍ – في هذه المرحلة المبكرة عندما كان بوسـعه تجنب الوقوع في الخطأ – الفخ الذي وقع فيه. لم تكن بيث عاشقة للكتب، وبما أن دائرتها الاجتماعية لم تكن من محبي الكتب أيضًا، دشـن الشـخص المعروف سـابقًا ببيرك تيريزن هويته الجديدة بوثائق رسمية لا يمكن إلغاؤها.

بعد بضع سنوات، كان يصعد سريعًا بذلك الاسم قبل أن يكتشف أيضًا أنه اسم مجرم مختل في خمس روايات لباتريشيا هاي سميث؛ اسمه توماس ريبلـي. بحلـول ذلـك الوقت، كانت صورته قد ظهرت في مقالات مادحة في العديـد مـن الصحـف، وتصدر اسـمه العناوين، وبات بوسـعه الافتراض أنها أصبحـت علـى درايـة بـه، وأنها تعرفت عليه حتى مع مظهره المختلف، مثلما ربما لم تكن ستكتشف أمره لو كان اسمه بوب سميث. كان عاجزًا عن تحديد إلى أي حد يجدر به القلق إلى حين أن استيقظ فزعًا في نفس تلك الليلة بسبب كابوس ينطوي على قاتلين مأجورين. وبعد أن قفز من فراشه وهرع إلى مكتبه المنزلي، بحث في الإنترنت عن صورة لزوج بيبي بلير، الذي كان عنصرًا في القوات الخاصة. شعر ريبلي بالفزع حين اكتشف أن قرين كاتبة شهيرة كهذه يبدو أنه لم تُلتقط صورة له قط. كما كانت صورة باكستون ثورب مفقودة من الأرشيف العام الخاص بعناصر القوات الخاصة السابقين. وماذا عن الرجال الذين خدم معهم، وكانوا جميعًا محاربين مخضرمين في العمليات الخاصة؟ كيف بدا شكلهم؟

بـدون أن يـدرك حقًـا كيف وصل الحـال به إلى هنا، وجد توماس ريبلي نفسـه لدى نافذة، وهو ينظر إلى ميناء نيوبورت وإلى رصيفه الخاص ومرورًا علـى يختـه الرائـع، نحـو انعـكاس ضـوء القمر المتشـتت على سـطح المياه الداكنـة. كان ضـوء القمـر وحـده يتموج. وبدا كل شـيء في مكانه، وسـيبقى كذلك حتى...وقف هناك ينتظر بمخيلة معذبة.

آشلي بيل

دين كونتز



بيبي بلير في الثانية والعشرين من عمرها، في عمر الزهور يبلغها أطباؤها أنها تُحتضر، ولكن وبعد يومين تشفى بشكل عجائبي، وتصبح مهووسة بفكرة أنها شفيت لأن قدرها أن تنقذ شخصاً آخر فتندفع بروح جامحة ومقدامة ومرحة لإنقاذ آشلي لكن يتبين أن الفكرة خطيرة ؛ فأثناء بحثها عن آشلي بيل، وهي تتنقل عبر المناظر الطبيعية في كاليفورنيا الجنوبية التي تُظهر أغرب وأقبح ما فيها، تهوي بيبي في عالم من الجريمة والمؤامرة، مقتفية أثر لغز يزداد خطورة وتعقيدًا عند كل منعطف.

بحبكة فريدة من نوعها، وإثارة غير محدودة، تعتبر رواية آشلي بيل إنجازًا مذهلاً سيأسر قلوب عشاق الغموض النفسي المظلم، ومحبي أدب الإثارة والتشويق، والمغامرات التي تجمع بين الأجواء الكلاسيكية والحديثة في قالب واحد. كُتبت الرواية بشكل بديع وشاعري، الأحداث متسارعة للغاية. إنها أكثر الروايات تشويقًا في العقد الأخير.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN: 978-614-01-2466-0
9 786140 124660